التراث الروحي

عِظات في المزامير

للقدّيس أَوْغُسْطينُس

الجزء الأوّل

المزامير (١ - ٣٦)

نقلها إلى العربيّة وضبط حواشيها

سَعْدالله سَميح جحا

دار المشرق - بيروت

التراث الروحي

عِظات في المزامير للقدِّيس أَوْغُسْطينُس

الجزء الأوّل

المزامير (١ - ٣٦)

نقلها إلى العربيّة وضبط حواشيها
سَعْدالله سَميح جحا

دار المشرق - بيروت

مقدّمة

يُجمع معلّمو الكنيسة على أنّ القدّيس أوغسطينُس يحتّل المقام الأوّل بين الآباء. ولا نظير له في القدرة على شرح الكتب المقدّسة وتعليمها، والربط بين رموزها وحقائقِها، لما يتمتّع به من عقل نيّر وموهبة نادرة في البلاغة والإقناع. وعلى مدى أجيالٍ طويلة ما برح ملافنة الكنيسة ينهلون من معين عبقريّتِه الفذّة. ولا شكّ في أنّ أسقف هيبّون ضرورة حتميّة لكلّ مَنْ أراد التعمّق في معرفة الحقائق المسيحيّة. وعلى الذين يرغبون في تعلّم الخطابة والوعظ والكرازة وفنّ الإقناع أن يُطالعوا القدّيس أوغسطينُس.

بالإضافة إلى العظات التقليديّة التي كان القدّيس يُلقيها في مناسبات الأعياد السيّديّة وأعياد العذراء مريم والرسل والشهداء والقدّيسين، حتّى يكاد ألّا يخلو يومٌ أو ليلةٌ من عظةٍ؛ فإنّه خصّص وقتًا وافرًا وبذل جهدًا مضنيًا، حين تولّى شرح **كتاب المزامير**، لما رأى فيه من رموزٍ نبويّة ومن بلاغة أدبيّة تتوافق مع أسلوبِه، وبخاصّة، لأنّه رأى في داود، الملك القدير والمحبوب والمتألّم، صورةَ يسوع الابن الحبيب، القدير والمتألّم، والملك الموعود من نسل داود.

لا تبرح الكنيسة منذ نشأتِها تترنّم بمزامير داود. ولا يزال الملحّنون يتفنّنون في ابتكار أجمل الألحان لكلماتٍ تطرب لها القلوب قبل الآذان. إلّا أنّ أعذب الألحان وأبهاها وأروَعها تبقى تلك التي كتبَها

القدّيس أوغسطينُس تأمّلًا ووعظًا وتعليمًا. كان المؤمنون يبدأون بترنيمِها ثمّ ينصرفون إلى التمتّع بشرحها ينساب من فم القدّيس إلى آذانِهم دررًا، كان فهمُها مُغلَقًا على عقولِهم وقلوبِهم.

وإلى اليوم، لا نزال نرنّمها، في صلواتِنا الطقسيّة كلّها، غير أنّه يستحيل علينا، في كثيرٍ من الأوقات فهم رموزها وتقصّي معانيها ومراميها. ولا بدّ لمن رغب في فهم المزامير بكلّ ما تنطوي عليه من روعة إلهيّة، من أن يقرأ هذا المؤلَّف الأوغسطينيّ الذي يحمل عصارة فكر لاهوتيّ عظيم أُعطي الفهم والعلم والتبصّر والتحليل، ويحتلّ المكانة الأولى بين آباء الكنيسة.

قليلة هي أعمال القدّيس أوغسطينُس التي نُقلَت إلى الآن إلى العربيّة، وأبرزها هي التي نقلَها المعلّم المرحوم المونسنيور يوحنّا الحلو. وكان لي بفضله، على مدى نحو نصف قرنٍ من مرافقتِه، شرف التعرّف إلى هذا الملفانِ عن طريق العديد من مؤلّفاتِه. وفي سنواتِه الأخيرة الأربع، بعد اختياره التقاعد، في أوائل العام ٢٠٠٦، والانصراف إلى التأليف والترجمة، عاونته بصورة شبه مستمرّة، في تنقيح عددٍ من ترجماتِه ومؤلّفاتِه. وقد شجّعني على متابعة العمل على ترجمة ما كان يُخطّط هو لترجمتِه.

وأتيح لي، بفضل الأب الصديق مارون العمّار رئيس المدرسة الإكليريكيّة والمطران الجديد على أبرشيّة الجبّة، أن أتعرّف إلى الأب العلّامة بولس الفغالي الذي اطّلع على ما نشرته لي دار المشرق للآباء اليسوعيّين، وشجّعني على ترجمة عظات القدّيس أوغسطينُس في المزامير.

عندما شرعتُ في المهمّة التي ارتضيتُها، وجدتُ نفسي أمام تحدٍّ

صعب، نظرًا إلى ضخامة العمل، وإلى ما يتطلّبه من بحثٍ وتدقيق. فأكببت على جمع كلّ ما يمكن أن يُساعدني على إنجازه من وثائق، ذكرتُها في آخر كلّ جزءٍ من الأجزاء الستّة التي تضمّ العظات في المزامير المائة والخمسين، ويقع كلّ جزءٍ منها في نحو ستّمائة صفحة. وقد حرصتُ الحرص الشديد على أن أكون أمينًا في نقل المعنى الدقيق الذي أراد القدّيس أوغسطينُس أن يوصلَه بلغتِه اللاتينيّة إلى مستمعيه.

وإلى الآن أنجزتُ نقل «العظات في المزامير»، من المزمور الأوّل إلى المزمور التاسع والسبعين، ووضعتُهما في ثلاث مجلّدات. وها أنذا أدفعها تباعًا إلى قرّاء العربيّة الراغبين في الاطّلاع على فكر آباء الكنيسة الأوّلين. وإنّي، بانتظار إنجاز ما تبقّى، لفي سباقٍ مع العمر.

سعدالله سميح جحا

٢٠ نيسان ٢٠١٣

عظة في المزمور الأوّل

الإنسان السماوي والإنسان الأرضي - الأوّل يسوع المسيح، والثاني آدم الخاطئ - يسوع المسيح الذي تفادى الأشراك التي كلّفت آدم الموت، سيكون له في الكنيسة نسلٌ هم القدّيسون - وآدم سيكون نسلُه الأشرار.

١ - «طوبى للرجل الذي لم يمضِ في مشورة الإشرار» (مزمور ١ : ١). هذه الطوبى تنطبق على يسوع المسيح، الإنسان السماوي. «طوبى للرجل الذي لم يمضِ في مشورة الإشرار»، مثل آدم الأرضيّ الذي سمع لامرأتِه التي أغوتها الحيّة، وازدرى وصيّة الربّ (تكوين ٣ : ٦). «وفي طريق الخطأة لم يتوقّفْ». والحال، فإنّ يسوع جاء في طريق الخطيئة، فوُلِد كالخطأة؛ لكنّه لم يتوقّف في تلك الطريق، لأنّ مفاتن العالم لم تُغوِه. «وفي مجلِسِ القذارة لم يجلِس»، لأنّه لم يشأ أن يكون له في الأرض عرشٌ مزهوّ، عرش القذارة الحقيقيّ. فكما أنّ حُبّ التسلّط وشهوة المجد الباطل تتسلّل إلى كلّ روحٍ إنسانيّة، تقريبًا، كذلك الطاعون هو ذلك الوباء الذي ينتشر فيُصيب كلّ الناس أو جلّهم. إنّ مجلس القذارة أقرب إلى العقيدة الفاسدة التي يجتاح تعليمُها ويرعى كالآكلة (٢ طيموتاوُس ٢ : ١٧). لنتأمّل بتدرّج هذه الكلمات الثلاث: «مضى، توقّف، جلسَ». مضى الإنسان عندما ابتعد عن الله؛ وتوقّف عندما استهوته الخطيئة؛ وجلس عندما تصلّب في كبريائه ولم

يكن بوسعه الرجوع، من دون أن يحظى بمُحرِّرٍ، هو ذاك الذي لم يمضِ في مشورة الشرّير، وفي طريق الخطأة لم يتوقَّف، ولم يجلِس في مجالس القذارة.

٢ - «بل في شريعة الربّ هواه، وفي شريعتِه يهذُّ نهارًا وليلًا» (١ : ٢). يقولُ الرسول: الناموسُ لم يُشرَع للبارّ (١ طيموتاوس ١ : ٩). لكنّ السلوك في الناموس غير الرضوخ للناموس. السلوك في الناموس هو تطبيقه، وتلك حرّيّة. والرضوخ للناموس هو الخضوع لنيره، وتلك عبوديّة. والناموس المكتوب الذي يُفرَض على العبد، غيرُ الناموس الذي يقرأه في قلبِه من ليس بحاجةٍ لناموسٍ مكتوب. «من يهذُّ في الشريعة نهارًا وليلًا» هو من يتأمّلها بلا انقطاع، أو في الفرح (النهار) وفي الشدّة (الليل). في الفرح قال الإنجيليّ: «رأى إبراهيم نهاري فابتهج» (يوحنّا ٨: ٥٦)؛ وفي الشدّة قالَ النبيّ: «وفي الليل، أيضًا، تعظُني كليتاي» (مزمور ١٥ : ٧).

٣ - «فيكون كالشجر المغروس على مجاري المياه» (١ : ٣)، أي بالقرب من **الحكمة** التي تنازلت واتّحدت بالإنسان لخلاصِنا، لكي يكون الإنسان شجرةً مغروسةً على مجاري المياه؛ وعلى هذا النحو نفهم كلام المرنِّم: «نهرُ الله امتلأ مياهًا» (مزمور ٦٤: ١٠). بوسعنا أن نفهم بالمياه، الروح القدس الذي قيل عنه: «هو الذي يُعمّدكم بالروح القدس» (متّى ٣: ١١)؛ وكذلك: «إنْ عطشَ أحدٌ فليُقبِل ويشربْ» (يوحنّا ٧: ٣٧)؛ وأيضًا: «لو كنتِ تعرفين عطيّة الله، ومن هو الذي يسألك ليشرب، لسألتِه أنتِ فيُعطيك ماءً حيًّا، من يشرب منه يرتوي ولا يعطشُ أبدًا، ويصير فيه ينبوع ماءٍ يتفجّر إلى الحياة الأبديّة» (راجع يوحنّا ٤ : ١٠-١٤). كما بوسعنا أن نفهم بعبارة «على مجاري المياه»

سقوط الشعوب في الخطايا؛ ففي الرؤيا، تدلّ المياه على الشعوب (رؤيا ١٧ : ١٥)، والمجاري، على السقوط الذي يُلازم الخطيئة. فالشجرة، إذًا، هي الربّ يسوع الذي يمتصّ المياه الجارية - أو الشعوب الخاطئة - بجذورِ تعاليمه. «الذي يؤتي ثمرَه»: أي الذي يُنشئ كنائس. «في أوانِه»: أي عندما يتمجّد بقيامتِه وصعودِه إلى السماء. فبعد أن أرسَل الروح القدس إلى الرسُل الذين ثبّتَهم في الإيمان به، وأطلقَهم في الأمم، جنى الكنائسَ ثمرًا. «وورقه لا يذبُل»، لأنّ كلمتَه لن تكون بلا فائدة: «كلّ بشرٍ عشبٌ، وكلّ مجده كزهر الصحراء. العشب يبس وزهره سقط، وأمّا كلمة إلهِنا فتبقى إلى الأبد» (أشعيا ٤٠ : ٦-٨). «وكلّ ما يصنعُه ينجَح»: أي كل ما تحملُه تلك الشجرة من ثمرٍ وورق، ترمز إلى الأفعال والأقوال.

٤ - «ليس كذلك الأشرار، لكنّهم كالغَفى الذي تُذرّيه الريح (عن وجه الأرض)» (١ : ٤) والأرض هنا هي الميراث الأبديّ، ميراث الله الذي كتب عنه: «الربّ حظّ قسمتي... وحبالُ التقسيم وقعت في أراضي خصبٍ، وميراثي جليل» (مزمور ١٥ : ٥-٦). وفي مكانٍ آخر: «إنتظر الربّ واحفظ طريقه، فيرفعَك لترث الأرض» (مزمور ٣٦ : ٣٤)؛ وأيضًا: «طوبى للودعاء، فإنّهم يرثون الأرض» (متّى ٥ : ٤). الأرضُ اللامنظورة للإنسان الداخليّ، بمثابة الأرض المنظورة للإنسان الخارجيّ، التي تعطيه الطعام والمدى. والريح، أو الكبرياء التي تنفخ، تطرد الشرّير عن وجه هذه الأرض اللامنظورة. أمّا الذي يُسكِره فيض بيت الله، ومن نهر لذّاته يرتوي، فيقي نفسَه من الكبرياء ويقول: «لا أصِلْ إلى قدم المتكبّر». (مزمور ٣٥ : ٩ و١٢). ومن هذه الأرض أيضًا، أقصت الكبرياء ذاك الذي قال: «أرفع عرشي فوق كواكب الله... أصعد فوق أعالي السحب وأكون شبيهًا بالعليّ» (أشعيا ١٤ :

١٣ و١٤). وأخيرًا، من هذه الأرض طَردت الكبرياء ذاك الذي تجرّأ فأكلَ من الثمرة المحرّمة، لكي يُصبح شبيهًا بالله، وأراد أن يختبئ من وجه الربّ (تكوين ٣: ٦-٨). وإليكم كلمات من الكتاب المقدّس تُخبرُنا بأنّ هذه الأرض هي ميراث الإنسان الداخليّ، وأنّ الكبرياء أقصت منها إنسان الخطيئة: «لماذا يتكبّر التراب والرماد؟... إطّرحَ أحشاءَه مدّة حياتَه» (إبن سيراخ ١٠: ٩-١٠). من هنا بوسعنا أن نقول بحقّ إنّه اطّرَح نفسَه بنفسِه.

٥ - «لذلك لا يقوم الشرّير للقضاء» (١: ٥) لأنّه يُكنَس من الأرض كحفنةٍ من تراب. وبحقٍّ يقول النبيّ، هنا، إنّ المتكبّر يُحرَم ممّا يطمح إليه، أي من سلطان القضاء. ويُفهِمنا هذا القول، على نحوٍ أفضل، في الجملةِ التي تلي: «ولا الخطأة في جماعة الصدّيقين». جرت العادة، في الكتاب المقدّس، أن يُفسِّر المقطعُ الثاني من الآية المقطعَ الأوّل، وعليه نفهم أنّ «الشرّير» هو الخاطئ وأنّ «القضاء» جماعة الصدّيقين. أو على الأقلّ، إذا كان ما يُميّز الشرّير عن الخاطئ هو أنّ كلّ شرّيرٍ خاطئ، وكلّ خاطئ ليس بشرّير، فـ«لن يقوم الشرّير للقضاء»: أي أنّه يقوم، لكن لا للقضاء، لأنّه سبق أن أُدين بعقابٍ لا يرقى إليه شك. «ولا الخطأة في جماعة الصدّيقين»: لا ليَقضُوا بل ليُدانوا؛ بحسب ما قيل عنهم: «وهذه النار سوف تمتحن عمل كلّ واحد، فمن بقي عملُه الذي بناه على الأساس، نال أجرَه، ومن احترق عملُه بالنار، كان من الخاسرين؛ أمّا هو فسيخلُص، لكن كمن يخلص بالنار» (١ قورنتُس ٣: ١٣-١٥).

٦ - «فإنّ الربّ عالمٌ بطريق الصدّيقين» (١: ٦) كأن تقول: «إنّ الطبّ عالمٌ بالشفاء، لا بالمرض»، على أنّ المرض نفسَه معروفٌ في

فنون الطبّ؛ وبالمعنى نفسِه نستطيع أن نقول إنّ الله عالمٌ بجنس الصدّيقين، لا بجنس الأشرار؛ وهذا لا يعني أنّ الله يجهلُ شيئًا ما، ولو انّه يقول في الخطأة: «إنّي لا أعرفُكم» (متّى ٧: ٢٣). «أمّا طريق الأشرار فتَهلِك». هذه العبارة تقالُ بالمعنى نفسِه الذي نقول فيه: الربّ لا يعرف طريق الشرّير. لكنّنا، بهذا، نرى بوضوح أنّ ما يجهلُه الله يَهلِك، وما يعلمه يدوم إلى الأبد. أن تكون معلومًا لدى الله، فأنت موجود، وأن تكون مجهولًا، فأنت لا شيء. والحال فإنّه قال: «**أنا هو الذي هو**» و«**هو** أرسلني» (خروج ٣: ١٤).

عظة في المزمور الثاني

الكنيسة ومضطهدوها

يبغي الأشرار أن يخلعوا نير الربّ ومسيحَه. لكنّ الربّ ثبّت المسيح رأسًا لملكوتِه، أي للكنيسة التي ستعمّ العالَم. ثقوا بتلك القدرة، واجعلوا من الإيمان ملجأً يقيكم انتقامَه.

١ - «لماذا ارتجّت الأمم وهذَّت الشعوب بالباطل؟ قام ملوك الأرض والعظماء ائتَمروا معًا على الربّ وعلى مسيحِه» (مزمور ٢ : ١-٢). يقول صاحب المزامير: ما الفائدة؟ باطلًا يفعلون. لأنّ هؤلاء المؤتمِرين لم يبلغوا غايتهم التي إليها يسعَون إليها، وهي القضاء على المسيح. إلى مضطهدي المسيح هؤلاء تُشيرُ أعمالُ الرسل (٤ : ٢٦).

٢ - «لنقطَع رُبُطَهُما، ونُلقِ عنّا نيرَهُما» (٢ : ٣). أرى أنّ النبيّ يقصد بهذه الكلمات الملوك والعظماء الذين قالَ عنهم إنّهم كانوا باطلًا يأتمِرون. لكن، يمكن تأويلُها أيضًا بمعنى: فلنجتهِدْ في تجنّب واجباتنا، ونلقِ عنّا نير الديانة المسيحيّة.

٣ - «الساكن في السماوات يضحك والسيّد يستهزئ بهم» (٢ : ٤). الفكرة نفسُها تتكرّر مرّتَين. فبدلًا من عبارة «الساكن في السماوات»، يقول المرنّم «السيّد»، وبدلًا من «يضحك» يقول: «يستهزئ». لكن، فلنحترِز ألّا نفهم هاتين العبارتَين على طريقة البشر، كما لو انّ الربّ يبسط شفتيه ليضحك، ويزم منخرَيه ليستهزئ. بل ينبغي

أن نفهم بهما السلطان الذي يمنحه لمختاريه بأن يقرأوا المستقبل، ويرَوا اسم المسيح يُحمَلُ إلى آخِرِ إنسان، ويسود على الشعوب كلّها، وأن يُدركوا بهذا كم هي باطلةٌ أحابيل المنافقين. والسلطان الذي يكشف لهم هذا المستقبل هو ضحك الله منهم واستهزاؤُه بهم. «الساكن في السموات يضحك (منهم)». إذا كنّا نفهم بالسموات أنفُس الصدّيقين، فبها يضحك الربّ العالِم بما سيحدُث، من الأحابيل الباطلة، ويستهزئ بها.

٤ - «حينئذٍ يُكلّمهم بسخطِه، وبغضبِه يُروّعُهم» (٢: ٥). لكي يؤكّد لنا داود، بطريقة فُضلى، على مفعول هذه العبارة، يقول: «يُروّعُهم»؛ فيكون غضب الله مماثلًا لسُخطِه. لكنّ غضب الربّ الإله، ينبغي ألّا يُفهم بأنّه صادرٌ عن اضطرابِ الروح؛ إنّه صوت العدالة الهادر في كلّ خليقة خاضعة لتكون في خدمتِه. لأنّ علينا أن نتذكّر ما كتب سليمان ونؤمنَ به: «لكنّك أيها السلطان القدير تحكم بالرّفق وتدبّرنا بإشفاق» (حكمة ١٢: ١٨). غضبُ الله، إذًا، هو تلك الحركة التي تختلجُ في روحٍ تعرف شريعة الله، عندما ترى الخاطئ ينتهكُ تلك الشريعة؛ إنّه غضبُ الأرواحِ البارّة الذي يقضي مسبقًا على ذنوبٍ كثيرة. وغضب الله هذا يُمكن أن يُقالَ عنه أيضًا إنّه الظلمات التي تُطبِقُ على نفسٍ كلّ من ينتهك شريعة الله.

٥ - «إنّي مسحتُ ملكي على صهيون جبلِ قدسِه. لأخبِرَنَّ بحُكم الربّ» (٢: ٦). هذه الكلمات تنطبق، بالتأكيد، على ربّنا يسوع المسيح. إذا كان **صهيون** يعني لنا ولكثيرين **التأمّل**، فإنّ خيرَ معنى له هو **الكنيسة** التي ترفع روحَها، كلّ يوم لتتأمّل، معجزات الله، بحسب قولِ الرسول: «نرى ونعكسُ مجدَ الربّ بوجهٍ مكشوف» (٢ قورنتُس ٣:

١٨). فإليكم معنى الآية: إني مسحتُ ملكي على الكنيسة المقدّسة. وقد دُعِيَت هنا بالجبل لعلوها ورسوخِها. «أنا الذي مسحتُه ملكًا»: أنا الذي كان يسعى الأثمة إلى قطعِ رُبُطي وإلقاء نيري. «لأخبرَنَّ بحُكم الربّ»: من ذا لا يفهم هذا الكلام، وهو يرى عملَ كلّ يوم؟

٦ - «قال لي: أنت ابني، أنا اليوم ولدتُك» (٢: ٧). بوسعنا أن نرى في عبارة «أنا اليوم ولدتك» نبوءة عن اليوم الذي ولِد فيه يسوع المسيح بالجسد. لكن، لمّا كانت كلمة «اليوم» تُشير إلى اللحظة الآنيّة، ولمّا لم يكنْ في الأبديّة لا ماضٍ انقضى، ولا مستقبل لم يأتِ، بل حاضرٌ دائم، لأنّ كل أبديٍّ دائم، فإنّ عبارة «أنا اليوم ولدتُك» تُفهَم بالمعنى الإلهيّ الذي يُطبّقه الإيمان الكاثوليكيّ المستنير، في إعلان الولادة غير المنقطعة لقدرة الله وحكمته، أي لابنه الوحيد.

٧ - «سلني فأعطيَك الأمم ميراثًا» (٢: ٨). العبارة موجّهة إلى **الكلمة** الذي صارَ إنسانًا، وقدّم ذاتَه ذبيحةً بدلًا من كلّ ذبيحة، و«يشفع لنا» (رومة ٨: ٣٤)؛ فإلى يسوع المسيح، في تدبير التجسّد الزمنيّ الذي خُصَّت به البشريّة، تتوجّه كلمة «سلني». أجل، سلني أن تتوحّد الشعوب كلّها تحت اسم المسيح، لكي يُفتَدَوا من الموت، ويصيروا مُلكًا لله. «فأعطيَك الأمم ميراثًا»، لكي تمتلِكهم للخلاص، ويُعطوك ثمارًا روحيّة. «وأقاصي الأرض ملكًا لك». العبارة تتكرّر. «أقاصي الأرض» هي الأمم، لكن بعبارة أوضح، لكي نفهمَ بها كلَّ الأمم. كما أنّ المرنّم استعملَ كلمة «المُلك» بدلًا من «الميراث».

٨ - «ترعاهم بعصًا من حديد»، بالعدالة الصارمة. «وكإناء خزّافٍ تحطّمُهم» (٢: ٩). أي تحطّم فيهم الشهوات الأرضيّة، وهموم الإنسان العتيق النجِسة، وكلّ ما جناه ورسّخه في ذهنِه من حمأة

الخطيئة. «فالآن، أيها الملوك تعقّلوا» (٢ : ١٠) «الآن»، أي بعد أن صارت لكم حياةٌ جديدة، وحطّمتم رداء الوحل، آنية الضلال الجسديّة، ميراث الحياة الماضية؛ أجل، «تعقّلوا، أنتم أيها الملوك»، لأنّ بوسعِكم، من جهة، أن تسيطروا على كل ما فيكم من دناءة وحيوانيّة، ومن جهة أخرى، أن تحاربوا، لا كمن يلطم الريح، بل بقمع أجسادِكم واستعبادِها (راجع ١ قورنتُس ٩ : ٢٦-٢٧). «واتّعظوا يا قضاة الأرض». وهذا أيضًا تكرار لما سبق. «إتّعظوا» بدلًا من «تعقّلوا»؛ و«يا قضاة الأرض» بدلًا من «أيّها الملوك». يقصد النبيّ أنّ على الإنسان الروحيّ أن يحكم الأرض؛ لأنّ ما نقضي به نحنُ سفليّ، وكلّ ما هو أدنى من الإنسان الروحيّ يُسمّى أرضًا، لأنّه ارتضّ من السقطة الأرضيّة.

٩ - «أعبدوا الربّ بخشية» (٢ : ١١). في هذا تحذيرٌ من الكبرياء التي ألصقتها بنا عبارة: «أيها الملوك. . . يا قضاة الأرض». «وابتهجوا برعدة». «إبتهجوا» كلمة وُضِعت في مكانها المناسب لتُخفّف ما أثقلته علينا عبارة «أعبدوا الربّ بخشية». لكن، لئلّا تذهب بنا البهجة إلى حدّ الجسارة، يُضيف النبيّ: «برعدة»؛ وهذا ما يدعونا إلى الحفاظ، بعناية ويقظة، على مبدأ التقوى. وعبارة: «والآن، أيها الملوك تعقّلوا»، يمكن أن تُفهَم أيضًا على هذا النحو: أمّا الآن وقد أُقِيم ملكًا عليكم، فلا تغتمّوا يا ملوك الأرض، كما لو اعتُدِيَ على حقوقكم، بل تعقّلوا واتّعظوا، فإنّه مفيدٌ لكم أن تحيَوا تحت وصاية من يمنحكم الفهم والعلم. ففائدتكم منه ألّا تعودوا فتحكموا جزافًا، بل أن تعبدوا ربّ الكلّ بخشية، وتبتهجوا بانتظار سعادةٍ لا لبسَ فيها، محاذرين ومحتاطين من الكبرياء التي تُسقطكم منها.

١٠ - «إعتصِموا بالعلم لئلّا يغضب الرّب، يومًا، فتضلّوا طريق

christianlib.com

البِرّ» (٢: ١٢). هذا ما سبق أن قاله النبيّ: «تعقّلوا واتّعظوا»، لأنّ التعقّل والإتّعاظ يعني الإعتصام بالعلم. والإعتصام يشير بوضوح كافٍ إلى ملجأ وحصن ضد كلّ ما يمكن أن يطرأ إن لم نرتضِ الإتّعاظ. وعبارة «لئلّا يغضبَ الربّ يومًا» تتضمّن بعض الشكّ، لا في رؤية النبيّ الذي يَعلَمُها علم اليقين، بل في عقول الذين يُحذّرهم؛ لأنّ الذين لا يمتلكون رؤية واضحة عن الغضب، لا يُفكّرون فيه عادةً إلّا بشيءٍ من الشكّ. هؤلاء عليهم أن يقولوا: «فلنعتصم بالعلم لئلّا يغضب الربّ فنضلَّ طريق البرّ»[١]. سبق أن عرضنا أعلاه (الفقرة ٤) كيف «يغضب الربّ». «فتضلّوا طريق البِرّ»: إنّه لعقابٌ كبير يخشاه الذين سبق أن ذاقوا حلاوة البِرّ. فمن ضلّ عن طريق العدل، تاه بائسًا في سُبُلِ الظلم.

١١ - «لأنّه عن قليلٍ يضطرم غضبُه. فطوبى لجميع المعتصمين به». أي عندما ينفجرُ غضب الإنتقام المعدّ للخطأة والمنافقين، فإنّ المعتصمين بالربّ لا يسلمون فحسب، بل يكون لهم فيه الثبات والرفعة إلى عرشٍ أسمى. لا يقول النبيّ: «لأنّه عن قليلٍ يضطرم غضبُه، والمعتصمون به يكونون في مأمن»، كما لو أنّهم تجنّبوا الإنتقام فقط؛ بل يدعوهم «طوباويّين»، وهذا ما يُعبّر عن قِمّة الخيور وأسماها. أمّا تعبير «عن قليل»، فيعني، برأيي، للخطأة، أمرًا ما مفاجئًا لا يتوقّعونَه إلّا في مستقبَلٍ بعيد.

---

(١) في العبريّة: נַשְּׁקוּ-בַר منهم من نقلَها: كرِّموا الإبن (בַר = الإبن) ولفظة בַר تعني أيضًا: البارّ والصفيّ فيكون معنى العبارة صيروا أبرارًا، أو اتّعظوا واصطلحوا، أو عودوا أتقياء. وفي السبعينّة: δράξασθε παιδείας أي إعتصموا بالعلم. وتعني أيضًا: عانقوا الصلاح أو اتّعظوا واصطلحوا. παιδείας تعني العلم والمعرفة كما تعني التأديب والعقاب. وبالمعنى نفسِه في الفولغاتا: adprehendite disciplinam.

عظة في المزمور الثالث

داود بمواجهة أبشالوم، أو يسوع بمواجهة يوضاس

تقهرُ الكنيسة مضطهِديها، والنفسُ المسيحيّة شهواتِها.

١ - «مزمور لداود عندَ فرارِه من وجه ابنه أبشالوم» (٣: ١). إنّ كلمات المزمور التي تقول: «أنا اضَّجعتُ ونمت، ثمّ استيقظتُ لأنّ الربّ يُسندُني» (٣: ٦) تجعلُنا نظنّ أنّ المقصود بها شخص المسيح. ذاك أنّها تتلاءم مع آلام الربّ وقيامتِه، أكثر منها مع ذاك الحدَث الذي يرويه التاريخ عن داود حين فرّ من أمام وجه ابنه أبشالوم الذي تمرّد عليه (٢ ملوك ١٥: ١٤-١٧)؛ كما تتلاءَم مع ما كُتِب عن تلاميذ المسيح: «لا يصوم بنو العرس ما دام العروس معهُم» (متّى ٩: ١٥). لا عجب في أن يكون ابنٌ آثم صورةً لذاك التلميذ الآثم الذي خان معلِّمَه. من وجهة النظر التاريخيّة، صحيحٌ أنّ بوسعِنا القول إنّ المسيح فرّ من أمامِ التلميذ، بعد أن رحل، فاعتزل إلى الجبل مع الآخرين؛ لكن، بالمعنى الروحيّ، عندما ابتعد ابن الله، قوّة الله وحكمتُه، عن روح يوضاس، تملّكها الشيطان للحال، كما كُتِب: «دخل الشيطان في قلبِه» (راجع يوحنّا ١٣: ٢)؛ بوسعنا أن نقول إنّ المسيح فرّ من وجه يوضاس؛ وهذا لا يعني أنّ المسيح هُزِم أمام الشيطان، بل أنّ الشيطان تملّك قلب يوضاس بعد خروج المسيح. إنّ تخلّي يسوع هذا، هو برأيي، ما يُسمّيه النبيّ هروبًا، لأنّه حصل على الفور. وهذا أيضًا ما

christianlib.com

يُشير إليه كلام الربّ: «ما أنت فاعلُه، فافعلْه عاجلًا» (يوحنّا ١٣: ٢٧). ويحدُث أن نقول بلغةٍ عاديّة: هذا فرّ منّي، عندما يغربُ شيءٌ عن بالنا، كما نقولُ عن علّامة إنّه لا يفوتُه شيء (لا يُفلِت منه شيء). وهكذا فرّت الحقيقة من روح يوضاس عندما كفَّت عن إنارتِها. **أبشالوم** كلمة عبريّة تعني **سلام أبيه**. يبدو عجيبًا، بلا شكّ، أنّ أبشالوم الذي شنّ، بحسب تاريخ الملوك، حربًا على أبيه، وأنّ يوضاس الذي يدعوه العهد الجديد بالخائن الذي سلّم الربّ، يُمكن أن يُدعى سلام أبيه. غير أنّ القارئ اللبيب يعرف أنّه كان في تلك الحرب سلامٌ في قلب داود تجاه ذلك الإبن، وأنّه بكى موتَه بكاءً مرًّا، وراح ينتحب ويقول: «يا بُنيّ أبشالوم، يا ليتني متُّ عوَضًا منك» (٢ صموئيل ١٨: ٣٣). وعندما تُصوّر لنا رواية العهد الجديد الصبرَ الرائع الذي تحلّى به الرّبّ عندما ارتضى أن يستضيف يوضاس، وهو لا يجهلُ نواياه، على العشاء الذي أعطى فيه تلاميذه جسدَه ودمه تحت أعراض الخبز والخمر؛ وعندَما ارتضى خيانتَه له بقبلةٍ، نرى أنّ المسيح لم يكن يُبدي للخائن غير السلام، فيما كان قلب الخائن فريسةً لنواياه الشرّيرة. إذًا، كان أبشالوم سلامَ أبيه لأنّ أباه كان يُضمر له في قلبه مشاعر السلام، فيما الآثم كان بعيدًا عنها.

٢ - «يا ربّ ما أكثر مُضايقيَّ!» (٣: ٢). ما أكثرهم، حتّى أنّ فيهم من تلاميذي. ما أكثر أعدائي: «كثيرون قاموا عليّ، كثيرون يقولون لنفسي لا خلاصَ له بإلهِه» (٣: ٣). لو كانوا يؤمنون بالقيامة لما قتلوه. من هنا صراخ التحدّي: «إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب... خلّصَ آخرين ولا يقدر أن يُخلّص نفسَه» (متّى ٢٧: ٤٠، ٤٢). ويوضاس نفسُه ما كان ليُسلمَه لو لم يكن في عداد الذي كانوا يزدرون المسيح ويقولون: «لا خلاص له بإلهِه».

٣ - «لكنّك ياربُّ تُرسٌ لي» (٣: ٤). هو يسوع الإنسان يُكلّم أباه؛ فلكي يذود عن البشر، صار الكلمة جسدًا. «أنت مجدي». هذا الإنسان الذي اتّحدت به كلمة الله يدعو الله مجدَه، ليكون معه الله. درسٌ رائع للعظماء الذين يُصمّون آذانَهم عندما يُقال لهم: «أيّ شيء لك لم تنلْهُ؟ فإن كنت نِلتَه، فلِمَ تفتخِر كأنّك لم تنلهُ؟» (١ قورنتُس ٤: ٧). «أنت رافعُ رأسي». برأيي، الرأس هنا هو العقل البشريّ رأسُ روحِنا؛ وروحنا هذه اتّحدت، بالتجسّد، مع عظمة **الكلمة** السامية التي لم يقوَ على النيل منها هوان الآلام.

٤ - «بصوتي إلى الربّ أدعو» (٣: ٥): لا بصوت الجسد الذي تنقلُ الريحُ رنينَه، بل بصوت القلب الذي لا يسمعه الإنسان؛ يرتفع إلى الله صراخًا، بصوت سوسنّة (دانيال ١٣: ٤٢-٤٤) الذي استُجيب؛ وبه أوصانا الله بأن نُصلّي، في الخفية، وأبوابُ مخادعِنا موصَدة (راجع متّى ٦: ٦). ولا نَقُلْ إنّ في صلاتِنا الخفيّة نقصًا، عندما لا تنبُس أفواهُنا بكلمة مسموعة. ففي صلاة قلبنا الصامتة تمنعُنا فكرةٌ غريبة عن مشاعرنا من أن نقول: «إلى الربّ رفعتُ صوتي». ولا تكون هذه العبارة صحيحةً فينا إلّا إذا كانت الروح النائية، في الصلاة، عن الجسد، وعن كلّ مشهدٍ أرضيّ، تتكلّم إلى الربّ، مباشرةً، فيستجيب. والصلاة تُضحي صرخةً، لسرعة انطلاقتِها. «من جبلِ قدسِه استجابَني». ونبيّ آخر يدعو الربّ نفسَه جبلًا عندما يكتب أنّ حجرًا انقطع، لا بيد إنسان، صار جبلًا كبيرًا (راجع دانيال ٢: ٣٥ و٤٥). لكنّ هذا لا يمكن أن يُفهَم عن شخصِه بالذات، إلّا إذا قوّلنا المسيح: الربّ استجابني «من ذاتي» كمن يستجيب من جبل قُدسِه، لأنّه يسكن فيّ كما في عليائه. لكنّ الأصحّ والأقرب، أن نفهم أن الرّبّ استجابَه من علياء عدالتِه. ذاك أنّه كان يدين لعدالتِه بأن تُقيم من الموت البارّ

christianlib.com

الذي قابلوا إحسانَه بالشّرّ، وتُعاقب جلّاديه. والحال فإنّنا نقرأ: «عدلُكَ مثلُ الجبال» (مزمور ٣٥: ٧).

٥ - «أنا اضَّجعتُ ونمت» (٣: ٦). ليس من غير فائدة أن نلاحظ كلمة «أنا» التي تدلّ على أنّه بإرادتِه خضع للموت، بحسب هذه العبارة: «الآب يُحبّني لأنّي أبذل نفسي لأنالَها ثانيةً. ما من أحدٍ ينزعُها منّي، لكنّي أبذلها برضائي، فلي أن أبذلَها، ولي أن أستردّها» (يوحنّا ١٠: ١٧-١٨). يقول، إذًا، لستَ أنت الذي أخذتَني عنوةً، وقتلتني، بل «أنا اضّجعتُ ونمت ثمّ استيقظتُ لأنّ الربّ يُسندُني». ألف مرّة يذْكر الكتاب الرقادَ على أنّه الموت. ويقول الرسول: «ولا نريد، أيّها الإخوة، أن تجهلوا أمر الراقدين» (١ تسّالونيقي ٤: ١٣). ولا نتساءلنَّ لماذا يقول النبيّ «أنا اضَّجعت» ثمّ يُضيف «ونمت» أي ورقدتُ. إنّ هذا النوع من التكرار مألوفٌ في الكتاب المقدّس، كما سبق وبيّنّا في شرحنا المزمور الثاني. في ترجماتٍ أخرى نقرأ: «اضّجعتُ وتمتّعتُ برقادٍ عميق»، وفي غيرِها أيضًا، وبتعبيرٍ آخر، كما فهموه من هذه الجملة اليونانيّة ἐγὼ ἐκοιμηθην καὶ ὕπνωσα. *ego ekoimeten kai upnosa*. لعلّ الغفوة تعني غفوة المنازع، والرقاد رقاد الميت، من حيث أنّنا نمرّ من الغفوة إلى النوم، كما من النوم إلى اليقظة. فلنحترز ألّا نرى في هذه التكرارات في الأسفار المقدّسة إلّا أنواعًا من زخارف الخطاب لا تضيف شيئًا إلى المعنى. عبارة «غفَوتُ، نمتُ نومًا عميقًا»، توازي القول: استسلمت للآلام التي توّجَها الموت. «ثمّ استيقظتُ لأنّ الربّ يُسندُني». نلاحظ أنّنا نمرّ في الجملة نفسِها من الماضي «استيقظتُ» إلى الحاضر الذي يحملُ معنى المستقبل «يُسندُني» أي سيسنِدني؛ كما لو انّ المسيح لم يكن بوسعِه، في الواقع، أن ينهض من الموت إلّا بعونٍ من الربّ. وفي النبوءات نقرأ الماضي بمعنى

المستقبل. ما يُعلنه النبيّ للمستقبل في الزمن، يكتبه بصيغة الماضي كأنّه، برأيِه، أمرٌ حاصلٌ حتمًا. كذلك نجد تعابير بصيغة الحاضر يُفسّر مضمونُها حالَما تَعرُض.

٦ - «لا أخاف من ربوات الشعب التي اصطفّت عليَّ من حولي» (٣: ٧). تكلّم الإنجيل عن أولئك الرعاع الذين اصطفّوا على يسوع المتألّم على الصليب (راجع متّى ٢٧: ٣٩). «قم يا ربّ، خلّصني يا إلهي» (٣: ٨). إنّ كلمة «قُم» لا توجَّه إلى إلهٍ يغفو أو يستريح؛ لكن، جرت العادة أن ينسب الكتاب المقدّس إلى الله ما يصنعُه فينا، لا دائِمًا بالطبع، بل حين يكون الأمر موافقًا، كأن نقول إنّ الله هو الذي يتكلّم عندما يُعطي نبيًّا أو رسولًا أو مُرسَلًا يُبشّر بالحقيقة موهبةَ الكلام. من هنا كلمة القدّيس بولُس «أتريدون أن تختبروا قدرة المسيح الذي ينطق بفمي؟» (٢ قورنتُس ١٣: ٣). لم يقل: الذي ينيرني، أو الذي يأمُرني أن أتكلّم؛ بل نسب كلامَه إلى الذي كلّفه بأن يقولَه.

٧ - «فإنّك ضربت جميع الذين قاموا عليّ بلا سبب» (٣: ٩) (الآية كما أوردَها أوغسطينُس). لا نُرتّبَنّ الكلمات كأنّها واردة في آيةٍ واحدة: «قم يا ربّ خلّصني فإنّك ضربت جميع الذين قاموا عليّ بلا سبب». إذا كان الربّ خلّصَه، فلا لأنّه ضرب أعداءَه، فهو لم يضربهُم إلّا بعد أن خلّصَه. هذه الكلمات تعود، إذًا، إلى ما يليها، فيكون المعنى: «ها إنّك ضربت الذين قاموا عليَّ بلا سبب، وقصمت أسنان الأثَمة». أي: بقصمِك أسنان الأثمة ضربت أعدائي. والحال، فإنّ عقاب الأعداء هو الذي حطّم أسنانَهم، أو بالأحرى أبطلَ وأباد أقوال الأثَمة الذين ينهشون ابن الله بلعناتِهم. فالأسنان هي اللعنات، بالمعنى نفسِه الذي يوردُه الرسول حين يقول: «فإذا كنتم تنهشون بعضكم بعضًا، فحذارِ أن يُفنيَ

بعضُكم بعضًا» (غلاطية ٥: ١٥). أسنان الأثَمة ربّما تعني أيضًا رؤساء الأثمة الذين يستخدمون سلطانَهم لينتزعوا فردًا من جماعة الصالحين لكي يُلحقوه بالأثمة. وهذه الأسنان تُقابلُها أسنانُ الكنيسة التي تجهد لانتزاع المؤمنين الحقيقيّين من ضلالات الوثنيّين والهراطقة، وتضمّهم إليها بصفتِها جسد المسيح. وبهذه الأسنان أيضًا أُمِرَ بُطرس أن يذبح ويأكلَ حيواناتٍ نجِسة (راجع أعمال ١٠: ١٣)، أي أن يُميتَ في الوثنيّين ما كانوا عليه، ليُحوّلَهم إلى ما هو عليه. وأخيرًا، هذه الأسنان هي التي جعلت الكنيسة تقول: «أسنانُكِ كقطيعِ شاءٍ (مجزوز) طلع من الإغتسال، كلّ واحدةٍ منه مُتئِمٌ، وما فيه عاقر» (نشيد الأناشيد ٤: ٢؛ ٦: ٥). صورة رائعة للذين يعظون، ويعيشون بمقتضى الأحكام التي يضعونَها، ويعملون بهذه الوصيّة: «هكذا فليُضيءْ نوركم للناس ليرَوا أعمالَكم الصالحة، فيُمجّدوا أباكم الذي في السموات» (متّى ٥: ١٦). يخضع الناس لسلطان هؤلاء الوعّاظ، فيؤمنون بالله الذي ينطقُ ويعملُ فيهِم، ويبتعدون عن الدهر الذي كانوا يسلكون فيه، ليصيروا أعضاءً في الكنيسة. إنّ وُعّاظًا يحصلون على مثل تلك النتائج، يستحقّون أن يُدعَوا أسنانًا شبيهةً بالشياه المجزوزة، لأنّهم ألقَوا عنهم حمل الهموم الأرضيّة، وطلعوا من الإغتسال، أو من ماء سرّ العماد المقدّس الذي طهّرهم من كلّ رجسٍ، فصاروا مُتئِمين. والحال، فإنّهم يُتمّون الوصيّتَين اللتَين قيل عنهما إنّهما يختصران الناموس والأنبياء (متّى ٢٢: ٤٠)؛ ذاك أنّهم يُحبّون الله من كلّ قلوبهم وأرواحهم وعقولِهم، والقريبَ كأنفسِهِم. فلا عاقر فيهم لأنّهم لله يُثمِرون. بهذا المعنى، إذًا، يجب أن نفهم عبارة «قصمتَ أسنان الأثمة»، من حيث أنّك أبدتَ رؤساء الأثَمَة بضربك الذين قاموا عليّ بلا سبب. والحال، فإنّ رواية الإنجيل تُبيّن لنا أنّ الرؤساء كانوا يضطهدون يسوع، والشعبَ يُكرّمه.

٨ - «من الربّ الخلاص؛ ولتحلَّ، يا ربُّ، بركتُك على شعبِك» (٣: ٩). في الآية نفسِها، يعلّم النبيّ الناس ما ينبغي أن يؤمنوا به، ويُصلّي من أجلِ الذين يؤمنون. فعبارة «من الربّ الخلاص» موجّهة إلى الناس؛ أمّا عبارة «ولتحلَّ يا ربُّ، بركتُك على شعبِك» فلا تشمل جميع الناس. في العبارة الثانية، يُخاطب النبيّ الله ويستمطره البركة على شعبِه الذي أخبرَه أنّ الخلاص من الله يأتي. أفلا يعني ذلك أن لا خلاص لأحدٍ في ذاتِه، وأنّ الله وحدَه هو الذي يُخلّصنا من موت الخطيئة؟ يقول الرسول: «يا لي من إنسانٍ شقيّ! فمن يُنقذُني من جسد الموت هذا؟ نعمةُ الله بالمسيح يسوع ربِّنا!» (راجع رومة ٧: ٢٤، ٢٥). فيا ربّ، بارك شعبَك الذي يرجو خلاصَك.

٩ - وربّما كان بوسعنا، بمعنى آخر، أن نُطبّق هذا المزمور على شخص المسيح الذي يتكلّم ككُلّ. أقول ككلّ، بسبب الجسد الذي هو رأسُه، بحسب قولِ الرسول: «أنتم جسد المسيح وأعضاؤُه» (١ قورنتُس ١٢: ٢٧). إنّه، إذًا، رأس الجماعة. وقيل في مكانٍ آخر: «متى صدَقنا في المحبّة، ننمو بكلّ شكلٍ في يسوع رأسِنا الذي به اتّحاد الجسد والتحامُه» (أفسُس ٤: ١٥، ١٦). إذًا، الكنيسة الملقاةُ في خضمّ عواصف الإضهادات في الأرض كلّها، كما سبق أن رأينا، تصرخُ، مع رأسِها، بفم النبيّ: «يا ربّ ما أكثر مُضايقيَّ، كثيرون قاموا عليّ» (٣: ٢)، ليقضوا على اسم المسيح! «كثيرون يقولون لنفسي لا خلاصَ له بإلهِه». لأنّهم ما كانوا ليأملوا بضياع الكنيسة التي تنمو في كلّ مكان، لو لم يكونوا يؤمنون بأنّ الله لا يوليها أي اهتمام. «ولكنّك ياربُّ تُرسٌ لي»، بيسوع المسيح. بإنسانيّتها نالت الكنيسة **الكلمة** ترسًا، «**الكلمة** الذي صار جسدًا ليحلّ بيننا» (يوحنّا ١: ١٤)، والذي أقامنا معه في السموات (أفسُس ٢: ٦). فحيثُ يمضي الرأس، تمضي

christianlib.com

الأعضاء أيضًا. «من يفصلُنا عن محبّة المسيح؟» (رومة ٨: ٣٥). الكنيسة على حقّ في أن تقول لله: «أنتَ ترسٌ لي، أنت مجدي». وبعيدًا عن أن تعزوَ كرامتَها لنفسِها، فهي تُدرِك أنّها تدين بها إلى نعمة الله ورحمتِه. «أنت رافع رأسي»، أي الذي كان باكورة القائمين من الموت للصعود إلى السموات. «بصوتي إلى الربّ أدعو فيُجيبُني من جبل قُدسِه». كذاك هو دُعاء القدّيسين، عطرٌ لذيذ يرتفع أمام الربّ. استُجيبت الكنيسة من أعالي الجبل المقدّس الذي هو رأسُها، أي من أعالي تلك العدالة التي تُخلّص المختارين وتُجازي المضطهدين. يستطيع شعب الله أن يقول أيضًا: «أنا اضَّجعتُ ونمت ثمّ استيقظتُ لأنّ الربّ يُسندُني»، لكي يضمّه إلى رأسه ويوحّدَه به. لأنّه لهذا الشعب قيل: «إنهض أيها النائم، وقم من بين الأموات، يُضئ لك المسيح» (أفسُس ٥: ١٤). وهذا الشعب أُخرِجَ من وسط الخطأة الذين قيل فيهم: «الذين ينامون ففي الظلمة ينامون» (١ تسّالونيقي ٥: ٧). كما يستطيع شعب الله أن يقول أيضًا: «لا أخاف من ربوات الشعب التي اصطفّت عليَّ من حولي»، تلك الأمم الكافرة التي تطوّقني وتُضيّق عليّ، لتخنق، لو استطاعت، إسم المسيح. ولمَ الخوف، ودماء الشهداء كالزيت الذي يُصبّ على نار محبّة المسيح فيُذكيها؟ «قم يا ربّ، خلّصني يا إلهي». ذاك هو دعاء الجسد إلى رأسِه. الجسدُ خُلِّص، يوم قام ذاك الرأس وصعد إلى العلى وسبى السبيَ وأعطى عطايا للناس (مزمور ٦٧: ١٩). كان النبيّ يرى مُسبقًا الأرض التي حان أوان حصادها (متّى ٩: ٣٧)، والتي دعت الربّ (ليجمعَ الحصاد). وهذا الحصاد يجد خلاصَه في قيامة الذي ارتضى أن يموت لأجلِنا. «فإنّك ضربت جميع الذين قاموا عليّ بلا سبب، وقصمت أسنان الأثَمة». غلبة الكنيسة بلبلت أعداء اسم المسيح، وأبادت

لعناتِهم وقدرتَهم. فافهموا يا بني البشر أنّ «الخلاص يأتي من الربّ»، و«أنت يا إلهي، فلتفِض بركتُك على شعبِك».

١٠ - عندما تُخضِعُنا الآثام والشهوات للخطيئة، على الرّغم من جهودِنا، بوسع كلّ واحدٍ أن يقول: «يا ربّ ما أكثر مُضايقيَّ، كثيرون قاموا عليّ». وكما أنّ تراكم الأمراض غالبًا ما يُضرمُ اليأس في الشفاء، فإنّ روحَنا، في مواجهة غطرسة الرذيلة وإيحاءات الشيطان وملائكتِه، تبلغ حدّ اليأس وتستطيع أن تقول بكلّ صدق: «كثيرون يقولون لنفسي لا خلاصَ له بإلهِه». لكنّك أنت يا ربّ من تُسنِدُني. ذاك أنّ رجاءَنا في المسيح الذي تنازل ولبس الطبيعة البشريّة. «أنت افتخاري»، بحسب تلك القاعدة التي تمنعُنا من أن نعزوَ شيئًا لأنفسِنا. «أنت رافع رأسي»، أو أنت رأسنا كلّنا، أو حتّى عقلُنا الذي هو بمثابة الرأس للروح والجسد. لأنّ «الرجل رأس المرأة كما هو المسيح رأس الكنيسة (أفسُس ٥: ٢٣). لكنّ الروح ترتفع عندما نستطيع أن نقول: «بالروح أخضع لشريعة الله» (رومة ٧: ٥-٦)، فيكون كلّ ما في الإنسان خاضعًا ومستكينًا، عندما تبتلع الموتَ غلبةُ قيامة الجسد (١ قورنتُس ١٥: ٥٤). أيّ نفسٍ مؤمنة لا تنطق بهذه اللغة عندما ترى أنّ كلّ آثامِها قدّ امّحت بولادةٍ جديدةٍ مجّانيّة؟ «لا أخاف من ربوات الشعب التي اصطفّت عليَّ من حولي». بعيدًا عن الشدائد التي تعرّضت، وما زالت تتعرّض لها الكنيسة، فإنّ لكلّ واحدٍ مصائبَه؛ وعندما يشعُر بالضيق، فليصرخ: «قم يا ربّ، خلّصني ياإلهي». هذه النبوءة تنطبق على الشيطان وملائكتِه الذين يُقاتِلون، لا ضدّ جسد المسيح السرّيّ فحسب، بل ضدّ كلّ عضوٍ من أعضائِه. «قَصَمتَ أسنان الأثمة». لكلٍّ منّا أعداؤه الذين يلعنونَه، فضلًا عن فاعلي الشرّ الذين يسعَون إلى انتزاعنا من جسد يسوع المسيح. لكنّ «للرّبّ الخلاص».

christianlib.com

فلنتجنّب الكبرياء، ولنقُلْ: «كلِفَت نفسي باتّباعِكَ» (مزمور ٦٢: ٩)، «وعلى شعبِكَ بركتُك» (٣: ٩)، أي على كلّ واحدٍ منّا.

عظة في المزمور الرابع

السعادة الحقيقيّة

في هذا النشيد، يُبيّن النبيّ الروح التي تتسامى فوق الخيور الأرضيّة، لتجد في الله الراحة والسعادة.

١ - «للغاية، نشيد، مزمور لداود[1]» (٤ : ١) «غاية الشريعة هي المسيح لتبرير كلّ المؤمنين به» (رومة ١٠ : ٤)؛ لكنّ هذه الغاية تحمل معنى الكمال لا الدمار. بوسعنا أن نتساءَل إذا كان كلّ نشيد مزمورًا؛ أو بالأحرى إذا كان المزمور ليس بنشيد؛ أو إذا كان ثمّة أناشيد لا ينطبق عليه اسم المزمور، ومزامير لا تجوز تسميتُها بالأناشيد. لكن، من الفائدة أن نرى، في الكتب المقدّسة، إذا كانت صفة النشيد تدلّ على الفرح، وصفة المزمور تدلّ على أناشيد تُرنّم على المزمار الذي استعمله داود، بحب رواية التاريخ، ليُصوّر سرًّا عظيمًا، لن نتعمّق هنا في هذا الموضوع؛ فإنّه يتطلّب أبحاثًا طويلةً، ونقاشًا مستفيضًا. ولنُصغِ اليوم إلى كلام الإنسان - الإله، بعد قيامتِه، أو إلى كلام تلميذ الكنيسة الذي يؤمن به ويتوكّل عليه.

٢ - «دعوتُ فاستجابني إلهُ بِرّي» (٤ : ٢). يقول: صلاتي استجابِها الله، إله بِرّي. «في الضيق فرّجتَ قلبي»، عبرتَ بي من الشِدّة

(١) في العبريّة: לַמְנַצֵּחַ בִּנְגִינוֹת, מִזְמוֹר לְדָוִד. أي لإمام المغنّين بمرافقة الآلات الوتريّة לַמְנַצֵּחַ من الجذر נצח = برع وتفوّق إلى الغاية.

إلى رحب الفرح؛ «فالشدّة نصيب نفس كلّ امرئٍ يصنع الشرّ» (رومة ٢ : ٩). لكنّ الذي يقول: «لا بل نفتخر بشدائدِنا لعِلمنا أنّ الشدّة تلد الصبر»... إلى أن يقول: «لأنّ محبّة الله أفيضت في قلوبِنا بالروح القدس الذي وُهِب لنا» (رومة ٥ : ٣-٥)؛ إنّ الذي يقول هذا، لا يُقاسي شدائد القلب، مهما ضايقه أعداء الخارج. بصيغة الغائب، يقول النبيّ «استجابني إله بِرّي»، وبصيغة المخاطَب يعود فيقول: «في الضيق فرّجتَ قلبي». إذا لم يكن تبدّل الصيغة هذا بهدفِ التنوع أو الزخرفة في الخطاب، فبوسعنا أن نَعجَب أن يكون أراد، أوّلًا، أن يُعلن أمام الناس أنّه استجيب، ثم يعود فيُخاطبُ المُحسِن إليه. لا شكّ في أنّه بعد أن قال إنّه استُجيب بانفراج قلبِه، آثر أن يُكلّم الله، لكي يُثبت لنا أنّ الله، إذ فرّج القلب، أفاض نفسَه في الروح التي تُخاطبُه في الداخل. وهذا ينطبقُ بصورة كاملة على المؤمن بيسوع المسيح، المستنير به؛ لكنّي لا أرى كيف يمكن أن نُطبّقه على ربّنا يسوع المسيح، ما دامت الحكمة الإلهيّة المتّحدة بإنسانيّته، لم تفارقه لحظةً. ومع ذلك، كان يُبرِزُ، في الصلاة، ضعفَنا لا ضعفَه؛ كذلك فإنّ ربّنا الذي فرّج قلبَنا، بوسعه أن يتكلّم باسم المؤمنين الذين يتلبّس دورَهم حين يقول: «جعت فلم تطعموني؛ وعطشتُ فلم تَسقوني» (متّى ٢٥ : ٤٢). كذلك، بوسع ربّنا أن يقول: «فرّجتَ قلبي»، عندما يتكلّم باسم مؤمنٍ وضيع يُكلّم الله الذي يشعر بمحبّته تفيض في روحِه، بالروح القدس الذي وُهِب له. «فارحمني واسمع صلاتي». لِمَ هذا الدعاء الجديد، ما دام سبق أن استُجيب وفُرّجَ قلبُه؟ أيكون ذلك بسببنا نحن الذين قيل فينا: «إذا كنّا نرجو ما لا نراه فبالصبر ننتظرُه» (رومة٨ : ٢٥). أم لعلّه يسأل الله أن يُكمّل ما بدأه في من آمَن؟

٣ - «يا بني البشر، حتّامَ تثقُل قلوبُكم؟ (٤ : ٣ السبعينيّة). أقلّه، إذا

طال ضلالُكم إلى حين مجيء ابن الله، فلِمَ تُطيلون سُباتَ أرواحكم؟ متى تكفّون عن خداع أنفسِكم، إن لم تكفّوا عن خداعِها أمام الحقيقة؟ «تُحبّون الباطل وتبتغون الكذب». لمَ تطلبون في الأمور الزهيدة سعادةً لا توفّرُها إلّا الحقيقة، التي توفّر المنعة لكلّ ما تبقّى؟ «باطل الأباطيل كلّ شيءٍ باطل، أيّ فائدةٍ للبشر من جميع تعبِهم الذي يُعانونَه تحت الشّمس؟» (جامعة ١ : ٢-٣). لماذا تتركون أنفُسَكم فريسةَ حبِّ الخيور الفانية؟ لمَ السعي وراء خيورٍ لا قيمة لها؟ باطلٌ هذا وكذب! لأنّكم تزعمون أنّكم تُطيلون فيكم عمرَ ما لا يلبث أن يعبر كالظلّ.

٤ - «إعلموا أنّ الربّ مجّدَ صفيّه» (٤ : ٤). وأيّ صفيٍّ، إن لم يكن ذاك الذي أقامه من بين الأموات، وأجلسَه عن يمينِه في السموات؟ هنا، يحثّ النبيّ البشر على الإنسلاخ عن العالَم للإلتصاق بالله. إذا كان هذا الأسلوب في الكلام يبدو مستغربًا، لكنّه مألوفٌ في لغة الأنبياء في الكتب المقدّسة. فغالِبًا ما ترونَهم يبدأون على هذا النحو: «يقول الربّ...»، «كانت إليّ كلمة الربّ...»؛ ولعلِّ هذا الأسلوب الذي لا تسبقه أيّة فكرة، ولا تتبعه الفكرة التالية، يُظهِر لنا الإنتقال الرائع بين نقل الحقيقة بفم النبيّ، والرؤية التي يمتلكها في روحِه. إلّا أنّ بوسعنا أن نقول إنّ الفكرة الأولى «لماذا تحبّون الباطل وتبتغون الكذب» تعني: إحترزوا ألّا تحبّوا الباطل وتسعَوا وراء الكذب؛ وبعدها تأتي في محلّها المناسب عبارة «واعلموا أنّ الرّبّ مجَّدَ صفيّه». لكنّ هناك فاصلًا «**سلاه**(٢)»، بين الآيتَين، يحول دون ربطِهِما معًا. يرى بعضُهم أنّه بوسعِنا أن نعتبر لفظة «**سلاه**» كلمة عبريّة

(٢) سلاه: סֶלָה نوطة موسيقيّة تشير إلى توقّف. ولا توجد إلّا في المزامير، وفي نبوءة حبقوق. يقول بعضهم إنّها من الجذر סָלַל، أي رفع صوتَه. والبعض الآخر أنّها من الجذر סלה بمعنى استراح وسكت؛ وآخرون بأنّها تعني إلى الأبد آمين.

christianlib.com

تعني «آمين»، فيما يرى آخرون أنّها لفظة يونانيّة تدلّ على استراحة في ترنيم المزمور، فنُسمّي النشيد مزمورًا، و«**سلاه**» مسافة الصمت في الترنيم، أو نُسمّي التنغيم اتّحاد الأصوات في سنفونيّة، و«**سلاه**» تفكّكُها أو استراحتها أو عدم تواصلِها. وأيًّا يكن المعنى الذي نعتمدُه، ينتجُ عنه أقلّه هذا الإحتمال، بأنّ المعنى ينقطع بعد «**سلاه**» ولا يعود متّصِلًا بما قبلَه.

٥ - «الربّ يستجيبُني إذا دعوتُ إليه» (٤ : ٤). هذا القول يبدو لي حضًّا على طلب معونة الله، بكلّ ما في قلبِنا من قوّة، أو بالأحرى بنُواحٍ داخليّ لا يُسمع له صخب. وكما أنّ شكر الله واجبٌ على عطيّة النورِ في هذه الحياة، فواجبٌ أيضًا أن نسألَه الراحة بعد الموت. فإذا وضعنا هذه الكلمات على فم الواعظ المؤمن، أو على لسان الرب يسوع، فإنّها تعني: «يستجيبك الرّب عندما تدعوه».

٦ - «إسخطوا ولا تخطأوا» (٤ : ٥). كان بوسعنا أن نتساءل: من يستحقّ أن يُستَجاب، وكيف لا يفيد الخاطئ أن يُخاطب الله؟ يُجيب النبيّ: «إسخطوا ولا تخطأوا». وهو جوابٌ يمكن أن يُفهم على نحوَين. فإمّا: «لا تخطأوا حتى في سُخطِكم»، أي: إذا ثارت فيكم حركة الروح التي لا تُكبَح بمعاقبة الخطيئة، فلنُندّد بها، على الأقل، بواسطة العقل، أي بتلك الروح التي جدّدها الله في داخلنا، لكيما نخضع، أقلّه بالروح، لشريعة الله، إذا كنّا لا نزال نخضع بالجسد لشريعة الخطيئة (رومة ٧ : ٢٥)؛ وإمّا: «توبوا واسخطوا على أنفسِكم، بفعل ما مضى من فسادِكم، ولا تخطأوا في المستقبَل». «تكلّموا في قلوبِكم»: تضرّعوا واسألوا؛ فتكون الفكرة الكاملة على الشكل التالي: قولوا في قلوبكم ما تقولون، ولا تكونوا شعبًا قيل عنه: «هذا الشعب يُكرِمني بشفتَيه وقلبُه بعيدٌ منّي» (أشعيا ٢٩ : ١٣). «وفي خفاء

مضاجعِكم كونوا صامتين» (٤ : ٥). سبق أن قال النبيّ بالمعنى نفسِه: «في قلوبِكم»، أي في تلكَ الأماكن الخفيّة التي يدعونا الربّ إلى الصلاة فيها بعد أن نكون أوصدنا أبوابَها (متّى ٦ : ٦). هذه النصيحة: «كونوا صامتين»، إمّا أنّها توصي بألم التوبة الذي يحملُ النفس على التفجّع، وعلى تأديب نفسِها، لكي تنجوَ من حكم الله الذي قد يقضي عليها بالعذاب، وإمّا أنّها تشكّل حافزًا يُبقينا يقظين، لكي نتمتّع بنور المسيح. وبدل عبارة «توبوا»، يُفضّل آخرون عبارة «إنفتحوا» بسبب الكلمة اليونانيّة κατανύγητε التي يتّصل معناها بفُرجة القلب الضروريّة لإفاضة المحبّة بالروح القدس.

٧ - «ذبيحة بِرٍّ اذبحوا، وارجوا الربّ» (٤ : ٦). قال صاحب المزامير في مكانٍ آخر: «الذبيحة التي يستسيغُها الله قلبٌ منسحِق» (مزمور ٥٠ : ١٩). وهكذا فإنّ ذبيحة البرّ يُمكن فهمُها على أنّها الذبيحة التي تُقرّبُها نفسٌ تائبة. وأيّ شيءٍ أبرُّ من أن يسخط المرء على خطاياه لا على خطايا الآخرين، وأن يُقرّب نفسَه ذبيحةً لله بتأديب نفسِه؟ أم أنّ علينا أن نفهم بذبيحة البِرّ الأعمال الصالحة بعدَ التوبة؟ ذاك أن الـ«**سلاه**» الموضوعة هنا يُمكن أن تشير إلى الإنتقال من الحياة الماضية إلى حياةٍ جديدة، حتّى إذا دُمّر الإنسان العتيق، أو أعنتهُ التوبة، قرّب الإنسان المتجدّد لله ذبيحة بِرّ، إذ يُقرّب نفسَه المطهّرة ذبيحةً على مائدة الإيمان، لتأكلَها النار الإلهيّة، أي الروح القدس. وعليه فإنّ عبارة «ذبيحة بِرٍّ اذبحوا، وارجوا الربّ»، يُمكن أن تُقال: عيشوا في القداسة، وانتظروا عطيّة الروح القدس لكي تستنيروا بتلك الحقيقة التي بها آمنتُم.

٨ - لكنّ عبارة «أُرجوا الربّ» لا تزال غامضة. ما ترانا نرجو

سوى الخيور؟ لكنّ كلًّا منّا يُريد أن ينال من الله الخير الذي يُفضّلُه، ونادرًا ما نجد إنسانًا يطمع في خيورٍ غير منظورة، خيور الإنسان الداخليّ التي وحدَها تستحقّ أن نتعلّق بها، من حيثُ أنّ الخيور الأخرى لا نطلبها إلّا في العَوَز. فبعد أن قال النبيّ: «أُرجوا الربّ»، أضاف، بملء الحقّ: «كثيرون يقولون: من يُرينا الخير» (٤ : ٦). وهذا ما نسمعه يوميًّا من أفواه الحمقى والأشرار الذين يريدون التمتّع في هذه الحياة الدنيا بسلامٍ وسكينةٍ يمنعهم عنهما خبثُ البشر. وفي عمهِهم يتجرّأون على اتّهام العناية الإلهيّة، ويتمرّغون في آثامهم، ويحسبون أنّ الحاضر أسوأ من الماضي. أو أنّهم يُقابلون وعود الله بالحياة المقبلة بالشك واليأس، ولا ينفكّون يُردّدون: من لنا بمن يُطمئِنُنا إلى صحة هذا القول، أو من ذا عاد من بين الأموات ليكلّمنا فيه؟ وهنا، يعرض النبيّ، بشكل رائع وبكلمات قليلة، لكن فقط بعينَي الإيمان، الخيور التي ينبغي أن نطلبَها. أمّا الذين يسألون: «من يُرينا الخير؟»، فيُجيبُهم: «نور وجهِكَ منطبعٌ فينا، أيّها الربّ» (٤ : ٧). ذاك النور الذي يُشعُّ في الروح لا في الأعيُن هو الخير الحقيقيّ للإنسان. إنّه منطبعٌ فينا، يقول النبيّ، كما صورة الملك على الدينار. فالإنسان خُلِق على صورة الله ومثالِه (تكوين ١ : ٢٦)، وتلك الصورة شوّهتها الخطيئة؛ وبالتالي فإنّ الخير الحقيقيّ الثابت هو في أن يكون الإنسان موسومًا بالولادة الجديدة. ذاك هو، برأيي، المعنى الذي أعطاه المفسّرون الحكماء لما قاله الربّ، عندما رأى عِملة قيصر: «أَوْفوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» (متّى ٢٢ : ٢١)، كمن يقول: إنّ الله يطلب أن تكون صورتَه مطبوعةً فيكم كما هي حال صورة قيصر على عملتِه، فإن أَوفيتُم قيصرَ عِملتَه، أَوْفوا الربّ نفسكُم الموسومة بنور وجهِه. «أنشأت فرحًا في قلبي» (٤ : ٨). ليس على الفاتري القلوب أن يسعَوا في طلب الفرح في الخارج،

بل في الداخل، حيث طبع الله علامة نورِه. لأنّ الرسول قال: «المسيح يسكن الإنسان الداخليّ» (راجع أفسُس ٣: ١٧)، الذي يعود إليه أن يرى تلك الحقيقة التي قال عنها المخلِّص: «أنا الطريق والحقّ والحياة» (يوحنّا ١٤ : ٦). تكلّم المسيح بفم بولُس حين قال: «ألعلّكم تبتغون أن تختبروا إن كان المسيح هو الذي يتكلّم فيَّ؟» (٢ قورنتُس ١٣ : ٣). هذا ولم يكن خطابُه خارجيًّا بل في أعماق القلب، في ذلك المخدَع الخفيّ الذي يجب أن ندخلَ إليه لنصلّي. (متّى ٦ : ٦).

٩ - لكن، كثيرون هم الناس الذين تفتنُهم الخيور الزمنيّة، لأنّهم عاجزون عن رؤية الخيور الحقيقيّة الثابتة في قلوبِهم، وما عرفوا سوى أن يسألوا: «من يُرينا الخير؟» بحقٍّ، إذًا، نستطيع أن نُطبّق عليهم الآية التالية: «تكاثروا على جمع حنطتِهم وخمرتِهم ودُهنِهم» (٤ : ٨). وليس عبثًا أن يجري الكلام عن «حنطتِهم وخمرتِهم ودُهنِهم»؛ فهناك حنطة الله «الخبز الحيّ النازل من السماء» (يوحنّا ٦ : ٥١)، وهناك خمرة الله لأنّهم «يرتوون من فيض بيتِه» (مزمور ٣٥: ٩)؛ وهناك أيضًا دُهنُ الله الذي قيل فيه: «دُهنُك عطّر رأسي» (مزمور ٢٢: ٥). الناس الكثيرون الذين يقولون: «من يُرينا الخير؟»، ولا يرَوْنَ ملكوت الله الموجود في نفوسِهِم (لوقا ١٧ : ٢٢)، «تكاثروا على جمع حنطتِهم وخمرتِهم ودُهنِهم». قد لا تعني الكثرةُ الفيض، أحيانًا، بل الشِّحّ، حين تضطرم النفس حبًّا بالشهوات الزمنيّة، ولا يرتوي ظمأُها، فتغدو فريسةً للإفكار المضطربة التي تنهشُها وتمنعها من إدراك الخير الحقيقيّ البسيط. في نفسٍ على هذه الحال قيل: «الجسد الفاسدُ يُثَقِّلُ النفس، وهذا المسكن الأرضيُّ يُرهق العقل بكثرة الهموم» (حكمة ٩: ١٥). والنفس التي تتنازعُها كثرة الأوهام التي تتسبّب لها بها الخيور الأرضيّة، باقترابِها منها وابتعادِها عنها بلا هوادة، أو يتسبّب لها بها جمع حنطتِها وخمرتِها

ودُهنِها، أبعد من أن تُتِمّ هذه الوصيّة: «أحبّوا العدل يا قضاة الأرض، واعتقدوا في الربّ خيرًا والتمسوه بقلبٍ سليم» (حكمة ١ : ١). سلامة القلب هذه لا تتوافق مع همومه الكثيرة. لكن، في مقابل كثرة الناس هؤلاء الذين يتهافتون على مغريات الخيور الأرضيّة ويقولون: «من يُرينا الخير؟»، الذي لا نراه قطُّ بالأعيُن، بل ينبغي التماسه بالقلب السليم، يقول الإنسان المؤمن بوَجدٍ: «بالسلام أضّجعُ في الربّ وأستريح» (٤ : ٩). والحال، فإنّ له الحق في أن يأمل بأن يتغرّب قلبُه عن الأشياء الفانية، وينسى شقاء هذا العالَم وهمومَه، وهذا ما يُسمّيه النبيّ، بحقّ، نومًا وراحةً وصورةً لذاك السلام الذي لا يعتريه قلق. لكنّ خيرًا كهذا لا يكون في هذه الحياة، وعلينا أن ننتظره بعد الموت، كما تُخبِرُنا كلمات النبيّ التي تُفهَم بصيغة المستقبل (سأضّجِع وسأستريح)، لا بصيغة الماضي ولا الحاضر. فيلبسُ الجسدُ الفاسد عدم الفساد، وتبتلعُ الغلبة الموت (١ قورنتُس ١٥ : ٥٤). من هنا كلمة الرسول: ««إذا كنّا نرجو ما لا نراه فبالصبر ننتظرُه» (رومة ٨: ٢٥).

١٠ - وأصاب النبيّ حين أضاف: «لأنّك أنت وحدَك يا ربّ خصصتني فثبّتّني على الرجاء» (٤ : ٩). لا يقول: سوف تُثبّتُني، بلّ ثبّتّني. فمن أدرك رجاءً كهذا سوف يتمتّع، بالتأكيد، بما رجاه. وكلمة «خصصتني» ملأى بالمعاني، لأنّها تتعارض مع ذلك الحشد المتألِّب على جمع حنطتِه وخمرتِه ودُهنِه، والذي يصرخ: «من يُرينا الخير؟» هذا الحشد سيهلِك، أمّا الوحدة فباقيةٌ في القدّيسين الذين قيل فيهم في أعمال الرسل: «وكان لجمهورِ المؤمنين قلبٌ واحدٌ ونفسٌ واحدة» (٤ : ٣٢). إذًا، ينبغي اعتناق التميّز والبساطة، أي الإبتعاد عند ذلك الحشد الذي لا يُحصى من الخيور الأرضيّة التي ما إن تولد حتّى تموت؛ والتعلّق بالواحد الأزليّ، إن كنا راغبين في الإتّحاد بالله ربّنا.

عظة في المزمور الخامس

الكنيسة في منفاها أو النفس المؤمنة

تسأل النفس المؤمنة اللهَ أن تُستَجاب فتراه. تُدرِك أنّ ترّهات العالَم تُلقيها في الظلمة. ولكن، بعد هذه الحياة يُشرق نور الصّباح، الذي سيكون نصيب البارّ، عندما يُلقى الآثمُ في الظلمات.

١ - عنوان المزمور: «إلى التي فازت بالميراث[١]» (٥ : ١). بهذا يُشار إلى الكنيسة التي وهبها ربُّنا يسوع المسيح الحياة الأبديّة ميراثًا، لكي تملكَ الله والسعادة بتعلّقِها به، بحسب كلام االربّ: «طوبى للودعاء، فإنّهم يرثون الأرض» (متّى ٥ : ٤). وأيّ أرض غير تلك التي قيل عنها: «أنت مُعتصَمي، أنت نصيبي في أرض الأحياء». (مزمور ١٤١ : ٦)؛ وأيضًا بكلامٍ أوضح: «الربّ نصيبُ قسمتي وكأسي» (مزمور ١٥ : ٥)؟ والكنيسة، بدورِها، تُدعى ميراث الربّ بحسب ما قيل: «سلني فأعطيَك الأمم ميراثًا لك» (مزمور ٢ : ٨). وهكذا فإنّ الله

---

(١) في الفولغاتا: in finem pro ea quae hereditatem consequitur psalmus David أي: للغاية، إلى التي فازت بالميراث، مزمور لداود. وبالمعنى نفسِه في السبعينيّة: Εἰς τὸ τέλος, ὑπὲρ κληρονομούσης. ψαλμὸς τῷ Δαυιδ. وفي العبريّة: לַמְנַצֵּחַ אֶל - הַנְּחִילוֹת , מִזְמוֹר לְדָוִד أي: لإمام المغنّين، على المزمار، مزمور لداود. (נְחִילוֹת = مزمار أو ناي، أو أي آلة موسيقيّة للنفخ من الجذر חליל = نفخ بالمزمار). أمّا الفولغاتا والسبعينيّة فاعتبرتا أن الكلمة مشتقّة من נחל بمعنى ورث وامتلك.

يُدعى ميراثَنا، لأنّه يوفّر لنا المأكل والمدى؛ ونحن ميراث الله الذي يحرثُنا ويرعانا. وعليه، فإنّ هذا المزمور هو نشيد الكنيسة المدعوّة إلى الميراث، لكي تُصبح هي نفسُها ميراث الله.

٢ - «لأقوالي أَصِغْ أيها الربّ» (٥: ٢). يدعو الله الكنيسة فتستمطِر عونَه لكي يُمكّنَها من تجاوز ظلم الدّهر، والبلوغ إليه: «تفهّم تأوُّهي!» هذا التعبير يُبيّن لنا هذا التأوُّه المتصاعد إلى الله من أعمق أعماق قلوبنا؛ ذاك أنّنا نسمع صوت الجسد، ونعي صوت القلب. فالله لا يسمعُنا بأذن الجسد بل بحضور جلالِه.

٣ - «أصغِ إلى صوت استغاثتي» (٥: ٣) هذا الصوت الذي كان يسأل الله أن يفهَمَه: «تفهّم تأوّهي. أصغِ إلى صوت استغاثتي يا ملكي وإلهي». في الحقيقة: الإبن إله، والآب إله، والآب والإبن إلهٌ واحد؛ وإذا سُئِلنا من هو الروح القدس، لا جواب لدينا سوى أنّه الله، وعندما نقول الآب والإبن والروح القدس، علينا ألّا نفهم سوى أنّ الثلاثة إلهٌ واحد؛ على أن صفة الملِك في الكتاب المقدّس تُطلَق عادةً على الإبن. وبحسب كلمة الربّ: «لا يمضي أحدٌ إلى الآب إلّا بي» (يوحنّا ١٤: ٦)، للنبيّ الحقّ في أن يقول: «يا مَلِكي»، أوّلًا، ثمّ «يا إلهي». إلّا أنّه لا يستعمل صيغة الجمع عندما يقول «أصغِ»، لأنّ الإيمان الكاثوليكيّ لا يقول بإلهَين ولا بثلاثة، بل بإله واحد في ثلاثة أقانيم. ولا يُمكن، كما اعتقَد سابيلّيوس، أن نقول عن الثالوث تارةً إنّه آب، وتارةً إنّه ابنٌ، وتارةً إنّه الروح القدُس؛ فما الآب إلّا الآب، وما الإبن إلّا الإبن، وما الروح القدس إلّا الروح القدس؛ وما الأقانيم الثلاثة إلّا إلهٌ واحد. وفي قولِ الرسول: «كلُّ شيءٍ منه وبه وإليه» (رومة ١١: ٣٦)، يمكن أن نرى تلميحًا للثالوث: لأنّه لم يُضِف: لهم المجد، بل: «له المجد».

٤ - «سأدعوك، يا ربّ، وفي الغداة ستسمع صراخي» (٥ : ٤). لِمَ قال النبيّ لتوّه «أَصغِ»، كما لو كان يرغب في أن يُستجاب للحال، وها هو الآن يقول: «في الغداة ستسمعُ صراخي»؛ ثمّ: «سأدعوك»، لا «أدعوك»؛ وأخيرًا: «في الغداة سأقف وسأرى»، لا «في الغداة أقف وأرى»؟ ألا يكون غرضُ توسلاتِه ما ذكرَه في دعائِه الأوّل؟ لكنّ النبيّ، في ليل العالَم العاصف الظلِم، يُدرك أنّه لا يرى ما يرغبُ فيه، على الرغم من أنّه لا ينفكّ يرجو: «فما الرجاء الذي يُرى برجاء» (رومة ٨ : ٢٤). يعلم جيّدًا أنّه إذا كان لا يرى، فذاك لأنّ الليل الظلِم الذي هو عقاب الخطيئة، ما انتهى بعدُ؛ فيقول: «لأنّك أنت من سأدعوكَ يا ربّ». أي تلك هي عظمتُك، أنت يا من سأدعوك، فلا تستجيبُني إلّا في الغداة. لستَ إلهًا بوسع البشر الذين أظلمَ أعيُنَهم ليل الخطيئة أن يرَوه؛ لكن عندما ينجلي ليلُ ضلالي، وتنقشع الظلمات التي كانت تلفّني بها آثامي، ستسمع صراخي. لماذا، إذًا، لم يقل في البدء «ستسمع» بل قال «أَصغِ»؟ أيكون ذلك لأنّه أدركَ، بعد أن لم يُستَجَب، حين قال «استجبني»، ايّ زمنٍ ينبغي أن ينقضي لكي يُستجاب؟ أم أنّه استُجيب ولم يُدرك أنّه استُجيب، لأنّه لا يرى من يستجيب دعاءَه، وبالتالي ربّما تكون جملة: «في الغداة ستستجيبُني» تعني: «في الغداة سأُدرِك أنّك ستستجيبُني»؟، كما قيل في مكانٍ آخر: «قم يا ربّ» (٣: ٧)، بدلًا من: «هبني، أن أقوم». صحيح أنّ هذه العبارة تنطبق على قيامة يسوع المسيح، لكن إليكم نصًّا آخر لا يُمكن فهمه إلّا بالمعنى الذي نقصدُه: «الربّ إلهكم ممتحنُكم لتعرفوا إن كنتم تُحبّونه» (تثنية ١٣ : ٣)، أي لكي تعرفوا، بواسطتِه، ويُكشَف لكم أيّ تقدُّم بلغتُم في محبّتِه.

٥ - «في الغداة سأقف وسأرى» (٥ : ٥). ما معنى «سأقف»؟ أي:

لن أكون بعدُ مستلقيًا على الأرض. لكنّ الإستلقاء على الأرض يعني الإستراحة، والبحث عن السعادة في الشهوات الأرضيّة. «سأقف وسأرى» يقول النبيّ. فلنطّرِح أمور الحياة الدنيا، إن كنا راغبين في رؤية الله الذي يتجلّى لأنقياء القلوب. «لأنّك لستَ إلهًا يهوى الظُلم، ولا يُساكنك الشرّير، ولا يقف السفيه أمام عينَيك، وأبغضتَ فاعلي الإثم. تُهلكُ الناطقين بالكذب. سافكُ الدّماء والماكر يمقتُه الرّب» (٥ : ٦-٧). الظلم، والمكر، والكذب، وسفك الدماء، والسفاهة، والخداع، وسواها من الآثام المشابهة، ذاك هو الليل الذي يجب أن ينجلي عن صباحٍ يكشف لنا نور الربّ. يُخبرُنا النبيّ لماذا سيكون واقفًا في الغداة، ويرى الربّ. «لأنّك لست إلهًا يهوى الظُلم». فلو كان الله يهوى الظُلمَ، لكان الشرّير يراه، وما كان بحاجةٍ لانتظار الغداة، عندما ينقضي ليل المظالِم.

٦ - «ولا يُساكنك الشرّير»، ولا يراكَ فيتعلّق بك؛ من هنا الآية التالية: «ولا يقف السفيه أمام عينَيك»، لأنّ عينَه، أو بالأحرى روحه التي اعتادت ظلمات الخطيئة، ستُعميها للحال أنوار الحقيقة، ولن تقوى على احتمال إشراقة العقل المستقيم. فإذا ما تسنّى له أن يرى، جزئيًّا، وهو مقيمٌ في النفاق، وعرف الحقيقة، فهو لا يثبت فيها لأنّه يهوى ما يُقصيه عنها. في ذاتِه يحملُ ليلَه، هوى الخطيئة واعتيادُها. فإذا انقضى الليل، وانقطع عن الخطيئة وتخلّى عن هواها، يطلع الصباح فيفهم الحقيقة ويهيمُ بها ويعشقُها.

٧ - «أبغضتَ فاعلي الإثم». بغضُ الله هنا بمعنى بغض الخاطئ للحقيقة؛ وقد نقول أنّ الحقيقة، بدورِها، تبغض كلّ الذين لا ترتضي بأن يسكنوا فيها؛ فإن كانوا لا يسكنون، فلأنّهم لا يقوَون على

احتمالِها. «تُهلِك الناطقين بالكذب»، لأنّ الكذب مُجافٍ للحقيقة. لكن، لا نتصوّرَنَّ أنّ ثمّة طبيعةً أو جوهرًا يُمكن أن يُجافي الحقيقة؛ فلنفهم بالأحرى أنّ الكذب يؤكّد ما ليس موجودًا، لا ما هو موجود. قول الحقيقة هو قولُ ما هو موجود، والكذب هو قول ما ليس موجودًا. لهذا قيل: «تُهلِك الناطقين بالكذب»، لأنّهم بتغافلِهم عمّا هو موجود، يذهبون إلى ما ليس موجودًا. غالبًا ما يبدو أنّ الكذب يهدف إلى نُصرةِ آخر أو إلى ما فيه خيرُه، وأنّه نابعٌ من العطف لا من المكر؛ مثَلُ ذلك مثَلُ تينِك القابلتَين اللتَين كذبتا على فرعون لتُنقذا حياة ذكور العبرانيّين (خروج ١ : ١٩). لكنَّ المستحسنَ، هنا، هو النيّة لا الفعل. والذين لا يكذبون إلّا على هذا النحو، سوف يستحقّون، يومًا، أن يتخلّصوا من الكذب. لهؤلاء قيل: «ليكن كلامكم نعم نعم، ولا لا، وما زاد على ذلك فهو من الشرّير» (متّى ٥ : ٣٧). ومُبرَّرٌ ما كُتِبَ في موضع آخر: «الفم الكاذب يقتل النفس» (حكمة ١ : ١١)، لئلّا يظنّ أيّ إنسانٍ روحانيّ حقًّا، أنّه مسموحٌ له أن يكذب ليُنقذ حياتَه أو حياة غيرِه، التي لا تقتُلُ خسارتُها النفس. على أنّ ثمّة فرقًا بين الكذب وبين التكتّم على الحقيقة. فالأوّل هو قول الزور، والثاني طمس الحقّ؛ فإذا كنّا لا نريد أن نكشف إنسانًا يُرادُ له موت الجسد، علينا أن نكتم الحقيقة، لا نكذب، لئلّا نكشف شيئًا فنقتل نفسَنا بالكذب، بإنقاذنا حياة آخر. وإذا لم نتمكّن بعدُ من هذه الاستعدادات، فلنجتهِد، أقلّه، ألّا نكذب في ما يتجاوز هذه الأوضاع الضاغطة، من أجلِ أن يُنقذنا الله، حتّى من هذه الأكاذيب البسيطة، ويمنحنا القوّة، بالروح القدس الذي يدفعنا إلى ازدراء كلّ ما يمكن أن نعانيه من أجل الحقيقة. ليس ثمّة سوى نوعين من الكذب لا يُشكّلان إثمًا خطيرًا، ولكنّهما لا يخلوان من خطيئة، وهما كذب المزاح، والكذب من أجل أداء خدمة. ليس الخداع من

طبيعة كذب المزاح، ولا يحملُ في طيّاتِه خطورة. فالذي نكذب عليه يعلم علم اليقين بأنّ كذبَنا يُقصدُ منه المَرَح. والثاني من النوع الأخفّ، لأنّه ينطوي على شكلٍ من أشكال الطيبة. وما يُقال عن غير سوء نيّة، لا يستحقّ أن يقالَ إنّه كذب. إذا كان امرؤٌ قد ائتمَن صديقَه على سيفٍ، مثلًا، وأخذ منه وعدًا بأن يُعيدَه إليه عندما يطلبُه؛ من المنطق ألا يردّه إليه إذا طلبه وهو في حالٍ من الجنون، فيستعمله ضدّ نفسِه أو ضدّ الآخرين، بل عليه أن ينتظر هدوء سورة جنونِه. ليس في الأمر سوء نيّة، من حيث أنّ الصديق الذي تسلّم السيف أمانةً وتعهّد بردّه، لم يكن في وارد أن يُطلب إليه استرداده في سورة من الجنون. الربّ نفسُه رأى من الخير عدم الجهر بالحقيقة عندما قال لتلاميذه الذين لم يستوعبوا الأمر: «إنّ لديّ أشياء أخرى كثيرة أقولها لكم، لكنّكم لا تُطيقون الآن سماعَها» (يوحنّا ١٦ : ١٢). والقديس بولس قال أيضًا: «ما استطعتُ أن أكلّمَكم كأناسٍ روحيّين بل كأناس جسديّين» (١ قورنتُس ٣: ١). وعليه، يجب ألّا نتّهم من يسكت عن الحقيقة. ولكنّي لا أرى أنّه مسموحٌ للكاملين أن يكذبوا.

٨ - «سافك الدماء والماكر يمقتُه الربّ». إنّ في هذا القول تكرارًا لما قيل أعلاه: «تُبغض فاعلي الإثم وتُهلك الناطقين بالكذب». فسافك الدماء يُمكن أن يكون فاعلَ الإثم؛ والماكرُ، الناطقَ بالكذب. نمكُرُ عندما نوحي بأمرٍ ونأتي آخر. يقول النبيّ إن الربّ يمقت كليهِما. وهذا التعبير ينطبق على الذين يُحرَمون الميراث؛ فيما المزمور هو نشيد «التي فازت بالميراث»، وتُبدي فرحَ رجائِها إذ تصرخ: «وأنا بكثرة رحمتِك سأدخلُ بيتَك» (٥: ٨). كثرة الرحمة يُمكن أن تعني جمهور الناس الكاملين السعداء الذين تتكوّن منهم تلك المدينة التي تحملها الكنيسة في أحشائِها، وتلدُها شيئًا فشيئًا. كيف ننكر أنّ هذه الكثرة من الناس

الذين وُلِدوا مجدَّدًا، يمكن أن تُدعى كثرة رحمةِ الربّ، وقد قيلَ بحقّ: «ما الإنسان حتّى تذكرَه، وابن البشر حتّى تفتقِدَه؟» (مزمور٨: ٥). أمّا أنا، «فأدخل بيتك كما يدخلُ حَجَرٌ في بناء. فما هو بيت الله؟ إنّه هيكلُه الذي قيل فيه: «هيكلُ الله مقدَّس، وهذا الهيكلُ هو أنتم» (١ قورنتُس ٣: ١٧). وحجر الزاوية في هذا البناء هو ذلك الإنسان الذي تمنطق بقوة الله وحكمتِه الأزليّة.

٩ - «وأسجد بخشيةٍ قربَ هيكل قدسِك» (٥: ٨). قال النبي: «قرب هيكل قدسِك»، لا في هيكل قُدسِك أدخل وأعبدُك، بل «قرب هيكل قدسك أسجُد» هذه الحال ليست حال الكاملين، بل حال الذين يتوقون إلى الكمال. الكاملون يقولون: «أدخُلُ بيتَك». وقبل الوصول إلى البيت، ينبغي أن نقول أوّلًا: «سأعبدُك قرب هيكل قُدسِك». لعلّه لهذا يقول، كنوعٍ من التحصّن لمن يبغي الخلاص: «أسجدُ بخشية». وحين يتسنّى لكلِّ إنسانٍ أن يسجد بخشيةٍ في هيكلِ قُدسِ الله، تتمّ كلمة الإنجيليّ: «المحبّة الكاملة تُقصي كلّ مخافة» (١ يوحنّا ٤: ١٨)، ولا نخشى بعدُ شيئًا في حضرة الصدّيق الذي يُملّكُنا المواعيد ويقول لنا: «لا أدعوكم بعد الآن خدّامًا، بل أحبّاء» (يوحنّا ١٥: ١٥).

١٠ - «يا ربّ، أرشدني في بِرِّك لأجلِ مُضايقيّ» (٥: ٩). يكشف لنا أنّه ينطلق في الطريق، ويتوجّه نحو الكمال، لكنّه لم يبلغه بعدُ، من حيث أنّه يسأل الله أن يُرشده فيه. «أرشدني في بِرّك»، لا كما يبدو في عيون الناس الذين يتصوّرون أنّ البِرَّ في ردِّ الشرّ بالشرّ؛ فليس هذا بِرّ الذي قيل عنه: «إنّه يُشرق شمسَه على الأخيار والأشرار» (متّى ٥: ٤٥)، لأنّ الله يُجازي الأشرار من دون أن يُنزل بهم القصاصات، فيتركُهم في مكرِهم. يقول النبي: «ها إنّه يتمخّض بالإثم. حبِل بالكُرب

ليلِد الجَور. كرى بئرًا وحفرَها، فسقط في الهوّة التي صنع. عليه سيرتدّ كُربُه وعلى رأسِه سيسقط جورُه» (مزمور ٧: ١٥-١٧). يُجازي الله البشر كما يُجازي القاضي منتهكي الشريعة، لا بإنزال العقوبات بهم بنفسِه، بل بدفعهم إلى القِصاص الذي اختاروه هم بأنفسِهِم، فيكون لهم شرَّ قِصاص. لكنّ الإنسان الذي يردّ الشرَّ بالشرّ، إنّما يفعل ذلك بقصدٍ سيّء، فيغدو هو نفسُه شرّيرًا، إذ يُريد معاقبة الأشرار.

١١ - «في حضورِك خُطَّ لي طريقًا قويمًا» (٥: ٩). واضحٌ أنّه يُسلّم إلى الله أمر الوقت الذي تستغرقُه رحلتُه، وأنّ هذه الرحلة لا تسلك طريقًا أرضيّة، بل طريق مشاعر القلب. «في حضورِك خُطَّ لي طريقًا قويمًا»، أي في ذلك المكان السرّي الذي لا تبلغه أعيُن الناس الذين يجب ازدراء مدحهم ولومهم. فهم لا يملكون الحكم على ضمير الآخرين الذي هو الطريق القويم بنظر الله. ويُضيف النبيّ: «فإنّه لا صدق في أفواهِهِم» (٥: ١٠)، ولا يمكن الوثوق في أحكامِهِم؛ لذلك يجب أن نركن إلى عمقِ ضميرِنا، أمام الله. «قلوبُهم مليئةٌ فسادًا». كيف يكون الصدق في أفواهِهِم، وقلوبُهم مضلّلةٌ بالخطيئة وبقصاص الخطيئة؟ من هنا صرخة النبيّ ليصرِفهم عنها: «لِمَ تُحبّون الباطل وتبتغون الكذب؟» (٤: ٣).

١٢ - «أفواههم قبورٌ مفتوحة» (٥: ١٠). بوسعنا أن نطبّق هذا القول على الإسراف في الكلام، فهو لكثيرين حافزٌ على الكذب والخداع. بحقٍّ قال النبيّ: إنّ أفواههم قبورٌ مفتوحة، لأنّ شرَهَهم لا يرتوي، وتبقى أفواهم كالقبر المفتوح لاستقبال جثّة. نستطيع أن نقول أيضًا إنّه عن طريق الكلام الكاذب والدغدغات الماكرة، يجذبون إليهِم أناسًا يوقعونَهم في الخطيئة؛ وإدخالُهم في هذه الطريق يعني افتراسَهم.

لكنّ الإنسان الذي يبلغ هذا الحدّ يموت بالخطيئة؛ والذي أغواه يُدعى، بحقٍّ، قبرًا مفتوحًا؛ إنّه مات بشكلٍ من الأشكال، إذ لم تعُد فيه حياة الحقيقة، ويستقبل في ذاتِه الموتى الذين قتَلَهم، بجرّهم إليه عن طريق الكذب وقذارة القلب. «وألسنتهم مليئة بالمكر»؛ يقصد النبيّ ألسنة الأشرار. شرّيرٌ هو لسان الشرّير الذي ينطق بالسوء وبالخداع. لهؤلاء يقول الربّ: «كيف تنطقون بالخير وأنتم أشرار؟».

١٣ - «أللهمَّ فاحكم عليهم ولتُبَد مخطّطاتهم» (٥: ١١). هذه بالأحرى نبوءة لا لعنة؛ ولا يرغب النبيّ قطّ في أن يحلّ ذاك الإنتقام، لكنّه يعلم ما سوف يحدُث؛ وسوف يقع عليهم الإنتقام لا لأنّ النبيّ يرغب فيه، بل لأنّهم استحقّوا أن يقع عليهم. كذلك عندما يقول: «وليفرح جميع المعتصمين بك» (٥: ١٢). يتنبّأ النبي، ويرى ذاك الفرح المُقبِل. ويقول أيضًا: «أيقظ جبروتَك وهلمَّ لخلاصنا» (مزمور ٧٩: ٣)، لأنّه يتنبّأ بأن الربّ سيأتي. على أنّ بوسعنا أن نرى في عبارة «ولتُبَد مخططاتهم»، صلاةً يرفعُها النبيّ، يسأل فيها أن تُباد مخططات الأشرار، أو أن يكفّوا عن نسج مخططاتِهم الشرّيرة. لكنّ كلمة: «أقصِهِم» تحول دون أن نفهمها على هذا النحو، من حيثُ أنّ الإقصاء الذي يصنعه الربّ، لا يُمكن إلا أن يكون قِصاصًا على فعلٍ تحقّق. وليس الإقصاء بلعنة، بل هو نبوءةٌ تُنذِر بالويل الذي لا مناص من أن يقع فيه، حتمًا، أولئك الذين يُصرّون على الثبات في خطاياهم. فلتخزَ أفكارُهم، وليسقطوا، أمام شهادة ضمائرِهم، في مؤامراتِهم التي تتبادل التُهَم، كما قال الرسول: «وتشهد لهم ضمائرهم وأفكارهم، فهي تارةً تشكوهُم، وتارةً تُدافع عنهم، يوم يطلع نهار دينونة الله العادلة» (راجع رومة ٢: ١٥-١٦).

١٤ - «لكثرة معاصيهِم أقصِهِم» أي إطرحهُم بعيدًا عنك، فكثرة

معاصيهم تقتضي طرحَهم في اللجج البعيدة. هكذا يُقصى الآثم عن الميراث الذي نمتلكُه في معاينة الله ومعرفتِه؛ كما النور يُقصي العين المريضة، وتتألّم لما يُفرِح العين السليمة. هؤلاء، لن يقفوا، إذًا، في الغداة ولن يرَوا. وهذا الإقصاء قِصاصٌ يُقاس حجمُه بحجم الفرح الذي قيل عنه: «أمّا أنا ففرحي أن أعتصِم بالله» (مزمور ٧٢: ٢٨). والقِصاص تُقابِلُه كلمة الإنجيل: «أدخل فرَحَ إلهِك» (متّى ٢٥ : ٢٢)، والقصاص نفسُه توازيه الكلمة الثانية: «أَلقوهُ في الظلمةِ البرّانيّة» (متّى ٢٥ : ٣٠).

١٥ - «وأنت يا ربّ، وجدوك مُرًّا» (٥: ١١). «أنا الخبز الحي النازل من السماء» (يوحنّا ٦ : ٥١)، قال الربّ؛ وقال أيضًا: «إعملوا للقوت الذي لا يفنى» (يوحنّا ٦ : ٢٧)، وجاء في المزمور: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الربّ» (مزمور ٣٣: ٩). الخطأة يجدون خبز الحقيقة مُرًّا، ومن هنا حقدُهم على الأفواه التي تنطق بالحقّ. وجدوا الربّ مرًّا، لأنّ الخطيئة أسقمتهم حتى بات لخبز الحقيقة الذي تستلذُّه النفوس القدّوسة، مرارةٌ في أفواهِهِم لا تُطاق.

١٦ - «فليفرحِ المعتصمون بك»، الذين يعرفون أن يذوقوا الربّ ويجدوه طيّبًا. «يكون فرحُهم أبديًّا، وتسكن فيهم» (٥ : ١٢). هذا الفرح الأبديّ سيبدأ، إذًا، عندما يصير الأبرار هيكلَ الله، فيصير هو فرحَهم ويسكن فيهِم. «ويبتهج بك الذين يُحبّون اسمَك» (٥ : ١٢)، إذ يكون لهم أن يتمتّعوا بغاية حبّهِم. وبك يفوزون بالميراث، ويكونون بدورِهم ميراثك، لأنّك تسكن فيهم. ويُقصى عن هذا الفرح كلّ من اطّرَحهم الله بسبب آثامِهِم.

١٧ - «إنّك أنت تُبارك البارَّ» (٥: ١٣). والبركة تكون بالإبتهاج

بالرب الذي سيسكن فينا. ذاك هو المجد الذي يحفظه الله للأبرار. ولكي يُصبحوا أبرارًا، كان لا بدَّ من أن يُدعَوْا، لا لاستحقاقاتِهم، بل بنعمة الله. «فجميعُهم خطأة ويحتاجون نعمة الله ليتبرّروا» (رومة ٣: ٢٣-٢٤)، «فالذين دعاهُم برّرهم، والذي برّرهم مجّدَهم» (راجع رومة ٨: ٣٠). وبما أنّ هذه الدعوة لا تأتي من استحقاقاتِنا، بل من جود الله الرحيم، قال النبيّ: «وعنايتك يا ربّ تُظلّلُنا، ورضاك يكتنفُنا مثل ترس» (٥: ١٣). لأنّ عناية الربّ تسبق مشيئتَنا. تلكمُ هي الأسلحة التي نقهر بها عدوّنا. والرسول يواجه العدوّ بالقول: «فمن يتّهم مختاري الله؟» وأيضًا: «إذا كان الله معنا فمن علينا؟ لم يَضِنَّ بابنه الوحيد فأسلمَه إلى الموت من أجلنا» (رومة ٨: ٣١-٣٣). «إذا كان المسيح شاء أن يموت لأجلِنا ونحن أعداؤُه، فما أحرانا ونحن مصالَحون أن نخلُص به من سخط الله» (راجع رومة ٥: ٩-١٠). ذاك هو الترس المنيع الذي يصدّ العدو الذي يعمل على إغوائِنا بدفعنا إلى مهالك التجربة واليأس من الخلاص.

١٨ - إذًا، يبدأ المزمور أوّلًا بصلاة، إنطلاقًا من قولِه: «لأقوالي أَصِخْ أيّها الربّ»، وصولًا إلى «يا ملكي وإلهي»؛ ويؤكّد، ثانيًا، أنّ الكنيسة تُدرك ما الذي يحولُ دونَها ورؤية الله، أو دون معرِفتِها بأنّها استُجيبَت، إنطلاقًا من «سأدعوك يا ربّ، وفي الغداة ستسمع صوتي» وصولًا إلى «سافك الدماء تمقتُه، والماكر»؛ وثالثًا، وانطلاقًا من «وأنا بكثرة رحمتِك»، وصولًا إلى «وبخشيةٍ أسجد قرب هيكلِ قدسِك»، يوضح أنّ الكنيسة ترجو أن تُصبح يومًا بيت الله، وأن تقترب منه بخشيةٍ في هذه الحياة، إلى أن تُقصي المحبّةُ الكاملة كلّ مخافة؛ ورابعًا، إنطلاقًا من «أرشِدني يا ربّ في بِرِّك» وصولًا إلى «وألسنتهم مملوءةٌ مكرًا»، يبيّن أنّ الكنيسة تتقدّم وتسير وسط العوائق، وتستنجد بذاك

الداخل الذي لا تستشفّه عين البشر، مخافة أن تُحوّلَها ألسنةُ الأشرار عن الطريق القويم، طريق الرّبّ. وخامسًا، وإبتداءً من «أللهمّ فاحكم عليهم» وانتهاءً بنهاية المزمور، تُنبئ الكنيسة بعقاب الأثَمة، فور خلاص البارّ؛ وبمكافأة ذلك البار الذي يكون قد استجاب دعوة الله واحتمل بشجاعةٍ كلّ شيء في سبيل الوصول إلى الرّبّ.

عظة في المزمور السادس

دينونة الله

النفس المؤمنة تلتمسُ الربّ لكي يهبَها الخلاص، ويحفظَها في البِرّ، كما لو كان الله أعظمَ مجدًا في رحمتِه منه في بِرّه. تريد أن تبتعد عن الخطأة غير التائبين ما لم يتوبوا إلى الربّ.

١ - «للغاية، لترانيم اليوم الثامن، مزمور لداود»[(١)] (٦ : ١).

---

(١) نقلها أوغسطينُس عن السبعينيّة: Εἰς τὸ τέλος, ἐν ὕμνοιος, ὑπὲρ τῆς ὀγδόης ψαλμὸς τῷ Δανιδ. ونقلَها القدّيس هيرونيمُس إلى اللاتينيّة بالمعنى نفسِه: in finem in carminibus pro octava psalmus David. ونُقلَت إلى الإنكليزيّة: For the End, a Psalm of David among the Hymns for the eighth. أي للغاية، مزمور لداود من بين الترانيم لليوم الثامن؛ وإلى الفرنسيّة: Pour la fin, psaume de David, pour les chants du huitième jour، أي للغاية: مزمور لداود لترانيم اليوم الثامن؛ ونقلتها «La Bible de Jérusalem»: octacorde، أي الثمانيّ الأوتار، و«La Sainte Bible»: على القيثار الثمانيّ الأوتار. وفي ترجمة أخرى: Au chef des chantres, avec les instruments à cordes, à l'octave. Psaume de David: أي لإمام الغناء على ذوات الأوتار، على الدرجة الثامنة (أو لليوم الثامن). مزمور لداود؛ وبالعبريّة: , עַל-הַשְּׁמִינִית ; מִזְמוֹר לְדָוִד לַמְנַצֵּחַ בִּנְגִינוֹת. ونقلتها معظم الترجمات العربيّة: لإمام الغناء على ذوات الأوتار، على الدرجة الثامنة. مزمور لداود. وكلمة Octave الفرنسيّة تعني في الموسيقى: الدرجة الثامنة من السلّم الموسيقي المكوّن من سبع درجات، وتأتي الثامنة جوابًا للأولى؛ وفي الطقوس الدينيّة: فترة الأيّام الثمانية التي تلي الأعياد الكبرى، أو اليوم الثامن من هذه الفترة. من هنا اختلط المعنى على المترجمين.

عبارة «اليوم الثامن» غامضة؛ وما تبقّى من العنوان واضح. اعتقد بعضُهم أنّها تعني يوم الدينونة، أو زمن مجيء يسوع المسيح الذي يأتي ليدين الأحياء والأموات. ووفقًا لهذا الإعتقاد، سيكون المجيء بعد سبعة آلاف سنة، إبتداءً من آدم؛ وهذه الآلاف السبعة من السنين تمرُّ كسبعة أيّام، والثامن يكون يوم المجيء. لكنّ الربّ قال: «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي حدّدها الآب في سلطانِه» (أعمال ١ : ٧). وأيضًا: «أمّا ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفُهما أحد؛ لا الملائكة ولا القوّات ولا الإبن نفسُه، إلّا الآب وحدَه» (متّى ٢٤ : ٣٦). وأخيرًا، كتب القدّيس بولُس أنَّ يوم الربّ يُباغتُنا كالسارق (١ تسّالونيقي ٥ : ٢). كلّ هذا يُبيّن لنا بوضوح أنّه ينبغي ألّا نسعى إلى معرفة ذلك اليوم بتقدير عدد السنين. فلو انّ يومَ الربّ آتٍ بعد سبعة آلاف سنة، لتسنّى لكلّ إنسانٍ أن يعرفه عن طريق الحساب. فكيف، إذًا، لا يعلَمه الإبن؟ هذا الكلام يعني أنّ الإبن لن يُخبر به الناس، لا أنّه لا يعلمه هو. وعلى هذا النسق قيل: «إنّ الربَّ إلهكم ممتحنكم ليعلَم . . .» (تثنية ١٣ : ٣)، أي ليُعلِمَكم؛ كذلك عبارة «قم يا ربّ» (مزمور ٣ : ٧) تعني أعِنّا لنقوم. فإذا كان الإبن لا يعلم اليوم، فهذا لا يعني أنّه يجهلُه، بل أنّه لا يُخبِرُ به الذين لا فائدة لهم في معرفتِه. أليس ثمّة شيءٌ من الغرور في عدّ السنين وحساب التواريخ، للتأكيد على أنّ يوم الربّ آتٍ بعد سبعة آلاف سنة؟

٢ - أمّا نحنُ، فلنجهلْ، بطيب خاطر، ما لم يحسُن لدى الله أن يكشفَه لنا، ولنبحث عمّا تعنيه عبارة «اليوم الثامن» الواردة في الآية الأولى. من غير أن نلجأ إلى حساباتٍ تافهة، بوسعنا أن نفهم باليوم الثامن يوم الدينونة، لأنّ نهاية هذا العالم تفتح أمامنا الحياة الأبديّة، فلا تعود أنفس الأبرار خاضعةً لتقلّبات الزمن؛ ولمّا كانت كلّ الأزمنة

تمرُّ دوريًّا سبعة أيّامٍ بعدَ سبعة، فإنّنا نُسمّي اليوم الثامن اليومَ الواقع خارج دورة الأيّام. وفي معنى آخر لا يخلو من الصواب، نُسمّي اليوم الثامن يوم الدينونة، لأنّه سيأتي بعد نوعَين من الحياة، حياة الجسد وحياة الروح. من آدم إلى موسى حياة البشر جسديّة، وهذا ما يدعوه القدّيس بولُس حياة الإنسان الخارجيّ، أو الإنسان العتيق (أفسُس ٤ : ٢٢). لهذا الجيل أعطِي العهد القديم. كانت العبادة التي فرضَها قاسية، ولو انّها تقويّة؛ وكانت ترمز إلى العبادة الروحيّة في المستقبل. خلال تلك الحقبة التي كان الناس يعيشون فيها بحسب الجسد، «مَلَكَ الموتُ»، يقول الرسول، «حتّى على الذين لم يخطأوا». وقال أيضًا: إنّ الموت مَلَكَ لأنّ الناس عَصَوْا على مثال آدم (رومة ٥: ١٤). وعبارة «إلى موسى» تعني ما دامت الشريعة قائمة، أي تلك الطقوس المقدّسة التي كانت تُمارس بحسب الجسد، وتُقيّد المؤمنين بإله واحد، لكي تمنحهم الإيمان بسرّ المستقبل. لكن، منذ مجيء يسوع المسيح الذي نقلنا من ختانة الجسد إلى ختانة القلب، بتنا مدعوّين للعيش بحسب الروح، أي بحسب الإنسان الداخليّ، الذي يدعوه الرسول الإنسان الجديد (قولوسّي ٣: ١٠)، بسبب ولادته الجديدة بالمعموديّة، وبسبب أعمالِه التي غدَت روحيّة. من الواضح أنّ العدد ٤ يختصّ بالجسد لكونه مؤلّفًا من عناصر أربعة، وحالاتٍ أربع: الساخن والبارد والجاف والرطب. من هنا نظّم الله الفصول الأربعة: الربيع والصيف والخريف والشتاء. كلّ هذا معروف. وفي مكانٍ آخر، ثمّة برهانٌ يستند إلى مبرّراتٍ أكثر غموضًا، بأنّ العدد ٤ يختصّ بالجسد؛ لكن فلنُجانب تلك المبرّرات الغامضة، في خطابٍ نتوجّه به إلى أناسٍ ليسوا على درجة عالية من العلم. والعدد ٣ يختصّ بالروح، من حيثُ يوصينا الربّ فيقول: «أحبَّ الربّ إلهكَ بكلّ قلبك وكلّ نفسِك وكلّ قدرتِك

(تثنية ٦: ٥؛ متّى ٢٢: ٣٧). وسنعطي تفاصيل أوسع في شرحنا الإنجيل، لا في شرح مزمور؛ لكنّ هذا كافٍ، برأيي، لنبيّن أنّ العدد الثلاثيّ يختصّ بالروح. وعليه، فعندما تنقضي أعداد الجسد المتعلّقة بالإنسان العتيق وبالعهد القديم، وتنقضي معها أعداد الروح، أو أعداد الإنسان الجديد والشريعة الجديدة، كمجموعة من سبعة أيّام، من حيثُ أنّ كلّ عملٍ في هذه الحياة يُنسَب إلى الجسد، أي إلى العدد ٤، أو إلى الروح أي إلى العدد ٣، فسيأتي بعدَها اليوم الثامن، الذي يُعيد لكلّ إنسانٍ ما استحقّه، ويدعو الأبرار، لا لأعمالٍ عابرة، بل إلى الحياة التي لا نهاية لها، ويدين الأشرار بالعذابات الأبديّة.

٣ - تلك هي الدينونة التي ترهبُها الكنيسة التي تصرخ في هذا المزمور: «يا ربّ لا توبّخني بغضبِك» (٦: ٢). والقديس بولس يتكلّم أيضًا عن الغضب يوم الدينونة، فيقول: «تذّخر لك غضبًا ليوم الغضب، ولقضاء الله العادل» (رومة ٢: ٥). في هذا اليوم لا يرغب في أن يقف متّهَمًا من يطلب الشفاء في هذه الحياة. «ولا تؤدّبني بسُخطِك». كلمة «تؤدّبني» أخفّ وطأةً من كلمة «توبّخني»، لأنّها تؤدّي إلى الإصلاح؛ فبدل أن نُتّهَم ونُدان، علينا أن نخشى الإدانة. غير أنّ السخط يبدو أشدَّ من الغضب، ويمكن أن نعجب من أنّ التأديب، وهو الأخفّ، يترافق مع السخط، وهو الأشدّ. أمّا أنا فأرى أنّ العبارتَين تحملان المعنى نفسِه، لأنّ اللفظة اليونانيّة «ثومُس Θυμός = غضب» في المقطع الأوّل، لها معنى لفظة «أورغِه ὀργῇ = سخط» في المقطع الثاني. ولمّا رأت الترجمة اللاتينيّة أن تستعمل العبارتَين أيضًا، بحثت عن كلمة مرادفة لِـ«غضب: furore» فوضعت «سخط: ira». من هنا التنوّع في الترجمات. في هذه يأتي الغضب قبل السخط، وفي تلك بعدَه. ومهما يكن من أمر، فإنّ هاتَين الكلمتَين تعبّران عن حركة في النفس تبغي

الإنتقام، حركة لا نستطيع أن نعزوَها إلى الله بالمعنى الذي نعزوها فيه لأنفسِنا، من حيثُ أنّه قيل: «لكنّك أيها السلطان القدير تحكم بالرِفق» (حكمة ١٢ : ١٨). وما كان بالرفق، يتعارض مع ما هو بالشدّة. والله في حكمه لا ترقى إليه شدّة؛ لكنّنا دعَونا غضبه ذاك الشعور الذي سبّبته شرائعُه عند خدّامِه. والحال، فإنّ النفس التي تتوسّل في هذا المزمور، تخشى أن تكون متّهمةً بسبب هذا الغضب، حتّى أنّها لا تُريد التأديب الذي قد يُصلِحُها أو يُعلّمُها. إذ جاء في النص اليوناني παιδεύσῃς paideuses أي علّم وأدّب وربّى. في يوم الدينونة سوف يُجرّم جميع الذين لم يتأسّسوا على يسوع المسيح، أمّا الذين بَنَوْا على هذا الأساس بالخشب أو التبن أو القشّ فيُصلَحون ويُطهّرون، وينالُهم ضرر؛ إلّا أنّهم يخلصون، لكن كمن يخلُص من خلال النار (١ قور ٣: ٢). ماذا يُمكن أن نسأل الله عندما لا نريد أن نُتّهَم أو نؤدَّب في غضبِه؟ ماذا نسأله سوى أن نشفى؟ ذاك أنّ الشفاء لا يبقي فينا خوفًا، لا من الموت، ولا من يد الطبيب الذي يستخدم النار أو المبضَع.

٤ - ويتابع المرنّم فيقول: «ارحمني يا رب فإنّي سقيم، اشفني فإنّ عظامي رجفت» (٦: ٣). ويقصد بالعظام قوّة الروح أو الشجاعة. والروح، عندما تتكلّم عن عظامِها، تشكو من شجاعتِها التي تزعزعت؛ ولنحترز ألّا نظنّ أنّ لها عظامًا كعظام الجسد. ويشرح النبيّ قولَه فيُضيف: «ونفسي ارتاعت جدًّا»، لئلّا ننسب إلى الجسد ما سمّاه عظامًا. «وأنت يا ربُّ فإلى متى؟» (٦: ٤). من لا يرى في هذا نفسًا تُصارعُ أسقامَها، ولا يهبّ الطبيب ليشفيَها ويُشعِرَها في أيّ لجّةٍ من الشرور ألقتها الخطيئة؟ قلّما يسعى المرء إلى تجنّب ما يشفى بسهولة؛ غير أنّ الشفاء العسير يجعلُنا أكثر تنبُّهًا للحفاظ على صحّتنا متى استعدناها. لا يخطرَنَّ ببالِنا أنّ الربَّ يقسو لكي نصرخ إليه: «وأنت يا

ربّ إلى متى تتأخّر في شفائي؟»؛ لكنّه يُريد، في جودِه، أن يُظهِر للنفس أيّ جرحٍ سبّبته لذاتِها. وهذه النفس لم تسأل بعدُ بحرارة تجعلُ الله يقولُ لهاَ: «ما إن تدعو حتّى أجيب، وفيما أنت تتكلّم أستجيب» (أشعيا ٦٥ : ٢٤). يريد الله أن يُبيّن لنا أيضًا ما سيكون قِصاص الأثَمة الذين يرفضون أن يتوبوا إليه، في حال بدت لنا التوبة بالغة الصعوبة؛ وبهذا المعنى قال في مكانٍ آخر: «إذا كان البارّ بالجهد يخلُص، فما هي حالُ الخاطئ والآثم؟» (١ بطرس ٤ : ١٨).

٥ - «عُدْ يا ربّ ونجِّ نفسي» (٦ : ٥). يعود الخاطئ إلى الله ويرجوه أن يعود هو إليه، كما كُتِب: «توبوا إليّ، يقول الربّ، فأتوبُ عليكم» (زكريّا ١ : ٣). لكن، أتعني عبارة «عُدْ يا ربّ»: أعِنّي في عودتي، لما في طريق العودة إلى الله من مشقّة وعقبات؟ لأنّنا عندما نتوب إلى الربّ توبةً كاملة، نلقاه حاضرًا أبدًا ليتوب علينا، كما قال النبيّ: «نلقاه مستعدًّا من الفجر» (هوشع ٦ : ٣، السبعينيّة). والحال، فإنّنا فقدناه. ما ابتعد عنّا، هو الحاضر في كلّ مكان، بل نحنُ أدرنا له ظهورَنا. قيل: «كان في العالَم، وبه كان العالَم، والعالَم لم يعرفه» (يوحنّا ١ : ١٠). فإذا كان في العالَم، ولم يعرِفهُ العالَم، فذاك لأنّ رجاساتِنا لا تُطيق حضورَه. لكن، لكي نتوب أو نمحوَ حياتنا السابقة بقولبة روحِنا، مجدّدًا، على صورة الله، نشعرُ بالجهد الشاقّ الأليم الذي يقتضيه إبدال شهواتِنا الأرضيّة بصفاء النور الإلهيّ. وفي هذا الجهد الشاقّ نقول: «عُدْ إليّ يا ربّ»، أي أعِنّي لتكمُل فيّ عودتي إليك، فأكون مستعدًّا على الدوام، لأُقدّمك بالفرح للذين يُحبّونك. وبعد أن قال: «عُدْ إليّ يا ربّ» يُضيف النبيّ: «ونجِّ نفسي»، التي ما زالت أسيرة هموم الدهر، وبعودتِها إليك تشعر بأشواك الشهوات تُمزّقُها. يقول: «خلّصني لأجل رحمتِك» (٦ : ٥). يشعرُ النبيّ أنّه لم

يشفَ باستحقاقاتِه الشخصيّة، لأنّ الخاطئ، منتهكُ الشريعة، لا يتوقّع من العدالة غير الإدانة. خلّصني، إذًا، يقول النبيّ، لا لأني استحققت خلاصَك، بل لأجل رحمتِك.

٦ - «فإنّه ليس في الموت من يذكرُك» (٦ : ٦). يُدرك أنّ التوبة تكون في هذه الحياة، لأنّه لا يبقى لأيّ واحدٍ، بعد الموت، إلّا جزاء أعمالِه. «هل في الجحيم من يعترف لك؟» (٦ : ٦). الغنيّ الذي يتكلّم عنه يسوع المسيح، اعترف بالله في الجحيم، وهو يُعاني العذابات، حين رأى لعازر يستريح في حضن إبراهيم؛ اعترفَ بالله ورجاه أن ينبّه إخوتَه فيمتنعوا عن الخطيئة، كي لا يُساموا عذابات جهنّم التي لا تُطاق (راجع لوقا ١٦ : ٢٣-٣١). باطلًا رجا، لكنّه أقرّ بأنّه نال جزاءَه العادل، ما جعلَه يتمنّى تحذير إخوتِه لكي يتفادَوا ذلك القِصاص. فماذا تعني، إذًا، عبارة «هل في الجحيم من يعترف لك؟». أيكون الجحيم هو تلك الهوّة السحيقة التي يُطرح فيها الشرّير بعد الدينونة، وتحول كثافة الظلمات التي تلفُّها من أن يُطلّ منها بصيص نورٍ إلهيّ يُمكّن من الإعتراف بالله؟ على أنّ ذلك الغني، إذ رفع عينَيه وشاهد إبراهيم ولعازر في حضنِه، على الرغم من الأعماق السحيقة المظلمة التي تلفّه هو نفسُه، كان لا بدّ له من أن يضع مقارنة انتزعت منه الإقرار بذنوبِه. وللنبيّ أن يدعُوَ الخطيئةَ موتًا، إذا ما ارتُكبَت ضدّ الشريعة الإلهيّة؛ إنّما هو يجعلنا ندعو موتًا الشوكةَ التي تؤدّي إلى الموت، لأنّ شوكة الموت هي الخطيئة (١ قورنتُس ١٥ : ٥٦). في هذا الموت، نسيانُ الله يكون في ازدراء أحكامه وشرائعِه. ولعلّ النبيّ يدعو جحيمًا عمى البصيرة الذي يضرِبُ الخاطئ ويكتنفُه، أو الروح التي تموت بالخطيئة. يقول القدّيس بولُس: «ولمّا لم يرَوا خيرًا في المحافظة على معرفة الله أسلمَهم الله إلى فساد بصائرِهم» (رومة ١ : ٢٨). من هذا الموت، ومن

ذاك الجحيم، تسأل النفسُ الله أن يُنجّيَها، وهي تسعى للعودة إليه، وتشعر بمصاعب العودة.

٧ - ويتابع النبيّ فيقول: «أعييتُ في تنهّدي»؛ وكما لو انّه استقلّ ما قال، فأردَف: «في كلّ ليلة أُروي سريري، وبدموعي أُبلل فراشي» (٦ : ٧). هنا يدعو سريرًا كلّ ما تسعى إليه النفس الضعيفة السقيمة طلبًا لراحتِها، كالشهوة الجسديّة وملذّات العالَم. وما غَسْلُ تلك الملذّات بالدموع، سوى السعي إلى الانسلاخ عنها. نرى أنّ شهواتها الجسديّة مُدانة، ولكنّها لضعفِها، تستلِذُّها وتتعلّقُها لتستريح فيها وتتنعّم، ولا تستطيعُ نفسُنا أن تنهض منها إلا بعد أن تشفى. والنبيّ بقولِه: «في كلّ ليلة»، أراد أن يصوّر الإنسان صاحبَ الروحِ المستعدّة لاستقبالِ قبسٍ من نور الحقيقة، لكنّ جسدَه ما زالَ ضعيفًا ويرغب في إيجاد سعادته، أحيانًا، في ملذّات الدهر، فتراه يتراوح في تباريحِه بين نورٍ وظلمة: نهارُه ساعة يقول «ها أنذا عبدٌ بالعقل لشريعة الله»؛ وليلُه ساعة يقول «وعبدٌ بالجسد لشريعة الخطيئة» (رومة ٧: ٢٥)، إلى أن ينجليَ عنه الليل كلُّه، ويأتيَ النهار الوحيد الذي قيل عنه: «في الغداة سأقف وسأرى» (٥ : ٤). إذ ذاك سيقف؛ أمّا اليوم، فهو ممدّدٌ على ذلك الفراش الذي عليه أن يُبلّله بفيض الدموع لينال من جودِ الله الدواءَ الشافي.

٨ - «ذبُلت من الكَرب عيني»: هل ذبلت من كَربِه هو، أم من كَرب الله الذي بسببه سأله أن ينجو من الخزيِ والقِصاص؟ لكن، إذا كان كَرب الله يعني الدينونة، فكيف يشعرُ به وهو حيّ؟ أو أنّ هذا الكَرب يبدأ من هذه الحياة، في آلام البشر وأسقامِهم، وخاصّة في عجزهم عن إدراك الحقيقة، بحسب كلام القدّيس بولس الآنف الذكر: «أسلمَهم الله

إلى رأيٍ مرذول» (رومة ١ : ٢٨). ذاك هو، في الحقيقة، عمهُ القلب، حين يجد كلّ إنسان نفسَه، في هذه الحال، محرومًا من كلّ نورٍ إلهيّ في داخله، لكن لا بصورة مطلقة، ما دام حيًّا. لأنّ ثمّة ظلماتٍ خارجيّة محفوظة، بشكلٍ أخصّ، ليوم القضاء، تُقصي كلّيًّا عن الله كلّ مَن تهامل في إصلاح نفسِه في هذه الدنيا. لكن، ما البقاء كلّيًّا خارجًا عن الله، سوى عمه القلب الكلّيّ؟ لأنّ الله «مسكنه نورٌ لا يُدنى» (١ طيموتاوس ٦ : ١٦) ولا يدخله إلّا من دعاهم بقولِه: «أدخل فرح سيّدِك» (متّى ٢٥ : ٢١). هذا الكَرب يبدأ، إذًا، فيُرهق كلّ خاطئ، في هذه الحياة. والخوف من يوم القضاء ينتزع من النبيّ الأنين والدموع؛ إنّه يخشى مواجهة غضبٍ بدايتُه مثلُ هذا الألم؛ وهكذا، لا نسمعه يقول «إنّ عينه انطفأت» بل «إنّها ذبلت من ذلك الكَرب». ولا عجبَ بعدُ لو قال إنّ عينه ذبُلت من غضبِه هو؛ وربّما، بهذا المعنى قيل: «لا تغربِ الشمسُ على غضبِكم» (أفسس ٤ : ٢٦). ذاك أن النفس المضطربة، لا تستطيع أن تعاين الله، فتتصوّر أنّ تلك الحكمة الإلهيّة، وتلك الشمس الداخليّة غابت عنها بشكلٍ من الأشكال.

٩ - «هرِمتُ وسط جميع مُضايقيَّ» (٦ : ٨). سبق أن تكلّم عن كَرْب، كما لو انّه كَربه؛ لكنّه عندما رجع إلى العيوب الأخرى، وجدَها تُحاصرُ نفسَه. ولمّا كانت تلك العيوب تأتينا من حياتنا الأولى، ومن الإنسان العتيق الذي ينبغي أن نخلعه عنّا لنلبس الإنسان الجديد، فإنّ صاحب المزامير مصيب في قوله «هرِمتُ». وجملة «وسط جميع مضايقيَّ» يُمكن أن تُفهم، إمّا وسط العيوب، أو وسط الناس الذين يرفضون الرجوع إلى الله؛ فهؤلاء الناس، ولو عن جهل، وعلى الرغم من محاولاتِهم، ومع كونِهم يعيشون معنا بسلام، في المدن نفسِها، وتحت السقف نفسِه، ويجلسون معنا إلى المائدة نفسِها، وغالبًا ما

يسالموننا، فإنّهم، بنواياهم المخالفة لنوايانا، أعداءٌ لكلّ من أراد الرجوع إلى الله. وإذا كان البعض يحبّون العالَم ويتعلّقون به، والبعض الآخر يرغبون في التخلّص منه، فمن ذا لا يرى أنّ الأوّلين هم أعداء الآخرين، ويعملون على جرّهم، متى استطاعوا، إلى أن يلقَوْا العقاب نفسَه؟ إنّها لنعمةٌ من الله، أن يسمع المرءُ كلامهم في كلّ يوم، من دون أن يتوه عن طريق وصايا الله. إنّ نفسًا تجتهد للإنطلاق نحو الله، غالبًا ما تقع، في طريقِها، فريسة الخوف والضياع، وغالبًا ما تفقد عزمَها، مخافة أن تُسيء إلى الذين يعيشون معها، والذين يسعَوْن بشغفٍ إلى امتلاك الخيور العابرة والفانية. إنّ كلّ قلبٍ ينعم بتمام العافية ينأى عن هؤلاء، لا بالمكان، بل بالعاطفة؛ ذاك أنّ المحبّة للروح، بمثابة المكان الذي يضمّ الجسد.

١٠ - إذًا، بعد العناء والنحيب وذرف الدموع الغزيرة، كيف لنا ألّا نبتهل بتوسّلاتٍ حارّة، إلى يَنبوع المراحم كلّها، الذي قيل عنه بحقّ: «الربّ قريبٌ من منكسري القلوب» (مزمور ٣٣: ١٩)؛ بعد كلّ تلك الصعوبات، كلّ نفسٍ تقيّة، أو حتّى الكنيسة، إن شئتُم، تشهد بأنّها استُجيبَت. وإليكم ما تُضيف: «أُبعدوا عنّي يا جميع فاعلي الإثم، فإنّ الربّ سمع صوت بكائي» (٦: ٩). فإمّا أنّ النبيَّ يبشّر بأنّ فاعلي الإثم، في يوم القضاء، ينبغي أن يُقصَوا عن الأخيار؛ أو أنّه يأمرهم بالإبتعاد فورًا؛ لأنّهم، ولو كانوا حبوبًا من سنابلنا نفسِها، إلّا أنّ الحبوب، على البيدر، تُنقّى بعد أن يُنزع عنها القشّ الذي يغلّفها. وحتّى ولو بقيت مكوّمة مع القشّ، فإنّها لا تُحمَل معه في الريح.

١١ - «لأنّ الربّ سمع صوتَ دموعي، سمع الربّ تضرّعي، تقبّل الربّ صلاتي» (٦: ٩ و١٠). هذا التكرار المتواتر للفكرة نفسِها يدلّ،

لدى النبيّ، على نشوة الفرح، فوق ما يدلّ على الحاجة إلى التكرار. فمن اختبر نشوة الفرح لا يكتفي قطّ بأن يُنبّهنا إلى بواعثِها مرّة وحيدة. تلك هي ثمرة ذلك النحيب الأليم الذي يُبلّل فراشه بالدموع، ويُروي سريره: «فالذين يزرعون بالدموع، يحصدون بالترنيم» (مزمور ١٢٥ : ٥)؛ و«طوبى للحزانى، فإنّهم يُعزَّون» (متّى ٥ : ٥).

١٢ - «فليخزَ جميع أعدائي ويرتاعوا» (٦ : ١١). سبق للنبيّ أن قال: «أُبعدوا عنّي»، وهذا ما هو ميسَّر في هذه الحياة، كما رأينا؛ لكنّه، عندما يتكلّم عن الخزي والإرتياع، لا أرى أنّ الأمر يمكن أن يُفهم على خلاف اليوم الذي يظهر فيه ثواب الأبرار وعقاب الخطأة. والحال، وحتّى ذلك اليوم، فإنّ الآثم أبعد من أن يخجل ويرعوي عن شتمنا. حتّى أنّ استهزاءه، غالبًا ما يبلغ حدًّا يخجل معه ضعفاء الإيمان بيسوع المسيح. من هنا ما توعّد به الربّ فقال: «من يخجل بي أمام الناس، أخجل به أمام أبي» (لوقا ٩: ٢٦). فمن أراد بعد ذلك، أن يتّبع وصايا الإنجيل السامية، و«يوزّع ماله ويعطي المساكين لكي يدوم برُّه إلى الأبد» (مزمور ١١١ : ٩)، ويبيع مقتنياتِه الأرضيّة لكي يُساعد المعوِزين، ويتبع المسيح، ويقول: «لأنّا لم ندخل العالم بشيء، ولا نستطيع أن نخرج منه بشيء. فلنكتفِ بالقوت والكسوة» (١ طيموتاوس ٦ : ٧،٨). إنّ من يفعل هذا، واقعٌ، لا محالة، أضحوكةً قذرة للأثَمة. فالذين يرفضون الحقّ يعتبرونه أخرق. وتلافيًا لاستحقاق هذا اللقب يُطلقُه عليه مرضى النفوس، يخشى أن يعمل بوصايا الإنجيل، ويُرجئ إلى الغد ما أمر به الطبيب الأمهر والأرحم. هؤلاء، إذًا، لا يمكن أن يخجلوا في هذه الحياة؛ فلنتمنَّ، والحال هذه، ألّا يتمكّنوا من أن يُخجِلونا، فيحرفونا عن الطريق الذي سرنا فيه، وألّا يُسبّبوا لنا الضيق والمعاثر. لكن، يأتي يومٌ يخجلون فيه ويُردّدون كلام الكتاب: «هذا

الذي كنّا، حينًا، نتّخذه سُخرةً ومثلًا للعار، وكنّا نحنُ الجهّال نحسب حياتَه جنونًا وموتَه هوانًا، فكيف أصبح معدودًا في بني الله وحظّه مع القدّيسين! قد ضللنا عن طريق الحقّ ولم يُضئ لنا نور البِرّ ولم تُشرق علينا الشمس. أعيينا في سبل الإثم والهلاك، وهِمنا في متاهةٍ لا طريق فيها ولم نعلَم طريق الرّبّ. فماذا نفعتنا الكبرياء، وماذا أفادنا افتخارُنا بالأموال؟ كلّ ذلك مضى كالظلّ وكالخبر السائر» (حكمة ٥ : ٣-٩).

١٣ - «وليتوبوا سريعًا في خزيِهم» (١١). من ذا لا يرى، في هذه الكلمات، قِصاصًا عادلًا لخزيِهم، بسبب رفضِهم توبةً تعود عليهم بالخير لخلاصِهم؟ «ليتوبوا سريعًا» يقول النبيّ، لأنّهم لن يتّكلوا بعد الآن على يوم القضاء، وفيما يقولون: «السلام لنا»، «وقتئذٍ يدهمهم الهلاك بغتةً فلا يُفلتون» (١ تسّالونيكي ٥ : ٣). في أيِّ ساعة، يحدث بغتةً ما لا يُتوقَّع. والأمل بالعيش، هو وحده ما يدفعنا إلى الإعتقاد بأنّ هذه الحياة طويلة. ولا شيء يبدو لنا أسرع من الزمن الذي انقضى. وعندما يأتي يوم الدينونة، سيشعر الخطأة كم كانت حياتهم قصيرة، ولن يُصدّقوا أنّه لن يكون قد انقضى زمنٌ طويل قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي لم يكونوا يتمنَّوْنه، أو بالأحرى، لم يؤمنوا يومًا بحلولِه. وبوسعنا أن نقول أيضًا إنّ النفس التي استجاب الله بكاءَها المتواصل ودموعها الغزيرة، عندما تشعر بأنّها انعتقت من الخطيئة، وأنّها كبحت جميع شهواتِها المنحرفة الأثيمة، بقولِها: «أُبعدوا عنّي يا جميع فاعلي الإثم، فإنّ الربّ سمع صوت بكائي (مزمور ٦ : ٩)»، تجدُ أنّها بلغت حالة الكمال التي تُمكّنها من أن تُصلّي لأعدائِها. ولعلّه قيل بهذا المعنى: «فليخزَ جميع أعدائي ويرتاعوا»، لكيما يتوبوا عن آثامهم، الأمر الذي يستحيل من دون خزيٍ وارتياع. وليس ما يمنع من أن نفهم جملة «وليتوبوا في خزيِهم» بمعنى التوبة إلى الله، والخزي من كونِهم تباهَوْا،

في الماضي، بانغماسِهم في ظلمات الخطيئة، كما قال الرسول: «أيّ مجدٍ جنيتم ممّا تخجلون منه الآن» (رومة ٦: ٢١). أمّا تأكيده على القول «وليتوبوا سريعًا في خزيِهم»، فيمكن أن يدلّ على اضطرام الشوق، أو الإتّكال على قدرة المسيح الذي ردّ إلى الإيمان بالإنجيل، في وقتٍ قصير، أُممًا كانت تُدافع عن أوثانِها وتضطهد الكنيسة.

عظة في المزمور السابع

صمت يسوع المسيح

هذا المزمور هو نشيد الروح التي بلغت الكمال، والتي يكشف لها الإيمان أسرار الألم المغلقة على اليهود والخطأة الحاليّين. وهو يتضمّن صبر يسوع الصامت تجاه يوضاس، ولماذا أراد، هو الصالح، أن يتألّم.

مزمور لداود رنّم به للرّبّ بسبب كلمات «كوش[1]» البِنيَمينيّ (٧: ١)

١ - من السهل أن نعرف من خلال رواية سفر الملوك الثاني (٢ صموئيل ١٦ و١٧)، ما الذي أوحى بهذه النبوءة. فالرواية تُخبرنا بأنّ «كوش» صديق الملك داود، تحوّل إلى صفوف أبشالوم المتمرّد على أبيه، لكي يستكشف مخطّطاتِه، ويُخبرَ داود بجميع المكائد التي كان يحوكُها ذاك الإبن ضدّه، بالتآمر مع أحيتوفَل الذي خان عهد الملك، ليدعم بكلّ نصائحه الإبن المتمرّد. وفي هذا المزمور، ينبغي النظر إلى الرواية كرواية، أقل من النظر إليها كحجابٍ يُلقيه النبيّ على سرٍّ عظيم.

(١) ورد الإسم في رواية سفر صموئيل الثاني (٢ صموئيل ١٥ : ٣٢): חוּשַׁי הָאַרְכִּי (نسبةً إلى أرك في بابل: تكوين ١٠ : ١٠)، صديق داود الذي أصغى أبشالوم إلى مشورتِه؛ والجذر חשה يعني سكت والتزم الصمت. وفي المزمور السابع: כּוּשׁ ,בֶּן-יְמִינִי كوش بِنيَميني. و«كوش أو كوشي» تعني الحبشي أو الزنجي. وأحيتوفل אֲחִיתֹפֶל معناه أخو الجهالة.

فلنرفع ذاك الحجاب، ما دمنا انتقلنا إلى المسيح. ولنرَ أوّلًا ما تحمله الأسماء من معانٍ؛ ذاك أنّنا لم نعدم من يُفسّرها لنا، لا بالحرف وبصورة مادّيّة، بل بمعنى مجازيّ نعرف من خلاله بأنّ «كوش» يعني الصمت، و«البنياميني»، «ابن اليمين»، و«أحيتوفَل»، «هلاك الأخ». وهي تسمياتٌ تعيد إلينا مشهد الخائن يوضاس الذي يُمثّله «أبشالوم» الذي يعني «سلام أبيه». والحال، فإنّ داود احتفظ في قلبه، على الدوام، بعاطفة السلام تجاه ابنه المملوء قلبه بالمكائد ومشاعر التمرّد، على ما جاء في شرح المزمور الثالث. وكما رأينا يسوع المسيح، في الإنجيل، يدعو تلاميذه بالأبناء (متّى ٩: ١٥)، نراه أيضًا يدعوهم إخوة. فبعد قيامتِه، يقول الربّ للمجدليّة: «إمضي بشّري إخوتي» (يوحنّا ٢٠: ١٧). والقدّيس بولس يدعو يسوع المسيح «بكرًا ما بين إخوةٍ كثيرين» (رومة ٨: ٢٩). وعليه، بوسعنا، أن نُشير إلى هلاك التلميذ الذي خان، وندعوه «هلاك الأخ» بحسب المعنى الذي سبق أن ذكرناه لِـ«أحيتوفَل». و«كوش» الذي يعني «الصمت» يدلّ، حقًّا، على الصمت الذي قابل به السيّد المسيح غدر أعدائِه، ذلك السرّ العميق الذي ضرب بالعمى قسمًا من إسرائيل ممّن كانوا يضطهدون الربّ، إلى أن دخل جمهور الأمم في الكنيسة، فنال الخلاصَ بعدها جميع إسرائيل. ولدى تطرّقِه إلى تلكَ الأعماق الخفيّة، وإلى ذلك الصمت الرهيب، يصرخ الرسول، كمن صعقه الهول لدى رؤية تلك الأسرار: «يا لَعمق غنى الله وحكمتِه وعلمه! ما أبعد أحكامَه عن الإدراك، وطرقَه عن الإستقصاء! من عرف فكرَ الربّ ومن كان له مشيرًا؟ (رومة ١١: ٣٣، ٣٤). إنّ الرسول لا يُعرّفنا بذلك الصمت العميق بقدر ما يدعونا إلى التأمّل فيه. ففي صمتِه هذا، يُخفي الربّ سرّ آلامه المقدّسة، ويُدخِلُ في آفاق عنايته الرؤوفة، هلاك الأخ الإراديّ، وجريمة الخائن

البشعة، لكيما، بموت إنسان واحد، أعدّ له الخائنُ يوضاس، يصير الخلاصُ لجميع الناس، بحكمة المخلّص التي لا يُدانيها وصف. إنّ هذا المزمور هو، إذًا، نشيد روحٍ بلغت الكمال، وباتت مؤهّلة لمعرفة سرّ الله. وهي تُنشد، بسبب كلمات «كوش»، كلمات ذلك الصمت الذي استحقّت أن تعرفه. ذاك أنّه، حقًّا، صمتٌ وسرٌّ مُغلقٌ على الكافرين وعلى مضطهِدي المسيح. أمّا الذين قال لهم يسوع المسيح: «لا أدعوكُم بعدُ عبيدًا، لأنّ العبد لا يعلم ما يصنعه سيّده، بل أدعوكم أحبّائي، لأنّي أعلمتُكم بكلّ ما تعلّمته من أبي» (يوحنّا ١٥ : ١٥). فليس من صمتٍ، بعدُ، على أحبّاء المسيح هؤلاء، بل كلمات الصمت، أو كشف سرّ المسيح الذي أعطاهم الله أن يلِجوه ويعرفوه. هذا الصمت، أو «كوش»، هو الذي يُدعى «البنيامينيّ» أو إبن اليمين. ذاك أنّه ما كان ينبغي أن يُحجب عن القدّيسين ما صنعَه من أجلِهم، ومع ذلك، قيل: «إنّ يسارنا يجب ألّا تعلم ما صنعته يمينُنا» (متّى ٦ : ٣). إنّ النفس الكاملة التي أدركت ذلك السرّ، تُنشد، إذًا، هذه النبوءة: «بسبب كلمات كوش» أو بسبب معرفة ذلك السرّ الذي كشفه لنا، بنعمة خاصّة، الله الذي هو اليمين. من هنا يُدعى ذلك الصمت ابن اليمين، أو كوش البنيامينيّ.

٢ - «أيّها الربّ إلهي بك اعتصمت فخلّصني من جميع مضطهِديَّ وأنقِذني» (٧ : ٢). لكلّ حربٍ وتمرّدٍ على الرذائل الغلبة، والنفس الكاملة التي لم يعد أمامها سوى محاربة إبليس الحاسد، تهتف: «خلّصني من جميع مضطهِديَّ وأنقذني لئلّا يختطف كالأسد نفسي» (٧ : ٢، ٣). ويقول لنا القدّيس بطرس: «فإنّ إبليس، خصمَكم، كالأسد الزائر يجول ملتمِسًا من يبتلعه» (١ بطرس ٥ : ٨). كذلك النبيّ بعد أن يقول: «خلّصني من جميع مضطهِديَّ»، بصيغة الجمع، يتابع

بصيغة المفرد فيقول: «لئلّا يختطف كالأسد نفسي»، لا «لئلّا يختطفوا» لأنّه لا يجهل العدوَّ الذي يبقى عليه أن يقهرَه، الخصم المرعب لكلّ نفسٍ كاملة. «ويفترسُها ولا منقِذ»، أي لئلّا يختطف نفسي فلا تفتديها ولا تنقذُها. ذاك أنّ إبليس يختطفنا إن لم يفتدينا الله ويُخلّصنا.

٣ - والذي يُبيّن لنا أنّ هذه اللغة هي لغة النفس الكاملة، التي ليس عليها أن تخشى سوى شِباك إبليس وحبائلَه، فهي الآية التالية: «أيّها الربّ إلهي، إن كنتُ قد صنعتُ ذلك» (٧: ٤). ما معنى «ذلك»؟ فهل أرادَ، إذ لم يُسمِّ أي خطيئة، أن يُسمّيَ الخطايا كلّها؟ إذا أقصينا هذا المعنى، فلنربط العبارة بما يليها؛ وكما لو انّنا سألنا النبيّ ماذا يقصد بِ«ذلك»، يجيبنا: «أو كان في يديَّ سوء» (٧: ٤). لكنّه يُبيِّن لنا أنّه يقصد أن يتكلّم عن كلّ خطيئة، لأنّه يقول: «أو جزيتُ شرًّا بشرّ» (٧: ٥)، وهو كلامٌ لا صحّة له إلا إذا خرج من فم الكاملين. والحال، فإنّ الرّبّ يقول لنا: «كونوا كاملين مثلما هو كامل أبوكم السماوي الذي يُشرق شمسَه على الأخيار والأشرار ويُمطر على الأبرار والأثمة» (متّى ٥: ٤٥، ٤٨). كاملٌ هو، إذًا، من لا يردّ شرًّا بشرّ. والنفس الكاملة تُصلّي وتقول: «بسبب كلمات كوش البنياميني»، أي من أجل معرفة ذلك السرّ العميق، وذلك الصمت الذي كتمه يسوع المسيح ليُخلّصَنا، بمحبّته الرحيمة، وبمعاناتِه، بكامل الصبر، غدْرَ من خانَه. كما لو انّ المخلّص أراد أن يكشف له أسباب ذلك الصمت بقولِه: «لأجلِك أنت الآثم الخائن، ولكي أغسل بدمي آثامَك، صمتُّ الصمت الأعظم، وصبرت الصبر الجميل، واحتملت أن أبقِي الخائن بقربي؛ أفلا تتعلّم أنت، على مثالي، ألّا تقابل الشرّ بالشرّ؟». إنّ هذه النفس، إذ تُدركُ وتقدّر ما صنعه المخلّص من أجلِها، وتقتدي به وتسلك سبيل الكمال، تقول لله: «لو انّي جزَيت شرًّا بشرّ وسلبتُ من ضايقني على غير سبب»،

ولو انّي لم أتّبع في أعمالي تعاليمَك المقدّسة، «فليضطهدِ العدوُّ نفسي ويُدركها، وليطأ في الأرض حياتي، ويُعفّر في التراب مجدي» (٧: ٥). مُحقٌّ هو ألّا يقول: «لو انتقمت للشرّ الذي صنعوه بي»، وأن يكتفي فيقول: «لو انّي جَزَيتُ شرًّا بشرّ»، ما يعني أنّه صبر على الشّرّ. والصبر الأعظم هو على من قابل إحسانك بالإساءة، ومعروفك بالغدر والنكران. «لو انّي جزيتُ شرًّا بشرّ»، أي لو لم أقتدِ بك في صمتِك، أو بالأحرى بطول أناتك في معاملتي، فليهوِ مجدي تحت ضربات أعدائي. الإنسان، كلّ إنسان، يحملُ في قلبِه تبجّحًا باطلًا، ويسعى إلى الإنتقام من الآخر. يُحاول أن يُخضِع خصمًا، وهو في داخلِه خاضعٌ لإبليس؛ والفرح الذي يشعر به كما لو كان امرأً لا يُقهر، ينزع منه كل استحقاق. فالنبيّ يعلم جيّدًا ما الذي يجعلُ النصر أوفر مجدًا وما يُجزينا أبونا الذي يرى في الخفاء (متّى ٦: ٦). ولئلّا يُجزي الشرّ بالشرّ، يسعى إلى قهر غضبِه، لا إلى الإنتقام من خصمِه، لأنّه يعلم ما جاء في الكتاب: «من قهر غضبه خيرٌ ممّن يسود على مدينة» (أمثال ١٦: ٣٢ بحسب السبعينيّة). إذًا، «إن جزيتُ شرًّا بشرّ فليهوِ مجدي تحت ضربات أعدائي». ويبدو أنّه وصل إلى استنزال اللعنة التي هي أخطر الأيْمان التي يُطلِقُها إنسان: «الموتُ لي إن كنت مُذنِبًا». غير أنّ استنزال اللعنة من فم إنسانٍ يدعو بأغلظ الأيْمان، يختلف عنه، في مفهوم نبيّ يُنذِر بالبلايا التي ستلحق، لا محالة، بالإنسان الذي يجزي شرًّا بشرّ، ولا يستمطرها لا عليه هو، ولا على الآخرين.

٤ - «فليضطهد العدوّ نفسي ويُدركْها» (٧: ٦). مرّةً بعدُ، يتكلّم النبيّ عن عدوّه بصيغة المفرد، ويُبيّن له أكثر فأكثر ذاك الذي كان يُمثّله للوقتِ على صورة أسد؛ ذاك العدوّ الذي يُلاحق النفسَ ويضطهدها ويسود عليها بعد أن يُغويها. بوسع البشر أن يُمارسوا القمع إلى حدّ قتل

الجسد؛ لكنّ ذاك الموت الخارجيّ لا يُخضِع لهم نفسَنا، فيما الشيطان يُخضِع النفوس التي يلاحقها ويُمسك بها. «وليطأ في الأرض حياتي»، أي فليجعل حياتي ترابًا يُقيته. لأنّ ذلك العدوّ لا يُدعى أسدًا فحسبُ، بل أيضًا حيّة؛ إذ قال لها الربّ: «تأكلين التراب»، كما قال للإنسان الخاطئ: «أنت ترابٌ وإلى التراب تعود» (تكوين ٣: ١٤، ١٩). «ويُعفّر في التراب مجدي»، في ذلك التراب الذي تُذرّيه الريح (مزمور ١: ٤)، لأنّ صلَفَ المتكبّر السخيف الباطل، إن هو إلّا ورم هشٌّ واهٍ، وغمامةٌ من غبارٍ تلفحُها الريح. بحقّ يطلب النبيّ مجدًا أصلب وأثبت، لا يستحيل ترابًا، بل يبقى راسخًا في الضمير وأمام الله، ولا يُعاني من صلَف. يقول بولس الرسول: «من افتخرَ فليفتخر بالربّ» (١ قورنتُس ١: ٣١). وهذا الثبات يستحيل ترابًا عندما يزدري الإنسان سرّ الضمير الذي يؤيّدنا به الله وحده، ساعيًا إلى استجداء رضا الناس. من هنا كلمات الكتاب: «الله يُحطّم عظام الذين يبتغون رضا الناس[(٢)]» (مزمور ٥٢: ٦). أمّا الذي يعرِف، لأنّه اطّلع أو اختبر بأيّ طريقة يُذلّل رذائلَنا، يعرف جيّدًا أنّ رذيلة الكبرياء هي الوحيدة، أو أقلّه الأولى التي يخشاها الإنسان الكامل. إنها الخطيئة الأولى التي سقطت فيها النفس، والأخيرة التي تقوى على قهرِها. «فالكبرياء أوّل الخطايا» وأوّل كبرياء الإنسان ارتداده عن الله» (يشوع بن سيراخ ١٠: ١٤، ١٥).

(٢) في العبريّة: כִּי-אֱלֹהִים--פִּזַּר, עַצְמוֹת חֹנָךְ; הֱבִשֹׁתָה, כִּי-אֱלֹהִים מְאָסָם. «لأنّ الله يبدّد عظام مُضايقيك، فتخزيهم لأنّ الله رذَلَهم». وبالمعنى نفسِه في السبعينيّة: ὅτι ὁ θεὸς διεσκόρπισεν ὀστᾶ ἀνθρωπαρέσκων. κατῃσχύνθησαν, ὅτι ὁ θεὸς ἐξουδένωσεν αὐτούς. وفي الفولغاتا: quoniam Deus dissipavit ossa eorum qui hominibus placent confusi sunt quoniam Deus sprevit eos أي: لأنّ الله حطّم عظام الذين يبتغون رضى الناس؛ سقطوا في الخزي لأنّ الله رذلَهم.

٥ - «قم يا ربّ بغضبِك» (٧: ٧). كيف يبلغ الأمر بذلك الإنسان الذي اعتبرناه كاملًا، حدّ حثّ الله على الغضب؟ أوَ ليس الكمال، بالأحرى، صفة الذي يقول: «يا ربّ لا تُقِم عليهم هذه الخطيئة»؟ (أعمال ٧: ٥٩). لكن، أعلى الناس تُستمطَرُ لعنة النبيّ تلك؟ أفلا تقع، بالأحرى، على إبليس وملائكتِه الذين يستحوذون على الخاطئ والظالم. بعاطفةٍ من الرحمة، لا بشعورٍ من غضب، نسأل الله الذي يُبرّر الخاطئ أن ينتزع تلك الفريسة من فم الشيطان. لأنّ تبرير الخاطئ يكون في انتزاعه من الخطيئة إلى البِرّ، وفي تحويل إرث إبليس إلى هيكلٍ لله. ولمّا كان انتزاع فريسةٍ ممّن يسعى إلى التشبُّث بها يُشكّل قِصاصًا له، فإنّ النبيّ يُسمّي «غضب الله» ذلك القِصاص الذي يرشق الله به الشيطان، بانتزاعِه منه من يمتلِكُهم. «قم يا ربّ بغضبِك»: «قم» أي أطِلَّ، وهوتعبيرٌ مجازيّ، لكنّه مألوف في كلام الناس، كما لو انّ الله ينام إذ يُخفي عنّا مخططاتِه. «وحلِّقْ فوق صفوف أعدائي»، أي في ما هو واقع تحت سلطان إبليس، وبذا يريد النبيّ أن يبسط الله سلطانه عليها، أي أن يُكرَّم ويُمَجَّد هو، بدلًا من العدوّ، بتبريرِ الخاطئ، وبإنشاده ترانيم الظفَر. «قم أيّها الربّ إلهي، بحسب قضائِك» أي تجلَّ متّضِعًا، ما دمت توصي بالتواضع، أتِمَّ أنت قبلنا وصيّتَك، لكيما يقضي مَثَلُك على الكبرياء، فلا نكون تحت سلطان إبليس الذي نفخ الكبرياء ضدّ وصاياك، حين قال: «يوم تأكلان منه تنفتح أعينُكما وتصيران كآلهة» (تكوين ٣: ٥).

٦ - «فلتُحِط بك جماعة الأمم» (٧: ٨) إنّ جماعة الأمم هذه يُمكن أن تُفهَم على أنّها الشعوب التي آمنت، أو الأمم المضطَهِدة، لأنّ تواضع مخلّصِنا كان له نصيبٌ بكليهما، إذ أحاط به المضطهِدون الذين كانوا يزدرون تواضعه؛ وعنهم قيل: «لماذا ارتجّت الأمم وهذّت

الشعوب بالباطل» (مزمور ٢ : ١). فالذين آمنوا بمقتضى ذلك التواضع أحاطوا به حتّى أمكن أن يُقال، بكثير من الحقّ: «إنّ قسمًا من اليهود قد أصابهم العمى لكي يدخُل الكنيسة جماعة الأمم» (رومة ١١ : ٢٥). وفي مكانٍ آخر: «سلني فأعطيَك الأمم ميراثًا لك وأقاصي الأرض ملكًا لك» (مزمور ٢ ، ٨). «ولخيرها عُدْ فوقَها إلى الأعالي»، أي لخير تلك الجماعة؛ ونحن نعلم أنّ الربّ صنع ذلك بقيامته وصعودِه. فلمّا تمجّد، وهب الروح القدس الذي ما كان لينزل قبل أن يدخل يسوع في مجدِه، على ما جاء في الإنجيل: «إذ لم يكن الروح قد أُعطِيَ بعد، لأنّ يسوع لم يكن قد مُجِّد» (يوحنّا ٧: ٣٩). إذًا، بعد أن ارتفع إلى السماء، لخير جماعة الشعوب، أرسل الروح القدس الذي امتلأ به المبشّرون بالإنجيل الذين، بدورِهم، ملأوا العالم بأسره بالكنائس.

٧ - إنمّا جملة «قم ياربّ بغضبك، وحلّقْ فوق صفوف أعدائي»، يُمكن أن تفهَم أيضًا: قم بغضبك وازرع الجهل في أعدائي لئلّا يُدركوك؛ إذ ذاك، «حلّقْ أو ارتفعْ» تعني: حلّقْ إلى علوّ يستحيل معه أن يُدركوك؛ وهذا ما يتّصل بالصمت المذكور آنفًا. وهناك مزمور آخَر قال بشأن ذلك الإرتفاع: «ركب على كَروبٍ وطار... وجعل الظلمة حجابًا له» (مزمور ١٧: ١١، ١٢). كانت تلك الظلمة تحجبك عمّن حالت آثامهم دون أن يعرفوك، فصلبوك؛ وها هي جموع المؤمنين تحيط بك. اتّضع السيّد المسيح فارتفع، ولم يُدرَك. كذاك يُفهم معنى جملة «إرتفعْ كما أمرتَ بالقضاء» أي بحسب الشريعة التي أقمتَها. وباتّضاعك الظاهريّ، حلّقْ وارتفعْ، بحيث يعجز أعدائي عن إدراكِك. لأنّ الخطأة هم أعداء البارّ، والأثمة أعداء الرجلِ التقيّ. «ولتُحط بك جماعة الأمم»، لأنّ ما يدفع من لا يعرفونَك إلى صلبِك، سيدفع الأمم إلى الإيمان بك، فتعبدك جماعات الأمم. لكن، إذا كان هذا، حقًّا،

معنى الآية التالية، فعلينا، بالأحرى، أن نغتمّ، بفعل الشعور الذي ينتابنا ونحن على هذه الأرض، بدلًا من أن نبتهج لأنّنا فهمناه. والحال فإنّ التتمّة تقول: «وبسببها عُدْ إلى الأعالي»، أي لأجل جموع الناس الذين تضيق بهم كنائسك، ارتفع إلى فوق او كفَّ عن أن تُعرَف. ماذا يقصد بجملة: «بسبب هذا الجمع»؟ - أي أنّ هذا الجمع مزمعٌ أن يُهينك، مبرّرًا بذلك كلام الإنجيل: «إذا جاء ابن البشر، فهل يجد الإيمان على الأرض» (لوقا ١٨ : ٨). كما قيل بشأن الأنبياء الكذَبة والهراطقة: «ولكثرة الإثم تبرد المحبّة من الكثيرين» (متّى ٢٤ : ١٢). والحال، فإنّه عندما تعمّ الخطيئة في قلب الكنيسة، أو في جماعة الشعوب، بصورة رهيبة، بدأنا نراها متفشّية من اليوم في جزءٍ كبير، ألن يكون الوقت قد حان لكي نشعر بالجوع إلى الكلمة التي بشّر بها نبيٌّ آخر؟ (راجع عاموس ٨: ١١). أمّا بسبب تلك الجماعة التي عظمت آثامها، وأشاحت بعيونِها عن نور الحقيقة، ارتفع الله إلى الأعالي، لكيما لا يعود الإيمان الخالي من كلّ شائبة ومن كلّ فكرٍ منحرف، فيوجد في أيّ مكان آخر، سوى في العدد القليل الذي قيل عنه: «طوبى لمن يصبر إلى المنتهى، فإنّه يخلُص»؟ (متّى ١٠ : ٢٢). إذًا، بحقٍّ قيل: «بسبب تلك الجموع، إرتفِعْ إلى الأعالي». عُدْ إلى أعماقِك الخفيّة، بسبب جماعة الشعوب تلك التي تحمل اسمك ولا تعمل أعمالَك.

٨ - سواءٌ اعتمدنا هذا المعنى أو المعنى الأوّل أو أيّ تفسيرٍ يتمتّع بالقيمة نفسِها أو يفوقها، فإنّ النبيّ لا يقول من غير حقّ «إنّ الربّ يدين الشعوب» (٧: ٩). فإذا فهمنا بالإرتفاع إلى الأعالي أنّ الربّ قام ليرتفع إلى السماء، كان بوسعنا أن نقول بحقّ إنّ الربّ يدين الشعوب، لأنّه سينزل من السماء ليدين الأحياء والأموات. وإذا ارتفع إلى

الأعالي، فلأنّ الخطيئة أعمت المؤمنين عن فهم الحقيقة، على ما قيل بشأن مجيئه: «إذا جاء ابن البشر، فهل يجد الإيمان على الأرض؟» (لوقا ١٨ : ٨). «الربّ يدين الشعوب»: فأيّ ربٍّ هذا إن لم يكن يسوع المسيح؟ «لأنّ الآب لا يدين أحدًا، بل أعطى الابن سلطان الحكم» (يوحنّا ٥ : ٢٢). فانظروا كيف أنّ هذه النفس الكاملة في صلاتِها، قلّما تهتمّ ليوم القضاء، وبأيّ شوقٍ مطمئِنٍّ تقول للربّ في اضطرامِها: «ليأت ملكوتك» (متّى ٦ : ١٠) وتتابع: «فاحكم لي يا ربّ بحسب برّي» (٧: ٩). في المزمور السابق، كان السائل سقيمًا، يسأل الله أن يُنقذَه، من غير أن يدّعي استحقاقًا، لأنّ ابن الله جاء ليدعو الخطأة إلى التوبة (راجع لوقا ٥ : ٣٢). فنسمعه يقول:«خلّصني يا ربّ لأجلِ رحمتِك» (٦ : ٥)، لا لأجل استحقاقاتي. أمّا الآن وقد استجاب لنداء الله، وحفظ الوصايا التي تسلّمها، فيتجاسر ويقول: «أحكم لي يا ربّ بحسب بِرّي وعلى نحو براءتي العلويّة». البراءة الحقيقيّة تكون في عدم الإساءة، حتّى إلى الأعداء. بوسعه، إذًا، أن يسأل الحكم عليه على نحو براءتِه، ذاك الذي استطاع أن يقول بحقّ: «إذا كنت قد جَزَيُت شرًّا بشرّ». إنّ صفة «العلويّة» يجب أن تُلصق بالبرّ كما بالبراءة، بحيث يقول: «أحكم لي يا ربّ بحسب بِرّي العلويّ، وبراءتي العلويّة»، وهو تعبيرٌ يُبيّن لنا أنّ النفس لا تملك قطّ في ذاتِها لا البِرّ ولا البراءة، بل تتلقّاهما من النور الذي يحسن لدى الله أن يُضيئنا به. وهكذا نراها تقول في مزمورٍ آخر: «أنت ياربّ تنير سراجي» (١٧ : ٢٩). وقيل في يوحنّا (المعمدان): «لم يكن هو النور، بل كان ليشهد للنور» (يوحنّا ١ : ٨)، وأنّه «كان هو السراج الموقَد المنير» (يوحنّا ٥ : ٣٥). إذًا، إنّ هذا النور الذي تستنير به نفوسنا مثلما تُنارُ السُرُج، لا يشع بنورٍ مستعار، بل بضياء ذاتيّ هو ضياء نور الحقيقة. «فاحكم لي ياربّ،

بحسب برِّي وعلى نحو براءتي العلويّة»، كما لو انّ السراج الموقَد والمنير يقول: أحكم لي بحسب هذا النور العلويّ، أي الذي ليس منّي ولكنّي به أُشِعّ حين توقدُني.

٩ - «لينقضِ شرُّ المنافقين» (٧: ١٠). هذا الإنقضاء أو الإضمحلال، يكون حين يبلغ الشرّ الذروة، بحسب ما جاء في الرؤيا: «من هو بارٌّ فليبرّر بعدُ، ومن هو نجِسٌ فليتنجّس بعدُ» (رؤيا ٢٢؛ ١١). يبدو كأنّ الشرّ بلغ الذروة في الذين صلبوا ابن الله، وعظُم في الذين يرفضون أن يعيشوا القداسة، ويمقتون شرائع الحقّ التي لأجلِها صُلب ابن الله. فلينقضِ، إذًا، شرُّ المنافقين، إذ يبلغ الذروة، يقول النبيّ، ولتحكم عليه بقضائك العادل «وتُرفِّع الصدّيق». بعد ذلك، لا يُقال فقط «من هو نجسٌ فلينجّس بعدُ»، بل يُقالُ أيضًا: «من هو بارٌّ فليتبرَّر بعدُ»؛ لهذا يُتابع النبيّ قائلًا: «فتُرفِّع الصدّيق، إنّك فاحص القلوب والكلى» (٧: ١٠). لكن كيف يُمكن للصدّيق أن يُرفَّع إلّا بطريقةٍ خفيّة، من حيث أنّ الأعمال التي كانت تدهشُ الناس في الأزمنة المسيحيّة الأولى، عندما كانت قوى الدّهر تُخضع القدّيسين لسيف الإضطهاد، تُستغلّ اليوم، في ذروة مجد المسيحيّة، في نشر النفاق والرياء عند الناس الذين يتستّرون باسم المسيح، ليُرضوا الناس بدلًا من أن يُرضوا الله؟ في هذه المعمعة من النفاق، كيف يُرفَّع الصدّيق، إن لم يرفِّعْه الله فاحص القلوب والكلى، الذي يرى أفكارنا، أي قلوبَنا، وشهواتِنا، أي كلانا؟ مُحقٌّ النبيّ في أن ينسب إلى كلانا الشهوة التي تُزيّنها لنا الخيور الزمنيّة، فإنّها الجزء السفليّ في الإنسان، ومسكن تلك الشهوة الجسديّة التي تتسبّب بتناسل الجنس البشري، وتبلونا بتلك الحياة الشقيّة المزيّنة بالأفراح الكاذبة. إذًا، إنّ الإله الذي يفحص القلوب ويرى أنّها موجودةٌ حيثُ يوجَد كنزنا، والذي يفحص الكلى ويرى أنّنا «بعيدًا من

أن نُصغيَ إلى اللحم والدم» (غلاطية ١ : ١٦)، نجعل مباهجنا في الربّ، أي في الله الذي يوجّه الصدّيق نحو الضمير الذي هو حاضرٌ فيه، حيث لا تنفذ عين إنسان، بل فقط عين الذي يعرف غاية أفكارنا وشهواتِنا. ذاك أنّ الفرح هو غاية اهتماماتِنا، ولا شيء يهتم له الله ويُفكّر فيه فوق اهتمامه وتفكيره بأن نبلغ ذلك الفرح. والله الذي يفحص القلوب والكلى يرى اهتماماتِنا، ويرى أن الفرح غايتها، وعندما يرى أنّ اهتماماتنا أبعد من أن تنحرف نحو الشهوة الجسديّة وشهوة العين وأمور الدنيا (راجع ١ يوحنّا ٢ : ١٦، ١٧)، التي تزول كالظلّ، وتتوق إلى الارتفاع نحو الأفراح الأبديّة التي لا تشوبُها شائبة؛ إنّ هذا الإله الذي يفحص القلوب والكلى يقود البارّ في السراط المستقيم. إنّ عملًا نقوم به، يُمكن أن يكون معروفًا من الناس، إذا كان كلامًا أو عملًا ظاهرًا؛ غير أنّ قصدنا من ورائه، والغاية التي تدفعنا إلى القيام به، لا يعرفهما سوى الله فاحص القلوب والكلى.

١٠ - «نُصرتي العادلة عند الربّ مُخلّص المستقيمي القلوب» (٧ : ١١). للطبّ مهمّة مزدوجة: شفاء المرض أوّلًا، ثمّ الحفاظ على الصحّة. طلبًا للشفاء صرخ المريض في المزمور السابق قائلًا: «ارحمني يا ربّ فإنّي سقيم» (٦ : ٣). ولدوام الصحّة نقرأ في المزمور السابع: «إنْ دنّسَ الإثم يديَّ فلأقع، بعدلٍ، تحت سطوة أعدائي» (٧ : ٤، ٥). في الحالة الأولى يلتمِس المريض الشفاء، وفي الثانية يسأل الرجل الصحيح الجسم ألّا يعود فيمرض. الأوّل يصرخ: «أغثني يا ربّ برحمتِك» والآخر: «أحكم لي يا ربّ بحسب بِرّي». الأوّل يسأل الدواء الذي يشفيه، والثاني الدواء الذي يقيه من المرض. فيقول الأوّل: «نجّني يا ربّ برحمتِك»، والثاني: «أرجو نصرةً عادلة من الربّ مخلّص المستقيمي القلوب». في كِلتا الحالتَين الرحمة هي التي

تُخلّصنا: في الأولى تنقلنا من المرض إلى الصحّة، وفي الثانية تحفظنا في الصحّة. في الأولى إغاثة رحمة، من حيث أنّه لا استحقاق يتمتّع به الخاطئ الراغب فقط في أن يتبرّر بالإيمان بالذي يُبرّر المنافق (رومة ٤: ٥)؛ وفي الثانية إغاثة عدلٍ، توهَب لمن سبق أن تبرَّر. فالخاطئ الذي كان يقول: إنّي سقيم، فليقلِ الآن: خلّصني يا ربّ برحمتِك؛ والبارّ الذي كان بوسعه أن يقول: لو انّي جزيت شرًّا بشرّ، ليقُلِ الآن: أرجو حكمًا عادلًا من الربّ الذي يُخلّص المستقيمي القلوب. فإنّه إذا كان الله يُعطينا الدواء الذي يشفي مرضَنا، كم بالأحرى يوفّر لنا السبيل للحفاظ على صحّتنا! وإذا كان يسوع المسيح قد مات لأجلِنا إذ كنّا خطأة، فكم بالأحرى، إذ قد تبرّرنا، نخلصُ به من غضب الربّ! (راجع رومة ٥: ٨، ٩).

١١ - «أرجو نصرةً عادلة من الربّ مخلّص المستقيمي القلوب». الله الذي يفحص القلوب والكلى يُقوّم الصدّيق، وبنصرةٍ عادلة يُخلّص المستقيمي القلوب. على أنّه لا يُخلّص المستقيمي القلوب والكلى بالطريقة نفسِها التي يفحص فيها القلوب والكلى. فالقلب المنحرف مسكن الأفكار الشرّيرة، والمستقيم مسكن الأفكار الصالحة. أمّا الكلى فهي مسكن الشهوات المدانة لأنّها تتضمّن ما هو سافلٌ وأرضيّ، فيما الرغبات الطاهرة تقيم في القلب لا في الكلى. لذلك نستطيع أن نقول باستقامة القلوب، لكن لا باستقامة الكلى؛ لأنّه حيث الفكر، هناك يكون الفرح، وبالتالي لا تكون الاستقامة إلا إذا فكّرنا بالأمور الإلهيّة والأبديّة. وهكذا نرى النبيّ يهتف: «أنشأت يا ربّ فرحًا في قلبي» (٤ : ٨)، بعد أن هتف: «إرفع علينا نور وجهِك» (٤ : ٧). لا في القلب، بل في الكلى ينشأ بعض فرحٍ من جرّاء نشوة الجنون التي تُسبّبها أوهامُنا الباطلة، عندما تُدغدغُ نفوسَنا مباهجُ العالم الزائفة وتُهدهِدُها

في آمالٍ خلّابة زائلة مصدرها سفليّ وأرضيٌّ وجسديّ. من هنا أنّ الله، إذ يفحص القلوب والكلى، ويرى القلب مهتمًا بأفكارٍ مستقيمة، والكلى ممتنعة عن كلّ شهوة، يمد يد المعونة للقلب المستقيم الذي يعرف كيف يوحّد بين الأفكار الصالحة والرغبات الطاهرة المترفّعة. وأيضًا بعد أن قال في مزمور آخر: «في الليل أيضًا برّحتني كليتاي» (١٥ : ٧) يتكلّم النبيّ عن معونة الربّ ويهتف: «جعلت الربَّ أمامي في كلّ حين، فإنّه عن يميني كي لا أتزعزع» (١٥ : ٨)، مبيّنًا بذلك أنّ كليتَيه أوحتا إليه بالشهوة، التي كان من شأنِها أن تُزعزعَه لو انقاد لها. لذا قال: إنّ الربّ عن يميني كي لا أتزعزع، وأضاف: «لذلك فرح قلبي» (١٥ : ٩). كان بوسع كليتَيه أن يُبرّحاه، لكن لا أن يُفرحا قلبَه. فهو، إذًا لم يُحسّ بالفرح في كليتَيه بل في ذلك القلب الذي كشف له أنّ الله يمد له يد المعونة ليواجه إيحاءات الكليتَين.

١٢ - «ألله ديّانٌ عادل، قديرٌ، صبور» (٧: ١٢). من يكون ذاك الإله الديّان غير الربّ الذي يدين الشعوب؟ عادلٌ هو لأنّه يُجازي كلّ واحدٍ حسب أعمالِه (راجع متّى ١٦ : ٢٧)؛ وقديرٌ، لأنّه على الرغم من قدرتِه الكلّية، قاسى من أجل خلاصِنا اضطهادات الأشرار؛ وصبورٌ، لأنّه لم يُسلّم جلّاديه إلى العذاب، بعد قيامته، بل أرجأ الحكم عليهم، لعلّهم يتوبون ويمقتون آثامَهم فيخلصوا؛ وهو اليوم، أيضًا، يُرجئ الحكم، محتفظًا بالعذاب الأبديّ إلى يوم الدينونة، ويدعو الخطأة، كلّ يومٍ، إلى التوبة. «لا يتوعّد كلّ يوم». التوعّد أبلغ من الغضب. وجاء في اليونانيّة: me orgen epagon μὴ ὀργὴν επάγων (لا يدفعني الغضب)؛ وهذا التعبير يُظهر لنا أنّ هذا الغضب الذي يدفعه إلى الإقتصاص، ليس في ذاتِه، بل في مشاعر خدّامِه الذين يسلكون بحسب شرائع الحقيقة: وهؤلاء الخدّام هم الذين يأمرون الخدّام الأدنَين،

الذين يُسمَّون ملائكة الانتقام، أن يقتصّوا من الخطيئة. وهؤلاء، بدورِهم، يخالجهم شعورٌ بالرضى، لا لأجل العدالة، بل لأجل الأذيّة. إذًا، «لا يتوعّد الله كلّ يوم» أي لا يدعو كلّ يومٍ ملائكة انتقامِه. صبره يدعونا الآن إلى التوبة؛ لكن، في اليوم الأخير، عندما يكون بنو البشر، «بقساوتِهم وقلوبهم غير التائبة، قد ادّخروا لأنفسِهم غضبًا ليوم الغضب، واعتلان قضاء الله العادل» (رومة ٢ : ٥)، عندئذٍ «على من لا يتوب يصقل سيفَه» (٧: ١٣).

١٣ - «إن لم تتوبوا إليه، يقول النبيّ، سيصقل سيفه عليكم». بوسعنا أن نقول إنّ يسوع المسيح هو سيف الله، وهو سيفٌ ذو حدّين، ورمحٌ لم يمتشقه عند مجيئه الأوّل، بل أبقاه مخفيًّا في غمد تواضُعِه؛ لكنّه في مجيئه الثاني، عندما يأتي ليدين الأحياء والأموات، فإنّ شرارة ذلك السيف ستُشرِق بكلّ بهائِها، لتُنير الأبرار، وتلقي الرعب في قلوب الأثَمة. وفي ترجماتٍ أخرى، نجدُ عوَضًا عن «يصقل سيفَه»، «يُوهِجُ رمحَه» وهو تعبيرٌ ينطبق تمامًا، برأيي، على بهاء يسوع المسيح الوهّاج عند مجيئه الأخير؛ لأنّ صاحب المزامير يتكلّم، في مكانٍ آخر، عن اسم يسوع المسيح فيقول: «نجِّ ياربّ نفسي من يد الشرّير، وبسيفِك اصرَع أعداء عظمتِك» (راجع مزمور ١٦ : ١٣، ١٤). «شدّ قوسَه وهيّأها» (٧: ١٣). لا يغب عن بالِنا هذا الإنتقال في الأفعال من المستقبَل إلى الماضي، إذ سبق أن قيل إنّ الله «سيصقل سيفَه»، والآن إنّه شدّ قوسَه وهيّأها. ويُتابع النبيّ النشيد بصيغة الماضي.

١٤ - «سدّد إليه آلة الموت: صنع سهامَه جمرًا ملتهبًا» (٧: ١٤). في القوس، أرى الكتب المقدّسة، حيث قوّة العهد الجديد الشبيهة بالوتر المشدود، لوَت بوطأتِها تزمُّت العهد القديم. ومثلَ سهام من

نار، أطلق القوسُ الرسلَ والمبشّرين القدّيسين. تلك السهام التي صنعها الله من جمرٍ ملتهِب، أشعلت الحبّ الإلهيّ في من أصابتهم. أيّ سهمٍ آخر تُراه جرح النفس التي تُنشد: «قُدني إلى كهف الخمر، أقمني بين الطيوب، أغرقني في العسل، فقد جرحَني الحبّ»؟ (نشيد الأناشيد ٢: ٤ بحسب السبعينيّة)؛ وأيّ سهم آخر يُمكن أن يُضرم قلب الذي يُريد أن يرجع إلى الله، ويتخلّى عن سلوك سبيل المنفى، ويلتمس المعونة في مواجهة الألسنة الكاذبة، ويسمَع الجواب: «ماذا يُعطى لك؟ وكيف تُنقذ من الألسنة الكاذبة؟ «نبال الجبّار مسنونة وهي من جمرٍ ملتهِب» (مزمور ١١٩: ٣، ٤). أي أنّها إذا اصابتك، سوف تحترق بحبٍّ لملكوت الله، تزدري معه كلّ الذين يُقاومونك، ويجهدون ليحرفوك عن أهدافِك، فتهزأ من اضطهاداتِهم وتقول: «من يفصلني عن محبّة المسيح؟ أشدّةٌ أم ضيقٌ أم جوعٌ أم عريٌ أم خطرٌ أم سيفٌ أم اضطهاد؟ إنّي لواثقٌ بأنّه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوّات ولا أشياء حاضرة ولا مستقبلة تقدر أن تفصلنا عن محبّة الله التي هي في المسيح يسوع ربّنا». (رومة ٩: ٣٥-٣٩). هكذا صنع سهامَه بجمرٍ ملتهِب. هذا ما جاء في النص اليونانيّ. أمّا في النصّ اللاتينيّ فنقرأ: «ويصنع سهامًا ملتهبة»؛ ولكن، سواءٌ أكانت السهام ملتهبة، أو من جمرٍ ملتهب فالمعنى هو إيّاه لأنّها في الحالَين حارقة.

١٥ - لا يتكلّم النبي فقط عن سهام هيّأها الله لقوسِه، بل أيضًا عن آلات موت. وبوسعنا أن نتساءل عمّا إذا كانت آلات الموت لا تُشير إلى الهراطقة، لأنّهم هم أيضًا ينطلقون من قوس الربّ إيّاه، أي من قوس الكتب المقدّسة، لا ليُضرموا النفوس بالمحبّة، بل ليُهلكوها بسمومهم، ما لا يحدث إلّا للنفوس التي استحقّت الهلاك بخطاياها؛ وهذا القرار هو أيضًا من عمل العناية الإلهيّة، لا بمعنى أنّها تدفع

الناس إلى الخطيئة، بل لأنّ بيدِها أمر الخطأة بموجب تدبير حكمتِها. تدفعهم الخطيئة إلى قراءة الكتب المقدّسة بنيّة سيّئة، فيصير المعنى المنحرف الذي يُضفونه عليها عقابًا للخطيئة؛ وموتهم المفجع مثل حافزٍ يُنعش أبناء الكنيسة الكاثوليكيّة، ويُقيمهم من سباتِهم فيتعلّمون حقيقة الكتب المقدّسة. يقول الرسول: «إذ لا بدّ من البِدَع في ما بينكم، ليُعرَف فيكم من اختُبِرت فضيلتُه» (١ قورنتس ١١: ١٩). أي لكي يُعرفوا في الناس، لأنّ الله يعرفُهم. وهذه السهام وآلات الموت، أليست مُهيّأة للقضاء على الكافرين؟ ألم يصنعها الله ملتهبةً، أو من جمرٍ ملتهب ليُضرمَ فيها قلوب المؤمنين؟ فليس كاذبًا كلام الرسول: «لهؤلاء، نحن نفحة حياةٍ للحياة، ولأولئك نفحة موتٍ للموت» (٢ قورنتس ١٦). لا عجب، إذًا، في أن يكون الرسل أنفسهم آلات موتٍ للذين يضطهدونهم، ونبالًا من نار ليُضرموا قلوب الذين آمنوا.

١٦ - بعد أن صنع الله ما صنع، سوف يُظهرُ عدل قضائه الذي يُكلّمنا النبيّ عنه بشكلٍ يُفهِمنا فيه أنّ عذاب كلّ واحدٍ إنّما يكون في خطيئتِه، وعقابه في شرّه إيّاه. ويُزوّدنا بما يقينا من التفكير في أنّ الله، في سكونِه العميق، وفي نوره الفائق الوصف، يُخفي رغبةً في معاقبة الخطايا. على أنّه يُرتّب الأمور بحكمتِه الفائقة بحيث أنّ الإنسان الذي يستمتع بخطيئتِه، يصير هو نفسُه آلة لانتقام الربّ الديّان. «إنّه يتمخّض بالإثم» (٧: ١٥)، يقول النبيّ. لكن بِمَ حَبِل ليتمخّض بالإثم؟ - حبل بالعناء الذي قيل فيه: «بمشقّة تأكلُ خبزَك»؛ كما قيل في مكان آخر: «تعالَوا إليّ أيّها المتعبون والمثقَلون، إنّ نيري ليّن وحملي خفيف» (متّى ١١: ٢٨، ٣٠). فالعناء للإنسان لا ينتهي، ما دام لن يرغب في ما لا يُمكن أن يُرفع عنه رغم أنفه. والحال، فإنّنا ما دمنا نحبّ ما يُمكن أن ننجوَ منه على الرغم من إرادتنا، فسنبقى خاضعين للمشقّة والعناء.

ولمّا كانت مصاعب الحياة تُطبِق علينا، فإنّنا نسعى لامتلاك خيور الدنيا، فنجتهد، تارة، في منافسة الآخرين عليها، وتارة في اغتصابِها من أصحابِها، فيستحيل علينا أن نحصل عليها إلّا بطرقٍ ملتوية. إذًا، إنّ من طبيعة الأمور أن يتمخّض الإنسان بالإثم بعد أن يكون قد حبل بالعناء. وماذا بوسعه أن يلِد غير ما حملَه في أحشائِه، على الرغم من أنّه لا يلد ما حبل به؟ لأنّ من سيولَد، ليس من حَبِل به. الحبَل بذارٌ يُزرع، لكنّ الكائن الناتج من البذار هو الذي يولَد. فالعناء، إذًا، هو بذار الإثم، والحبَل بالعناء هو الحبل بالخطيئة، تلك الخطيئة الأولى التي فصلتنا عن الله (راجع يشوع بن سيراخ ١٠: ١٤). إذًا، حبِل بالإثم ذاك الذي حَبل بالعناء، فوَلَدَ الإثم. ولمّا كان الإثم هو الظلم، فإنّه أزهرَ ما كان حمل. فماذا يقول بعدُ؟

١٧ - «كرى بئرًا وحفرَها» (٧: ١٦). الحفر في الأمور الأرضيّة، كما هو في التراب، تحضيرٌ لشَركٍ يُمكن أن يسقط فيه من أراد الإنسان الشرّير أن يخدعَه. الخاطئ يحفر البئر عندما يُشرّع روحَه على مغريات الشهوات الدنيويّة. إنّه يحفرها عندما ينشغل في نسج الخديعة. لكن كيف يمكن أن يطعن الصدّيقَ الإثمُ الذي ينقضّ عليه، قبل أن يجرح قلب الآثم الذي اقترفَه؟ فالسارق يتلقّى طعنةً من الطمع، عندما يسعى إلى إلحاق الأذى بمُلك الآخرين. أيّ أعمى لا يُميّز المسافة التي تفصلُ بين رجلَين، واحدٌ يخسر مالَه والآخر براءتَه؟ إذًا، يسقط هذا الآخر في الحفرة التي حفرها. قال صاحب المزامير في مكانٍ آخر: «قد عُرِف الربُّ وأمضى القضاء، وفي عملِ يديه اصطيد المنافق» (مزمور ٩: ١٧).

١٨ - «وارتدّ ضررُه على رأسِه، وعلى هامتِه هبط جَورُه» (٧:

١٧). هو الذي لم يُرِد أن يتفادى الخطيئة، فصار طائعًا لها وعبدًا، على ما جاء في كلام الربّ: «كلّ خاطئ يُصبحُ عبدًا لخطيئتِهِ» (يوحنّا ٨: ٣٤). فتقع خطيئته عليه لأنّه أخضع نفسَه للخطيئة، فبات عاجزًا عن أن يقول لله، مثل كلّ نفسٍ مستقيمة طاهرة: «أنت مجدي ورافع رأسي» (مزمور ٣: ٤)، إذ ذاك يُحَطُّ، فيسود عليه الإثم ويهبط على هامتِه، فيكون عليه حملًا ثقيلًا يمنعه من الإنطلاق إلى حيث يستريح القدّيسون. هذا ما يحدث للخاطئ عندما تُضحي النفس مستعبَدة وتسود عليها الشهوات.

١٩ - «أعترفُ للربّ على حسب عدلِه» (٧: ١٨) هذا الإعتراف ليس قطّ إقرار الخطأة. فالذي يتكلّ على هذا النحو كان يقول، بصوت أعلى، بكثيرٍ من الحقّ: «لو كان في يديَّ سوء» (٧: ٤). إنّها شهادةٌ على عدل الله، كما لو كان يقول: حقًّا أنت عادلٌ يا ربّ، عندما تعضد الأبرار فتُنيرهم بنورك، وعندما يجد الخاطئ، بحكمتِك، قصاصه في مَكرِه لا في مشيئتِك. هذا الإعتراف يرفع مجد الربّ فوق تجديف الأثَمة الذين يطلبون أعذارًا لآثامِهم ويرفضون أن ينسبوها إلى سوء طبعِهم، أي أنّهم يرفضون تأثيم الآثم. يردّون الخطيئة إلى القدر وسوء الطالع، أو إلى الشيطان الذي أراد الله أن نقوى عليه ونقاومه، أو إلى طبيعة ليست من الله. يهيمون في تقلّباتٍ بائسة، بدلًا من أن يستحقّوا المغفرة من الله باعترافٍ صادق. لأنّه ما من غفرانٍ إلّا لمن يقول: خطئتُ. والحال، فإنّ الذي يُدرك أنّ الله، بحكمتِه، يهب كلّ نفسٍ ما تستحقّ، من دون أن يُشوّه جمال الكون، يُسبّح الله على كلّ أعمالِه؛ وهذه الشهادة لا تأتي من الخطأة، بل من الصدّيقين. ليس قطُّ إقرارًا بالخطايا، أن يقول الإنسان للربّ: «أعترف لك يا ربّ السماوات والأرض، لأنّك أخفيت هذه الأسرار عن الحكماء وكشفتها للأطفال»

(متّى ١١: ٢٥). كذلك نقرأ في الكتاب: «إعترفوا لله في جميع أعمالِه، وقولوا في اعترافاتِكم: جميع أعمال الربّ تُذيع بحكمتِه». إذًا، فإنّ الإعتراف الذي يتكلّم عنه داود هنا يقوم على أن نفهم، بمعونة الله، وبتقوى منّا صادقة، كيف أنّ الربّ الذي يُكافئ الأبرار، ويُجازي الأشرار بعدالتِه القويمة، يُبقي كلّ خليقة صنعَها ويرعاها، في روعةٍ لا يفهمها إلّا القليلون. فيهتف قائلًا: «أعترف للربّ على حسب عدلِه»، مثلما يهتف ذلك الذي أدرك أنّ الربّ لم يصنع الظلمات، ولو انّه يتصرّف بها بحكمة. والحال، فإنّ الله يقول: «ليكن نورٌ، فكان نور» (تكوين ١: ٣)؛ لكنّه لم يقل: لتكن ظلمة، فكانت ظلمة؛ على أيّ حال، فإنّه نظّمها من حيث أنّه كُتِب: «وفصل الله بين النور والظلمة، وسمّى النور نهارًا والظلمةَ ليلًا». (تكوين ١: ٤، ٥). ثمّة، إذًا، فرق بين أن يصنع النور ويُنظّمَه، وبين ألّا يصنع الظلمة، ويُنظّمَها. والظلمةُ تمثّل الخطيئة، وهذا ما تُعلّمنا إيّاه كلمات النبيّ: «ويكون ديجورُك كشمس الظهيرة» (راجع أشعيا ٥٨: ١٠)؛ وهذه الكلمات للقدّيس يوحنّا: «من أبغض أخاه فهو في الظلمة» (١ يوحنّا ٢: ١١)؛ وخاصّةً كلمات القدّيس بولس: «فلنخلع عنّا أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور» (رومة ١٣: ١٢). هذا لا يعني أنّ هناك طبيعةً مظلمة، لأنّ كلّ طبيعة موجودة بالضرورة كطبيعة. أمّا الوجود فهو ميزة النور، وعدم الوجود ميزة الظلمة. إذًا، إنّ تخلّينا عمّن خلقَنا لنميل نحو ذلك العدم الذي أُخرِجنا منه، يعني تلحّفَنا بظلمات الخطيئة؛ هذا لا يعني هلاكًا كلّيًا، بل الإنحدار إلى الدرك الأسفل. لذلك، عندما يقول النبيّ: «أعترف للربّ»، نراه يهتمّ بأن يُضيف، لينزع منّا الإعتقاد باعترافٍ بآثامنا: «أرنّم لاسم الربّ العليّ» (٧: ١٨). والحال، فإنّ الترنيم وليد الفرح، فيما التوبة عن الخطايا تُعزّز الألم.

٢٠ - بوسعنا أن نطبّق هذا المزمور على الإنسان-الإله، بأن نعزُوَ إلى طبيعتِنا السقيمة، التي تنازل ولبسَها، كلّ ما قيل لخزيِنا.

عظة في المزمور الثامن

معصرة الكنيسة

يحتوي عنقود العنب على الخمر والثُفل: والثُفل المتكوّن من قشرة حبّة العنب ضروريٌّ لتخمير العصير. والمعصرة تفصل الخمر عن القشرة التي تغلّف اللبّ. ذاك هو عمل الكنيسة التي تُغذّي الأطفال بلبن العقيدة إلى أن يختمروا ويشبّوا ويتمكّنوا من تناول طعام الكاملين القاسي.

للغاية، مزمور لداود، حول المعاصر(١)

١ - مضمون المزمور لا يُتيح لنا بأن نرى شيئًا يختصّ بالمعاصر التي يذكرها العنوان، وهذا ما يُبيّن لنا أنّ الكتاب غالِبًا ما يُظهر لنا الشيء نفسَه بأشكالٍ مختلفة ومتعدّدة. بوسعنا، إذًا، من خلال عنوان «المعصرة» الذي يطلع به علينا، أن نفهم أنّه يعني الكنيسة، للسبب إيّاه الذي صوّرَها لنا بصورة بيدر؛ فالبيدر أو المعصرة غايتُهما فصلُ القمح أو الخمر عن ذلك الغلاف الذي كان ضروريًا لهما لكي ينبتا وينمُوَا

(١) في العبريّة: לַמְנַצֵּחַ עַל-הַגִּתִּית , מִזְמוֹר לְדָוִד. أي: لإمام المغنّين، على الجتّيّة، مزمور لداود. وكلمة גִּתִּית جتيت إسم آلة موسيقيّة على شكل جرن أو هاون (لعلّها المهباج)؛ وكلمة גת تعني معصرة وجمعها גתות جتوت. وفي الفولغاتا: in finem pro torcularibus psalmus David أي: للغاية، لأجل المعاصِر، مزمور لداود. في سائر الترجمات: لإمام الغناء، على الجتّيّة، مزمور لداود.

وينضجا إلى حين الحصاد والقطاف. وهذا الغلاف أو الحضن الذي يحمل القمح ويقيه، هو القشّ الذي يُفصَل عنه على البيدر، وهو العنقود والقشر الذي يحملُ عصير الخمر ويحفظه في حبوب العنب، إلى أن يُفصل عنه في المعصرة. كذاك هي الحال في الكنيسة. الأخيار مختلطون مع جماعة الأرضيّين، في خليطٍ لا يستطيعون من دونه أن يولَدوا، ولا أن يُصبحوا قادرين على تقبّل كلام الله؛ وخدّام الكنيسة يعملون على فصلِهم عن جمهور الناس بالحُبّ الروحيّ. هكذا يتصرّف اليوم الأخيار الذين يضعون فاصلًا، لا في المكان، بل في الحُبّ، بينهم وبين الأشرار، على الرغم من كونِهم، بحسب الجسد، موجودين معهم في الكنائس نفسِها. ويأتي يومٌ تُفصلُ فيه الحنطة إلى الأهراء، والخمر إلى أقبية الآب السماوي، على ما جاء في الإنجيل: «الذي بيده المذرى، يُنقّي بيدره ويجمع القمح إلى أهرائِه ويُحرق التبن بنارٍ لا تُطفأ» (لوقا ٣: ١٧). يُمكن التعبير عن الفكرة نفسِها بالمقارنة التالية: يحفظ خمره في أقبيتِه ويطرح الثُفل للحيوانات. وبطون الحيوانات تُمثّل، في هذه الحال، لجّة الجحيم.

٢ - بوسعنا أيضًا أن نفهم المعصرة بطريقة أخرى، لكن من خلال نظرتنا إليها، دائمًا، كصورة للكنيسة. فنرمز **للكلمة** الإلهيّ بالعنب، لأنّنا نرى في ذلك العنقود المعلّق بخشب الجفنة الذي كان أنبياء إسرائيل يحملونه من أرض الميعاد (عدد ١٣: ٢٤)، صورة ليسوع المصلوب. فعندما يكون **الكلمة** الإلهيّ بحاجة إلى استعارة نبرة الصوت ليصل إلى آذان سامعيه، فإنّ فهم **الكلمة**، بالنسبة إلى النبرة، أشبه بالخمر الطيّبة بالنسبة للثُفل الذي فيها؛ وهذا العنقود المقدّس يصل إلى آذانِنا كما لو كان يُسحقُ تحت ثقل المعصرة. وهناك يُعصَر. ونبرة الصوت تضرب طبلة الأذن، فيما المعنى يصل إلى ذاكرة

السامعين وصولَه إلى خزّان، ليُسكَب بعدَها في قواعد الأخلاق وفي خلجات نفسِنا، كما تُسكب الخمر من أوعية المعصرة لتُحفظ في الأقبية، حيثُ تُعتّق لتطيب، إن لم تُهمل فتصير خلًّا. لأنّ خمر اليهود استحالت خلًّا جرّعوه الربَّ (يوحنّا ١٩: ٢٩). وعلى العكس، فإنّه يطيبُ ويفخرُ عصيرُ كرمة العهد الجديد السرّيّة التي سيشرب منها الربّ مع مختاريه في ملكوت أبيه (راجع لوقا ٢٢: ١٨)

٣ - كما أنّ المعصرة غالبًا ما تعني الشهادة. ذاك أنّ رفات الموتى الذين بذلوا حياتَهم لأجل يسوع المسيح، بعد أن مرّت تحت حجر معصرة الإضطهادات، تُطرح في الأرض مثل الثُفل، فيما تنطلق الأرواح إلى مساكن الراحة الأبديّة. لكنّ هذا المعنى التصويريّ ليس ببعيد عن الثمار التي تحملُها الكنيسة. إنّ عنوان المعصرة الذي يتصدّر هذا المزمور يُحيلُنا، إذًا، إلى تأسيس الكنيسة، يوم قام الربّ من القبر لكي يصعد إلى السماء، ويُرسِل الروح القدس الذي حلّ على الرسل فملأهم وطافوا يُبشّرونَ بكلمة الله بكلّ ثقة وأمانة، وأسّسوا الكنائس.

٤ - لهذا قال النبيّ بحقّ: «أيّها الربّ إلهنا، ما أعظم اسمك في كلّ الأرض (٨: ٢). لكن كيف يكون اسم الربّ عظيمًا في الأرض كلّها؟ يُجيب النبيّ: «فقد رفعت جلالَك فوق السموات». فيكون المعنى: ايّها الرّب، يا من أنت إلهنا، لقد أذهلت بني الأرض! لأنّك باتّضاعِك في هذا العالَم، سطع جلال مجدِك فوق السموات: فالذين رأوك صاعدًا إلى السماء، والذين آمنوا بصعودِك، تيقّنوا بأيّ قدرة سبق أن انحدرت منها.

٥ - «بأفواه الأطفال والرُضّع أسست لك عزّةً تامّة في مواجهة أعدائِك» (٨: ٣). بهؤلاء الأطفال والرُضّع، لا يُمكن أن نفهم إلّا

الذين قال عنهم الرسول: «مثل أطفالٍ في المسيح غذوتُكم لبنًا، لا لحمًا قاسيًا» (١ قورنتس ٣: ٢). شُبّهوا بأولئك الأطفال الذين ساروا أمام المسيح يسوع مرنّمين بالتهاليل، والذين من أجلِهم أورد يسوع هذا المقطع جوابًا مُفحِمًا لليهود الذين أرادوا أن يُحرجوه، فقال: «أما قرأتم قطُّ هذا الكلام: بأفواه الأطفال والرُّضّع هيّأت تسبيحًا كاملًا؛؟» (متّى ٢١: ١٦). محقٌّ هو في أنّه لم يقل: «أسست عزّتَك»، بل قال: «أسّست لك عزّة تامّة»، لأنّ في الكنيسة مؤمنين تخلّوا عن اللبن ليغتذوا طعامًا قاسيًا، وعنهم يتكلّم القديس بولس عندما يقول: «إنّي أبشّر الكاملين بالحكمة الإلهيّة» (١ قورنتس ٢: ٦)، لكنّهم لا يُشكّلون الكنيسة لوحدِهم، لأنّهم لو كانوا لوحدِهم، لتخلّى الله عن الضعفاء. غير أنّه بسبب عطفه على الضعفاء، يُريد أن يُغذّي العاجزين عن فهم الأمور الروحيّة والأبديّة، بقوت الإيمان التاريخيّ لكل ما تمّ عبر الزمان، منذ عهد الآباء والأنبياء، على يد من هو حكمة الله وقدرته الفائقة، وخاصّةً في سرّ التجسّد. فمن سلك درب الإيمان سيجد الخلاص عندما ينقاد إلى ذلك السلطان، ويخضع للوصايا التي تعصمه، ويترسّخ في المحبّة، ويُصبح قادرًا على السير مع القدّيسين، لا كالطفل المحتاج إلى اللبن، بل كالشابّ الذي يأكل طعامًا قاسيًا، ويستطيع أن يفهم الطول والعرض والعلوّ والعمق، ويعرف محبّة المسيح لنا، التي تفوق كلّ معرفة. (أفسُس ٣: ١٨، ١٩).

٦ - «بأفواه الأطفال والرّضّع أسّست لك عزّةً تامّة لأجل أعدائِك». بكلمة «أعداء» يسوع، وما صنعه يسوع المصلوب، علينا أن نفهم، في العموم، جميع الذين يمنعوننا من الإيمان بما نجهل، ويعِدوننا بمعرفة واضحة. ذاك هو سلوك الهراطقة وكلّ الذين دُعوا فلاسفة بسبب أوهامِهم الوثنيّة. ولا نقصد أنّ الوعد بالمعرفة شرٌّ،

لكنّهم يُريدون أن يُقصونا عن الإيمان الذي هو سُلّم خلاص ضروريّة، ترفعُنا إلى حقيقة أكيدة يستحيل أن تكون غايتها إلّا ما هو أبديّ. إنّ إهمال وسيلةٍ بمثل هذه الفائدة والضرورة، تبيّن وحدها أنّهم لا يملكون العلم الموعود، وأنّهم غير مبالين بالإيمان. إذًا، «من أفواه الأطفال والرُضّع أسّست لك، يا ربُّ، عزّة تامّة» إذ قلتَ على فم النبيّ: «وأنتم إن لم تؤمنوا فلن تفهموا (إشعيا ٧: ٩، بحسب السبعينيّة)، وإذ قلتَ أنت نفسُك: «طوبى لمن لم يرَوا وآمنوا» (يوحنّا ٢٠: ٢٩). «لأجل أعدائك»، أي لأجلِ أولئك الذين قلت بشأنهم: «أشكرك يا إله السماء والأرض لأنّك أخفيت هذه الأسرار عن الحكماء، وكشفتَها للصغار» (متّى ١١: ٢٥). يدعوهم الربّ حكماء، لا لأنّهم حكماء حقًّا، بل لأنّهم يعتقدون أنّهم حكماء. «لتُهلِك العدوّ والمدافع» (٨: ٣). ومن يكون العدّو سوى الهرطوقيّ الذي هو، في آنٍ معًا، عدو الإيمان المسيحي والمدافع عنه، من حيث أنّه ينقضّ عليه متظاهرًا بالدفاع عنه؟ وبوسعِنا أيضًا أن نقول عن فلاسفة الدهر أنّهم الأعداء والمدافعون، لأنّ ابن الله هو قوّة الله وحكمتُه، وهو يُنير كلّ الذين جعلتهم الحقيقة حكماء. والحال، فإنّ هؤلاء الفلاسفة الذين دُعوا بهذا الاسم لأنّهم يُحبّون الحكمة ويُعلّمونَها، يتظاهرون بالدفاع عنها، على الرغم من أنّهم أعداؤُها، من حيث أنّهم لا يكفّون يُبشّرون بأوهامٍ خطِرَة، ويدفعون الناس إلى عبادة عناصر الكون.

٧ - «إنّي أرى سمواتِك عملَ أصابعِك» (٨: ٤). نقرأ أنّ الله كتب الوصايا بإصبعِه وأعطاها لموسى، صفيِّه وخادمه الأمين (خروج ٣١: ١٨)، ويرى شُرّاحٌ كثيرون أنّ إصبع الله هو الروح القدس. فإذا كان بوسعنا أن نفهم بإصبع الله أيضًا خدّام الله الذين امتلأوا من الروح القدس، لأنّه هو الذي يعمل فيهم لكونِهم هم الذين وضعوا الكتب

الإلهيّة، فبوسعنا أيضًا أن نفهم بالسموات أسفار العهدَين القديم والجديد. قيل أيضًا عن موسى إنّ سَحرَة فرعون، إذ رأَوْا أنّه يتفوّق عليهم، صاحوا: «هذه إصبع الله» (خروج ٨: ١٩). وعلى الرغم من أنّ عبارة أشعيا: «والسموات تُطوى كدِرْج» (أشعيا ٣٤: ٤)، تنطبق على السماء الأثيريّة، فإنّه يُمكننا، بكلّ ثقة، أن نفهمها أيضًا بالمعنى المجازي، أي الكتب المقدّسة. «إنّي أرى سمواتِك، عملَ يدَيك»، أي إنّي سأقرأ وأفهم تلك الكتب التي كتبتَها بواسطة خدّامك بتوجيهٍ من الروح القدس.

٨ - بوسعنا، إذًا، أن نرى أيضًا الكتب المقدّسة في تلك السموات التي قال عنها سابقًا: «رفعتَ جلالَك فوق السموات»، ما يعني: لأنّ جلالك أرفع من السموات وأسمى من جميع كلام الكتب؛ وها أنت تُهيّئ لك، بفم الأطفال والرضّع، التسبيح الأسمى، بإرغامك الذين يرغبون في بلوغ معرفة جلالِك، أن يبدأوا فيؤمنوا بالكتب المقدّسة، لكونِها أرقى من جميع صيَغ اللغة وتعابيرها. شاء الله، إذًا، أن يُخفض الكتب إلى مستوى الأطفال والرضّع، كما جاء في مزمورٍ آخر: «طأطأ السموات ونزَل» (مزمور ١٧: ١٠). وصنع ذلك لأجل أعدائِه الذين يكرهون صليب يسوع المسيح والذين لا تستطيع خُطَبُهم المتعالية، حتّى ولو نطقوا بالحقّ، أن تَصلُح للأطفال والرضّع. هكذا يُقضى على العدوّ والمدافع الذي يريد تارةً أن يُدافع عن الحكمة، وتارة عن اسم المسيح، فيما ينقضّ على الحقيقة التي يدّعي ضمان فهمها الفوريّ، من حيث أنّه، من خلال تقويضِه الإيمان الذي هو السلّم المُصعد إليها، يؤكّد أنّه يجهل طريقَها. فإن كنّا نريد أن نُدمّر ذاك المتهوّر المجترئ، وذاك الأعمى الذي يَعِدُ بالحقيقة، وهو في آنٍ معًا عدوّها ونصيرُها، علينا أن ننظر إلى السموات، التي هي صنع أصابع الله، أي أن نفهم

الكتب المقدّسة التي تنخفض إلى مستوى بطء فهم الأطفال الذين تغذوهم أوّلًا بالأيمان البسيط بالأحداث التاريخيّة التي حصلت لأجل خلاصِنا، ثم تقوّيهِم، إلى حين ترفعهم إلى درجة الفهم الأسمى للحقائق الأبديّة. إنّ هذه السموات، إذًا، أو الكتب المقدّسة، هي صنع أصابع الله، من حيثُ أنّها وُضِعت بوحيٍ من الروح القدس الذي كان يُضرِم القدّيسين ويعمل فيهم. أمّا أولئك الذين طلبوا مجدَهم عوَضًا عن خلاص البشر، فقد نطقوا بأفواههم لا بالروح القدس الذي يحمل في ذاتِه أحشاء الرحمة الإلهيّة.

٩ - «فأرى سمواتِك صنع أصابعك، والقمر والكواكب التي كوّنتَها» (٨: ٤). في السماء وضعتَ القمر والنجوم، لأنّ الكنيسة الجامعة، التي يُشار إليها، غالبًا، بالقمر، والكنائس الخاصّة بكلّ جماعة، التي يُشار إليها، برأيي، بالنجوم، جميعها مؤسّسة على الكتب المقدّسة التي تمثّل السموات. وفي مزمورٍ آخر، سوف نرى المزيد بهذا الخصوص، فنشرح كيف أنّ القمر يُقابلُ الكنيسة الجامعة، من خلال شرح هذه الآية: «شدَّ المنافقون القوس وفوّقوا سهمهم على الوتر ليرموا في الديجور المستقيمي القلوب» (مزمور ١٠: ٣).

١٠ - «ما الإنسان حتّى تذكرَه، أوِ ابن الإنسان حتّى تفتقدَه؟» (٨: ٥). لنا أن نتساءل ما الفرق بين الإنسان وبين ابن الإنسان، لأنّه إن لم يكن ثمّة فرق، لما ميّز النبيّ فقال: «الإنسان، أو ابن الإنسان». فلو أنّ النبيّ قال: «ما الإنسان حتّى تذكرَه، وابن الإنسان حتّى تفتقدَه؟»، لكان في قولِه تكرار لكلمة «إنسان». لكنّه بقولِه «الإنسان أوِ ابن الإنسان» يُبيّن لنا أنّه يُميّز بين الإثنَين. لنُذَكِّر أوّلًا بأنّ كلّ ابن إنسان هو إنسان، على الرغم من أنّ كلّ إنسان ليس حتمًا ابن إنسان؛ فآدم إنسانٌ وما هو

بابن إنسان. وعليه فمن الفائدة بمكان أن نلاحظَ، هنا، الفرقَ بين الإنسان وبين ابن الإنسان: فالذين يحملون صورة الإنسان الأرضيّ (معنى لفظة آدم) الذي ما هو قطُّ بابن إنسان، يُدرَجون تحت اسم «بشر»، فيما ندعو ابن الإنسان ذاك الذي يحمل صورة الإنسان السماويّ (المسيح) (راجع ١ قورنتس ١٥: ٤٩). الإنسان الأرضيّ هو الإنسان العتيق، فيما الإنسان الجديد هو الإنسان السماويّ (أفسُس ٤: ٢٢). لكنّ الإنسان الجديد آتٍ من الإنسان العتيق، من حيث أنّ الولادة الروحيّة لا تتم إلّا من خلال تغيير حياتِنا الأرضيّة الدنيويّة، وهذا ما يمنحه اسم ابن الإنسان. هنا، إذًا، الإنسان أرضيٌّ وابن الإنسان سماويّ. الأوّل بعيدٌ عن الله، فيما الثاني في حضرة الله. ولهذا يذكر الله الأوّل البعيد، ويفتقد الآخر ويُضيء عليه بنور وجهِه. لأنّ «الخلاص بعيدٌ من المنافقين» (مزمور ١١٨: ١٥٥)، ونحن موسومون بنورِ وجهِك! (٤: ٧). كذلك، أيضًا في مزمورٍ آخر، يجمع النبيّ بين البشر والبهائم، ويقول إنّ الله يُخلّص البشر والبهائم، لا بالإضاءة، بالطبع، بنورِه الداخليّ على البهائم، بل ببسط حنانه ورحمتِه حتّى على أدنى الخلائق: لأنّ الله يُخلّص البشر مثلما يُخلّص البهائم، لكنّه يفصل بني الإنسان عن أولئك الناس الذين وحّد بينهم وبين البهائم. يُطوّبهم ويُعليهم عن الآخرين، بفعل الحقيقة التي تنيرهم، وينبوع الحياة الذي يفيض فيهم. فيقول: «يا ربّ أنت تُخلّص البشر والبهائم، أللهمَّ ما أجلَّ رحمتك. إنّ بني البشر بظلّ جناحيك يعتصمون، يرتوون من فيض بيتِك ومن نهر لذّاتك تُسقيهم، لأنّ عندك ينبوع حياة، وبنورِك نُعاينُ النور. أبسط رحمتَك على الذين يعرفونك» (مزمور ٣٥: ٧-١١). هكذا يذكر الربّ الإنسان برحمتِه، كما يذكر البهائم، لأنّ رحمته تمتدّ حتّى على البعيدين؛ لكنّه يفتقد ابن الإنسان

عندما يبسط عليه رحمتَه ليحتضنه تحت جناحَيه، إذ يُضيء عليه بنورِه ويُسقيه من نهر لذّاته، ويُرويه من فيض بيتِه، ويُنسيه مآسي حياتِه الغابرة ومتاهاتها. إبن الإنسان هذا، أو هذا الإنسان الجديد الذي تتمخّض فيه توبة الإنسان العتيق بالنحيب والآلام، هو إنسان لحميّ مع أنّه جديد، لكونه يغتذي باللبن. يقول الرسول: «لم أستطع أن أكلّمكم كروحيّين بل كجسديّين». ولكي يُبيّن لهم أنّهم وُلِدوا مجدّدًا في المسيح، يُضيف: «عاملتكم كأطفال في المسيح، فغذوتُكم باللبن، لا بالطعام القاسي» (١ قورنتس ٣: ١-٢). إنّ ما يحدثُ في الغالب لهذا الإنسان الجديد، العائد إلى حياتِه الأولى، هو أنّه يواجه اللوم لكونِه إنسانًا. يقول القديس بولس: «ألستم بشرًا، وتسلكون تمامًا كبشر؟» (١ قونتس ٣: ٣).

١١ - افتُقِد ابن الإنسان أوّلًا في شخص ذلك الإنسان-الإله المولود من مريم العذراء. إنّ مذلّات الآلام التي لحقت بذلك الجسد الضعيف الذي تواضعتْ الحكمة الإلهيّة فلبسته، دفعت النبيّ إلى أن يقول: «نقّصته قليلًا عن الملائكة» (٨: ٦)، ثمّ ليُسارع فيُركّز على مجد قيامته وصعوده: «وكلّلته بالمجد والكرامة، وعلى أعمال يديك سلّطْتَه» (٨: ٦-٧). بما أنّ الملائكة هم أيضًا صنع يد الله، فإنّنا نؤمن أنّ ابن الله الوحيد أرفع من الملائكة، كما نؤمن بأنّه أدنى قليلًا من الملائكة لناحية ولادته الزمنيّة الوضيعة وآلامه المخزِية.

١٢ - «أخضعت كلّ شيءٍ تحت قدمَيه» (٨: ٨)، «كلّ شيء»، يقول النبيّ، بلا استثناء؛ ولئلّا نفهم كلماتِه هذه على غير معنى، يُريد الرسول أن يقبلَها المؤمن على هذا النحو حين يقول: «من الواضح أنّه يستثني الذي أخضَع له كلّ شيء» (١ قورنتس ١٥: ٢٧). ويستند في

الرسالة إلى العبرانيّين، على شهادة هذا المزمور، عندما يوصينا بأن نؤمن بأنّ كلّ شيءٍ، بلا استثناء، أُخضِع ليسوع المسيح (عبرانيّين ٢ : ٨). ولا يبدو أنّ النبيّ أضاف الكثير، إذ يُعدّد «الغنم والبقر كلّها وبهائم الصحراء، وطير السماء وسمك البحر السائر في سبل البحار» (٨ : ٨-٩). بدا أنّه يتغاضى عن الجنود والقوّات وجيوش الملائكة، ولا يذكر البشر، مكتفيًا بإخضاع الحيوانات ليسوع المسيح، أللهمَّ إلّا إذا كنّا نفهم بالغنم والبقر النفوس البارّة، التي تُعطي ثمار البراءة، أو تعمل على إخصاب الأرض، أي على إنتاج ولادة جديدة لبشر أرضيّين يعملون للخيور الروحيّة. بهذه الأنفس البارّة علينا أن نفهم، لا البشر فحسب، بل الملائكة أيضًا، إذا كنّا راغبين في أن نستنتج من هذه الآية أنّ كلّ شيءٍ أخضِع للمسيح يسوع ربّنا. لأنّه إذا كانت رئاسات الأرواح أخضِعت له، فلن يكون بعدُ شيءٌ لم يُخضَع. لكن كيف نُثبت أنّنا نفهم بالغنم كلّ من سما في القداسة، لا من البشر فقط، بل أيضًا من الأرواح الملائكيّة؟ ألأنّ المخلّص يقول لنا إنّه ترك الخراف التسعة والتسعين في الجبال، أو في أعالي السموات، لينزل من أجل نعجة ضالّةٍ واحدة؟ (راجع متّى ١٨: ١٢). إذا كنّا نفهم بالنعجة الضالة الطبيعة البشريّة التي زلّت في آدم، لأنّ حوّاء أُخِذت من جنبِه (تكوين ٢ : ٢٢)، وهذا ما لا وقت لدينا الآن لبحثه ومعالجتِه بطريقة روحيّة، فلم يعد يبقى للخراف التسعة والتسعين سوى طبائع ملائكيّة، لا أرواحٌ بشريّة. أمّا البقر، فمن السهل أن نفهم فيها ملائكة، لأنّه إذا كانت الكتب تُشير إلى البشر عندما تقول: «لا تكمَّ فم الثور في دياسه الحَبّ» (تثنية ٢٥ : ٤)، فذاك أنّ البشر إذ يحملون كلمة الله هم رسلٌ مثل الملائكة، فكم يكون أسهل علينا أن نمثّل البقر بالملائكة أنفسهم؟ إذًا، «أخضعت له الغنم والبقر كلّها» أي جميع الخلائق الروحيّة؛ وبهذا

نفهم أيضًا جميع الناس الذين يعيشون القداسة في الكنيسة أو تحت حجارة المعاصر، والذين يُشار إليهم الآن بالقمر والنجوم.

١٣ - «وبهائم الصحراء أيضًا». كلمة «أيضًا» ليست هنا من غير فائدة. أوّلًا لأنّ قطعان البراري هذه يُمكن أن تكون من الغنم أو من البقر، لأنّه إذا كانت الماعز بهائم الصخور والمنحدرات، فإنّ الغنم والبقر بهائم الحقول. إذًا، بعد أن عدّد النبيّ الغنم والبقر وبهائم الحقول، لنا كامل الحق في أن نتساءل ما هي بهائم الحقول تلك، ما دامت الغنم والبقر بهائم حقول. لكنّ كلمة «أيضًا» تُرغمنا على أن نجد فيها تمييزًا ما؛ وكلمة «أيضًا» تشمل، لا بهائم الحقول فقط، بل أيضًا طير السماء، وسمك البحر السائر في سبل اللُجَج. فأين هو التمييز؟ لنتذكّر المعاصِر حيث الخمر ممزوجة بالثُفل، والبيدر الذي يجمع القش إلى الحنطة، والشباك التي تجمع السمك من كلّ جنس، جيِّدَه ورديئَه (متّى ١٣ : ٤٧)، وفلك نوح الذي أوى البهائم الطاهرة والنجسة (تكوين ٧: ٨)؛ وسوف نرى أنّ كنيسة العالَم، إلى أن يحين يوم القضاء، ستضمّ في صفوفِها، لا غنمًا وبقرًا فقط، أي قديسين علمانيّين وقدّيسين خدّامًا، بل أيضًا، بهائم الحقول وطير السماء وسمك البحر السائر في سبل اللجج. إنّ بهائم الحقول هذه تمثّل أفضل تمثيل البشر الذين يجعلون فرحَهم في شهوات الجسد، ولا يجدون أمامَهم أي جَرفٍ يعانون المشقّة ليتسلّقوه. بوسعنا أن ندعوَ برّيّة تلك الطريق الرحبة التي تؤدّي إلى الهلاك (متّى ٧: ١٢)؛ ففي برّيّةٍ قُتِل هابيل (تكوين ٤ : ٨). كذلك علينا أن نخاف من أن نقع فريسة الشيطان، ونحن ننزل من جبال العدالة الإلهيّة تلك، التي قال النبيّ عنها: «عدلك، يا ألله، مثل الجبال» (٣٥: ٧)، لكي نستمرئ التمرّغ في أقذار شهوات الجسد. والآن، لنرَ في طير السماء المتكبّرين الذين قيل عنهم: «يجعلون

أفواهَهم في السماء» (مزمور ٧٢ : ٩). لنرَهُم يرتفعون إلى الأعالي على جناح الريح، أولئك الذين يقولون: «نُمجّد أقوالنا، إنّ شفاهنا لنا، فمن يسود علينا» (مزمور ١١ : ٥). ولنرَ أيضًا في سمك البحر، أولئك الفضوليّين الذين لا ينفكّون يسيرون في سبل اللجج، أو الذين يطلبون، في أعماق الدّهر، الخيور الزمنيّة، وهي خيورٌ زائلة تفنى وتتلاشى مثلما تتلاشى السبل التي تُخَطّ في البحار، عندما تعود الأمواه فتتلاقى بعد أن يكون المركب، أو أيّ سبّاحٍ، قد شقّ طريقه وعبر. لا يقول النبيّ فقط إنّ السمك يسير في سبل البحار تلك، بل إنّه لا ينفكُّ يسير فيها بلا انقطاع، وذلك لكي يُظهر لنا إصرارها الدؤوب في طلب الأمور الزائلة الفانية. إنّ العيوب الرئيسّية الثلاثة، الشهوة الجسديّة والكبرياء، والغرور، تتضمّن كلّ الخطايا. يبدو لي أنّ القديس يوحنّا يُعدّدها فيقول: «لا تحبّوا العالَم، لأنّ كلّ ما في العالَم شهوة الجسد وشهوة العين وطمع الحياة» (١ يوحنّا ٢ : ١٥، ١٦). فالعين يسود عليها الغرور، ومن السهل أن نرى دوافع الشهوة الأخرى. تلك كانت التجربة التي خضع لها الإنسان-الإله، عندما جاع فجرّبه الشيطان في البرّيّة في جوعه الذي هو شهوة الجسد، حين قال له: «مُر أن تصير هذه الحجارة خُبزًا» (متّى ٤ : ٣)؛ ثمّ جرّبه بالمجد الباطل، عندما أخذه إلى جبلٍ عالٍ جدًّا، وأراه جميع ممالك الأرض، ووعده بأن يُعطيها له كلّها إن سجدَ له؛ كما جرّبه بالغرور عندما حرّضه على أن يُلقي بنفسه من أعلى الهيكل، ليرى إذا كانت ملائكة الله تأتي فتحمله على أيديها. ولمّا كان هذا العدوّ قد فشل في إغراءاتِه كلّها، يقول الإنجيل إنّ إبليس أتّم كلّ تجاربِه (راجع لوقا ٤ : ١٣). بمعنى المعاصر، كلّ شيءٍ يوضع تحت قدَمَي يسوع المسيح، لا الخمر فقط، بل الثُفل أيضًا؛ لا الغنم والبقر فقط، أي نفوس المؤمنين الأبرار، شعبًا مسيحيًّا كانوا أم

خدّامًا، بل أيضًا بهائم الشهوة، وطيور الكبرياء، وأسماك الغرور. والحال، فإنّ هذا النوع من الخطأة، ونحن شهودٌ على ذلك، يختلطون، في الكنيسة مع الأبرار والقدّيسين. أمّا نحنُ، فلنجتهد لنكون خمرًا ممتازة، نُحصى بين الغنم والبقر؛ لكن لا ندع أنفسَنا نُحصى لا في ثُفل العنب، ولا بين بهائم الصحراء، ولا بين طير السماء ولا بين سمك البحر السائر أبدًا في سبل اللُجَج. على أنّ تلك البهائم ليس لها معنى واحد فقط، ويُمكن أن تعني خلاف ذلك؛ والأمر يتعلّق بالمكان الذي توجد فيه، وإذا كانت في غير مكان، كان لها معنى آخر. جرت العادة، بالنسبة للرموز، أن يُدقَّق جيِّدًا في معنى الصورة من خلال فكرة النصّ. كذاك بالنسبة لتعليم المسيح والرسل. فلنُعِد، إذًا قراءة الآية الأخيرة التي سبق أن بدأ بها النبيّ ولنقل: «أيّها الربّ إلهُنا، ما أعظم اسمك في كلّ الأرض!» لأنّه بعد عرض نصّ المزمور، من المفيد إعادة الآية الأولى التي تتضمّن الفكرة كلّها.

عظة في المزمور التاسع (أ)

أعمال يسوع المسيح السرّيّة

هذه الأعمال هي في صُلب مجيئِه المتواضع الذي حال دون أن يعرفه اليهود؛ وفي تلك الحكمة السرّيّة التي تدفعه إلى أن يترك الخيرات الزمنيّة للمنافقين؛ إنّه شركٌ مهلِك سيقعون فيه! بينما يجذب إليه الأبرار بتأديبِهِم في هذه الدنيا.

١ - هذا المزمور يحملُ العنوان التالي: «للغاية، مزمور لداود، حول أسرار الابن»[1]. بوسعنا أن نتساءل ما هي أسرار الإبن؛ لكن بما أنّ الابن لم تُحدّد هويّته، فإنّ علينا أن نفهم أنّ المقصود هو ابن الله الوحيد. والحال، فإنّ المزمور الثالث الذي يحمل في عنوانه: «لداود» يُحدِّد اسم الإبن فيقول: «عند فراره من وجه أبشالوم ابنه». إنّ تحديد الإبن باسمه كان من أجل ألّا يحوم أيّ شكّ حول الإبن المعنيّ؛ على أنّه لم يقل: «من وجه الإبن أبشالوم» بل: «من وجه ابنه أبشالوم».

(١) بالمعنى نفسِه في الفولغاتا: in finem pro occultis filii psalmus David؛ وكذلك في السبعينيّة: Εἰς τὸ τέλος, ὑπὲρ τῶν κρνφίων τοῦ υἱοῦ. ψαλμὸς τῷ Δανιδ. وفي العبريّة: לַמְנַצֵּחַ , עַל־מוּת לַבֵּן ; מִזְמוֹר לְדָוִד. أي: لإمام المغنّين، على لحن «موت الإبن». مزمور لداود. עַל־מוּת לַבֵּן (عل مُوت لَبِن) تعني أيضًا: على لحن: «مُت عن الإبن». ولعلّ التشابه بين الميم מ والسين ס، وبين التاء ת والدال ד، في الكتابة العبريّة، هو الذي جعل النقّال يخلطون بين لفظتَي מוּת (موت) وסוד = سود (سرّ)، حيث يمكن أن يكون امّحى ذيل التاء فقرِئت دالًا.

وهنا، بما أنّه لم يقل: «ابنه» بل «الإبن»، ولأنّ الكثير من آيات هذا المزمور تعني الأمم الوثنيّة، فإنّ المزمور لا يمكن أن يقصد أبشالوم؛ على أيّ حال، فالحرب التي شنّها ابن الهلاك هذا على أبيه، لا علاقة لها بالأمم الوثنيّة، من حيث أنّ شعب إسرائيل وحدَه هو الذي انقسم على نفسِه. (٢ ملوك ١٥). هذا المزمور هو، إذًا، نشيد أسرار ابن الله الوحيد. ذاك أنّ المخلّص يبغي أن يُشيرَ إلى ذاتِه، عندما يكتفي بقول: «الإبن»، على ما نقرأ في هذا المقطع: «فإن حرّركم الإبن صرتُم أحرارًا» (يوحنّا ٨: ٣٦)، فهو لا يقول: «ابن الله» بل «الإبن»، تاركًا لنا أن نحكم ابن من هو. فهذه الصفة لا تنطبق إلّا على الإبن المميَّز، الذي يمكننا أن نتعرّف إليه بلغتِنا، حتّى ولو لم يُفصح عنه تحديدًا. وعلى هذا النحو نقول: إنّها تُمطر، وتُبرق وتُرعِد وتُزبد... وسوى ذلك من أمور الكلام من دون أن نُحدّد من يُمطِر ومن يُبرِق ومن يرعِد ويُزبد، لأنّ صانع هذه الأمور كلّها يحضر في ذهنِنا، من دون أيّ حاجة للإفصاح عنه. ما هي، إذًا، أسرار الإبن؟ إنّ هذا التعبير يُعلّمنا أوّلًا أنّ للإبن أعمالًا معروفة، نميّز منها تلك التي نُسمّيها خفيّةً أو سرّيّة. وبما أنّنا نؤمن بمجيئَين للمخلّص، أحدهما حصل ولم يفهمه اليهود، والآخر سيحصلُ مستقبلًا، وننتظره جميعُنا؛ وبما أنّ الأوّل الذي أنكره اليهود أفاد الأمم، فإنّ لنا ملءَ الحقّ في أن نفهم بأسرار الإبن أو خفاياه، ذلك المجيء الأوّل الذي أصاب بالعمى قسمًا من إسرائيل، إلى أن دخل ملءُ الأمم في الكنيسة (راجع رومة ١١: ٢٥). يرى الإنسان النبيه أنّ الكتاب المقدّس يُسجّل دينونتَين: الأولى سرّيّة، والثانية علنيّة. أمّا السرّيّة فتحصل الآن بحسب كلام القدّيس بطرس: «فإنّه آن للقضاء أن يبتدئ ببيت الربّ» (١ بطرس ٤: ١٧). الدينونة السرّيّة هي في القصاص الذي يحثُّ كلّ إنسانٍ على أن يتطهّر، أو

يحذّره ليتوب إلى الله، أو يضربه بعمى يُهلِكُه، إن هو ازدرى صوت الربّ ودعوتَه إلى التوبة. أمّا الدينونة العامّة والعلنيّة فتكون يوم يأتي الربّ يسوع المسيح ليدين الأحياء والأموات، وفيها يعترف الجميع بأنّه هو الذي يُجازي الأبرار ثوابًا والأشرار عذابًا. لكنّ ذلك الإعتراف العلنيّ لن يكون لرفع البؤس، بل للإدانة القصوى. يُحتمَل أن يكون الرب قد تكلّم عن هاتَين الدينونتَين، السرّيّة والعلنيّة، حين قال: «من آمن بي فقد انتقل من الموت إلى الحياة، ولا يصير إلى دينونة» (يوحنّا ٥ : ٢٤)؛ أي إلى الدينونة العامّة العلنيّة. لأنّ الإنتقال من الموت إلى الحياة، بواحدة من تلك الشدائد التي يبلو بها الربّ أولئك الذين يصطفيهم في بنيه، هو الدينونة السرّيّة. وقال أيضًا: «ومن لم يؤمِن فقد دين» (يوحنّا ٣: ١٨)، أي أنّ دينونة الله السرّيّة تُهيّئه للدينونة العلنيّة. ويُكلّمنا الحكيم أيضًا عن هذين النوعَين من الدينونة فيقول: «لذلك بعثتَ عليهِم عِقاب أولادٍ لا عقل لهم للسخرية، ولمّا لم يتّعظوا بتأديب السخرية، ذاقوا العقاب اللائق بالله» (حكمة ١٢ : ٢٥-٢٦). إذًا، فإنّهم حُفِظوا ليذوقوا عقابات الدينونة العلنيّة العادلة والصارمة، أولئك الذين لم يُقوّمهم عقاب دينونة الربّ السرّيّة. إذًا، يُحدّثنا هذا المزمور عن أسرار الإبن، أي عن مجيئه المتواضع، الذي يحمل الخير الكثير للأمم، ويُبقي اليهود في عماهم؛ وعن ذلك القِصاص الذي يعتمده الله في السرّ، لا لإدانة الخطأة، بل لتدريب التائبين على الإيمان، أو لحمل الآخرين على التوبة، أو لتهيئة الذين يرفضون التوبة، للإدانة بضربهم بالعمى.

٢ - «أعترف للرّب بكلّ قلبي» (٩ : ٢). أن نشكّ، ولو مقدار ذرّة، بعناية الربّ، يعني أنّنا لا نعترف به بكلّ قلبنا؛ لكن، أن نفهم، في مخطّطات الحكمة الإلهيّة السرّية، كم يغيب عن أنظارنا ثواب من

يقول: «إنّي أفتخر بالشدائد» (رومة ٥: ٣)؛ وكيف أنّ جميع الشدائد الجسديّة التي نبلوها ينبغي أن تؤدّي إلى تمرُّس أولئك الذين يتوبون إلى الله، أو إلى حمل الخطأة على التوبة، أو إلى تهيئة الخطأة المكابرين للانتقام الأخير العادل؛ وأن نُرجع بهذه الطريقة، إلى حكم العناية الإلهيّة كلّ تلك الأحداث التي ينسبها الجهلاء بصفاقة وقحة، إلى الصدفة، ناكرينَها على عمل الله؛ ففي ذلك كلِّه إعترافًا كاملًا بالله. «أخبرُ بجميع معجِزاتِك». إنّ الإخبار بجميع معجزات الله يكون في كشف يد الله، ليس في الظاهر الذي تصنعه في الجسد، بل في العمل السرّي الأسمى الذي تصنعه في النفوس. لأنّ الأرضيّين الذين يحكمون بحسب أعيُنِهم، سيُعاينون معجزة في قيامة لعازر بالجسد، أبهى من القيامة الروحيّة لبولس مضطهِد المسيح (راجع يوحنّا ١١: ٤٤؛ أعمال ٩). لكن، بما أنّ المعجزة المنظورة هي دعوة للروح إلى النور، وأنّ المعجزةَ الخفيّة تنير الروح التي تستجيب النداء، فإنّ الإيمان بالمعجزات المنظورة، يكون في الإخبارِ بمعجزات الله، وبالإيمان، الإرتفاع إلى فهم المعجزات الخفيّة.

٣ - «أفرح وأبتهج بك» (٩: ٣). لا هذا العالَم، ولا شهوات الجسد، ولا الطَعم الذي يُغري الفم واللسان، ولا العطور الذكيّة، ولا تناغم الأصوات العابرة، ولا الألوان الزاهية، ولا مدائح البشر الباطلة، ولا الزواج والأنسال الفانية، ولا وفرة الخيور الزمنيّة، ولا الفهم الدنيويّ لما تحتويه الأفلاك، أو لِكلّ ما يؤمّن توالي الأزمان، لا شيء من كلّ ذلك يا ربّ يُفرِحني، بل بك وحدك أبتهِج، أو بالأحرى بأسرار ابنك الذي «طبع على جباهنا نور وجهِك يا ربّ» (راجع مزمور ٤: ٧)، «لأنّك تسترُهم في ستر وجهِك» (مزمور ٣٠: ٢١). فأنت الذي تُفرِح وتُبهج الذين يُخبرون بمعجِزاتِك. وسيُخبر بمعجزاتِك ذاك

الذي يُبشّرنا بالنبيّ، ويأتي، لا ليصنع مشيئتَه، بل مشيئة الآب الذي أرسله. (يوحنّا ٦: ٣٨).

٤ - بدأنا، إذًا، فرأينا أنّ يسوع المسيح هو الذي يتكلّم في هذا المزمور. لأنّه جاء تتمّة لهذه الآية، وبداية للآية التالية: «أشيد لاسمك أيّها العليّ، لأنّك رددت أعدائي إلى الوراء» (٩: ٣-٤). والحال، فمتى يرتدّ عدوّ يسوع المسيح إلى الوراء، إلّا عندما يؤمَر: «إلى ورائي يا شيطان»؟ (متّى ٤: ١٠). إذ ذاك يُرغَم على الإرتداد إلى الوراء ذاك الذي كان يُريد أن يتقدّم إلى الأمام عن طريق الإغواء، لأنّه أخفق في محاولات الإغواء، ولم يجنِ أيّة فائدة. الإنسان الأرضيّ في الوراء، لكنّ الإنسان السماويّ، ولو انه جاء متأخّرًا، فهو في المقدّمة. «الإنسان الأولّ أرضيّ، ويأتي من الأرض، والإنسان الثاني سماويّ ويأتي من السماء» (١ قورنتس ١٥: ٤٧). من نسل الأوّل أتى الذي قال: «من جاء بعدي، كان قبلي» (يوحنّا ١: ١٥)، وكذلك الرسول بولس، عندما نسي كلّ ما وراءَه، وامتدّ إلى ما هو أمامه (راجع فيليبّي ٣: ١٣). ارتدّ العدوّ، إذًا، إلى الوراء، عندما أخفق في إغواء الإنسان السماوي، وارتدّ نحو الأرضيّين الذين بوسعه أن يسود عليهِم. بعدها، ما من إنسانٍ، يستطيع أن يقف أمام ذلك العدوّ، ويدفعه إلى الإرتداد إلى الوراء، إلّا ذاك الذي استبدل صورة الإنسان الأرضيّ بصورة الإنسان السماويّ (راجع ١ قورنتس ١٥: ٤٩). بوسعنا أيضًا، ومن دون أن نقع في الخطأ، أن نفهم بالعدوّ، إن شئنا، إمّا الخاطئ بصورة عامّة، وإمّا الوثنيّ. عندها لا تعود جملة «رددتَ عدوّي إلى الوراء»، تُعبّر عن عقاب، بل عن إحسانٍ لا يُقارَن. أيّ شيءٍ أحبّ من أن يُقلع المرء عن كبريائه، ويأبى أن يقوم بوجه المسيح، الذي يدعو تلميذه إلى الكمال بقولِه: «إتبعني» (متّى ١٩: ٢١). إلّا أنّه من الأفضل أن نُطبّق

على الشيطان هذا القول: «رددت عدوّي إلى الوراء». لأنّ الشيطان أُرغم على التراجُع، حتّى في اضطهادِهِ الأبرار، وخيرٌ لنا أن نخضع لمطارداتِهِ، من أن نتبعَه كما لو كان زعيمنا وقائدنا. فلنُشِد، إذًا، لاسم العليّ الذي ردّ العدوّ إلى الوراء، من حيث أنّه خيرٌ لنا أن نهرب من مطارداتِهِ، من أن نتبعه عندما يُريد أن يقتادَنا. لأنّ لنا ملاذًا وملجأً وسترًا في أسرار الإبن: «أيّها الربّ، صرت لنا موئلًا» (مزمور ٩١ : ١).

٥ - «يسقطون ويهلكون من وجهِك» (٩ : ٤). مَن ذا يسقط ويهلِك سوى الخاطئ والمنافق؟ «يسقط»، لأنّه يفقد القوّة، و«يهلك» لأنّه لن يقوى بعدُ على النفاق؛ «من وجهِك»، أي عندما يعرفك، كما هلِك من قال: «إنّي حيٌّ، لا أنا، إنّما المسيح حيٌّ فيّ» (غلاطية ٢ : ٢٠). لكن، لِمَ «يسقط المنافق ويهلك من وجهِك؟» يُجيب النبيّ: «لأنّك قضيت لي بالعدل، وأخذت جانبي» (راجع ٩ : ٥)، أي أنّك حوّلت لصالحي، في آنٍ، ذاك الحكم الذي بدوتُ فيه مدانًا، وتلك الإدانة التي لفظَها البشر بحقّي، على الرغم من بِرّي وبراءتي. لأنّ ذلك كلّه كان لابن الله وسيلةً لخلاصنا. وهكذا البحّار يُسمّي رياحه المؤاتية تلك الرياح التي تساعدُه في إبحار يوصلُه إلى الميناء الأمين.

٦ - «استويتَ على عرشك ديّانًا عادلًا» (٩ : ٥). ذاك ما يُكلّم به الإبن أباه، بالمعنى الذي قال فيه: «ما كان لك عليّ من سلطان لو لم يُعطَ لك من فوق» (يوحنّا ١٩ : ١١)، عندما اعتبر أنّ الحكم على ديّان البشر، من أجل خلاص البشر، إنْ هو إلّا دليلٌ على عدل أبيه وعن خفايا حكمتِه. لعلّ الإنسان هو الذي يقول لله: «استويتَ على عرشك ديّانًا عادلًا» معتبرًا روحه العرش وجسدَه الأرض التي تُدعى موطئ

قدَمَي الرّبّ (أشعيا ٦٦ : ١): لأنّ الله صالحَ العالم في يسوع المسيح (٢ قورنتس ٥: ١٩). ولعلّ روح الكنيسة التي باتت كاملة لا وصمة فيها ولا جعدة (أفسس ٥: ٢٧)، ومستحقّةً أسرار الإبن، لأنّ الربّ أدخلَها أخاديره (نشيد الأناشيد ١: ٣)، لعلّها روح الكنيسة هي التي تقول لخَتَنِها: «استويتَ على عرشك ديّانًا عادلًا»، لأنّك قمت من بين الأموات، لتصعد إلى السماء، وتجلس عن يمين الآب. وبوسعنا، من دون أن نخدش أصول الإيمان، أن نفهم هذه الآية بأحد هذه المعاني الثلاثة.

٧ - «زجرتَ الأمم وأهلكتَ المنافق» (٩: ٦) من الأفضل أن نُطبّق هذه العبارة على يسوع المسيح من أن نضعها على لسانه. فمَن غيره عاقب الأمم ليُهلك منها المنافق، كما فعل هو بعد صعودِه؟ إذ أنّه أرسل الروح القدس الذي امتلأ منه الرسل فنشروا كلمة الله بثقة وأمانة ودانوا، بلا حَرَج، خطايا العالَم. وأهلكتْ دينونتُهم المنافقَ، فتبرّر وصار تقيًّا. «محَوت اسمه إلى الدهر، وإلى دهر الدهور» (٩: ٦). امّحى اسم المنافق، لأنّنا لا نستطيع أن ندعوَ منافقًا من آمن بالله الحقّ؛ امّحى اسمه إلى الدهر، أي إلى مدى كرّ الأيّام. «وإلى دهر الدهور». ما هو دهر الدهور؟ إنّه الزمن الذي ما الدهر منه إلّا الصورة أو الظلّ. لأنّ دورة الأزمنة التي تتوالى، ويكبر القمر فيها ويصغر، وتعود الشمس فيها كلّ سنةً إلى أوجِها، ولا يمضي منها ربيعٌ وصيفٌ وخريفٌ وشتاء إلّا لتُطلّ مجدّدًا، كلّ ذلك يُعطينا صورة عن الأبديّة. لكن الزمن الذي يستمر في تواصل لا يتغيّر، يُدعى دهرًا لتلك الدهور التي تتوالى وتنقضي؛ الزمن بالنسبة إلى الدهور هو بمثابة الشِعر الذي تحملُه في فكرك نسبةً لذاك الذي تلفظه بصوتِك. الشِعر يُفهم، والصوت يُسمَع. للشِعر وزنه الذي هو من صنع الفنّ، ويبقى؛ فيما الصوت يتلاشى في

الجوّ في الأثير. هكذا، يجد الدهر الذي ينقضي صورتَه في الدهر الثابت الذي نسمّيه دهر الدهور. دهر الدهور هذا باقٍ أبدًا عند الخالق الإله، وهو على الدوام ضمن حكمة الله وقدرته؛ فيما الدهر يضبط عمل الله في كلّ خليقة. ربّما كان في الأمر تكرارًا، فبعد أن قال: «إلى الدهر»، ولئلّا نفهم أنّه يعني الدهر الذي ينقضي، أضاف النبيّ: «وإلى دهر الدهور»، على ما ورد في النصّ اليونانيّ «Εἰς τὸν αἰῶνα καὶ εἰς τὸν αἰῶνα τοῦ αἰς τὸν αἰῶνος». أمّا في عدد من النصوص اللاتينيّة فورد على الشكل التالي: «إلى الدهر وإلى الأبد»، أو «إلى الأبد وإلى دهر الدهور». إنّ اسم المنافق امّحى، إذًا، إلى الأبد، أي لن يكون بعدُ أبدًا أثرٌ للمنافقين؛ وإذا كان اسمهم يستحيل أن يدوم في هذا الدهر، فإنّه لن يقوم قطُّ إلى دهر الدهور.

٨ - «رماح العدوّ أُبيدت إلى الأبد» (٩ : ٧). العدوّ، هنا بصيغة المفرَد، لا الجمع. والحال، فإنّ هذا العدوّ الذي دُمّرت رماحُه، ليس سوى إبليس الذي يتمنطق من أشكال الضلال ألفَ سلاح، يستعملها كرماحٍ لقتل النفوس. لكن، مقابل رماح إبليس، هناك سيف الرّبّ للقضاء عليها. وعنه يقول صاحب المزامير: «إن لم تتوبوا إليه استلّ عليكم سيفَه». لعلّه هو الحدّ الذي تسقط عنده قوّةُ رماحٍ عدوّة تسود إلى أن تتحطّم عنده. اليوم، يعمل سرًّا، أمّا في اليوم الأخير فسيلمع بكلّ ضيائِه. وهو الذي سيدمّر المدن؛ لأنّه بعد أن قال إنّ القوّة ستسقط، يُضيف النبيّ: «ودمّرتَ مُدُنَهم». إنّ نفسًا تُصبح مدينة الشيطان، عندما تبني لها مشورات أحابيلِه الكاذبة نوعًا من بلاطٍ تخضع فيه أعضاؤه، كلّ عضوٍ لعملِه، خضوعَ الرعايا والخدّام والموظّفين؛ فتكون العيون في خدمة فضولِه، والآذان في خدمة غرائزه الفاجرة، وتلتقط كلّ مشورة تقود إلى الفجور، والأيدي تمارس السلب والعنف

والإجرام، وتُخضَع الأعضاء الأخرى لقهرٍ مماثل، فتعمل لتلك المخطّطات المنحرفة. أمّا رُعاع تلك المدينة، فقوامهم الشهوات الحسّيّة، وخلجات النفس المضطربة التي تثير في الإنسان، يوميًّا، نزاعاتٍ تمرّديّة. هناك، إذًا، مدينة حيث يكون ملكٌ وبلاطٌ وموظّفون وخدّام وشعب. وفي المدن الفوضويّة ما كنّا لنرى كلّ هذه الشرور، لو لم تكن موجودة في المواطنين الذين هم بذور المدن وعناصرها. إذًا، هذه المدن يُدمّرها يسوع المسيح عندما يطرد منها رئيسها، على ما قيل: «إنّ رئيس هذا الدهر يُطردُ خارجًا» (يوحنّا ١٢ : ٣١). كلام الحقّ يُلقي الخراب في تلك الممالك، ويخنق فيها المخطّطات السامّة، ويقمع الميول المخزِية، ويقهر عمل الأعضاء والحواسّ التي ينبغي أن تخدم العدالة والبرّ؛ وهكذا يتمّ كلام الرسول: «لا تملكِ الخطيئة في أجسادكم المائتة فتُطيعوا شهواتِه» (رومة ٦ : ١٢). إذ ذاك تجد النفس المطمئنّة ذاتَها في حالٍ تُمكّنها من الحصول على الراحة والسعادة. «واضمحلّ ذكرُهم بصخب» (٩ : ٧) أي ذكر المنافقين الذي لا يضمحلّ من غير صخَب. ذاك أنّه ما من إنسانٍ يبلغ صفو السكينة والسلام العميق إن لم يكن قد شنّ حربًا صاخبة على عيوبِه. وقد تعني عبارة «بصخَب» أنّ ذكر المنافق يضمحلّ بذلك الصخب الذي يُحدثُه النفاق.

٩ - «أمّا الربّ فإلى الأبد يبقى» (٩ : ٨)، فلِمَ بعدُ «ترتجُّ الأمم وتهذُّ الشعوب بالباطل على الربّ وعلى مسيحه» (مزمور ٢ : ١، ٢)، ما دام الربّ باقٍ إلى الأبد، «وقد هيّأ عرشه للقضاء، وهو يُحاكم المسكونة بالعدل وبالاستقامة يدين الشعوب»؟ (٩ : ٨-٩). هيّأ عرشه وجلس للقضاء. طولُ أناتِه مكّننا من أن نستحقّ السماء، وهذا الإله المحتجِب في الإنسان كان يُنشّط فينا الإيمان. ذاك هو قضاء الإبن السرّيّ. ولأنّه سيأتي في مجده، بشكلٍ منظور، ليدين الأحياء

والأموات، هيّأ له عرشًا بقضاءٍ محتجِب. وسيدين العالَم علانيةً بعدلِه، أي أنّه سيحكم على كلّ واحدٍ بحسب استحقاقاتِه، فيُقيم الخراف عن يمينِه والجداء عن يسارِه (متّى ٢٥: ٣٣). «يحاكم المسكونة بالعدل، وبالاستقامة يدين الشعوب»: تعبيران مترادفان، كأنّ الثاني تكرارٌ للأوّل. لا يُحاكم الله، على طريقة حكم الإنسان الذي لا يرى القلب، وغالبًا ما يُطلِق المذنب بدلًا من أن يدينَه؛ بل يُحاكم بالعدل، «وتشهد لهم ضمائرهم وأفكارهم، فتشكوهم تارةً، وتارةً تُدافع عنهم» (رومة ٢: ١٥).

١٠ - «ويكون الربّ ملجأً للملهوف» (٩: ١٠). مهما بلغت مطاردات ذلك العدوّ الذي أرغِم على الإرتداد إلى الوراء، فكيف له أن يُسيء إلى الذين يجدون في الربّ ملاذًا؟ هو يكون ملجأً لهم، إن هم اختاروا الفقر في هذا العالَم الذي يُقيم الشيطان رئيسًا عليه، فلا يتعلّق بأيّ شيءٍ في هذه الحياة يستطيع أن ينجوَ من جوعه إليه، أو يتخلّى عنه عند الممات. الربّ ملجأٌ لهؤلاء الفقراء الملهوفين، وهو يعضدهم في أيّام اليُسر وفي آونة الضيق. إنّه هو الذي يصنع الملهوف، من حيث أنّه «يُسَرّ بتأديب كلّ ابنٍ يتّخذه» (عبرانيّين ١٢: ٦). والنبيّ يفسّر لنا «العضدَ في أيّام اليُسر» عندما يُضيف «وفي آونة الضيق». والحال، فإنّ النفس لا تتحوّل إلى الله إلّا بعد أن تُطلّق العالَم، فيما العناء والألم يمتزجان بملذّاتِها العقيمة الباطلة التي تحمل كلّ الخطر وتؤدّي إلى الهلاك.

١١ - «فليتوكّل عليك العارفون باسمك» (٩: ١١)، وليكفّوا عن التوكّل على غناهم وعلى سائر مُغريات هذا العالَم. إنّ النفس التي تنسلخ عن العالم وتسعى وراء من تتوكّل عليه، تلجأ بفرح إلى معرفة

اسم الله. والحال أنّ هذا الاسم، اليوم، على كلّ شفة ولسان، ومعرفته هي أيضًا معرفة صاحبِه. لأنّ الاسم لا يكون اسمًا بحدّ ذاتِه، ولا قيمة له إلّا في معناه. والحال، فإنّه قيل: «الربُّ اسمُه» (إرميا ٣٣: ٢). ومعرفة اسمه تُترجم بوضع النفس، بفرحٍ، في خدمتِه. «وليتوكّل عليك العارفون باسمك». كما أنّ الربّ قال لموسى: «أنا هو الكائن» (خروج ٣: ١٤)، و«كذا قُل لبني إسرائيل: الكائن أرسلني». يا ربّ، «فليتوكّل عليك العارفون باسمك»، مخافة أن يتوكّلوا على الخيور الفانية بسرعة الزمن، التي لا مستقبل لها ولا ماضٍ، فلا يكاد يطلع عليها مستقبل حتّى ينقضي. ينتظرونه بحماسة، ويفقدونه بألم. أمّا الطبيعة الإلهيّة فمستقبلها الأبد، وماضيها لا يزول. الكائن هو الوجود الدائم، الكائن هو الأبديّة. فليكفّوا، إذًا، عن التوكّل على الخيور الزمنيّة والتشبّث بها، وليرتفعوا برجائِهم حتّى حدود الأبد، أولئك الذين يعرفون اسم الذي قال: «أنا هو الكائن»، والذي كُتِبَ عنه: «الكائن أرسلني»، لأنّك، يا ربّ، لا تتخلّى عن الذين يلتمسونك. إلتماسُه يعني التخلّي عن التماس الخيور العابرة والفانية، لأنّ أحدًا لا يسعُه أن يعبدَ ربّين. (متّى ٦: ٢٤).

١٢ – «أشيدوا للربّ ساكن صهيون»، يقول النبيّ للذين يلتمسون الربّ فلا يتخلّى عنهم. «ساكن صهيون»، وصهيون تعني «التأمّل»، وتمثّل لنا للكنيسة الحاليّة، كما تُمثّل أورشليم الكنيسة المستقبليّة، أو مدينة القدّيسين الذين يتمتّعون بحياة الملائكة، لأنّ أورشليم تعني «رؤية السلام». والحال فإنّ التأمّل يسبق الرؤية، كما أنّ الكنيسة الحاليّة تسبق المدينة الأبديّة الخالدة، أرض ميعادِنا؛ لكنّها لا تسبقَها إلّا في الزمن، من دون أن تفوقَها في الكرامة، لأنّ الغاية التي نصبو إليها أنبل من الجهد الذي نبذله من أجل بلوغِها؛ والحال، فإنّ جهدنا الحاليّ هو

التأمّل الذي نصل عن طريقِه إلى الرؤية. أمّا إذا كان الرّبّ لا يسكن، من الآن، كنيسة الأرض، فإنّ التأمّل، أنقاه، يُمكن أن يؤدّي إلى الضلال. قيل: «إنّ هيكل الله مقدّس وهو أنتم» (١ قورنتس ٣: ١٧) وأيضًا: «المسيح يسكن في الإنسان الباطن، وبالإيمان في قلوبِكم» (أفسس ٣: ١٦، ١٧). يأمرنا النبيّ بأن نُنشيد للربّ ساكن صهيون، من أجل أن نرنّم، جوقًا واحدًا، التسابيح لله الذي يسكن كنيسته. «وحدِّثوا في الشعوب بمعجزاتِه» (٩: ١٢). وهذا ما كان، وما سيكون على الدوام.

١٣ - «ذكَرَهم الربّ وهو يُطالب بدمائهم المسفوكة» (٩: ١٣). كما لو انّ الرسل الذين أرسِلوا ليحملوا البشارة إلى الشعوب، هم الذين يستجيبون لدعوة الربّ بأن «يُحدِّثوا في الشعوب بمعجزاتِه»، ويقولون: «من آمَن، يا ربّ، بما سمِع منّا»؟ (أشعيا ٥٣: ١)، وأيضًا: «من أجلك نُمات النهار كلّه، وقد حُسِبنا مثل غنمٍ للذبح» (رومة ٨: ٣٦؛ مزمور ٤٣: ٢٢). محقٌّ النبيّ في أن يُضيفَ أنّ ثمرة الموت للمسيحيّين المضطهَدين ستكون فوزهم بالأبديّة: «لأنّ الربّ يذكُرُهم وينتقم لدمائِهم». لكن، لماذا فضّل النبيّ أن يختار هذا التعبير: «ينتقم لدمائِهم»؟ هل له أن يُجيب على هذا السؤال الذي يمكن أن يطرحه عليه إنسان جاهل وضعيف الإيمان: «كيف يُبشّرون أولئك الكفَرة الذين يسوقونَهم للذبح»؟ وهل له أن يقول: «سيذكرُهم الربّ وينتقم لدمائِهم»، أي أنّه يأتي في اليوم الأخير ليُظهِر مجد الضحايا ويُعلن قِصاص الجلّادين؟ لأنّه ما من أحد سيسمع عبارة: «ذكَرَهم الربّ»، كما لو كان له أن ينساهم؛ لكن لأنّ الدينونة الأخيرة لن تحصل إلّا بعد انقضاء زمانٍ طويل، فإنّ النبيّ يُلائم كلامه مع لغة الضعفاء الذي يتصوّرون أنّ الله ينسى، لأنّه يعمل ببطءٍ لا يرغبون فيه. لأجلِهم أيضًا

قيل: «لم ينسَ صراخ البائسين» (٩: ١٣)، أي أنّه لم ينسَ البتّة، كما تظنّون؛ وكما لو انّهم يقولون، بعد سماعِهم عبارة «ذكرهم الربّ»؛ «إذًا، لقد نسي»؛ فيُجيب النبيّ «لا! لم ينسَ صراخ البائسين».

١٤ - لكن، أقول، ما هو صراخ البائس الذي لا ينساه الربّ؟ أهو الصراخ الذي تُعبّر عنه الكلمات التالية: «إرحمني يا ربّ وانظر إلى بؤسي من مبغضيَّ» (٩: ١٤). لماذا لا يتكلّم بصيغة الجمع ويقول: ارحمنا يا ربّ وانظر إلى بؤسِنا من مُبغِضينا؟ كما لو كان بائسون كثيرون يصرخون معًا؛ ولماذا يقول: «إرحمني يا ربّ» كما لو انّه لا يوجد سوى بائسٍ واحد؟ هل وحدَه الذي افتقَر لأجلِنا، وهو الغنيّ، (٢ قورنتس ٨: ٩)، يتكلّم باسم القدّيسين؟ لعلّه هو أيضًا يقول: «يا رافعي من أبواب الموت لكي أخبِرَ بجميع تسابيحِك في أبواب ابنة صهيون» (٩: ١٤-١٥). لأنّ يسوع المسيح هو رافع الإنسان، لا الإنسان الذي لبِسَه فحسبُ، وصار رأس الكنيسة، بل كلّ واحدٍ منّا، نحن أعضاءَ جسدِه. وهو يرفعنا فوق الشهوات الفاسدة، التي هي أبواب الموت، التي منها نمضي إلى حتفِنا. والموت إنّما هو في تلك المباهج التي توفّرُها لنا ملذّات الدنيا، عندما نحصل على ما نأثمُ في ابتغائِه: «لأنّ الشهوة أصل كلّ شرّ» (١ طيموتاوس ٦: ١٠). كذلك بوسعِنا أن نُسمّيَها باب الموت، لأنّ «أرملةً مترَفة، إمرأةٌ ميتة» (١ طيموتاوس ٥: ٦). والحال، فإنّنا بالشهوة ندخل في الملذّات، كمن يدخل أبواب الموت. أمّا أبواب صهيون فهي اللذائذ المقدّسة التي تؤدّي إلى رؤية السلام في الكنيسة المقدّسة. وفي هذه الأبواب ينبغي أن نُخبِرَ بجميع تسابيح الربّ، لئلّا نطرح المقدّسات للكلاب والجواهر للخنازير (متّى ٧: ٦). فشأن الكلاب النُباح لا البحث بعناية، وشأن الخنازير لا النباح ولا الإنتقاء، بل التمرّغ في وحول شهواتِها. لكنّنا عندما نسبّح

الربّ بعاطفة مقدّسة، فإنّه يُعطي من يطلب، ويَظهرُ لمن يبحث عنه، ويفتح لمن يقرع بابَه. أتُفهَم، أيضًا، أبوابُ الموت، على أنّها عينَا الجسد، عينَا آدم اللّتان انفتحتا عندما أكل من الثمرة المحرّمة (تكوين ٣: ٧)، واللتَان يرتفع فوقهما الذين لا يسعَون في طلب الخيور المنظورة، بل اللامنظورة؟ «فإنّ ما يُرى، إنّما هو زمنيّ، وأمّا ما لا يُرى فهو أبديّ» (٢ قورنتس ٤: ١٨). عندها، أفلا تكون أبواب ابنة صهيون، المقدّساتِ ومبادئَ الإيمان التي يُريد الله أن يفتحَها للذين يقرعون، لكي يتوصّلوا إلى معرفة أسرار الإبن؟ لأنّه «لم ترَ عينٌ ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشر، ما أعدّه الله للذين يُحبّونَه» (١ قورنتس ٢: ٩). هنا، إذًا، ينتهي صراخ البائسين الذي لم ينسَه الربّ المخلّص.

١٥ - «وأبتهِجُ بخلاصِكَ» (٩: ١٥). أي أجد سعادتي في المخلّص الذي وهبتنيه، وهو ربّنا يسوع المسيح «قوّة الله وحكمة الله» (١ قور ١: ٢٤). تلك هي، إذًا، لغة الكنيسة، المنكوبة في هذه الدنيا، والمخلّصة بالرجاء؛ وما دامت دينونة الإبن محتجِبة، فإنّ الكنيسة تصرخ برجاء: «أبتهجُ بخلاصِك»؛ فهي، في الأرض، رازحةٌ تحت العنف وضلالات الوثنيّة. «سقطَ الأممُ في الهوّة التي حفروها» (٩: ١٦). لنرَ هنا كيف أنّ الخاطئ لاقى عقابَه في أعمالِه نفسِها، وكيف أنّ الذين أرادوا أن يضطهدوا الكنيسة تاهوا في مؤامراتٍ كانوا يحوكونها لها. كانوا يعملون لقتل أجسادٍ، فقتلوا أرواحَهم بأنفسِهم. «وفي الشَرك الذي أخفَوه، نشبَت أرجُلُهم» (٩: ١٦). الشَرك الذي أخفَوه هو الفكر الماكر، والأرجل يُقصَدُ بها الحبّ الذي يعني الشهوة والرذيلة عندما يكون منحرفًا، والرفق والرحمة عندما يكون مستقيمًا. الحُبّ هو الذي يدفع النفسَ إلى حيث تريد أن تصل؛ وهذا المكان لا

يحتلّه شكلٌ جسديّ، بل اللذّة التي تبتهج بأنّ الحبّ قادها إليها. والحال، فإنّ الشهوة تؤدّي إلى اللذّة الخطِرة، والرحمة إلى اللذّة الطاهرة. من هنا قيل إنّ «الشهوة أصل» (١ طيموتاوس ٦: ١٠). والمحبّة أيضًا أصل، عندما يتعلّق الأمر بذلك البذار الإلهيّ الذي يسقط على أرضٍ حجِرة، فتُحرقه الشمس وييبس لأنّه لم يكن له أصل عميق. (متّى ١٣: ٥). هكذا يحترق أولئك الذين يقتبلون بفرحٍ كلمة الحقّ، لكنّهم لا يصمدون أمام الإضطهادات، لأنّ المحبّة وحدَها تصمد. كذلك يقول الرسول: «نتأسّس على المحبّة ونتأصّل فيها، فنصمد» (أفسس ٣: ١٧). إذًا، فإنّ قدم الخطأة تنشُب في الشَرك الذي أخفته، لأنّهم متى استطابوا لذّة عملٍ مُنكَر، إذ أسلَمَهم الله في شهوات قلوبهم إلى النجاسة (رومة ١: ٢٤)، يُقيّدون أنفسَهم بتلك اللّذّة، فلا يتجرّأون بعدُ على إخراج مشاعرِهم من تلك القيود ليوجّهوها نحو الخير. وعند أوّل جهد يبذلونه، ينتحبون في أنفسِهم، كالمحكوم بالأشغال الشاقّة الذي يُريد أن يُحرّر قدمَيه الأسيرتَين من سلاسل الحديد. وإذ يسقطون من الألم، لا تعود لديهم رغبةٌ في أن يفطموا أنفسَهم عن تلك الملذّات القاتلة. وهكذا تنشب أرجلهم في الشرك الذي أخفَوه، أو في مخطّطاتِهم الماكرة؛ أي أنّ حُبّهم بلغ، عن طريق الغشّ، ذلك الفرح الهشّ الذي يتمخّض بالألم.

١٦ - «بعدالة أحكامِه، يُعرَف الربّ» (٩: ١٧). تلك، في الحقيقة، هي أحكام الله، فهو لا يخرج عن صفو غبطتِه، ولا عن خفايا حكمتِه التي تلجأ إليها النفوس المغبوطة، ليضرب الخطأة بالحديد والنار، أو ليتركَهم فريسة للوحوش، ويُسلّمهم إلى العذابات. فكيف يُعذّبون، وكيف يُطبّق الله أحكامَه؟ «في عمل يدَيه اصطيد المنافق» يقول النبيّ. (٩: ١٧)

١٧ - هنا يصير ضرب أوتار: **سلاه!** بتقديري، تلك إشارة فرح سرّيّ سببُه الفصل الآنيّ، في المكان، لا في العاطفة، بين الخطأة والأبرار، مثلما تُفصل الحنطة عن القشّ على البيدر. ويتابع النبيّ: «لِيهبط المنافقون إلى الجحيم (٩: ١٨). لِيُسلِّموا أنفسَهم بأيديهم، وليُؤخَذوا في أفراحهم المميتة، فيما الله يُريد أن يُنقذَهم، هم «وكلّ الأمم الذين نسُوا الله» (٩: ١٨)، لأنّهم رفضوا أن يعرفوا الربّ فأسلمَهم إلى رأيٍ مرذول (رومة ١: ٢٨).

١٨ - «فإنّ المسكين لا يُنسى إلى الأبد» (٩: ١٩) المسكين الذي يبدو منسيًّا، يوم تبدو مسرّات الحياة مشرّعة للخطأة، والحزن نصيب البارّ. لكنّ «رجاء البائسين لا ينقطع إلى الأبد» (٩: ١٩)، يقول النبيّ. هذا الرجاء ضروريٌّ لهم الآن، من أجل أن يحتمِلوا المنافقين الذين فُصلوا عنهم بالعاطفة، إلى أن يُفصلوا نهائيًّا في اليوم الأخير.

١٩ - «قُم يا ربُّ ولا يتجبَّرِ الإنسان» (٩: ٢٠). يلتمس النبي، بتأوهاتِه، الدينونة الأخيرة؛ لكن قبل أن تحين: «فلتُدَنِ الأممُ قدّامَك» (٩: ٢٠)، أي في الخفاء وتحت نظر الله، إذ لن يفهم ذلك سوى نفرٍ قليلٍ هم القدّيسون والأبرار. «يا ربّ ألق عليهِم نير الرعب» (٩: ٢١) الذي هو، إن لم أُخطئ، نير المسيح الدجّال الذي قال عنه الرسول: «ويظهر إنسان الخطيئة والهلاك» (٢ تسالونيكي ٢: ٣). «وليعلمِ الأممُ أنّهم بشر» (٩: ٢١)، ولأنّهم يرفضون أن يخلُصوا بابن الله، وينتموا إلى ابن الإنسان ويكونوا أبناء الناس، أوْ بشرًا جُدُدًا، فليُخضَعوا للإنسان، إي لإنسان الخطيئة العتيق، لأنّهم هم أنفُسُهم بشر.

عظة في المزمور التاسع (ب)
العاشر بحسب تقسيم العبرانيّين

(اعتبرت الترجمات اليونانيّة واللاتينيّة أنّ المزمورَين ٩ و١٠ يشكّلان مزمورًا واحدًا، لذلك سيعاد ترتيب آيات المزمور بدءًا من (٩ب: ١).

٢٠ - لمّا كان المسيح الدجّال أو الإنسان الخاطئ سيرتفع، على ما يُعتَقَد، إلى مرتبة عالية من المجد الباطل، ويبسط سلطانًا عظيمًا على جميع الناس وعلى مختاري الله، حتّى أنّ كثيرين سيضعفون ويُساورهم شكّ بأن الله لم يعد يكترث للبشر، يُعبّر النبيّ، بشكل من الأشكال، بعد ضرب الأوتار (**سلاه**)، عن الشكوى والنحيب من تأخّر الدينونة، فيقول: «لماذا يا ربّ تقف بعيدًا؟» (٩ب: ١). وكما لو انّ السائل استنار لتوّه، أو كما لو انّه سأل عمّا كان يعرف جوابَه، لا طلبًا لمعرفتِه، أضاف: «إنّك تحتجِب في يوم الضيق» (٩ب: ١)؛ أي إنّك تحتجب في الوقت المناسب، وتوقظ الضيق لتُضرم في القلوب الشوق إلى مجيئِك؛ فكلّما اشتدّ عليهم العطش الذي يُضنيهِم، كلّما طاب ينبوع الحياة؛ وهذا ما مكّن النبيّ من أدراك أسباب ذلك التأخّر، فنسمعه يقول: «يضطرم البائس بطغيان الشرّير» (٩ب: ٢). لا يُصدّق، لكنّه صحيح، أنّ رؤية الخطأة تُحرق البائسين بشعلةٍ مضطرمة، وبرجاءٍ مقدَّس يرفعهم إلى حياةٍ فُضلى. السبب الخفيّ وحدَه جعل الله يسمح

بوجود هراطقة. وذاك ليس، بلا شكّ، مخطّط الهراطقة. لكنّ حكمة الله تعرف كيف تستفيد من ضلالِهم، هي التي تخلق النور وتنظّمه، وتكتفي بتنظيم الظلمة (تكوين ١: ٣،٤)، حتّى إذا قارنّا الظلمة إلى النور، رأينا النور أبهى وأروع، مثلما نرى أنفُسَا، أمام الهراطقة، أشدّ سعادةً في لقاء الحقيقة. إنّ هذه المقارنة تجعلُنا نكتشف في العالَم ذوي فضيلة مختَبَرة لا يعرفُها سوى الله.

٢١ - «ويؤخذون بالمكائد التي صنعوها» (٩ب: ٢)، أي أنّ مكائدهم الشرّيرة تغدو قيودًا تُكبّلُهم. لكن، لِمَ تغدو قيودًا؟ - «لأنّ الخاطئ يُمتَدَح في مكائد نفسِه» (٩ب: ٣) وكلمات المكر تُقيّد النفس في خطاياها؛ لأنّه يطيب لنا، لا أن نعمل فقط ما لا نخشى التوبيخ على فعلِه، بل أيضًا ما يجلب لنا الهتاف والتصفيق. ولأنّ صانع الشرّ يُمتَدَح، فإنّ المذنبين يُقيّدون بمكائدِهم التي صنعوها.

٢٢ - «الشرّير يُغضب الرّب» (٩ب: ٣). لا نبتهِجْ بالرجل الذي ينجح في هذه الحياة، وتبقى خطاياه بلا قِصاص، ويُصفّق الناس لها. إنّ في هذا إثارةً عظمى لسُخطِ الله. على الخاطئ أن يكون قد بالغ في إغضاب الله، لكي يُعاقبَه الله على هذا النحو، فلا يقوى بعد ذلك على الشعور بتأديبٍ يُصلِحُه. إذًا، «الشرّير يُغضِب الربَّ، فلا يعود الربّ بسخطِه يلتفت إليه» (٩ب: ٤). يطفح سخط الله عندما لا يعود يستقصي خطايانا، فيبدو وكأنّه نسيَها، ولم يعد يُبالي بها، ويسمح بأن يبلغ الشرّير الثروة والكرامة، عن طريق الغشّ والقبائح، وهذا ما نراه خاصّةً في المسيح الدجّال الذي يحسبه الناس سعيدًا فيتّخذونه إلهًا. وستكشف لنا تتمّة المزمور كم هو رهيبٌ غضب الله.

٢٣ - «يحتجب الله عنه، لأنّ طرقَه نجسةٌ أبدًا» (٩ب: ٥). إنّ

الذي تذوّق لذائذ النفس الحقيقيّة وأفراحَها، يعرف كم يكون بائسًا لو حُرِم من نور الحقيقة. إذا كان الناس يحسبون حجب نور النهار عن عينَي الجسد مصيبة جُلّى، فما القول عن مصيبة إنسانٍ يتمرّغ في خطاياه إلى درجة لا يعود معها يرى الله، ولا يعود يسلك إلّا في الطرق النجسة، لأنّ أفكارَه ومخطّطاتِه آثمة؟ «يستخفُّ بأحكامِك» (٩ب: ٥). إنّ النفس التي تُدركُ ذنبَها، ولا تُعاقَب، تتصوّر أنّ الله لا يُحاكمُها، فلا تعود تأبه لأحكام الربّ، وتلك هي إدانتها الرهيبة. «ويسود على جميع أعدائِه» (٩ب: ٥). إذ يعتَقد بأنّه سيقهر جميع الملوك، ويتفرّد بحكم الأرض. والقديس بولس الذي يُخبرُنا به، يذهب إلى حدّ القول: «حتّى إنّ المُعاند يجلسُ في هيكلِ الله ويترفّع فوق كلّ من يُدعى إلهًا ومعبودًا. (٢ تسالونيقي ٢: ٤).

٢٤ - وبما أنّ الشرّير ينقاد إلى شهوات قلبِه، ويُهيَّأ للانتقام الأخير، نراه يترفّع، بمكره الآثم، إلى السيادة والتسلّط، وإلى أوجِ مجدِه الباطل والفاني. وعليه، يُضيف النبيّ: «قال في قلبِه: إن لم أفعل الشرّ، فلا أستمرّ من جيلٍ إلى جيل» (٩ب: ٦)، أي أنّ اسمي ومجدي لن يستمرّا من جيلٍ إلى جيل إلى ذرّيّتي، إن لم أكتسب من مكر الشرّ سيادة لا تقوى الأجيال المسقبليّة على كبحِها. ذاك أنّ الروح الشرّير الذي لا يعرف الخير، والغريب عن أنوار البِرّ يسعى بأعمالٍ آثمة إلى أن يشقّ طريق شهرةٍ لامعة، يتردّد صداها في الأجيال. والذين لا يقوَون على أن يُشتَهَروا بالخير، يريدون، أقلّه أن يُشتهروا بالشرّ، وينشروا شهرتَهم في البعيد. ذاك هو برأيي معنى هذه الكلمات: «بفعليَ الشرّ، أستمرّ من جيلٍ إلى جيل». بوسعنا أيضًا أن نطبّق هذه الكلمات على إنسانٍ روحه الخبيثة والمليئة من الضلال لا تؤمن بأنّها تستطيع الانتقال من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الأبديّة إلّا عن طريق الشرّ، وهذا ما

تُخبرُنا به أعمال الرسل (٨: ٩، ٢٣) عن سمعان الساحر الذي كان يظنّ أنّ بوسعه أن يصعد إلى السماء بأحابيل سحره الماكرة، ويتحوّل من الطبيعة البشريّة إلى الطبيعة الإلهيّة. أفعلينا أن نعجَب، الآن، من أنّ إنسان الخطيئة هذا الذي يُجسّد في ذاتِه الشرّ كلّه والمكر كلّه، والذي لم يُعطِ عنه الأنبياء سوى ملامح بدائيّة، ويُعطى موهبة صنع المعجزات إلى حدّ إغواء الأبرار، لو قُدّر له ذلك، يذهب إلى حدّ القول في قلبِه: «لا سبيل لي سوى الشرّ لكي أستمرّ من جيلٍ إلى جيل»؟

٢٥ - «فمه مملوءٌ لعنةً ومكرًا وظلمًا» (٩ب: ٧). إنّها، في الحقيقة، لعنة عظيمة أن يتوق المرء إلى السماء عن طريق الحِيلة الدنيئة، وأن يصبوَ إلى الحياة الخالدة بمثل تلك الإستحقاقات. ليس فمه فقط هو المملوء بتلك اللعنة، فغروره خائبٌ، ولن يبقى على فمِه إلّا لهلاكِه، هو الذي تجرّأ أن يعِد نفسَه بالسماء عن طريق المكر والظلم، أي عن طريق ألاعيبه الماكرة التي تجذب إليه الجماهير. «وتحت لسانِه سعيٌ وألم» (٩ب: ٧). ما من سعيٍ أعنى من الظلم والإثم؛ وهذا السعي يُنشئ الألم، لا لأنّه فقط غير مُجدٍ، بل بالأحرى لأنّه مُضرّ. السعي والألم يُميّزان هذه اللغة: «بالشرّ وحده أستمرّ من جيلٍ إلى جيل». قيل إنّ الضرر تحت لسانِه، لا على لسانِه، لأنّه يُضمِر هذه الأفكار داخل روحِه، ويُكلّم الناس بلغة مغايرة، لكي يُنظَرَ إليه كبطلٍ للخير والبرّ، وحتّى كابنٍ لله.

٢٦ - «يكمن للأغنياء» (٩ب: ٨)، أولئك الأغنياء الذين يُتخِمُهم من خيور هذا العالَم. فيكمن لهم ويُفاخِر بسعادتِهم الزائفة ليخدع الناس الذين تستحوذ عليهم تلك الرغبة القاتلة بامتلاك مثل تلك الثروات، فيُهملون الخيور الأبديّة ويسقطون في حبائِلِه. «في الظلمة

يقتلُ البريء» (٩ : ٨). أعتقد أنّه يقصد هنا بالظلمة، حالة النفس التي تكاد لا تقوى على تمييز ما ترغب فيه، وما عليها أن تتوقّاه؛ وقتلُ البريء هو جرٌّ من لا وصمة فيه إلى وحل الخطيئة.

٢٧ - «وعيناه تُراقبان البائس» (٩ : ٨). فهمّه الأوّل مطاردة الأبرار الذين قيل عنهم: «طوبى لمساكين الروح فإنّ لهم ملكوتَ السموات» (متّى ٥ : ٣) «يكمن لهم في الخفاء كالأسد في عرينِه» (٩ب: ٩). يُشبّه الذي يستخدم العنف والحيلةَ بالأسد الكامن في عرينِه. أوّلُ اضطهادٍ للكنيسة توسّل العنف، فكان المسيحيّون يُقادون إلى الموت، قهرًا، فيُعَذَّبون ويُلقَوْن فريسة للوحوش الضارية؛ والإضطهاد الآخر من صنع الهراطقة والإخوة الكَذَبَة، كان وما زال مستمرًّا، وميزتُه الخداع؛ والإضطهاد الثالث والأشدّ خطورةً سيكون اضطهاد المسيح الدجّال الذي سيتميّز بالعنف والخداع. ستكون له القوة من خلال التسلّط، والخداع والإغواء من خلال المعجزات. ونرى العنف من المقارنة بالعرين. والعبارة التالية تأتينا بالمعنى نفسِه: «ينصب الشبكَة ليخطَفَ البائس». تلك هي الحيلة. وعبارة «يخطفه، بعد أن يجذبَه» تدلّ على العنف. فالجذب يدلّنا على أنّه لشدّة تعذيب البائس يتمكّن منه ويُخضِعُه.

٢٨ - التتمّة تكرّر أيضًا ما قيل من أنّه «يُمسك به في الشبكة»: تلك هي الحيلة. «وعندما يتسلّط على البائسين، يُسحقُ ويُداس» (٩ب: ١٠): ذاك هو العنف. الشَّرْك يدلّ على المكر، والتسلّط على الإرهاب. محقٌّ النبيّ حين يقول: «يتمكّن من البائس ويجذبُه إلى الشبكة»: لأنّه كلّما بدا مذهلًا ما يُزمع أن يأتيه من أعمال، كلّما اشتدّ ازدراء القدّيسين، وسقطوا في الهوان؛ وبما أنّ عليهم أن يُقاوموه ببرّهم وصلاحِهم، سيبدو أنّه قَهَرَهم بسنى معجزاتِه. لكنّه بدوره «بعد أن

يتسلّط عليهِم، يُسحَق ويُداس»، أي بعد أن يكون قد أذاق خُدّام الله الذين يُقاومونَه كلّ أشكال العذاب.

٢٩ - لكن، لماذا يُسحق ويُداس؟ - ذاك لأنّه «قال في قلبِه إنّ الله قد نسي. حجب وجهه فلا ينظر البتّة» (٩ب: ١١). إنّه لانسحاقٌ وسقوطٌ مريعٌ للنفس البشريّة، أن ترى سعادتَها في الإثم، وترجو الصفح، فيما هي مضروبةٌ بالعمى، ومحفوظة للإنتقام الكبير الأخير الذي يُشير إليه النبيّ فيهتف: «قم أيّها الربّ الإله وارفع يدك» (٩ب: ١٢) أي أظهر قُدرتَك. سبق أن قال أعلاه: «قم يا ربّ، ولا يتجبّرِ الإنسان، ولتُدَن الأمم قدّامك» (٩ أ: ٢٠)، أي في السرّ الذي لا يدرِك كنهَه إلّا الله وحده. هذا ما حدث عندما بلغ المنافقُ إلى ما ينظر إليه الناس كسعادةٍ كبرى، فأخضعَهم للدينونة بما يستحقّون، كما قيل: «يا ربّ ألقِ عليهم الرعبَ وليعلمِ الأمم أنّهم بشر» (٩ أ: ٢١). وبعد هذا القصاص المحجوب والعادل، قيل: «قم أيّها الربّ الإله وارفع يدك»، لا بَعدُ في الخفاء، بل في بهاء مجدِك. «ولا تنسَ البائسين»، كما يتصوّر المنافق القائل: «إنّ الله قد نسي، حجب وجهه فلا ينظرُ البتّة» (٩ب: ١١) لأنّ القول بأنّ الله لا ينظر البتّة، أو أنّه لا ينظر حتّى النهاية، يعني أنّه لا يُقيم أي وزنٍ لأعمال البشر على الأرض. والحال، فإنّ الأرض هي نهاية الأشياء، كما هي آخر العناصر التي يعمل فيها البشر بنظام رائع، لكنّه نظامٌ لا يفقهونَه في أعمالِهم لأنّه يدخل ضمن أسرار الإبن. إذًا، في خضمّ الجهد المضني في هذه الدنيا، تبدو الكنيسة مثل سفينَة وسط الأنواء والعواصف، تتلهّف لإيقاظ الربّ النائم، ليأمر الرياح الهوجاء أن تهدأ، ويُعيد السكينة، وتقول: «قم أيّها الربّ الإله وارفع يدَك ولا تنسَ البائسين».

٣٠ - إنّ معرفة الدينونة الأخيرة تدفعنا إلى أن نقول بفرَح: «لماذا استهان المنافق بالله»؟ (٩ب: ١٣). ماذا جنى من موبِقاتِه؟ «قال في قلبِه: إنّ الربّ لن يسأل عنها، بل قد رأيتها يا ربّ، ولكنّك تنظر إلى الغضب والعناء لتُجازي بيدِك» (٩ب: ١٣-١٤). لنقرأ جيّدًا هذه الكلمات لنعرف معناها، لأنّ قراءة مغلوطةً تقودُنا إلى الظلمة. قال المنافق في قلبه: «الله لن يسأل عن الآثام» كما لو انّ الرب، حين يرى ما سيعانيه من كَربٍ لكي يوقِعَهم في يدِه، يزدري الكَربَ والغضب، ويصفح عن أولئك المنافقين، من أجل ألّا يعود فيَعنى في الاقتصاص منهم، وألّا يُعكّر الغضب صفاءَه. وهذا ما يحصل في الغالب للناس الذين يؤثرون الصفح على العقاب لكي يوفّروا على أنفُسِهم كربَ الغضب.

٣١ - «إليك يُفوّض البائس أمرَه» (٩ب: ١٤). لأنّه ليس بائسًا، ولا هو ازدرى خيور هذه الحياة الفانية، إلّا لكي يضع فيك وحدك رجاءَه. «واليتيم كنت أنت له ناصرًا» (٩ب: ١٤)، أي اليتيم الذي مات العالَم عنه، ذاك العالم الذي كان أباه الذي ولدَه بحسب الجسد؛ اليتيم الذي يستطيع أن يقول: «صُلِبَ العالَم لي، وصُلِبتُ للعالَم» (غلاطية ٦: ١٤). يصير الله أبًا لذلك اليتيم؛ ويُعلّم المخلِّص تلاميذه أن يصيروا أبناء الله عندما يقول: «لا تَدْعوا لكم في الأرض أبًا» (متّى ٢٣: ٩). وهو نفسُه أوّل من يُقدّم المثل فيقول: «مَن أمّي ومَن إخوتي؟» (متّى ١٢: ٤٨). إستنادًا إلى هذا القول، زعم بعض أخطر الهراطقة أنّه لم يكن له أمّ؛ لم يروا أنّ الرسل لو أخذوا كلام الربّ بحرفيّتِه، لما كان لهم في الأرض آباء. إن كان قال: «من أمّي»، فلأنّه علّم تلاميذه ألّا يدْعوا أحدًا على الأرض أباهم.

٣٢ - «إحطِم ذراع المنافق والشرّير» (٩ب: ١٥). ذراع الإنسان

الذي قيل عنه أعلاه إنّه صار سيّدًا على جميع أعدائِه. ذراعه هي قوّته التي تقهرها قوّة المسيح الذي قال عنه النبيّ: «قم يا ربّ وارفع يدَك». «تطلبُ شرَّه فلا يعود يظهَر» بسبب شرّه هذا، أي أنّه سيُدان على شرّه، وشرُّه يُهلكُه، فأين العجب في هذا القول: «ويكون الربّ ملك الدهور والأبَد؛ ويا أيّها الأمم، سوف تُطرحون من أرضِه» (٩ب: ١٦). والأمم هنا هم الخطأة والمنافقون.

٣٣ - «استجاب الربّ رغبة البائسين» (٩ب: ١٧). تلك الرغبة التي أضرمتهم عندما كانوا يتلهّفون، وسط الضيق والشدائد، إلى يوم الرب: «سمعَت أذنُك، يا ألله، أنّ قلبهم مستعِدّ» (٩ب: ١٧). إستعداد القلب هذا هو الذي أنشدَه النبيّ في مزمورٍ آخر: «قلبي مستعدّ يا ألله، قلبي مستعدّ» (مزمور ٥٦: ٨)؛ والذي قال عنه القدّيس بولس: «فإن كنّا نرجو ما لا نشاهده، فبالصبر ننتظرُه» (رومة ٨: ٢٥). يجب ألّا ننظر إلى أذُن الله على أنّها أذنٌ بشريّة، بل أنّها تلك القدرة التي تدفعُه إلى الإصغاء إلينا والإستجابة إلى طلباتِنا؛ ومن أجلِ ألّا نعود إلى هذه المسألة، نقول إنّ الكتاب عندما يجعلُ لله أعضاءً كأعضائِنا، جسديّةً ومنظورة، علينا أن نفهم أنّها تعني قدرتَه على العمل. ويجب ألّا نرى فيها أيّ شيءٍ ممّا هو من الجسد، لأنّ الله يُصغي فينا، لا إلى نبرة الصوت، بل إلى استعداد القلب.

٣٤ - «تقضي بالعدل لليتيم والبائس» (٩ب: ١٨)، أي لمن لا ينسجم مع العالَم، ولا هو بمتجبّرٍ متعالٍ. القضاء لليتيم لا يعني بالضرورة الحكم لصالِحه، بل يمكن أن يعني أيضًا إدانته. لكن يُقضى له بالعدل عندما يُلفظ الحكم لصالِحه. «لئلّا يسعى الإنسان إلى أن يعظُم في الأرض» (٩ب: ١٨). لأنّهم بشرٌ أولئك الذين قيل عنهم:

«ألقِ عليهم نير الرعب، يا ربّ، وليعلمِ الأمم أنّهم بشر» (٩ أ: ٢١). لكنّ النير المطلوب إلقاؤه، سيكون أيضًا بشرًا، وعنه قيل: «لئلّا يسعى الإنسان إلى أن يُمجَّدَ في الأرض». وهذا ما سيحدث عندما يأتي ابن الإنسان ليقضيَ لذاك اليتيم الذي تعرّى من الإنسان العتيق، فكان كمن مجّد أباه.

٣٥ - إنّ أسرار الإبن التي كثر الكلام حولَها في هذا المزمور، سوف تُستتبَع بتجلّيات ذلك الإبن إيّاه، الذي يُلمّح إليه في آخر المزمور. لكنّ الموضوع المشار إليه في العنوان يحتلّ منه الجزء الرئيسيّ. بوسعنا أيضًا أن نضع، بين أسرار الإبن، يوم مجيئه الثاني، ولو انّ مجيئَه ينبغي أن يُعاينَه الجميع. لأنّه قيل عن ذلك اليوم إنّه لا يعرِفُه أحدٌ، لا الملائكة، ولا القوّات، ولا حتّى ابن البشر (مرقس ١٣: ٣٢). والحال، فأيّ سرٍّ أعصى على الإستقصاء من ذاك الذي قيل أنّه محتجِب على الديّان نفسِه، لا كأنّه يجهلُه، بل لأنّه ينبغي ألّا يكشفَه؟ أمّا إذا أراد أحدُهم أن ينسب تلك الأسرار للإبن، لا إلى ابن الله، بل إلى ابن داود الذي تحمل المزامير توقيعَه، لكونِها تُسمّى مزامير داود، فليستمع إلى هذه الكلمات الموجّهة إلى الربّ يسوع: «يا ابن داود ارحمني!» (متّى ٢٠: ٣٠). وليعلَم أنّ ابن داود، هذا، هو ربّنا يسوع المسيح نفسه الذي أوحت أسرارُه هذا العنوان. وليستمع كذلك إلى كلام الملاك: «ويُعطيه الربّ الإله عرشَ داود أبيه» (لوقا ١: ٣٢). وهذا التفسير لا ينقضُه سؤال المسيح لليهود: «فكيف يدعوه داود ربّه، بوحي من الروح، حيث يقول: «قال الرب لربّي إجلس عن يميني حتّى أجعلَ أعداءَك موطئًا لقدمَيك» (متّى ٢٢: ٤٣-٤٤؛ مزمور ١٠٩: ١). كان هذا الكلام موجّهًا إلى أناسٍ أغبياء لم يكونوا يرَون في المسيح المنتَظَر سوى مجرّد إنسان، لا قوة الله وحكمته. كان الربّ يُعلّمهم أن

يؤمنوا، بحسب الحقيقة الأنقى، أنّ المسيح هو ربّ داود، لأنّه في البدء كان **الكلمة** إلهًا من إله، وبه كلّ شيءٍ كان؛ وأنّه أيضًا ابن داود لأنّه وُلِد، بحسب الجسد، من نسل داود. لا يقول الربّ إنّ المسيح ليس ابن داود، بل قال: إن كنتم على يقينٍ من أنّه ابنه، ألا فاعلموا أيضًا أنّه ربُّه؛ وأنظروا على الدوام إلى المسيح أنّه ابن البشر، أي أنه ابن داود، ولكنّه لم يتخلَّ عن بنوّتِه لله التي جعلته ربًّا لداود.

عظة في المزمور العاشر

الهرطقة في مواجهة الكنيسة الجامعة

النفس المؤمنة تردّ على دعَوات الهراطقة بأنّها تعتصم بالربّ لا بالبشر، فيما الهرطقة تُعوِّل على استحقاقات خادم الأسرار المقدّسة. بالكلمة نفسِها يُعمي الربّ الأشرار ويُخلّص الأبرار.

للغاية، مزمور لإمام الغناء داود (١٠ : ١)

١ - لا يحتاج العنوان إلى شرح، من حيث أنّنا عرضنا كفايةً لمعنى عبارة «للغاية in finem». فلننكبّ، إذًا، على قراءة نص المزمور الذي يبدو لي نشيدًا ضدّ الهراطقة. والحال، فإنّ هؤلاء الهراطقة، إذ يُبالغون في التذكير، باستمرارٍ، بأخطاء كثيرين من أبناء الكنيسة، كما لو انّ جميع من هم في صفوفِهم، أو معظمَهم، هم من الأبرار، يجتهدون في مساعيهم لانتزاعنا من حضن الكنيسة، الأم الحقيقيّة الوحيدة. إنّهم يؤكّدون أنّ المسيح بينَهم، ويتظاهرون بتنبيهِنا، محبّةً بنا، وغيرة منهم على مصلحتِنا، إلى التحوّل إلى صفوفِهم، لكي نجِد يسوع المسيح الذي يُفاخرون باطلًا بأنّهم يمتلكونَه. نعلم أنّ من جملة الأسماء الرمزيّة التي يُطلقُها الأنبياء على يسوع المسيح، اسم «الجبل». ينبغي، إذًا، الردّ على الهرطقة فنقول: «بالربّ اعتصمتُ، فكيف تقولون لنفسي: اهربي إلى الجبل كالعصفور» (١٠ : ٢). ليس لي إلّا جبلٌ

واحدٌ أضع فيه رجائي؛ لِمَ تقولون لي أن أهرب إليكم، كما لو كان ثمّة مسحاء كثيرون؟ وإن كنتم تزعمون، في صَلَفِكم، أنّكم أنتم ذلك الجبل، فأنا أقرّ بأنّ عليّ أن أكون ذلك العصفور، وأن يكون جناحاي قوّة الله ووصاياه؛ لكنّ هذين الجناحَين يمنعانني من أن أطير نحو مثل تلك الجبال، وأجعل رجائي في بشرٍ متكبّرين. لي عشٌّ آوي إليه، لأنّي بالربّ أعتصِم. لأنّ العصفور يجدُ له مأوى (مزمور ٨٣: ٤)، والربّ ملجأ الملهوف (٩: ١٠). وهكذا، وخوفًا من أن نطلب المسيح عند الهراطقة فنفقده، فلنُرنّم بثقةٍ كاملة: «بالربّ اعتصمتُ، فكيف تقولون لنفسي: اهربي إلى الجبل كالعصفور»؟

٢ - «ها إنّ المنافقين يطأون القوس، ويُفيقون سهمهم على الوتر ليرموا، في ظلمة القمر، المستقيمي القلوب» (١٠: ٣). إنّه لرعبٌ باطل يطلع به علينا أولئك الذين يُهدّدوننا بغضب المنافقين، لكي يجذبونا إلى جانبِهم كما إلى جانب الصالحين. يقولون: «ها إنّ المنافقين يطأون القوس». وأرى أنّ القوس تعني الكتب المقدّسة التي يُفسّرونَها بحسب الجسد، فلا تقدّم لهم سوى حِكَم مسمومة. «يُفيقون سهمهم على الوتر»، أي أنّهم هيّأوا في قلوبِهم تلك الكلمات التي ينبغي أن يرشقونا بها مستخدمين سلطان الكتب المقدّسة. «ليرموا، في ظلمة القمر، المستقيمي القلوب»، أي أنّهم حسبوا أنّ جماعة الجاهلين والجسديّين أظلمت نور الكنيسة، فلم يعودوا هم أنفسُم مؤمنين، وهكذا يُفسِدون الأخلاق الحميدة بخطاباتِهم المنحرفة (١ قورنتس ١٥ : ٣٣). ونقابل ذاك الرعب كلّه بقولنا: «بالربّ أعتصِم».

٣ - سبق أن وعدتُ، على ما أذكر (راجع شرح المزمور الثامن الفقرة ٩)، أن أشرح كيف أنّ القمر هو الصورة التي تُناسب الكنيسة. ثمّة رأيان محتمَلان بشأن القمر؛ ومعرفة أيّهما الصحيح، عسيرة جدًّا،

برأيي، على الإنسان، إن لم تكن مستحيلة. إذا سألتم من أين يأتي النور للقمر، يُجيب بعضُهم أنَّ نورَه نابعٌ منه. لكنّ الكوكب الكرويّ نصفُه منيرٌ ونصفه مظلِم، وفي دورانِه يتوجّه النصف المنير تدريجيًّا نحو الأرض، ويكون مرئيًّا؛ لهذا يظهرُ لنا في البدء هلالًا. لكن أذا أخذتَ كرةً نصفُها أبيض ونصفها الآخر أسود، ووضعت النصف الأسود تحت عينَيك، فلن ترى الأبيض، ثمّ عُد فابدأ بإدارة القسم الأبيض نحوك ببطءٍ، فإنّك ترى ذلك الوجه الأبيض يظهر أوّلًا على شكل هلال، لا ينفكّ يكبرُ إلى أن يظهر الوجه الأبيض بكامله، ولا تعود ترى اسودادًا. ثم أكمِل دورة الكرة، فيعود الوجه الأسود للظهور تدريجيًّا ويروح الوجه الأبيض يتصاغر إلى أن يعود هلالًا، ثم يحتجب كلّيًّا. هذا ما يحدثُ للقمر، على ما يُقال، عندما يتحوّل تدريجيًّا من هلالٍ في اليوم الأوّل، إلى بدرٍ في اليوم الخامس عشر، ثمّ يعود فيصغرُ إلى أن يضمحلّ في اليوم الثلاثين. إذا اعتمدنا هذا الرأي، يكون القمر الصورة الرمزيّة للكنيسة التي تُشِعّ في جزئِها الروحيّ، وتُظلِم في أعضائها الجسديّين؛ وأعمالُها الروحيّة غالبًا ما تجعلُها ظاهرة للناس؛ وغالبًا، أيضًا، ما يحتجب هذا الوجه الروحيّ في الضمير، حيث لا يراه إلّا الله وحده، ولا يعود الناس يرَون سوى الوجه الجسديّ، كما يحصل عندما نُصلي في باطننا، من دون أيّ مظهرٍ خارجيّ، حين لا تعود قلوبنا ملتصقة بالأرض، بل مرتفعة نحو الله، على نحو ما أوصينا. وآخرون يقولون إنّ القمر لا نور له ينبع منه، بل يتلقّى نورَه من الشمس. وعندما يستدير بكاملِه نحو وجه الشمس، يطلع علينا بوجهه المظلم. وما إن يبدأ بالإبتعاد عن الشمس، حتّى يبدأ الوجه إيّاه الذي يطلع به على الأرض فيستنير تدريجيًّا ويتحوّل من هلالٍ في اليوم الأوّل، إلى بدرٍ في اليوم الخامس عشر حين يكون بكلّيّته مواجهًا للشمس: وفي ذلك اليوم

يطلع القمر ساعة تغيب الشمس. وبوسع الإنسان الذي يُراقب الشمس في المغيب، أن ينقل نظرَه لحظة الغروب نحو الشرق، فيرى لتوّه بزوغ القمر. لكن عندما يعود القمر فيقترب من الشمس، يبدأ بالطلوع علينا تدريجيًّا بوجهه المظلم، ويعود فيُصبح هلالًا ثمّ يضمحلّ كلّيًّا. إذ ذاك يكون وجهه المنار مستديرًا بكلّيّتِه نحو الشمس، ويطلع على الأرض بالوجه المظلِم الذي لا يسع الشمسَ أن تُنيرَه. فإذا أخذنا بهذا الرأي، يكون القمر صورة الكنيسة التي لا تستنير من ذاتِها، لأنّ نورها تستمدّه من ابن الله الوحيد الذي غالبًا ما تدعوه الكتب المقدّسة شمس البِرّ. إنّ بعض الهراطقة الذين لا يقوَون على رؤية تلك الشمس اللامنظورة ومعرفتِها يجهدون لاجتذاب العقول الضعيفة والشهوانيّة إلى عبادة الشمس الجسديّة المنظورة التي تُضيء أعيُن الذباب وأعين البشر الجسديّة على السواء. حتّى أنّ الأمر يبلغ بهم إلى حدّ اجتذاب الذين، من خلال عجزِهم عن أن يرَوا بعينَي الروح نور الحقيقة الداخليّ، لا يسعهم الإكتفاء ببساطة الإيمان الكاثوليكيّ، ومع ذلك لا سبيل لهؤلاء الضعفاء إلى الخلاص، إلّا ذلك اللبن الذي يستطيع أن يُقوّيَهم ويجعلَهم قادرين على تناول الطعام القاسي. أيًّا كان الصحيح من هذين الرأيَين، فإنّ صورة القمر تنطبق تمامًا على الكنيسة. على أنّه إذا كنّا نأبى أن ندخل في هذه المتاهات المظلمة التي يفوق عناءُ ولوجِها الفائدةَ الحاصلة، أو إذا كان يُعوِزُنا الوقت، أو حتّى إذا كان عقلُنا يرفض ولوجها، بوسعنا الإكتفاء بالتطلّع إلى القمر مع الشعب، ومن دون أن نَعنى في البحث عن الأسباب، أن نرى مع جميع الناس أنّه يكبرُ فيصير بدرًا ثم يعود فيتناقص. وإذا كان لا يحتجِب إلّا ليعود فيظهر، فإنّه يغدو، بالنسبة للجماعة الأقلّ فهمًا، صورة الكنيسة التي من خلالِها نؤمن بقيامة الأموات.

٤ – لنرَ بعدَ ذلك لماذا يُحدّثنا هذا المزمور عن «ظلمة القمر» التي يستغلّها المنافقون ليرموا بسهامِهم المستقيمي القلوب. لأنّ بوسعِنا أن نتكلّم عن ظلمة القمر بأكثر من شكل. فالقمر يُظلم عند آخر مسارِه الشهريّ، كما أنّه يُظلم عندما تحجب نورَه غمامة، وأيضًا عند الخسوف الكامل. بوسعنا، إذًا، أن نقول: إن مضطهِدي الشهداء أرادوا أن يرموا بسهامِهم المستقيمي القلوب، حين يُظلِم القمر؛ فإمّا أنّ الكنيسة الناشئة لم تكن بعدُ قد ألقت نورَها على الأرض، وبدّدت ظلام أوهام الوثنيّة؛ وإمّا أن تكون اللعنات والأحقاد ضدّ اسم المسيح قد غطّت الأرض مثل غمامة، وحجبت القمر، أي الكنيسة؛ وإمّا أن تكون تلك الكوكبة الغفيرة من الشهداء الذين ذُبحوا، وذلك السيل من الدماء التي أريقت، قد أرعبت النفوس الضعيفة فحوّلتها عن اسم المسيح، عندما غطّت وجه الكنيسة بحجاب دامٍ، كذلك الذي يظهرُ أحيانًا على القمر فيُظلِمُه. في أيّام الرعب تلك، يرمي المنافقون بسهام أقوالهم الرجسة المفسِدة، فيُفسِدون حتّى القلوب المستقيمة. بوسعنا أن نفهم أيضًا بهذه الآية الخطأة الذين هم داخل الكنيسة، والذين اقتنصوا فرصة ظلمة القمر، ليأتوا الموبقات التي يُقرّعُنا الآن عليها الهراطقة المتّهمون بأنّهم هم صنّاعُها. أمّا اليوم، وبعد أن انتشرت الكثلكَة، وصارت على قدرٍ من الإحترام في العالم الكاثوليكيّ بأسره، وأيًّا كان أصل تلك القبائح المرتكَبَة في ظلمة القمر، فعلامَ قلقي وأهتمامي بأمورٍ أجهلُها؟ إنّي بالربّ أعتصِم، وليبتعدْ عنّي أولئك الذين يقولون لنفسي: أهرب إلى الجبال أيها العصفور الضعيف. فها إنّ المنافقين يُهيّئون القوس ليرموا بسهامِهم، في ظلمةِ القمر، القلوب المستقيمة. وذلك القمر يبدو لهم مظلِمًا لأنّهم يجتهدون ليُلقوا الشكّ على الكنيسة الكاثوليكيّة الحقيقيّة، ويُحاجّونها بخطايا أولئك الناس

الجسديّين الذين تضمّهم بوفرة. ماذا تعني تلك المحاولات لمن يقول بصدقٍ: إنّي بالربّ أعتصم، ويُبرهن بكلامِه هذا عن أنّه حنطة الله وأنّه يحتملُ القشّ بصبر، إلى أن يحين وقت التذرية؟

٥ - إذًا، «بالربّ أعتصِم»، وليرتعِد الذين يعتصمون بإنسان، ولا يقوَون على إنكار تبعيّتِهم له، ما داموا يحلفون بشيبَتِه؛ وإذا سألتهم، في الحديث، إلى أيّ جماعة ينتمون، لا يُمكنُهم أن يُعرّفوا عن أنفُسِهم إلّا بأنّهم من جماعتِه. ولكن، قل لي ماذا عساهم أن يُجيبوا، عندما نفضح لهم آثامًا وقبائحَ لا تُحصى تضجّ بها جماعتهم كلّ يوم؟ هل يستطيعون أن يقولوا: «إنّي بالربّ أعتصِم، فكيف تقولون لنفسي اهربي إلى الجبال كالعصفور؟» ما عادوا يعتصمون بالربّ، لأنّهم أكّدوا أنّ الأسرار المقدّسة لا تُقدَّس إلّا إذا كان خدّامُها قدّيسين. وإذا سألتَهم من هم القديسون، يخجلون من أن يقولوا: نحن القديسون. وإن لم يخجلوا، خجل عنهم سامعوهم. إنّهم، يُكرِهون الذين يقتبلون الأسرار على أن يعتصموا بإنسان لا قدرة لنا على الدخول إلى خفايا قلبِه. يقول إرميا: «ملعونٌ الرجل الذي يتوكّل على البشر» (١٧ : ٥). أفلا يعني القولُ بأنّ ما أخدمه أنا القدّيسَ، مقدّسٌ، دعوةً إلى التوكّل عليَّ؟ لكن ماذا يكون من أمر ذلك السرّ المقدّس إن لم تكنْ قدّيسًا؟ إذًا، أرني قلبَك. وإن لم تستطِع، فكيف لي أن أعرِف إن كنتَ قدّيسًا؟ أتتذرّع بقول الكتاب: «من أعمالِهم تعرفونَهم»؟ (متى٧: ١٦). لا شكّ في أنّي أرى لديك أعمالًا باهرة؛ وأرى «السيركونسِلّيون[(١)] Circoncellions»

(١) السيركونسِلّيون Circoncellions هم الذين يتنقّلون من أهراءٍ إلى أهراء circum cellas، وكانوا من العمّال المياومين أو الموسميّين الأفارقة؛ وبمعنى آخر circum cellae هم الذين يحومون حول الأهراء، ليسطوا عن طريق السلاح على الغلال. ثاروا ضدّ الملّاكين، فقضى عليهم تورينُس ما بين عامي ٣٤٠ و٣٤٥،=

يتراكضون في كلّ مكانٍ وراء أساقفتِهم وكهنتِهم ويخلعون اسم إسرائيل على فِرقِهم الرهيبَة؛ وهذا ما يراه أناس عصرِنا ويختبرونه بدقّة. أمّا أعمال زمن **مكاريوس** التي يلوموننا عليها بقسوة، فقليلون هم الذين رأوها، وما من أحدٍ يراها اليوم. وعندما كانوا يرَونَها، فأيّ كاثوليكيّ يُريد أن يكون خادمًا لله ما كان ليقول عنها إلّا: «إنّي بالله أعتصم». تلك هي اللغة التي ينطق به أيضًا ذاك الذي يرى في الكنيسة ما لا يُريد قطّ أن يراه، والذي يشعر أنّه يمخر البحر بتلك الشباك الملأى بالسمك من كلّ جنس، إلى أن يصل إلى رمل الشاطئ حيث يفصل الجيّد عن الرديء (متّى ١٣: ٤٧). بمَ يُجيب أولئك الهراطقة إذا طرح عليهم الإنسان الذي يُريدون أن يُعمّدوه هذا السؤال: بَمَ تأمرونني أن أعتصِم؟ لأنّه إذا كان استحقاق السرّ المقدّس مبنيٌّ على من يُعطيه وعلى من يقتبِلُه؛ وإذا كان الله هو الذي يُعطيه وضميري هو الذي يقتبلُه، فإنّي على يقينٍ من أمرين: جود الله وإيماني. فلمَ تحشرون أنفُسَكم بين الله وبيني، أنتم الذين لا يسعُني أن أخلُص منكم بأيّ يقين؟ دعوني أنشِد: «إنّي بالله أعتصِم». لأنّي إن اعتصمت بكم، فمن يضمن لي أنّكم لم ترتكبوا إثمًا هذه الليلة؟ وأخيرًا، إذا أردتُم أن أثق بكم فهل لي من مبرّرٍ غير كلامِكم؟ ولكن، من أين لي أن أثق بأنّ الذين كانوا بالأمس في شركةٍ معكم، ويُشاركون اليوم وغدًا، لم يرتكبوا أي إثم في تلك الأيّام الثلاثة؟ وإذا لم نتدنّس لا أنتم ولا أنا بما نجهلُه، فلِم تُعمّدون مجدّدًا من لم يعرفوا شيئًا من غدر مكاريوس ولا من اضطهاداتِه؟ وأولئك المسيحيّون الآتون من بلاد ما بين النهرَين، والذين لا يعرفون لا اسم

=باعتبارهم لصوصًا. كرّمَهم الدوناتيّون كشهداء. يُصوّرهم أوغسطينُس لصوصًا ومجرمين.

سيقلّيانُس ولا دوناتُس[٢]، فكيف تتجرّأون وتُعمّدونهم مجدّدًا، وتنكرون أنّهم مسيحيّون؟ إن كانت دنّستهم آثام الآخرين، فأنتم أيضًا ترزحون تحت ثقل الآثام التي تُقترَف كلّ يوم، في جماعتِكم، من غير علمِكم؛ وباطلًا تواجهون الكاثوليك بالمراسيم الإمبراطوريّة، أنتم الذين تضربون في جماعتِكم بالعصا والنار. تلك، إذًا، هي الهاوية التي سقط فيها أولئك الذين رأوا الفوضى في الكنيسة الكاثوليكيّة فلم يستطيعوا القول: «إنّي بالله أعتصِم» وتوكّلوا على البشر. لكانوا قالوها، بلا شكّ، لو لم يكونوا جميعُهم مثل الذين اتّهموهم بالانفصال عنهم بكبرياءٍ دنِسة.

٦ - فلتصرخ النفس الكاثوليكيّة، إذًا: «إنّي بالربّ أعتصِم؛ فكيف تجرؤون أن تقولوا لي: أيُها العصفور، اهرب إلى الجبال؟ فها إنّ المنافقين وطئوا قوسَهم وفوّقوا سهامَهم على الوتر ليرموا الصدّيقين، في ظلمة القمر». ولتقُل بعدَها للمنافقين الذين يرتفعون إلى الله: «ها إنّهم دمّروا ما صنعته كاملًا» (١٠ : ٤). ولتُحافظ على هذه اللغة، لا بوجه الذين نتكلّم عنهم فحسب، بل بوجه جميع الهراطقة. لأنّهم جميعَهم، وعلى قدر نفاقِهم، يُدمّرون التسبيح النقيّ الذي أخرجه الله من أفواه الأطفال والرّضّع (٨ : ٣)، عندما يسعَون، عن طريق البُطل والمماحكة، ليُرهقوا الضعفاء ولا يدعوهم يغتذون بلبن الإيمان. وكما

(٢) دوناتُس (+٣٥٥) أسقف سيلّا نيغرا Cellae Nigrae في نوميديا في أفريقيا الشماليّة، انشق عن الكنيسة الكاثوليكيّة سنة ٣٠٥ بسبب رفضه الشركة مع الخونة (traditores) الذين سلّموا الوثنيّين الأواني والكتب المقدّسة زمن اضطهاد ديوقليسيانُس. أقال الأسقف سيقلّيانُس، أسقف قرطاجة، متّهمًا إيّاه بالتساهل مع الخونة. حرمه البابا ملتيادُس (٣١٣)، ومجمعا روما وآرل. اغتاظ وتمرّد وأشعل حربًا أهليّة أدمت أفريقيا على عهد قسطنطين وخلفائِه، إلى حين غزا الفاندال أفريقيا الشمالية واضطهدوا الدوناتيّين والكاثوليك على السواء.

لو كنّا نقول لتلك النفس: «لماذا يحثّونكِ على الهرب إلى الجبال مثل عصفور؟ ولماذا تخشَين المنافقين الذين فوّقوا سهامهم على الوتر ليرموا، في ظلمة القمر المستقيمي القلوب؟»، تُجيبُنا: يُخيفُني «أنّهم دمّروا ما جعلتَه كاملًا». لقد دمّروه بتآمرِهم، إذ أنّهم، بدلًا من أن يُقدّموا لبنًا للضعفاء، ولمن لا يعرفون النور الداخليّ، يُهلكونهم بسمومِهم. «فماذا يصنع الصدّيق» (١٠: ٤) إذا كان مكاريوس وسيقِلّيانُس مُذنِبَين إليكم، فماذا صنع لكم المسيح القائل: «السلام أستودعكم، سلامي أعطيكم»؟ (يوحنّا ١٤: ٢٧)؛ ذلك السلام الذي تُقوّضونَه بالإنفصال الشائن الآثم. ماذا صنع لكم المسيح الذي واجه بالكثير من الصبر ذاكَ التلميذ الخائن، فقبِلَه في عشاء الإفخارستيّا الأولى التي قدّسَها بيدَيه، وأسّسها بكلماتِه، وقدّمها إليه مثلما قدّمَها لسائر الرسل؟ (لوقا ٢٢: ١٩، ٢١). ماذا صنع لكم المسيح الذي اختار لرسالة البشارة بملكوت الله، ذلك التلميذ نفسه الذي دعاه شيطانًا (يوحنّا ٦: ٧١)، وحتّى قبل أن يغدُر بالمسيح، لم يكن أمينًا على الكيس (يوحنّا ١٢: ٦)، ومع ذلك أرسله مع سائر التلاميذ (متّى ١٠: ٥) ليُعلّمَنا أنّ عطيّة الله لا توهب إلّا لمن يقتبلُها بإيمان، حتّى ولو كان الخادم الذي يوزّعُها على مثال يوضاس؟

٧ - «الربّ يسكن في هيكل قُدسِه» (١٠: ٥). بهذا المعنى قال الرسول: «هيكل الله مقدَّس وهو أنتُم، ومن يجرؤ على تدنيس هيكل الله يُهلكه الله» (١ قورنتس ٣: ١٧). والحال فإنّ تدنيس هيكلِ الله، هو تدمير وحدتِه، والتخلّي عن الإتّحاد بالرأس (قولوسّي ٢: ١٩). «فإنَ بالرأس إحكامَ الجسد كلّه والتحامه بجميع الأوصال التي تقوم بحاجتِه، ليُتابع نموّه بالعمل الملائم لجميع أعضائِه المرتبطة لبنيانِه بالمحبّة» (أفسس ٤: ١٦). فالربّ، إذًا، يسكن هذا الهيكل المكوّن

من جملةِ أعضاء، لكلٍّ منها عملُه، والمرتبطة كلّها بالمحبّة في بنيانٍ واحد. وتدمير هذا الهيكل يكون بالإنفصال عن الوحدة الكاثوليكيّة، والبحث في مكانٍ آخر عن كرامة رأس. «الربّ يسكن في هيكل قدسِه، الربّ في السماء عرشُه» (١٠ : ٥) إذا كان يُفهم بالسماء الصدّيق، كما يُفهم بالأرض الخاطئ، بحسب ما قيل: «أنت ترابٌ وإلى التراب تعود» (تكوين ٣: ١٩)، فإنّ عبارة «الربّ في السماء عرشُه» هي تكرارٌ لما سبق أن قيل: «الربّ يسكن في هيكلِ قدسِه».

٨ - «عيناه تُبصران البائس» (١٠ : ٥) يركن إليه البائس، فيكون له ملجأً. لذلك فإنّ كلّ تلك التمرّدات والإضطرابات التي تُثار في الشباك إلى أن تبلغ الشاطئ، أصحابُها أناسٌ يرفضون أن يكونوا فقراءَ يسوع المسيح؛ ولهلاكهم وخيرِنا، يتّخذ الهراطقة من تلك القلاقل مناسبةً لشتمنا. ولكن، هل يستطيعون أن يحجبوا نظر الله عن أولئك الذين يرغبون أن يكونوا فقراء من أجلِه؟ «فإن عينَيه تُبصِران الفقير». فهل علينا أن نخشى ألّا يستطيع أن يُميّز، في حشد الأغنياء الغفير، أولئك البائسين القلائل، ليحفظَهم ويُقيتَهم في حضن الكنيسة الكاثوليكيّة؟ «وجفناه يختبران بني البشر» (١٠ : ٥). بحسب القاعدة التي وضعناها، فإنّي أفهم لتوّي بِ«بني البشر»، أولئك الذين عرّاهم الإيمان من الإنسان العتيق، وألبسَهم الإنسان الجديد. ذاك أنّ عين الله تبدو لهم مغمضة عندما تحثّهم بعض مقاطع الكتب الغامضة على البحث عن معانيها؛ كما تبدو مفتّحة عندما يقتبلون بفرح نور الآيات الأكثر وضوحًا. والحال، فإنّ حقائق الكتب المقدّسة الواضحة حينًا، والمغلقة حينًا آخر، هي كجفنَي الله اللذَين يختبِران، أو بالأحرى يقبلان بني البشر، أولئك الذين قَوّتْهُم الظلمات ولم تُنهِكهم، وثبّتتهم المعرفة ولم تنفخهُم.

٩ - «الرّبّ يختبرُ الصدّيق والمنافق» (١٠ : ٦). وعندما يختبر الصدّيق والمنافق، أيّ شرٍّ نخشى بعدُ من الأثمة الذين يمكن أن يكونوا معنا في شركة الأسرار، فيما قلوبُهم ضنينة في صدقِها؟ «أمّا من يُحبّ الجورَ فإلى نفسِه يُسيء» (١٠ : ٦). إلى نفسِه فقط يُسيء المنافق، إذًا، لا إلى من اعتصم بالله ولم يتوكّل على البشر.

١٠ - «يُمطر على المنافقين فِخاخًا» (١٠ : ٧). إذا كنّا نطلق على الأنبياء عامةً اسم الغمام، سواء أكانوا أنبياء أبرارًا أم كذَبَة، فإنّ الأنبياء الكذَبة هيّأهم الربّ ليصيروا فِخاخًا يُمطِرُها على المنافقين. إذ أنّهم لا يجدون من يتبعهم سوى الخاطئ الذي يُعدّ لنفسِه العذاب الأبديّ إن هو أصرّ أن يبقى في خطيئتِه، أو الذي يطرح كبرياءَه إن هو أراد أن يسعى صادقًا إلى المسيح. أمّا إذا كنّا لا نقصد بالغمام إلّا الأنبياء الصالحين الحقيقيّين، فمن الواضح أيضًا أنّ كلامهم يكون، بين يدَي الله، فِخاخًا للخطأة، وفي الوقت نفسِه ندىً ينثرُه على الأبرار ليُثمروا ثمارًا صالحة. «لهؤلاء نفحة حياةٍ للحياة»، يقول الرسول، «ولأولئك نفحة موتٍ للموت» (٢ قورنتس ٢ : ١٦). لأنّه بوسعنا أن نطلق اسم الغمام لا على الرسول فقط، بل على كلّ واحدٍ ينثر على النفوس ندى كلمة الله. بالنسبة لمن يُسيء فهم هذه الكلمات، إنّها الفخاخ التي يُمطرُها الله على الأشرار؛ وبالنسبة لمن يفهم حقيقة معناها فإنّها الندى الذي يُخصب القلوب التقيّة الأمينة. إنّ عبارة: «فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا» (أفسُس ٥ : ٣١)، على سبيل المثال، يمكن أن تُصبح فخًّا لمن يُفسّرُها بمعنى التهتّك. أمّا إذا فُهمت بحسب قول القديّس بولس: «أقول هذا بالنسبة إلى المسيح والكنيسة» (أفسُس ٥ : ٣٢)، تكون ندى على حقل خصيب. الغمامة نفسُها، أو الكتاب المقدّس، هي التي تُمطرُ الفخّ والندى. كذلك يقول لنا الربّ: «ليسَ ما يدخل فمك، بل

ما يخرج منه، هو الذي يُنجّس نفسك» (متّى ١٥ : ١١). على هذه الكلمات، يتأهبّ الخاطئ لمائدة الإثم الفاخرة، فيما هي تُنبّه الصدّيق فيتحصّن ضدّ اللحوم. إنّ غمامة الكتاب نفسَها، إذًا، تُمطِرُ، بحسب استحقاقات كلّ واحدٍ، الفخاخ للخاطئ، وللصدّيق ندى البَرَكة.

١١ - «وتكون أنهار النار والكبريت وغضب العواصف، الكأس التي يُعِدّها لهم» (١٠ : ٧). تلك هي آخرة الذين يُجدّفون على اسم المسيح، وذاك هو قِصاصهم؛ تأكلهم أوّلًا نار شهواتِهم، ثمّ تُقصيهم رائحة أعمالهم الفاسدة النتنة عن جماعة القدّيسين، وأخيرًا يُجَرّون ويُطرحون في الهاوية، ويُسامون عذاباتٍ لا توصَف. ذاك، يا ربّ، حظّ كأسِهم، فيما تُهيّئ للصدّيق كأسًا مجيدةً مُروية. «لأنّهم يرتوون من فيض بيتِك» (مزمور ٣٥ : ٩). وإذا كان النبيّ يستعمل عبارة «حظّ كأسِهم»، فبرأيي، لكي يحول دون أن نعتقد أنّ العناية الإلهيّة، حتّى في عذابات الأشرار، تتجاوز حدود العدالة. وعلى هذا أضاف، كمن يُريد أن يُبرّر تلك القصاصات: «لأنّ الربّ عادلٌ ويُحبّ كثرة العدل» (١٠ : ٨)، وبكثرة العدل يقصدُ النبيّ كثرة الأبرار، لأنّه يبدو أنّ كثرة الأبرار تقتضي كثرة العدل، ولو انّ العدل واحدٌ لدى الربّ، وهو ينبوع كثرة العدل؛ كما لو انّ وجهًا واحدًا يقف أمام مجموعة مرايا، فتعكسُ تلك المرايا صورة الوجه مرّاتٍ عديدة، لكنّ الصورة واحدة. ويعود النبيّ ليهتف بصيغة المفرد: «ووجهه ينظر إلى الاستقامة» (١٠ : ٨). ولعلّه قال: «ووجهه ينظر إلى الاستقامة» بمعنى: «وبوجهه نرى الاستقامة»، أي عندما نعرِف وجهَه. لأنّ وجه الله هو القدرة التي يملكُها ليُعرّف نفسَه على من يستحقّ أن يعرِفَها. أو أنّ «وجهه ينظر إلى الاستقامة»، لأنّه لا يُعرِّف نفسه للأشرار، بل للأخيار، وتلك هي الاستقامة.

١٢ - وإذا أردنا أن نرى في القمر مجمع اليهود، فعلينا عندها أن

نفهَم في المزمور آلام المخلِّص، ونقول عن اليهود: «إنّهم دمّروا ما جعلَه الله كاملًا»، وعن الربّ: «وماذا صنع للصدّيق؟» الذي كانوا يتّهمونَه بتقويض الشريعة، فيما هم كانوا يُدمّرون أحكامَها بعيش آثم، ويزدرونَها ويستبدلونَها برسومِهم. وكعادته، يتكلّم يسوع المسيح الإنسان ويقول: «إنّي بالربّ أعتصِم فكيف تقولون لنفسي، أُهرب إلى الجبال أيّها العصفور؟» مُجيبًا بقولِه على تهديدات الذين كانوا يطلبونَه ليُمسكوه ويصلبوه. فأراد المنافقون أن يرموا بسهامِهم الأبرار أو الذين يؤمنون بيسوع المسيح. أمّا ظلمة القمر فقد تعني مجمع اليهود الذي يعجّ بالفاسدين. وهذا المعنى ينطبق على قول النبيّ: «الربّ يسكن هيكل قدسِه. الربّ في السماء عرشُه»، أي **الكلمة** ابن الله الذي في السماء، مسكنه الإنسان أيضًا. «عيناه تُبصران البائس»: أي ذلك الإنسان الذي لبسَه، هو الإله، أو ذاك الذي من أجله تألّم كإنسان. «وجفناه يختبران بني البشر». إغماض العينَين وفتحهما، لعلّ هذا ما يدعوه النبيّ جفنَي الله، اللذَين نستطيع أن نفسّرهما بموت يسوع المسيح وقيامتِه؛ لأنّه، بذلك اختبر بني البشر أو رسله الذين أرعبَهم موتُه، وأبهجتهم قيامتُه. «الربّ يختبر الصدّيق والآثم»، من حيث أنّه يرعى الكنيسة من أعالي السماء. «ومن يُحبّ الجورَ نفسَه يُبغض»، والتتمةّ تُبيّن السبب. وآية «يُمطر على المنافقين فِخاخًا» وما يليها من المزمور يجب أن تُفهم في المعنى المشار إليه أعلاه.

عظة في المزمور الحادي عشر

المختارون في الأرض

الصدّيقون في هذه الدنيا، تعترضُهم أحابيل المنافقين المشينة. فيُشجّعهم الربّ واعدًا إيّاهم بالمخلِّص الذي يضع نهايةً لوجع المظلومين.

لإمام الغناء داود، لليوم الثامن (١١ : ١)

١ - قلنا في المزمور السادس إنّ اليوم الثامن يُمكن أن يعني يوم الدينونة. كما يُمكن أن يُقالَ أيضًا عن ذلك الدهر الأبديّ الذي خصّ به الله القدّيسين، عندما ينقضي هذا الدهر الذي يسير من سبعة أيّام إلى سبعة أيّام.

٢ - «خلّصني يا ربّ لأنّ الصدّيق انقرَض» (١١ : ٢) أي أننا لم نعد نجدُه. كذلك نقول عن القمح إذا فرغ، أو عن المال إذا نضب. «لأنّ الحقائق قلّت في بني البشر» (١١ : ٢). ولا شكّ في أنه لا توجد سوى حقيقة واحدة تنير النفوس القدّوسة. لكن لمّا كان ثمّة نفوسٌ كثيرة، فبوسعنا أن نقول إنّ فيها حقائق كثيرة، مثلما تظهر الصورة نفسُها في مرايا كثيرة.

٣ - «كلّ امرئٍ يُكلّم صاحبَه بالباطل» (١١ : ٣). يجب أن نفهم بالقريب كلّ إنسان، لأنّه ليس بمسموحٍ أن نسيء إلى أحد، و«لأنّ

المحبّة لا تصنع شرًّا بالقريب» (رومة ١٣: ١٠). «شفاهُهم متملّقة، وبقلبٍ وقلبٍ يتكلّمون» (١١: ٣)، أي بالبطل والنفاق. وعبارة بقلبٍ وقلبٍ تدلّ على الرياء.

٤ - «قطع الربُّ جميع الشفاه المتملّقة، واللسانَ الناطق بمدح نفسِه» (١١: ٤). جميع الشفاه، يقول النبيّ، لئلّا يظنّنَّ أحدٌ أنّه فوق الشبهات. مثلما يُحذِّرُ الرسول في قولِه: «الشدّة والضيق على نفسِ كلّ إنسانٍ يصنع السوء، من اليهود أوّلًا ثمّ من الوثنيّين» (رومة ٢: ٩). واللسان الناطق بمدح نفسِه هو لسان المتكبِّر.

٥ - «قالوا: لنمتدِح أقوالَنا، إنّ شفاهَنا لنا فمن يسود علينا؟» (١١: ٥). هذه اللغة هي لغة المتكبّرين المرائين، المتمرّدين على الله، والذين يأملون أن تُغويَ الناسَ أقوالُهم.

٦ - «إنّي لأجل اغتمام المقهورين وتنهّد البائسين، أقوم الآن، يقول الربّ،» (١١: ٦). هكذا، في الإنجيل، يشمل الربّ برحمتِه ذاك الشعب المستعدّ للطاعة، المفتقِد لراعٍ، فيقول: «الحصاد كثيرٌ والفعَلة قليلون» (متّى ٩: ٣٧). بوسعنا أن نعزوَ هذه الكلمات لله الآب الذي تنازل وأرسل ابنَه ليُبشّر الفقراء والمساكين، أي الذين كانوا مفتقرين إلى الخيور الروحيّة. لأجلِ ذلك، بدأ موعظتَه على الجبل فهتف: «طوبى لمساكين الروح فإنّ لهم ملكوت السموات» (متّى ٥: ٣). «وأجعلُ من يُستَخَفّ به في رُحُب». «الرُحُب» هو الخلاص، أي يسوع المسيح بحسب قول الإنجيل: «لقد أبصرت عيناي خلاصَك» (لوقا ٢: ٣٠). وعليه، يجب أن نفهم أنّه جعل في المخلّص ما هو ضروريٌّ لوضع نهايةٍ لاغتمام المقهورين وتنهّد البائسين. «وسأعاملُهم بأمانة»، على ما قيل في الإنجيل عن يسوع: «لأنّه كان يُعلّمهم كمن له سلطان، لا مثل كتبتِهم» (متّى ٧: ٢٩).

٧ - «أقوال الربّ أقوالٌ نقيّة» (١١ : ٧). باسمِه يُثمّن النبيّ أقوال الربّ بأنّها أقوالٌ نقيّة. وأقوال الربّ نقيّة لأنّها لا تشوبُها شائبة. كثيرون يُبشّرون بالحقيقة، لكن لا بطريقة نقيّة، لأنّهم يستبدلونها بمنافع هذا العالَم. عن هؤلاء قال الرسول إنّهم يُبشّرون بالمسيح عن منازعة، لا بنيّة صافية (فيليبّي ١ : ١٧). «إنّها فضّةٌ صفّتها النار من كلّ تراب». لأنّ جور الأثمة اختبَر كلمة الربّ. «صُفّيَت سبع مرّات»، بمخافة الله، والتقوى، والمعرفة، والقوّة، والمشورة، والفهم والحكمة (أشعيا ١١ : ٢). ومنازل الطوبى سبعة أيضًا، ويذكرُها الربّ في موعظة واحدة على الجبل، يوردِها القدّيس متّى: «طوبى لمساكين الروح، طوبى للودعاء، طوبى للحزانى، طوبى للجياع والعطاش إلى البِرّ، طوبى للرحماء، طوبى لأنقياء القلوب، طوبى لصانعي السلام (متّى ٥ : ٣-٩). نحن أمام سبعة عناوين، لا يمكن أن يُنظَر إلى العظة إلّا كتوسّعٍ فيها. لأنّ الطوبى الثامنة: «طوبى للمضطهَدين من أجل البِرّ» تعني تلك النار التي صفّت الفضّةَ بسبع مرّات. وفي آخر العظة، يقول متّى عن يسوع المسيح إنّه كان يُعلّمهم كمن له سلطان، لا ككتبتِهم (متّى ٧: ٢٩)، وهذا ما يتّصل بقول النبيّ: «وأعاملهم بأمانة» (١١ : ٦).

٨ - «لك يا ربّ تحفظُنا، وتُنجّينا من هذا الجيل إلى الأبد» (١١ : ٨)، في هذه الدنيا كمقهورين وبائسين، وفي الآخرة كأغنياء وموسِرين.

٩ - «المنافقون يُطوّفون» (١١ : ٩) أي أنّهم لا يرتوون من الخيور الزمنيّة، وعطشُهم هذا مثل عَجَلةٍ تُكمل دورانَها في سبعة أيّام، ولا تبلغ اليوم الثامن أو الأبديّة، عنوان هذا المزمور. قال سليمان أيضًا: «الملك الحكيم يُبدّد المنافقين ويُطوّقُهم بالويلات» (أمثال ٢٠: ٢٦). «بعمقِ أحكامِك، تُكَثِّرُ بني البشر» ذاك أنّها كثيرة أمور الدهر التي تُبعدُنا

عن وحدة الله. «إذ الجسدُ الفاسد يُثقِل النفس، والمسكن الأرضيّ يُخفِض العقلَ الكثير الهموم» (حكمة ٩: ١٥). والحال، فإنّ الصدّيقين يكثرون بحسب عمق الله، عندما يرتفعون من قوّةٍ إلى قوّة (مزمور ٨٣: ٨).

عظة في المزمور الثاني عشر

تأوّهات الصدّيق

الذين تلوّعُهم رؤية الجَور يتضرّعون إلى المخلّص الذي يهرع إلى مساعدتنا في حربنا الظافرة ضدّ عدوّ الخلاص.

للغاية، مزمور لداود (١٢ : ١)

١ - «المسيح غاية الشريعة لكي يُبرّر الذين يؤمنون» (رومة ١٠ : ٤). «إلى متى ياربّ تستمرّ على نسياني؟» (١٢ : ٢)، أي لِمَ تتأخّر لكي تُعرّفني، روحيًّا، بالمسيح، حكمة الله، وغاية كلّ نفسٍ مسيحيّة. «وحتّى متى تواري وجهَك عنّي؟» (١٢ : ٢) في الحقيقة، إنّ الله لا ينسانا البتّة، ولا يواري وجهَه عنّا، لكنّ الكتاب يُكلّمنا على طريقتنا. فالقول بأن الله يواري وجهَه عنّا، يعني أنّه لا يُعرّف ذاته إلى النفس التي في صفاء عينِها بعضُ غشاوة.

٢ - «إلى متى آخذ مشوراتي من نفسي؟» (١٢ : ٣). في الشدائِد أحتاج إلى المشورة، فإلى متى أستمدّ المشورة من نفسي؟ أي إلى متى أستمرّ في الشدّة؟ وقد يكون هذا الكلام جوابًا بمعنى: إلى أن أكفّ عن اتخاذ القرار بنفسي، تستمرّ، يا ربُّ، على نسياني، وتواري وجهك عنّي. فإذا لم يُصمّم الإنسان، في نفسِه على فعل الرحمة الكلّيّة، لا يقودُه الربّ إلى غايتِه، ولا يُعرّفه بنفسِه معرفةً تامّة، أي وجهًا لوجه.

«حسرةٌ في قلبي النهار كلّه»: أي أجعلُ في قلبي حسرةً. «النهار كلّه» أي أنّ الحسرة مستمرّة إلى ما لا نهاية، والنهار هنا هو الزمن. وكلّ من يبتغي التخلّص من الزمن، يشعرُ بحسرةٍ في قلبِه، ويسأل أن ينتقل إلى الأبديّة ليتخلّص من النهار الأرضيّ.

٣ - «وحتّى متى يقوم عدوّي عليَّ؟» (١٢ : ٣). العدو هو الشيطان أو الطبيعة الجسديّة.

٤ - «أنظر إليّ يا ربّ واستجب لي يا إلهي» (١٢ : ٤). أنظر إليّ بسبب شكواي: «حتّى متى تواري وجهك عنّي؟» واستجب لي، فلا تستمرّ على نسياني في آخرتي. «أنر عينيّ لئلّا أنام نومة الموت» (١٢ : ٤). العينان هما عينا القلب، التي يمكن أن تلقي عليهما السُباتَ حلاوةُ الخطيئة المميتة.

٥ - «وليخزَ العدوّ فلا يقول: قد غلبتُه» (١٢ : ٥). ولنخشَ هزء إبليس. «ويبتهج مُضايقيَّ إذا زللت» (١٢ : ٥). ذاك العدو هو إبليس وملائكته الذين يبدو أنّهم لم يبتهجوا لنتيجة المِحن التي ابتلَوْا بها أيّوب البارّ، ذلك الرجل الصدّيق الذي «لم يخطأ ولم يقلْ في الله جهلًا» (أيّوب ١ : ٢٢)، وبقي ثابتًا على الإيمان.

٦ - «وأنا على رحمتك توكّلت» (١٢ : ٦). إذا بقي الإنسان ثابتًا في الربّ ولم يتزعزع، فما عليه أن يعزو الثبات لذاته، لئلّا تُزعزعَه الكبرياء، إذا ما تفاخر بصلابتِه. «وابتهج قلبي بخلاصِك» (١٢ : ٦)، أي بيسوع المسيح، حكمةِ الله. «أشيد للربّ الذي طمرني بخيراتِه» (١٢ : ٦) أي بخيراتِه الروحيّة التي ليست من هذه الدنيا. «وأرنّم على القيثارة باسم العليّ» (١٢ : ٦) أي أنّني، في غمرة بهجتي، أرنّم الشكرَ للربّ وأسلك في جسدي بحسب أحكامِه. تلك هي النغمات الروحيّة

التي ترنّمها النفس. إذا رغبنا في المقارنة، نقول هنا إنّ جملة «أشيد للربّ» تُعبّر عن نغمات القلب، وجملة «أرنّم على القيثارة» تُعبّر عن نغمات الأعمال الصالحة، التي لا يعرفها إلّا الله وحده. و«اسم الربّ» هو العِلم الذي يُخبرُنا به عن ذاتِه، وهو عِلمٌ يُفيدُنا دونَه.

عظة في المزمور الثالث عشر

الشتائم

هنا، كلّ نفسٍ تكتئب عندما تُدوّي في أذُنَيها تلك الشتائم التي يتقيّأُها المنافق ضدّ الله. ترتعب لرؤية الجور يطغى؛ وتستنجد بالله ليُطلِع من صهيون خلاص إسرائيل، ويُنبِت قدّيسين.

للغاية، مزمور لداود (١٣ : ١)

١ - من النافل أن نُعيد في كلّ مرّة معنى عبارة: «للغاية»، إذ أنّ الرسول يقول لنا: «إنّ المسيح هو غاية الشريعة ليُبرّر كلّ الذين يؤمنون» (رومة ١٠ : ٤). ونؤمن به ساعة نبدأ بسلوك الصراط القويم، وسنراه في نهاية تلك الطريق لأنّه هو الغاية.

٢ - «قال الجاهل في قلبه: ليس إله» (١٣ : ١). حتّى الفلاسفة الذين ينفرُ منهم الناس ويمقتونَهم لأجل كفرِهم وأفكارِهم النجسة الفاسدة في الألوهة، لا يتجرّأون أن يقولوا: «لا إله». إنّ هذا الكلام لا يُقالُ إلّا «في القلب»، لأنّ الذي يُفكّر فيه لا يجرؤ على النطق به. «فسَدوا ورجِسوا بأفكارِهم»، أي لأنّهم أحبّوا العالَم دون الله. فالأفكار هي التي تُفسِد النفس وتُعميها فيقول الجاهلُ في قلبِه: «لا إله». «وبما أنّهم لم يستفيدوا من معرفة الله، أسلمَهم الربّ إلى رأيٍ مرذول» (رومة ١ : ٢٨). «وليس فيهم واحدٌ يصنع الصلاح، لا ولا

حتّى واحد» (١٣ : ١). إنّ عبارة «ولا حتّى واحد» يمكن أن تعني إمّا استثناءً لكلّ إنسان، أو تخصيصًا ليسوع المسيح. فهكذا نقول عن ميدانٍ إنّه يمتد حتّى البحر، من دون أن يكون البحرُ نفسُه ضمن الميدان. فالأفضل أن نفهم بالجملة، أنّه ما من أحدٍ صنع الصلاح، إلى أن أتى يسوع المسيح، لأنّه ما من إنسانٍ يستطيع أن يصنع الصلاح، إن لم يتعلّم من يسوع نفسِه، من حيث أنّ هذا الصلاح ممتنعٌ عليه من دون معرفة الله.

٣ - «ألقى الله نظره من أعالي السماء على بني البشر ليرى هل أنّ فيهِم فَهِمٌ ملتمسٌ لله» (١٣ : ٢). يُمكن أن يُفسّر هذا القول على أنّه يعني اليهود الذين يدعوهم النبيّ بني البشر، لأنّهم لم يكونوا يعبدون غير إله واحد، ما جعلَهم أسمى من الأمم الذين أرى أنّ النبيّ قال عنهم: «قال الجاهلُ في قلبِه: لا إله». والله يرى عن طريق الأنفس القدّيسة الموسومة بعلامة «السماء»، إذ أنّ شيئًا لا يغيب عن ناظرَيه.

٤ - «زاغوا جميعُهم ففسُدوا معًا»[1] (١٣ : ٣). أي أنّ اليهود صاروا كالوثنيّين الجهَلة. «ليس فيهم من يصنع الصلاح، ولا واحدٌ»[1] (١٣ : ٣). والمعنى سبق أن شرحناه أعلاه. «حناجرُهم قبورٌ مفتَّحة»[1] (مزمور ٥ : ١٠). في هذه العبارة نرى فرط الجشع، أو بمعنى رمزيّ، الخطأة الفاجرين الذين يقتلون ويفترسون من يجرّونَهم في سُبُلِهم الملتوية. وبمعنى معاكس قيل لبطرس: «إذبح وكُل» (أعمال ١٠ : ١٣)، لكي يجتذب الوثنيّين إلى إيمانِه وإلى التقاليد المقدّسة. «وبألسنتِهم يتملّقون»[1] (مزمور ٥ : ١٠). الخديعة تُرافق الشراهة

(١) هذه الأقوال أوردَها القديس بولُس في رسالتِه إلى الرومانيّين (٣: ١٢-١٤) نقلًا عمّا جاء في الكتاب.

وسائر العيوب. «سمّ الصلّ تحت شفاهِهم»[٢] (مزمور ١٣٩ : ٤). السمّ يدلّ على المكر والخداع، والصلّ يُشير إلى كلّ الذين يُصمّون آذانَهم على الدوام عن أحكام الشريعة، كما يُصمُّ الصلّ أذنِيه عن صوت الحاوي (مزمور ٥٧ : ٥، ٦). «وأفواهُهم ملؤها اللعنة والمرارة» (٩ ب : ٧) إنّه سمّ الصلّ. «وأقدامُهم تُسرع إلى سفك الدماء» (رومة ٣ : ١٥)، ما يدلّ على الطبيعة المتأصّلة في الشرّ. «وفي مسالِكِهم دمارٌ وحطمٌ» (رومة ٣: ١٦؛ أشعيا ٥٩ : ٧). لأنّ سبيل الشرّير بؤسٌ وعناء. والربّ قال: «تعالَوا إليّ يا جميع الرازحين تحت ثقلِ الألم والعناء وأنا أريحُكم. إحملوا نيري عليكم وتعلّموا منّي، إنّي وديعٌ ومتواضع القلب، فتجدوا راحةً لأنفُسِكم لأنّ نيري ليّنٌ وحِملي خفيف» (متّى ١١ : ٢٨-٣٠). «لم يعرفوا سبيل السلام» (رومة ٣: ١٧؛ أشعيا ٥٩ : ٨)، ذلك السلام الذي يُحدِّده الربّ بليونة نيره وخفّة حملِه. «وليست مخافة الله أمام أعيُنِهم» (رومة ٣: ١٨؛ مزمور ٣٦: ١).

٥ - «ألن يفهموا، أخيرًا، جميع فاعلي الإثم؟» (١٣ : ٤). يتوعّدهم الله بالدينونة، «لأنّهم يأكلون شعبي أكلَ الخبز» (١٣ : ٤)، أي كلّ يوم، لأنّ الخبز هو القوت اليوميّ. أولئك المتسلّطون يأكلون الشعب الذي منه مكاسبُهم، من دون أن يوظّفوا سلطانَهم لمجد الله ولخلاص رعاياهم.

٦ - «ولم يدْعوا الربّ» (١٣ : ٤) لأنّ عدم الدعاء يعني ابتغاء ما لا يُرضي الله. «جزِعوا حيث لا جزَع» (١٣ : ٥) أي لسوءٍ زمنيّ. لأنّهم قالوا: «إن تركناه هكذا، آمن به الجميع، فيأتي الرومان ويقضون علينا

(٢) هذه الأقوال أوردَها القديس بولُس في رسالتِه إلى الرومانيّين (٣: ١٢-١٤) نقلًا عمّا جاء في الكتاب.

وعلى مدينتنا» (يوحنّا ١١ : ٤٨). جزعوا حيث لا جزَع، خافوا أن يخسروا مملكةً أرضيّة، فخسروا ملكوت السموات. وهذا ما كان عليهم أن يخافوه. كذاك هو حال المكاسب الزمنيّة: يخشى الإنسان خسارتَها، فيخسر الخيور الأبديّة.

٧ - «لأنّ الله يسكن مع جيل الصدّيقين» (١٣ : ٦). أي أنّه لا يسكن مع الذين يُحبّون العالَم. فليس من العدل بشيء أن يُهمل المرء خالق العالم ليتعلّق بالعالم، ويتّقي المخلوق دون الخالق (رومة ١ : ٢٥). «تُعيبون مشورة البائس لأنّه يتوكّل على الربّ» (١٣ : ٦). أي أنّكم تزدرون مجيء المسيح المتواضع، لأنّه لم يبسط أمامكم عظَمَة الدّهر، بل انتزع أولئك الذين دعاهم للتوكّل عليه، لا الإعتصام بخيورٍ زائلة.

٨ - «من يُعطي من صهيون الخلاص لإسرائيل؟» (١٣ : ٧). ومن تُراه يكون، غير ذلك الذي ازدريتم تواضُعَه؟ لأنّه سوف يأتي ببهاء مجدِه ليدين الأحياء والأموات، ويُشرِك الصدّيقين في ملكوتِه؛ حتّى إذا كان مجيئُه المتواضع الأوّل قد أعمى جانبًا من إسرائيل، ليُفسِح المجال للوثنيّين للدخول في الكنيسة، ففي مجيئه الثاني سيكون الخلاص لإسرائيل كلِّه، بحسب ما بشّر القدّيس بولُس (رومة ١١ : ٢٥-٢٦). إذ أنّه لخير اليهود أيضًا يُذكّر الرسول بكلام أشعيا: «ويأتي إلى صِهيون ذاك الذي يردّ عن المعصية بني يعقوب» (أشعيا ٥٩ : ٢٠). بهذا المعنى قيل هنا: «من يُعطي من صهيون الخلاص لإسرائيل؟» - «عندما يُحطّم الربّ قيود أسرِ شعبِه، يفرح يعقوب ويبتهج إسرائيل» (١٣ : ٧). أرى في الأمر تكرارًا لأنّ فرح يعقوب هو نفسُه ابتهاج إسرائيل.

عظة في المزمور الرابع عشر

الصدّيق الحقيقيّ

بعد أن أحزنت النبيّ التجاديف، يعرض لنا الفضائل التي يجب أن تتحلّى بها النفس لكي تنعم بفرح الربّ وتدخل أقداسَه.

مزمور لداود (١٤ : ١)

١ - لا يُطالعنا العنوان بأيّة صعوبة. «يا ربّ، أيّ مسافرٍ يجدُ ملجأً في خبائِك؟ (١٤ : ١). أحيانًا يُطلق اسم الخيمة أو الخباء على المسكن الأبديّ. وهو، بمعناه الحصريّ، مخيّم حربيّ، من هنا يُطلق على الجنود اسم جيران الخيمة، لأنّ خيَمَهم كانت متلاصقة. وثمّة مبرِّر آخر يدفعنا إلى فهمه بهذا المعنى، في ما قاله النبيّ: «أيّ مسافرٍ يجدُ ملجأً؟». والحال، فإنّنا، في الأرض، في حربٍ مع إبليس، ونحن بحاجةٍ إلى خباء نستريح فيه. وهذا الخباء يعني، بخاصّةٍ، إيماننا بالتدبير المؤقّت للتجسّد الذي تمّ في هذه الحياة، بالربّ، لخلاصِنا. «من يستريح في جبل قُدسِك؟» (١٤ : ١). لعلّ النبيّ يُحدّد لنا هنا، مسبَقًا، المسكن الأبديّ. أمّا الجبل فينبغي أن نفهمَه على أنّه محبّة المسيح الفائقة في الحياة الأبديّة.

٢ - «السالك في البرارة بلا عيب» (١٤ : ٢): قولٌ سوف يتبسّط فيه.

٣ - «والمتكلّم بالحقّ في قلبِه» (١٤ : ٢). ذاك أنّ بعضَهم يحملون في شفاههم حقيقة ليست في قلبِهم. مثل إنسان يُرشدُنا إلى طريق يعرف أنّها تعجّ باللصوص، ويقول لنا: في هذه الطريق لن تخشَوا أيّ لصّ. فإن لم نلتقِ حقًّا بأيّ لصّ، فهذا يعني أنّه نطق بحقيقة لم تكن في قلبِه. كان يُفكّر على عكس حقيقة نطق بها من غير علمِه. ليس إذًا من الصدق بشيء، أن نحمل في أفواهِنا حقيقة، لا نحملُها في قلبنا أيضًا. «الذي لا يكذب بلسانِه» (١٤ : ٣). اللسان يكون كاذبًا عندما لا يتطابق الكلام مع الفكر المحتجب في قلبِنا. «ولا يصنع بقريبِه شرًّا». ونعلم أنّ كلمة «القريب» تشمل جميع الناس. «ولا يتبنّى العار الذي يُلصق بإخوتِه» (١٤ : ٣)، أي لا يُصدّق الإتّهامات التي يُرشَق بها، لا حَقًّا ولا باطلًا.

٤ - «الذي حضورُه دمّر الشرّير» (١٤ : ٤). الكمال للإنسان ألّا يكون للشرّير عليه أيّ سلطان، ويكون في عينيه كالهباء، أي أن يعرف ذلك الإنسان، تمام المعرفة، ألّا وجود للشرّير ما لم تُشِح النفسُ بوجهِها عن بهاء الخالق الأزليّ، للتعلّق بجمال خليقةٍ صُنعت من العدَم. «ولكنّه يُكرِم الذين يتّقون الربّ» (١٤ : ٤)، نظير ما يصنع الربّ نفسُه، لأنّ رأس الحكمة مخافة الله (يشوع بن سيراخ ١ : ١٦). هذا ما يتعلّق بالكاملين، وما يلي من المزمور موجّهٌ إلى المبتدئين.

٥ - «من تعهّد بالقَسَم لقريبه، ولم يُخلِف؛ ومن لا يُعطي فضّته بالربا، ولا يقبل الرشوة على البريء» (١٤ : ٤-٥). ليست هذه من الفضائل الكبرى، غير أنّ الذي لا يستطيع أن يُمارِسَها، يكون أقلّ قدرةً على النطق بحسب الحقيقة التي يعرفها في قلبِه، فلا يستخدم لسانَه للمكر، بل ينطق بما يظنّه حقيقة، وتكون الكلمة على فمه، على

الدوام: نعم نعم، ولا لا (متّى ٥ : ٣٧)؛ ويكون أيضًا أقلّ قدرةً على عدم الإساءة إلى قريبِه، أي إلى أيٍّ كان، وعلى عدم الإصغاء إلى المسيء لإخوتِه. إنّ عدم الإساءة إلى القريب، وعدم الإصغاء إلى المسيء للإخوة، هي أعمال الإنسان الكامل الذي يقضي وجودُه على الأشرار. وعلى الرغم من أنّ تلك الفضائل هي أدنى رتبةً، فإنّ النبيّ يُسارع فيستخلِص: «فمن عمل بذلك سيبقى ثابتًا إلى الأبد» (١٤ : ٥)، أي أنّه يتوصّل إلى صنع الأعمال الكاملة، التي تؤهّلنا إلى ذلك الثبات الذي لا يتزعزع. ولعلّ النبيّ لم ينتقِل، في استنتاجِه، من غير مسوّغ، من الزمن الماضي في عبارة «الذي حضورُه دمّر الشرّير»، إلى المستقبل في عبارة «سيبقى ثابتًا إلى الأبد».

عظة في المزمور الخامس عشر

نشيد القيامة

لأنّ المسيح اعتصم بالربّ، ولم يرغب إلّاه ميراثًا، نصرَه الربّ على أعدائه بالقيامة. ذاك يكون أيضًا نصيب النفس البارّة التي تعتصم بالله، فتنتصر على الموت الأبديّ.

كتابة لداود (١٥ : ١)

١ - هذا المزمور هو نشيد مَلِكِنا، في إنسانيّتِه، الذي بآلامِه نال بالكتابة على الصليب لقب الملك.

٢ - «أللهمّ احفظني فإنّي بك اعتصمتُ. قلتُ للربّ أنت سيّدي، ولا حاجة لك في خيوري»[(١)] (١٥ : ١). أي: لا سعادة لك في خيوري.

٣ - «للأنفس القدّوسة التي تحلّ في مساكنِه» (١٥ : ٣) أي لأولئك القدّيسين الذين اعتصموا بأرض الأحياء، سكّان أورشليم السماويّة، الذين ثبّتوا كلمتهم الروحيّة بمرساة الرجاء، في تلك الأرض التي

---

(١) هكذا وردت في السبعينيّة باليونانيّة: τοὺ ὀφθαλμοὺς αὐτῶν ἔθεντο ἐκκλῖναι ἐν τῇ γῇ. أمّا في سائر الترجمات، وبجميع اللغات وردت على الشكل التالي: «ولا خير لي سواك»، أو «وما عداك لا خير لي»؛ وبالفرنسيّة: Toi seul est ma félicité: أي أنت وحدك سعادتي.

استحقّت بجدارة اسم أرض الله، ولو انّهم، بحسب الجسد، يعيشون في هذه الدنيا، أظهَر «حبَّه كلّه» (١٥ : ٣). إذًا، لقد عرّف الربّ تلك النفوس القدّوسة برسومه العجيبة لأجلّ ترقّيهم، فأدركوا المكسب الذي يوفّرُه لهم سرُّ إلهٍ صار إنسانًا ليموت، وإنسانٍ هو إله ليقوم من الموت.

٤ - «كثُرَت أسقامُهم» (١٥ : ٤)؛ لا لهلاكِهم، بل لكي يبتغوا الطبيب. «لذلك أسرعوا في عدْوِهِم» (١٥ : ٤). إذًا، لكثرة أسقامِهم سارعوا في طلب الشفاء. «لن أجمعَهم لأجل ذبائح دمويّة» (١٥ : ٤). لن تكون تجمّعاتُهم بَعدُ لحميّة، ولا لأجل دم حيواناتٍ أجمعُهُم لكي أستجيبَهم. «ولا أذكرُ اسمهم بشفتيَّ» (١٥ : ٤). من خلال تبدّلٍ روحيّ، لا يعودون يذكرون ما كانوا عليه في الماضي؛ وأنا، بالسلام الذي أعطيهِم، لن أعود أرى فيهم خطأةً وأعداء، أو حتّى بشرًا، بل أدعوهُم صدّيقين وإخوة وأبناء الله.

٥ - «الربّ نصيب ميراثي وكأسي» (١٥ : ٥) لأنّهم يملكون معي الميراث الذي هو الله نفسه. وليختر الآخرون ميراث الخيرات الزمنيّة الزائلة وينعموا بها. أمّا نصيب القديسين فهو الإله الأزليّ. فليرتوِ الآخرون من الشهوات المهلِكة، فالربّ نصيب كأسي. وأشمل معي بـ«نصيب كأسي» الكنيسة، لأنّه حيث يكون الرأس، هناك يكون الجسم أيضًا. والحال، فإنّي أجعل نصيبي في جماعاتِهم، وإذ أرتوي من كأسي، أنسى أسماءهم القديمة. «وأنت يا ألله تُثبّتُني في ميراثي» (١٥ : ٥)، لكيما يعرف الذين أخلّصُهم المجدَ الذي كان لي بك من قبل خلق العالَم (يوحنّا ١٧ : ٥). لستَ إليّ تُرجِع ما لم أخسَر، بل للذين خسروا معرفة مجدِك؛ ولمّا كنت أنا فيهم، فإليّ تُعيدُ معرفة مجدِك.

٦ - «الحَبْل قاسَ نصيبي في أراضٍ خصيبة» (١٥ : ٦). مثلما صار

الربّ في الماضي مُلكًا للكهنة واللاويّين، كذلك وقع عليّ ميراثي بالقُرعة، في بهاء مجدِك يا إلهي. «وميراثي جليل»، وهو ليس بجليلٍ لكلّ الناس، بل للذين يعرفونَه؛ وبما أنّني فيهِم، فإنّه جليلٌ لي.

٧ - «أبارك الربّ الذي وهبني الفهم» (١٥ : ٧) اللّازم لأرى ذلك النصيب المجيد وأملكَه. «وإلى ذلك، في الليل وعظتني كليتاي بقسوة» (١٥ : ٧). عدا عن الفهم، فإنّ ذلك الجزء السفليّ منّي، الذي هو الجسد الذي لبستُه، وعظني فابتلاني بظلمات الموت التي تعصى على الفهم.

٨ - «جعلتُ الربّ أمامي في كلّ حين» ١٥ : ٨). عندما أتيت إلى هذا العالم الفاني، لم يغب عن نظري ذاك الباقي إلى الأبد، بعد حياة الدّهور، ولم يغب تصميمي على الرجوع إليه. «فإنّه عن يميني لكي لا أتزعزع» (١٥ :٨). إنّه يعضدُني، لكي أثبت فيه.

٩ - «لذلك ابتهج قلبي وأنشد لساني فرَحَه» (١٥ : ٩). ملأ الفرح أفكاري، وأشرقت البهجة في كلماتي. «وجسدي أيضًا سيسكن على الرجاء» (١٥ : ٩). لن يأكلَ الموت جسدي بل سيرقد على رجاء القيامة.

١٠ - «لأنّك لا تترك نفسي في الجحيم» (١٥ : ١٠). لن تُقدّم نفسي فريسةً للجحيم، «ولا تدع قدّوسَك يرى فسادًا» (١٥ : ١٠). لن تدع للفساد جسدًا مقدّسًا، عليه أن يُقدّس الآخرين. «عرّفتني سبُل الحياة» (١٥ : ١١). بي عرّفت العالم سبيل التواضُع، من أجلِ أن يعودوا إلى الحياة التي خسروها بالكبرياء. وبما أنّني فيهم، فأنا الذي عرّفتنيها. «وستملأني فرحًا إذ تُريني وجهَك» (١٥ : ١١). عندما يرونَك وجهًا لوجه، يمتلئون فرحًا لا يبتغون بعدُ ما عداه. وبما أنّني

فيهِم، فأنا الذي تملأني فرحًا. «ولي من يمينِك لذّاتٌ أبديّة» (١٥: ١١). إنّ نعمك ومراحمك لذيذة لنا في طريق هذه الحياة، وهي تُبلِغُنا إلى قمّة المجد في حضرتِك.

عظة في المزمور السادس عشر

كنيسة الأرض

كنيسة الأرض المحاطة بالأعداء المُفسِدين تستنجد بالله وتشكره على رعايتِهِ لها في كلّ يوم، ولها الرجاء الوطيد بالغلبَة بتلك الرعاية.

صلاة لداود

١ - ينبغي أن نعزوَ هذه الصلاة ليسوع المسيح المتّحد بالكنيسة التي هي جسدُه.

٢ - «أصِخ يا ربّ لبرّي، واسمع صلاتي وأمِل أذنَكَ إلى تضرّعاتي، فإنّ شفاهي لم تعُدْ ماكرة» (١٦ : ١). هذه الصلاة لا تأتيك من شفاه متملّقة. «لينبع من وجهِك حكمي» (١٦ : ٢)، أي فلتُنِرني معرفتُك ولتجعلني أقضي بالحقّ. أو لا تدَع حكمي يصدُر عن شفاهٍ ماكرة، بل من نورِك، لئلّا أنطق بما يُخالِف ما أكتشفه فيك. «ولترَ عيناي الاستقامة»[١]، أي عينا قلبي.

٣ - «امتحنت قلبي وافتقدتَه ليلًا» (١٦ : ٣) لأنّ ذاك القلب امتُحِن عندما ذاق الشدّة. «محّصتني بالنار فلم تجِد فيّ جورًا» (١٦ : ٣) ذاك

(١) وردت على هذا النحو في السبعينيّة: οἱ ὀφθαλμοί μου ἰδέτωσαν εὐθύτητας وفي سائر الترجمات: «ولترَ عيناك الاستقامة (أو استقامتي)».

الإختبار بالشدّة الذي أظهر العدل، يمكن أن يُدعى لا الليل الذي يُقلِقُنا فحسب، بل النار التي تكوينا.

٤ - «فلا ينطق فمي بحسب أعمال البشر» (١٦ : ٤). لئلّا يخرج من فمي شيءٌ ينطق بغير مجدك وتسبيحِك؛ لا لأجل ثواب البشر الذين يسلكون ضدّ مشيئتِك. بل «على حسب كلمات فمِك» (١٦ : ٤)، كلمات سلامِك، أو كلمات أنبيائِك؛ «اجتزتُ طرُقًا وعرة» (١٦ : ٤)، طرق الألم والموت الشاقّة.

٥ - «لكي أثبّت خطاي في سُبُلِك» (١٦ : ٥)، لكيما تكمُلَ محبّة الكنيسة في تلك الطرق الضيّقة التي تقود إلى سكناك. «فلا تزلّ قدمايَ» (١٦ : ٥) لئلّا تمّحي معالِم عبوري، المرسومة كالخطوات، في الأسرار المقدّسة وفي كتُبِ رُسُلي، فيتمكّن الذين يتّبعون مشيئتي أن يرَوها ويعرفوها، أو لئلّا أتزعزع في الأبديّة بعد أن عبرتُ طرقًا وعرة، وطبعتُ معالمَ خطواتي في سبلِك الضيّقة.

٦ - «أللّهمّ إني دعوتُك لأنّك استجبت لي» (١٦ : ٦). رفعت إليك صلاتي بقوّة وحرارة، لأنّك استجبت لي عندما سألتك تلكَ الحرارة في صلاتي الفاترة. «فأمِل أذنك إليّ واستمع قولي» (١٦ : ٦). ولا تدعْ رحمتك تتخلّى عن حقارتي.

٧ - «أشرِق بمراحمِك» (١٦ : ٧) لئلّا تُزدرى رحماتُك، فتُقابل بمحبّة باردة.

٨ - «أنت يا من تذود عن المعتصمين بك من الذين يُقاومون يمينَك» (١٦ : ٧)، أي النِعَم التي تُسبِغُها عليّ. «إحفظني يا ربّ حِفظَ الحدقةِ بنتِ العين» (١٦ : ٨) التي تظهر صغيرةً ضيّقة، هي التي تعطي القوّة للبصر وتجعلُنا نُميّز النور من الظلمة، كما يُميّز السلطان الإلهيّ

الأبرارَ من الخطأة، يوم الدين، بالإنسان يسوع المسيح. «بظلّ جناحَيك استُرني» (١٦ : ٨)، أي ليكُن لي حبُّك الرحيم درعًا «يقيني من المنافقين الذين يضطهدونَني» (١٦ : ٩).

٩ - «حاصَرَ الأعداء نفسي، وحبسوا أحشاءَهم عن الرحمة» (١٦ : ٩-١٠). غمرَهم فرحٌ جسديّ بعد أن أشبعوا بالشرّ نهمَهم. «وأفواههم نضحت بالكبرياء» (١٦ : ١٠): أطلقت أفواهُهم كلمات سفيهة عندما قالوا: «سلامٌ يا ملك اليهود» (متّى ٢٧ : ٢٩) وسواها من التجاديف المماثلة.

١٠ - «طردوني، وها هم يُحيطون بي» (١٦ : ١١) أخرجوني من مدينتِهم، وها هم الآن يُحيطون بي على الصليب. «وعزموا أن يوجّهوا أبصارهم إلى الأرض»[٢] (١٦ : ١١). أي أنّهم عزموا على أن يُثبّتوا قلوبَهم في الأمور الأرضيّة، عندما ألصقوا بالذي ساقوه إلى الموت إثمًا أراد جلّادوه أن يُعفوا منه أنفسَهم.

١١ - «قبلوني، كما يقبلُ الأسد فريسةً ليبتلِعَها» (١٦ : ١٢). رصدوا خطواتي، مثل ذلك العدوّ الذي يجول حولنا ملتمِسًا ابتلاعنا (١ بطرس ٥ : ٨). «وكالشبل الذي يربض في الستر» (١٦ : ١٢)، أي كالشبل الرابض في الكمين، لكي يُراوغ الصدّيق ويُهلكَه.

١٢ - «قم يا ربّ اسبقهُم واصرعْهم» (١٦ : ١٣). قم يا ربّ، يا

(٢) وردت بهذا المعنى في السبعينيّة؛ ὅτι τῶν ἀγαθῶ μοὺ οὐ χρείαν ἔχεις وكذلك في الفولغاتا: oculos suos statuerunt declinare in terram. أمّا في العبريّة: עֵינֵיהֶם יָשִׁיתוּ , לִנְטוֹת בָּאָרֶץ: أي أعيُنُهم علينا ليطرحونا في الأرض. سائر الترجمات: «وجّهوا أبصارهم ليُلقونا على الأرض» أو «يُلاحقونني بأبصارِهم ليُجندلوني».

من يحسبونَك نائمًا، غير عابئٍ بخطايا البشر. إسبق فعاقب مكرَهم بالعمى، واصرَعهُم، لكي يسبق الإنتقامُ إثمَهُم.

١٣ - «نجِّ نفسي من المنافق» (١٦: ١٣). نجِّ نفسي، واجعلني بالقيامة أنتصر على ذلك الموت الذي أنزله بي الأثَمَة. «نجِّ سيفَك من أعداء يدِك» (١٦: ١٤). نفسي هي سيفُك، ذاك السيف الذي تمتشقُه يدُك، أو قوّتُك الأبديّة، لكي تُدمِّر ممالِك الظلم، وتفصل به الأخيار عن الأشرار. ذاك هو السيف الذي يجب أن يُنتزَع من أعداء يدِك، أي من أعداء جبروتِك، من أعدائي. «أمحُهم ياربّ من الأرض وبدّدهم من أهل الدنيا» (١٦: ١٤). أمحُهُم من هذه الأرض التي يسكنونَها، وبدّدهم في العالَم، على مدى هذه الحياة التي يحسبونَ أنّها الوحيدة، من حيثُ أنّهم لا يؤمنون بالحياة الأبديّة. «بطونُهم ملأى من أسرارِك» (١٦: ١٤). عقابُهم لا يقف عند حدّ القِصاص المحسوس، بل إنّ تلك الخطايا التي تحجب عنهم نور حقيقتِك، تشغَل بالَهم وتُنسيهم الله. «شبعوا من لحم الخنازير» (١٦: ١٤) أي أنّهم استطابوا الأقذار، هم الذين يدوسون بأقدامِهم جواهرَ كلمة الله. «وتركوا فضلاتِهم لأطفالِهم» (١٦: ١٤)، وهم يصيحون: «دمه علينا وعلى بنينا» (متّى ٢٧: ٢٥).

١٤ - «أمّا أنا، فأقف أمامَك في يوم عدلِك» (١٦: ١٥). أنا الذي لم يعرفني أولئك الذين يعجز قلبُهم النَجس المظلِم عن رؤية نور الحكمة: ها أنذا أقف أمام وجهِك في يوم عدلِك. «وأُشبَع عند تجلّي مجدِك». عندما يستحيل على أعدائي، المملوئين رجسًا، أن يعرفوني، سأُشبَع من ذلك المجد الذي تُشرِق به في أولئك الذين يعرفونَني. في نُسَخٍ أُخرى، نقرأ «شبِعوا من الأطفال» *Saturati sunt filiis*، بدلًا من «شبِعوا من لحم الخنازير» *Saturati sunt porcina*. وهذ الاختلاف في

الترجمة ناتجٌ عن غموض الكلمة اليونانيّة. إذ ذاك، نفهَم بالأطفال، الأعمال. فيكون الأولاد الأخيار الأعمال الصالحة، والأشرار الأعمال السيّئة.

عظة في المزمور السابع عشر

نشيد الخلاص

الكنيسة المتّحدة بيسوع المسيح والمنتصرة على مكائد الأشرار، تتبنّى كلمات داود بعد أن نجّاه الربّ من شاول ومن أعدائِه، وتُبارك الله الذي نجّاها من إبليس ومن أشراكِه الشهوانيّة.

١ - «للغاية، لداود عبد الربّ (١٧ : ١)، أي للمسيح الذي هو ببشريّته، يدُ الله القويّة. «كلّم الربَّ بهذا النشيد، يوم أنقذه الربّ من أيدي جميع أعدائِه، ومن يد شاول» (١٧ : ٢؛ راجع ٢ صموئيل ٢٢ : ١١). كان شاول هذا ملكَ اليهود الذين طلبوه ملكًا عليهم. وكما أنّ داود يعني اليد القويّة، فإنّ شاول يعني الطلب (السؤال). والحال، فإنّنا نعرف كيف طلب ذلك الشعب من الربّ ملكًا (١ صموئيل ٨: ٥)، فأعطيَ له، بحسب مشيئتِه هو لا بحسب مشيئة الربّ.

٢ - إذًا، هو المسيح المتّحد بالكنيسة، أو المسيح بكلّيّتِه، رأسًا وجسدًا، يهتف: «أحبّك يا ربّ يا قوّتي» (١٧ : ٢)، أي أنّني أحبّك لأنّك تقوّيني.

٣ - «أنت ياربّ حصني وملاذي ومنقِذي» (١٧ : ٣). أنتَ الذي حفظتني لأنّي إليك لجأت، وإليك لجأت لأنّك أنقذتَني. «الربّ عوني وعليه توكّلت» (١٧ : ٣). أنت ياربّ وهبتني نعمةَ أن أدعوك، لكي أتوكّل عليك. «أنت حافظي، وقرنُ خلاصي وفاديَّ» (١٧ : ٣). أنت

حافظي لأنّني لم أُغالِ بالتوكّل على نفسي ولم أرفع عليك قرن كبريائي. بل فيك وجدتُ القوّة، أي الحصن المنيع لخلاصي. وكشفتَها لي من أجلِ أن تفتديَني.

٤ - «أدعو الربّ وأسبّحُه، فأُنَجّى من أعدائي» (١٧ : ٤). لا لأطلب مجدي، بل لأطلب مجد الربّ أدعوه، فلا أخشى أن تعود عليّ ضلالات الإثم بالسوء.

٥ - «آلام الموت»، أي الآلام الجسديّة، «اكتنفتني، وسيولُ الفجور هالتني» (١٧ : ٥). ثارت بوجهي، لحظةً، كثرةُ المنافقين، كسَيل أمواهِ الشتاء التي تفيضُ لتهدأ بعدَ حين، وجهِدَ الأثمة ليُرهبوني.

٦ - «حاصرتني آلام الجحيم» (١٧ : ٦). أي أنّ الذين حاصروني ليُهلكوني استخدموا أسلحة الحسد القاتلة التي تودي إلى جحيم الخطيئة. «وشِباك الموت نُصِبت لي» فكانوا يُحذّرونني، وكانوا أوّل الساعين إلى الإيقاع بي، فارتدّ الشرّ عليهِم. إنّ حبائل الموت هذه، تقبضُ على الناس الذين توقع بهم، لِتَبَجُّحِهم بذلك البرّ الكاذِب، وبذلك الاسم الباطل الخالي من كلّ حقيقة، الذي يتباهَون به أمام الوثنيّين.

٧ - «في الضيق دعوت الربّ، وإلى إلهي صرختُ، ومن هيكل قدسِه سمع صوتي» (١٧ : ٧). سمع صوتي في قلبي الذي يسكنُه، «والصرخة التي أطلقتُها أمام وجهِه» (١٧ : ٧)، تلك الصرخة التي لا تسمعها آذان البشر، والتي أُصعّدُها في باطني أمام وجهِه، «بلغت مسمعَيه» (١٧ : ٧).

٨ - «ارتجّت الأرض لها وتزلزلت» (١٧ : ٨). فعندما مُجِّدَ ابن البشر، ارتجّ الخطأة وتزلزلوا. «وتزعزعت آساس الجبال» (١٧ : ٨)

فالآمال التي بناها العظماء على خيور هذه الحياة تزعزعت. «مادت من اضطرام غضب الربّ» (١٧ : ٨)، لئلّا يترسّخ الأمل، بعدُ، بالخيور الأرضيّة، في قلوب البشر.

٩ - «من اضطرام غضبِه تصاعد عصف دخان» (١٧ : ٨-٩). مسّت البشرَ الندامةُ لرؤيتِهم وعيد الربّ للمنافقين، فصعّدوا إلى السماء أدعيةً ودموعًا. «اشتعلت من وجهِه نارٌ آكلة» (١٧ : ٩): بعد الندامة اضطرمت نار المحبّة التي أشعلتها معرفة الربّ. «واتّقَد جمرٌ» (١٧ : ٩). لمّا لم يعد للذين هلكوا وغرقوا في لجج الظلمات الباردة، لا نار الأشواق المقدّسة ولا نور البرّ، عادوا فاقتبلوا نار الحياة ونورَها.

١٠ - «طأطأ السموات ونزل» (١٧ : ١٠). وَضعَ الصدّيقَ الذي اتّضَع إلى حدود الضعف البشريّ. «وكانت الظلمات تحت قدمَيه» (١٧ : ١٠): أعمى الأشرارَ بمكرِهم فلم يعرفوه، هم الذين استطابوا الأرضيّات، والأرض تحت قدَمَي الربّ، وهي موطئٌ لقدَميه.

١١ - «اعتلى الكروبين وطار» (١٧ : ١١): ارتفع فوق ملء العِلم، لئلّا يبلغ إليه أحدٌ إلّا بالمحبّة. لأنّ المحبّة كمال الناموس (رومة ١٣ : ١٠). وللحالِ بدا مُغلقًا على الذين أحبّوه، لئلّا يظنّوا أنّ بوسعِهم أن يفهموه من خلال الصوَر الزمنيّة. «وكان طيرانُه أسرع من الرياح» (١٧ : ١١)، أي أنّ السرعة التي بدا فيها مُغلقًا على الفهم، تتجاوز الفضائل التي هي، للروح، بمثابة الأجنحة التي ترتفع بها عن مخاوف الأرض في بقاع الحرّيّة.

١٢ - «اختار الظلمات حجابًا له» (١٧ : ١٢): اختار عتمة الأسرار المقدّسة، الرجاء اللامنظور في قلوب المؤمنين، ليحتجب فيها، لكن من غير أن يتخلّى عنهم. يحتجب أيضًا في الظلمات التي ما

زلنا نسلكها بالإيمان لا بالعيان (٢ قورنتُس ٥ : ٧) ما دمنا نرجو ما لم نرَه بعدُ، وننتظرُه بالصبر. «ومظلّتُه حولَه»: أي أنّ الذين يتوبون ويؤمنون به يُحيطونَه من كلّ جانب؛ هو في وسطِهم، لأنّه يُفيض عليهم نعمًا متساوية، ويسكن فيهم في هذه الحياة، كمن يسكن في مظلّة. «وفي سُحُب الجوّ مياهٌ داكنة» (١٧ : ١٢): لا يتصوّرَنَّ أحدٌ أنّ فهم الكتب يوفّر له ذاك النور الذي سنتمتّع به عندما ننتقل من الإيمان إلى العيان. ثمّة شيءٌ مظلمٌ في تعليم الأنبياء، وعند كلّ مبشّرٍ بكلمة الله.

١٣ - «مُقارنَةً بنورِ وجهِه» (١٧ : ١٣): أي مقارنةً بذلك البهاء الذي سيسطع به لدى تجلّيه لنا. «سحُبُه مرّت»: ها إنّ رسُلَ كلمتِه لم يعودوا منحصرين في أنحاء اليهوديّة، بل انطلقوا إلى الأمم. «ها قد انهمر بَرَدٌ وجمرُ نار»: إنّها صورة الملامات التي ستنهمر كالبرَد على القلوب المتحجّرة؛ لكن، إذا كانت الأرض ليّنة خصبة، أو كانت النفسُ تقيّة ورعة فإنّ البرَد يتحوّل إلى قطرِ ندى؛ أي أنّ ذاك الوعيد القاسي كالجلمود، والزهيب المدمّر كالصاعقة، يتحوّل تعليمًا يُروي الظمأ؛ وبنار المحبّة تنعم القلوب بحياةٍ جديدة. هذا ما تُحدِثُه سُحُب الربّ في الأمم.

١٤ - «أرعَد الربّ من السماء» (١٧ : ١٤): أسمع الربّ صوتَه لذلك القلب البارّ الذي كان الإيمان يبعث فيه الحياة لكي يُبشّر بالإنجيل. «وأسمع العليّ دويّ صوتِه»، لكي يبلغ إلينا، ومن أعماق لجج بشريّتِنا، نسمعَ صوت السماء.

١٥ - «أرسلَ سهامَه فشتّتهم» (١٧ : ١٥): أرسل الإنجيليّين على أجنحة القوّات، فشقّوا في طيرانِهم سبلًا قويمة، لا بقواهم الذاتيّة، بل بقوّة الذي أرسلَهم. وشتّت الذين أُرسلوا إليهم، فكانوا لبعضِهم نفحة

حياةٍ للحياة، وللآخرين نفحة موتٍ للموت (٢ قورنتُس ٢: ١٦). «وأكثرَ الصواعق فأذهلَهم»: أي أنّ معجزاتِه أذهلتهم.

١٦ - «فظهرت ينابيع الماء الحيّ» (١٧: ١٦). عندها ظهر الذين حوّلهم تبشيرهم إلى ينابيع ماء حيّ يفيض للحياة الأبديّة (يوحنّا ٤: ١٤). «وانحسرت آساس المسكونة»، إذ ذاك عُرِف ما كان محجوبًا عند الأنبياء الذين هم أساس العالَم المرتبط بالله بالإيمان. «مِن زَجْرِك يا ألله» عندما صرختَ: «لقد اقترب منكم ملكوت الله» (لوقا ١٠: ٩). «ومِن عصفِ غضبك الصاخب» عندما قلت: «إن لم تتوبوا هلكتم جميعُكم عل هذا النحو» (لوقا ١٣: ٥).

١٧ - «أرسَل من العلاء واقتبلَني» (١٧: ١٧): ذاك حين دعا، من بين الأمم، الكنيسة، ميراثَه، التي لا وصمة فيها ولا جعدة (أفسُس ٥: ٢٧)؛ «وانتشلني من المياه الغامرة» أي من وسط الشعوب.

١٨ - «أنقذَني من أعدائي الأشدّاء» (١٧: ١٨). نجّاني من أولئك الأعداء الذين لهم سلطانٌ لأيذائي وتكدير عيشي في هذه الدنيا. «ومن مبغِضيَّ لأنّهم قَوُوا عليَّ» (١٧: ١٨)، لأنّي كنت أجهل الربّ إذ كنت خاضعًا لسلطانِهم.

١٩ - «بادروني في يوم بليّتي» (١٨: ١٩): كانوا أوّل المسيئين إليّ، فيما كنت أعنى تحت ثقل جسدٍ مائت. «فكان الربّ عضَدي»: أي أنّ الربّ كان عوني عندما زعزعت مرارة البليّة أساس الملذّات الأرضيّة وقوّضتها.

٢٠ - «قادني الربّ إلى الرُحْب» (١٧: ٢٠): حين كنت في ضيقٍ قادني الربّ إلى رُحبِ الإيمان الروحيّة. «وخلّصني لأنّه رضيَ منّي». حتّى قبل أن أختارَه، خلّصني من أعدائي الأشدّاء، الذين يحسدونني

على حبّي له، وأنقذني من الذين يُبغضونني الآن، لأنّه هو الذي أبتغيه.

٢١ - «سيُكافئني الربّ بحسب برّي» (١٧ : ٢١). أي أنّه سيكافئُني بحسب استحقاق إرادتي الصالحة، هو الذي كان أوّل من رحَمَني قبل أن تكون لي تلك الإرادة. «وسيُثيبُني بحسب طهارة يديَّ»، أي بحسب طهارة أعمالي، هو الذي أعطاني السلطان لأعمل الخير، عندما أدخلني رُحْبَ الإيمان.

٢٢ - «لأنّي حفظت طُرُق الربّ» (١٧ : ٢٢)، لكي أجد فيها، وافرةً، تلك الأعمال الصالحة التي يصنعها الإيمان، وتكون لي الشجاعة لأستمرّ فيها.

٢٣ - «ولم أعصِ إلهي، لأنّ أحكامَه كلّها أمام عينَيّ» (١٧ : ٢٢-٢٣). تلك الأحكام، التي هي ثوابُ الأبرار وعقاب الخطأة، والبلايا التي تؤدِّب، والتجارب التي تمتحِن، هي التي أجعلُها على الدوام أمام عينَيَّ. «ولم أحِدْ قَطُّ عن بِرِّه»؛ على غرار ما يفعل الذين يسقطون تحت الحِمل، ويعودون إلى تقيّؤِهم.

٢٤ - «سأكون أمامَه بلا وصمة، وأحترزُ من كلّ إثم» (١٧ : ٢٤)

٢٥ - «فيُثيبُني الربّ بحسَب بِرِّي» ١٧ : ٢٥)، لا بسبب رُحبِ الإيمان الذي يعمل بالمحبّة (غلاطية ٥ : ٦) فحسبُ، بل أيضًا بسبب طول ثباتي. لهذا سيُثيبُني الربّ بحسب بِرّي. «وبحسب طهارة يديَّ أمام عينَيه» (١٧ : ٢٥)، لأنّ عينَيه لا تريَان كما يرى الناس. «لأنّ ما يُرى إنّما هو وقتيّ، وأمّا ما لا يُرى فهو أبديّ» (٢ قورنتُس ٤ : ١٨). إلى تلك الأعالي يرتفع الرجاء.

٢٦ - «مع المقدّس تكون مقدّسًا» (١٧ : ٢٦) هناك عمقٌ محجوبٌ

يُبرهِن أنّك مقدَّس مع من هو مقدَّس، لأنّك أنت مُقدِّسُه. «وأنّك نقيٌّ من الأنقياء»: لأنّك لا تُسيء إلى أحد، لكنّ كلّ واحدٍ «بحبائل خطيئتِه يَنشَب» (أمثال ٥ : ٢٢).

٢٧ - «مع الصفيّ تكون صفيًّا» (١٧ : ٢٧)، لأنّ صفيّك بدورِهِ يصطفيك. «وملتويًا مع المُعوَجّ»: بعينَي الظالِم تبدو ظالمًا، لأنّه يقول إنّ طريق الربّ ليست قويمة (حزقيال ١٨ : ٢٥)، فيما طريقُه هو مُعوجّة.

٢٨ - «ستُخلّص نسل المتواضعين» (١٧ : ٢٨). ينظر الإنسان المُعوجُّ إلى الخلاص الذي تمنحُه للتائبين عن خطاياهم، على أنّه ظُلم. «وتُخفضُ عيون المتكبّرين»: أي تُذلّ الذين يُنكرون برّ الله ويُريدون أن يُقيموا برّ أنفُسِهِم (رومة ١٠ : ٣).

٢٩ - «أنت يا ربّ تنير سراجي» (١٧ : ٢٩)، لأنّ نورَنا لا ينبع منّا، أنت يا ربّ تُنير سراجَنا. «وأنت يا ربّ تقشع ظلمتي»، لأنّنا في الليل بسب خطايانا، لكنّ الربّ سيقشع تلك الظلمات.

٣٠ - «أنت تُنجّيني من التجربة» (١٧ : ٣٠). ومن دونِك لا أقوى على الإنتصار على المحنة. «بإلهي أتسلّق السور»: لا بقوّتي، بل بمعونة الله أتسلّق ذلك السور الذي رفعته الخطايا بين البشر وبين أورشليم السماويّة.

٣١ - «طُرُق إلهي لا عيبَ فيها» (١٧ : ٣١). لا يأتي إلى البشر قبل أن يُطهّر طريق الإيمان، لكي يستطيع الحلول فيهِم، هو الذي طرُقُه لا عيب فيها. «أقوال الربّ ممتحنةٌ بالنار» أي بنار البلايا، «وهو مِجنٌّ للمتوكّلين عليه» (١٧ : ٣١): والذين يتوكّلون عليه، لا على أنفسِهِم، لن تُضنيهم الشدّة، لأنّ الرجاء يأتي بعد الإيمان.

٣٢ - «لأنّه، مَن إلهٌ غير الربّ» (١٧ : ٣٢) الذي نحن عبيدُه. «ومَن إلهٌ سوى إلهِنا؟» من هو الإله الحق سوى الربّ الذي علينا، نحن أولادَه، أن نمتلكَه ميراثًا بعد أن عبدناه عبادة حقّة؟

٣٣ - «ألله نطّقَني قوّةً» (١٧ : ٣٣): إنّ الله الذي وهبني مِنطقَةً لكي أقوى، وأزنّر بها ثوب الشهوة الفضفاض فلا أتعثّر به في أعمالي ومساعيَّ. «ومهّد لي سبيل الطهارة». شاء أن يُمهّد لي طريق المحبّة لكي آتي إليه، كما كان عليّ أن أمهّد طريق الإيمان ليأتيَ هو إليّ.

٣٤ - جعلَ رجليَّ رشيقتَين كالأيِّل» (١٧ : ٣٤). فكمّل ذاك الحبّ الذي سيُمكّنني من اجتياز معابر العالَم الوعرة والمظلمة. «وسيُقيمني على المشارف»: سيُركّز رغائبي على المسكن السماويّ، لكي أُشبَع من ملء الله (أفسس ٣: ١٩).

٣٥ - «هو يُعلّم يديَّ القتال» (١٧ : ٣٥). يُدرّبني على تلك الأعمال التي بها أقوى على الأعداء الذين يجهدون ليُقفلوا علينا الممر نحو ملكوت السموات. «شدَدت ذراعيَّ كقوس النحاس»، فجعلتني صلب العزم، في الأعمال الصالحة.

٣٦ - «جعلت خلاصَك ترسًا لي، ويمينُك عضدتني» (١٧ : ٣٦). يمينُك، أي نعمتُك. «وتعليمُك قادني إلى الغاية». تأديبُك يحول دون ضلالي، ويقوّمني لكي أعزوَ أعمالي إلى تلك الغاية التي تجمعُني بك. ودروسك تُعلّمني أيضًا، لأنّ قساوتك توصلُني إلى الهدف الذي تُرشدُني إليه.

٣٧ - «وسّعت خطواتي» (١٧ : ٣٧)، فلا تُعيقُ مسيرتي، بعدُ، طرقُ الجسد الضيّقة، لأنّك وسّعتَني في تلك المحبّة التي تصنع الخير بفرح، والتي أدواتُها أعضائي وكل ما فيَّ من مائت. «ولم تعثر

قدمايَ»، لأنّه ليس هناك عثرةٌ لا في الطريق التي سلكتُها، ولا في الآثار التي خلّفتُها ورائي للذين يريدون أن يتبعوني.

٣٨ - «أطاردُ أعدائي فأدركُهم» (١٧ : ٣٨). أطارد فيّ الشهوات الجسديّة فلا تأسرُني، بل أدركُها وأقضي عليها. ولا أرتدّ إلّا وقد قضيتُ عليها. لا أكفّ عن المطاردة ولا أستريح إلّا بعد أن ألاشي كلّ ما يُهلكُني.

٣٩ - «أحطّمهم فلا يقوَون على النهوض» (١٧ : ٣٩). لن يتحمّلوا ضرباتي. «فيسقطون تحت قدميَّ». بعد أن أحطّمَهم، أؤثِر عليهم ذاك الحبّ الذي يقودُني إلى الأبديّة.

٤٠ - «نطّقتَني بأسًا للقتال» (١٧ : ٤٠): بقوّتك شمّرتَ ثوبي الفضفاض لئلّا يُعيقَني في القتال. «وصرعتَ تحت قدَميّ القائمين عليَّ»: طرحت في الضلال اولئك الذي مكروا بي، وجعلت تحت قدميَّ الذين أرادوا أن يَثِبوا عليّ.

٤١ - «طرحت أعدائي ورائي»(١٧ : ٤١): أي هديتَهم، وجعلتَهم ورائي، إذ حملتهم على اتّباعي. «وشتّتَّ مبغضيَّ»: أي قدتَ إلى الهلاك اولئك الذين اعتصموا بأحقادِهم.

٤٢ - «استغاثوا ولا مُخلِّص» (١٧ : ٤٢). فمن ذا يُخلّص من لم تُخلّصْهم؟ «بالربّ استغاثوا فلم يستجِبْهم». إلى الربَّ لا إلى سواه وجّهوا دعاءَهم، فلم يرَ بحُكمِه، أهلًا لإنعاماتِه أولئك الذين لا يتخلّون عن آثامِهم.

٤٣ - «أبدّدُهم كالهباء في الريح» (١٧ : ٤٣). أجعلُهم كالغبار، لأنّهم يبسوا، إذ لم يقتبلوا ندى المراحم الإلهيّة؛ ولمّا رفعتهم الكبرياء وانتفخوا، فقدوا الرجاء الصلب الذي لا يتزعزع، كمن ترتجّ به الأرض

الثابتة الراسخة. «وكوحلِ الأسواق أمحقُهم»: في تلك الطرُق الرحبة التي يسلكها الكثيرون، ينزلق أهل الفجور ويهلكون.

٤٤ - «تُنجّيني من مخاصمات الشعب» (١٧ : ٤٤)، أي من مخاصمات الذين يقولون: «إن أطلقتَه، تبعه الجميع» (يوحنّا ١١ : ٤٨).

٤٥ - «تُقيمني رئيسًا للأمم، وشعبٌ لم أعرفه ينضوي تحت شرائعي» (١٧ : ٤٤-٤٥). الوثنيّون الذين لم آتِ إليهِم بالجسد، تعبّدوا لي. «سمع صوتي فأطاعني» (١٧ : ٤٥): لم يروني بأعينِهم، ولكنّهم عندما اقتبلوا رسلي أطاعوا نداء صوتي.

٤٦ - «بنو الغرباء شهدوا عليّ زورًا» (١٧ : ٤٦). أبناءٌ لا يستحقّون هذا الاسم، بل هم غرباء، من العدل بمكانٍ أن يُقال لهم: «أبوكم إبليس» (يوحنّا ٨: ٤٤)، هم الذين شهدوا عليّ زورًا. «بنو الغرباء هرِموا»: هؤلاء الأبناء الذين صاروا غرباء، والذين أردت أن أجدّد شبابَهم بالعهد الجديد، استمرّوا مقيمين في الإنسان العتيق. «خاروا في سبُلِهم»: باتوا ضعفاء يتوكّأون على رجلٍ واحدة، لأنّهم كانوا يحملون العهد القديم، فازدروا العهد الجديد وباتوا عُرجًا؛ وحتّى في الشريعة القديمة، كانوا يسلكون في تقاليدِهم لا في أحكام الربّ. كانوا يعتبرون عدم غسل الأيدي للطعام تعدّيًا على الناموس (متّى ١٥ : ٢)؛ تلك كانت، في الحقيقة، الطريق التّي خطّوها لأنفسِهم، والتي داستها طولُ العادة، وهي بعيدة كلّ البعد عن طريق أحكام الربّ.

٤٧ - «حيٌّ الربّ، وتبارَكَ إلهي» (١٧ : ٤٧). «حياة الجسد موت» (رومة ٨ : ٦)، لأنّ الربّ حيّ، ومباركٌ إلهي. «تعالى إله خلاصي». لا يكن فيَّ في إلهي أفكارٌ أرضيّة، ولأرجوَنَّ منه أمورًا سماويّة، لا خلاصًا زمنيًّا.

٤٨ - «أنت يا ربّ تنتقم لي وتُخضِع لي الشعوب» (١٧ : ٤٨) إنتقامٌ منك لي يا ربّ أن تُخضِعهم تحت نيري. «وتُنجّيني من غضب أعدائي»، من أولئك اليهود الذين يصرخون: «اصلبهُ، اصلِبهُ» (يوحنّا ١٩ : ٦)

٤٩ - «ترفعني فوق القائمين عليَّ» (١٧ : ٤٩): ترفعني بالقيامة فوق اليهود الذين يسخرون من آلامي. «من رجل الظلم تُنقذُني»، من جور سلطانِهِم.

٥٠ - «لذلك أباركك يا ربّ بين الأمم» (١٧ : ٥٠). بي يا ربّ يباركك الشعوب إلهًا لهم. «وأرنّم لاسمك»: أعمالي الصالحة تذيع اسمك في أقاصي المعمورة.

٥١ - «يُعظّم خلاص الملك الذي اختارَه» (١٧ : ٥١). الله هو الذي جعلنا نُعجَب بطرق الخلاص تلك التي يهبُها ابنه للذين يؤمنون به. «صنع الرحمة إلى مسيحِه». الله هو الذي صنع رحمةً إلى الذي مسحه بالدّهن، «إلى داود وذريّتِه إلى الأبد»، إلى ذلك المحرّر الذي غلبت يدُه القديرة العالَم، وإلى أولئك الذي وَلَدَهم إلى الأبد بإيمانِهم بالإنجيل. إنّ كلمات هذا المزمور، التي لا يُمكن أن تُنسَب إلى يسوع المسيح، أو إلى رأس الكنيسة، ينبغي أن تُنسَب إلى الكنيسة نفسِها. هذه الكلمات هي من يسوع المسيح بكلّيّتِه، من يسوع المسيح المتّحد بأعضائِه.

عظة أولى في المزمور الثامن عشر

كلمة الله

تحت ستار الرمز، يُعظّم النبيّ الكرازة بالإنجيل، بشارة الكلمة الموكلة إلى الرسل، وبالرسل عمّت الأرض كلَّها، وراحت تعمل في هداية البشر. شرط الإهتداء والتوبة عن الخطايا.

للغاية، مزمور لداود (١٨ : ١)

١ - العنوان معروف: ليس المسيح يسوع هو المتكلّم في هذا المزمور، إنّما هو المقصود فيه.

٢ - «السماوات تُذيع مجد الله» (١٨ : ٢) الإنجيليّون القدّيسون الذين يسكن الله فيهم كما في السموات، يُبشّروننا بمجد يسوع المسيح، أو بالمجد الذي مجّد به الآبَ ابنُه الذي عاش في هذه الدنيا. «والجلَدُ يُخبرُ بأعمال يدَيه» (١٨ : ٢). الجلَد يُخبِر بأعمال الربّ العجيبة. إنّها قوّة الروح القدس التي صارت جَلَدًا وسماء، بعد أن كانت أرضًا ضعيفةً بفعل الخوف.

٣ - «النهارُ يُكلّم النهار» (١٨ : ٣): الروح يكشف للإنسان الروحيّ، وبملئِه، حكمة الله التي لا تحول، **الكلمة** الذي هو الله، وفي الله منذ البدء (يوحنّا ١ : ١). «والليل يُعلِّم الليل». أي أنّ هذا الجسد

المائت الذي ينقل الإيمان إلى الجسديّين، كما لو كانوا في البعيد البعيد، يُبشّرهم بالمعرفة التي تأتي بعد الإيمان.

٤ - «ليس قولٌ ولا كلامٌ لا يُسمَع به صوتُهم» (١٨ : ٤). من ذا لم يسمع أصوات الإنجيليّين وهم يكرزون بالإنجيل بكلّ لغة؟

٥ - «في كلّ الأرض دوّى صوتُهم، وفي أقاصي المسكونة ذاع كلامُهم» (١٨ : ٥).

٦ - «في الشمس نصب خباءَه» (١٨ : ٦). الربّ الذي أتى ليشنَّ حربًا على قوى الضلال الزمنيّة، ويحملَ إلى الأرض سيفًا لا سلامًا (متّى ١٠ : ٣٤)، عرّف بنفسِه في الزمن، حيثُ أظهر سرَّ تجسّدِه الذي كان له بمثابة خيمة عسكريّة. «كان مثل ختنٍ خارجٍ من مخدَعِه». خرج من أحشاء العذراء، حيثُ عقد مع الطبيعة البشريّة زواجًا مقدّسًا. «وكالجبّار انطلق في سبيل رسالتِه». انطلق بقوّتِه، متقدّمًا على جميع الناس بقدرتِه التي لا تُقاس، لا ليقف في سبيلِه، بل ليسير فيه إلى النهاية. «لأنّه لا يقف في طريق الخطأة» (مزمور ١ : ١).

٧ - «من أعلى السموات انطلق» (١٨ : ٧)، ومن الآب أتانا، لا في مجيءٍ مؤقّت بل في جيلٍ أبديّ. «وإلى أقاصي السماء مسيرتُه» (١٨ : ٧). ولأنّه إله كامل، ساوى أباه. «ولا أحد يتفادى حرَّ ناره»، لأنّ **الكلمة** الإلهيَّ الذي صار جسدًا، ولبس ميتتنا لكي يحلّ بيننا (يوحنّا ١ : ١٤)، لم يسمح لأيّ إنسان أن يحتجَّ بظلال الموت، من حيث أنّ الموت نفسَه أحسّ بحرارة **الكلمة**.

٨ - «شريعة الربّ لا عيب فيها، وهي تَهدي النفوس» (١٨ : ٨). شريعة الربّ، إذًا، هي ذاك الذي أتى ليُكمِّل الشريعة لا لينقضَها (متّى ٥ : ١٧). إنّه شريعةٌ نقيّة خالصة، هو الذي لم يرتكب خطيئةً، ولم

ينطق فمه بالكذب (١ بطرس ٢: ٢٢)؛ الذي لا يُرهق النفوس بنير الإستعباد، بل يجتذبهم أحرارًا ليقتدوا به. «شهادة الربّ أمينة، وتهب الحكمة للبسطاء». تلك الشهادة أمينة وصادقة لأنّ أحدًا لا يعرف الآب، إلّا الابن، ومن أراد الابن أن يكشفَه لهم (متّى ١١: ٢٧). ما خفي عن الحكماء وكُشِف للبسطاء، لأنّ الله يُقاوم المتكبّرين ويهب النعمة للمتواضعين (يعقوب ٤: ٦).

٩ - أحكام الربّ مستقيمة، وتُفرح القلب» (١٨: ٩): جميع أحكام الربّ مستقيمة في ذاك الذي لم يُعلّم شيئًا لم يعمله هو نفسُه، لكيما تفرح قلوب الذين يقتدون به فيعملون، لا بخوف العبيد، بعدُ، بل بمحبّة الأحرار. «وصيّة الربّ نيّرة، تُضيء العيون»: تلك الوصيّة النقيّة التي لا يُخفيها حجاب البهارج الجسديّة، تنير عينَي الإنسان الباطنيّ.

١٠ - «خشية الربّ طاهرة، وهي ثابتةٌ إلى دهر الدهور» (١٨: ١٠). خشية الربّ هذه لم تعد تلك التي كانت قصاصًا تحت الشريعة، والتي تخشى ضياع الخيور الزمنيّة التي يُعَدُّ حبُّنا لها زنى؛ بل إنّها خشيةٌ طاهرة، تحمل الكنيسة على تفادي ما يمكن أن يُسيء إلى خَتَنِها، بدراية توازي حبّها له. والحال، فإنّ المحبّة الكاملة لا تُقصي تلك الخشية (١ يوحنّا ٤: ١٨)، التي تثبت إلى الأبد.

١١ - «وأحكام الربّ حقٌّ ومُبرَّرة بذاتِها» (١٨: ١٠): إنّ أحكام الذي لا يدين أحدًا بنفسِه، والذي أعطى الابن الحكم كلَّه (يوحنّا ٥: ٢٢)، هي حقًّا عدلٌ لا يحول. لأنّ الله لا يغشّ، لا في وعيدِه ولا في وعودِه؛ ولا أحد بوسعه أن يُنقِذ الآثم من العذاب، ولا أن يمنع الثواب عن البارّ. «هي أشهى من الذهب والجواهر الثمينة» (١٨: ١١): أي أشهى من الذهب الكثير، أو من الذهب الغالي الثمن. على أنّ أحكام

الربّ أفضل من بهارج هذا العالَم التي يمنعُنا اشتهاؤُها من ابتغاء أحكام الله، بل يجعلنا نخشاها، أو نزدريها، أو لا نؤمن بها. لو كان كلّ مؤمنٍ، بدَورِه، ذهبًا خالصًا أو إبريزًا ثمينًا لا تؤثّرُ فيه نارٌ، ويُكنَز في خزائن الربّ، إذ ذاك يُحبّ أحكام الله فوق محبّتِه نفسَه، ويعمل مشيئة الله، لا مشيئتَه هو. «وأحلى من العسل وقطر الشهاد»: فلتكن النفس المؤمنة ذاك العسل الشهيّ، ولتنتظر، بعد تحرّرِها من خيور الحياة، يومَ وليمة الربّ؛ أو لا تكنْ غيرَ عسلٍ في قفير، متحصّنةً في هذه الحياة من غيرِ أن تلتصق بها، كما العسلُ في الخلايا التي يملأها، بحاجة إلى أن تعصرَها يدُ الله، لا لتَسحقَها، بل لتستخرجَها كالعسل، وتنقلَها من الزمان إلى الأبديّة، فتكون أحكام الله أحلى لها منها، لأنّ أحكام الله أشهى من الشهد والعسل.

١٢ - «وعبدك أيضًا يسترشد بها» (١٨ : ١٢)، ويكون يوم الربّ أشدّ مرارة لمن يزدريها. «وفي حفظِها ثوابٌ عظيم»؛ وهذا الثواب العظيم لا يكون في أيّ مكسب خارجيّ، بل في حفظ وصايا الربّ؛ والثواب عظيمٌ لأنّ حفظَ الوصايا، يحمل الفرح في ذاتِه.

١٣ - «من الذي يتبيَّن زلّاتِه» (١٨ : ١٣). وأيّ حلاوة بوسعنا أن نجد في تلك الزلّات، ونحن بلا فهم؟ وكيف نفهم الزلّات عندما تُظلِم عينَي النفس التي تجعل في الحقيقة لذّاتِها، وتجد أحكام الله حلوةً وتستحِقّ أن تُشتَهى؟ فكما تُعمي الظلمة أبصارَنا، كذلك الخطايا هي غشاوةٌ للنفس، تحجبُ عنها النور فلا تعود تُبصِرها.

١٤ - «نقّني يا ربّ من خفايا نفسي» (١٨ : ١٣). حرّرني يا ربّ من الشهوات التي تختبئ في قلبي. «إعصم عبدَك من خطايا الآخرين» (١٨ : ١٤) فلا يُغوونني. لأنّ الإنسان المطهّر من خطاياه لا يؤخَذ

بخطايا الآخرين. فاعصم من الأهواء الغريبة، لا المتكبّر طالب التحرّر، بل اعصمني أنا عبدَك. «فإن لم تتسلّطْ عليّ أغدو بلا عيب» (١٨ : ١٤): أكون، بالتأكيد، بلا عيب، إن لم تتسلّط عليّ، لا أهوائي ولا أهواء الآخرين. لأنّه ليس من أصلٍ ثالث للخطيئة، بعد ذلك الوسواس الداخليّ الذي أسقط إبليس، وذلك الوسواس الخارجيّ الذي أغوى الإنسان وصار خطيئةً برضاه. «وأطهُرُ من معصية كبيرة». ما عساها تكون تلك المعصية سوى الكبرياء؟ ليس من إثمٍ أعظم من الإنفصال عن الله، لأنّه رأس كبرياء الإنسان (يشوع بن سيراخ ١٠ : ١٤). حقًّا إنّه بلا عيب ذاك البعيد حتّى عن هذه الخطيئة التي هي خطيئتنا الأخيرة حين نتوب إلى الله، مثلما كانت الأولى حين تخلّينا عنه.

١٥ - «ولتكن أقوالُ فمي مرضيّةً لديك، وأفكارُ قلبي أمام وجهِك في كلّ حين» (١٨ : ١٥): لن يعود قلبي فيسعى إلى المجد الباطل في رضا الناس، لأنّي اطّرحت عنّي كلّ كبرياء، وأنت يا ربّ تُبصر القلوب الطاهرة. «أنت أيها الربّ صخرتي وفاديَّ». أنت صخرتي وعوني عندما ألتجئ إليك، وما افتديتني إلّا لكي أمضي إليك. من تجرّأ فعزا إلى حكمتِه ارتدادَه إليك، أو إلى قواه، بلوغَه إلى عزّتِك، لا بدّ من أن يُطرح بعيدًا، لأنّك تقاوم المتكبّرين (يعقوب ٤ : ٦)، وليس ببريءٍ من تلك الخطيئة الكبرى، ولا هو مرضيٌّ في عينَيك، يا ربّ، أنت الذي تفتدينا لكي نتوب إليك، وتعضدَنا لكي نبلغ إلى قربِك.

عظة ثانية في المزمور الثامن عشر

في هذه العظة الثانية يستخلص القدّيس أوغسطينُس النتائج الأدبيّة والعمليّة للعظة الأولى: أوّلًا بخصوص نعمة الله التي ننالُها باستحقاقات يسوع المسيح؛ وثانيًا بخصوص وحدة الكنيسة تجاه الهراطقة ونظرتِها إليهم؛ وثالثًا بخصوص الإستعدادات التي تتطلّبُها منّا التوبة الحقيقيّة.

١ - بعد أن تضرّعنا إلى الربّ لكي يُطهّرَنا من خطايانا التي نجهلُها، وأن يحفظ عبيدَه من خطايا الآخرين، علينا أن نفهم معنى تضرُعاتِنا، لكي نُرنّم بالروح تسابيح الربّ، كبشرٍ عاقلين، لا كعصافير؛ لأنّنا نرى، كلّ يوم، الشحرور والببغاء، والغراب والكناريّ، تتعلّم من الإنسان ترنيم النغم من دون أن تفهمَه. لكنّ الله شاءَ بملء إرادتِه أن يهب الإنسان فهمَ ما يُرنّم. وبألمٍ نرى الكثيرين من المنافقين والفجّار يصدحون بأناشيد تستسيغُها آذانِهم وقلوبُهم الآثمة، لكونِهم لا يجهلون ما يُنشِدون. ذاك أنّهم يعرفون أنّ أناشيدَهم آثمة، ومع ذلك يُردّدونها بابتهاجٍ، كلّما ازداد اهتياجًا ازداد رجسًا، ويحسبون أنفُسَهم أكثر فرحًا كلّماً أمعنوا في الفسق والفجور. أمّا نحن الذين تعلّمنا أن نرنّم في الكنيسة ألحانًا إلهيّة، فعلينا أن نبذل جهدَنا لبلوغ ذلك الكمال الذي صيغ على هذا النحو: «طوبى للشعب الذي يعرف التهليل» (مزمور ٨٨: ١٦). علينا، إذًا، يا أحبّائي، أن ندرس ونفهم، بقلب طاهر، ما رنّمناه جوقًا واحدًا. كلٌّ منّا، في هذا النشيد،

تضرّع إلى الربّ وقال: «نقّني يا ربّ من خفايا نفسي؛ إعصم عبدَك من خطايا الآخرين؛ فإن لم أشعر بسلطانِها أغدو بلا عيب، وأطهُر من معصية كبيرة» (مزمور ١٨ : ١٣، ١٤). ولكي نفهم جيّدًا معنى تلك الكلمات ومحمَلَها، فلنقرأْ سريعًا، بمعونة الله، نصّ المزمور.

٢ - إنّه رمزٌ للمسيح، ونرى ذلك بوضوح في هذه الكلمات: «كان مثل ختَنٍ خارج من مخدَعِه» (١٨ : ٦). مَن يكون العروس سوى ذاك الذي خطبَه النّبيّ إلى عذراء؟ وفي توسّلاتِه العفيفة، يخشى صديق الختن الأمين من أن تتدنّس حواسّ عروس المسيح العذراء، وتنحلّ من العفاف الذي في المسيح، على مثال حواء التي أغوتها الحيّة باحتيالِها (٢ قورنتُس ١١ : ٣). إذًا، في ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح، خزن الله تلك الكنوز، وملءَ النعمة التي قال لنا عنها يوحنّا الرسول: «أبصرنا مجدَه مجدَ وحيدٍ من الآب مملوءًا نعمةً وحقًّا» (يوحنّا ١ : ١٤). ذاك هو المجد الذي تُخبرُ به السماء. فالسموات هي القدّيسون الذين رُفِعوا فوق الأرض، ويحملونَ الربّ؛ على أنّ السماء أخبرت بمجد المسيح على طريقتِها. ومتى أخبرت به؟ - عند ولادة المخلّص، حين أظهرت نجمًا جديدًا لم يكن بعدُ معروفًا. على أنّ ثمّة سمواتٍ أخرى أعظم، قيل عنها في الآية التالية: ««ليس قولٌ ولا كلامٌ لا يُسمَع به صوتُهم. في كلّ الأرض دوّى صوتُهم، وفي أقاصي المسكونة ذاع كلامُهم» (١٨ : ٤، ٥). قولُ مَن وكلام مَن، إن لم يكن مِن السموات؟ ومَن تكون السموات، سوى الرسل؟ هؤلاء الرسل هم الذين يُردّدون التسبيح والشكر لله على النعمة التي وهبَها ليسوع المسيح لكي يغفر الخطايا. «إذ الجميع قد خطئوا، يُعوزُهم مجد الله، فيتبرّرون مجّانًا بدم يسوع المسيح (رومة ٣: ٢٣). وبما أنّ الهبة مجّانيّة، فهي نعمة، لأنّه ما من نعمة إلّا وتكون مجّانيَّة. لم نكن قد أتينا أيّ عمل صالح يستحقّ عطايا

الله، وهو لم يكن ليُنزل بنا مجّانًا أيَّ قِصاص؛ من هنا أنَّ صنائعَه لنا مجّانيّة. في حياتنا الماضية، لم نكن نستحقّ شيئًا غير قِصاصٍ عادل. إذًا، خلّصنا الله، لا لأعمال برٍّ عملناها، بل لرحمتِه بغسل الولادة الجديدة (طيطُس ٣: ٥). ذاك، برأيي، هو مجد الله الذي تُخبِر به السموات. لأنّك لم تأتِ عملًا صالحًا، ومع ذلك نلتَ خيرًا وافرًا. فإذا كان لك نصيبٌ في تلك النعمة التي رنّمت بها السموات، عليك أن تقول للربّ إلهك: «هو إلهي ويتداركني برحمتِه» (مزمور ٥٨: ١١). والحال، فإنّه هو الذي تداركك، وبادر إليك سريعًا، فلم يجد فيكَ صالِحًا. أنت استنزلت قِصاصاتِه بكبريائك، فتداركك بمحو خطاياك. فغدا الخاطئ فيك بارًّا، والآثم مُبرّرًا، والمحكوم بالموت استعاد حقّه في السماء؛ لذلك عليك أن تقول للربّ: «لا لنا، يا ربّ، لا لنا، لكن لاسمِكَ، أعطِ المجدَ» (مزمور ١١٣: ٩). لنقُلْ بصراحة: «لا لنا»، فلمن يُعطيه إن كان يهتمّ لنا؟ لنقُلْ مرّةً بعدُ: «لا لنا، يا ربّ». فلو عاملنا بحسب استحقاقاتِنا، لما وجد لنا غير القِصاص. تمجّد اسمُه، لا اسمنا «لأنّه ما عاملَنا بحسب خطايانا» (مزمور ١٠٢: ١٠). لا لنا، يا ربّ، لا لنا. هذا التكرار يُقوّي الفكرة: «لا لنا، يا ربّ، لا لنا، لكن لاسمِكَ أعطِ المجدَ». هذا ما فهمته السموات التي رنّمت مجد الربّ.

٣ - «والجلَد يُخبرُ بعمل يدَيه» (١٨: ٢). عبارة «يُخبِر بعمل يدَيه» تُعيدُ الكلام عن مجدِ الربّ. ما هي أعمال يدَيه؟ - لا نحسبنَّ مثل كثيرين، أنّ الرب عمل كلّ شيءٍ بالكلمة، فيما صنع الإنسانَ، الخليقة الأكمل، بيدَيه. هذا القول سخيفٌ وبعيدٌ عن الصحّة، لأنّ الله صنعَ كلّ شيءٍ **بكلمتِه**. على الرغم من أنّ الكتاب المقدّس يعرض لنا أعمال الخالق المتعدّدة والمتنوّعة، ويخبرُنا بأنّه خلق الإنسان على صورتِه،

غير أنّ كلّ شيءٍ كان، إنّما **بِكلمتِه** كوِّن، وبغيرِه لم يُكوّن شيءٌ ممّا كُوِّن. أمّا بشأن يدَي الله، فقيل أيضًا: «السموات صنع يدَيك» (مزمور ١٠١: ٢٦)، ولئلّا يختلط علينا الأمر بين سمواتٍ وقدّيسين، يُضيف النبيّ: «هي تزول، وأنت تبقى» (١٠١: ٢٧). إذًا، لا البشر فقط، بل أيضًا السموات التي ستزول، هي صنع يدَي الله الذي قيل إنّ السموات صنع يدَيه. وهذا ما قيل أيضًا عن الأرض: «له البحر وهو صَنَعَه ويداه جبلتا اليَبس» (مزمور ٩٤: ٥). إذًا، إن كان قد صنع السماء بيديه، والأرض بيدَيه، فإنّ الإنسان ليس وحدَه من صنعِ يدَيه. لكنّه إذا كان قد صنع السماء **بِكلمتِه**، والأرض **بِكلمتِه**، فإنّه صنع الإنسان أيضًا **بِكلمتِه**. عملُ **الكلمة** هو عملُ يدَيه، كما أنّ عمل يدَيه هو عمل **كلمتِه**. لا يملك الله، مثلنا، أعضاءً تظهر بها قوّتُه، لأنّه بكلّيّته في كلّ مكان، ولا يحدُّه حدٌّ. وعملُ **كلمتِه** هو عملُ حكمتِه، وعملُ يدَيه عملُ قدرتِه «لأنّ المسيح قوّة الله وحكمة الله» (١ قورنتُس ١: ٢٤)؛ وبه كلّ شيءٍ كان، وبغيرِه لم يُكوَّن شيءٌ ممّا كُوِّن (يوحنّا ١: ٣). السموات، إذًا، أخبرت بمجد الربّ، وتُخبِرُ أيضًا، وستخبِرُ على الدّوام. أجل، إنّها تُرنّم بمجد الربّ، تلك السموات، أو بالأحرى أولئك القدّيسون الذين رُفعوا فوق الأرض، ويحملون الربّ، ويُذيعون أحكامَه ويُهيبون بحكمتِه؛ إنّهم يُخبرون بمجد الربّ الذي خلّصنا على الرغم من عدم استحقاقِنا. وذاك الإبن الأصغر الذي يعضّه الجوع يعرف عدم استحقاقِنا. أي أنّه يعرف المجد الذي لا نستحقّه. ويعرفُه ذاك الشابّ الذي تركَ أباه وسافر إلى بلادٍ بعيدة ليعبد الشياطين ويرعى الخنازير؛ يعرف مجد الله، لكن فقط عندما يعضّه الجوع. ولمّا كان ذلك المجد قد صَنَع منّا ما لم نكن مستحقّين أن نكون، قال لأبيه: «لست مستحقًّا أن أدعى لك ابنًا» (لوقا ١٥: ٢١). بائسٌ منحه تواضعُه السعادة،

فأظهرَ أنّه يستحقّها، إذ أقرّ بعدم استحقاقِه لها. ذاك هو مجدُ الله الذي تذيعُه السموات، وعملُ يدَيه الذي يُخبرُ به الجَلَد. ذلك الجَلَد هو القلب القويّ، لا القلب الواجف. وتلك الأعمال أُخبِر بها بين الأثمة، بين أعداء الله، بين محبّي العالَم ومضطهِدي الأبرار. أجل، وسط هذا العالَم المسعور؛ لكن، ماذا كان يستطيع العالَمُ المسعور، والجلَدُ هو الذي يُخبر؟ وبمَ يُخبِر الجلَد؟ - «بأعمال يدَيه». وما هي أعمال يدَيه؟ - هي مجد الله الذي خلّصنا وخلقَنا بالأعمال الصالحة (أفسس ٢ : ١٠). لأنّه «به لا بنا» (مزمور ٩٩ : ٣) صرنا بشرًا وأبرارًا، هذا إذا قُيّض لنا أن نكون أبرارًا.

٤ - «النهار يُكلّم النهار، والليل يُعلّم الليل» (١٨ : ٣). ما معنى هذا؟ ربّما كان من السهل علينا أن نفهم، كوضح النهار، جملة «النهار يُكلّم النهار». أمّا جملة «والليل يُعلّم الليل» فإنّها كالليل مظلمة. النهار الذي يُكلّم النهار هو القدّوس الذي يُكلّم القدّيسين، والرسول الذي يُكلّم المؤمنين، والمسيح الذي يُكلّم الرسل ويقول لهم: «أنتم نور العالَم» (متّى ٥ : ١٤). هاك ما يبدو واضحًا وسهلًا على الفهم. لكن، كيف للّيل أن يُعلّم اللّيل؟ بعضهم فهم الجملةَ بحرفيّتِها، ولعلّ هذا هو المعنى الصحيح؛ برأيِهم، إنّ العلم الذي تلقّاه الرسل من يسوع المسيح في حياتِه على الأرض، نقلوه إلى خلفائِهم من جيلٍ إلى جيل. إذًا، النهار يُكلّم النهار، والليلُ الليلَ؛ النهار الأوّل يُكلّم النهار التالي، والليل الأوّل الليلَ الذي يليه؛ لأنّ ذاك التعليم يُبشَّر به في النهار وفي الليل. من اكتفى بهذا التفسير البسيط لا يطلب المزيد. غير أنّ الغموض الذي يكتنف بعض مقاطع الكتب المقدّسة أفادنا لناحية انتاجِ تفاسير كثيرة. فإذا كانت هذه الكلمات واضحة، لما رأينا لها سوى معنى وحيد. ولأنّها مبهَمة، فإنّك أمام معان كثيرة. تفسيرٌ آخر لآية:

«النهار يُكلّم النهار، والليل يُعلّم الليل» يقول بأنّ الروح تُكلّم الروح، والجسد يُعلّم الجسد. ثم إنّ «النهار يُكلّم النهار» قد تعني أنّ الإنسان الروحيّ يُكلّم الذين يسلكون بحسب الروح؛ و«الليل يُعلّم الليل»، أنّ الإنسان الجسديّ يُعلّم الجسديّين. هؤلاء وأولئك يسمعون الكلام نفسَه، لكنّهم لا يستسيغونَه باللذّة عينِها. يراه الروحيّون كِرازةً، والجسديّون عِلمًا يُنشَر. ذاك أنّ الكرازة لا تكون إلّا لأناسٍ حاضرين، أمّا نشر العلم فيكون لبعيدين. وبوسعنا أن نجد لـ«السموات» تفاسير أخرى، لكنّ الوقت اليسير المتبقّي لنا، يُرغمنا على الإكتفاء بما ذكرنا. على أيّ حال، دعنا نُعطي تفسيرًا أعطاه كثيرون كتخمين. قالوا: عندما كان ربّنا يسوع المسيح يُكلّم الرسل، كان النهار يُكلّم النهار؛ وعندما غدر يوضاس بالمسيح، كان الليل يُعلّم الليل.

٥ - «ليس قولٌ ولا كلامٌ لا يُسمع فيه ذلك الصوت» (١٨ : ٤). صوت من يكون سوى صوت السموات التي تُخبِر بمجد الربّ؟ إقرأ في أعمال الرسل كيف أنّهم امتلأوا من الروح القدس الذي حلّ عليهم وكيف راحوا ينطقون بجميع الألسنة كما آتاهم الروح أن ينطقوا (أعمال ٢ : ٤). هاك، إذًا، كيف أنّه «ليس قولٌ ولا كلامٌ لا يُسمع فيه ذلك الصوت». ولم يُدوِّ صوتهم فقط في المكان الذي حلّ فيه الروح عليهِم، بل طاف في الأرض كلّها، وكرازتهم لم تتوقّف حتّى أقاصي المسكونة. لذلك نحن الآن نكرز. لأنّ ذلك الصوت الذي طاف في الأرض كلِّها، وصل إلينا، وكلام الهراطقة لا يدخلُ الكنيسة. وهذا الصوت طاف في الأرض كلّها لكي يدفعنا للدخول إلى السماء. أيّها الخبيث الفاسد الشرّير، المتلذّذ بحمأة الضلال! أيّها الابن المتكبّر! أصغِ إلى وصيّة أبيك! أنظر! أيّ شيءٍ اشدّ وضوحًا وجلاءً؟ «طاف صوتهم في الأرض كلّها وكلامُهم تردَّد حتّى أقاصي المعمورة» هل من

حاجةٍ بعدُ إلى إيضاح؟ لِمَ ترتدُّ قواك عليك؟ تُريد أن تعترض لكي تستأثر بالجزء، فيما السلام يُملّكُك الكلّ.

٦ - «في الشمس نصبَ خباءَه» (١٨ : ٥): أسّس كنيستَه وأظهرَها للعيان في ضوء النهار لا في الظلمة، لا في الخفاء والستر، لئلّا تتوارى مثل جماعات الهراطقة. قيل للخاطئ في الكتاب المقدّس: «لأنّك خطئت في السرّ، تُعاقَب في وضح النهار» (٢ صموئيل ١٢ : ١٢): أي أنّ القِصاص سيُنزلُ بك أمام عيون الجميع بسببِ الخطيئة التي ارتكبتَها في السرّ. ولهذا نصب في الشمس خباءَه. فلِمَ، إذًا، يا ابن الهرطقة تتوارى في الظلمة؟ أمسيحيٌّ أنت؟ فاسمع ليسوع المسيح. أعبدٌ أنت؟ فاسمع للسيّد. أو ابنٌ؟ فاسمع لأبيك. أصلح نفسَك وعُدْ إلى الحياة، لكي نستطيع أن نقول لك: كان ميتًا فعاش، وضالًّا فوُجِد (لوقا ١٥ : ٣٢). حذارِ أن تقول لي: لِمَ تبحث عنّي إن كنتَ ضالًّا؟ - لأنّك ضالٌّ أبحث عنك. لعلّه يقول: لا تبحث بعدُ عنّي. تلك هي أمنية الإثم الذي يُفرّقُنا، لا المحبّة التي تجعلُنا إخوة. لا أكون آثمًا إذا بحثت عن خادم، أفأُجرَّم إن بحثت عن أخي؟ فليغضَب، إذًا، ولن نوقِف البحث عنه، فسيستكين عندما نجدُه. إذًا، أبحثُ عن أخي، وأدعو الربّ إلهي، لخيرِه لا لويلِه. ولن تكون صلاتي: «قل يا ربّ لأخي أن يُقاسمني الميراث»، بل «قل لأخي أن يتنعّم معي في الميراث كلّه» (راجع لوقا ١٢ : ١٣). فلِمَ ضلالُك هذا يا أخي؟ لمَ الهربُ إلى أماكن بعيدة؟ لِمَ تبذل كلّ هذا الجهد لتتوارى؟ «نصب الله خباءه في الشمس، وهو كالختَن الخارج من مخدَعِه» (١٨ : ٦). لا شكّ في أنّك لا تجهل «ذاك الختن الخارج من مخدعِه المنطلق كالجبّار في سبيل رسالتِه». إنّه هو الذي نصب في الشمس خباءَه. أي أنّ **الكلمة** الذي صار جسدًا، وجدَ، كالختَن، مخدعًا في حشا عذراء، وعندما اتّحد بالطبيعة

البشريّة، خرج كمن يخرج من مخدعٍ طاهر، أكثر اتّضاعًا من الجميع في رحمتِه، وأقوى من الجميع في جلالِه، وكالجبّار انطلق في رسالتِه، فوُلِد وكبُر وعلّم وتألّم وقامَ وصعد إلى السماء، وعلى هذا النحو، مشى ولم يتوقّف في الطريق. والختن إيّاه الذي مشى طريقَه هذه، هو الذي نصب في الشمس خباءَه، أي في العلن كنيستَه.

٧ - أتريدون أن تعرفوا تلك الطريق التي اجتازها بهذه السرعة الفائقة؟ «من أعلى السموات نزل، لكي يعود فيصعد إلى ذروتِها (١٨ : ٧). لكن بعد أن نزل منها وعاد إليها سريعًا، أرسل روحَه. «وظهرت لهم ألسنة كأنّها من نار، فاستقرّت على كلّ واحدٍ منهم» (أعمال ٢ : ٣). حلّ الروح القدس بشبه ألسنة من نار تأكلُ الجسدَ مثل قشٍّ يابس، وتُطهّرُ الذهب في البوتقة. حلّ الروح بشبه نار، لا يستطيع أحدٌ أن ينجُوَ من لظاها.

٨ - «شريعة الربّ نقيّة، تَهدي النفس»: هذا هو الروح القدس. «وشهادة الربّ صادقة تهب الجاهلَ الحكمة» (١٨ : ٨)، لا العظماء. ذاك، أيضًا، هو الروح القدس.

٩ - «أحكام الربّ مستقيمة» تحمل الفرح إلى القلب، لا الخوف. ذاك هو عمل الروح القدس. «وصيّة الربّ مُشعّة، تنير العيون» (١٨ : ٩)، ولا تبهرُها؛ لا عيون الجسد، بل عيون القلب؛ لا عيون الإنسان الخارجيّ، بل عيون الإنسان الروحيّ. ذاك هو أيضًا فعل الروح القدس.

١٠ - «خشية الربّ طاهرةٌ لا ذليلة»: تُحبّ مجّانًا ما تخشاه؛ لا تخشى قصاص الذي تهابُه، بل فراق الذي تُحبّه. تلك هي الخشية الطاهرة التي لا تتوارى أمام المحبّة الكاملة (يوحنّا ٤ : ١٨)، بل التي

«تستمرّ ثابتة إلى دهر الدهور». ذاك هو الروح القدس، أو بالأحرى، الروح القدس هو الذي يهبُها، ويُفيضُها في النفوس ويزرعها فينا. «أحكام الربّ حقٌّ ومبرَّرة بذاتِها» (١٨: ١٠)، لا تحملُ على المنازعات، بل على الوحدة في السلام، وهذا معنى أنّها «مبرَّرة بذاتِها». ذاك هو أيضًا فعل الروح القدس. فالذين اقتبلوه لدى حلولِه الأوّل، اقتبلوا أيضًا موهبة الألسنة، ما يُبرهن لنا أنّ الروح يعود فيوحِّدُ كلّ ألسنة الأرض. وحدة الكنيسة تنطق بكلّ اللغات، وتواصل اليوم معجزة إنسانٍ واحد كان ينطق يومَها بلغة الجميع، بعد أن اقتبل الروح القدس. واليوم، إنسانٌ واحدٌ أيضًا يُكلّم الأمم كلّها بكلّ اللغات. إنسانٌ واحد، رأسٌ واحدٌ، هو المسيح، وجسدٌ واحدٌ هو الكنيسة، الإنسان الكامل، الختن وعروسه. «ويصير الإثنان جسدًا واحدًا» (تكوين ٢: ٢٤)، يقول الكتاب. «أحكام الربّ حقٌّ ومبرَّرة بذاتِها»، بسبب الوحدة.

١١ - «هي أشهى من الذهب والجواهر الثمينة» (١٨: ١١). أي إمّا أشهى من الذهب الكثير، أو أنّها ثمينة جدًّا، أو شهيّةٌ جدًّا؛ لكنّ الكثير قليلٌ على الهرطوقيّ. لا يرغبون في الوحدة معنا، ومعنا يعترفون بالمسيح. لكنّ ذاك المسيح الذي تُشاركُني الاعترافَ به، أَحِبَّه! شارِكْني حبَّه! والذي لا يريد الوحدة ويرفض ويرفُس ويزدري، لا يؤمن بأنّها أشهى من الذهب والجواهر الثمينة. إسمع ما يقول النبيّ أيضًا: «وأحلى من العسل وقطرِ الشهاد». وهذا يدين الضالّ. ليس أمرَّ من العسل على فمٍ محموم، ولا أحلى منه على فم سليم، لأنّه عزيزٌ على الإنسان السليم. إذًا، أحكام الله «أشهى من الذهب والجواهر الثمينة، وأحلى من العسل وقطرِ الشهاد».

١٢ - «وعبدك أيضًا يعمل بها»، ويتبيّن حلاوتَها، لا بالكلام، بل

بالفعل. عبدُك يعمل بها لأنّ مذاقها حلوٌ في هذه الحياة، ونافعٌ للحياة الأخرى. «وله في حفظِها ثوابٌ عظيم» (١٨: ١٢). لكنّ المهرطق الخاضع لتصلّبِه لا يسعُه أن يتنعّم برؤية نورِها ولا أن يتذوّق حلاوتَها.

١٣ - «من الذي يتبيَّن زلّاتِه؟» - إغفر لهم يا أبتاه لأنّهم لا يعرفون ماذا يفعلون (لوقا ٢٣: ٣٤). هذا هو، يقول النبيّ، عبدُك الذي بوسعه أن يتذوّق حلاوةً كهذه، الذي يملك في قلبه رقّة المحبّة، محبّة الوحدة. وأنا الذي أتذوّقها، يُتابع النبيّ، أتوسّل إليك أن تقول لي، من ذا الذي يتبيَّن زلّاتِه؟ إجعلْ ألّا يتسلّل إليّ، أنا الإنسان، أيّ ضعفٍ، وألّا أُغوى. «نقّني ياربّ من الخطايا التي تخفى عليَّ» (١٨: ١٣). سبق أن رنّمنا هذا النشيد، وسنصل إليه في شرحِنا. ولنقُلْ إذًا بوعي: «لنرنّمَنَّ بفهم، ولنسألنَّ الربَّ بالإنشاد، لكيما تُستجاب صلاتُنا؛ ولنقُلْ: «نقّنا يا ربّ من الخطايا التي تخفى علينا». من الذي يتبيَّن زلّاتِه؟ لا نتبيَّنُها إلّا إذا تبيَّنّا الظلمات، ولن نصير في النور إلّا عندما نتوب عن خطايانا. الإنسان المتمرّغ في الخطيئة، يستحيل عليه أن يرى تلك الخطيئة، لشدّة ما اسودّت عيناه وأظلمتا؛ فإنّكم إذا وُضعَ على عينَي جسدِكم حجابٌ، لن تعودوا ترَون شيئًا ولا الحجاب نفسَه. فلنُخاطبنَّ الله الذي يعرف أن يرى فينا ما ينبغي تنقِيَتُه، وأن يشفي ما ينبغي شفاؤُه، ولنقُل له: «نقّني ياربّ من الخطايا التي تخفى عليَّ، واعصم عبدَك من خطايا الآخرين» (١٨: ١٣، ١٤). يقول: خطاياي تُدنّسُني، وخطايا الآخرين تغمُّني؛ إعصمني من هذه، ونقّني من تلك. إنزع من قلبي كلّ فكرٍ آثم، وأبعِد عنّي ما يوحيّ بالشرّ. هذا ما تعنيه عبارة «نقّني ياربّ من الخطايا التي تخفى عليَّ، واعصم عبدَك من خطايا الآخرين». هذان النوعان من الخطايا هما اللذان ظهرا، أوّلًا،

في بداية العالَم: خطايانا، وخطايا الآخرين. إبليسُ سقط بخطيئتِه هو، وآدم سقط بخطيئة آخر. من هنا أنّ عبدَ الله الذي يحفظ أحكام الله ويجد فيها ثوابًا عظيمًا، يُصلّي هكذا في مزمورٍ آخر: «لا تَصِلْ إليّ قدَمُ المتكبِّر، ولا تُزحزحْني يدُ الخاطئ» (٣٥: ١٢). إذًا، «لا تدخُلَنَّ الكبرياء قلبي»، أي نقّني من خطاياي الخفيَّة؛ «ولا تُزحزحْني يد الخاطئ» أي إعصم عبدَك من خطايا الآخرين.

١٤ - «فلا تتسلّط عليَّ» خطاياي الخفيّة وخطايا الآخرين، «حينئذٍ أزكو وأطهُر». لا يجرؤ أن ينال مطلبَه بقوّتِه الذاتيّة، بل يلتمِس من الله أن يُنيلَه إيّاه، ويقول له في مزمورٍ آخر: «ثبّت خطواتي في أقوالِك، ولا تسمحْ بأن يتسلّط عليّ الإثم» (١١٨: ١٣٣). أنت مسيحيٌّ، فاحترز، إذًا، ألّا يتسلّط عليك إنسانٌ، واخشَ الله في كلّ حين. إخشَ أهواءَك، أي الشرّ الذي فيك؛ لا ما صنعه الربّ بك، بل ما صنعتَه أنت بنفسِك. خلقك الربّ عبدًا صالحًا، وأنت صنعت لك في قلبِك ربًّا شرّيرًا. بالعدل خضعت للإثم، وخضعت للسيّد الذي سلَّطْتَه على نفسِك، لأنّك لم تشأ أن تعبد الذي خلقَك.

١٥ - فإن لم أعُد عبدًا لطغيانِهم، «حينئذٍ أزكو وأطهُر من معصيةٍ كبيرة» (١٨: ١٤). أتعرفون من أيّة معصية؟ وما هي تلك الخطيئة الكبرى؟ يمكن ألّا تكون ما سأقولُه، لكنّني لن أكتم رأيي. برأيي، تلك المعصية الكبيرة هي الكبرياء. ولعلّ هذا ما يُعبِّر عنه بكلماتٍ أخرى فيقول: «أزكو وأطهُر من معصيةٍ كبرى». أتسألونني كم هي كبيرةٌ المعصية التي أسقطت الملاك، والتي حوّلت الملاك إلى شيطان، وأغلقت بوجهِه، إلى الأبد، ملكوت السموات؟ تلك هي المعصية الكبرى، أصل المعاصي كلّها. لأنّه كُتِب: «الكبرياء أوّل الخطايا»

(يشوع بن سيراخ ١٠ : ١٥). ولئلّا ننظر إليها كخطيئةٍ صُغرى، يُضيف الكتاب: «أوّلُ كبرياء الإنسان ارتدادُه عن الرّب (يشوع بن سيراخ ١٠ : ١٤). لا يا إخوتي، هذه المعصية ليست خطيئة صُغرى. هذه المعصية يأنفُ منها التواضع المسيحيّ، لدى هؤلاء الأشخاص الكبار الذين ترَونَهم. هذه المعصية هي التي تجعلُهم يأبَون أن يُحنوا أعناق رؤوسِهم لنير المسيح، أولئك المستعبَدين لنير الخطيئة، لأنّهم لا يقوَون على التحرّر من العبوديّة، ويرغبون في التحرُّر، في وقتٍ يرون في العبوديّة فائدةً لهم. ما يكسبونه في السعي إلى التحرّر هو رفض خدمة سيّدٍ صالِح، لا الانعتاق الكلّيّ؛ لأنّنا عندما نأبى أن نكون عبيدًا للمحبّة، نصيرُ بالضرورة عبيدًا للخطيئة. وهذه المعصية نستطيع أن نُسمّيَها أصل جميع الخطايا الأخرى، لأنّها جميعها نابعةٌ منها، وهي التي حملتنا على إنكار الله. والنفس، باستخدامِها السيّء لحرّيّتِها، تغرق في الظلمات، لكثرة الخطايا التي تُثقِل كاهلَها. فها هو يعيش في الضلال، يُبذّر ثرواتِه مع الغواني، ويغدو راعيًا للخنازير (لوقا ١٥ : ١٣-١٦)، ذاك الذي كان في صحبة الملائكة. بسبب تلك المعصية، بسبب خطيئة الكبرياء الكبيرة، اتّضع الله وصار إنسانًا. ذاك هو السبب، وذاك هو الجرح العميق، وذاك هو سقم النفوس الأعظم، الذي حمل الطبيب الكلّي القدرة على النزول من السماء، والاتّضاع في صورة العبد، وأذلّه، وعلّقه على خشبة لكيما تشفى تلك الآفة العظمى بذاك الدواء الناجع العظيم. ألا فليخجل الإنسان من كبريائِه، إذ يرى أنّ الله من أجلِه اتّضَع. إذ ذاك، يقول النبيّ: «أزكو وأطهر من معصيةٍ كبيرة» أمام «الله الذي يُقاوم المتكبّرين ويؤتي المتواضعين نعمة» (يعقوب ٤ : ٦؛ ١ بطرس ٥ : ٥).

١٦ - «فتطيب لك كلمات فمي، وتصير أفكار قلبي مرضيّة لديك

في كلّ حين» (١٨ : ١٥). لأنّي إن لم أطهُر من تلك المعصية الكبرى، تكون كلماتي مَرضيّة لدى الناس، لا لديك؛ لأنّ النفس المتعالية تتوسّل رضى الناس، لكنّ النفس المتواضعة، حقًّا، تُريد أن تكون مَرضيّة في ذلك السر الذي لا يُدرك كنهَه غير الله وحدَه. وإذا حدث أن أرضت الناس ببعض الأعمال الصالحة، فإنّها تفرح لرضى الناس لا لرضى ذاتيّ. ينبغي أن ترضى بأنّها فعلت خيرًا. يقول الرسول: «فخرُنا هو شهادة ضميرِنا» (٢ قورنتس ١ : ١٢) فلنُرنّم، إذًا، لله هذا النشيد: «أيّها الربّ أنت عوني وفاديَّ». ناصري أنت على الخير ومخلّصي من الشرّ. أنت عوني لكي أثبت في المحبّة؛ وفاديَّ لأنّك افتديتني من الإثم.

عظة في المزمور التاسع عشر

المسيح في آلامه

هذا المزمور هو نشيد القيامة، مجد يسوع المسيح المنتصر على اليهود أعدائِه، والصائر شفيعًا لنا في السماء.

للغاية، مزمور لإمام الغناء داود (١٩ : ١)

١ - العنوان معروف، ليس المسيح هو المتكلّم، بل النبي هو الذي يُخاطب المسيح، والذي يُنشد المستقبَل على شكل أمنية.

٢ - «ليستجب لك الربّ في يوم الضِيق» (١٩ : ٢). ليستجِب لك يوم قلت له: «يا أبتِ مجِّدِ ابنَك» (يوحنّا ١٧ : ١). ليحفظْكَ اسمُ إله يعقوب، لأنّ الأصغر في الشعبَين ينتمي إليك، من حيث أنّ الأكبر يُستَعبَد للأصغر (تكوين ٢٥ : ٢٣).

٣ - «ليحفظْكَ الربّ من أعالي قدسِه، ويعضدْكَ من صهيون» (١٩ : ٣)، بتقديسه جسدَك السرّيّ، أي الكنيسة، التي تجدُ أمانَها في تأمّلِك، وتنتظر عودتَك من العرس.

٤ - «ليذكُر جميع ذبائحِك. سلاه». (١٩ : ٤). لا يسمَح بأن ننسى العذاب والإهانات التي احتملتَها من أجلِنا. «وليُطيّبْ عرفَ محرقاتِك». وليتحوّل عذاب الصليب الذي قرّبت نفسك بكلّيّتِك عليه لله، إلى فرح القيامة.

٥ - «ليُعطِك الربّ على حسب قلبِك» (١٩ : ٥). ليستجِب لك الربّ، لا على حسب رغبات مضطهِديك الذين أرادوا أن يبيدوك، بل على حسب قلبك الذي يعرف ثمار آلامِك (يوحنّا ١٢ : ٣٢). «وليُتِمّ كلّ مخطّطٍ لك». لا فقط ذلك المخطّط الذي دفعك إلى بذل حياتِك عن أحبّائِك (يوحنّا ١٥ : ١٣)، لكي تموت حبّة الحنطة فتُنبت سنابل وافرة (يوحنّا ١٢ : ٢٤-٢٥)، بل أيضًا المخطّط الذي به حصل عمى لجانبٍ من إسرائيل من أجل أن يدخلَ ملءُ الأمم، ويخلص جميع إسرائيل (رومة ١١ : ٢٥، ٢٦).

٦ - «نُرنّم بخلاصِك» (١٩ : ٦). نرنّم بعجز الموت عن غلبتِك، لأنّك بهذا تُبيّن لنا أنّه عاجزٌ عن أذيّتِنا. «ونجد مجدَنا في اسمِك»، فالإعتراف باسمك يقودنا إلى المجد لا إلى الهلاك.

٧ - «ليستجِب لك الربّ كلّ سؤلِك» (١٩ : ٦). لا صلواتك التي رفعتَها إليه في الأرض فحسب، بل أيضًا الصلوات التي ترفعها إليه لأجلِنا في السماء. «الآن علمتُ أنّ الربَّ خلّص مسيحَه» (١٩ : ٧). روح النبوّة أخبرني بأنّ الربّ يُقيم مسيحَه. «يستجيب له من سماء قدسِه». يستجيب له، لا حين يسأل أن يُمجَّد على الأرض (يوحنّا ١٧ : ١)، بل عندما يشفع بنا في السماء، عن يمين أبيه (عبرانيين ٧: ٢٥)، ويُفيض الروح القدس على جميع الذين يؤمنون به (راجع أعمال ٢). «وبيمينه قوّة خلاص». تكون قوّتُنا في نعمِه الخلاصيّة يوم يبلونا بالمحن، فنقوى متى نكون ضعفاء (٢ قورنتس ١٢ : ١٠). ذاك أنّ خلاص البشر باطل (مزمور ٥٩ : ١٣)، إذا أتى من يسار الله لا من يمينِه، من حيث أنّ جميع الخطأة الذين يرَون خلاصَهم في الخيور الزمنيّة، إنّما ينتفخون بكبرياءٍ مُفرطة.

٨ - «هؤلاء بالعجلات، وهؤلاء بالخيل» (١٩ : ٨). ينزلق بعضهم في متاهات الثروة المتتالية، ويتباهى بعضُهم بمناصبِهم، ويجعلون فيها سعادتَهم. «أمّا نحن ففرحُنا بذكر اسم الربّ إلهنا» (١٩ : ٨). رجاؤنا نحن في الخيور الأبديّة، لا نطلب مجدَنا بل نبتهِج بذكر اسم الربّ إلهِنا.

٩ - «هم اضطربوا وسقطوا» (١٩ : ٩). كبّلَهم حُبُّ الخيور الزمنيّة، فخافوا أن يستحوِذَ الرومان على مدينتِهم، إن هم تركوا ابن الله حيًّا (يوحنّا ١١ : ٤٨)، وإذ عثروا بحجر العثار (رومة ٩ : ٣٢)، فقدوا رجاء السماء. سقطوا في العمى الذي ضرب جانبًا من إسرائيل (رومة ١١ : ٢٥)، وإذ أرادوا أن يُقيموا بِرَّهم تجاهلوا برَّ الله (رومة ١٠ : ٣). أمّا نحنُ، شعوبَ الأمم، فكنّا حجارة، وجعلَنا الله أبناءً لإبراهيم (متّى ٣ : ٩). لم نسعَ في طلبِ البرّ، فنلنا البِرّ (رومة ٩ : ٣٠) ورُفِعنا، لا بقوّتنا الذاتيّة، بل بالإيمان الذي برَّرَنا.

١٠ - «يا ربّ، خلِّصِ الملِك» (١٩ : ١٠) حتّى إذا ما علّمتنا بآلامِه القتال، قرّبَ أيضًا ذبائحنا، بعد قيامتِه من بين الأموات وجلوسِه في السموات. «استجِب لنا يوم ندعوك». وبما أنّه سيغدو شفيعَنا، فستستجيب لنا عندما نلتمِسُك.

عظة في المزمور العشرين

إنتقام الآلام

يبدو موضوع هذا المزمور شبيهًا بالمزمور السابق، وبتطبيقِه على يسوع المسيح نرى، بسهولة، مجد القيامة والصعود الذي يُعوّض مهانة الجلجلة.

للغاية، لإمام الغناء، مزمور لداود. (٢٠ : ١)

١ - العنوان بات معروفًا: النبيّ يُنشِد يسوع المسيح.

٢ - «يا ربّ بقوّتِك يفرحُ الملك» (٢٠ : ٢) يا ربّ، إنّ المسيح الإنسان يفرح بتلك القوّة التي ألبستِ **الكلمة** الأزليّ جسدًا. «وبخلاصِك يبتهج ويُهلّل» (٢٠ : ٢). يجدُ فرحَه في تلك القوّة التي تهب الحياة لكلّ خليقة.

٣ - «أعطيتَه بُغيةَ قلبِه» (٢٠ : ٣)، ابتغى أن يأكلَ الفصح، ويبذل حياتَه ساعة يشاء، ليعود فيستردَّها أيضًا (يوحنّا ١٠ : ١٨)، فأنلتَه بُغيتَه. «ولم تُبطِلِ التماسَ شفتَيه (٢٠ : ٣). قال: «سلامي أستودعكم» (يوحنّا ١٤ : ٢٧). وهكذا كان.

٤ - «تُسبغ عليه بركاتِك العذبة» (٢٠ : ٤). وبتذوّقِه حلاوتَها، لم تخنقه مرارة خطايانا. «سلاه»[1]. «وجعلت على رأسِه إكليلًا من

(١) في سائر الترجمات تأتي «سلاه» بعد الآية الثالثة لا وسط الرابعة.

إبريز». عند بدء كرازتِه، أحطْتَه بتلك الحجارة الكريمة، بتلاميذه الذي طافوا العالَم يُبشّرون به.

٥ - «سألك الحياة فأعطيتَها له» (٢٠ : ٥). وهبتَه القيامة التي سألَها في صلاتِه هذه: «يا أبتاه، مجّدِ ابنَك» (يوحنّا ١٧ : ١). «أعطيتَه طولَ الأيّام إلى الأبد»، مدى دهور هذه الحياة التي تقيس طول عمر كنيستِه، ووهبتَه طولَ الأجيال الأبديّة.

٦ - «مجدُه بخلاصِك عظيم» (٢٠ : ٦). بإقامتِه من بين الأموات جعلتَه في ذورة المجد. «مجدًا وجَلالًا تُلقي عليه». تزيده مجدًا وبهاءً فتُقيمُه في السماء عن يمينِك.

٧ - «عليه تُسبغ بركاتِك الأبديّة» (٢٠ : ٧). وبركاتُك الأبديّة التي تسبغُها عليه «تملأُه فرحًا أمام وجهِك». رؤية وجهك تغمر بفرحٍ لا يوصَف تلك البشريّة القدّوسة التي أعادَها إليك.

٨ - «لأنّ الملك على الربّ يتوكّل»، ذاك الملك الخالي من الكبرياء، المتواضع القلب، يتوكّل على الربّ. «وبرحمة العليّ لا يتزعزع» (٢٠ : ٨): وتلك الرحمة اللامتناهية لن تزعزع التواضع الذي جعلته طائعًا حتّى الموت، موت الصليب.

٩ - «لتظفَر يدُك بجميع أعدائك» (٢٠ : ٩). عندما تأتي لتدينَنا، فلتبسُط سلطانَك، أيّها الملك، على جميع أعدائك، الذين خفي عن فهمِهم، في اتِّضاعِك. «ولا ينجُوَنَّ مبغضوك من يمينِك». فليلْقَ مجدُك، الذي به تجلسُ ديّانًا عن يمين الآب، مبغضيك، يوم الدين، ويُنزل بهم العقاب لأنّهم لم يعرفوه على الأرض.

١٠ - «تُشعِلُهم كتنّور نار». ضميرُ رجسِهم يصير لهم مثل جمرٍ داخليّ. «حين يتجلّى نور وجهِك»، أي عندما تُظهرُ بهاء مجدِك.

«الربّ بغضبِهِ يُرعبُهم، فتأكلهم النار» (٢٠ : ١٠). يُرهبُهم انتقام السماء، فيغدون فريسةً للندم، وتأكلُهم النار الأبديّة.

١١ - «تمحو ثمارَهم من الأرض» تلك الثمار الأرضيّة التي ينبغي أن تمّحي عن وجه الأرض. «وذرّيّتَهم من بين بني البشر» (٢٠ : ١١). أي تُفني أعمالَهم، ولا تُحصي الناسَ الذين تمكّنوا من إغوائِهِم بين الذين دعوتَهم إلى الميراث الأبديّ.

١٢ - «لأنّهم أنزلوا عليك شرورَهم» (٢٠ : ١٢) ذاك هو القصاص الذي تسبّبوا به في سعيهم إلى أن يُحوّلوا عنهم، بموتِك، الشرور التي كانوا ليرهبوها لو كنت ملِكَهم. «ودبّروا مكائد لم يتمكّنوا من تحقيقِها». كانوا يدبّرون تلك المكائد عندما قالوا: «خيرٌ لنا أن يموت رجلٌ واحدٌ عن الكلّ (يوحنّا ١١ : ٥٠). مكيدة لم يتمكّنوا من تحقيقِها لأنّهم ما كانوا يعرفون ماذا يقولون.

١٣ - «تردّهم على أعقابهم» (٢٠ : ١٣)، لأنّك تضعهم وسط الذين تُشيح عنهم بازدراء. «وفي فضلاتِك، تُهيّء وجوهَهم»[٢]:

---

(٢) في العبريّة: בְּמֵיתָרֶיךָ , תְּכוֹנֵן עַל-פְּנֵיהֶם. أي: بأوتار قوسِك تُسدّد عل وجوهِهم. وفي السبعينيّة: ὅτι θήσεις αὐτοὺς νῶτον. ἐν τοῖς περιλοίποις σου ἑτοιμάσεις τὸ πρόσωπον αὐτῶν». أي: تجعلهم يُديرون ظهورَهم، ولكي يتلقّوا ضرباتِك الأخيرة، تُدير وجوههم. وبعضهم نقلَها: «تجعلهم يُديرون ظهورَهم، وفي المرحلة الأخيرة، تُهيّء وجوهَهم»، بمعنى تهيّء وجوههم للضربة الأخيرة. وفي الفولغاتا: Quoniam pones eos dorsum. In reliquiis tuis praeparabis vultum eorum. أي: تجعلهم يُديرون ظهورَهم، وتُهيّء وجوههم لتتلقّى الضربات الباقية. وفي الترجمة العربيّة (دار المشرق ١٩٨٦): «لأنّك تردّهم على قفيِّهم. تُسدّد سهامَك إلى وجوهِهم». وفي نسخة ١٩٨٩ (دار المشرق): «لأنّك تجعلُهم يُولّون الأدبار، وإلى وجوهِهم تُسدّد الأوتار». وفي الترجمة=

وتُخلّف لهم شهواتِهم في مملكةٍ أرضيّة، وتهيّئ لهم خزي وجوهِهم في آلامِك.

١٤ - «إرتفِع يا ربّ بعزّتِك» (٢٠ : ١٤). أنت أيها الربّ الذي لم يعرفوك في اتّضاعِك، ارتفع بعزّتِك التي رأوها هوانًا. «نُشيدُ لجبروتِك، ونُرنّم على القيثار». حبّنا وأعمالُنا الصالحة سوف تُشيد بمعجزاتِك، وسنذيعُها لتُعرَف في الأرض كلّها.

=المسكونيّة: «لأنّه يحملُهم على الفرار حين يرمي وجوههم بسهامِه». وبالفرنسيّة: Tu les verras tourner le dos aussitôt que de tes flèches Tu les viseras en plein visage أي: تراهم يولّون الأدبار حالَما تُسدّد سهامَك عل وجوهِهم. وأيضًا بالفرنسيّة في (La Bible de Jérusalem): Tu leur feras tourner le dos, sur eux Tu ajusteras ton arc. أي تجعلَهم يولّون الأدبار، وتُسدّد قوسَك عليهم.

عظة أولى في المزمور الواحد والعشرين

تفاصيل الآلام

في العظة الأولى هذه، يعرض القدّيس أوغسطينُس معنى كلمات داود في آلام يسوع المسيح: في إهانات اليهود، في الصلب، في تقاسم الثياب؛ ثم يعرض مفاعيل الإفخارستيّا. وفي العظة الثانية، يجتهد، بمواجهة الدوناتيّين، في تبيان المُلك الكلّيّ الجامع ليسوع المسيح، الذي يعملون على شقّه واحتكارِه.

للغاية، لنجدة الصبح، لإمام الغناء داود[١] (٢١ : ١)

١ - للغاية، أي ليسوع المسيح الذي يُرنّم بنفسِه لقيامتِه. صبيحة اليوم الأوّل، بعد السبت، حدثت القيامة (راجع متّى ٢٨ : ١) التي اقتُبِل بها في الحياة الأبديّة وخُلّص من سلطان الموت (رومة ٦ : ٩).

(١) في العبريّة לַמְנַצֵּחַ , עַל-אַיֶּלֶת הַשַּׁחַר ; מִזְמוֹר לְדָוִד. أي: لإمام المغنّين على (لحن) «أيّلة السحر» ومنهم من قال: على آلة موسيقيّة تُسمّى «نجمة الصبح»، إشارة إلى فجر الخلاص. مزمور لداود. وفي السبعينيّة Εἰς τὸ τέλος, ὑπὲρ τῆς ἀντιλήμψεως τῆς ἑωθινῆς. ψαλμὸς τῷ Δαυιδ. أي: للغاية، لنجدة الصبح... ἀντιλήμψεως تعني الإدراك والتمتّع كما تعني النجدة والمعونة وαντιλόπη تعني الظبي أو الأيّل). وفي الفولغاتا: In finem pro susceptione matutina, Psalmus David. أي: للغاية، لنجدة الصبح... (susceptio تعني التعهّد والرعاية والنجدة والمعونة).

المزمور برمّتِه ينطبق على شخص المصلوب، لأنّه يبدأ بكلامٍ يقولُه المخلِّص، عندما صرخ من أعلى الصليب، بصوتٍ عظيم، بصفتِه ممثّلًا للإنسان العتيق الذي لبس جسده المائت، لأنّ إنسانَنا العتيق سُمّر معه على الصليب (رومة ٦ : ٦).

٢ - «إلهي إلهي، أنظر إليّ، لماذا تركتَني بعيدًا عن خلاصِك؟» (٢١ : ٢). لم تنظر إلى نجدتي لأنّ خلاصكَ بعيدٌ عن الخطأة (مزمور ١١٨ : ١٥٥). «صراخ آثامي يدعوك»، لأنّ ذلك الدعاء ما هو بصلاة بارّ، بل دعاء إنسانٍ مُثقَلٍ بالآثام. الذي يُصلّي على الصليب هو، في الحقيقة، الإنسان العتيق الذي لا يعرف لماذا تركه الربّ. أو أيضًا: «صراخ آثامي يحرمني من خلاصِك».

٤ - «وأنت الساكن في قُدسِك، مجدًا لإسرائيل» (٢١ : ٤). تسكن قدس الأقداس،

ولذلك لا تُصغي إلى أدعية الإثم الباطلة. أنت مجدٌ لمن يتأمّلُك، لا لمن طلب مجد نفسِه إذ استطاب الثمرة المحرّمة، فانفتحت عينا جسدِه، وأراد أن يتسلّل ويتوارى من أمام وجهِك (راجع تكوين ٣ : ٧-٨).

٥ - «عليك توكّل آباؤنا» (٢١ : ٥): جميع الأبرار الذين طلبوا مجدَكَ لا مجد أنفسِهم. «توكّلوا فنجّيتَهم».

٦ - «إليك صرخوا فخلّصتَهم» (٢١ : ٦). أسمعوك، لا صراخ الخطايا التي تُبعِد الخلاص، ولهذا نجّيتَهم. «توكّلوا عليك فلم يَخزَوا». لم تُخزِ رجاءهم بك، لأنّهم لم يتوكّلوا على أنفسِهم.

٧ - «أمّا أنا فدودةُ أرضٍ لا إنسان» (٢١ : ٧) أنا الذي لم أعد أنطقُ بآدم، أنا يسوع المسيح، الذي ولدتُ بالجسد من دون زرع بشر،

لكي أكون في البشر، فوق البشر، فلا تزدري، بَعدُ، كبرياءُ البشر هواني. «أنا عارٌ عند البشر ورذالةٌ في رعاع الشعب». ذاك الهوان جعل منّي رذالةً في الناس، حتّى إنّهم قالوا كفرًا وتجديفًا وإهانة: «كن أنت تلميذَه» (يوحنّا ٩: ٢٨)، لفرط ما كان الشعب يزدريني.

٨ - «كلّ الذين يُبصرونني يستهزئون بي» (٢١: ٨). هزأ منّي كلُّ من رآني. «يتكلّمون بشفاهِهم ويهزّون رؤوسَهم». بشفاهِهم لا بقلوبِهم ينطقون.

٩ - يهزأون ويهزّون رؤوسَهم ويقولون: «توكّلَ على الربّ، فليُنجِّه الربّ، وليُنقِذْه، إن كان عزيزًا عليه» (٢١: ٩). تلك كانت كلمات شفاهِهم.

١٠ - «أنت يا ربّ أخرجتني من بطن أمّي» (٢١: ١٠) لم تُخرِجني فقط من حشا عذراء، مثلما يخرج كلّ إنسانٍ من حشا أمّه، بل أخرجتني من بطن تلك الأمّة اليهوديّة، حيثُ لا يزال غارقًا في الظلمات، ولم يُبصِر نور المسيح، ذاك الذي يجعل خلاصَه في حفظ السبت، وفي الختان، وفي سواها من الطقوس. «أنت مُتّكَلي من ثديِ أمّي». أنت يا ربّ رجائي من قبل أن اغتذَيتُ من ثديِ عذراء، وما زلت متّكَلي منذ أن انتزعتني من ثديِ أمّي، منذ أن انتزعتني من حشا المجمَع، لكي تمنع عنّي لبنَ عادةٍ جسديّة.

١١ - «أنت صخرتي منذ أن كنت في حشا أمّي» (٢١: ١١). من حشا ذلك المجمع الذي رماني بدلًا من أن يحملَني. وإن كنت لم أسقط فلأنّك عوني وصخرتي. «من بطن أمّي أنت إلهي». أجل، من بطن أمّي، لأنني، على الرغم من طوق اللحم هذا، كالطفلِ لم أنسَك.

١٢ - «أنت إلهي، فلا تتباعد عنّي. لقد اقترب الضيق» (٢١:

١٢). لأنّك إلهي، لا تتباعد عنّي عند اقتراب الضيق، وقد بات في جسدي. «فليس لي مُعين». من لي معينٌ سواك؟

١٣ - «أحاطت بي عجولٌ كثيرة» (٢١: ١٣). جماعات شعبٍ خليعٍ أحاطت بي. «ثيران قويّةٌ اجتاحتني». ورؤساء ذلك الشعب، اكتنفوني بدورِهم، فرِحين باضطهادي.

١٤ - «فتحوا عليّ أفواهَهم» (٢١: ١٤) أفواههم انطلقت لا بكلمات الكتب المقدّسة، بل بصراخ آثامِهم. «مثل أسدٍ مفترِسٍ زائر». أنا هو فريسة ذلك الأسد، يُمسِك به ويقتادُه ويملأ الجوّ زئيرُه: «اصلبهُ! اصلِبه» (يوحنّا ١٩: ١٥).

١٥ - «كالماء انسكبتُ، وتفكّكت جميع عظامي» (٢١: ١٥). كالماء انسكبتُ عندما صُرِع مُضطهِديَّ؛ وتلاميذي الذين صنعوا قوّة الكنيسة شتّتهم الخوف. «ذاب مثل الشمع قلبي، ذاب في وسط أحشائي». تلك الكلمات التي خصّتني بها الحكمة في الكتب المقدّسة، بقيت غير مفهومة، بقيت كلماتٍ جافّة جامدة خفيّة. لكنّها عندما ذابت كالشمع على وهج نار آلامي، وضُحَت وحُفِرت في ذاكرة كنيستي.

١٦ - «يبست كالخزف قوّتي» (٢١: ١٦). آلامي يبّسَت قواي، لا كالعشب، بل كالخزف الذي تُيبّسُه النار. «لساني لصق بحلقي». أولئك الذين بهم كان عليَّ أن أتكلّم، حفظوا أحكامي في نفوسِهِم. «إلى تراب الموت أحدرتَني»: ألقيتَني بين أيدي الأشرار الذي أُعدّوا للموت، وستكنسُهم الريح عن وجه الأرض.

١٧ - «أحاطت بي كلابٌ لا عدّ لها» (٢١: ١٧). كنت محاطًا بكلاب نابحة، لا باسم الحقيقة، بل باسم التقليد. «زمرة الأشرار طوّقتني. ثقبوا يديّ ورجليَّ». بمسامير ثقبوا يديَّ ورجليَّ.

١٨ - «احصَوا عظامي كلّها» (٢١ : ١٨). أحصَوا عظامي الممدّدة على الصليب، «وهم ينظرون إليّ ويتفرّسون فيَّ». أي بالكراهيّة نفسِها نظروا إليّ وتفرّسوا فيَّ.

١٩ - «اقتسموا ثيابي، وعلى لباسي اقترعوا» (٢١ : ١٩)

٢٠ - «وأنت يا ربّ، لا تتباعَدْ عنّي» (٢١ : ٢٠). أنت يا ربّ أقِمني ولا تتأخّر، لا عند انقضاء العالَم، كسائر الناس. «أسرِع إلى نصرتي»: إرعَني، فلا يقوى أحدٌ على إيذائي.

٢١ - «أنقذ من السيف نفسي» (٢١: ٢١). صُن نفسي من ألسنة الفُرقة. «ووحيدَتي من الكلاب». أي أنقذ كنيستي من هذا الشعب النابح باسم تقاليدِه.

٢٢ - «خلّصني من فم الأسد» ٢١ : ٢٢). خلّصني من ذلك الفم الذي يُقدّم لي مملكةً أرضيّة. «ومن قرون الثيران الوحشيّة أغِثني». صُن تواضُعي من تعالي المتكبّرين الذين يحتكرون التعالي، ولا يقبلون منافسًا.

٢٣ - «سأبشّر باسمك إخوتي» (٢١: ٢٣) باسمك أبشّر المساكين، إخوتي، المتحابّين كما أنا أحببتُهم. «وفي وسط الجماعة أسبّحُك». بفرحٍ أذيعُ مجدَك في كنيستي.

٢٤ - «يا أتقياء الربّ سبّحوه» (٢١: ٢٤). يا من تتقون الربّ لا تطلبوا مجدَكم، بل سبّحوا الربّ. «ويا ذرّيّة يعقوب مجّدوه». مجّدوا الربّ، أنتم يا جميع أبناء الذي مجّدَ بِكرَه.

٢٥ - «ويا ذرّيّة إسرائيل اتّقوه كلّكم» (٢١ : ٢٥). فليتّقِ اللهَ جميع الذين وُلدوا لحياةٍ جديدة، وأُعِدّوا لمعاينة الله. «لأنّه لم يزدرِ ولم

يسترذِل سؤل البائس». لم يُظهر أي ازدراءٍ لصلاة البائس المتواضع، البعيد عن البهارج المبتذَلَة، وازدرى صلاة الخاطئ الذي تصرخ آثامُه إلى الله، ولم يُرِد أن يتخلّى عن هذه الحياة المادّيّة. «ولا حجب وجهَه عنه»، كما فعل عمّن راح يقول: أصرخ إليك فلا تُصغي. أمّا أنا فـ«إذ أصرخ إليه يستجيبُني».

٢٦ - «إياك أريد أن أسبّح» (٢١ : ٢٦). لأنّي لا أطلب مجدي؛ فبِكَ أُمَجَّد أيّها الساكن القدسَ، ولأنّك أنت، مجد إسرائيل، تسمع القدّوس الذي يدعوك. «في جماعتِك العظيمة، أذيعُ مجدَك». في الكنيسة المنتشرة في الأرض أُبارِكُك. «سأوفي بنذوري أمام من يتّقونَ إلهي». سأقدّم سرّ جسدي ودمي للذين يتّقون الربّ.

٢٧ - «سيأكل البائسون ويشبعون» (٢١ : ٢٧). سيأكل أولئك المتواضعون، وبذا يقتدون بي، فلا يشتهون بَعدُ خيور هذا العالَم ولا يخشَون الفقر. «والذين يلتمسون الربّ يُباركونَه». فمن الروح التي يشبعها يفيض التسبيح. «وقلوبهم تحيا إلى الأبد»، لأنّه هو نفسُه قوتُ قلوبنا.

٢٨ - «وتتذكّر الربّ أمم الأرض القصيّة، وترجع إليه» (٢١ : ٢٨). تتذكّره، لأنّ الله كان منسيًّا لدى هذه الشعوب المولودة في الموت، ولا تميل إلّا إلى الخيور الخارجيّة. عندَها ترجع أمم أقاصي الأرض إلى الربّ. «وجميع الشعوب تسجد أمامَ وجهِه». شعوب الأرض قاطبةً يعبدونَه في قلوبِهم.

٢٩ - «لأنّ المُلكَ للربّ، وهو يسودُ على الأمم» (٢١ : ٢٩). الملكُ للرّب لا لعُظماء الأرض، وهو يسود على الأمم.

٣٠ - «كلّ أثرياء الأرض أكلوا وسجدوا» (٢١ : ٣٠). أغنياء

الأرض أكلوا جسد سيّدِهم المتّضِع فعبدوه، على الرغم من أنّهم لم يُشبَعوا كالفقراء الذين اقتدَوا بيسوع المسيح. «وسيجثو أمامَه كلّ الذين يسقطون إلى التراب». الله وحدَه يرى سقوط الذين يتعبون من محاورة السماء، والذين يُفضّلون أن يبسطوا في هذه الدنيا، مظاهر السعادة أمام أعين الناس الذين لا يُبصرون دمارَهم.

٣١ - «ونفسي، بدورِها، لأجلِه تحيا» (٢١ : ٣١). ونفسي التي تبدو ميتةً بنظر الناس، لأنّها تزدري العالَم، ستُخلي ذاتَها لتحيا لله. «وذرّيّتي تخدمه» أي تخدمه أعمالي أو الذين أحملُهم على الإيمان به.

٣٢ - «والجيلُ المُقبِلُ يُكرَّس للربّ» (٢١ : ٣١): مؤمنو العهد الجديد يُكرَّسون لتسبيح الربّ. «ويبشّرون بعدلِه» (٢١ : ٣٢): أي أنّ الإنجيليّين يُبشّرون بعدلِه «الشعب الذي سيولَد، والذي صنعه الربّ»: أي الشعب الذي سيلِدُه الإيمان بالربّ.

عظة ثانية في المزمور الواحد والعشرين

ألقيت في احتفالات الآلام

١ - لا يحقّ لي أن أبقي طيّ الكتمان، وعليكم أنتم أن تسمعوا ما لم يُرِد الربُّ أن يكتمَه في الكتب المقدّسة. آلام الربّ حدثت مرّةً واحدة، ونحن نعرف ذلك. مرّةً واحدة مات المسيح، «البريء عن الأثمة» (١ بطرس ٣: ١٨). نعلم ذلك ونحن على يقينٍ، وإيمانُنا لا يتزعزع، بأنّ «يسوع المسيح الذي قام من بين الأموات، لا يموتُ بعدُ، ولا يسود عليه الموت» (رومة ٦: ٩). هكذا تكلّم القدّيس بولُس. ولئلّا ننسى ما حدث مرّةً، نقيم الذكرى في كلّ سنة. هل هذا يعني أنّ يسوع المسيح يموت في كلّ مرّةٍ نحتفل بالفصح؟ بيدَ أنّ هذه الذكرى السنويّة، تُعيدُ أمام عيونِنا، بشكلٍ من الأشكال، ما حدث مرّةً، وتُحرّك شعورَنا .كما لو انّنا نرى المسيح مهانًا على الصليب، لا لنرذلَه، بل لنؤمن به. فعلى الصليب أُذلَّ؛ واليوم، وهو في السماء، يُعبَدُ. ألم يعُدِ اليومَ مهانًا؟ وهل ما زال علينا أن نصبّ غضَبنا على اليهود الذين استهزأوا به على الصليب، بقدر ما سخروا من ملكوتِه السماويّ؟ من ذا يهزأ بعدُ بالمسيح؟ معاذَ الله أن نجد إلّا واحدًا أو اثنَين أو قلّة تكاد ألّا تُعَدّ! جميع القشّ الذي على بيدره يستهزئ به، والحنطة الجيّدة تنتحب لرؤية الربّ مهانًا. وأنا معكم أريد أن أنتحِب. فها هوذا زمن النحيب. نحن نحتفلُ بآلام المخلّص، وهذا هو زمن النحيب، زمن الدموع،

زمن الإعتراف بالخطايا، وتوسّل الغفران. ومن منّا بوسعِه أن يذرف دموعًا تستحقُّها آلامُه التي لا توصَف؟ لنستمع إلى النبيّ: «من لرأسي بمياه، ولعينيّ بينبوع دموع؟» (إرميا ٩: ١). لا، إنّ ينبوعًا من الدموع أذرفُها من عينَيَّ، لن يكون كافيًا، لرؤية المسيح مهانًا؛ والحقيقة جليّة واضحة، حتّى أنّ أحدًا لا يستطيع أن يقول: ما كنت أعرف. ألِمالك الكون كلّه، نجرؤ فنُقدّم جزءًا من الكون؟ أإلى الجالس عن يمين أبيه نقول: ما الذي تملكه هنا؟ وعِوَضًا عن الأرض كلّها، نُرِيه أفريقيا.

٢ - ماذا تعني الكلمات التي سمعتموها، يا إخوتي؟ ألا ليت بوسعِنا أن نُسطِّرَها بالدموع! من هي تلك المرأة التي جاءته بالطيوب؟ (متّى ٢٦: ٧). إلامَ كانت ترمز؟ أليس إلى الكنيسة؟ وماذا كان يُمثّل الطيب الذي حملته؟ أليس ذلك الطيب العطِر الذي قال عنه الرسول: «في كلّ مكان، نحن نفحة المسيح الطيّبة»؟ (٢ قورنتس ٢: ١٥). بذا يُشير القدّيس بولُس إلى الكنيسة، أي إلى جماعة المؤمنين. وماذا يقول؟ - «نحن في كلّ مكانٍ نفحة المسيح الطيّبة». هذا ما يقولُه القديس بولس عن المؤمنين بأنّهم، في كلّ مكانٍ، رائحة المسيح الطيّبة، وبعدُ، فإنّنا نجدُ من يجرؤ على الإعتراض، ومن يؤّكد بأنّ أفريقيا وحدَها هي الرائحة الطيّبة، وأنّ باقي العالَم لا ينفح غير النتَن. فمن ذا يؤكّد بأنّنا، في كلّ مكان، رائحة المسيح الطيّبة؟ - إنّها الكنيسة. فالكنيسة هي تلك الرائحة الطيّبة التي كانت ترمز إليها قارورة الطيب الذي أُفيضَ على المخلّص. ولنرَ إذا كان المسيح لا يؤكّدُها بنفسِه. إنّه يؤكّدُها عندما نرى أناسًا غيارى على مصالحهم الشخصيّة، لصوصًا وبخلاء، مثل يوضاس الذي قال عن ذاك الطيب: «لِمَ يُتلَف هكذا؟» (متّى ٢٦: ٨). فعندما طلب أن تُباع رائحة المسيح الطيّبة، بماذا أجابَه المخلّص؟ «لماذا تُعنّفون هذه المرأة؟ إنّها صنعت بي صنيعًا

حسنًا» (متّى ٢٦: ١٠). ماذا أضيف على ما أضافَه المخلّص: «حيثما يُكرزُ بهذا الإنجيل في العالَم كلِّه، تُمدَح هذه المرأة بما صنعت» (متّى ٢٦: ١٣). هل ثمّة ما يُضاف على هذا القول أو يُحذَف منه؟ كيف نميل الأذن إلى هؤلاء المُفتَرين؟ أيكون الربّ قد كذب أو أخطأ؟ فليختاروا، وليقولوا لنا إن كانت الحقيقة قد كذبت، أو أنّها وقعت في الضلال. «حيثُما يُكرَز بالإنجيل»، يقول يسوع المسيح. وكما لو أنّهم سألوه: وأين تُراه يُكرز به؟ يُجيب: «في العالَم كلّه». فلنستمع إلى مزمورِنا، ولنرَ إذا كان يتكلّم بالمعنى نفسِه. لنستمع إلى هذا النشيد الحزين، الذي يستحقّ منّا الدموع حتّى ولو أنشدناه أمام صُمّ. أعجَبُ، يا إخوتي، أن يُنشَد هذا المزمور اليوم عندَ الدوناتيّين. أعذروني يا إخوتي إذا كنت أقرّ بدهشتي؛ لكن، يشهدُ عليّ المسيح الرحوم، أنّي أنظر إلى هؤلاء الناس كحجارة، إن هم أصمّوا آذانَهم عن هذه الأمور. كيف يمكن التكلّم بوضوحٍ أكثر حتّى مع الصمّ؟ بوسعنا أن نقرأ في هذا المزمور آلام المسيح بالوضوح الذي نقرأه في الإنجيل، على الرغم من أنّه كُتبَ، لا أعلم بكم من السنين، قبل أن يولَد المسيح من العذراء مريم: كان هو الرسول الذي بشّر بالديّان الآتي. فلنقرأه، إذًا، بقدر ما يُتيحُ الوقت المتبقّي لنا، لا بقدر ما يبتغيه ألمُنا، بل كما سبق أن قُلت، بقدر ما تُتيحه لنا الساعة المتقدّمة.

٣ - «إلهي، إلهي، انظر إليّ، لماذا تركتني؟» (٢١: ٢). إنّها الكلمات نفسُها التي سمعناها على الصليب، عندما صرخ يسوع: «إيلوي! إيلوي!» أي إلهي، إلهي! «لَما شبقتني»؟ أي لماذا تركتني؟ نقل الإنجيليّ هذه الكلمات وقالَ إنّ الربّ صرخ بالعبرانيّة: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟». ماذا كان يُريد الربّ أن يقول؟ فالله لم يتركهُ، لأنّه هو الله، وابن الله هو الله، و**كلمة** الله هو الله. لنستمع، في فصلِه الأوّل،

إلى ذلك الإنجيليّ الذي كان متّكئًا على حضن يسوع، ويُفيض من فيض ما غرفَه من قلبه (راجع يوحنّا ١٣ : ٢٣)؛ لنرَ إذا كان يسوع هو الله. قال: «في البدء كان **الكلمة**، و**الكلمة** كان عند الله، وكان **الكلمة** الله» (يوحنّا ١ : ١)، إنّ **الكلمة** الذي كان الله «صار جسدًا ليحلّ بيننا». ذاك **الكلمة** الذي كان الله وصار جسدًا، هو الذي قالَ وهو مسمّرٌ على الصليب: «إلهي، إلهي، لماذا تركتَني؟». ما الفائدة من مثل هذا الكلام، لو لم نكن نحن أنفُسُنا المسمّرين على الصليب، ولو لم تكن الكنيسة هي جسد المسيح؟ (أفسُس ١ : ٢٣). لِمَ القول: «إلهي، إلهي، انظر إليّ، أفتكون تركتَني؟» إن لم يكن لحثّ انتباهِنا، والقول لنا بشكلٍ من الأشكال: «عنّي يتكلّم هذا المزمور» صُراخ آثامي يُبعِد عنّي الخلاص. أيّ خطيئة اقترف ذاك الذي قيل عنه: «إنّه لم يصنع خطيئةً ولم يوجَد في فمه مكرٌ»؟ (١ بطرس ٢ : ٢٢). كيف يسعُه أن يقول: «آثامي» إن لم يكن يتوسّل مغفرة خطايانا، وشاءَ أن تصير خطايانا خطاياه، لكي يصير بِرُّه بِرَّنا؟

٤ - «إلهي، في النهار أدعو فلا تستجيب، وأدعوك في الليل، فلا جهالة لي» (٢١ : ٤). هكذا يتكلّم عن نفسِه، وعنكم وعنّي؛ لأنّه كان يتكلّم باسم جسده السرّيّ الذي هو الكنيسة. إلّا إذا اعتقدتم، يا إخوتي، أنّ الربّ كان يخشى أن يموت عندما قال: «يا ربّ، إذا كان مُستطاعًا، فلتعبرْ عنّي هذه الكأس» (متّى ٢٦ : ٣٩). ما الجنديّ بأفضل من القائد. «حسبُ العبد أن يكون مثل سيّدِه» (متّى ١٠ : ٢٥). على أنّ القدّيس بولُس، ذاك الجنديّ البطل لدى الملك يسوع، هتف قائلًا: «أشعرُ أنّي محصورٌ من الجانبَين، إذ لي رغبةٌ أن أنحلّ من قيود الجسد لأكون مع المسيح» (فيليبّي ١ : ٢٣). هل سيبتغي الموتَ ليكون مع المسيح، إذا كان المسيح نفسُه يخشى أن يموت؟ مذا يعني ذلك غير أنّه

كان يحمِلُ سُقمَنا في جسدِه، وأنّه تكلّم على هذا النحو باسم المؤمنين الذين سبق أن التحموا بجسدِه السرّيّ، وما زالوا يخشَون الموت؟ من هنا أنّ هذا الدعاء هو دعاء الأعضاء لا الرأس. وهذا ما تعنيه عبارة ««إلهي، في النهار أدعو فلا تستجيب». كثيرون يدعون الربّ في الضيق ولا يُستجابون؛ وذلك إنّما هو لخلاصِهم، لا لأنّهم جهَلَة. سأل بولس أن يُخلَّصَ من مهماز الجسد، فلم يُستَجَب؛ لكنّه سمع هذا الجواب: «حسبُك نعمتي، لأنَّ القوّة تكمُلُ في الوهن» (٢ قورنتس ١٢ : ٩). إذًا، لم يستجِب له الله؛ وهذا الرفض الذي لم يَصِمْهُ بالجهالة، درّبه على الحكمة؛ لأنّ على المرء أن يُدركَ أن الله طبيبٌ، وأنّ الضيق دواءٌ لشفائِنا، لا عقابٌ يؤدّي بنا إلى الدينونة. من أجل بُرئِكم، يُستعملُ الكيّ والبترُ فتصرخون. ويُصمّ الطبيب أذنَيه عن آلامِكم ورغباتِكم، وهدفه الأوحد شفاؤكم.

٥ - «وأنت الساكن في قُدسِك، مجدًا لإسرائيل» (٢١ : ٤). تسكن في الذين قدّستَهمْ، والذين أفهمتَهم أنّك إذا كنت لا تستجيب سؤلَهم، فذلك لخير الذين يدعونَك، وأنّك إن استجبت آخرين فلهلاكِهم. لخير بولُس ردَّ الله دعاءَ بولُس، ولخزي إبليس استجاب الله دعاء إبليس. سأله أن يُجرِّب أيّوب، فكان له ما سأل (أيّوب ١ : ١١). وسأل جوق الشياطين أن يدخل في الخنازير، فسمح له يسوع (متّى ٨ : ٣١). وهكذا استجيب إبليس، ولم يُستَجب بولس. إبليس استُجيب لخزيِه، وبولس لم يُستَجَب لخير خلاصِه. لا لكي تصِمَني بالجهالة، فأنت مجد إسرائيل، الساكنُ في قُدسِك. لِمَ لا تستجيب حتّى أخصّاءَك؟ لكن لِمَ أقول هذا؟ تذكّروا أن تقولوا، في كلّ حين، أمام حشد الجموع، وكثيرون جاؤوا وما اعتادوا أن يأتوا: «الشكر لله». أقول، إذًا، للجميع، إنّ الضيق للمسيحيّ امتحانٌ لا يُحوّلُه عن الربّ.

عندما يكون الإنسان في سعادة خارجيّة، يكون المسيحيّ في تخلٍّ داخليّ. أُضرِمت النارُ في التنّور، وتنّور الصائغِ رمزٌ لسرٍّ عظيم. فيه الذهب، وفيه القشّ، وفيه النار التي تعمل في مكانٍ ضيّق. النارُ هي هي، أمّا فعلُها فمختلِفٌ جدًّا: تُحوّلُ القشّ إلى رماد، وتُصفّي الذهب من شوائبِه. وأولئك الذين يسكن الربّ فيهم يصقلُهم الضيق، وكالذهب يُختبَرون. قد يطلب عدوُّنا إبليس أحدَهم ويحصل عليه من الله؛ أمّا المسيحيّ، سواءٌ ابتُلي بالمرض الجسديّ، أو بخسارة الخيرات، أو بموت الأقرباء، فإنّه يُبقي قلبَه بين يدَي ذلك الذي لا يتخلّى عنه، ولا يبدو أنّه يُصِمّ أذنَيه عن ألمه إلّا ليُصغي إلى دعائِه بالرحمة. إنّ الذي خلقَنا، يعرف ما عليه أن يعمل، ويعرف كيف يُعزّينا ويُشدّدُنا. إنّه لبنّاءٌ ماهر ذاك الذي رفع البنيان، وهو يعرف كيف يُصلحُ ما خربَ منه.

٦ - إسمعوا أيضًا ما قال النبيّ: «عليك توكّل آباؤنا، توكّلوا فنجّيتَهم». (٢١: ٥). لأنّنا قرأنا الكتب، عرفنا كم من الآباء نجّى الله، ولأن شعب إسرائيل توكّل عليه، خلّص من مصر شعب إسرائيل كلّه (خروج ١٢: ٥١). ونجّى الشبّان الثلاثة من نار الأتّون (راجع دانيال ٣)، ونجّى دانيال من جبّ الأسود (راجع دانيال ١٤)، وسوسنّة من شهادة الزور (راجع دانيال ١٣). جميعُهم دعَوهُ، وجميعُهم خُلِّصوا. فهل أخلف مع ابنه إلى درجة ألّا يستجيب إليه على الصليب؟ لماذا لم يُخلَّص على الفور ذاك الذي قال: ««عليك توكّل آباؤنا، توكّلوا فنجّيتَهم»؟

٧ - «أمّا أنا فدودةُ أرضٍ لا إنسان» (٢١: ٧). دودة أرضٍ لا إنسان. الإنسان أيضًا دودة، لكنّ هذا الإنسان دودةٌ لا إنسان. لِمَ ليس إنسانًا؟ لأنّه إله. لماذا اتّضع إلى درجة أن يُسمّي نفسَه دودة؟ أليس لأنّ

الدودة تولَد من الجسدِ بلحظة عينٍ، كما وُلِد المسيح من العذراء مريم؟ هل هو دودة؟ على أي حالٍ فهو ليس بإنسان. لماذا هو دودة؟ - لأنّه مائت، ولأنّه من لحمٍ وُلِد، ولأنّه وُلِد من عذراء من غيرِ زرعِ رجُل. لماذا ليس هو بإنسانٍ؟ لأنّ **الكلمة** كان في البدء، و**الكلمة** كان في الله، و**الكلمة** كان الله (يوحنّا ١ : ١).

٨ - «أنا عارٌ عند البشر ورذالةٌ في رعاع الشعب» (٢١ : ٧). أنظروا كم تألّم. ولكي تستمعوا إلى توجُّهِه الصادق، تأمّلوا أوّلًا آلامَه قبل رواية الآلام، ثمّ فكّروا لأيّ سببٍ كابَدَها. ما هي ثمرة آلامِه؟ آباؤنا توكّلوا عليه فخُلِّصوا من مصر. وكما قلت: كثيرون غيرُهم دعَوْه، ولم يتأخّر في إنقاذِهم وهم في هذه الدنيا، من دون أن ينتظر الحياة الأبديّة. وأيّوب نفسُه الذي سُلِّم إلى الشيطان الذي طلب نفسَه، فكان فريسة القروح والديدان (أيّوب ١ : ١١)، سيستعيد صحّتَه وهو بعدُ حيٌّ، وثرواتٍ ضعفَ ما كان له من قبلُ (أيّوب ٤٢ : ١٠). أمّا المخلّص فقد جُلِد، ولا مُعين؛ بصقوا على وجهِه، ولا معين؛ صُفِع ولا معين؛ رُفِع على الصليب ولا مُنقِذ. فصرخ: «إلهي، إلهي، لماذا تركتَني؟» (متّى ٢٧)، ولا مُعين. لماذا إذًا يا إخوتي؟ لِمَ هذا كلُّه؟ ما ثواب كلّ تلك الآلام؟ كلّ ما قاساه كان فِديةً. ماذا كان بوسعه أن يشتري بثمن هذا القدر من الآلام؟ لنتلُ المزمور ونرَ ما يتضمّن. لنرَ أوّلًا ما الذي كابدَه، ثمّ لماذا كابدَه؛ ولنُدرِك كم هم أعداء المسيح، أولئك الذين يعترفون بالآلام التي قاساها ويسلبونَه الثمن. لنستمِع إلى ذلك كلّه في المزمور، ولنرَ ما الذي عاناه ولأيّ سبب. أحفظوا هاتَين النقطتَين: ما الذي عاناه، ولماذا؟ والآن أشرح ما الذي عاناه، ولا أطيل، فكلمات المزمور أفصح من شرحي. تأمّلوا، أيّها المسيحيّون، ما عاناه الربّ: إنّه «عارٌ عند البشر ورذالةٌ في رعاع الشعب».

٩ - «كلّ الذين يُبصرونني يستهزئون بي، يتكلّمون بشفاهِهم ويهزّون رؤوسَهم» (٢١ : ٨). «توكّل على الربّ، فليُنجّه الربّ، وليُنقِذه، إن كان عزيزًا عليه» (٢١ : ٩). لكن، لماذا تكلّم اليهود هكذا؟ - ذاك لأنّ المسيح صار إنسانًا، فعاملوه كإنسان.

١٠ - لأنّك «أنت أخرجتني من بطن أمّي» (٢١ : ١٠). هل كانوا ليقولوا ما قالوه على **الكلمة** الذي كان في البدء، **الكلمة** الذي كان هو الله؟ لكنّ ذاك **الكلمة** الذي به كلّ شيءٍ كان، ما كان ليُخرَج من الحشا الوالديّ إلّا لأنّ **الكلمة** صار جسدًا، وحلّ بيننا. «لأنّك أخرجتني من بطن أمّي، انت إلهي منذ أن اغتذيت من الثدي». أنت، من قبل الدهور، أبي، لكنّك، منذ أن اغتذيتُ من الثدي، إلهي.

١١ - «من حشا أمّي، أُلقِيتُ على ذراعيك» (٢١ : ١١)، لكي تكونَ متّكَلي الوحيد. هو الإنسان، الإنسان في ضعفِه، **الكلمة** الصائر جسدًا، يتكلّم ويقول: «من بطن أمّي أنت إلهي». لست إلهي من ذاتك؛ من ذاتك أنت أبي؛ وأنت إلهي منذ أن حللتُ في حشا أمّي.

١٢ - «لا تتباعد عنّي فقد اقترب الضيق ولا معين لي» (٢١ : ١٢). أنظُروا كيف تُرِك. فويلٌ لنا إن تَرَكنا، ولا معين لنا.

١٣ - «أحاطت بي عجولٌ لا عدَّ لها وثيرانٌ كثيرةٌ طوّقتني» (٢١ : ١٣). هذا هو الشعب، وهؤلاء هم الرؤساء. الشعب أي العجول التي لا عدَّ لها، والرؤساء أي الثيران القويّة.

١٤ - «أغاروا عليّ وفتحوا أفواهَهم أسُدًا مفترسةً زائرة» (٢١ : ١٤). إسمعوا الزئير في الإنجيل: «إصلبهُ! اصلبهُ!» (يوحنّا ١٩ : ٦).

١٥ - «كالماء انسكبتُ، وتفكّكت جميعُ عظامي» (٢١ : ١٥). يدعو عظامًا التلاميذَ الأشدّاء، لأنّ العظام تصنع صلابة الأجساد. متى

تفكّكت تلك العظام؟ - عندما قال لهم: «ها أنا أرسلُكم خرافًا بين ذئاب» (متّى ١٠: ١٦؛ لوقا ١٠: ٣). إذًا، فكّك تلاميذه الأشدّاء، وكالماء انسكب. المياه المنسكبة تغسلُ وتُروي؛ والمسيح انسكب كالماء، لكي يغسِل رجسَنا ويُروي نفوسَنا. «ذاب كالشمع قلبي، ذاب في وسط أحشائي». هي كنيسته التي يُسمّيها أحشاءَه. كيف صار كالشمع قلبُه؟ - قلبه هو الكتاب المقدَّس، أي الحكمة المدوّنة في الكتب المقدَّسة. كان الكتاب سفرًا مُغلَقًا، لا يُدركُه عقلٌ؛ سُمّر الربّ على الصليب، فانجلى السِفرُ وصار كالشمع الذائب، وتمكّنت من فهمِه العقولُ البسيطة. من هنا أنّ حجاب الهيكل انشقّ (متّى ٢٧: ٥١)، وانجلى ما كان محتجِبًا.

١٦ - «يبست كالخزف قوّتي» (٢١: ١٦). تعبيرٌ رائع للقول بأن اسمي اشتدّ بآلامي. فكما أنّ الخزف يكون ليّنًا قبل أن يمرّ في النار، وصلبًا عندما يخرج منها، كذلك اسم الربّ المزدرى قبل الآلام، خرج من الآلام ممجّدًا. «ولساني لصِق بحلقي». لمّا كان اللسان لا يصلُح إلّا للكلام، فإنّ المخلّص يدعو المبشّرين لسانَه، وقد التصقوا بحنكِه ليستقوا الحكمة من مناهلِها العميقة الخفيّة. «وإلى تراب الموت أحدرتَني».

١٧ - «ها قد أحاطت بي زمرةُ كلاب، وعصابة من الأشرار أحدقت بي». لاحظوا أيضًا ما يقوله الإنجيل: «ثقبوا يديّ ورجليّ». إذ ذاك انفتحت جراحٌ وضع فيها إصبعَه تلميذٌ غير مؤمن. قال: «إن لم أضع إصبعي في جُرح المسامير، لا أؤمن»، فقال له يسوع: «هاتِ إصبعَك وضعها في يدي، وكن مؤمنًا لا غير مؤمن» فوضع إصبعَه في الجرح وهتف: «ربّي وإلهي». فقال له يسوع: لأنّك رأيتني آمنت،

طوبى للذين لم يرَوا وآمنوا. (يوحنّا ٢٠: ٢٥- ٢٨). «ثقبوا يديّ ورجليَّ».

١٨ - «أحصَوا كلَّ عظامي» (٢١: ١٨)، عندما كان ممدّدًا على الصليب. لا تعبير أفضل من تمديد الجسم على الصليب للقول: «أحصَوا كلَّ عظامي».

١٩ - «نظروا إليّ وتفرّسوا فيَّ» (٢١: ١٩). تفرّسوا، لكنّهم لم يفهموا؛ نظروا ولم يرَوا. كانت الأعين ترى الجسد، لكنّ قلوبَهم لم تكن ترتفع إلى **الكلمة**. «اقتسموا ثيابي». ثيابُه هي الأسرار. لاحظوا، يا إخوتي، أنّ ثيابَه أو أسرارَه، كان يُمكن أن تقسمها الهرطقة؛ لكن، كان هناك لباسٌ لا يقوى أحدٌ على قسمتِه. «وعلى لباسي اقترعوا». يقول الإنجيليّ: «وكان الرداء غير مخيطٍ، منسوجًا كلّه من فوق» (يوحنّا ١٩: ٢٣). رداء نسجته السماء، نسجَه الآب، ونسجه الروح القدُس. فأيّ رداءٍ هو غير رداء المحبّة التي لا تنقسم؟ وأيّ رداءٍ غير الوحدة؟ اقترعوا عليه لأنّه لا ينقسِم. تمكّن الهراطقة من قسمة الأسرار، لا المحبّة. عجزوا عن قسمتِها فتراجعوا، وبقيت في كمال وحدتِها. أعطتها القرعة نصيبًا للبعض؛ ومن كانت نصيبَه، صار في أمان؛ لأنّ أحدًا لا يقوى على طرحِه خارج الكنيسة الجامعة؛ وإذا بدأ يحظى بها إنسانٌ من الخارج، أُدخِل الكنيسة كما أَدخلت الحمامة غصن الزيتون (تكوين ٨: ١١).

٢٠ - «لأجل الجميع، يا ربّ لا تُقصِ عنّي معونتَك» (٢١: ٢٠). هكذا كان، فأقامه الله في اليوم الثالِث. «أسرِع إلى نُصرَتي».

٢١ - «أنقِذ من السيف نفسي» (٢١: ٢١)؛ أي أنقذها من الموت. بالسيف، يقصد النبيّ الموت. «ومن يد الكلاب وحيدَتي».

تلك النفس، تلك الوحيدة، هي نفسُه وجسدُه؛ هي كنيسته التي يدعوها «وحيدة». «من يد الكلاب»: أي من سلطان الكلاب. ومن هم الكلاب؟ - إنّهم أولئك الذين ينبحون مثل الكلاب، من دون أن يعرفوا على من يُغيرون. ليس مَن يتحرّش بهم، وينبحون. ماذا يفعل للكلب عابر سبيل؟ ومع ذلك ينبح الكلب عليه. من نبح بلا سببٍ وبلا تبصّر، ومن دون أن يعرفَ على من ينبح ولأيّ سبب، فهو كلبٌ حقًّا.

٢٢ - «خلّصني من فم الأسد» (٢١: ٢٢). تعرفون ذلك «الأسد الزائر الذي يجول حولَنا ملتمِسًا من يفترِسُه» (١ بطرس ٥: ٨) «أغِث تواضُعي من قرن الثور الوحشّي». لا يدعو ثيرانًا وحشيّة سوى المتكبّرين؛ لهذا قال: «أغث تواضُعي».

٢٣ - سمعتم ما هي الآلام التي كابدَها المسيح، والصلوات التي رفعَها لكي يُنجّى منها. لنتأمّل الآن لماذا تألّم. لكن انظروا أوّلًا، يا إخوتي، ما الفائدة من حملِ اسم المسيح، عندما لا يكون لنا نصيبٌ في ذلك الميراث الذي من أجلِه تألّم المسيح؟ سمعنا ما عاناه من آلام: أحصَوا عظامَه، استهزأوا به، اقتسموا ثيابَه، اقترعوا على ردائِه، فكّكوا عظامَه. هذا ما يُخبرُنا به المزمور، وما نقرأه في الإنجيل. لنرَ لماذا. أيّها المسيح ابن الله، ما كنت لتتألّم لو لم تُرِدْ، فأظهر لنا ثمرة آلامِك. يُجيب المسيح: إسمعوا ما هي الثمرة، فأنا لا أُخفيها؛ لكنّ الإنسان أصمّ أذنيه عن كلماتي. إسمعوا جيّدًا ما هي تلك الثمرة التي اشتريتُها بآلامي. «سأبشّر باسمِك إخوتي». ولنرَ إن كان لا يُبشّر باسم الربّ إخوتَه إلّا في جزءٍ من العالَم. «سأبشّر باسمك إخوتي، وفي وسط الجماعة أسبّحُك» (٢١: ٢٣). وهذا ما يتحقّق الآن. لكن، لنرَ من هي تلك الجماعة. لنرَ، إذًا، الجماعة، أي الكنيسة التي من أجلِها تألّم.

٢٤ - «يا أتقياء الربّ سبّحوه» (٢١ : ٢٤) كنيسة المسيح موجودة في كلّ مكانٍ يُتّقى الربّ فيه ويُبارَك. فانظروا يا إخوتي، إذا لم يكن ثمّة، اليومَ، مغزى في ترنيمة الـ«آمين» والـ«هلّلويا» التي يتردّد صداها في كلّ الأرض. ألا يُتّقى الله فيها؟ ألا يُبارَك الربّ فيها؟ ها إنّ دوناتُس[١] يبلغ به الأمر أن يقول لنا: لا اتّقاء بعدُ، والعالم بأسرِه فني. وهو على ضلال في قولِه: العالَم بأسرِه؛ أفَلم يبقَ سوى قسمٍ ضئيل من أفريقيا؟ ألا يقول المسيح كلمةً فيقفل أفواه أولئك المبشّرينً؟ أما لديه كلمة ليقتلع ألسنتَهُم؟ لعلّنا نجدُها إذا بحثنا عنها. عندما يكون على المسيح أن يبارك الله في وسط الجماعة، فهو يتكلّم عن كنيستنا. «يا أتقياء الربّ سبّحوه». لنرَ ما إذا كان خصومنا يُسبّحون الربّ لكي نتأكّد إذا كان يتكلّم عنهم، وإذا كان يُبارَك في كنيستِهم. كيف يُبارك المسيح أولئك الذين يُبشّرون بأنّه خسر الأرض كلّها، وأنّ إبليس أخذها منه، ولم يبقَ له إلّا جزءٌ منها؟ ولنرَ أيضًا ما يقولُه المزمور ويُفسّرهُ بوضوح كلّيّ، فلا يبقى لدينا أيّ شك: «ويا ذرّيّة يعقوب كلّها، مجّدوه». لعلّهم يدّعون بأنّهم أيضًا ذرّيّة يعقوب. فلنرَ إذا كانوا حقًّا تلك الذرّيّة.

٢٥ - «ولتتّقِه ذريّة إسرائيل كلُّها» (٢١ : ٢٥). وليقولوا أيضًا إنّهم ذرّيّة إسرائيل، ونحن نسمح لهم أن يقولوا. «فإنّه لم يزدرِ ولم يرذُل سؤل البائسين». أيّ بائسين؟ - أولئك الذين لم يعتدّوا قط بأنفُسِهم.

(١) هو دوناتُس الكبير (Donatus Magnus) توفّي في العام ٣٥٥، كان أسقفًا، وانشقّ عن كنيسة أفريقيا الشماليّة في العام ٣٠٥، بعد أن رفض أن يقبل في شركة الكنيسة الجامعة المسيحيّين الذين سلّموا الوثنيّين الأواني والكتب المقدّسة أثناء اضطهاد ديوقليسيانُس. حرَمه البابا مِلتيادُس، ومجمعا روما وآرل Arles. تمرّد على أثر الحِرم، وقاد حربًا أهليّة أدمت أفريقيا على عهد قسطنطين وخلفائِه، إلى حين اجتياح الفاندال الذين اضطهدوا الدوناتيّين والكاثوليك على حدّ سواء.

لنحكم إذا كانوا بائسين أولئك الذين يقولون: «نحنُ أبرار»، فيما يسوع المسيح نفسُه يقول: «صراخ آثامي يُبعِد عنّي خلاصِك» (٢١: ٢). لكن، فليقولوا ما يحلو لهم. «لم يحجُب وجهَه عنّي، وعندما استغثت به استجابَني» (٢١: ٢٥). بمَ استجابَه، ولأيّ سبب؟

٢٦ - «أنت غاية تسبِحتي» (٢١: ٢٦). يضع مجدَه في الله لكي يُعلّمَنا ألّا نعتدَّ بالإنسان. فليقولوا أيضًا ما يشاؤون. ها قد بدأوا يشعرون بلهب النار التي تدنو: «لأنّ أحدًا لا يقوى على تفادي حرّها» (مزمور ١٨: ٧). وليقولوا أيضًا: لا ولا نعتدّ بأنفسِنا، فبالله نفتخر؛ وليقولوا أيضًا: «أرنّم بتسبيحِك في الجماعة العظيمة». يبدو لي هنا أن المسيح يلمس قلوبهم. ما هي، يا إخوتي، الكنيسة العظيمة؟ أندعو كنيسة عظيمة ناحيةً من الأرض؟ الكنيسة العظيمة هي الكون بأسره. أيُريد أحدٌ أن يُكذِّبَ المسيح؟ ها هي كلماتك أيّها المسيح: «سأرنّم بتسبيحِك في كنيسةٍ عظيمة»؛ بالله، قل لنا ما هي تلك الكنيسة؟ لقد إنحصرتَ في رُكنٍ من أفريقيا، وخسرت العالَم بأسرِه؛ بذلت دمك عن الجميع، لكنّ العدوّ اجتاح مُلكَك. إذا تكلّمنا هكذا، يا إخوتي، فكأننا نستجوبُه، لأنّنا نعرف جوابَه. ولنفترِض أنّنا نجهل ما يقول، ألن يكون جوابُه: انتظروا، سأتكلّم بما يُزيل كلّ شكّ؟ فلنسمع ما سيقولُه. أمّا أنا فأردت أن أقول كلمتي ولا أترك للناس حرّيّة تفسير كلام المسيح عن «كنيسة عظيمة». وتأتي فتقول لي أنّه محصورٌ في أحدِ طرفَيها؟ ويجرؤون أيضًا فيقولون لنا: «جماعتُنا عظيمة»، فما قولُكم في باغاي وتاموغادي[٢]؟ وإذا لم يعُدْ لدى المسيح أي كلمة ليُخزيَهم، قالوا إنّ نوميديا وحدَها كنيسة عظيمة.

(٢) باغاي وتاموغادي مدينتان من أعمال نوميديا في الجزائر.

٢٧ – لنرَ بعدُ، ولنستمع إلى المسيح يقول: «إنّي سأوفي بنذوري أمام الذين يتّقونَه» (٢١: ٢٦). ما هي نذور المسيح؟ – إنّها الذبيحة التي قدّمها لله. أتعرفون أيّة ذبيحة؟ المؤمنون يعرفون النذور التي أوفاها المسيح أمام الذين كانوا يتّقونه. وإليكم التتمّة: «سيأكل البائسون ويَشبعون» (٢١: ٢٧). فطوبى لهؤلاء البائسين الذين يأكلون هكذا ليَشبعوا! إذًا، البائسون يأكلون. أمّا الأغنياء، فلا يشبعون لأنّهم غيرُ جائعين. سيأكل البائسون. كان بائسًا ذاك الصيّاد بطرس، وبائسًا كان يوحنّا، الصيّاد الآخر، وكذاك كان يعقوب أخوه (متّى ٤: ١٨، ٢١)، وحتّى العشّار متّى (٩: ٩). بائسين كانوا جميع الآخرين الذين أُشبِعوا، لأنّهم تألّموا مثل الضحيّة التي أكلوها. ذاك أنّ المسيح قدّم آلامَه مثلما قدّم الولائم، ومن يتألّم مثله سوف يشبع. البائسون يقتدون به، لأنّهم يتألّمون ليسيروا على خطى يسوع المسيح. «هؤلاء البائسون سيأكلون». وكيف يكونون بائسين؟ – «لأنّ ملتمسي الربّ يُسبّحونَه» (٢١: ٢٧). الأغنياء يمتدحون أنفُسَهم، أمّا البائسون فالربَّ يُسبّحون. فكيف يكونون بائسين؟ – لأنّهم يُباركون الربّ، ويطلبون الربّ، والربّ كنزُ البائسين. من هنا أنّ بيتَهم قفرٌ وقلبَهم يفيض بالغنى. فليجهد الغنيّ في ملء خزائِنه؛ حَسْبُ البائس أن يملأ قلبَه. وعندما تغتني قلوب الذين يطلبون الربّ، يُباركونه. ذاك، يا إخوتي، مصدر غنى هؤلاء البائسين الحقيقيّين؛ كنوزُهم لا تحتويها خزائن ولا أهراء ولا أقبية. «قلوبُهم تحيا إلى الأبد».

٢٨ – إسمعوني، إذًا. لقد تألّم الربّ، واحتمل الربّ كلّ ما سمعتُم؛ وسعينا إلى معرفة الغاية من آلامه، فشرع يقول: «سأبشّر باسمك إخوتي، وفي وسط الجماعة أسبّحُك» (٢١: ٢٣). فأجابوا: نحن تلك الجماعة؛ «فلترهبه ذرّيّة إسرائيل» (٢١: ٢٥)، فأجابوا:

نحن ذرّيّة إسرائيل؛ «لم يزدرِ ولم يسترذل سؤلَ البائسين» (٢١ : ٢٥)، فقالوا: نحن أولئك البائسون؛ «لم يحجب وجهه عنّي» (٢١ : ٢٥): ربّنا يسوع المسيح لم يُشح بوجهِه عن ذاتِه، أي عن جسدِه الذي هو الكنيسة؛ «لك تسبيحي» (٢١ : ٢٦)، وأنتم تُسبّحون أنفسَكم. فيُجيبون: ولكّننا نسبّحُه هو أيضًا. «سأوفي بنذوري أمام أتقيائِه» (٢١ : ٢٦): يعرف المؤمنون أنّ ذبيحةَ جسدِه ذبيحةُ سلام وذبيحةُ محبّة، وليس بوسعنا اليوم أن نستفيض في هذا الموضوع. «سأوفي بنذوري أمام أتقيائه» (٢١ : ٢٦). كلوا أيها الكتَبَة، كلوا أيّها الخطأة، كُلوا، اقتدوا بالربّ، تألّموا، وستُشبَعون. الربّ نفسُه مات، والبائسون بدورِهم يموتون، ويأتي موت التلاميذ ليكمل موت المعلّم. لماذا؟ ما الجدوى؟ «تتذكّر الربَّ جميع أقطار الأرض وإليه يرجعون» (٢١ : ٢٨). وأسفاه يا إخوتي! لماذا نتساءل عمّا نردّ به على دوناتُس؟ فهذا المزمور الذي نقرأه هنا، اليوم، يُقرأ اليومَ أيضًا عندَهم. فلنحفره على جِباهِنا، ولنمشِ معَه، ولا نترك راحةً للسانِنا، ولنردّد بلا انقطاع: لقد تألّم الربّ، وهوذا التاجر الإلهيّ يُبيّن لنا ما الذي اشتراه بثمن دمه المُراق. كان يحمل الثمن في صُرّةٍ إلهيّة، واندلقت الصرّة بضربة رمح آثم، وخرجت منها فديةُ العالَم بأسرِه. أيّ قولٍ تأتيني به أيّها الهرطوقيّ؟ أليس هذا ثمنًا للكون بأسرِه؟ أفتكون أفريقيا وحدَها هي المُفتداة؟ لن تجرؤ على قولِ هذا. ستقول: الكون بأسرِه افتُدي، لكنّه اختُلِسَ من المسيح. فمن هو ذاك المختلس الذي سلب المسيح ما كان مُلكًا له؟ «ها إنّ جميع أقطار الأرض ستتذكّر الربّ وترجع إليه». حسبُك، إذًا، هذا الكلام. فلو انّه قيل: «أقطار الأرض»، لا «جميع أقطار الأرض»، لكان بوسعهم أن يُجيبونا: إنّ لنا في موريتانيا أقطارَ الأرض تلك. لكنَّه قال، أيّها الهراطقة: «جميع أقطار الأرض».

أجل، جميعها. فأين تفرّ لتتجنّب هذا الجواب؟ لا سبيل لك إلى الفرار، ولم يبق أمامَك سوى الباب لكي تدخل.

٢٩ - على أنّني أريدُ، يا إخوتي، أن أفتحَ جدالًا، لئلّا يُحمل خطابي على غير محملِه. فاسمعوا المزمور واقرأوه. تألّم المسيح، وسُفِك دمُه: هوذا الفادي، وهي ذي الفِديَة. فليُخبروني من هو المُفتدى. ولمَ السؤال، ما دام بوسعهم أن يُجيبوني: أيّها الجاهل ما الجدوى من الأسئلة؟ بين يديك كتاب، وفي الكتاب ثمن الفدية والمفتَدى. فاقرأ فيه: «ستتذكّر الربَّ جميع أقطار الأرض وإليه يرجعون». أجل، ستتذكّره جميع أقطار الأرض. لكنّ الهراطقة نسُوه، ولهذا يُقرأ لهم كلّ عام. أتظنّون أنّهم يُصغون عندما يتلو القارئ: «ستتذكّر الربَّ جميع أقطار الأرض وإليه يرجعون»؟ لكن، ربّما لم تكن سوى آية واحدة، وكنتم شاردي الذهن، أو تتكلّمون مع جاركم لدى قراءَتِها. فإليكم كيف يُكرّرُها، ويُرغم الصُّمَّ على أن يسمعوا: «وأمام وجهه يسجد جميع أمم الأرض، ويعبدونَه». ما زال أصمَّ لا يسمع، فلنطرق مجدَّدًا. «فإنّ للربّ المُلكَ وهو يسود على الأمم» (٢١ : ٢٩). إحفظوا جيّدًا، إخوتي، هذه الآيات الثلاث. اليوم، يُرنّمونها هم أيضًا في كنائسِهم، إن لم يكونوا قد محَوْها. أمّا أنا، فإنّي في غاية الذهول، وفي غاية السخط، لرؤيتي مثل هذا الصمم وقساوة القلب، ويتملّكني الشكّ أحيانًا في أمر وجود هذه الآيات في كتبِهم. اليوم، جميع المؤمنين يتهافتون إلى الكنيسة. اليوم جميعهم يُصغون بانتباهٍ إلى قراءة هذا المزمور. وجميعُهم حائرون، متردّدون لدى قراءتِه. لكن، ولو أنّهم كانوا شاردي الذهن، أفلا يوجد غير هذه الآية الوحيدة: «ستتذكّر الربَّ جميع أقطار الأرض وإليه يرجعون»؟ تتيقّظون وتفركون أعينكم: «وأمام وجهه يسجد جميع أمم الأرض، ويعبدونَه». سواءٌ استيقظتم أو

بقيتم في سباتِكم، اسمعوا: «للربّ المُلكُ وهو يسود على الأمم».

٣٠ - ماذا بوسعِهم أن يُجيبوا؟ لست أدري. فلتقُم قيامتُهم على الكتاب، لا علينا. هذا هو الكتاب الذي يُحاربونَه. ما الفائدة من القول: نحن أنقذنا الكتب، ولولانا لأُحرِقَت؟ لقد أنقذتَها من الحريق لكي تُحرِقك أيها الهرطوقيّ. ما الفائدة من إنقاذِها؟ افتحها، إذًا، واقرأها. أنقذتَها وها أنت تحاربُها. لِمَ تُنقِذ من النار ما تمحوه بلسانِك؟ لا، لا أصدّق أنّك أنقذتَها. لا! إنّك لم تُنقِذها: لا أصدّقك. أمّا جماعتُنا نحن، فلها ملء الحقّ بأن تقول، على العكس، إنّك سلّمتها. فمن رفض أن يُنفّذ وصيّةً تُليَت عليه، أثبت أنّه خائن. تُتلى عليّ فأُذعِن، وتُتلى عليك فتعترِض. أيّ يدٍ ألقتها في النار؟ أهي يد الذي يقبلُها ويُتمُّها، أم يدُ الذي يغمره الحزن لأنّها ما زالت تُتلى؟ لا أريد أن أعرف من أنقذ ذلك الكتاب؛ ما همّني كيف وُجِد وفي أيّ مغارة! إنّها وصيّة أبينا؛ لا أعرف، لا السارقين الذين كانوا يُريدون سلبها، ولا المضطهِدين الذين كانوا يريدون إحراقَها. ينبغي أن تُتلى أيًّا تكن الجهة التي وصلتنا منها. لمَ التنازع؟ نحن إخوة، فما جدوى النزاع؟ لم يمت والدُنا من دون أن يتركَ وصيّة. كتب وصيّة ومات. وبعد موتِه قام. نتازع إرث ميتٍ طالما لم تُعلَن الوصيّة؛ وعندما تُعلن، يخرس الجميع، إلى أن تُفتَح وتُقرأ. يُصغي القاضي بانتباه، ويصمت المدافعون، ويفرض المُباشِرون السكوت، ويقف الحضور خاشعين مفسحين المجال لتتلى وصيّة المتوفّى الجاثم في قبره بلا حراك. الرجل ممدّد تحت اللحد بلا حياة، غير أنّ لوصيّته قيمة: أفتعترضون أنتم على وصيّة يسوع المسيح الجالس على عرش السماء؟ إفتحوا إذًا، ولنقرأ. نحن إخوة، فعلامَ الصراع؟ لنكن مسالمين، فأبونا لم يتركنا بلا وصيّة. وكاتب الوصيّة حيٌّ إلى الأبد، ويسمع أصواتَنا، ويعرف صوت متّقيه.

لنقرأ، إذًا؛ فأيّ جدوى من الصراع؟ لنضع يدَنا على الميراث عندما نجِدُه. إفتحوا الوصيّة واقرأوا واحدًا من أوائل المزامير: «سلني» (٢ : ٨). ولكن من هو المتكلّم؟ وفي المكان نفسِه تقرأون: «قال لي الربّ: أنت ابني، وأنا اليوم ولدتُك» (٢ : ٧). أفيكون ابن الله هو المتكلّم، أم أنّ الآب هو الذي يُكلّم ابنه؟ وماذا يقول لذلك الإبن؟ «سلني فأعطيك الأمم ميراثًا، وأقاصي الأرض ملكًا لك» (٢ : ٨). حين نختصِم في حقل، يا إخوتي، غالبًا ما نستعلم من المالكين المجاورين، ونستفسِر من هذا وذاك من الجيران، ونطلب الوارث الذي آل إليه أو اشتراه. فلدى أيّ جيرانٍ نستعلِم؟ لدى أصحاب أملاكٍ مجاورة. أمّا من لا حدود لميراثه، فلا يُحيط به أيّ جار. والحال، فإنّك أنّى اتّجهت، فالمسيح هو صاحب الملك. أقاصي الأرض ملكٌ لك: هلمّ، إذًا، واملك معي الأرض كلّها. لماذا ترفع عليّ دعوى تدعوني فيها إلى القسمة؟ تعالَ إليّ، فخيرٌ لك أن تخسَر دعواك، لأنّك ستحظى بالميراث كلّه. أيّ شأنٍ لك في النزاع؟ أأقرأ لك الوصيّة ولا تنفكّ تنازعُني؟ أتُعارضُني في أنّه يقول: «جميع أقطار العالَم» ولا يقولُ «أقطار العالَم»؟ فلنقرأ جيّدًا. ماذا قرأنا؟ «ستتذكّر الربَّ جميع أقطار الأرض وإليه يرجعون. وأمام وجهه يسجد جميع أمم الأرض، ويعبدونَه. للربّ الملكُ وهو يسود على الأمم». فلَه الملكُ، إذًا، لا لكم. فاعترفوا بالربّ سيّدًا وبميراث الربّ مُلكًا.

٣١ - وأنتم أيضًا، إنّما تملكون مساكنَكم يا أيّها الذين تبتغون نصيبًا خاصًّا بكم، ولا ترغبون في أن تملكوا معنا في وحدة المسيح، لأنّكم تبتغون أن تسودوا على الأرض، لا أن تملكوا معه في السماء. سعينا إليهم أحيانًا، يا إخوتي، لنقول لهم: أطلبوا الحقيقة، فلنبحث عن الحقيقة. فأجابونا: إحفَظوا ما لديكم؛ لك نعاجك ولي نعاجي؛

دع نعاجي بسلام، كما أدع نعاجَك بسلام. أشكرُ الله على أنّ لي نعاجي وله نعاجه، فما الذي افتداه المسيح إذًا؟ ليتَها لا تكون لا لي ولا لك تلك النعاج، بل للذي افتداها، وللذي ختمَها بطابَعِه! «فلا الغارس بشيءٍ ولا الساقي، بل المنمّي وهو الله (١ قورنتُس ٣: ٧). لماذا، إذًا، تكون لي نعاجي ولك نعاجُك؟ إذا كان المسيح معك، فلتذهب نعاجي أيضًا، لأنّها ليست لي؛ وإذا كان المسيح معي، فلتأتِ نعاجُك أيضًا، لأنّها ليست لك. فلتدخل ميراثَها وهي تُقبّل جباهنا وأيدينا، وليتوارَ الأبناء الغرباء. تلك النعاج لا تخصّني، يقول، فماذا يعني ذلك؟ لنرَ إن كانت لا تخصّك، لنرَ إن كنت لا تُطالب بملكيّتِها. أنا أعمل باسم المسيح، وأنت باسم دوناتُس؛ لأنّك إن كنت للمسيح تعمل، فإنّ المسيح في كلّ مكان. تقول: «إنّ المسيح ههنا» (متّى ٢٤: ٢٣)، وأنا أقول إنّ المسيح في كلّ مكان. «أيّها البنون، سبّحوا الربّ، باركوا اسم الربّ» (مزمور ١١٢: ٢). من أين يأتي هذا التسبيح؟ وإلى أين يتّجِه؟ «من مشرق الشمس إلى مغرِبها، سبّحوا اسم الربّ» (١١٢: ٣). هي ذي الكنيسة التي أدلّك عليها. وذاك هو ما اشتراه المسيح وما افتداه، ولأجلِه بذل دمه. أمّا أنت فماذا تقول؟ من أجلِه أيضًا أجمع. يُجيبُك المسيح: «من لا يجمع معي فهو يُفرّق» (متّى ١٢: ٣٠). والحال، فإنّك تقسم الوحدة، وتريدُ لك نصيبًا لوحدِك. فلِم تحمل اسم المسيح؟ - لأنّك زعمتَ أنّ الاسم عنوان يضمن لك الملكيّة. أليس هذا ما يعملُه كثيرون بشأن بيوتِهم؟ لكي يؤمِّنَها سيّدُها جشعَ اللصّ الجبّار، يجعلُها تحت اسم رجلٍ آخر جبّار، أي تحت اسمٍ مزوَّر. يبتغي أن يمتلك بيتَه، ولكي يضمن ملكيّتَه، يكتب على واجهتِه اسمًا مستعارًا، حتّى إذا قرأ غاصبٌ اسم رجلٍ جبّار في العالَم، نزل به الرعبُ وامتنع عن أي عنف. هذا ما فعله مهرطقونا عندما أدانوا

المكسيميانيّين(٣). قصدوا القضاة، ولكي يُبرهنوا عن ألقابِهم كأساقفة، تلَوْا قوانين مجمعِهِم. فسأل القاضي: هل يوجد هنا أيّ أسقفٍ من أتباع دوناتُس؟ فأجابت الجماعة: لا نعترف إلّا بأوريليوس الكاثوليكيّ. وخوفًا من القانون، لم يأتوا إلّا على ذكر اسم أسقف واحد. لكن لكي يدفعوا القاضي للاستماع إليهِم، استعاروا اسم المسيح، وتحت ستار اسمه أخفَوا ملكيّتَهم. ليغفر لهم الله بواسع رحمتِه، وليُطالِب بميراثِه حيثُما وُجِد اسمُه. إنّ رحمتَه لواسعة، لكي يُسبغ عليهم هذه النعمة، ولكي يُعيد إلى الكنيسة كلّ الذين يلتقيهم، ويحملون اسم المسيح. أنظروا يا إخوتي: ألا يهتمّ سيّدٌ يرى اسمه مدوّنًا فوق ملكيّة، أن يُطالب بها بقولِه: لو لم تكن تخصّني، لما حملت اسمي؟ أرى اسمي عليها، فالملكُ لي. كلّ ملكيّة تحمل اسمي، تخصّني. هل يحدُث أن يُغيّر اسمه؟ اسم الماضي هو اسم اليوم. قد يتغيّر صاحب الميراث، ولكن اسم الميراث لا يتغيّر. كذلك، عندما يعود الذين اقتبلوا معموديّة المسيح إلى الوحدة، فإنّنا لا نُغيّر الأسماء ولا نمحوها؛ لكنّنا نعترف باسم ملكنا، وباسم سيّدِنا.

---

(٣) المكسيميانيّون فرقة منشقّة عن بدعة دوناتُس. التحقوا بمكسيميان تلميذ دوناتُس الذي كان يُمثّل الدوناتيّين المتشدّدين في المدن الرومانيّة البونيّة والساحل التونسيّ؛ فيما كان خصمه بريميانُس، أسقف قرطاجة الدوناتيّ، رئيس النوميديّين. سعى بريميانُس هذا إلى تحريض شيوخ كنيسته ضدّ خصمه، فرفضوا. فما كان منه إلّا أن حرَم مكسيميانُس. وبدورِه، دعا مكسيميانُس إلى مجمع في العام ٣٩٢، أدان بريميانُس ونصّب مكسيميانُس مكانه. وفي السنة التالية، برّأ بريميانُس مجمعٌ آخر عُقِد في سيبارسوسّا. وفي العام ٣٩٤، عقد مجمع ثالث في باغاي، جنوبي نوميديا، حضره ثلاثمائة وعشرة أساقفة دوناتيّين، أعلنوا فيه مكسيميانُس واثنَي عشر من أتباعِه منشقّين، وأقصَوهم عن الشركة. وبعد أن استتب الأمرُ لبريميانُس، بفضل مؤازرة السلطة الرومانيّة، توصّل إلى كمّ أفواه أتباع مكسيميانُس.

ماذا نقول؟ أيّها الميراث المنكوب، كن مُلكَ من تحمل اسمَه. إنّك تحمل اسم المسيح، فلا تكُنْ ميراث دوناتُس.

٣٢ - توسّعنا كثيرًا في موضوعِنا، يا إخوتي. لكن حذارِ أن تنسُوا ما قرأناه. أكرّر وأقول، وعليّ أن أقول في كلّ حين: حذار أن تنسُوا. باسم هذا اليوم المقدّس، أو بالأحرى باسم الأسرار التي نحتفل بها فيه، أتوسّل إليكم ألّا تنسُوا هذه الكلمات: «ستتذكّر الربَّ جميع أقطار الأرض وإليه يرجعون. وأمام وجهه يسجد جميع أمم الأرض، ويعبدونَه. للربّ الملكُ وهو يسود على الأمم». أمام صكّ حقيقيّ واضحٍ بملكيّة المسيح، سدّوا آذانكم عن كلام المغتصب. هذا الكلام هو كلام الله، وكلّ ما يُخالفه، إنّما هو كلام إنسان.

عظة في المزمور الثاني والعشرين

مراعي الربّ

الكنيسة، بفم النبيّ، تفرح وتُهلّل بأنّها القطيع الذي توجّهُه عصا الراعي الصالِح، وتقوده إلى مراعي الإفخارستيّا المقدّسة.

مزمور لداود

١ - هي الكنيسة تُخاطب المسيح وتقول: «الربّ راعيّ فلا يُعوِزُني شيءٌ» (٢٢ : ١).

٢ - «في مراعٍ خصيبةٍ يُقيلُني» (٢٢ : ٢) يُقيلُني في مراعٍ خصيبة، لكي يُطعمَني ويبدأ فيقودني إلى الإيمان. «ومياه الخلاص يوردُني». بمياه المعموديّة نمّاني، بالمياه التي تُقوّي الواهنين وتهبهم العافية.

٣ - «يردّ القوّة إلى نفسي، ويهديني إلى سبل البرّ من أجل مجد اسمِه» (٢٢ : ٣). قادني في سبل برّه الضيّقة، حيث لا يقوى على السير إلّا القليلون، لا لاستحقاقاتي، بل لمجد اسمِه.

٤ - «إنّي ولو سلكت في وادي ظلال الموت»: أي حتّى ولو اضطُررتُ إلى السير وسط هذه الحياة، التي هي ظلّ الموت. «لا أخاف سوءًا لأنّك معي» (٢٢ : ٤). لا أخاف سوءًا لأنّك تسكن في قلبي بالإيمان، وأنت الآن معي، لكي أصير معك بعد ظلال الموت. «عصاك وعكّازُك هما يُعزّيانِني» (٢٢ : ٤). تأديبك لي هو كالعصا التي

تُعيد النعاج إلى الحظيرة، وكالعصا التي تُحفّزُ البنين المتفوّقين، الذين ينتقلون من الحياة الحيوانيّة إلى الحياة الروحيّة. لا تُحزنُني، بل تُعزّيني، لأنّك تعتني بي.

٥ - «هيّأت أمامي مائدةً تجاه مُضايقيَّ» (٢٢ : ٥). بعد العصا التي كانت ترعى القطيع في الحظيرة وفي المرعى، طفولتي وحياتي الحيوانيّة؛ بعد تلك العصا، أتتني العكّازة، فهيّأت أمام عينيّ مائدةً من أجل ألّا يبقى طعامي لبن الطفولة، وأتناول، إذ غدَوتُ شابًّا، طعامًا يُقوّيني، فأصدّ مُضايقيَّ. «مسحت بالدهن الذكيّ رأسي». ملأت قلبي فرحًا روحيًّا. «يا للنشوة اللذيذة في الكأس التي أعطتنيها» (٢٢ : ٥). لذيذٌ شرابُك فإنّه يُنسينا الملذّات الباطلة.

٦ - «جودتك ورحمتك تتبعانني جميع أيّام حياتي» (٢٢ : ٦)، أي طالما أنا في هذه الحياة الفانية، التي ليست حياتك، بل حياتي. «لكي أسكن في بيت الربّ طول الأيام الأبديّة». تتبعانني لا في هذه الدنيا فقط، بل تُسكنُني بيت الربّ إلى الأبد.

عظة في المزمور الثالث والعشرين

صعود المسيح

يُرنّم النبيّ هنا غلبة يسوع المسيح، ويراه صاعدًا إلى السماء، ومسيطرًا على القوى الشيطانيّة التي ادّعت الكرامات الإلهيّة.

مزمور لداود، لغداة السبت (٢٣ : ١)

١ - مزمور لداود في القيامة المجيدة، التي حدثت فجر اليوم الأوّل بعد السبت، وهو اليوم الذي ندعوه، منذئذٍ يوم الأحد، أو يوم الربّ.

٢ - «للربّ الأرضُ وملؤُها، المسكونة والساكنون فيها» (٢٣ : ١)؛ لأنّ مجدَه مُعلَنٌ في كلّ مكان لكي تؤمن به الأمم، ولأنّ كنيسته تُعانق المسكونة كلّها. «على البحار أسّسها» (٢٣ : ٢). رسّخ بنيان كنيستِه على أمواج الدّهر التي عليها أن تُطيعَه، ولا تؤذيه أبدًا. «ورفعها فوق الأنهار». كالأنهار التي تصب في البحر، هكذا ينسكب الإنسان العطشان في العالَم؛ لكنّ الكنيسة تُسيطر عليها، وتطرد بالنعمة الشهوات الدنيويّة، وتتهيّا بالمحبّة للمجد الذي لا يزول.

٣ - «من يصعَد إلى جبل الربّ؟» (٢٣ : ٣). من يستطيع أن يبلغ قمَم البرِّ الإلهيّ؟ أو «من يقوم في موضع قُدسِه؟» وبعد أن يصعَد إلى القدسِ المؤسّس على البحار، والمرفوع فوق الأنهار، من ذا يستطيع أن يُقيم فيه؟

٤ - «النقيّ الكفّين والطاهر القلب» (٢٣ : ٤) من تراه يستطيع أن يبلغ تلك الأعالي ويثبت فيها غير الإنسان ذي الأعمال البارّة والقلب النقيّ؟ «الذي لم يحمل نفسَه إلى الباطل»، أي الذي لم يدع نفسَه تتعلّق بكلّ ما هو فانٍ، ولافتخارِه بخلودِها، يحثّها على ابتغاء الأبديّة التي لا تحول ولا تزول. «ولم يحلِف بالغِشّ»، أي لا يتحايل على إخوتِه، بل يُعاملُهم بالبساطة والحق لكلّ ما هو أبديّ.

٥ - «إنّه ينال بركة الربّ، ورحمةً من الإله مخلّصِه» (٢٣ : ٥).

٦ - «ذاك هو جيل طالبي الربّ» (٢٣ : ٦). هكذا يولدُ جميع الذين يطلبونه و«يلتمسون وجه إله يعقوب» «سلاه». يطلبون وجه ذاك الإله نفسِه الذي أعطى الأولويّة للأخ الأصغر.

٧ - «إفتحوا الأبواب أنتم أيّها الرؤساء» (٢٣ : ٧)، أنتم الذين تطلبون السيادة على الناس، إخلعوا أبواب الخوف والرذيلة التي أقمتموها، لئلّا تنزِل بكم سوءًا. «إرتفعي أيّتها الأبواب الدهريّة» (٢٣ : ٧)، يا أبواب الحياة الأبديّة، يا أبواب الكفر بالعالَم والتوبة إلى ٱلله. «فيدخل ملكُ المجد». إذ ذاك يدخل ذلك الملك الذي نستطيع أن نفاخرَ به بلا كبرياء؛ الذي حطّم أبواب الموت، وشرّع لنفسِه أبواب السماء، متمّمًا بذلك ما قالَه: «تهلّلوا، إنّي غلبتُ العالَم» (يوحنّا ١٦ : ٣٣).

٨ - «من هذا ملك المجد؟» (٢٣ : ٨). تسأل الطبيعة البشريّة بذهول: «من هذا ملك المجد»؟ - «هو الربّ العزيز الجبّار» الذي اعتقدتم أنّه ضعيفٌ ومنهزم. «الربّ الجبّار في القتال». ألمسوا جراحَه، تجدوها اندملت، والسقم البشريّ صار إلى الخلود. لقد اكتمل مجدُ الربّ الذي سطع على الأرض بعد أن حارب الموت.

٩ - «إفتحوا أبوابَكم أيّها الرؤساء» (٢٣: ٩)، فيتسنّى لنا أن نمضي من هنا إلى السماء. وليصدَح مجدَّدًا بوق النبيّ. «إرفعوا، يا رؤساء السموات، تلك الأبواب التي منها تدخلون إلى نفوس الذين يسجدون لجند السماء» (الملوك الرابع ١٧: ١٦)؛ «إرتفعي أيّتها الأبواب الدهريّة»، يا أبواب البرّ الأبديّ، يا أبواب المحبّة والعفّة التي بها تتَّصل نفوسُنا بالإله الحقّ الواحد وبه تتّحد، وتمتنع عن تقديم عبادة زانية لكثيرين آخرين يُدعَون آلِهة. «فيدخل ملك المجد». سيدخل ملك المجد هذا ويجلس عن يمين ابيه ليشفع فينا (رومة ٨: ٣٤).

١٠ - «من هذا ملك المجد؟» (٢٣: ١٠). ماذا، إذًا؟ أتعجَب أنت أيضًا وتسأل يا رئيس سلطان الهواء: من هذا ملك المجد؟ - «ربّ الجنود هو ملكُ المجد». لقد قام ذاك الذي حاولت أن تُجرّبه ذات يوم. ها هو يدوس رأسَك، ويرتفع فوق الملائكة ذاك الذي جرّبه الملاك الساقط. فلا يحتالنّ علينا بعدَ اليوم أحدٌ، ولا يُعيقنّ طريقَنا، ساعيًا إلى دفعنا لكي نسجد له كإله. «فلا ملائكة ولا رئاسات ولا قوّات تقدر أن تفصلنا عن محبّة المسيح» (رومة ٨: ٣٩). «الإعتصام بالربّ خيرٌ من الإتّكال على الرؤساء» (مزمور ١١٧: ٩)، حتّى إذا أراد أحدٌ أن يفتخِر، فليفتخر بالربّ فقط (١ قورنتس ١: ٣١). صحيحٌ أنّ أرواح الهواء هي جنودٌ في مفاهيم هذا العالَم، غير أنّ «ربّ الجنود هو ملك المجد».

عظة في المزمور الرابع والعشرين

التوكُّل على الله

مشاعر الثقة والتواضع التي ينبغي أن نتحلّى بها بلجوئِنا إلى الله وسط ضيقات الحياة الحاضرة.

للغاية، مزمور لداود (٢٤ : ١)

١ - يسوع المسيح هو المتكلّم هنا، لكن باسم كنيستِه. لأنّ كلّ ما يتضمّنه المزمور خيرُ ما ينطبق على الشعب المسيحي التائب إلى الله.

٢ - «إليك يا ربّ أرفع نفسي» (٢٤ : ١). برغائب روحيّة، أرفع نفسي الزاحفة على الأرض بشهواتِها الجسديّة. «إلهي، عليك توكّلت فلا أخزَ» (٢٤ : ٢). اتّكالي على نفسي، يا ربّ، أسقم جسدي، فأخليت ذاتي من الله لأكون أنا نفسي كإله، وها إنّ أدنى الحيوانات يجعلُني أرهب الموت، فخزيت من كبريائي السخيفة. والآن وقد اعتصمت بك وحدك، لا يطالُني خِزيٌ.

٣ - «ولا يشمت بي أعدائي» (٢٤ : ٢). لا يهزأنّ بي قَطُّ أولئك الذين يُوسوسون لي أفكارًا مسمومة وينصبون لي شباكًا، وإذ يهتفون لي: «أقدِم، أقدِم»، يستعبدونني. «فإنّ جميع الذين يرجونَك لا يخزَوْن» (٢٤ : ٣).

٤ - «ليخزَ الغادرون بي باطلًا» (٢٤ : ٤). ليخزَ الذين يعملون

الشرّ من أجلِ أن ينالوا الخيور الزائلة. «أمّا انت يا ربّ فعرّفني طرقَك، وافتح لي سُبُلَك» (٢٤ : ٤)، التي ليست رحبة، ولا تقود الجماعة إلى هلاكِها؛ علّمني تلك الطرق الضيّقة، علّمني طرقَك التي لا يعرفونَها (راجع متّى ٧: ١٣، ١٤).

٥ - «اهدني إلى حقّك» فأتجنّب الضلال. «علّمني»، فإنّي لا أعرف من تلقائي غير الكذب. «فإنّك أنت إله خلاصي، وإيّاك رجوتُ النهار كلّه» (٢٤ : ٥). أخرجتني من الفردوس (تكوين ٣ : ٢٣)، فتهتُ في بلادٍ بعيدة (لوقا ١٥ : ١٣)، ولا أقوى على الرجوع إليك إن لم تأتِ فتقودَني؛ وطوال هذه الحياة الدنيا كانت رحمتُك تنتظر عودتي.

٦ - «يا ربّ اذكر رأفتك ومراحمَك» (٢٤ : ٦). اذكر يا ربّ اعمالك الرحيمة، لأنّ الناس يصِمونك بالنسيان. «أذكُر جودَك الأزليّ». لا تنسَ، بخاصّةٍ، أنّ مراحمَك بدأت مع بدء العالَم، وهي ملتصقةٌ بك، لا تعرِف عنك انفصامًا، من حيث أنّك أخضعت الآثم للباطل، لكنّك تركت له الرجاء؛ ومن حيث أنّك أعطيت خليقتَك وسائل عديدة وفسحاتٍ عريضةً من الرجاء.

٧ - «أمّا خطايا صبائي وجهالتي فلا تذكرها» (٢٤ : ٧). لا تُجازِ بالقسوة آثامي التي اقترفتُها بوقاحةٍ أو جسارة أو حماقة؛ ولتُمحَ من أمامِ وجهك. «يا ربّ اذكرني برحمتِك». اذكرني، لا بسُخطِك الذي أستحقّه، بل برحمتِك التي هي من جودِك. «من أجلِ جودتِك»، لا من أجل استحقاقاتي.

٨ - «الربّ يفيضُ طيبةً واستقامة» (٢٤ : ٨). إنّه ذو جودة لأنّه يشمل برحمتِه الأثمة والمنافقين، فيغفر لهم خطاياهم الماضية؛ وذو استقامة أيضًا، لأنّه بعد نعمة الدعوة والمغفرة، وهي نعمةٌ لم نستحقَّها،

سيُطالبُنا في يوم الدين باستحقاقات توازي تلك النعمة. «لذلك يُرشد الضالّين في الطريق»، لأنّه، من أجلِ أن يُرشدَهم في الطريق، صنع بهم رحمةً.

٩ - «يَهدي البائسين إلى البِرّ» (٢٤: ٩). هو الذي سيُرشد الودعاء، وفي يوم الدين لا يُلقي الرعب في الذين يسلكون بحسب مشيئتِه، ولا يُخالِفونَها ليعملوا مشيئتَهم. «ويُعلّم الودعاء سُبُلَه»: يُعلّم سُبُلَه، لا للذين يرغبون في تجاوزِها كما لو كانوا هم أجدَرُ على قيادة أنفُسِهم، بل للذين لا يعرفون لا أن يرفعوا رؤوسَهم، ولا أن يتمرّدوا عندما يُخضعون لنيرٍ ليّنٍ وحملٍ خفيف (متّى ١١: ٣٠).

١٠ - «جميع سُبُل الربّ رحمةٌ وحقّ» (٢٤: ١٠). أيّ سبيلٍ يُعلّم الربّ غير سبيل الرحمة العطوف، والحق الذي يصون من الفساد؟ يُقيم رحمتَه فيغفر خطايانا، ويُقيم الحقّ فيحكم بحسب استحقاقاتِنا. من هنا أنّ جميع سبل الربّ تُختَصَر بمجيئَي ابن الله: الأوّل لكي يُقيم الرحمة، والثاني لكي يُجري الدينونة. إذًا، يصل إلى الله بالطريق المرسومة ذاك الذي يعرف أنّه ينال المغفرة بلا استحقاق، ويطّرح الكبرياء، ويهاب الإمتحان العسير لديّانٍ سبق أن اختبَر رأفتَه. «لحافظي عهده وشريعتِه»: لأنّهم يعرفون رحمة الربّ في مجيئه الأوّل، وعدلَه في مجيئه الثاني، أولئك الذين يحفظون، بطيبة ووداعة، العهد الذي به افتدانا بدمه للحياة الأبديّة، والذين يتفحّصون شهاداتِه في الأنبياء وفي الإنجيليّين.

١١ - «من أجل اسمك يا ربّ ارحمني واغفر آثامي الكثيرة» (٢٤: ١١). أنت لم تشمل بعفوك فقط الخطايا التي اقترفتُها قبل أن أبلغ الإيمان، بل إنّ ذبيحة قلبٍ منسحق، ستُحنّنك لكي تعفو عن خطاياي الكثيرة، لأنّ الطريق الحقيقيّة نفسَها ليست بلا عثرات.

١٢ - «من هو الإنسان الذي يتّقي الله» (٢٤ : ١٢)، فيتّجه نحو الحكمة؟ «يُرشدُه الربّ بشرائعَه في الطريق الذي اختاره»: يُملي عليه الربّ أوامرَه في الطريق الذي اختارَه، طوعًا، فلا يعود يخطأ بلا قِصاص.

١٣ - «فتسكن نفسُه في وفرة الخير، وذرّيّته ترث الأرض» (٢٤ : ١٣). يستحقّ بأعمالِه أن يمتلِك، بقوّة، جسدًا متجدِّدًا بالقيامة.

١٤ - «الربّ قوّةٌ لمُتّقيه» (٢٤ : ١٤). لا تبدو خشية الربّ ملائمةً إلّا للضعفاء، لكنّ الربّ قوّة لمن يتّقيه. واسم الربّ الممجّد في المسكونة كلّها يُقويّ الذين يتّقونَه. «ولهم يُعلن عهدَه». يُعرّفهم على عهده، لأنّ الأمم وأقطارَ الأرض ميراثُ المسيح.

١٥ - «عينايَ إلى الربّ في كلّ حين لأنّه يُخرِجُ من الشَّرك رجليَّ» (٢٤ : ١٥). لا أنظر إلى الأرض فلا أخشى مخاطرَها، والذي أتأمّل فيه يُخرجُ من الشبكة رجليَّ.

١٦ - «إلتفِت إليّ وارحمني، فإنّي وحيدٌ بائس» (٢٤ : ١٦). أنا ذلك الشعب الوحيد الذي أرعى روح التواضع في كنيستِك الواحدة التي لا تعاني انشقاقًا ولا هرطقة.

١٧ - «اشتدّت ضيقات قلبي» (٢٤ : ١٧): اشتدّت نكبة قلبي إذ رأيت الإثم يعظُم والمحبّة تفتُر. «أنقذني من شدائدي»: جنّبني تلك الشدائد لأنّي كنت بحاجة إلى أن أتألّم لكي أفوز بالخلاص بالصبر إلى المنتهى (متّى ١٠ : ٢٢).

١٨ - «أنظر إلى كدّي وإلى اتّضاعي» (٢٤ : ١٨). ها أنذا أتذلّل، وكبرياء برّي لا تطرحني خارج الوحدة؛ ها أنذا أكدّ لأحتمل الفاسدين الذين يُحيطون بي. «واغفر خطاياي»: أنظر إلى آلامي، وتضحياتي،

واغفر خطاياي، لا خطايا صبائي وخطايا جهالتي قبل أن أؤمن بك فقط، بل أيضًا تلك التي دفعني إلى اقترافِها ضعفي وظلمات هذه الحياة، بعد أن سلكت درب الإيمان.

١٩ - «وانظر كم كثر أعدائي» (٢٤: ١٩) لا ألتقيهم في الخارج فقط، بل أيضًا في شركة الكنيسة. «أبغضوني بُغضةَ جور»: أبغضوني إذ كنت أحبّهم.

٢٠ - «إرعَ نفسي وأنقذني» (٢٤: ٢٠): إحفظ نفسي، لئلّا أقتديَ بالأشرار، وأنقِذني من الشدّة التي أعانيها بفعل اختلاطي بهم. «لا أخزَ فإنّي بك اعتصمت». لا تدعهم يقومون عليَّ ليُخزوني، لأنّي فيك، لا فيَّ، وضعت رجائي.

٢١ - «الأنقياء والمستقيمون تعلّقوا بي لأنّي إيّاك رجوت يا إلهي» (٢٤: ٢١) القلوب النقيّة المستقيمة ليس متّحدة بي، كالأشرار، بالجسد فقط، بل بميلِها إلى الطهارة والبرّ، لأنّي ما تخلّيت عنك لأقتدي بالأشرار؛ بل رجوتك وما زلت أنتظرك، إلى أن تُمِرّ بالمذراة آخر حصادِك.

٢٢ - «أللهمّ خلّص إسرائيل من جميع مضائقه» (٢٤: ٢٢). افتدِ يا ربّ شعبك الذي أعددتَه لرؤية نورِك. أنقِذه، لا من جميع الشدائد الخارجيّة فقط، بل من تلك التي يُعانيها في الداخل.

عظة أولى في المزمور الخامس والعشرين

طهارة الكنيسة

هذا المزمور هو نشيد الطهارة الحقيقيّة: يُمكن أن ينطبق على الكنيسة المطهّرة بيسوع المسيح، أو على النفس المؤمنة التي تُنشِد سعادتَها، والتي لا تتذوّق طعم السعادة إلّا في الطهارة.

لداود (٢٥ : ١)

١ - يُمكن أن يُفهَم بداود هنا، لا يسوع المسيح الوسيط في بشريّته، بل الكنيسة الراسخة البنيان في المسيح.

٢ - «قاضِني يا ربّ فإنّي سلكت في الطهارة» (٢٥ : ١). قاضِني يا ربّ، فإنّي بعد أن غمرتني برحمتِك، نلت بعض استحقاقٍ بسبب طهارتي التي حفظتُ طُرُقَها. «وعلى الربّ توكّلت فلا أزِلّ»: غير أنّي لا أتوكّل على نفسي، بل على الربّ فلا أتزعزع.

٣ - «جرّبني ياربّ وافحص نفسي» (٢٥ : ٢)، لئلّا يغيب عن ناظريّ سقمٌ خفيّ، امتحنّي يا ربّ وجرّبني. عرّفني بنفسي وبالناس، لا بك أنت الذي ترى كلّ شيء. «امتحِن بالنار كُليَتَيَّ وقلبي». داوِ أفكاري وشهواتي بدواءٍ يُطهّرُها كما النار. «فإنّ رحمتك أمام عينيّ في كلّ حين» (٢٥ : ٣). لئلّا تأكلني النار بكلّيّتي، أضع أمام عينَيَّ، في كلّ حين، لا استحقاقاتي، بل تلك الرحمة التي تعضدني في حياتي هذه.

«وطاب لي حقّك». أنِفتُ فيّ كلّ ما هو كذب، وطاب لي حقّك. وبه ومعه استطعت أن أرضيك.

٤ - «لم أجالِس أهل الباطل» (٢٥ : ٤). لم أطلب لقلبي جماعة الذين يجهدون في طلب لذّة الخيور العابرة، ليتمتّعوا بسعادة مستحيلة. «وإلى صانعي الإثم لا أنضمّ»: ولمّا كانت تلك الخيور مصدر كلّ إثمٍ، فإنّي لا أتورّطُ مع أصحاب الدسائس.

٥ - «أبغضت مجمع الأشرار» (٢٥ : ٥). لكي تتألّف جماعة بُطل، ينبغي أن يجتمع الأشرار، وأنا أمقت تلك المجامع. «ولا أريد مجالسة المنافقين»: لا أريد أن أشارك الأثمة في مجالس كهذه، لأنّي لا أجعلُ فيها سعادتي. «لن أجالِس الأثمة».

٦ - «مع الأبرار، أغسِل يديَّ» (٢٥ : ٦): مع القديسين اصنع أعمالًا صالحة، ومع الأنفس القدّوسة أغسلُ يديَّ اللتَين ستطالان رِفعةَ عُلاك. «وأطوف بمذابحك يا أللهُ!».

٧ - «لكي أسمع صوت تسابيحك» (٢٥ : ٧). وأتعلّم أن أباركك. «وأُخبِرَ بجميع معجزاتِك». عندما أتعلّم أن أسبّحك، أُحدّث بجميع معجزاتِك.

٨ - «يا ربّ، إنّي أحببت جمال بيتِك» (٢٥ : ٨)، أي كنيستِك. «ومقامَ سكنى مجدِك»، أي المقام الذي تتمجّد في سكناه.

٩ - «لا تُهلك نفسي مع الخطأة» (٢٥ : ٩) أي لا تُهلك نفسي مع الذين يُبغضونك، فإنّها تُحبّ جمال بيتِك. «ولا حياتي مع أهل الدماء». أي مع الناس الذين يُبغضون القريب. لأنّ بيتَكَ تزيّنُه وصيّتان.

١٠ - «أيديهم ملوّثة بالإثم» (٢٥ : ١٠). لا تُهلكني مع أهل الدماء ذوي الأعمال الشرّيرة. «يمينُهم مملوءةٌ رشوة». وما أُعطوه لينالوا الخلاص الأبديّ، استخدموه لجمع خيور هذا العالَم، ونظروا إلى الرحمة كتجارة (١ طيموتاوس ٦ : ٥).

١١ - «أمّا أنا الذي سلكت في الطهارة، فافتدِني برحمتِك» (٢٥ : ١١). وليكن دم إلهي الثمين خلاصًا لي كاملًا، ولا تتخلَّ عنّي رحمتُك إلى الأبد.

١٢ - «ثبتَت قدمايَ في طريق الاستقامة» (٢٥ : ١٢). لم تنأَ محبّتي عن البرّ. «في المجامع أبارك الربّ». لن أتركَ الذين تدعوهُم يتجاهلون جودتك، لأنّي أجمع إلى محبّتِك محبّة القريب.

عظة ثانية في المزمور الخامس والعشرين

الطهارة

يُلائم القديس أوغسطينُس المزمور مع الفكرة التي تقول بأنّ علينا أن نتسامح مع الأشرار في الكنيسة، الأمر الذي يبدو موجّهًا ضدّ الدوناتيّين الذين تذرّعوا، في انشقاقِهم، بالفوضى المنتشرة بين المسيحيّين، وبالمسيحيّين الضعفاء الذين يُزعزعهم الشكّ من اجتماع الأشرار مع الأبرار. ويحثّ الصالحين على أن يُثَمِّروا في نفوسِهم عطايا الله.

١ - قرأتم قداستُكم، مثلنا، هذا المقطع للقدّيس بولس: «على حسب الحقيقة التي علّمَناها يسوع المسيح، ينبغي أن تخلعوا عنكم الإنسان العتيق الذي عشتُم فيه في الماضي، والذي تُفسِده أوهام شهواتِه، وتتجدّدوا في داخل أنفُسِكم، وتلبسوا الإنسان الجديد الذي خُلِق على صورة الله، في البرّ والقداسة الحقيقيّة» (أفسس ٤: ٢١-٢٤). ولئلّا تتصوّروا أنّه ينبغي أن نتعرّى من شيءٍ محسوسٍ كمن يتعرّى من ثوب، وأن نلبس كمن يرتدي ثوبًا، كما لو كنّا نخلع عنّا رداءً لنلبس رداءً آخر؛ ومخافة أن تحول فكرةٌ أرضيّة دون أن يُتِمّ الناس في الداخل، وبطريقة روحيّة، ما يوصينا به الرسول، فإنّه يوضِح لنا، لتوّه ما معنى أن نخلع عنّا الإنسان العتيق، ونلبس الإنسان الجديد. لأنّ ما تبقّى ممّا قرأناه، يُفسّر لنا ذلك. يبدو وكأنّه يُجيب على هذا السؤال:

كيف أخلع عنّي الإنسان العتيق وألبس الإنسان الجديد؟ أأكون مثل إنسان ثالث أخلع عنّي عتيقًا كان لي، لأتّخذ جديدًا لم يكن لي؟ فنكون أمام ثلاثة، والذي في الوسط يتخلّى عن القديم ليلتصق بالجديد؟ إذًا، من أجل ألّا تُربكَنا فكرة كهذه، وألّا نجد مبرِّرًا لغموض النصّ، لكوننا لم نُتِمَّ الوصيّة، يُضيف القدّيس بولس: «لذلك أنبذوا الكذب، وليَصدُقْ كلّ واحدٍ منكم قريبَه في الكلام، لأنّا أعضاءٌ بعضُنا لبعض» (أفسُس ٤: ٢٥).

٢ - لا تذهبوا، يا إخوتي، إلى حدّ التصوّر بأنّ علينا ألّا نقول الحقيقة إلّا للمسيحيّين، فيما نستطيع أن نكذب على الوثنيّين. أصدقوا قريبكم؛ وقريبكم هو من وُلِد مثلكم من آدم وحوّاء. جميعُنا أقرباء بالولادة البشريّة؛ ولكنّنا إخوة أيضًا في الرجاء وفي الميراث السماويّ. عليكم، إذًا، أن تُعاملوا كلّ إنسانٍ على أنّه قريب، حتّى قبل أن يكون للمسيح. فإنّكم لا تعرفون منزلته أمام الله، وتجهلون ما رسمه الله له. يسجد امرؤٌ للحجارة، فتهزأون منه؛ ثم يتوب، ذات يوم، من كان لكم موضع سخرية، ويسجد للربّ ويصيرُ أتقى منكم. لدينا، إذًا، إخوةٌ مستترون في أولئك الناس الذين لم يصيروا بعدُ أبناءً للكنيسة، كما أنّ هناك أبناءً للكنيسة يتوارَوْن بعيدًا عنّا. لهذا علينا، بسبب جهلنا بالمستقبل، أن نرى في كلّ إنسانٍ قريبًا لنا، لا في الطبيعة البشريّة فقط، بل في الميراث السماويّ. لأنّنا نجهل ما سيغدو عليه ذاك الذي ليس اليوم بشيء.

٣ - إسمعوا، إذًا، ما يُسمّيه القدّيس بولس أيضًا، خَلْعَ الإنسان العتيق، ولبسَ الجديد. «أنبذوا كلّ كذب، وليَصدُق كلّ واحدٍ منكم قريبَه في الكلام، لأنّا أعضاءٌ بعضُنا لبعض. إغضبوا ولا تخطأوا»

(أفسس: ٤: ٢٥-٢٦). فإذا غضبت على عبدِك الذي أخطأ، فاغضب على نفسِك لئلّا تخطأ. «لا تغرُبِ الشمس على غضبكم» (أفسس ٤: ٢٦). أي لا يدُم غضبُكم طويلًا. لأنّ المسيحيّ إذا انزلق في الغضب، إن لضَعفٍ بشريّ، أو لسقمٍ في الجسد المائت الذي نلبسُه، فلا ينبغي أن يطول الغضب فيمتدّ إلى الغد. أنبذهُ من قلبك، قبل أن يُشرق النور الذي يُرى، لئلّا يحتجِب عنك النورُ الذي لا يُرى. على أنّ بوسعنا أن نُعطي هذا المقطع معنى آخر، ونرى في الشمس المسيحَ نورَ الحقّ وشمسَ البِرّ، لا الشمسَ التي يعبدها الوثنيّون والمانويّون، وتُنير أعين الخطأة، بل الشمسَ التي هي النور للطبيعة البشريّة، والبهجة للملائكة. أمّا البشر، فإذا كانت أعين قلوبِهم كليلة لا تقوى على احتمال نورها الساطع، فإنّهم يتطهّرون عن طريق العمل بالوصايا، لكي يتمكّنوا من تأمّلِها. وعندما تسكن تلك الشمسُ في الإنسان بالإيمان، إحترزوا ألّا يطغى الغضب فيكم، إلى حدٍّ يغرُب معه المسيح على غضبِكم، أو بالأحرى، يتخلّى عن نفوسِكم لأنّه يأنف السكنى مع الغضب. ولعلّنا نقول إنّه ينطفئ عنكم، إذ تنطفئون أنتم عنه: لأنّ الغضب المتأصّل يغدو حقدًا؛ وعندما يسود الحقد، تسود الجريمة. قال القدّيس يوحنّا: «من أبغض أخاه فهو قاتل» (١ يوحنّا ٣: ١٥). وقال أيضًا: «من يُبغض أخاه يبقى في الظلمة» (١ يوحنّا ٢: ٩). ولا عجب في أن يكون إنسان في الظلمة عندما تغرب الشمس عنه.

٤ - ولعلّ هذا هو أيضًا معنى ما سمعتموه في الإنجيل: «حصل خطرٌ على السفينة في البحيرة، وكان يسوع نائمًا» (راجع لوقا ٨: ٢٣). لأنّا نُقلعُ في بحيرةٍ، لا الرياح تبرحُها ولا العواصف؛ وتجارب الدهر لا تنفكّ كلّ يومٍ تعمل على إغراق سفينتِنا. كيف يحدُث ذلك لو لم يكن يسوع نائمًا؟ لوْ لم يكن يسوع نائمًا فيك، لما كنت تتعرّض لكلّ تلك

الزوابع والأنواء، بل لنعمتَ بالسلام الداخليّ، لأنّ يسوع يسهرُ معك. ماذا يعني أنّ يسوع ينام؟ يعني أنّ النائم هو إيمانك بيسوع المسيح. إذ ذاك تهبّ العواصف على بحيرة هذه الحياة، فترى الآثم مزهوًّا، والبارَّ في الضيق: تلك هي التجربة، وتلك هي الأنواء التي تهوج. وتصرخ نفسُك: أهذا، إذًا، عدلُك يا ربّ، أن ينعم الشرّير بالفرح، ويُعانيَ الصدّيق الشدّة؟ تحنق على الله وتقول: أهذا، إذًا، عدلُك؟ فيجيبُك الربّ: أهذا، إذًا، إيمانُك؟ أهذا ما وعدتُك به؛ ألأجل أن تزهو في هذه الحياة، أنت مسيحيّ؟ تتكدّر لرؤية الأشرار في نعمةٍ يمرحون، فيما ينبغي أن يُعذّبوا مع إبليس. لمَ هذا اللغو؟ لمَ تضطرِب لصخب أنواء هذه الحياة وعواصفِها؟ - لأنّ يسوع نائم، أو بالأحرى، إيمانك بيسوع المسيح هو النائم في قلبِك. ماذا تفعل لتخرج من الخطر؟ - أيقِظ يسوع، وقل له: «يا معلّم، ها نحن نهلِك!» (لوقا ٤ : ٢٤). هذه البحيرة القليلة الأمان تُخيفُنا، ونكاد نهلِك. فيستيقظ يسوع، أو بالأحرى يستيقظ الإيمان بيسوع في قلبِك، وفي نور الإيمان، سترى في نفسِك أنّ الخيور المعطاة اليوم للأشرار، لن تبقى لهم إلى الأبد: فإمّا يفقدونَها في هذه الحياة، أو على الأقلّ عند الموت. أمّا أنت، فالذي وُعِدتَ به سيبقى إلى الأبد. وأمّا هم فسعادتُهم لوقتٍ، وسرعان ما تزول. «تيبس وتسقط كزهرة عشب» (أشعيا ٤٠ : ٧)، «لأنَّ كلّ بشرٍ عُشبٌ» (أشعيا ٤٠ : ٦). «العشب يبس، والزهرة سقطت وأمّا كلمة الربّ فتبقى إلى الأبد» (أشعيا ٤٠ : ٨). أشِح بوجهِكَ، إذًا، عن كلّ ما يسقط، وانظر إلى كلّ ما هو باقٍ. فعندما يستيقظ المسيح، لن تقدر العاصفة أن تهزم قلبَك، ولا الأنواء أن تُغرِق سفينتَك، لأنّ إيمانَك سيأمر الرياحَ فتهدأ، والعواصفَ فتسكن، ويزول الخطر. هذا، يا إخوتي، معنى مشورات الرسول لنا بأن نخلع عنّا الإنسان العتيق.

«إغضبوا، ولا تخطأوا؛ ولا تغربِ الشمسُ على غضبِكم، ولا تجعلوا لإبليس موطئًا» (أفسُس ٤ : ٢٦-٢٧). الإنسان العتيق هو الذي كان يترك موطئًا لإبليس، فلا يكنْ كذاك أمرُ الجديد. «من كان سارقًا، فلا يسرِقْ!» (أفسُس ٤ : ٢٨). الإنسان العتيق يسرق، فلا يسرِقنَّ، بعدُ، الإنسانُ الجديد! إنّه هو أيضًا إنسان، وهو الإنسان نفسُه: كان آدم، فليَصِرِ المسيح يسوع؛ كان الإنسانَ العتيق، فليَغدُ الإنسان الجديد.

٥ - لكن، لنتأمّلْ مليًّا في المزمور، فنرى أنّ كلّ مسيحيّ يتقدّم في الكمال في الكنيسة، ينبغي أن يتحمّل الأشرار في الكنيسة. على أنّ الذي يُشبههم لا يعرفهم، لأنّ الذين يشكون في الغالِب من الأشرار هم بدورِهم أشرارٌ؛ وأيسر على الإنسان الصحيح أن يحتملَ مريضَين، من أن يحتمل مريضٌ مريضًا. فإليكم، إذًا، يا إخوتي، ماذا نقول: «الكنيسة، في هذه الدنيا، بيدر يُدرَسُ عليه الحَبّ». كرّرنا هذا القول مرارًا، وها نحن نكرّره. على البيدر قشٌّ وحنطة. فلنحترزْ ألّا نفصل القشّ، قبل أن يأتي الربّ وبيدِه المذرى. لا يخرجنّ أحدٌ من البيدر قبل ذلك الوقت، وكأنّه لا يقوى على تحمّل الخطأة، لئلّا يراه العصفور خارج البيدر، ويلتقطَه قبل أن يُجمَع في الأهراء السماويّة. إسمعوا يا إخوتي ماذا يعني هذا الكلام. عند بدء الدراسة، لا تتلامس الحبوب من خلال القشّ، وتكون بمثابة الغريبة عن بعضِها بسبب القشّ الذي يفصلُ بينَها. فمن لا ينظر إلى الحصاد إلّا من بعيد، لا يرى غير القشّ، ويصعب عليه أن يرى الحَبّ إن لم يقترب ويمدّ يده وينفخ بفمِه فيُحدِث الفَصل. واحيانًا يحصل أن يكون الحبّ الجيّد منفصلًا وغريبًا بعضه عن بعض، فيظنُّ المسيحيّ الذي يتقدّم بورع أنّه وحيد. وهذه الفكرة، يا إخوتي، كانت تجربةً لإيليّا، جعلت ذاك النبيّ العظيم يهتف، على ما يُذكّرنا به الرسول: «يا ربّ، قتلوا أنبياءك، ودمّروا مذابحَك، وبقيت

أنا وحدي، وقد طلبوا نفسي ليأخذوها» (الملوك الثالث ١٩ : ١٠؛ رومة ١١ : ٣). لكن، بمَ أجابَه الربّ؛ «لقد أبقَيتُ لي سبعة آلاف ركبةٍ لم تجثُ للبعل» (الملوك الثالث ١٩ : ١٨). لا يقول الله : هناك اثنان أو ثلاثة مثلك، بل قال: لا تحسَب أنّك وحدَك، فإنّ معك سبعة آلاف، أفتحسب بعدُ أنّك وحدك؟ إليكم، باختصار، ما نبّهتُكم إليه منذ البداية. فلتُصغِ إليّ قداستُكم بانتباه، وأسأل الله أن يُلامس قلوبكم برحمتِه، لكي تفهموها، فتُثمر فيكم. إسمعوا بكلمة: لا يعتبرَنّ الذي ما زال شرّيرًا أنّه لا يوجد من هو صالح، ولا يتوهّمَنَّ الصالح أنّه وحدَه صالح. أتفهمون جيّدًا؟ أعيد وأكرّر، فأصغوا: لا يتصوَّرْ من كان شرّيرًا، وفحص ضميرَه، فلم يتلقَّ غير شهادة كاذبة، أنّه لا يوجدُ البتّة صالحٌ؛ ولا يحسبنَّ الصالح أنّه وحدَه صالحٌ، ولا يخافنّ، على برِّه، من مخالطة الأشرار؛ يأتي يومٌ يُفصَل فيه عنهم. وقد رتّلنا اليوم: «لا تُهلِك نفسي مع الخطأة، وحياتي مع أهلّ الدماء» (٢٥ : ٩). ما معنى «لا تُهلك نفسي مع الخطأة»؟ - أي لا تُهلكني لكوني مختلطًا معهم. لماذا يخشى الهلاك معهم؟ - أظنُّ أنّه يقول لله: تحتملنا الآن ونحن مختلطون، لكن لا تُهلك بالجملة من تركتهم مختلطين. ذاك هو معنى المزمور الذي أريد أن أتأمّله بسرعة معكم، لقِصَرِه.

٦ - «قاضِني يا ربّ» (٢٥ : ١) هذه الرغبة في المقاضاة رغبةٌ مقيتَة، وقد تحمل له الخطر. ما هو ذلك الحكم الذي يتوسّلُه؟ - فصله عن الأشرار. وحكم الفصل هذا، هو الذي يُشير إليه بصراحة في مزمورٍ آخر: «أللهمَّ قاضِني، وافصل دعواي عن دعوى شعبٍ ليس بقدّوس» (٤٢ : ١). نرى هنا معنى عبارة «قاضِني». لا يذهبَنَّ أخيار وأشرار إلى النار الأبديّة، بلا تمييز، كما نرى اليوم الأشرار والأخيار يدخلون معًا إلى الكنيسة. «قاضِني يا ربّ». ولماذا؟ - «لأنّي سلكت

في طهارتي، ورجائي في الربّ لن يتزعزع» (٢٥ : ١). ما هو هذا الرجاء في الربّ؟ - إنّ من لم يرجُ الربّ ويتوكّل عليه، يهوي وسط الأشرار. من هنا جاء المحرّضون على الإنشقاقات: تزعزعوا لرؤية أنفُسِهم وسط الأشرار، وهم الأفظع إثمًا، وخجلوا من أن يكونوا صُلّاحًا وسط الخطأة. ألا ليتَهم كانوا الحَبّ الجيّد، لكانوا احتملوا القشّ في الحصاد، إلى أن ياتي حامل المذرى. لكنهم لم يكونوا سوى قشّ فهبّت الريح، وعجّلت مجيء مذرى الربّ، وفصلت عن الحصاد ذاك القشّ وطرحَته وسط الأشواك. فُصل القشُّ، فهل كلّ ما بقي كان حنطة؟ القش وحدَه يطير في الريح قبل الفصل، غير أنّه يبقى قشٌّ وتبقى حنطة؛ وعندما يحين زمن الفصل يُذرّى القشّ. إليكم ما يقوله النبيّ: «سلكت في طهارتي، فرجائي في الربّ لا يتزعزع». لو لم أرجُ سوى الإنسان، لربّما تعثّر هذا الإنسان وسقط في الشرّ، ولم يعد يسلك سبل البِرّ التي تعلّمها، أو حتّى علّمها، في الكنيسة، وتاه في السبل التي أرشده إليها الشيطان. لو رجوتُ إنسانًا، لخاب رجائي وتهاوِى، وسقط مع ذلك الإنسان المترنّح الساقط. ولكنّي وضعت رجائي في الربّ، فلن يتزعزع.

٧ - يُتابع النبيّ فيقول: «جرّبني يا ربّ وافحص نفسي. إمتحن بالنار كُليَتَيَّ وقلبي» (٢٥ : ٢). ما معنى عبارة «إمتحن بالنار كُليتيَّ وقلبي»؟ - معناها إمتحن بالنار شهواتي وأفكاري. فالكليتان، هنا، تُمثّلان الشهوات، والقلبُ الأفكار، لئلّا تقف أفكاري عند الشرّ، فيُثير الشرّ شهواتي. وبأيّ نارٍ أمتَحِنُ كُليَتَيَّ؟ - بنار كلامِك. وبأيّ نارٍ أمتحنُ قلبي؟ - بنار روحِك. وعن هذه النار قيل في مكانٍ آخر: «ليس من يتوارى عن لظاها» (مزمور١٨ : ٧)، وعنها قال الربّ ايضًا: «جئتُ لألقي على الأرض نارًا» (لوقا ١٢ : ٤٩).

٨ - ويُتابع النبيّ: «فإنّ رحمتك أمام عينيَّ، ولذّ لي حقُّك» (٢٥: ٣). أي أنّني لم أطلب رضا الناس، بل رغبت في أن أرضيَك في داخلي الذي تنفذ إليه عيناك، لا يهمّني ألّا أُرضيَ الناس الذين لا يرون إلّا الظاهر، على ما قال الرسول: «فليختبِر كلّ واحدٍ عمَلَه، وحينئذٍ يكون افتخاره بنفسِه لا بسواه» (غلاطية ٦: ٤).

٩ - «لم أجالِس أهل الباطل» (٢٥: ٤). ما معنى عبارة «لم أجالِس»؟ إسمعوا يا إخوتي. بقولِه «لم أجالس»، يستنجد بالله الذي يرى كلّ شيء. بوسعِك أن تغيب عن اجتماع، وتكون جالسًا فيه. مثلًا: لست في مسرح، لكنّ أفكارك المسرحيّة تستحوِذ على ذهنِك، خلافًا لهذا القول: «إمتحن بالنار كُليَتَيَّ»؛ فأنت، في هذه الحال جالسٌ في المسرح، على الرغم من غيابك عنه بالجسد. لكن، قد يحدُث أن يُدخِلَك إليه صديق، ويستبقيك فيه، أو قد تُرغمَك بادرة محبّة على الجلوس. كيف يكون ذلك ممكنًا؟ قد يحدُث أن يرغب مسيحيٌّ في صنع عملٍ صالحٍ يُرغمه على الجلوس في المسرح قاصدًا أن يُحرّر مُصارعًا. إذ ذاكَ بوسعِه أن يجلس وينتظر أن يظهر ذاك الذي يُريد إنقاذَه. فعلى الرغم من حضور ذاك الرجل بالجسد، فإنّه لم يُجالس أهل الباطل. فما معنى المجالسة؟ معناها أن تكون في القلب مع الجلساء. فإن غاب قلبُك، فأنت لا تُجالِس على الرغم من حضورك الجسديّ. وإن حضر قلبُك، فأنت مجالِسٌ على الرغم من غيابِك. «وإلى صانعي الإثم لا أنضمّ، إذ قد أبغضتُ مجمع الأشرار» (٢٥: ٤، ٥). ترون، إذًا، أنّ مجالسة الأشرار تكون في الداخل.

١٠ - «مع الأبرار، أغسِل يديَّ» (٢٥: ٦)، لا بماءٍ مرئيّة. إنّما غسل اليدين يكون في صنع الأعمال الصالحة بأفكارٍ نقيّةٍ طاهرة في

عينَي الله. فإنّه تحت نظر الله ذاك المذبح الذي تقدّم إليه الكاهن الذي قرّب ذاتَه لأجلِنا. المذبح مقدّس، وليس بوسع أحدٍ أن يتقدّم منه ما لم يغسل يدَيه مع الأبرار. صحيحٌ أنّ كثيرين يتقدّمون منه بغير استحقاق، ويرضى الله لوقتٍ بأن تُدنَّس أسرارُه. لكن، يا إخوتي، أيكون أمرُ أورشليم السماويّة كأمر الأسوار التي تطوّقنا؟ قطعًا لا؛ وإذا دخلتم مع الأشرار ضمن أسوار هذه الكنيسة، فلن تدخلوا مع الأشرار حضن إبراهيم. فلا تخافوا، إذًا، أن تغسلوا أيديكم. «سأطوف بمذبح الربّ»: ذاك المذبح الذي تقرّب عليه نذورك لله، أو تسكب صلواتِك، بإيمان طاهر، وتُعرّف الربّ بنفسِك؛ وإذا كان فيك ما يُمكن ألّا يرضي الله، فإنّ الذي يقبل نذورك واعترافاتِك يشفيك. فاغسِل يدَيك وسط الأبرار، وطُف بمذبح الربّ لكي تسمع أصوات تسابيحِه.

١١ - وهذا، في الواقع، ما يلي: «لأسمع صوت تسابيحك، وأُحدّث بجميع معجزاتِك» (٢٥ : ٧). ماذا تعني عبارة «لأسمع صوت تسابيحِك»؟ - أي أن أفهم. والحال، فإنّ السمع، عند الله، لا يكون في استشفاف الأصوات التي يسمعها كثيرون، وكثيرون آخرون لا يسمعونَها. فيا لكثرة الذين يسمعوننا ويُصمّون آذانَهم عن الله! يا لكثرة من لهم آذانٌ، لكن لا تلك الآذان التي تكلّم عنها يسوع حين قال: «من له أذنان سامعتان فليسمَع» (متّى ١٣ : ٩). ماذا يعني، إذًا، سماع صوت التسبيح؟ سأقولُ، لو تسنّى لي، بمعونة الله وصلواتِكم. إنّ سماع صوت التسبيح يعني أن أفهم في داخلي أنّ كلّ ما فَسُد فيَّ بالخطيئة، نابعٌ منّي، وكلّ ما هو صالحٌ ومستقيم، فمن الله يأتيني. فاسمع، إذًا، صوت التسبيح، من دون أن تُسبّح نفسَك، مهما كان برُّك. إمدَح بِرّك، تغدُ شرّيرًا. جعلك التواضع بارًّا، فأعادتك الكبرياء شرّيرًا. سعيت إلى النور بتوبتِك، فجعلتك التوبة نيّرًا، وغدوتَ مُشرقًا.

لكن، إلى مَن تُبتَ؟ أإلى ذاتِك؟ لو كان لك أن تستنير بالتوبة إلى ذاتِك، لما وقعتَ قطّ في ظلمة، لأنّك تكون مع ذاتِك في كلّ حين. فمن أين يأتيك النور؟ - من توبتِك إلى آخرَ غيرك. ومن هو هذا الآخر الذي ليس أنت؟ - الله الذي هو النور. لم تكن أنت نورًا بسبب خطاياك. والرسول الذي أراد أن يُسمِعَ المؤمنِين صوت التسبيح يقول: «كنتم أمسِ ظُلمة، وأنتم الآن نورٌ» (أفسس ٥ : ٨). ماذا تعني عبارة «كنتم أمسِ ظلمةً» سوى أنّكم كنتم تلبسون الإنسان العتيق؟ وأنتم الآن نورٌ. ذاك أنّكم نُوّرتُم فصرتم نورًا بعد أن كنتم ظلمة. حذارِ أن تحسب أنّك نورٌ بذاتِك: إنّما النور هو «الذي ينير كلّ إنسانٍ آتٍ إلى العالَم» (يوحنّا ١ : ٩). أمّا أنت، فإنّ طبيعتَك، وإرادتك الفاسدة، وبعدك عن الله، كلّها جعلتك ظلمةً، وصرت الآن نورًا. ولكن لئلّا يغترَّ الذي يُسرُّهم بقولِه: «أنتم نورٌ»، يُضيف الرسول: «في الربّ». فهو يقول: «كنتم أمسِ ظلمةً، أمّا الآن فأنتم نورٌ في الربّ». فإذا لم يكن نورٌ خارجَ الربّ، وإذا كنتم أنتم نورًا، فذاك بالتحديد لأنّكم في الربّ، «وأيّ شيءٍ لك لم تنلْهُ؟ فإن كنت نلتَه فلماذا تفتخِر كأنّك لم تنلْه؟» (١ قورنتُس ٤ : ٧). تلك هي، في مكانٍ آخر، لغة الرسول للمتكبّرين الذين يُريدون أن ينسبوا لأنفُسِهم عطايا الله، ويفتخروا بما لديهم من خيرٍ كأنّه نابعٌ من ذواتِهم. يقول لهم: أيّ شيءٍ لكم لم تنالوه؟ فإن كنتم نلتموه فلِماذا تفتخرون كأنّكم لم تنالوه؟ فمن أعطى الوضيع انتزع من المتكبّرين، لأنّ من يُعطي بوسعِه أن يستردّ. ذاك هو المعنى، يا إخوتي، هذا إذا قُيّضَ لي أن أفهِمَكم إيّاه بقدر ما كنت أرغب. لكنّي إن لم أفِ بالمرام، فإنّي على الأقل فعلتُ المستطاع. ذاك هو معنى عبارة «سأغسل يدّي مع الأبرار، وأطوف بمذبحك، يا إلهي، لأسمع صوت تسبيحِك»؛ أي من أجل ألّا أغترّ بالتوكّل على نفسي، في ما فيَّ من

صلاح، بل عليك أنت أتوكّل لأنّك أعطيتنيه؛ ولا أطلب المجد لنفسي، بل أطلب مجدك وأطلبه فيك. وعليه أضاف النبيّ: «لأسمع صوت تسبيحِك وأُحدِّث بجميع معجزاتِك». أجل، بمعجزاتِك لا بمعجزاتي.

١٢ - والآن يا إخوتي، أنظروا إلى الإنسان الذي يُحبّ الله، والذي توكّل على الله. ها هو وسط الأشرار، ويسأل الله ألّا يُهلكَه مع أولئك الأشرار، لأنّ الله مُنزّهٌ في أحكامه. وأنت إذا رأيت أناسًا مجتمعين في مكانٍ واحد، تظنُّهم متساوين في الفضل؛ فلا تخَف، لأنّ الربَّ لا يخطأ. أنت بحاجةٍ إلى نسمةٍ، لتفصلَ القشّ عن الحنطة الجيّدة؛ بحاجةٍ إلى هبّة ريحٍ؛ وبما أنّك لست أنت نسمة الريح القويّة تلك، تتمنّى أن تهبّ الريحُ فتُسعِفك. وعندما تُذرّي الحصاد وتهزّ القشّ والحنطة، تحمل الريح كلّ ما كان خفيفًا، وتُبقي ما ثقُل. أنت تلجأ إلى الريح لتفصل ما في حصادِك. لكن، هل الله بحاجةٍ إلى من يُسعِفه في أحكامِه، لئلّا يُهلِك الأخيار مع الأشرار؟ لا تخف، إذًا، واطمئِنَّ، حتّى ولو كنت وسط الأشرار؛ وقلْ مع النبيّ: «يا ربّ إنّي أحببتُ جمال بيتِك» (٢٥ : ٨). بيت الله هذا هو الكنيسة، التي تضمّ، بلا شكّ، الكثير من الأثَمة؛ لكنّ جمال بيت الله هذا هو في الأبرار وفي القدّيسين: وذاك هو الجمال الذي أُحِبّه فيها. «أحببت مقام سُكنى مجدِك». ما معنى هذا القول؟ أقرّ بأنّ لهذا القول المعنى نفسَه، الغامض إلى حدٍّ ما، لما جاء أعلاه. فليُعِنّي الربّ ويُهيّئ قلوبكم للإصغاء. ما الذي يُسمّيه النبيّ «مقام سكنى مجدِك»؟ سبق أن قال: «أحببت جمال بيتِك»؛ ولكي يُفسّر هذا الجمال، يُضيف: «أحببت مقام سكنى مجدِك». لا يكتفي بأن يقول: «مقام سكنى الربّ»، بل قال: «مقام سكنى مجد الله». فما هو مجدُ الله هذا؟ عن هذا المجد، قلتُ

لتوّي، بأنّ من يصير بارًّا لا يفتخِر بنفسِه بل بالله يفتخر. «لأنّهم جميعهم خطئوا، فإنّهم جميعهم يحتاجون مجد الله» (رومة ٣: ٢٣). إذ ذاك، فإنّ الذين يسكن الله فيهم، ويُمجّدونَه لعطاياه، ولا يبتغون أن ينسبوا إلى أنفُسِهم ما لهم من خير، بل يُقرّون بأنّهم من الله نالوه، فهؤلاء يصنعون جمال بيت الله. لَمَا كان الكتاب المقدّس يُميّزهم بشكلٍ خاصّ، لو كان غيرُهم يملكون عطايا الله حقًّا، ولكنّهم لا يُمجّدون الله بل يُمجّدون أنفُسَهُم: يتمتّعون بعطايا الله، لكنّهم لا يُساهمون في صنع جمال بيتِه. لأنّ الذين يُساهمون في صنع ذلك البيت الذي هو مقام سكنى مجده، إنّما هم مقام سكنى مجده. لكن، أين يسكن مجد الله إن لم يكن في الذين يفتخرون بما يصنعه مجد الله لا مجدهم؟ إذًا، لأنّي أحببت مجد بيتِك، أي جميع الذين هم لك ويطلبون مجدَك؛ ولأنّي لم أتوكّل قَطُّ على إنسانٍ، ولم أقتبِل المنافقين، ولا أرغب لا في لقائِهم ولا في مجالستِهم في مجامعِهم؛ ولأنّ هذا كان سلوكي في كنيسة الله، فماذا يكون ثوابي؟ الآية التالية تعطينا الجواب: «لا تُهلِك نفسي مع الأثَمة، وحياتي مع أهل الدماء» (٢٥: ٩).

١٣ - «الفاحشة ملءُ أيديهِم، وأَيْمانُهم ملوّثةٌ بالرُشوة» (٢٥: ١٠). الرُشوة ليست فقط تقادم تُبذلُ فيها الثروة والذهب والفضّة والنفائس، ولا جميع الذين يقبلونَها، كرشوةٍ يقبلونَها. الكنيسة تقبل التقادم أحيانًا، وبطرس نفسُه قبلَها، والربّ قبلَها أيضًا، فكان له كيسُ مال، والفضّة التي كانت تُلقى فيه، كان يوضاس يختلسُها (يوحنّا ١٢: ٦). ما معنى قبول التقادم؟ إنّ من يحكم بالظلم، لا طمعًا بذهبٍ أو فضّة أو نفائس أخرى، لكن لمجدٍ باطلٍ، يقبلُ تقدمة، أحطّ تقدِمة. فتح يده ليقبل شهادة لسانٍ غريب، وخسر شهادة ضميرِه. إذًا،

«الفاحشة ملءُ أيديهم، وأَيْمانُهم ملوّثةٌ بالرشوة». ترَون، يا إخوتي، أنّهم تحت عينَي الله أولئك الذين لم تتلوّث أيديهم بالإثم، ولا أَيْمانُهم بالرشوة. إنّهم تحت عينَي الله، ولا يسعُهم أن يقولوا إلّا له وحده: «لا تُهلِك نفسي مع الأثمة، وحياتي مع أهل الدماء». وحده بوسعه أن يرى أنّهم لا يقبلون أيّ رشوة. وهكذا، يا إخوتي، على رجُلَين أن يُصفّيا خلافَهُما أمام خادمٍ لله، وكلّ منهما لا يرى الحق إلّا في دعواه. فلو رأى أنّ دعواه غير محقّة، لما لجأ إلى قاضٍ. هذا يدّعي الحقّ، وذاك أيضًا. يتقدّمان من القاضي، وقبل الحكم، يقول كلٌّ منهما: «نرضى بحكمِك؛ معاذ الله أن نطّرح قضاءَك!» وانتم، ماذا تقولون؟ - «أحكم، بحسب نظرتِك، لكن احكم! ويلٌ لي إن حاولت أن أعترِض». كلاهما يُحبّ القاضي قبل أن يلفظ حكمَه. ذاك أنّ الحكم سيدين أحدَهُما، ولا يُعرف من يكون المُدان. فإذا أراد القاضي أن يُرضيَ الإثنَين، فهذا يعني أنّه نال مديح الناس هديّةً. وهذه الهديّة التي قبِلَها، أنظروا أيّ هديَّةٍ أفقدته. قبِل كلامًا يُحدثُ صخبًا ويزول، ليخسر الكلام الذي يتردّد ولا يزول. لأنّ كلمة الله تتردّد بلا انقطاعٍ ولا تزول، أمّا كلمة البشر فتضمحلّ، لكثرة ما تُلفَظ. يخسر الثابت الدائم، ليكسب التافه الزائل. لكنّه إن لم يلتفت إلّا إلى الله، فإنّه سيلفظ حكمه ضدّ أحدِهما، مركّزًا أنظاره على الله الذي إليه يُصغي وهو يلفظ حكمه. ولعلّ الذي يدينه الحكم لا يقوى على إيقافِه، خاصّة إن لم يكن ذا صلةٍ بالحقّ الكنسيّ، بل من شأن شرائع الرؤساء الذين جعل احترامُهم للكنيسة أحكامَه كلّها غير قابلة للنقض. فإذا لم يكن قادرًا على إيقاف الحكم، يُحوّل ناظرَيه عن ذاتَه، ويتطلّع بشذرٍ إلى القاضي، ويكاد يُمزّقُه بكل قواه. يقول: لقد أراد أن يُرضي خصمي، فآثر الغنيّ، وتلقّى منه الرشاوى، وخاف أن يجرحَه. إذًا، يتّهم القاضي بأنّه قبل الرشوة. ولو

انّ فقيرًا رفع دعواه ضدّ غنيّ، فجاء الحكم لصالح الفقير، لقال الغنيّ الكلام نفسَه: ارتشى القاضي. فأيّ رشوة يُقدّم الفقير؟ يقول (الغنيّ): إنّه نظر إلى فقرِه، وخاف أن يُعاب إن هو قضى ضدّ الفقير، فإذا به يخنق صوت العدل ويحكم ضدّ الحقّ. فإذا كان يستحيل تفادي تلك المهاترات، فافهموا أنّ الله وحدَه يرى الذين يقبلون الرُشى والذين يرفضونَها؛ والذين يرفضونها بوسعهم وحدهم أن يقولوا أمامَه: «أمّا أنا فقد سلكت في الطهارة، فافتدِني وارحمني، فإنّ قدمِي ثابتةٌ في الطريق القويم» (٢٥: ١١، ١٢). لعلّي زللتُ بالشكّ، وبسعي الذين راحوا يُندّدون بوقاحة وجسارة ضدّ حكمي، لكنّ قدمِي ثبتت في الطريق القويم. لماذا في الطريق القويم؟ - لأنّه سبق أن قال: «على الله توكّلت فلا أتزعزع» (٢٥: ١).

١٤ - إلامَ يَخلُص؟ - «في المجامع الكبرى أبارك الربّ» (٢٥: ١٢) أي أنني لا أبارك نفسي في الكنائس، كما لو كنت مطمئنًا إلى الناس، بل أباركك أنت بأعمالي. ومباركة الله في المجامع، يا إخوتي، هي العيش بطريقة تكون معها أعمال كلٍّ منّا مجدًا للربّ. إنّ مباركة الربّ باللسان، وشتمه بالأعمال، لا تعني مباركته في المجامع. الجميع يُباركونه باللسان، لكنّهم لا يُباركونَه جميعهم بالأعمال. بعضهم يُباركونِه بالكلام، والبعض الآخر بالأعمال. أمّا الذين تتنافى أعمالُهم مع كلامِهم، فأولئك يُجدّفون على الربّ. والذين لا يدخلون الكنيسة، فعلى الرغم من أنّ الذريعة الحقيقيّة التي تمنعهم من أن يكونوا مسيحيّين هي تعلّقهم بحياة الفساد، فإنّهم يتذرّعون بالمسيحيّين الأشرار، ويُفاخرون بأنفُسِهم، ويضلّون إذ يقولون: لماذا أستنهض نفسي لأصير مسيحيًا؟ خدعني مسيحيٌّ، ولم أخدعهُ قطُّ. حنث مسيحيٌّ بيمينِه عليّ، ولم أحنث قَطّ. هذه اللغة تُبعِدهم عن الخلاص، ولا

ينفعهم أن يكون فيهم القليل من الصلاح، لكن أقلّه ألّا يكونوا كثيري الشرّ. فكما أنهّ من العبث أن يفتحَ من في الظلمة عينَيه، كذلك من العبث أن يُغمضَهما وهو في النور. تلك هي صورة وثنيٍّ أتكلّم عنه بسبب حياته الشريفة في ظاهرها. يفتح عينَيه، غير أنّه في الظلمة، لأنّه لا يعرف الربّ الذي هو نورُه؛ أمّا المسيحيّ الذي يعيش في الفساد، فإنّي أعترف أنّه في نور الله، لكنّ عينَيه مغمضَتان. في مجونِه، يرفض أن يرى الذي باسمه هو، في وضح النهار، أعمى، ولا يُحييه أيّ شعاعٍ من النور الحقيقيّ.

عظة أولى في المزمور السادس والعشرين

التوكّل على الله

استطاع داود في هذا المزمور أن يُعبّر عن آلام نفيِه، غير أنّ لغتَه تُلائم كلّيًّا أعضاء الكنيسة المناضلة، الذين يتعزَّوْن، وسط متاعب هذه الحياة، برجاء الراحة والسعادة التي سينعمون بها في بيت الله.

لداود، قبل أن يُمسَح (٢٦: ١)

١ - هذه اللغة لغة جنديّ المسيح الذي يلمسُ الإيمان. «الربّ نوري وخلاصي، فممّن أخاف»؟ (٢٦: ١). الربّ هو الذي يمنحني نعمة المعرفة والخلاص، فمن يقدر على انتزاعي منه؟ «الربّ حصن حياتي، فممّن أفزع؟»: هو الربّ يصدّ هجمات أعدائي ومكائدَهم، فمَن أهاب؟

٢ - «يتقدّم عليّ أشرارٌ ليأكلوا لحمي»: أشرارٌ يتقدّمون عليَّ ليعرفوني ويشتموني؛ ويتباهون عليّ، حين أرغب في أن أتقدّم. «مُضايقيَّ وأعدائي» تفترس أنيابُهم شهواتي الجسديّة، لكنّها لا تقوى على افتراسي. لا أولئك الذين باسم الصداقة يُعيّرونني ويُحاولون أن يصرفوني عن رسومي، بل أعدائي أيضًا «يعثرون ويسقطون». بفعلتِهم هذه، دفاعًا عن رأيِهم، ضَعُفوا وهانوا ليعتنقوا عقيدةً فضلى، فإذا بهم يسقطون في بغض الكلمة التي تحملُني على العمل ضدّ إرادتِهم.

٣ - «إذا اصطفّ عليّ عسكرٌ فلا يخاف قلبي» (٢٦: ٣) فليتآمرْ وليقمْ عليّ مُضايقيَّ، فلن يخافَهم قلبي ويصطفّ معهم. «وإن قام عليّ قتالٌ، زاد رجائي». حتّى ولو نزلت على رأسي مكائد العالَم، فسأوطّد رجائي بالصلاة التي يتلوها قلبي.

٤ - «التمستُ الربّ مرّة واحدة، وسألتمِسُه بعدُ» (٢٦: ٤). ما طلبتُه من الربّ سأعود فأطلبه أيضًا. «أن أقيم في بيت الربّ جميع أيّام حياتي» (٢٦: ٤). لأنّي، طوال إقامتي في هذه الدنيا، لا يفصلني ضيقٌ عن عداد الذين يرعَون وحدة الإيمان في المسكونة كلّها. «لكي أعاين يومًا بهاء الربّ» ذاك أنّ الثبات في الإيمان يكشف لي بهاء الربّ الذي يفوق كلّ وصف، فيتسنّى لي أن أتأمّلَه وجهًا لوجه. «وأن أكون مُحصّنًا كهيكلِه»، وليُلبِسني الموتُ المغلوب ثوب الخلود، ويجعلني هيكلًا للربّ.

٥ - «لأنّه أخبأني في مظلّتِه، يوم محنتي» (٢٦: ٥): لأنّه في هذا الجسد المائت الذي لبسه «**الكلمة**»، هيّأ لي ملجأً يُحصّنني من التجارب التي تخضع لها حياتي المائتة. «سترني بستر خبائِه»: حفظَني عندما كان في قلبي الإيمانُ الذي يُبرّر (رومة ١٠: ١٠).

٦ - «على صخرةٍ رفعني» (٢٦: ٥). ولكي يسير بي إلى الخلاص، بإعلان إيماني، قوّاني لأعترِف به في وضح النهار. «فأعلى رأسي فوق أعدائي» (٢٦: ٦). ما تُراه يحفظ لي للغد، وجسدي من اليوم ميت بالخطيئة، وأشعرُ بأنّ نفسي خاضعة لشريعة الله، وليست منقادَةً لشريعة الخطيئة؟ (راجع رومة ٨: ١٠) «حوّلت نظري في كلّ اتّجاه، وقرّبت لله في خبائِه ذبيحة تسبيح» (٢٦: ٦). رأيت أنّ المسكونة تؤمن الآن بالمسيح، ولأنّه اتّضع زمنًا من أجلِنا، باركتُه في

غمرة بهجتي. تلك هي الذبيحة التي قرّبتُها له. «أرنّم وأُشيد للربّ»: قلبي وأعمالي تشهد له بفرحي.

٧ - «إليك يا ربّ أرفع صوتي، فاستجب لي» (٢٦ : ٧): استجب أللهمَّ إلى صوت قلبي الذي ترفعه إلى أذنَيك أشواقي المضطرمة. «فارحمني واستجِب لي». إرحمني واستجب دعائي.

٨ - «نطق قلبي، قال: التمستُ وجهَك» (٢٦ : ٨). لم أصلِّ أمام الناس، بل في الستر، حيث وحدك تسمع، التمسك قلبي وقال: ألتمسُ ثوابًا، لا خارجًا عنك، بل تحت نظرك الرؤوف. تلك هي النظرة التي أريد أن ألتمِسَها يا إلهي. نظرة سألتمِسُها بلا انقطاع؛ لا أستسيغ السوء، وحبّي لك لا حدود له، لأنّه الأغلى على قلبي.

٩ - «لا تحجُب وجهك عنّي» (٢٦ : ٩)، لكي أجد ما أطلُب. «لا تبتعِد عن عبدِك، في غضبِك»، لئلّا أطلبَك فأتعلّق بأشياء أخرى. فأيّ قِصاص يكون، إذًا، أمَرَّ على من يُحبُّك، ويبحث في وجهِك عن نور الحقّ؟ «هلمَّ إلى نُصرتي!» كيف لي أن أجدَك إن لم تُنجِدْني؟ «لا تتركني ولا تخذلني يا إله خلاصي» (٢٦ : ٩). لا تخذل مائتًا يجرؤ على التماس إلهٍ أزليّ، فأنت يا إلهي تشفي جراح خطيئتي.

١٠ - «ها إنّ أبي وأمّي تركاني» (٢٦ : ١٠). ها إنّ مملكة هذا العالَم، ومدينة هذه الدنيا اللتين وهبتاني، لزمنٍ، هذه الحياة الفانية، قد تركتاني لأنّي كنت أتوق إلى ملكوتِك، وأزدري ما يقدّمانِه لي؛ فهما لا يقدران أن يُعطياني ما ألتمسُه بلهفة. «لكنّ الربّ قبلَني»: قبلَني الإله الذي بوسعِه أن يهبني ذاتَه.

١١ - «أرشِدني يا ربّ إلى الطريق التي ينبغي أن أسلكَها» (٢٦ : ١١). إنّي إليك أسعى، وبالمخافة أبدأ مسعاي للبلوغ إلى الحكمة؛

علّمني يا ربّ طريقك التي عليّ أن أسلكها، لئلّا أتوه، ويتركني إيمانُك. «أرشدني إلى الطريق القويم فأخذلَ أعدائي». في دروبك الضيّقة، قُدني إلى الطريق القويم. إذ لا يكفي أن أسعى، لأنّ العدوّ لن يكفّ عن إرهاقي، إلى حين وصولي.

١٢ - «لا تُسلّمني إلى حُنقِ مضايقيَّ» (٢٦: ١٢). لا ترضَ بأن يشفي مُضايقيّ غليلَهم من آلامي. «فإنَّ شهودَ زورٍ قاموا عليَّ». بشرٌ قاموا عليَّ يتهمونني زورًا، لكي أنفصل عنك وأبتعد، كما لو كنت أطلب مجدي من الناس. «ونفثَ الجور على نفسِه»: لكنّ الإثم لم يفتخر إلّا بِزورِه، فإنّه لم يقوَ على زعزعتي، فوُعِدتُ في السماء بثوابٍ عظيم.

١٣ - «إنّي آمنتُ أن أعاين جودة الربّ في أرض الأحياء» (٢٦: ١٣). ولأنّ الربّ احتمل تلك الضيقات قبلي، فإنّي إذا ازدريتُ، بدوري، ألسنة الناس المعدّين للهلاك، «لأنّ الفم الكاذب يُهلِك النفس» (حكمة ١: ١١)، فإنّي واثقٌ من أن أعاين جودة الربّ في أرض الأحياء، حيث لا يكون بعدُ زورٌ.

١٤ - «أُرجُ الربّ، تشدَّد، قوِّ قلبَك، وارجُ الربّ» (٢٥: ١٤). متى، إذًا، يتحقّق ذلك الوعد؟ للمائت أن يشكو الصعوبة، وللحبّ أن يشكو البطء. لكن اسمع الصوت الصادق يقول: «ارجُ الربّ». إحتمِل، بصبرٍ، النار التي تُلهِب كُليتَيك، وبشجاعةٍ، النارَ التي تُضرم قلبَك، ولا تحسب أنّ ما لم تنلهُ قد حُجِب عنك. وفي اليأس والهوان، أصغِ إلى هذه العبارة: «أرجُ الربّ».

عظة ثانية في المزمور السادس والعشرين

التوكُّل على الله

يُقطّع القدّيس أوغسطينُس المزمور إلى مواعظ، ويتناول تعابير النبيّ ومشاعرَه لكي يُشجّع المؤمنين الذين يُواجهون الشدائد في هذه الدنيا، ويُثيرَ فيهم الشوق إلى السعادة الحقيقيّة.

١ - لمّا شاء الربّ إلهنا أن يُخاطبَنا بكلمات تعزية، إذ رآنا محكومين، بعدلٍ، أن نأكلَ خبزنا بعرق جبينِنا (تكوين ٣: ١٩)، ارتضى فوهبنا اللغة لنتحادث، من أجل أن يُبيّن لنا، لا أنّه خلقنا فحسب، بل أنّه يسكن معنا أيضًا. لقد سمعنا ورنّمنا معًا جزءًا من كلمات المزمور. فإذا قلنا إنّ تلك هي كلماتُنا، فلنخشَ ألّا نكون على صواب لأنّها كلمات الروح القدس أكثر منها كلماتنا. وسيكون هناك خطأٌ فادح في أن نقول إنّها كلماتُنا، لكونها ليست سوى نحيب أرواح تُعاني الضيق، أو صرخات أوجاعٍ ودموع، يتردّد صداها من أوّل المزمور إلى آخره. أفلا تكون صادرةً عمّن لا يُعاني البؤس؟ الله رحيمٌ، يا إخوتي، ونحن بائسون. والذي يحمل من الرأفة ما يدفعه إلى أن يرتضي ويُخاطب البائسين، ارتضى أيضًا وتكلّم بلغة البؤس. فصحيحٌ، إذًا، أن نقول إنّ تلك الكلمات هي كلماتُنا، ولكنّها لا تخصّنا، وإنّها صوت الروح القدس، ولكنّها لا تخصّه. إنّها كلمات الروح القدس، لكونِها لا تطلع على فمِنا إلّا بوحي منه؛ وهي ليست كلماته، بمعنى أنّه

لا يشعر لا بالبؤس ولا بالعناء، فيما الكلمات صرخات ألمٍ وعناء. إنّها كلماتنا، لأنّها تشهد على بؤسِنا، ولكنّها لا تنبع منّا لأنّها هي التي تمنحنا القدرة على النحيب.

٢ - «مزمور لداود قبلَ أن يُمسَح» (٢٦ : ١). ذاك هو عنوان المزمور: «مزمور لداود قبل أن يُمسَح»، أي قبل أن يمسَح بالدُّهن ملكًا (صموئيل الأوّل ١٦ : ١٣). لم يكن، في حينِه، يُمسح بالدّهن سوى الملك والكاهن. وهذان الرجلان اللذان كانا يُمسحان بالدّهن المقدّس، كانا صورة المسيح، الملك الأوحد، والكاهن الأوحد، المدعوّ مسيحًا، لأنّه بالدُّهن يُمسَح. وليس رأسُنا فقط هو الذي مُسِح بالدّهن، بل نحن أيضًا أعضاؤُه. فهو، إذًا ملكُنا، لأنّه يقودُنا ويحكمنا، وهو الكاهن لأنّه يشفع فينا (رومة ٨ : ٣٤). وهو كذلك، وحده، الكاهن والضحيّة في آنٍ معًا. لأنّه هو نفسُه ضحيّة الذبيحة التي قرّبها لله: وما كان بوسعِه أن يجد إلّاه ذبيحةً مَرضيّة، طاهرة، وقادرة على افتدائنا بدمه المراق، مثل حملٍ بلا عيب، فيضمّنا إليه بمثابة أعضائِه، ويجعلنا معه مسيحًا واحدًا أوحد. لهذا يُشارك جميع المسيحيّين في مسحة الميرون، التي كانت في العهد القديم وقفًا حصريًّا لرجلَين. من هنا أنّنا جسد المسيح، لكونِنا مُسحنا بالميرون؛ وأنّنا جميعنا فيه مُسحاء، ومسيحٌ واحد، لأنّ الرأس والأعضاء تؤلّف المسيح بكلّيّتِه. ومسحة الميرون هذه، ينبغي أن تُكمّل فينا الحياة الروحيّة التي بها وُعِدنا. فهذا المزمور هو، إذًا، صلاة نفسٍ تائقةٍ إلى الحياة الروحيّة وملتمسة، بإلحاحٍ، النعمة التي تكتمل فينا في اليوم الأخير. لهذا يحمل المزمور في عنوانِه عبارة «قبل أن يُمسَح». فنحن، في هذه الدنيا نقتبل المسحةَ في السرّ المقدّس؛ والسرّ المقدّس هو صورة ما ينبغي أن نصير ذات يوم. وهذا الغدُ المجهول الذي لا يحدُّه وصفٌ، هو الذي ينبغي أن نتوق إليه، وهو الذي

يبعث فينا البكاء، عندما نقتبل السّر، لكيما ننعم ذات يومٍ بتلك الحقيقة التي يرمز إليها السرّ.

٣ - إليكم المزمور: «الربّ نوري وخلاصي فممّن أخاف» (٢٦ : ١). هو ينيرُني، فإليكِ عنّي أيّتها الظلمة! هو خلاصي، فإليك عنّي أيّها السقم! أسير في القوّة وفي النور، فممّن أخاف؟ هذا الخلاص الآتي من الله ليس خلاصًا يقوى أحدٌ على أن ينتزعه منّي، ولا مِشعلًا يقوى أحدٌ على إطفاء نورِه. الله هو الذي يُنيرُنا، ونحنُ المنوَّرون. الله هو الذي يُخلّصُنا، ونحنِ المخلّصون. فإذا كان الله هو النور، ونحنُ المنوَّرين، وهو المخلِّص ونحن المخلَّصين، فمن دونِه لا نكون سوى ظلمةٍ وهوان. فليكن رجاؤنا فيه وطيدًا راسخًا، وثابتًا لا يتزعزع، وبعدُ، فممّن نخاف؟ الربّ هو نورُك، والربّ هو مخلِّصُك. فخَفْ، بعدُ، إن أنت وجدت من هو أقدر. أنا أنتمي إلى الله الأقوى من الكلّ، لأنّه الكليّ القدرة. هو الذي يُنيرُني، وهو الذي يُخلِّصُني: أخافه ولا خوف لي عداه. «الربّ حصن حياتي، فممّن أفزع؟»

٤ - «تقدّم علي أشرارٌ ليأكلوا لحمي، أعدائي ومُضايقيّ، فعثروا وسقطوا» (٢٦ : ٢). فما الذي يُرهبُني؟ وممّن أخاف؟ ممّن أفزع، ولِمَ أرتعِد؟ ها إنّ مضطهِدي يعثر ويسقط. ولِمَ أُضطَهَد؟ «ليأكلوا لحمي». فما هو لحمي؟ إنّه شهواتي الجسديّة. فليُغيروا علّي ويقمعوني بضراوة، فلا شيء فيّ يهلِك، إلّا ما هو مائت. إنّ فيّ شيئًا لا يقوى القمعُ على اقتحامِه، إنّه القُدس، مقام سكنى إلهي. فليأكل أعدائي لحمي، فمتى أكلوه كلّه، أصير بكلّيّتي روحًا وأغدو الإنسان الروحيّ. لقد وعدني الربّ بخلاصٍ تامّ، لا يرى معه إلى الأبد فسادًا ذاك الجسد المائت الذي يبدو لزمن فريسةً لمُضايقيَّ، والذي ترجو أعضاؤُه لنفسِها قيامةً

مثل قيامة الرأس التي أذهلتها . ممّن تخاف نفسي والربُّ يسكنُها؟ وممَّ يخاف جسدي متى يلبس الخلودَ بعدَ الفساد؟ أتريدون أن تعرفوا كيف ينبغي ألّا نخشى أولئك المُضايقين الذين يأكلون لحمَنا؟ «يُزرعُ جسدٌ حيوانيّ، فيقوم جسدٌ روحانيّ» (١ قورنتُس ١٥ : ٤٤). فكم يكون كبيرًا رجاءُ ذاك الذي يفهم أنّ «الربّ نوري وخلاصي فممّن أخاف، الربّ حصن حياتي فممّن أفزع»؟ يُحيط بالملك حرّاسُه فلا يخاف شيئًا؛ مائتٌ يحرسه مائتون، فيطمئنّ قلبُه؛ فممّن بعدُ يخاف، وممّن يفزعُ مائتٌ يحرسه الله الذي لا يموت؟

٥ - فاسمعوا الآن ماذا ينبغي أن يكون رجاء الذي يتكلّ فيقول: «إذا اصطفَّ عليّ عسكرٌ، فلا يخاف قلبي» (٢٦ : ٣). المُعسكر حصينٌ، فمن ذا أقوى من الله؟ «وإذا قامَ عليّ قتالٌ». وماذا يصنع بي القتال؟ هل يقدر أن يسلبني رجائي؟ هل يستطيع أن يغتصب منّي عطيّة الله الكلّيّ القدرة؟ إنّ الذي أعطى لا يُقهَر، وعطيّته يستحيلُ أن تُغصَب. في اغتصاب العطيّة هزيمةٌ للعاطي. إذًا، يا إخوتي، إنّ هذه الخيورَ الزمنيّة نفسها، لا يقوى أحدٌ على اغتصابِها منّا، إلّا ذاك الذي أعطاناها. أمّا الخيور الروحيّة التي يمنحنا إيّاها، فإنّه لا يستردُّها، إلّا إذا نحن فقدناها. لكنّ الخيور الزمنيّة، والصحّة، فالله هو الذي ينتزعُها منّا، ولا أحدَ سواه، إن لم ينلْ منه السلطان لانتزاعِها. نعلم، لأنّنا قرأنا في سفر أيّوب (أيّوب ١)، أنّ إبليس الذي يبدو أنّه حظي، في هذه الدنيا بسلطانٍ عظيم، لا يقوى على شيءٍ من دون إذن الله. لقد حظي بشيءٍ من السلطان على الخيور الحقيرة، هو الذي خسر الخيور الثمينة السامية. وسلطانُه ليس بقدر سُخطِه، بل بقدر عقاب دينونتِه. إذًا، ليس لإبليس أيضًا، سلطانًا علينا إلّا بإذن الله. وهذا ما نراه في السِفْر المذكور. ويقول الربّ في الإنجيل: «الليلة، سأل الشيطان أن يُغربلَكم

مثل الحنطة، لكنّي صلّيت من أجلِك يا بطرُس لئلّا يضعُف إيمانُك» (لوقا ٢٢ : ٣١). أعطاه الله هذا السلطان، لكي يُعاقبَنا أو يمتحنَنا. فإذا لم يكن ثمّة من يقوى على أن يسلبَنا عطيّة الله، فلا نخَفْ إلّا الله وحده. ومهما تألّبت علينا النوائب، ومهما بلغ أيّ عدوّ آخر من جرأة وجسارة، فليطمئنّ قلبُنا.

٦ - «وإن قام عليّ قتالٌ، فإيّاها أرجو» (٢٦ : ٣). من هي ذي؟ - «واحدةً سألت الرّبّ» (٢٦ : ٤). يستعمل صيغة المؤنّث للدلالة على ما يلتمسُه من الربّ، كأنّه يقول: سألت الربّ مسألة واحدة. في أحاديثِنا، نحن، باللاتينيّة، نستعمل لفظة «اثنان»، في الغالب، بصيغة المؤنّث (اثنتان)، لا المذكّر (إثنان). وبالطريقة نفسِها يقول الكتاب: «واحدةً سألت الربَّ وإيّاها ألتمِس». فلنرَ ماذا طلب ذاك الذي لم يعد يخاف شيئًا. يا لَسكينة النفس! أتريدون أنتم أيضًا ألّا تخافوا بعدُ شيئًا؟ فاسألوا، إذًا، هذه النعمة الوحيدة الذي لا يَسأل سواها ذاك الذي لا يخاف شيئًا. لكن، ماذا سأل لكي لا يخاف بعدُ شيئًا؟ واحدةً سألتُ الربّ، وسأكرّر السؤال. ذاك هو هَمّ الذين يسلكون في الدرب القويم. فماذا سأل، وما هي النعمة الوحيدة التي التمسَها؟ - «أن أقيم في بيت الربّ جميع أيّام حياتي». إنّها وحيدة، لأنّنا ندعو بيتًا مسكن الله الذي سنقيم فيه إلى الأبد. ندعو بيوتًا مساكن هذه الدنيا، وكان أحرى بنا أن ندعوها خيامًا. فالخيام ينصبُها الرحّالة المقاتلون الذين يُغيرون على العدوّ. فإذا نُصِبت خيامٌ، كان هناك أعداء. والإقامة في الخيمة الواحدة تعني رفقة الخيمة، وهذا ما يُقال عن العسكر، كما تعلمون. إذًا، الخيمة تكون في الدنيا، والبيت في العلياء. لكنّنا نُغالي في التشبيه حين ندعو الخيمة بيتًا أو البيت خيمة. على أنّ السماء هي البيت بالمعنى الحصريّ. وفي هذه الدنيا نُقيم في خيام.

٧ - في مزمورٍ آخر، يُحدّد لنا النبيّ بدقّة ما الذي سيشغَلُنا في ذلك المسكن: «طوبى لسكّان بيتِك، يا إلهي، لأنّهم إلى دهر الدهورِ يُسبّحونَك» (٨٣: ٥). ذاك هو الشوق الملتهِب، إن صحّ القول، وذاك هو الحبّ الذي يلتهم، كالنار، مَن يشتاق أن يُمضي جميع أيّام حياتِه في بيت الربّ. وبالأيّام التي يُمضيها في بيت الربّ، يقصد، لا الأيّام التي ستنقضي، بل الأيام التي تدوم إلى الأبد. وتلك الأيّام هي مثل السنين التي قيل عنها: «وسنوّكَ يا ربّ لا تنتهي» (مزمور ١٠١: ٢٨). لأنّ أيّام الحياة الأبديّة ليست سوى يوم واحدٍ لا نهاية له. إذًا، يقول للربّ: هذه بُغيتي، هذا سؤالي الوحيد، السؤال الذي سأكرّره. وكأنّنا نقول له: وما الذي ستصنعه في بيت الربّ؟ أيّ لذّةٍ ستتذوّقُها؟ وأيّ فرحٍ سيلتمِسُه فيه قلبُك؟ وبأيّ أطيابٍ يقتات فرحُك؟ لأنّك لن تبقى فيه ما لم تكن سعيدًا. ومن أين تأتيك تلك السعادة الدائمة؟ ملذّات الإنسان في هذه الدنيا متنوّعة، والبائسُ هو من حُرِم ممّا يُحبّ. للناس أذواق مختلفة، والسعيد هو من يبدو أنّه نال ما يُحبّ. على أنّ السعيد ليس ذاك الذي يملكُ ما يُحبّ، بل السعيد هو الذي يُحِبُّ ما يُحَبّ. ولعلّه، في بعض الأحيان، أشقى، لكونِه يملك ما يُحبّ، ممّا لو كان محرومًا منه. بائسٌ هو لأنّه يُحبّ ما يُضرّ، وأشدّ بؤسًا لأنّه يمتلِكُه. عندما يكون حبّنا فاسدًا، يبذل الله جودَتَه لكي يرفض لنا ما نحبّ؛ وفي غضبِه، يمنحنا ما نحنُ على ضلالٍ في حبِّه. وهذا ما يُعلّمنا القدّيس بولس بوضوح عندما يقول عن الأقدمين «إنّ الله أسلمَهم إلى شهوات قلوبِهم» (رومة ١: ٢٤). منحهم ما اشتهَوه، لكن لدينونتِهم. كما يقول لنا إنّ الله يطّرح سؤلَنا: «ولهذا سألت الربّ أن يُنجّيني (من شوكة الجسد) فأجابني: حسبُك نعمتي، لأنّ القوّة تكمل في الوهن» (٢ قورنتُس ١٢: ٨، ٩). إذًا، أسلم الله الفلاسفة إلى شهوات قلوبِهم،

واطَّرَح سؤل القديس بولس. استجاب أولئك لدينونتِهم، ورفض سؤل هذا لخيرِه الروحيّ. لكن، عندما يتلاقى غرض رغباتِنا مع إرادة الله، فلا شكّ في أنّه يُلبّيها. أمّا الشيء الوحيد الذي علينا أن نشتهيه، فهو أن نقيم في بيت الربّ طول أيّام حياتِنا.

٨ - على أنّ للبشر في مساكننا الأرضيّة ملذّاتٍ وأفراحًا متنوّعة جدًّا. وكلٌّ منّا يُريد أن يختار لسكناه مكانًا ليس فيه ما يخدش نفسَه، ويجد فيه المتعة والرفاه؛ فإن زالت المتعة والرفاهيّة، بحث الإنسان عن مكانٍ آخر. فلنتصنّع الفضول ونسأل صاحب المزامير، وليتفضّل هو ويُخبِرُنا ماذا عليه أن يصنع، وماذا نصنع نحن معه، في ذلك المسكن الممتِع الطيّب الذي يشتهيه ويتمنّاه بحرارةٍ، ويسأل الربّ نعمةً وحيدة أن يسكن فيه جميع أيام حياتِه. قلْ لي ماذا تصنع؟ وما هو مشتهاك؟ إسمعوا جوابَه: «أن أعايِنَ بهاء الربّ» (٢٦ : ٤). هذا ما أشتهيه، وهذا ما لأجلِه أريد أن أسكن في بيت الربّ جميع أيّام حياتي، وأعايِن بهاءَ الربّ. عندما ينقضي ليل هذه الدنيا، يشتهي النبيّ أن يستريح في ضياء الله. سينقضي ليلُنا، وسيطلع علينا نور النهار. قيل في مزمورٍ آخر: «في الصبح سأقف، وأتأمّلُك» (٥ : ٤). أمّا وقد سقطتُ الآن، فأنّى لي أن أتأملك؟ إلّا أنّي سأقف وسأتأمّلك. الإنسان هو الذي يتكلّم هكذا، لأنّ الإنسان هو الذي سقط، ولو لم نسقط لما أتى المسيح ليُنهِضَنا. سقطنا، فانحدَر. صعد، فرُفِعنا: «فما من أحدٍ يصعد، إلّا بعد انحدار» (راجع يوحنّا ٣: ١٣). الذي سقط نهض، والذي انحدر صعد. وإن كان وحدَه صعد، فلا نيأس. لأنّه لم ينحدِر إلّا لكي يُصعِدَنا. إذ ذاك نقف، ونتأمّلُه ونمتلئ فرحًا. هذا كلّ ما قلتُه، وأراكم تتهلّلون تحت ثقل الشوق إلى ذلك البهاء، الذي لم ترَوْه بعدُ. إرفعوا قلوبَكم فوق كلّ ما هو مألوف، وارفعوا أذهانَكم فوق كلّ تلك الأفكار اللحميّة التي

تأتيكم من شهوات الجسد، والتي تُصوّر لكم أوهامًا وأوهامًا. أنبذوا من أذهانِكم كلّ هذه الأمور، وارفضوا كلّ ما يتصوَّر لكم، واعترفوا بضعف نفوسِكم، وقولوا لكلّ فكرٍ يطرق أذهانَكم: لا ليس هذا. فإذا كان هذا ما وُعِدت به، فإنّه لن يطرُق ذهني. بهذه الطريقة، تتوقون إلى الخير. أيّ خير؟ - الخير من الذي هو الخير كلّه، ومنه يجري كلّ خير، وإليه لا يسعُنا أن نزيد أيّ خير. في كلّ مكانٍ آخر، تجعل للجودة صفةً عندما تقول عن إنسان إنّه خيِّر، وعن أرضٍ إنّها خيِّرة، وعن بناءٍ إنّه جيّد، وعن حيوانٍ إنّه مفيد، وعن شجرةٍ إنّها معطاء، وعن صحّةٍ إنّها جيّدة، وعن طبعٍ إنّه حسنٌ. أمّا هنا، فأنت أمام الجودة فحسبُ، الجودة التي منها يستمدُّ الكلّ الجودة، والخير الذي يولدُ منه كلّ خير: ذاك هو بهاء الربّ الذي نتأمّله. أُنظروا يا إخوتي: إذا كان كلّ ما ندعوه في هذه الدنيا خيرًا، هو ما يُغوينا؛ وإذا غرّنا خيرٌ متبدّلٌ ليس هو الخير بذاتِه - إذ ليس كلّ ما كان خيرًا فهو خيرٌ في ذاتِه - فاحكموا ما ستكون عليه روعة البهاء الأبديّ الذي لا يحول، والباقي هو هو إلى الأبد. لأنّ ما ندعوه في هذه الدنيا خيرًا، ما كان ليجذبَنا، لو لم يكن فيه حقًّا بعضٌ من خير؛ ولن يكون أيّ شيءٍ من الخير إن لم ينبع ممّن هو الخير المطلق.

٩ - لهذا، يقول النبيّ، أريد أن أقيم في بيت الربّ جميع أيّام حياتي. لقد أتيتُكم بالسبب: لكي أعاين بهاء الربّ. لكن، من أجل أن أعاين بلا انقطاع، ولا يُعكّرني شيءٌ في تأمّلي، ولا يُحوّلني عنه أيّ إيحاء، ولا تُقصيني عنه أيّ قوّة، ولا يُعيقُني عنه أيّ حسد، وأتذوّق بسلام نعيم الربّ، إلهي، فماذا ينبغي أن أفعل؟ - أن أحتمي بالربّ. إذًا، لا أريد فقط أن أعاين بهاء الربّ، بل أريد أيضًا أن أتحصّن كهيكلِه الحصين. وإذ يحميني مثل هيكلِه، أصير مثل هيكلِه وأكون

تحت حراستِه. فهل هيكلُ الله الحقّ مثلُ هيكل الأوثان؟ الأوثان بلا حمايةٍ في هياكلِهم، لكنّ الربَّ إلهنا يحمي هيكله بنفسِه، ومعه أكون في أمان. في تأمّلِه سعادتي، وفي حمايتِه أماني. وبقدر ما يكمُل تأمّلي بقدر ما تعظم حمايتُه لي. وبقدر ما تكمل سعادتي في تأمّلِه، بقدر ما لا يقوى الفساد على النيل من قداستي. بهاتَين الكلمتَين: أتأمّل وأحتمي، نستعيد كلمات مطلع المزمور: «الربّ نوري وخلاصي فممّن أخاف». الربّ نوري، لكوني أتأمّل بهاءَه. وهو خلاصي لأنّه يحصّنني مثل هيكلِه.

١٠ - لكن، لماذا يهبُنا الله تلك النعمة في الأبديّة؟ «لأنّه أخبأني في خبائِه يوم محنتي» (٢٦ : ٥). سأقيم في بيتِه جميع أيّام حياتي، لكي أعاين بهاء الربّ وأتحصّن كهيكلِه. لكن، من أين لي تلك الثقة بأن أبلغ إليه يومًا؟ - «لأنّه قبلني في خبائِه في يوم محنتي». ولن تكون لي، من بعدُ، أيّامُ شرّ، لأنّ الربّ رمقني بنظره في أيّام الشدّة في هذه الحياة. فإذا كان قد نظر إليّ بمثل ذلك العطف إذ كنت بعيدًا عنه، فكيف بي عندما أتمتّع برؤيتِه؟ لم أكن، إذًا، أتجاسر عندما سألته واحدةً، ولم يقُل لي قلبي: أيّ سؤالٍ، ومن تسأل؟ أتجرؤ أن تخاطب الله ايّها الخاطئ البائس؟ أتجرؤ فترجو أن تُعاين الربّ، أيها الخليقة الدنِس القلب؟ - أجل، أتجرّأ فأرجو معاينته، وما رجائي بنفسي، بل بجودتِه التي لا توصف. ورجائي ليس ادّعاءً منّي، بل عربونٌ من رأفتِه. وهل يتخلّى عني ذاك الذي يُظهِر لي هذا القدر من الجودة طوال رحلتي، «هو الذي أخبأني في خبائِه يوم محنتي»؟ إنّ أيّام محنتِنا هي أيّام هذه الحياة. شتّان ما بين أيّام المحنة للأثمة، وأيّام المحنة للمؤمنين. لو لم يكن ثمّة أيام محنة لمن لديهم إيمانٌ، لكنّهم ما زالوا متغرّبين عن الرب - لأنّنا، بحسب الرسول، «متغرّبون عن الرب ما

دمنا مقيمين في جسد» (٢ قورنتُس ٥: ٦) - فماذا يكون معنى كلام الصلاة الربّيّة: «نجّنا من الشرّير» (متّى ٦: ١٣)، إن لم نكن في يوم محنة؟ غير أنّ أيام المحنة مختلفةٌ جدًّا لمن لم يؤمنوا. لكنّ الله لا يخذلهم، ما دام يسوع المسيح مات من أجلِهم (راجع رومة ٥: ٦). فلتتجاسر، إذًا، نفسُنا وتسألِ الله هذا الخير الوحيد. وستنالُه وتمتلكه بكلّ تأكيد. فإذا كانت في قبحِها محبوبةً بهذا القدر، فما تكون حالُها عندما تطهُر! «أخبأني في خبائِه، في يوم محنتي وسترني في ستر قدسِه» (٢٦: ٥). فما هو ستر قدسِه؟ وماذا نفهم بهذا القول؟ - كان للخباء، على ما يبدو، أقسامٌ عديدة خارجَه، وفي داخل الهيكل مكانٌ سرّيّ يُدعى قدسُ الأقداس. وقدس الأقداس هذا لا يدخله إلّا الكاهن الأعظم وحدَه (راجع عبرانيّين ٩: ٣). ولعلّ ذاك الحبر الأعظم نفسه هو الخباء، سترُ الربّ. لأنّه اتّخذ جسدًا من خباء لحمِنا، وصار لنا سترًا سرّيًّا؛ وعلى هذا النحو، يُحشَرُ المؤمنون به في الخباء، ويكون هو لهم الستر السرّيّ. يقول الرسول: «إنّكم متُّم، وحياتُكم مستترةٌ في الله مع المسيح» (قولوسّي ٣:٣).

١١ - أتريد أن تفهم أنّ هذا هو معنى الرسول؟ «الصخرة هي المسيح» (١ قورنتس ١٠: ٤). فاسمع ما يلي: «أخبأني في خبائه يوم محنتي، وسترني بستر خبائِه». تريد أن تعرف سرّ ذلك الخباء، فاسمع ما يلي: «وعلى صخرة رفعني». إذًا، رفعني على المسيح. اتّضعتَ في التراب، ورفعك الله على الصخرة. لكنّ المسيح في السماء، وأنت على الأرض. إسمع ما يلي: «من الآن، رفع رأسي فوق رؤوس أعدائي» (٢٦: ٦). من الآن، وقبل أن أصل إلى ذلك البيت الذي أريد أن أُقيم فيه جميع أيّام حياتي، وقبل أن أصل فأعاين الربّ، من الآن رفع رأسي فوق أعدائي. صحيحٌ أنّ أعداء جسد يسوع المسيح

يضطهدونني؛ وصحيح أنّني لست تمامًا فوق أعدائي؛ غير أنّ الربّ رفع رأسي فوق جميع أعدائي. المسيح، رأسُنا، في السماء، ومع ذلك، ما زال بوسع أعدائنا أن يُغيروا علينا، ما دمنا لم نُرفع فوقهم؛ لكنّ المسيح، رأسنا في السماء التي منها قال: «شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟» (أعمال ٩: ٤)، علّمنا بذلك أنّه فينا في هذه الدنيا؛ إذًا، نحن أيضًا فيه في السماء، من حيث أنّه «من الآن رفع رأسي فوق أعدائِي». ذاك هو العربون الذي بيدِنا من اتّحادِنا الأبديّ، بالإيمان والرجاء والمحبّة، مع رأسِنا الذي في السماء؛ لأنّه هو نفسُه يُقيم معنا على الأرض، بألوهيّته وجودتِه ووحدتِه، حتّى انقضاء الدهور (راجع متّى ٢٨: ٢٠).

١٢ - «حوّلتُ عينيّ في كلّ اتّجاه، وقرّبتُ لله في خبائِه ذبيحة تسبيح» (٢٦: ٦). نقدّم قربان ابتهاجٍ، قربان فرحٍ، قربان تهنئة، وقربان أفعال شكر، أقوى من كلّ تعبير. فأين نُقدّمه؟ - في قُدسِه، في الكنيسة المقدّسة. وأيّ قربان؟ - فرحٌ لا متناهٍ، لا يوصف، لا يُعبّر عنه بكلام. ذاك هو قربان الإبتهاج. فأين نطلبُه وأين نجدُه؟ - في البحث في كلّ اتّجاه. «حوّلتُ عينيَّ في كلّ اتجاه»، يقول النبيّ، وقدّمتُ في خبائِه قربان هتاف». لتُخاطبْ روحُك كلّ خليقة، فتُجيبكَ كلّ خليقةٍ: الله هو الذي خلقني. جمالُ تحفةٍ فنّية يُشيد بصانِعها، ويعظُمُ إعجابُك بالصانع الأسمى، بقدر إجلالِك لأعمالِه. أنظر إلى السماء: إنّها تحفة الله. أنظر إلى الأرض: الله هو الذي فرشَها بنبتٍ لا عدَّ له، من ذلك النبت المتنوّع إلى ما لا نهاية؛ وهو الذي ملأها بأصناف الحيوانات. طُف مرّةً بعدُ في السموات والأرض، لئلّا يفوتَك شيء، تتردّد في أذنيك، في كلّ مكان، الإشادة بمجد الخالق، والجمالات المتنوّعة لتلك الخلائق تُشكّل جوقًا متناغمًا يُسبّح اسم الذي خلقَها. من له أن

يُفسّر لنا أمر الخلق؟ من يُخبرُ بمعجزاتِه؟ من له أن يُشيد، كما يليق، بالسموات والأرض والبحار وكلّ ما تحتويه؟ وهي ليست أكثر من خلائق منظورة. من يُشيد، كما يليق، بالملائكة والعروش، والسيادات والرئاسات والسلاطين؟ من يُشيدُ، كما يليق، بما يُحيي جسدَنا ويُحرّك أعضاءَنا، ويؤثّر على حواسّنا، ويشمل بالذاكرة هذا القدر من الأشياء، والذي يجعلُنا نُميّز بعقولِنا؟ إذا كانت لغة البشر تصيرُ بهذه الضحالة حين يتعلّق الأمر بخلائق الله، فكيف نُسبّح الخالق إن لم نلجأ إلى الهتاف عندما تخونُنا الكلمات؟ «بحثتُ في كلّ مكان، وقرّبت للربّ في خبائِه قربان هتاف».

١٣ - نستطيع أن نُعطي هذه الكلمات معنى آخر، يبدو لي أكثر انسجامًا مع تتمّة المزمور. يقول المُتكلّم إنّه رُفِع على صخرة، هي المسيح، وإنّ رأسَه الذي هو المسيح أيضًا، رُفع فوق أعدائِه. يريد، إذًا، أن يُفهِمَنا أنّه هو نفسُه الذي رُفع على الصخرة، رُفع أيضًا، برأسه المعبود، فوق أعدائِه، مُلمّحًا بذلك إلى مجد الكنيسة التي قهرَت مُضطهِديها. وبما أنّ ظَفَرَها هو اهتداء الكون بأسرِه إلى الإيمان بالمسيح يسوع، «حوّلتُ عينيّ في كلّ اتّجاه»، يقول النبيّ، «وقرّبت لله في خبائِه قربان برَكَة»، أي: تأمّلت بإيمان العالم بأسره، بذلك الإيمان الذي يرفع رأسي عاليًا جدًّا فوق مُضايقيَّ، وفي هيكل الربّ أي في الكنيسة التي تضمّ العالَم، باركت الربّ وهتفت بفرحٍ لا يوصَف.

١٤ - «سأبارك الربّ وأشدو الترانيم إكرامًا له». نطمئنُّ، فنُشيد للربّ بلا مخافة، وبلا مخافة نُبارِكه، عندما نُعاينُ بهاءَه، وعندما يحمينا كهيكلِه، وعندما يُهزَم الموت، فننجو من الفساد. ماذا نقول الآنَ بعد أن عرضنا الأفراح التي سنتذوّقُها، حين يُستجاب طلبنا

الوحيد؟ ماذا نقول الآن؟ «استمع يا ربّ صوتي» (٢٦ : ٧). فلننتحِب الآن، إذًا، ولنُصلِّ الآن، فما للبائس غير النحيب وما للمُعوِز غير الصلاة. تنقضي الصلاة، ليحلّ محلّها الهتاف؛ وتنقضي الدموع ليحلّ محلَّها الفرح. والآن، إذ نحن في أيّام المحنة، لا نبرحَنّ ندعو الربّ، ونتوجّه إليه بالصلاة الوحيدة؛ لا تنقطِعنّ صلاتُنا، إلى أن نبلغ، في النهاية، بنعمتِه وبرعايتِه، إلى رؤيتِه. «أستمع يا ربّ صوتي. إنّه يصرخ إليك، فارحمني واستجب لي» (٢٦ : ٧). تلك هي الصلاة الوحيدة؛ فعلى قدر ما يطول به الدعاء والدموع والنحيب، لا يسأل إلّا واحدةً. أنها كلّ مشتهاه، ولم يبقَ له إلّا أن يُستجاب.

١٥ - إليكم صلاته الحقيقيّة: «قال لك قلبي: التمستُ وجهَك» (٢٦ : ٨). إنّه المعنى نفسه الذي عبّر عنه لتوّه: «أريد أن أعاين بهاء الربّ. قال لك قلبي: التمستُ وجهك». إذا جعلنا فرحَنا في أن نعاين شمس هذه الدنيا، فلن يكون قلبُنا هو الذي يقول: «التمست وجهَك»، بل عينا جسدِنا. لكن من هو الآخر ليقول له قلبُنا: «التمست وجهَك»، سوى ذاك الذي لا يُرى إلّا بعينَي القلب؟ النور المحسوس تراه عينا الجسد، أمّا النور الإلهي فبعينَي القلب يُرى. أتبتغون رؤية النور المصنوع لعينَي القلب؟ إنّه الله نفسُه، على ما قال القدّيس يوحنّا: «الله نورٌ والظلمة لم تُدرِكْهُ» (راجع يوحنّا ١ : ٥). أتريدون أن تُعاينوا ذلك النور؟ إذًا، نقّوا العين التي ترى: «طوبى للأنقياء القلوب، فإنّهم يُعاينون الله» (متّى ٥ : ٨).

١٦ - «قال لك قلبي: التمستُ وجهَك؛ وجهك يا إلهي ألتمِس» (٢٦ : ٨). واحدةً فقط، سألتُ الربّ، وسأسألها في كلّ حين، وهي أن أعاين وجهك. «فلا تحجب وجهك عنّي» (٢٦ : ٩). أنظروا كم

يتوقّف عند هذا الطلب الوحيد: أتريدون أنتم أيضًا أن تنالوه؟ لا تطلبوا، إذًا، أي شيءٍ عداه. أُثبتوا على هذا الطلب، لأنّه وحدَه يكفيكم. «قال لك قلبي: التمست وجهَك؛ وجهَك يا إلهي ألتمِس. فلا تحجب وجهك عنّي، وفي غضبِك، لا تنبذ عبدَك» (٢٦ : ٩). ليس قولٌ أروعَ من هذا القول الإلهيّ. والذين يُحبّونه حقًّا يفهمون. وكل من لا يُحبّه، يجعل سعادتَه في التمتّع، على الدوام، بتلك الخيور الأرضيّة التي يُحبّها فوق كلّ شيء. لا يُقرّب إلى الله عباداتِه وصلواتِه، إلا لكي يُنيلَه العيش المديد في هذه الملذّات، ولا يُفقِدَه شيئًا ممّا يشتهيه في الأرض: لا ذهبَه ولا فضّتَه ولا أملاكه التي يُمكن أن توفّر له رؤيتُها فرحًا، فلا يرى أصدقاءَه يموتون، ولا أولاده، ولا امرأته، ولا زبائِنَه؛ ويطيب له أن ينعم، على الدوام، في مقتناه. لكن، لأنّه لا يستطيع ذلك، دائمًا، ويعلم أنّه سيموت، فلعلّه، في عبادتِه لله، وفي صلواتِه، ونحيبِه، يكتفي بأن يلتمس منه تلك الخيور في شيخوختِه. فإذا قال له الله: سأخلّدُك في خيراتِك، ارتضى الخلودَ كخيرٍ عظيم، ولم يقوَ على كتم نشوة أفراحِه. تلك ليست رغبة من لم يسألِ الله غير واحدة. فماذا بوسعِه أن يتمنّى؟ - أن يُعاين بهاء الربّ جميع أيّام حياتِه. كذلك أيضًا من لا يتطلّع، وهو يخدم الله، إلى أيّ هدفٍ آخر، أو أن يخشى، في غضب الله، إلا خسارة خيرٍ زمنيّ يمتلِكه. ليس هذا، قَطُّ، ما يخشاه من يتكلّم هنا، لكونه يسمح لأعدائِه بأن يأكلوا لحمَه (٢٦ : ٢). فماذا يخشى، إذًا، في غضب الله؟ - ألّا يحرِمَه من غاية حبِّه. فماذا أَحبّ؟ - وجهَك يا إلهي. لو حجب الربّ وجهَه عنه لاعتبر الأمر من فعل الغضب الإلهي: «في غضبِك، لا تنبُذ عبدَك» (٢٦ : ٩). بوسعِنا، ربّما أن نُجيبَه: لِمَ ترتعب من أن ينبذك في غضبِه؟ فإن هو نبذك في غضبِه، يكون خوفُك من انتقامِه أقلّ؛ أمّا إذا وقعت، في غضبِه، بين يدَيه،

فسيُفرغ انتقامه عليك. تمنَّ، إذًا، أن يحتجِب عنك في غضبِه. يُجيبُ: كلّا، لأنّه يعرف ماذا يتمنّى. غضب الله، بمفهومِه، أن يحجب الله وجهه عنه. لكن ماذا لو كان الله يجعلك خالدًا وسط تلك الملذّات والمباهج الشهوانيّة؟ ليس هذا قَطّ ما أريده، يُجيبُنا صديق الله الطاهر. كلُّ ما ليس الله نفسُه، لا لذّة لي فيه. لا رغبة لي في أيّ عطيّة يمنحُنيها الربّ، ولا تكون الربّ نفسَه. «لا تحتجِب عن عبدِك في غضبِك». أحيانًا يحتجب الربّ عنّا، وبلا غضبٍ أيضًا، فيقول له كثيرون: «أحجُب وجهَك عن خطاياي» (مزمور ٥٠: ١١). أن يحجب وجهه عن خطاياك، لا يعني قَطُّ أنّه يحتجب عنك في غضبِه. فليحجب وجهه، إذًا، عن خطاياك، لا عنك.

١٧ - «كن ناصرًا لي ولا تخذلني» (٢٦: ٩)، لأنّي في الطريق. سألتك فقط أن أقيم في بيتِك جميع أيّام حياتي، لكي أعاين جمالاتِك، وأتحصّن كهيكلِك. ذاك هو الخير الوحيد الذي أطلبُه، وأنا في الطريق التي تقود إليه. لعلّك تقول لي: جُدَّ السير، لك حرّيّتُك، ولك ما تشاء؛ سِر في الطريق، أحبَّ السلام واطلُبهُ؛ حذارِ أن تبتعِد عن الطريق، أو أن تتوقّف في الطريق، أو أن تنظرَ إلى الوراء. أثبت في مسيرتِك، «لأنّ من يصبر إلى المنتهى يخلُص» (متّى ٢٤: ١٣). مع حرّية الخيار، حسبتَ أنّك تقوى على السير؛ لا تدّعِ لنفسِك شيئًا. يتخلّى عنك ناصِرُك، فلا تلاقي في مسيرك سوى الهوان والسقوط والضياع والجمود. قلْ له، إذًا: صحيحٌ يا ربّ أنّك أعطيتني الإرادة الحرّة، لكن لا خير في قواي من دونِك. «كن ناصرًا لي ولا تخذلني، ولا تتركني يا إله خلاصي» (٢٦: ٩). أنصرني لأنّي صنع يدَيك، وأنت لا تخذل خلائقَك.

١٨ - «ها قد تركني أبي وأمّي» (٢٦: ١٠). يجعل نفسَه طفلًا أمام

الله، ويختارُه أبًا، ويعتبرُه مثل أمّه. الله أبٌ لأنّه خالق، ولأنّه يدعو إلى خدمتِه، ولأنّه يأمر، ولأنّه يحكم؛ وهو أمٌّ لأنّه يُدفئ، ويُقيت، ويُرضِع، ويحمل في أحشائِه. إذًا: «أبي وأمّي تركاني، لكنّ الربّ قبلَني» لكي يوجّهني ويُقيتَني. أهلٌ مائتون أنجبوا، وأبناءٌ مائتون خَلَفوا أهلًا مائتين. وُلِدوا لكي يَخلفوا بعد موت الأهل. لكنّ الذي خلقني لن يرى الموت، وأنا لن أنفصلَ عنه إلى الأبد. «أبي وأمّي تركاني، لكنّ الربّ قبِلَني». إنّ لنا، أو بالحريّ صار لنا، خارجًا عن ذينِك الأبوين، الرجلِ والمرأة، آدم وحوّاء، اللذَين أعطيانا حياةً جسديّة، أبٌ آخر وأمٌّ أخرى. إبليس، أبو هذا الدهر، كان أبانا حين كنّا أبناء الكفر؛ لأنّ الربّ يقول للكافرين: «إنّ أباكم هو إبليس» (يوحنّا ٨: ٤٤). فإذا كان إبليس أبًا لجميع الأثَمَة، وهو الذي يعملُ في الأبناء المتمرّدين (راجع أفسُس ٢: ٢)، فمن تكون أمّهم؟ هناك مدينة تُدعى بابل، إنّها مدينة أبناء الهلاك، من الشرق إلى الغرب. وإليها يعود سلطان الأرض. إنّها عاصمة ما تُسمّونه الجمهوريّة، التي ترونَها تشيخُ يومًا بعد يوم، وتتضاءل. هي التي كانت من قبلُ أمَّنا، لأنّا منها وُلِدنا. ومن حينِه عرفنا أبًا آخر، وتركنا إبليس. فكيف يجرؤ فيقترب من الذين قبِلَهم الله الكلّيّ القدرة؟ ونعرف أمًّا أخرى، هي أورشليم السماويّة، أو الكنيسة المقدّسة التي ما زال قسمٌ منها في المنفى على الأرض، وتخلّينا عن بابل. «أبي وأمّي تركاني»: لم يعد ثمّة خيرٌ يصنعانه لي؛ وعندما كانا يظهران بأنّهما يصنعان لي خيرًا ما، فأنت الذي كنت تصنعه، يا إلهي، فأعزوه إليهما.

١٩ – من ذا بوسعه، غير الله وحده أن يصنع للإنسان خيرًا في هذه الدنيا؟ ومن بوسعه أن ينتزع منه شيئًا من دون أمر الله أو إذنِه، هو الذي وهبَنا كلّ شيء؟ لكنّ البشر، في جهالتِهم، يحسبون أنّهم يمتلكون ذلك

الغنى من الشياطين التي يعبدونَها، وغالبًا ما يقولون في أنفسِهم إنّ الله ضروريٌّ لهم للحياة الأبديّة، الروحيّة بكلّيّتِها؛ أمّا بالنسبة لخيور هذا الدهر، فيلزمنا ناسكٌ تقيّ لنواجه تلك القوى الشيطانيّة. أيّها الجنس البشريّ الجاهل! تؤثِرون، إذًا، خيورًا تجعلكم لإبليس، لأنّكم تُفضّلون عبادة الشياطين، وإن كنتم لا تفضّلونَها، فإنّكم تُساوونَها بعبادة الله. غير أنّ الله لا يسعُه أن يرضى بأن يُقسَم البخورُ بين مذابحِه ومذابح الشيطان، حتّى ولو أحيط ببالغ الإكرام، وأحيط الشياطين بما هو دونَه بكثير. تقول لي: كيف؟ أليست الشياطين ضروريّةً، إذًا، لخيور هذه الدنيا؟ - البتّة. - أليس علينا، أقلّه، أن نخشى أن تكون مؤذية؟ - إنّها لا تقوى على أذيّتِنا إلّا بإذن الله. إنها حاضرةٌ للأذيّة في كلّ حين، وتوسّلاتُكم لا تلوي رغبتَها وإصرارَها على الأذيّة. تلك هي طبيعةُ مكرِها المميّزة. إذًا، لا يمكن أن تؤدي عبادتكم لها إلّا إلى إهانة الله الذي، في انتقامه العادل، يُسلِمكم إلى سلطانِها. ولمّا كانت عاجزة عن أذيّتِكم، إذا كان الله معكم، فستكونون ألعوبةً لِمَكرِها لأنّكم أهنتموه. ولكي أبرهن لكم، أنتم يا من تُساورُكم تلك الأفكار، أنّ عبادتكم للشياطين لا طائل منها، حتّى في سبيل الخيور الأرضيّة، أسألُكم: ألم يغرق في البحار أيٌّ من عَبَدةِ نبتون[1]؟ أو لم يبلغ الميناء واحدٌ ممّن يرهبونَه؟ هل إنّ جميع الأمهات اللواتي يلتمِسن يونون[2]، يلِدنَ بسلام، أو كلّ اللواتي يرهبنَها يلدنَ بالبؤس؟ إفهموا بهذا، إذًا، أيُّها الإخوة الأحبّاء، كم هي فظيعةٌ جهالة الناس الذين يريدون أن يعبدوا الشياطين لينالوا منهم الخيور الزمنيّة. إذا كان عليهم أن يعبدوهم لينالوا منها تلك الخيور، فسيكون عابدوها، وحدَهم، هم الذين

(١) نبتون إله البحار في الميثولوجيا الرومانيّة.

(٢) يونون: في الميثولوجيا الرومانيّة إلهة الأمومة والخصوبة والزواج.

يمتلكون الثروات الضخمة. وحتّى ولو كان ذلك، فعلينا أيضًا أن نرفض مثل تلك العطايا، ونسألَ الله واحدةً فقط. فالله وحده يستطيع أن يمنح تلك الخيور، وعبادة الشيطان إهانة لله. فإليكُما عنّي يا أبي ويا أمّي! وإليك عنّي يا شيطان، وإليكِ عنّي يا مدينة بابل! وليحيَ الربّ الذي يقبلُنا ليُعزّيَنا بخيور الدّهر، وليُسعِدَنا بخيور الأبديّة! «أبي وأمّي تركاني، لكنّ الربّ قبلني».

٢٠ - ها إنّ الربّ قد قبِلَنا بعد أن هربنا من بابل ومن إبليس الذي يحكمها. لأنّ إبليس هو الذي يقود الأثَمَة، وهو رئيس هذا العالَم، ورئيس الظلمات. لعلّك تقول: وأيّ ظلمات؟ - ظلمات الخطأة والمنافقين. وها هو الرسول يقول للذين اعتنقوا الإيمان: «كنتم أمسِ ظلمةً، والآن أنتم نورٌ في المسيح يسوع» (أفسُس ٥ : ٨). أمّا الآن وقد قبلَنا الله، فماذا نقول؟ «ضع لي، يا ربّ، شريعتك التي عليّ أن أسلك بها في طريقِك» (٢٦ : ١١). أتتجرّأ وتطلب شريعةً؟ هَب أنّ الربّ أجابك: وهل تسلك في هذه الشريعة؟ أتحفظُها إن أعطيتُك إيّاها؟ لما كان يتجرّأ أن يطلبَها لو لم يَدْعُ الربّ أوّلًا إلى نصرتِه. إن أنت نصرتني، وإن أنت قبلتني، «أعطني يا ربّ شريعةً أسلك فيها في طريقِك». ضع لي شريعةً في مسيحِك. لأنّه هو الطريق إيّاه، ذاك الذي كلّمنا وقال لنا: «أنا الطريق والحقّ والحياة» (يوحنّا ١٤ : ٦). شريعة المسيح شريعة رحمة. والمسيح هو الحكمة التي كُتِبَ عنها: «في لسانِها شريعة الرأفة» (أمثال ٣١ : ٢٦). فإذا أخطأت فخرقت الشريعة، اعترِف بخطيئتِك، وستنال المغفرة من ذاك الذي بذل دمه لأجلِك. لكن، احرص على ألّا تتخلّى عن الطريق، وقلْ له: «كن حافظًا لي، وقُدني في طريق البِرّ من أجل أعدائي» (٢٦ : ١١). أعطني شريعةً، لكن لا تحرمني من رحمتِك. في مزمور آخر يقول النبيّ: «من لقّنكم الشريعة، يغمرُكم بالرحمة» (مزمور

٨٣ : ٧). إذًا، إنّ كلمات هذه الآية: «أعطني يا ربّ شريعةً أسلك فيها في طريقِك»، تعني الوصيّة. ما الذي يدلّنا على الرحمة؟ يقول النبيّ: «قُدني في طريق البرّ من أجل أعدائي».

٢١ - «لا تُسلّمني إلى مرام مُضايِقِيَّ» (٢٦: ١٢). أي لا تسمح بأن أنصاع لرغباتِهم. لأنّك إذا كنت متّحدًا بالروح والإرادة مع من يضطهِدُك، فليس لحمك هو ما يأكلُه، بل روحك، بالفجور الذي يوحي لك به. «لا تتركني إلى مرام مُضطهديَّ». سلّمني إلى أيديهِم، إن شئت. تلك كانت صلاة الشهداء، فسلّمهم إلى أيدي مُضايقيهِم. ولكن، ماذا كان يُسلِّمُهم؟ - الجسد فقط. وهذا ما كُتِب في سفر أيّوب: «دُفِعت الأرض إلى يدَي المنافق» (أيّوب ٩: ٢٤)؛ أي أنّ الجسد صار بين يدَي المُضايقين. «لا تُسلّمني»، أنا، لا جسدي. أنا الروح التي تُخاطبُك، أنا النفس التي تُخاطبك. لا أقول لك: لا تُسلِم جسدي إلى يدَي مضايقيَّ، بل «لا تُسلِمني إلى مرام مُضايِقِيَّ». كيف يُترَك البشر إلى مرام مُضايقيهِم؟ «ها قد قام عليّ شهود زورٍ». أوّلًا لأنّهم شهود زور ويُرهقونني بالتهم، ويُمزّقونني بكثرة النميمة، فإن أنت سلّمتني إلى مرامهم، فسأكذب بدَوري، وأغدو متواطئًا معهم، ولا يكون لي نصيبٌ في حقّك، وأشاركهم الإفتراء عليك. «شهود زورٍ قاموا عليّ، وكذب الجَورُ على نفسِه» (٢٦: ١٢). على نفسِه، لا عليَّ. فليهلِك الجَورُ بالجَوْر، لا أنا. إذا سلّمتَني إلى مرام مُضطهِديَّ، أي إذا شاركتُهم في مخطّطاتِهم، لا يكون الجَورُ قد نفثَ على الجَور، بل عليّ أنا أيضًا. فليصبّوا، على العكس، جام غضبِهِم، وليجتهدوا في إعاقة مسيرتي، شرط ألّا تُسلّمَني إلى مرامِهم، وألّا أعتنق مخططاتِهم الفاسدة، فأثبُت على الحقيقة، وينقلِب نَفثُ الجَوْر على نفسِه، لا عليّ.

٢٢ - بعد الكثير من المخاطر والكثير من العناء، وبعد أن أرهقته مُضايقات مُضطهِديه، يعود النبيّ إلى سؤالِه الوحيد، لاهثًا، مُنهكًا، ولكنّه، أبدًا، ثابتُ العزم، مفعمٌ بالثقة في ذاك الذي قبِلَه، وينصُرُه، ويقودُه، ويرعاه. يجول بناظرَيه على جميع الخلائق، وهو في نشوة من الإبتهاج، وينوء تحت وطأة العناء، فيتنهّد أخيرًا ويصرُخ: «آمنتُ بأنّي سأعاين جودة الربّ في أرض الأحياء» (٢٦: ١٣). يا لجودة الربّ! كم هي لذيذة! يا كنزًا لا يفنى! يا كنزًا لا يُقاس إليه كنز! يا كنزًا أبديًّا! يا كنزًا لا يحول ولا يزول! متى أعاينُ غِناك يا إلهي؟ آمنت بأنّي سأعاينُك، لا على أرض الموت: «آمنتُ بأنّي سأعاين جودة الربّ في أرض الأحياء». سوف يُخلّصني من أرض الموت هذه، ذاك الإله الذي ارتضى، حبًّا بي، فنزل إلى أرض الأموات، ليموت بأيدي المائتين. «آمنتُ بأنّي سأعاين الربّ في أرض الأحياء». تلك هي كلماتُ تأوُّهِه، كلماتُه وهو منهَك، كلماتُه وسط الأخطار التي لا تُحصى؛ ومع ذلك، يرجو كلّ شيءٍ من جودة الله الذي قال له: «أقِم لي يا ربّ شريعةً».

٢٣ - وماذا يقولُ له ذاك الذي أعطى الشريعة؟ لنسمع صوت الربّ، صوت التشجيع والتعزية الذي يأتينا من العلاء. لنسمع صوت الذي جعل نفسَه لنا بمنزلة الأب والأم اللذَين تركانا. لنستمع إليه، فإنّه سمع تنهّداتِنا، وفهم نحيبَنا، واحترم رغباتِنا وصلاتَنا الوحيدة. ذلك السؤال الوحيد الذي حسُن لديه فاقتبله بشفاعة يسوع المسيح، مُحامينا. وبقدر ما يطول ترحالُنا في هذه الحياة التي تُقصي عنّا وعودَه، ولكن من دون أن تحرمنا منها، يقول تكرارًا: «أرجُ الربّ» (٢٦: ١٤). في الربّ لست ترجو إلهًا كاذبًا، إلهًا يَضِلّ، إلهًا لا يجدُ ما يُعطيكَه. الكلّيّ القدرة هو الذي وعدَك، وهو الصّدق والأمانة، وهو الحقّ بذاتِه. «أرجُ الرّب واعمل كإنسان شجاع». لا تدعْ نفسَك تنهار،

لئلّا تُحصى مع الذين قيل عنهم: «ويلٌ للذين فقدوا الصبر» (يشوع بن سيراخ ٢ : ١٦). «أرجُ الربّ». هذا ما يقولُه لجميع الناس، ولو انّه لا يُخاطب إلّا واحدًا. فنحن، في الحقيقة، واحد في المسيح يسوع. نحن جسد المسيح، نحن الذين ليس لنا سوى رغبة واحدة، وأمنية واحدة، ونتتحب في أيّام الحزن هذه، ونحسبُ أن نرى خيور الله في دنيا الحياة. لنا جميعنا، نحن الذين لسنا سوى واحدٍ في يسوع المسيح الواحد، قيل: «أرجُ الربّ، تشدَّد وليتشجّع قلبُك، وارجُ الربّ». ماذا بوسعه أن يقول بعدُ، سوى أن يُكرّر ما سمعتموه؟ أرجُ الربّ واعمل كرجلٍ شجاع. فمن فقد الرجاء كان مُختّثًا، ورجلًا بلا عافية ونشاط. فليسمع الرجال هذا الكلام، ولتفهمْهُ النساء أيضًا. لأنّ الرجل والمرأة ليسا سوى واحدٍ في يسوع المسيح، الإنسان الواحد. لكنّه ليس بعدُ لا ذكَرًا ولا أنثى، ذاك الذي يحيا في يسوع المسيح (راجع غلاطية ٣: ٢٨). «أرجُ الربّ، تشدَّد، وليتشجّع قلبُك وارجُ الربّ». فبالرجاء تحظى بالربّ، وتحظى بالذي رجَوتَه. حرٌّ أنت في أن تصوغ رغباتٍ أخرى، لو انّك تجدُ ما هو أسمى وأجدر وأطيب.

عظة في المزمور السابع والعشرين

المسيح في قيامتِه

المزمور بأكملِه مكرّس للإشادة بمجدِ القيامة وبِذُلِّ اليهود. أرادوا أن يُهلِكوا المسيح، فقام لكي ينصُر مختاريه. أمّا اليهود الكفَرَة، فقد خسروا الحياة الأبديّة. فكُذِّب ضلالُهم مرّتَين.

مزمور لداود

١ - المتكلّم في هذا المزمور هو الوسيط الذي كانت ذراعُه قويّة في معركة آلامِه. والويلات التي يبدو أنّه يستنزلُها على أعدائِه، ليست لعناتٍ بقدر ما هي تنبّؤٌ بالقصاص، مثلما هو الأمر في الإنجيل، عندما يتكلّم عن المدن التي عاينت معجزاتِه ولم تؤمن به (راجع متّى ١١: ٢٠)، فيتنبّأ بالويلات التي تُهدّدها، أكثر ممّا يرشقُها بالحِرم.

٢ - «إليك يا ربّ أصرخ، فلا تُبعِد عنّي كلمتَك». إليك، أصرخ أيّها الربّ إلهي، فلا تُقصِ **كلمتك** عن البشريّة التي ألبسُها. «إن تُقصِ عنّي كلمتَك سأشابُه الهابطين في القبر» (٢٧: ١). إتّحادُ **كلمتِك** الأزليّة بي يجعلني لا أشبِه سائر الناس الذين يولدون في لُجَج بؤس الدّهر، حيث لا يعرفون **كلمتَك** إلّا إذا صَمَتَّ. «استجب، إلهي، صوت تضرّعي عند استغاثتي بك ورفع يدَيّ نحو هيكل قدسِك» (٢٧ :

٢)، أي إذ أنا مسمّرٌ على الصليب، لأجل خلاص الذين سيصيرون هيكلِك القدّوس عندما يؤمنون بك.

٣ - «لا تخطَف نفسي مع الخطأة، ولا تُهلِكني مع فاعلي الإثم الذين يُكلّمون قريبَهم بالسلام، وفي قلوبِهم الشرّ» (٢٧ : ٣): أي مع أولئك الذين يقولون لي: «يا معلّم، نحن نعلم أنّك من الله أتيت» (يوحنّا ٣: ٢)، لكنّ قلوبَهم ليست مشرعة إلّا للأفكار الشرّيرة.

٤ - «عامِلهم بحسب أعمالِهم». عدلٌ أن تردَّ عليهِم أعمالَهم. «جازِهِم بحسب شرّ مخطّطاتِهم». لأنّهم بسعيِهم في الشرّ، لا يقوَون على أن يجدوا الخير. «وأنِلهُم مثل صُنع أيديهِم» (٢٧ : ٤). على الرغم من أنّ أعمالَهم تؤدّي إلى خلاص الآخرين، أردُد عليهِم الجزاء الذي يستحقّه عملُهم. «أردُد عليهِم جزاءَهم». لأنّهم عِوَضَ الحقّ الذي كانوا يسمعونه، لم يشاؤوا أن يُردّدوا سوى الضلال، فكانوا ضحيّة أكاذيبِهم.

٥ - «فإنّهم لم يعقِلوا أفعال الربّ» (٢٧ : ٥). كيف نعرف أنّهم ضلّلوا أنفُسَهم؟ - لأنّهم لم يعقِلوا أفعالَ الربّ. ذاك هو جزاؤُهم الأوّل. أرواحهم الشرّيرة انقضّت على الإنسان في يسوع المسيح، ولم يعرفوا أنّه هو الله، ولا مُخطّط الله الذي ألبسَه جسدَنا. «ولا صنع يدَيه». أي: ولا هزّتهُم الأعمال المنظورة التي كانت تتم تحت أعيُنِهم. «تُدمّرُهم يا ربّ ولا تُقيمُهم إلى الأبد»: لا تجعلهم يقوَون على أذيّتي، ولتخِب أحابيلُهم الماكرة ضدّ كنيستِك.

٦ - «تبارك الربّ فإنّه قد سمع صوت تضرّعي» (٢٧ : ٦).

٧ - «الربّ قوّتي وناصري» (٢٧ : ٧): الربّ هو الذي يُقوّيني بمثل تلك الآلام، وينصرُني إذ يهبُني القيامة والخلود. «وعليه اتّكل

قلبي، فنُصِرَ، وعاد جسدي فأزهر». قام من الموت جسدي. «وسأبارِكُه بكلّ قلبي»: الذين يؤمنون بي سيباركون الربّ، لا بالخوف لأنّهم تحت الناموس، بل بإرادة حرّة لأنّهم يخضعون للناموس. وبما أنّني أسكن فيهِم، فأنا الذي سأبارك الربّ.

٨ - «الربّ عزّة شعبِه» (٢٧ : ٨): لا عزّة ذلك الشعب الذي يجهل برّ الله، ويسعى لإقامةِ برِّه (رومة ١٠ : ٣)، بل الشعب الذي لا يؤمن قَطُّ بقوّتِه الذاتيّة، لأنّ الربّ هو الذي ينصر شعبه في حربه ضدّ الشيطان في مصاعب هذه الحياة. «وهو حصن للذين خلّصَهم مسيحُه». لأنّه، بعد أنّ خلّص شعبَه بمسيحِه، وعضد بأسَه في المعارك، سيُقيمُه في سلامٍ لا ينتهي.

٩ - «يا ربّ، خلّص شعبك وبارك ميراثَك» (٢٧ : ٩). عاد جسدي فأزهرَ، وإليك أرفع تضرّعي، لأنّك قلت لي: «سلني فأعطيَك الأمم ميراثًا» (مزمور ٢ : ٨). خلّص شعبَكَ، وبارك ميراثَك، لأنّ «كلّ ما هو لي فهو لك» (يوحنّا ١٧ : ١٠). «إرعَهُم وارفعهُم بالمجد إلى الأبد». إرعَهم في هذه الحياة، ومن هذه الدنيا ارفعهُم إلى الحياة الأبديّة.

عظة في المزمور الثامن والعشرين

كنيسة الله وكرازة الإنجيل

يعرض لنا هذا المزمور المعجزات التي سيُحقّقُها، في شعوب الوثنيّة، صوت الله الذي يُدوّي ويصل، بالإنجيل، إلى جميع القلوب. إنّه المسيح الذي يمتلك، أيضًا، جميع الناس.

مزمور لداود، لدى إنجاز الخباء (٢٨ : ١)

١ - أُنشد هذا المزمور تكريمًا للوسيط، ذي اليد القويّة، من أجل إنجاز كنيستِه في هذه الأرض، حيثُ عليها أن تخوض كلَّ يوم حربًا ضدّ إبليس.

٢ - هو النبيُّ يتكلّم فيقول: «قدّموا للربّ يا أبناء الله، أولاد الكباش[١]». قدّموا ذواتكم أنتم يا من ولدَكم بالإنجيل، أنتم الرسُل، رعاة القطيع. «قدّموا للربّ مجدًا وعزّةً» (٢٨ : ١). فلتكن أعمالُكم مجدًا لله وتسبيحًا. «قدّموا المجد لاسم الربّ» (٢٨ : ٢). أشيدوا بمجدِه في العالَم كلِّه. «أسجدوا للربّ أمام مجدِ قُدسِه» (٢٨ : ٢). أسجدوا للربّ في قلوبِكم المنشرحة والمقدّسة، لأنّكم أنتم مقرّ سكناه الملكيّ المقدَّس.

---

(١) وردت في السبعينيّة υἱοὺς κριῶν أي أولاد الكباش (الحملان). وكذلك في الفولغاتا filios arietum. ولم ترد العبارة في العبريّة.

٣ - «صوت الربّ على المياه». صوت المسيح على الشعوب «الربّ أرعدَ بالجَلال». من وسط غمام جسدِه، أنذرَنا الربّ بالتوبة بصوت جليلٍ رهيب. «الأزليّ على المياه الغزيرة» (٢٨ : ٣). أسمعَ الربُّ يسوع الشعوبَ صوتَه، فتجمّدوا وارتاعوا. هداهم إلى شريعتِه وشاء أن يسكن فيهِم.

٤ - «صوتُ الربّ مملوءٌ قوّةً». بات صوت الربّ في داخِلِهم فمنحهُم القوّة. «صوت الربّ مملوءٌ مجدًا» (٢٨ : ٤). صوت الله يعمل فيهم أعمالًا عظيمة.

٥ - «صوت الربّ يُحطّم الأرز». صوت الربّ يُحطّم قلوب العظماء ويُذلّهم. «الربّ يُحطّم أرز لبنان» (٢٨ : ٥). بالتوبة، سيُحطّم الربّ الذين يتباهَون بعظمةٍ أرضيّة، وسوف يخزيهِم باختيارِه ضعفاء البشر الذين يزدريهم العالَم (١ قورنتُس ١ : ٢٨)، لكي تسطع فيهم القدرة الإلهيّة.

٦ - «يُحطّمُها كعِجل لبنان» (٢٨ : ٦). يُذلّ شموخَها، ويُخضِعُها، كالعجلِ الذي يقودُه إلى المسلخ عظماء هذا العالَم. لأنّ «ملوك الأرض والعظماءَ قاموا على الربّ وائتمَروا على مسيحِه» (مزمور ٢ : ٢). «والحبيب كان كولدِ الثور الوحشيّ[٢]». لأنّ الحبيب

(٢) في العبريّة: וַיַּרְקִידֵם כְּמוֹ-עֵגֶל ; לְבָנוֹן וְשִׂרְיֹן , כְּמוֹ בֶן-רְאֵמִים أي يجعلُها تثِب كعجولٍ، كولدِ الثور الوحشيّ، على (جبال) لبنان وسيريون (سيريون هو الاسم الذي كان يُطلقه الصيدونيّون على حرَمون). وفي السبعينيّة: καὶ λεπτυνεῖ αὐτὰς ὡς τὸν μόσχον τὸν Λίβανον, καὶ ὁ ἠγαπημένος ὡς υἱὸς μονοκερώτων أي يُحطّمها كعجل لبنان وكولد الثور الوحشيّ الحبيب. وكذلك في الفولغاتا: et comminuet eas tamquam vitulum Libani et dilectus quemadmodum filius unicornium.

ابن الله الوحيد، أخلى ذاتَه من عظمتِه، وصار إنسانًا شبيهًا بابن اليهود الذين لم يعرفوا بِرّ الله (رومة ١٠ : ٣)، فراحوا يتباهون بصَلَفٍ ببِرّ أنفُسِهم، على أنّه البرّ الوحيد.

٧ - «صوت الربّ يُفرّق شُهُب النار» (٢٨ : ٧). صوت الربّ يشقّ ممرًّا عبر الذين يضطهدونَه بحقدٍ لا يلين، ولا ينالُه منهم أيّ خدش؛ أو يُلقي الفُرقة بين مُضايِقيه أشَدِّهم ضراوةً. فيقول بعضُهم: «أليس هذا هو المسيح؟»، والبعضُ الآخر: «لا، ولكنّه يُضِلُّ الشعب» (يوحنّا ٧ : ١٢). وهكذا يُلقي الشقاق في الجَماعة الجاهلة، فيجذب بعضَهم إلى محبّتِه، ويترك الآخرين في مكرِهم.

٨ - «صوت الربّ يُزلزِل البراري» (٢٨ : ٨). صوت الربّ يُزلزل الأمم التي كانت «بلا رجاءٍ وبلا إله في العالَم» (أفسُس ٢ : ١٢) ليهديها إلى الإيمان؛ تلك الأمم التي لم يكن يُقيم فيها أيّ إنسان، لا نبيّ، ولا كارزٌ بكلمة الله. «يُزلزلُ الربّ بريّة قادش». عندها يُعلي شأنَ كلام الكتب المقدّسة المتروك لليهود الذين لم يكونوا يفهمونه.

٩ - «صوت الربّ يُكمّل[٣] الأيائل» (٢٨ : ٩). صوت الربّ يقود إلى الكمال، أوّلًا، الذين يعرفون كيف يدفعون عنهم الألسنة المسمومة ويُذلّلونها. «ويكشف الغابات[٤]»: أي يجلو للناس غموض الكتب

(٣) في العبريّة: יְחוֹלֵל אַיָּלוֹת يُولّد الأيائِل (يُقال إنّ صوت العاصفة يُسرّع ويُسهّل ولادة الأيائل). وفي الفولغاتا: praeparantis cervos أي يُهيّئ الأيائل (للولادة). وفي السبعينيّة: καταρτιζομένου ἐλάφους أي يُهيّئ الأيائل. (كما تعني: يُكمّل الأيائل) καταρτιζω = رتّب وهيّأ وحسّن وكمّل.

(٤) في العبريّة: וַיֶּחֱשֹׂף יְעָרוֹת أي يُجرّد الغابات. وفي الفولغاتا: revelabit condensa أي: يكشف الغابات الكثيفة (بمعنى يُعرّيها فيدخلها النور). وفي السبعينيّة: ἀποκαλύψει δρυμούς بمعنى يُجرّد الغابات من بهائِها (من أوراقِها).

المقدّسة، وظلال أسرارِها، ليَرعَوا فيها بحرّيّة. «وفي هيكلِه، كلٌّ ينطق بمجدِه»: أي وفي كنيستِه، كلّ من وُلِد ولادةً جديدة في الرجاء الأبديّ، يبارك الربّ على حسب العطيّة التي نالها من الروح القدس.

١٠ - «الربّ جالسٌ على الطوفان» (٢٨: ١٠). في البدء كان الربّ جالسًا على مياه هذا العالَم الغزيرة، في شخص القدّيسين الذين يحفظهم في كنيستِه كمن في فُلك (تكوين ٧). «يجلس الربّ ليملك إلى الأبد»: ثمّ يجلس ليملك إلى الأبد في مختاريه.

١١ - الربّ يؤتي شعبَه العزّة» (٢٨: ١١). لأنّ على الربّ أن يُقوّي شعبَه في حربِه ضدّ عواصف هذا الدّهر وأعاصيره، لكونِه لم يعِدْه بالسلام في هذه الدنيا. «يُبارك الربّ شعبَه بالسلام». والإله نفسُه الذي سيبارك شعبه، سيعطيه السلام في شخصِه؛ لأنّه قال: «سلامي أترك لكم، سلامي أعطيكم» (يوحنّا ١٤: ٢٧).

عظة أولى في المزمور التاسع والعشرين

الكنيسة أو الهيكل المكرّس لله

بوسع كلّ عضوٍ من أعضاء كنيسة المسيح أن ينطق بلغة هذا المزمور. وما يُمكن أن يقولَه المسيح بشأن قيامتِه، وعندما يتهيّأ ليُكرّس هيكلًا في المؤمنين، بوسعِه أن يدّعيه كلّ مؤمنٍ خرج من قبضة الخطيئة، إذ يعتبر نفسَه بمثابة هيكلٍ مكرّسٍ لله.

للغاية، مزمور نشيد تدشين مكانٍ مقدّس، لداود (٢٩ : ١)

١ - للغاية. نشيد فرح القيامة التي جَدّدت، لا جسد يسوع المسيح فحسب، بل الكنيسة جمعاء، وحوّلتها إلى جسدٍ لا يفنى. في المزمور السابق، وُضعت اللمسات الأخيرة على الخيمة الذي علينا أن نقيم فيها طوال مدّة الحرب؛ والآن، نحن بصدد تدشين ذلك البيت الذي علينا أن نُقيم فيه في سلامٍ أبديّ.

٢ - المسيح بكلّيّتِه هو الذي يتكلّم هنا: «أعظّمُك، يا ربّ لأنّك رفعتَني» (٢٩: ٢). أشيد بعظمتِك لأنّك صُنتَني. «ولم تُسِرّ أعدائي بهزيمتي». لم تسمح بأن يشمت بي أولئك الذين سعَوا كثيرًا، في العالم بأسره، بأن يسحقوني بمضايقاتِهم.

٣ - «أيّها الربّ إلهي، استغثتُ بك فشفيتَني» (٢٩ : ٣). دعوتُك أيّها الربّ إلهي، فلم أعُد مُثقَلًا بجسدٍ معرّضٍ للموت والمرض.

٤ - «يا ربّ، أخرجت نفسي من القبر، وفصلتني من بين الهابطين في الهاوية» (٢٩: ٤). أنقذتَني من ضلالٍ مبين، ومن أعماق الجسد الفاسد انتشلتني.

٥ - «أشيدوا للربّ يا قدّيسيه». يرى النبيّ ما يُنبئ به في المستقبل، وفي نشوتِه يهتف: «أشيدوا للربّ يا قدّيسيه، واعترفوا لذكرِ قُدسِه» (٢٩: ٥). اعترِفوا أنّه لم ينسَ تلك القداسة التي زيّنكم بها، ولو انّ الزمن الذي يفصل التقديس عن الثواب، يبدو أطوَل ممّا تبتغون.

٦ - «غضبُه يحملُ الإنتقام». انتقم للخطيئة الأولى التي تُكفّرون عنها بالموت. «ورضاه يُعطي الحياة» (٢٩: ٦). تلك الحياة الأبديّة التي ما كان لكم أن تنالوها بقواكم الذاتيّة، يُعطيكموها بفعلٍ من جودة مشيئتِه. «في المساء تجري الدموع». ذلك المساء حلّ عندما انطفأ نور الحكمة في الإنسان الخاطئ، فقُضي عليه بالموت. إبتداءً من ذلك المساء المميت، على الدموع أن تنسكب سخيّةً، ما دام الشعب ينتظر، في العناء والمِحن، يوم الربّ. «وفي الغداة نكون في الفرح». سينتظر حتّى الغداة، ليبتهج بفرح القيامة المقبِلة التي تُبشّرنا بها، نظير زهرة صباحيّة، قيامةُ المسيح.

٧ - «وأنا قلتُ: في أيّام رخائي لا أتزعزع إلى الأبد» (٢٩: ٧). وأنا، الشعبَ، أنا الذي كنت أتكلّم منذ البدء، في أيّام رخائي، إذ لم أكن أحسّ جوعًا، قلت: «لن أتزعزع أبدًا».

٨ - «يا ربّ، في جودتِك، ثبّتّني في نعيمي» (٢٩: ٨). لكنّي عرفتُ، يا ربّ، أنّ ذلك النعيم يأتيني من جودتِك لا منّي، وعندما «حجبت وجهَك عنّي صرت مرتاعًا»، لأنّ خطاياي حجبت وجهَك عنّي، فصرتُ قلِقًا عندما انطفأ نورُك في عينيّ.

٩ - «إليك أصرخُ يا ربّ، وإليك أتضرّع يا إلهي» (٢٩ : ٩). عندما أذكر أيّام ارتياعي وشقائي، واحسب نفسي مقيمًا فيها، أسمع حينئذٍ صوت بِكرِك، صوت رأسي الذي سيموت لأجلي، يهتف: «بك أستغيث يا ربّ، وإليك أتضرّع يا إلهي».

١٠ - «أيّ منفعة بدَمي، في هبوطي إلى الفساد؟ أيستطيع التراب أن يُمجّدك؟» (٢٩ : ١٠). إن لم أقُم لتوّي، وبقي جسدي طعامًا للفساد، أيستطيع التراب أن يُشيد بمجدِك؟ أو زمرة المنافقين الذين ستُبرّرهم قيامتُك؟ «وهل لها أن تُخبِرَ بحقيقتِك؟» (٢٩ : ١٠). أي هل يستطيع المنافقون أن يُبشّروا الآخرين بحقيقة الخلاص؟

١١ - «سمعني الربّ وترأّف بي وكان لي ناصرًا» (٢٩ : ١١). «لم يسمح بأن يرى قدّوسُه فسادًا» (مزمور ١٥ : ١٠).

١٢ - «حوّلت حزني إلى فرح» (٢٩ : ١٢). أنا، كنيستَك، التي اقتبلت ذلك البكرَ القائم من بين الأموات، أنشِد في تدشين قصرِك: «حوّلتَ حزني إلى فرح، ومزّقتَ مِسحي، وألبستني سرورًا». نزعت عنّي حجاب خطيئتي، وحزن ميتوتتي، لكي تُلبِسَني ثوبيَ الأوّل، وفرحًا لا يفنى.

١٣ - «لكي يُشيد لك مجدي ولا يُضنيني شوكٌ» (٢٩ : ١٣). فلا تُضنيني بعدُ كآبةٌ، ويُشيد مجدي، لا ذُلّي، بتسبحتِك، لأنّك من الذلّ انتشلتني، فلا يغرز بعدُ في ضميري شوك الخطيئة، ولا يخرق قلبي الخوف من الموت ومن الدينونة. «أيّها الربّ إلهي، إلى الأبد أباركُك». إنّ مجدي، يا إلهي، لا يكون إلّا في الإشادة عاليًا بتسبيحِك، وألّا يكون فيّ شيءٌ ممّا هو منّي، وأن يأتيني منك كلّ خير، يا إلهي الذي أنت «الكلّ في الكلّ» (١ قورنتُس ١٥ : ٢٨).

عظة ثانية في المزمور التاسع والعشرين

مجد المسيحيّ بعد هذه الحياة

في هذه العظة، يُبيّن لنا القدّيس أوغسطينُس، أنّ يسوع المسيح، رأسَنا، بعدّ أن تُوِّجَ في السماء، ينبغي أن نلحق به إليها ونستقبلَه فيها. وسنبلغ مبتغانا حين نُبارك الله ونمجّدَه في آلامِه، لكي نُباركَه بعد ذلك في مجدِه.

١ - لقد أنشدنا: «أعظّمك يا ربّ لأنّك رفعتَني، ولأنّك لم تُسِرّ أعدائي بهزيمتي» (٢٩: ٢). إذا كانت الكتب المقدّسة قد عرّفتنا بأعدائِنا، فإنّنا نفهم حقيقة هذا النشيد؛ أمّا إذا كانت فطنة الجسد ألقت بنا في الأوهام إلى درجة لم نَعُد معها نعرف من علينا أن نصارع (أفسُس ٦: ١٢)، فإنّنا نجد في مطلع المزمور عثرة يتعذّر علينا حلّها. من تُراه يُصعِّد نشيد الشكر هذا، ومن هو ذاك الصوت الذي يُبارك الله في البهجة ويهتف: «أعظّمك يا ربّ لأنّك رفعتَني، ولأنّك لم تُسِرّ أعدائي بهزيمتي»؟ لنعتبِر أوّلًا أنّ ربّنا الذي تصاغر ولبس بشريّتَنا، ادّعى لنفسِه كلمات النبيّ. صار إنسانًا فحمل أسقامَنا، وسقيمًا فكان عليه أن يُصلّي. نقرأ الإنجيل فنرى أنّه انحاز عن تلاميذِه إلى القفر، حيث انطلقوا في إثرِه فوجدوه. انحاز ليُصلّي، وعندما وجده تلاميذُه قالوا له: «إنّ الجميع يطلبونَك. فقال لهم: لنمضِ ونكرز في أمكنة أخرى، في القرى القريبة، لأنّي لهذا جئتُ» (مرقس ١: ٣٥-٣٨). إن قَصرْنا

تصوّرَنا على ألوهيّة ربّنا يسوع المسيح دون بشريّتِه، فإلى من تُراه يُصلّي؟ إلى من يوجّه صلاتَه؟ ما هو موضوع صلاتِه؟ أيُصلّي إلهٌ؟ أيُخاطِبُ إلهٌ إلهًا؟ أيّ سبب يدعو إلى الصلاة ذاك المغبوط على الدوام، والقدير على الدوام، والأبديّ الذي لا يحول ولا يزول، المساوي للآب في الأزليّة؟ ليتنا نُصغي إلى صوت الرعد الذي أطلقه القديس يوحنّا كأنّه آتٍ من الغمام: «في البدء كان **الكلمة**، و**الكلمة** كان في الله، و**الكلمة** كان الله. في البدء كان مع الله. به كلّ شيءٍ كُوِّن. ومن دونِه لم يُكوَّن شيءٌ ممّا كُوِّن. به كانت الحياة، والحياة نورُ الناس. والنور أشرق في الظلمة، والظلمة لم تُدركهُ» (يوحنّا ١ : ١-٥)؛ لا نجد إلى الآن، لا صلاة، ولا موضوع صلاة، ولا مبرِّر صلاة، ولا رغبةً في الصلاة؛ لكن، عندما نقرأ لاحقًا: «و**الكلمة** صار جسدًا، وحلّ بينَنا» (يوحنّا ١ : ١٤)، نكون أمام إلهٍ تجب له الصلاة، وإنسانٍ يُصلّي لأجلِنا. فالرسول تكلّم بهذه اللغة بعد قيامة ربّنا يسوع المسيح الجالِس عن يمين الله ليشفع فينا (رومة ٨ : ٣٤). لماذا يشفع فينا؟ - لأنّه تصاغر ليجعل نفسَه وسيطًا لنا. من يكون الوسيط بين الله والبشر؟ لا أقول بين أبيه والبشر، بل بين الله والبشر. من هو الله؟ - إنّه الآب والإبن والروح القدس. ومن هم البشر؟ - خطأة، منافقون، ضعفاء، مائتون. إذًا، بين الثالوث والبشر الخطأة ذوي الأسقام، إنسانٌ أقام نفسَه وسيطًا. صحيحٌ أنّه إنسانٌ طاهر، لكنّه سقيم، لكي يستطيع أن يُقرّبَكم من الله في طهرِه، وأن يقترِب منكم في سقمِه. هكذا صار **الكلمة** جسدًا، وصار **الكلمة** إنسانًا وسيطًا بين الله والبشر. والجسدُ هنا يعني البشر. من هنا هذه العبارة: «ويُعاين كلّ جسدٍ خلاص الله» (لوقا ٣ : ٦). كلّ جسدٍ، أي جميع الناس. ويقول الرسول أيضًا: «ليس علينا أن نُصارع ضدَّ اللحم والدم»، أي ضدّ الناس، «بل ضدّ الرئاسات

والسلاطين، وولاة هذا العالَم، عالم الظلمة» (أفسُس ٦ : ١٢)، الذين سنتكلّم عنهم لاحقًا، بعون الله. ذاك أنّ هذا التمييز ضروريٌّ لنا لفهم هذا المزمور، الذي باشرنا بشرحه لكم باسم الربّ. على أنّني أوردتُ لكم اليوم هذه الأمثلة لكي تعرفوا أنّ الجسد يعني جميع الناس، وأنّ عبارة: «**الكلمة** صار جسدًا» تعني: «**الكلمة** صار إنسانًا».

٢ - لم أُشِر إلى هذا من غير سبب. عليكم أن تعلموا، يا إخوتي، أنّه قام في الماضي هراطقة من أتباع أبوليناريوس[١]، ولعلّ بعضَهم ما زالوا إلى اليوم. كثيرون منهم ضلّوا عندما تكلّموا عن تلك البشريّة التي لبستها حكمة الله، وسكنت فيها بذاتِها، لا كسائر الناس، بل بحسب قول النبيّ: «لذلك مسحك إلهُك، يا ألله، بدُهن الفرح أفضلَ من

(١) هو أبوليناريوس الأصغر (٣١٠-٣٩٠م) أسقف اللاذقية بسورية، إبن أبوليناريوس الأكبر ناظر مدرسة بيروت؛ Berytus الذى أصبح في ما بعد قسيسًا في اللاذقيّة. كان ذا مكانة مرموقة بين لاهوتيي عصره، لدفاعه عن المسيحية وولائه لقانون إيمان نيقية. كان مدافعًا غيورًا ضدّ الأريوسيين. أراد أن يقدم نظامًا للاهوت بالطريقة الكلاسيكية الوثنية التى تعلمها على يد أبيه فسقط فى بدعة خطيرة وهي أن الابن عند تجسده حل لاهوته مقام الروح الجسدية، وتحمل الآلام والصلب مع الجسد. كما كان يعتقد ايضًا بوجود تفاوت فى الأقانيم الثلاثة مناديًا بأنّ الروح عظيم والإبن اعظم أمّا الآب فهو الأعظم. اعتمد في نظريته على تقسيم أفلاطون الشهير للطبيعة البشرية: جسد ونفس وروح. وقال: إنّ المسيح وإن كان قد وُلد من العذراء إلا أنّه لم يتخذ جسده منها، بل إنّ جوهره الإلهي استحال إلى جسد في بطنها، ولذلك لم تكن له نفس بشرية، إذ أنّ لاهوته حل محل النفس فيه. وحجته في ذلك أنّ النفس تميل إلى الخطيئة، والمسيح لم يمل إليها إطلاقًا، بل عاش كل حياته بعيدًا كل البعد عنها. وزعم أنّ اللاهوت أخذ في المسيح مكان الروح الناطقة في الإنسان. والذي قاده إلى ذلك صعوبة تصوُّر اتحاد طبيعتين كاملتين في أقنوم واحد. فقال: إذا كان المسيح هو الله، أو **الكلمة** الإلهي، فإنّه يكون كاملًا؛ وإذا كان إنسانًا، فلا بد أن يكون ذا عقل محدود وإرادة بشرية. آمن بكمال لاهوت المسيح، ونادى بعدم كمال ناسوتِه. حرمه مجمع؛القسطنطينية المسكونيّ المقدس المنعقد سنة ٣٨١ م.

شُرَكائِكَ» (مزمور ٤٤ : ٨)، أي بدُهنٍ أفضل من دُهن سائر الناس: لئلّا يذهب بنا الظنّ إلى القول بأن دُهن المسيح يُشبِه دُهن الناس، أو دُهن الآباء والأنبياء والرسل والشهداء والصدّيقين، وكل من أنتجته السلالات البشريّة. «لم يقم في مواليد النساء أعظمُ من يوحنّا المعمدان» (متّى ١١ : ١١). إذا بحثتم عن عظمتِه، فحسبُكم أن تقولوا إنّه يوحنّا المعمدان. لكن، من كان ذاك الذي لم يكن يوحنّا المعمدان يستحقّ أن يحلّ سير حذائِه؟ (مرقس ١ : ٧). ألم يكن أفضل من سائر الناس؟ حتّى في بشريّتِه، كان أعظم من جميع البشر. كإلهٍ في ألوهيّتِه، وككلمة كان في البدء: **كلمة** كان في الله، و**كلمة** كان الله، فهو مساوٍ للآب وأسمى من كلّ خليقة. لكنّنا نتكلّم هنا عن البشريّة. لعلّ أحدكم، يا إخوتي، يعتقد أنّ هذا الإنسان الذي تصاغرت الحكمة الإلهيّة فلبسته، كان مساويًا لسائر الناس. في جسد الإنسان، ثمة فرقٌ هائل بين الرأس وبقيّة الأعضاء، على الرغم من أنّ الأعضاء لا تُشكّل، في الحقيقة، سوى جسدٍ واحد؛ إلّا أنّ الرأس خيرٌ من بقيّة الأعضاء. ففي تلك الأعضاء، لا شعور لديك إلّا باللمس. تلمس فتشعر، أمّا في الرأس فأنت تسمع وتُبصر وتشمّ وتذوق وتلمس. فإذا كانت تلك أفضليّة الرأس على سائر الأعضاء، فما القول عن أفضليّة من هو رأس الكنيسة، أو ذلك **الإنسان** الذي شاء الله أن يُقيمه وسيطًا بين الله والبشر؟ إذًا، قال الهراطقة إنّ الإنسان الذي لبِسَه **الكلمة**، عندما صار **الكلمة** جسدًا، لم تكن لديه روح بشريّة، بل روحٌ خالية من الإدراك البشريّ. تعرفون أنّ الإنسان يتكوّن من روحٍ وجسد. لكنّ في روح الإنسان شيئًا ما يفوق ما في روح الحيوان. فللحيوان روحٌ أيضًا، ومن هنا دُعِيَ حيوانًا (اللفظة مشتقّة من حياة). وما كان ليُدعى حيوانًا لو لم تكن له روح. والحال، فإنّ الحيوان يتمتّع بالحياة. فما الذي يملكه

الإنسان ويُميّزه فيكون على صورة الله؟ - لأنّه يُدركُ ويعقلُ ويميّز الخير من الشرّ. بهذا خُلِق على صورة الله ومثالِه. إنّ فيه، إذًا، شيئًا ما ليس للحيوان. وعندما يزدري تفوّقَه على البهائم، يُدمِّر ويمحو في ذاتِه، ويحطّ، بشكلٍ من الأشكال، صورة الله؛ فيُقال لمثل هؤلاء: «لا تكونوا كالفرس أو البغل بغير فهم» (مزمور ٣١: ٩). لقد أكّد هؤلاء الهراطقة أنّ ربّنا يسوع المسيح لم يكن يملك روحًا بشريّة، ولا ما يُسمّيه اليونانيّون منطقًا (logicos - λογικος لوجيكُس)، وما نُسمّيه نحن عقلًا، ذلك الجزء من الروح الذي يعقل ولا يملكه الحيوان. فما هو تعليمُهُم؟ يُعلّمون أنّ **كلمة** الله كان في بشريّتِه، ما هو الروحُ فينا. فلفظتهم الكنيسة، وارتاع منهم الإيمان الكاثوليكيّ، وشكّلوا بدعة. أعلن الإيمان الكاثوليكيّ أنّ ذاك الإنسان الذي تصاغرت الحكمة الإلهيّة فلبسته، لم يَقلَّ في شيءٍ عن سائر الناس، في ما خصَّ كمال الطبيعة البشريّة؛ غير أن روعة الأقنوم جعلته أسمى من سائر الناس. لأنّ بوسعِنا أن نقول عن الآخرين إنّهم يُشاركون في **كلمة** الله، لأنّ **كلمة** الله فيهم؛ لكن، ليس بوسع أحدِهم أن يُدعى **كلمة** الله، كذاك الذي قال عن الإنجيل إنّ «**الكلمة** صار جسدًا» (يوحنّا ١: ١٤).

٣ - وإنّ مهرطقين آخرين تفرّعوا من هؤلاء، أنكروا على ذلك الإنسان - الإله، على يسوع المسيح الوسيط بين الله والبشر، لا العقل فقط، بل الروح البشريّة. أكّدوا أنّه كلمةٌ (لوغُس λόγος) وجسد؛ لكن، لم يكن فيه لا عقلٌ بشريّ ولا حياةٌ بشريّة. هذا ما كانوا يُعلّمونَه. فمن كان يسوع المسيح بالنسبة إليهم؟ - الكلمة والجسد. فما كان من الكنيسة إلّا أن لفظتهم وفصلتهم عن غنمِها، عن الإيمان الحقيقيّ البسيط، وأعلنت كما سبق أن قلت، أنّ الإنسان الوسيط كان له كل ما للإنسان، ما خلا الخطيئة. والحال، فإنّنا إذا كنّا نرى فيه الكثير من

الأعمال الجسديّة التي تُبيّن لنا أنّه كان له جسدٌ حقيقيّ، لا وهميّ، فكيف نفهم هذا الجسد؟ - إنّه يمشي، ويجلس، وينام، ويُمسَك، ويُجلَد ويُصفَع، ويُسمّر على الصليب، ويموت. إنزع عنه الجسد، فلا يعود يحصلُ له ما حصل. فكما أنّنا نعرف بهذه العلامات الإنجيليّة أنّ المسيح كان له جسد حقيقيّ، كما يؤكّد هو ذاتُه بعد قيامتِه عندما يقول: «جُسّوا وانظروا، فإنّ الروح لا لحم له ولا عظام كما ترَون لي» (لوقا ٢٤: ٣٩)؛ وكما أنّنا، بهذه العلامات وبهذه الأفعال، نؤمن ونفهم ونعترف بأنّ ربّنا يسوع المسيح كان له جسد؛ كذلك فإنّ ميزاتٍ أخرى من الطبيعة، تجعلُنا نؤمن بأنّه كان له روح. الجوع والعطشُ من أعمال الروح. إنزعوا الروح فلا يعود الجسد الميت يشعرُ بمثل تلك الحاجات. فإذا كانوا يؤكّدون بأنّ تلك الحاجات كانت وهميّة، فلن نعود نرى سوى الأوهام في كلّ ما قيل عن الجسد. أمّا إذا دفعتنا حقيقة الأعمال الجسديّة إلى إستنتاج حقيقة الجسد، فإنّ حقيقة أعمال الروح ستدفعنا إلى استنتاج حقيقة الروح أيضًا.

٤ - ماذا إذًا؟ أنت يا من تسمعني. لقد حمل الربّ الآلام مثلك، بلا شكّ، لكن حذار أن تمضي إلى حدّ التشبُّه به. أنت مجرّد خليقة، وهو الخالق. أن يكون **الكلمة** ابن الله، إلهك، صار إنسانًا، فليس ذلك مبرِّرًا لأن تُشبّه ذاك الإنسان بنفسِك، بل أن ترفعه فوقَك، لأنّه وسيطك، وهو فوق كلّ خليقة، لأنّه هو الله؛ وأن تفهم، أخيرًا، أنّ الذي صار إنسانًا لأجلِك، يستطيع أن يتواضَع ليُصلّي من أجلك؛ وإذا لم تكن الصلاة خروجًا على كرامتِه، بوسعه أيضًا، من دون مسٍّ بكرامته، أن يقول مكانَك هذه الكلمات: «أعظّمك يا ربّ لأنّك رفعتَني، ولأنّك لم تُسِرَّ أعدائي بهزيمتي» (٢٩: ٢). أمّا إذا لم نفهم جيّدًا من هو العدوّ المقصود، فإنّنا نُشوِّه هذه الكلمات، حين نضعُها

على فم يسوع المسيح. كيف للمسيح أن يقول بحقّ: «أعظّمك يا ربّ لأنّك رفعتَني، ولأنّك لم تُسِرّ أعدائي بهزيمتي»؟ كيف يكون ذلك صحيحًا، وهو الإنسان اللحميّ الضعيف؟ - لأنّه انتصرَ على أعدائه عندما أمسكوا به وجلدوه وصفعوه وصلبوه وقالوا له: «تنبّأ لنا أيّها المسيح» (متّى ٢٦: ٦٨). إنّ ذلك الفرح الذي داخلَهم، يُرغمنا، بشكلٍ من الأشكال، على الإعتقاد بزيف هذه الكلمات: «ولأنّك لم تُسِرّ أعدائي بهزيمتي». ولاحقًا، عندما رُفع على الصليب، كانوا يمرّون به ويتوقّفون ويُحدّقون به ويهزّون رؤوسَهم ويقولون: «أنظروا إلى ابن الله هذا، خلّص آخرين، ولا يستطيع أن يُخلِّص نفسَه؛ لينزلْ عن الصليب، فنؤمن به» (متّى ٢٧: ٤٢). ألا يرتعدون وهم يقذفونه بهذه الشتائم؟ ماذا، إذًا، تكون حال تلك الكلمات: «أعظّمك يا ربّ لأنّك رفعتَني، ولأنّك لم تُسِرّ أعدائي بهزيمتي»؟

٥ - لعلّ هذا ليس كلام ربّنا يسوع المسيح، بل كلام الإنسان، بل كلام الكنيسة جمعاء، وكلام الشعب المسيحي، لأنّ البشر أجمعين صاروا واحدًا في المسيح، ولأنّ جميع المسيحيّين المتّحدين إنّما هم إنسانٌ واحد. ولعلّه الإنسان إيّاه، أي الوحدة المسيحيّة، هو الذي يقول: «أعظّمك يا ربّ لأنّك رفعتَني، ولأنّك لم تُسِرّ أعدائي بهزيمتي». لكن هل ينطبق هذا على الرسل؟ ألم يُلقَ القبض عليهم؟ ألم يُضربوا بالعصيِّ ويُساموا الموت ويُسمّروا على الصليب، ويُحرقوا أحياءً، ويُقدّموا فريسة للوحوش؟ أليس هؤلاء الرجال هم الذين نحتفل اليوم بذكراهم؟ عندما كانوا يُعامَلون بهذه القسوة، ألم يكونوا مرتاعين من هلاكِهم؟ كيف، إذًا، يستطيع الشعب المسيحيّ نفسُه أن يقول: «أعظّمك يا ربّ لأنّك رفعتَني، ولأنّك لم تُسِرّ أعدائي بهزيمتي»؟

٦ - سيكون لنا أن نفهم ذلك إذا توقّفنا على عنوان المزمور:

«للغاية، مزمور لداود، نشيد تدشين بيتِه» (٢٩ : ١). ففي هذا العنوان نأمل أن نجد إيضاحًا لهذا السؤال. ذات يوم، سيُدشّن هذا الصرح الذي نبنيه اليوم. هذا الصرح الذي هو الكنيسة، يُبنى الآن، ولاحقًا سنُدشّنه؛ وعند ذلك التدشين، يسطع بهاء الشعب المسيحيّ، البهاء المحتجِب اليوم. فلندَعْ أعداءنا يُغيرون علينا، ويُخضِعوننا، ويصنعون بنا، لا ما يريدون، بل ما يسمح الله به. ينبغي ألّا نُحمّل أعداءنا، على الدوام، وِزر الشرّ الذي يُذيقونَنا إيّاه، فأحيانًا يأتينا من الربّ إلهِنا. ذاك أنّ الوسيط بيّن لنا بِمَثَلِه، أنّه حين يسمح للناس بأن يؤذونا، فإنّه لا يُعطيهم الإرادة بل السلطان. كلّ شرّيرٍ يجد في ذاتِه إرادة الأذيّة، لكنّ القدرة على الأذيّة لا تُترك لمزاجِه. الإرادة تجعلُه مذنِبًا، لكنّ القدرة على الشرّ تأتيه من تدابير سرّيّة للعناية الإلهيّة، تتيح له التصرّف، معاقبةً لهذا وامتحانًا ذاك، وتتويجًا لآخر: معاقبةً للبعض، كما سمح للغرباء (باليونانيّة allophuloi αλλόφυοι = من ليسوا بيونانيّين، أي من هم من عرقٍ آخر)، بأن يستعبدوا شعب إسرائيل الذي خطئ ضدّ إلهِه (قضاة ١٠ : ٧؛ ١٣ : ١)؛ وامتحانًا لآخرين، كما سمح لإبليس أن يُجرّب أيّوب (أيوب ١ : ١٢)، فكان النصر لأيّوب والهزيمة لإبليس؛ وتتويجًا لآخرين أيضًا، كالشهداء الذين سلّمهم إلى أيدي مُضطهديهِم. ذُبِح الشهدوا فظنّ جلّادوهم أنّهم الظافرون، فنالوا العالَم نصرًا زائفًا، أمّا الشهداء فنالوا إكليلًا غير منظور، لكنّه حقيقيّ. وهكذا فإنّ سلطان الأشرار يقع ضمن منظار العناية الإلهيّة، ولكنّ إرادة الأذيّة تبقى ملكًا للإنسان الذي لا يُهلِك، دائمًا، كما يرغب.

٧ - فانظروا الربّ نفسه، ديّان الأحياء والأموات، يقف أمام قوس المحكمة، أمام إنسان! لا يقف مهزومًا، لكنّه يُريد أن يُعلّم كلّ جنديّ طريقة القتال؛ وعندما قال له الحاكم، بتوعّدٍ متعالٍ: «ألا تعلم

أنّ لي سلطانًا أن أطلقَك أو أن أرسِلك إلى الموت»؟ (يوحنّا ١٩ : ١٠). ردّ على وقاحتِه، بجوابٍ حطّم كبرياءَه، قال: «ما كان لك عليّ من سلطانٍ، لو لم يُعطَ لك من فوق» (يوحنّا ١٩ : ١١). وأيّوب الذي أهلك إبليس أولادَه، ودمّر أملاكَه كلّها، بماذا يُجيب؟ - «الربّ أعطى والربّ أخذ؛ هذا ما حسُن لدى الله فصنعَه، فليكن اسم الربّ مباركًا!» (أيّوب ١ : ٢١). لا يُفاخِرَنَّ العدوّ بفعلِه، فأنا أعلم من الذي أعطاه السلطان؛ لإبليس إرادة الشرّ، ولله السلطان على امتحان البشر. عندما غطّت القروح جسَدَه، جاءت امرأته التي تُركَت له، كحوّاءَ أخرى، لا لتعزّي رجُلَها، بل لتنصر الشيطان عليه؛ حاولت أن تزعزعَه، وقالت له في ما قالت من سوء: «جدِّف على الله ومُتْ!» (أيّوب ٢ : ٩). غير أنّ آدم الجديد هذا، كان أصلب، على مزبلتِه، من ذاك الأوّل في جنّتِه. آدم الأوّل أمال أذنَه لامرأتِه (تكوين ٣ : ٦)، في ذلك الفردوس الذي طُرِد منه. وهذا الـ«آدم» الجديد، على مزبلتِه، صدّ المرأة، فاستحقّ أن يدخل الفردَوس. هذا الـ«آدم» الجديد، الجالس على مزبلتِه، والذي كان يتمخّض بالخلود في داخِلِه، فيما كان خارجُه مرعى للديدان، ماذا يقول لامرأتِه؟ - «كلام سفيهةٍ كلامُك، أفنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشرّ؟» (أيّوب ٢ : ١٠). وقال أيضًا إنّ يد الله عليه، فيما كان إبليس هو الذي يضربُه؛ ذاك أنّه لم يأبَه لمن ضَرَب بل لمن سمح بالضرب. وإبليس، بدورِه، يدعو يدَ الله ذلك السلطان الذي يلتمسه. لأنّه إذ أراد إبليسُ أن يجد آثامًا في ذلك الإنسان البارّ الذي كان يشهد لله، قال لله: «أمجّانًا يتّقي أيّوب لله؟ ألم تكن سيّجت حوله وحول بيتِه وحول كلّ شيءٍ له؟ باركت أعمال يدَيه فتضاعفت أملاكُه في الأرض. غمرتَه بخير عظيم ولأجل ذلك يتّقيك. «لكن ابسط يدَك عليه واضرِب جميع ما لَه، فتنظر إن كان يُباركُك» (أيّوب ١ : ٩-١١). فما معنى:

«ابسط يدك عليه»، فيما هو الذي يُريد أن يضرب؟ - بما أنّه لا يستطيع أن يضرب، بنفسِه، يدعو يدَ الله، ذاك السلطان الذي يستمدّه من الربّ.

٨ - ماذا تُرانا نقول عن نشوة الأعداء وابتهاجِهم، يا إخوتي، عندما ننظر إلى تلك الشرور التي أنزلوها بالمسيحيّين؟ متى نرى أنّ فرحَهم كان مزيّفًا؟ - عندما يخزى البعض ويبتهج الآخرون، لمجيء الربّ إلهِنا الذي سيأتي حاملًا بيديه الجزاء للجميع: الدينونة للأثَمة، وللأبرار الملكوت. للخطأة الشركة مع إبليس، وللصدّيقين الشركة مع يسوع المسيح. عندما يظهر الربّ على هذه الصورة، ينهض الأبرار ببأسٍ عظيم. أورِد لكم ما جاء الكتب المقدّسة، فتذكّروا كلمات سفر الحكمة: «حينئذٍ يقوم الصدّيقون ببأسٍ عظيم في وجوه مضايقيهِم... فيقول هؤلاء في أنفُسِهم نادمين، نائحين من ضيق صدورِهِم: ماذا جنينا من الكبرياء وماذا أفادنا افتخارُنا بالأموال الطائلة؟ كل تلك الأشياء مضت كالظلّ» (حكمة ٥: ١، ٣، ٨، ٩) وماذا يقولون في الأبرار؟ - «كيف أُحصوا في بني الله، وصار حظّهم بين القدّيسين؟ (حكمة ٥: ٥). حينئذٍ يتم تدشين ذلك الصرح الذي نبنيه اليوم في الضيق؛ وحينئذٍ يُرنّم شعب الله في الفرح: «أعظّمك يا ربّ لأنّك رفعتَني، ولأنّك لم تُسِرّ أعدائي بهلاكي». حينئذٍ يصحّ هذا القول في شعب الله الذي يعيش اليوم في الشدّة، وينوح تحت وطأة الكثير من المحن، والكثير من العثرات، والكثير من الإضطهادات، والكثير من القلق. فمن لا يتقدّم في الفضيلة، لا يعرف في الكنيسة آلام النفسِ هذه، ويتصوّر أنّ كلّ ما فيها سلام. فليتقدَّم، إذًا، يجد نفسَه في الشدّة. لم يظهر الزؤان إلّا عندما نبت القمح وأثمر (متّى ١٣: ٢٦). و«من ازداد علمًا ازداد غمًّا» (الجامعة ١: ١٨). فليتقدَّم، يرَ أين أصبح: ينبت الثمر، فيُطلّ الزؤان

برأسِه. صحيحٌ كلام القدّيس بولُس، ولا يُمحى، من بدء العالَم إلى نهايتِه؛ يقول: «وجميع الذين يُريدون أن يحيَوا بالتقوى في المسيح يُضطهَدون؛ أمّا الأشرار والماكرون فيزدادون شرًّا ضالّين ومُضلّين» (٢ طيموتاوس ٣: ١٢، ١٣). أليس هذا هو معنى كلمات المزمور: «أرجُ الربّ، تشدّد، وليتشجّع قلبك، وارجُ الربّ»؟ (٢٦: ١٤). يُكرّر العبارة مخافة أن نكلّ بعد أن رجوناه يومين وثلاثة وأربعة، ولم نرَ للضيق نهاية. حينئذٍ يُضيف: «تشدّدا!»، ثمّ «ليتشجّع قلبُك!». وبما أنّ هذا ينبغي أن يحصل من بداية العالَم إلى نهايتِه، يُكرِّر في الختام كلمة البداية: «أرجُ الربّ». إنّ الشرور التي تبلوك، ستمضي، والذي ترجوه آتٍ؛ وسيمسح عرَقَك، ويُجفّف دموعَك، فلا تعود بعدُ تنتحِب. فلننُحْ، في الضيق، في هذه الدنيا، بحسب كلمة أيّوب: «إنّ حياة الإنسان على الأرض تجنُّد» (أيّوب (٧: ١).

٩ – على أيّ حالٍ، يا إخوتي، وبانتظار ذلك اليوم الذي يتمّ فيه تدشين الصّرح، فلنعتبِر أنّ تدشينَه قد تحقّق في من هو رأسُنا؛ إذًا، تمّ التدشين، في القمّة، وفي الحجر الأساسيّ. ولعلّكم تقولون لي إنّ القمّة في الأعلى، والحجر الأساسيّ في الأسفل، ولعلّي مخطئٌ في قولي بأنّ المسيح هو ذاك الأساس؛ هو القِمّة، لأنّه صعد إلى السماء ليجلِس عن يمين أبيه. غير أنّني لا أظنّ أنّي أخطأت؛ لأنّ الرسول قال: «لا يستطيع أحدٌ أن يضع أساسًا غير ذاك الموضوع، وهو يسوع المسيح: إذا كان يُبنى على هذا الأساس صرحٌ من ذهبٍ أو فضّةٍ أو حجارةٍ ثمينة» (١ قورنتس ٣: ١١، ١٢). فالذين يعيشون في القداسة، ويُكرّمون الله ويُباركونَه، ويصبرون على الشدائد، ويتوقون إلى الوطن، هم الذين يبنون ذهبًا وفضّةً وحجارةً ثمينة؛ أمّا الذين ما زالوا يُحبّون العالَم، وما زالوا مُنغمِسين في أمور الدنيا، ومكبّلين بالأهواء الجسديّة

التي يُكنّونَها لأملاكِهم ونسائهم وأولادِهم، ويبقَون في مسيحيّتِهم، من دون أن ينفصل قلبُهم عن المسيح، أو يضعوا شيئًا قبل المسيح، كما لا يُوضع شيءٌ في البناء قبل الأساس، فهؤلاء يبنون، في الحقيقة، لكن بالخشب والتبن والقشّ. فماذا يقول القدّيس بولُس بعد هذا؟ - «النار ستمتحن عمل كلّ واحد» (١ قورنتس ٣: ١٣). نارُ المحنة والشدّة؛ تلك النار التي امتحنت في هذه الدنيا العديد من الشهداء، وسوف تمتحن الجنس البشريّ في اليوم الأخير. من الشهداء من كانوا مكبّلين بقيود هذا الدهر. كم من العظماء والنبلاء ذاقوا الموت! غير أنّ بعضَهم كانوا يبنون بالخشب والتبن والقشّ، بسبب اهتمامهِم بأهواء الجسد في هذا العالَم. لكن، بما أنّهم اتّخذوا المسيح أساسًا لهم، فكانوا يبنون على حجر الأساس هذا، احترق القشّ، وثبُتوا هم على الأساس. وهذا ما يقولُه لنا الرسول: «فإن ثبُت العملُ نال صاحبُه الأجرَ» (١ قورنتس ٣: ١٣)، ولم تلحق به خسارة، لأنّه سيجدُ ما أحَبّ. فماذا فعلت بهؤلاء نار الشدّة؟ - امتحنتهُم: «فإن ثبُت العملُ نال صاحبُه الأجرَ، ومن احترق عملُه فسيخسَر، إلّا أنّه سيخلُص، ولكن كمن يمرُّ في النار» (١ قورنتس ٣: ١٤-١٥). فمن لم تمسَّهُ النار، غير الذي يخلُص بمرورِه في النار. من أين يأتي ذلك الخلاص؟ - من أساس البناء. لا يبتعِدَنَّ، إذًا، ذاك الأساس عن قلبِنا. لا تضع ذلك الأساس على التبن، أي لا تُفضّل التبن والقشّ على حجر الأساس، فتحفظ المكان الأوّل في قلبِك للقشّ، والثاني للمسيح؛ وإذا استحال عليك أن تطرِح القشّ كلّيًا، فليكن المكان الأوّل للمسيح، ودع الآخر للقشّ.

١٠ - إذًا، المسيح حجر الأساس لنا. وكما سبق أن قلتُ، إنّ تدشين قِمّتنا قد تمّ، وهذه القِمّة هي أيضًا، لنا، حجرُ الأساس؛ لكنّ هذا الحجر، يكون عادةً في أسفل البناء، فيما القمّة في الأعلى.

إفهموا كلامي جيّدًا، يا إخوتي، لعلّ الله يُساعدُني على التكلّم بوضوح. ثمّة نوعان من الأثقال. ندعو ثقلًا تلك السرعة التي يتوق فيها كلّ جسمٍ إلى استعادة مكانِه: ذاك هو الثقل. خذوا حجرًا بيدِكم، لتوّكم تشعرون بثقلِه على تلك اليد، لأنّه يميل إلى استعادة موقعه. أتريدون أن تعرفوا عمّا يبحث؟ دعوه من يدِكم، فإذا به يسقط على الأرض ويستقِرّ: وصل إلى المكان الذي كان يبحث عنه، ووجد موقعَه. هذا الثقل هو مثل حركةٍ عفويّة، بلا روحٍ ولا إحساس. هناك أجسامٌ أخرى تميل إلى الصعود. صبّوا الماء فوقَ الزيت، يجذبه ثقلُه إلى الأسفل. يبحث عن مكانِه. يُريد أن يكون في مرتبتِه، فليس من طبيعة الماء أن يبقى فوق الزيت. فإلى أن يجدَ مكانه الطبيعيّ ويجدَ موقِعَه، يكون في حركةٍ متواصلة. وعلى العكس، صبَّ زيتًا فوق الماء، كأن يقع مثلًا وعاءُ زيتٍ في الماء، في البحر أو في بحيرة، وينكسِر، يستحيل على الزيت أن يبقى في القعر. وكما أنّ الماء الذي يُصبّ على الزيت يهبط إلى قعر الإناء، فإنّ الزيت الذي يُصبّ في الماء يصعد إلى الأعلى بفعل ثقلِه. فإذا كانت تلك هي الحال، يا إخوتي، بين زيتٍ وماء، فما هي الحالُ بين النار والماء؟ تتصاعد النار وتبحث عن مكانها في الأعلى، فيما يهبط الماء إلى المكان الذي يُعيّنُه له ثقلُه. الحجر يسقط إلى أسفل وكذلك الخشب والأعمدة والتربة التي تُستَعمل في بناء المساكن. كلّ هذه في عداد الأشياء التي يجذبُها ثقلُها إلى تحت. واضحٌ، إذًا، أنّ لها في الأسفل أساسًا يحملُها، وأنّها تنجذب إلى ذلك الأساس بفعل ثقلِها الطبيعيّ؛ وأنّه من دون ذلك الأساس الحامل، ينهارُ كلّ شيء، لأنّ كلّ شيءٍ ينجذِب نحو الأرض. إذًا، علينا أن نضع في الأسفل أساس الأجسام التي تميل إلى السقوط. لكنّ كنيسة الله المبنيّة على الأرض تتوق إلى الصعود إلى السماء. فهناك

حجرُها الأساسيّ، ربُّنا يسوع المسيح، الجالس عن يمين أبيه. فإذا فهمتُم، يا إخوتي، أن تدشين حجرِنا الأساسيّ قد أُنجِز، فلنسمعِ المزمور، ولنجُلْ فيه باختصار.

١١ - «أعظّمك يا ربّ لأنّك رفعتَني، ولأنّك لم تُسِرَّ أعدائي بهلاكي». (٢٩: ٢). أيّ أعداء؟ - اليهود. بعبارة تدشين الحجر الأساسيّ علينا أن نفهم تدشين صرحِنا العتيد. ما يُقال اليوم عن الحجر الأساسيّ ينبغي قولُه عن الصرح بأكمَلِه. فمن هم أولئك الأعداء؟ هل هم اليهود، أم إبليس وملائكتُه الذي أرغِموا على الفرار بخزيِهم عند قيامة المسيح؟ أميرُ الموت تألّم لرؤية الموت مهزومًا. «لأنّك لم تُسِرَّ أعدائي بهلاكي»، لأنّ الجحيم لم يقوَ عليّ.

١٢ - «أيّها الربّ إلهي، بك استغثتُ فشفيتني» (٢٩: ٣). قبل آلامِه، صلّى الربّ لأبيه على الجبل، فشفاه أبوه. كيف يُشفى من لم يَضْنَ؟ أيكون **الكلمةُ**-الإله، **الكلمة** الذي هو الألوهة، هو الذي شفي؟ - لا! لكنّه كان يحمل جسدًا مائتًا، كان يحملُ جراحَكَ، ذاك الذي كان عليه أن يشفيَك منها. الجسد، إذًا، شفي. متى؟ - عند قيامة المسيح. إسمع الرسول، وتأكّد من شفاءٍ حقيقيّ. يقول: «ابتُلِع الموتُ بالغلَبة. فيا موت أين شوكتُك، ويا موت أين غلبتُك؟» (١ قورنتُس ١٥: ٥٤، ٥٥). سيكون علينا، إذًا، أن ننشِد، ذات يوم، الغلبة التي يُنشِدُها اليوم يسوع المسيح.

١٣ - «يا ربّ، من الجحيم أصعدت نفسي». ما من حاجة لشرح هذا المقطع. «وفصلتَني من بين الهابطين في الهاوية» (٢٩: ٤). من يهبط في الهاوية؟ جميع الخطأة الغارقون في اللجّة. لأنّ الهاوية هي لُجّة هذا الدهر. وما هي لجّة الدهر؟ - إنّها بحرُ الإثم والفجور. ولتوّه

يسقط في الهاوية ذاك الذي يغرق في الفجور وفي الشهوات الأرضيّة. هذا ما كان عليه مضطهِدو المسيح. لكن، ماذا يقول هنا؟ - «نجّيتَني من الهابطين في الهاوية».

١٤ - «أشيدوا للربّ يا قدّيسيه!» (٢٩: ٥). ما دام رأسُكم قد قام، فأبشِروا، أنتم أعضاءَه، بما ترونه فيه. أُرجوا للأعضاء ما تؤمنون به للرأس. هناك مثلٌ واقعيٌّ قديم يقول: حيث يكون الرأس، هناك تكون الأعضاء. يسوع المسيح، رأسُنا، في السماء؛ وإلى السماء نلحق به. لم يبقَ في الجحيم: قام، ولن يُدركَه بعدُ موت. ونحن أيضًا لن يُدركَنا بعدُ موتٌ، بعد أن نمرّ في القيامة. في فرح تلك الوعود، «أشيدوا للربّ يا قدّيسيه، واعترفوا لذكر قُدسِه!». ما معنى «اعترفوا لذكر قدسِه»؟ - نسيتموه، ولكنّه ذكرَكم.

١٥ - «سخطُه يُنزِل اللعنة، وفي رضاه الحياة» (٢٩: ٦). اللعنة في سخطه على الخاطئ: «يوم تأكل منها موتًا تموت» (تكوين ٢: ١٧). أبوانا الأوّلان مدّا إليها يدًا عاصية، فطُرِدا من الفردَوس، لأنّ غضبَه يُنزِل اللعنة؛ غير أنّ تلك اللعنة ليست بلا رجاء، لأنّ «في رضاه الحياة». ما معنى «في رضاه»؟ - أي لا في قوانا الذاتيّة، ولا في استحقاقاتِنا الشخصيّة؛ لكنّه خلّصَنا: هو شاء أن يُخلّصَنا، ولو لم نكن نستحقّ للخلاص. ما تُراه يستحقّ الخاطئ سوى العقاب؟ هو وهبنا الحياة، وإذا كان يُبقي الخاطئ حيًّا، فما تُراه يحفظ للصدّيق؟

١٦ - «سينقضي المساء في البكاء» (٢٩: ٦). لا تجزعوا إذا كان النبيّ يُكلّمنا عن البكاء بعد أن قال لنا «رنّموا بالفرح»؛ فالنشيد تعبيرٌ عن الفرح، والتوسُّل تعبيرٌ عن الحزن. انتحِبوا، إذًا، على ما أنتم عليه الآن، ورنّموا لغدِكم. نوحوا على الواقع، ورنّموا لرجائِكم. «سينقضي

المساء في البكاء». ما هو ذلك المساء الذي يشهد الدموع؟ المساء هو وقتُ غياب الشمس. والحال، فإنّ الشمس قد غابت عن الإنسان، أي نور البِرّ الذي هو حضور الله فينا. فماذا يُخبِرُنا سفر التكوين عن طرد آدَم؟ - كان الله يتمشّى في الجنّة، كان يتمشّى عند المساء. سبق أن اختبأ الخاطئ في ظلّ الشجر، يُريد أن يتفادى وجه الربّ، وكان من قبلُ أطيبَ مبتغاه. كانت شمس البِرّ قد غابت عنه، وأثقل عليه حضور الله. عندها بدأت عنده الحياة المائتة. «سينقضي المساء في البكاء». طويلًا سيدوم بكاؤكَ أيّها الإنسان؛ فأبوك هو آدم، وأنت صرتَ مشابهًا له؛ ونحن أيضًا من آدم وُلِدنا، وكلّ الذين وُلِدوا إلى الآن والذين سيولَدون في المستقبَل، هم وآباؤُهم، أبناء آدم. «سينقضي المساء في البكاء، وفي الصباح ينطلق الفرح». أي عندما يطلع على المؤمنين ذلك النور الذي فارق الخطأة. لأنّ الربّ قام من القبر عند الصباح (متّى ٢٨ : ١)، لكي يجعل البناء برمّته يرجو التدشين الذي حصل للحجر الأساسيّ. مساءُ ربّنا حدث ساعة دُفِن، وصباحُه ساعة قيامتِه في اليوم الثالث. أنت أيضًا دُفنت في المساء، في الفردوس، وقمت في اليوم الثالث. فكيف في اليوم الثالث؟ - إذا تتبّعنا مسيرة الزمن، هناك يومٌ قبل الشريعة، ويومٌ ثانٍ هو يوم الشريعة، ويومٌ ثالث، هو يوم النعمة. والذي أظهرَه لنا رأسُنا في شخصِه في تلك الأيّام الثلاثة، سيتجلّى أيضًا فيكم في أيّام هذه الحياة الثلاثة. في أيّ وقت؟ في الغداة ينبغي أن نرجو ونبتهج؛ والآن زمن الألم والنواح.

١٧ - «في أيّام رخائي، قلت إنّي لا أتزعزع» (٢٩ : ٧). في أيّ رخاءٍ استطاع الإنسان أن يقول: «إنّي لا أتزعزع»؟ نفهم بالإنسان هنا، يا إخوتي، الإنسان المتواضع. فمن ذا، في هذه الدنيا، في رخاء؟ لا أحد. وما تراه يكون رخاء الإنسان؟ البؤسُ والألم. لعلّكم تقولون إنّ

الأغنياء في رخاء. كلّما ازدادوا غنًى، ازدادوا فقرًا. تأكلُهم الشهوات، وتُقلِقهم الأهواء، ويمزّقهم الخوف، وتجفّف الأحزان قلوبَهم: فأين هو الرخاء؟ كان الإنسان في نعيمٍ في الفردَوس الأرضيّ، إذ لم يكن يُعوِزُه شيءٌ، ويتمتّع بالله؛ فقال: «إنّي لا أتزعزع إلى الأبد». فكيف كان له أن يقول: «إنّي لا أتزعزع إلى الأبد»؟ قالَها عندما سمع هذا الكلام: «يوم تأكلان منه، تصيران كآلهة» (تكوين ٣: ٥). وعلى قول الربّ: «يوم تأكلُ منها، موتًا تموت» (تكوين ٢: ١٧)، ردّ إبليسُ، قال: «لن تموتا» (تكوين ٣: ٤). فأصغى الإنسان المغفَّل، يومَها إلى إغراءات إبليس وقال: «إنّي لا أتزعزع إلى الأبد».

١٨ - لكنّ الربّ صدَق إذ توعّد العظماء بأن ينتزع منهم ما كان أعطاه للبسطاء عندما خلقَهم؛ ويُضيف النبيّ: «في جودتِك، يا ربّ جمعتَ فيّ البأس والبهاء» (٢٩: ٨)، أي لم يكن لي في ذاتي لا بأس ولا بهاء؛ منك كلّ جمالي، وكلّ قوّتي؛ وجودتُك تلك التي حتّمت خلقي، جعلتك تجمع فيّ البأس والبهاء. ولكي تُبيّن لي أنّي أدين لمشيئتك بما أنا عليه، «حجبت وجهك عنّي فجزعتُ وارتعت» (٢٩: ٨). حجب الله وجهه عن ذاك الخاطئ الذي طرده من الفردَوس. فليصرُخ، إذًا، في منفاه، وليقُل: «إليك يا ربّ أصرُخ، وإليك أتضرّع يا إلهي!» (٢٩: ٩). في الفردوس، لن يكون عليك أن تصرخ إلى الربّ بل أن تهتف له وتُرنّم؛ لا أن تنوح، بل أن تفرح. طُردتَ، فصار عليك أن تصرخ وتنتحب. من يتخلّى عن المتكبّر يعود إنسانًا يشعرُ ببؤسِه. «لأنّ الله يُقاوم المتكبّرين، ويُنعم على المتواضعين» (يعقوب ٤: ٦). فها أنا يا ربّ أصرخ إليك، ويا إلهي إليك أتضرّع.

١٩ - وما يلي، يختصّ بربّنا يسوع المسيح، حجرنا الأساسيّ:

«أي منفعةٍ بدمي إذا كان عليّ أن أصير إلى الفساد»؟ (٢٩ : ١٠). ما هو غرضُ صلاتِه؟ - القيامة. يقول: إذا كنت سأهبط إلى الفساد، ويصير لحمي إلى الإنحلال مثل سائر الناس، لأقوم في اليوم الأخير، فأيّ منفعةٍ بدمي؟ إن لم أقم الآن، فلن أبشّر أحدًا بقيامتي، ولن أربح أي تلميذ؛ لكن، لكي أُخبِر بمعجزاتِك، وبتسبِحتِك، وأُبشّر بالحياة الأبديّة، ينبغي أن أقوم بجسدي فلا يهبط إلى الفساد. فإذا كان على جسدي أن يصير إلى ما تصير عليه أجساد سائر الناس، فما الفائدة بدمي؟ «أيعترف لك التراب، ويُخبرُ بحقّك؟» (٢٩ : ١٠). هناك اعترافان: الإعتراف بالخطايا، والإعتراف بالتسبيح. في البؤس نعترف لله بخطايانا، بالندامة؛ وفي الفرح، نشيد ببرّ الله بالابتهاج: فلنحرص ألّا نبقى أبدًا بلا اعتراف.

٢٠ - «سمعني الربّ ورحمني». فكيف؟ تذكّروا تدشين البيت. سمع الربّ وترأّف «وكان ناصرًا لي» (٢٩ : ١١).

٢١ - إسمعوا الآن قيامتَه: «حوّلتَ حزني إلى فرح، ونزعتَ مِسحي، ونطّقتَني بالسرور» (٢٩ : ١٢). أيّ مسح؟ - ميتتي. المسح منسوجٌ من شعر الماعز والجداء؛ والماعز والجداء مكانُها مع الخطأة (متّى ٢٥ : ٣٢). إذًا، لم ينزع الربّ منّا سوى المسح، لا جزاء المسح؛ وجزاء المسح الخطيئة، فيما المسح هو الميتة. إذًا، هو الذي كان جزاؤُه الموت، لبس جسدًا مائتًا لأجلِك. الخاطئ يستحقّ الموت، أمّا الذي لم يخطأ أبدًا لا يستحقّ المِسح. إنّه هو الذي يصرخ في مكانٍ آخر: «وأنا، في اضطهادِهِم كان لباسي مِسحًا» (مزمور ٣٤ : ١٣). فما معنى: «كان لباسي مسحًا»؟ - كنت أقاوم مُضايِقِيَّ بما استحقّه لي المسح. ولكي يعتبرَه مُضايقوه بشرًا، كان يتوارى عن

عيونِهم، لأنّهم ما كانوا يستحقّون ذاك الذي كان يلبس المسح. إذًا، «مزّقتَ المسح الذي كنتُ ألبسُه لكي تُنطّقَني بالسرور».

٢٢ - «لكي يُشيد لك مجدي، فلا يُدميني شوكٌ» (٢٩: ١٣). ما تحقّق في الرأس سيتحقّق في الأعضاء أيضًا. ماذا تعني عبارة: «فلا يُدميني شوك»؟ - أي ألّا أعبُرَ بعدُ بالموت. ذاك أنّ الربّ أُدمِي على الصليب، عندما طُعِن بحربة. رأسنا يصرُخ، إذًا: «لا يُدمِني بعدُ شوكٌ»، أي الّا أموتَ بعدُ أبدًا. أمّا نحن، فماذا نقول في تدشين الصرح؟ لا ينلْنا، بعدُ، وخزُ ضميرٍ من شوك الخطيئة؛ ولننلْ عفوًا عن كلّ شيء، إذ ذاك نغدو أحرارًا. «لكي أشيد لك في مجدي»، يقول النبيّ، لا في ذلّي. إذا كان ذاك المجدُ مجدَنا، فهو أيضًا مجد المسيح، لأنّنا جسد المسيح. لماذا؟ - لأنّ المسيح نفسَه، الجالس عن يمين الله، سيقول لبعضِهم: «جعتُ فأطعمتموني» (متّى ٢٥: ٣٥). إنّه في السماء وعلى الأرض؛ في السماء في شخصِه، وعلى الأرض، فينا. فماذا يقولُ؟ - «لكي أشيد لك في مجدي فلا يُدميني شوك». في هذه الدنيا، أنا الذي أنتحب في ذلّي، وفي العلاء، سأشيد لك في مجدي. وأخيرًا: «أيّها الربّ إلهي، إلى الأبد أعترف لك». ما معنى «إلى الأبد أعترف لك»؟ - أسبّحُك في الأبديّة، لأنّنا قلنا إنّ هناك اعترافًا بالتسبيح، ولا يكون الاعتراف اعترافًا بالخطايا فقط. فاعترِف اليوم بما أسأت به إلى الله، وبعدَها تُشيد بجودة الربّ نحوَك. ماذا صنعت للرب؟ - خطئتَ أمامَه. ماذا يصنع لك الربّ؟ - يصفح عن آثامِك، شرط أن تعترف بخطاياك لكي تهتف بالتسابيح في الأبديّة، فلا يُدميك بعدُ شوكٌ.

عظة أولى في المزمور الثلاثين

الصدّيق المُضطَهَد

كان شعب الله المحاط بضلالات الوثنيّة يعتصم بالربّ. كذاك هي حال المسيح الذي يُعتبَر المزمور نبوءة عنه، والذي يستودِع روحَه بين يدَي أبيه، على رجاء أن يستعيدَها بالقيامة. كذلك، على المؤمن الذي يواجه الضيق، أن يعتصم بالربّ، والربّ لا يتخلّى عنه.

للغاية، مزمور لداود في جزعِه (٣٠: ١)

١ - للغاية، مزمور لداود أو لوسيطِنا الذي أظهر في الشدّة يدًا قديرة. إنّ كلمة «الجزع» التي أُضيفت إلى العنوان[١]، تُبرز انخطاف الروح تحت تأثير الخوف، أو بسبب رؤيا. لكنّ المزمور الذي نحن بصددِه، يُفصح لنا بشكل أساسيّ عن ذلك الخوف الذي يكتنف شعب الله في مواجهة اضطهادات جميع الوثنيّين، وأمام تراجع الإيمان على الأرض. الوسيط هو الذي يتكلّم أوّلًا، وبعد ذلك، يشكره الشعب الذي افتداه بسفك دمه، وفي آخر المطاف يُسهب في الكلام، في كربِه، وذاك هو سبب الجزع. مرّتين يتكلّم النبيّ باسمه: مرّةً في نهاية المزمور، ومرّةً قبلَها بقليل.

---

(١) أضيفت عبارة: «في جزعِه» في السبعينيّة: ἐκστάσεως. ولم ترِد لا في العبريّة ولا في الفولغاتا.

٢ - «بك اعتصمت يا ربّ فلا أخزَ» (٣٠: ٢). رجائي فيك يا ربّ لن يخيب، ما داموا لا يعيّرون فيَّ إلّا ما في إنسانٍ مثل سائر الناس. «بعدلِكَ، أَغِثني ونجّني!»: بعدلِك نجّني من لجّة الموت، ولا تُحصِني مع الهالكين.

٣ - «أمِل أذنيك إلى صراخي» (٣٠: ٣): استجبني في حقارتي، وادنُ منّي. «أسرع إلى نجدتي»: لا تنتظر آخر الأزمنة لتُنجّيني وتُنجّي المؤمنين بي من الخطأة. «كن لي إلهًا رؤوفًا»: إرعَني يا ألله. «كن لي حصنًا ونجّني»: كن لي ملجأً آمنًا ألوذ إليه فأجد الخلاص.

٤ - «صخرتي أنت وملجأي» (٣٠: ٤)، لأنّك تمنحني الشجاعة لكي أتحمّل مُضايقات أعدائي، وأنت الملجأ الذي به ألوذ من أمامِهم. «لأجل مجد اسمك، كن لي هاديًا ومُعيلًا» (٣٠: ٤): لكي أخبرَ باسمِك كلّ الشعوب، سأُتِمُّ في كلّ أمرٍ مشيئتَك؛ وإذ تجمعني مع القدّيسبن، تُكمّل جسديَ السرّي وتمنحُه ملء قامتِه.

٥ - «تُخرِجُني من الشرك الذي أخفَوه لي» (٣٠: ٥): تُنقذُني من المكائد الخفيّة التي ينصبونَها لي «لأنّك راعيَّ».

٦ - «في يدَيك أستودِع روحي» (٣٠: ٦): إلى قدرتِك أوكِلُ الروح التي سرعان ما سأقتبِلُها. «لقد افتديتَني، أيّها الربّ إله الحقّ». فليصرخ الشعب المفتَدى بآلام إلهِه، المرنّم مجدَ رأسِه، بنشوة وابتهاج: «لقد افتديتَني، أيّها الربّ إله الحقّ».

٧ - «أبغضتَ الساجدين للبطل وللعدم» (٣٠: ٧): أبغضتَ المتمسّكين بسعادة هذا العالَم الكاذبة. «أمّا أنا، يا ربّ، فعليك توكّلت».

٨ - «سأفرح وأبتهج برحمتك» التي لا تغشّ، «لأنّك نظرت إلى

ذلّي» (٣٠: ٨)، الذي به أخضعتَني للباطل، لكن مع الرجاء. «وأخرجت نفسي من الضيق»: خلّصت نفسي من عذابات الخوف، لكي تعبُدَك بحرّيّةٍ في المحبّة.

٩ - «لم تُضيّق عليّ في يد أعدائي» (٣٠: ٩). لم تأسرني فتنتزع منّي كلّ سبيلٍ للتوق إلى الخلاص، ولم تتركني إلى الأبد تحت سلطان إبليس الذي يُطوّقني بشهوات هذه الحياة، ويُخيفني من الموت. «بل ثبّتَّ في الدرب الرحبِ قدَمَيَّ». قيامة الربّ التي أعرفُها، وقيامتي الموعودة تُخرجان محبّتي من كوابيس الرعب، وتُشرّعان أمامي سبيل الحرّيّة الرحب.

١٠ - «ارحمني يا ربّ فإنّي في ضيق» (٣٠: ١٠). من أين لأعدائي تلك القسوة المفاجئة التي توحي إليّ بالرعدة؟ «إرحمني يا ألله». ليس الموت هو الذي يُرعبُني، بل العذابات والآلام. «ألقى الغضبُ الكَربَ في عينَيَّ». خفتُ أن أُترَك، فتوسلتُ إليك بعينَيَّ، فعكّرَهما الغضب. «واضطربت نفسي وأحشائي». الغضب نفسُه ألقى الكَرب في نفسي وفي ذاكرتي التي كانت تُذكّرني بوعود الله وبالآلام التي عاناها لأجلي.

١١ - «فنيَت في الآلام حياتي» (٣٠: ١١). حياتي أن أشهَد لاسمِك، لكنّها خارت من الألم، حين قال العدوّ: المسيحيّون إلى التعذيب حتّى يكفروا. «وتمضي أعوامي بالتأوُّه». الأيّام التي عليّ أن أمضيها في هذه الدنيا، لا يُقصّرُها الموت، لكنّي أُترَك حيًّا، لأعيش في النحيب. «أَوهَنَ الجوع عزيمتي». جسدي بحاجةٍ إلى الصحّة، ولا يُجَنَّب العذابات؛ بي حاجةٌ إلى الموت، وأُحرَمُ من الموت. «وذبُلت عظامي»: والكَرب يُزعزع صمودي.

١٢ - «صرت عارًا أكثر من جميع أعدائي» (٣٠؛ ١٢): جميع أعدائي منافقون، ولا أراهم يُعاقَبون على آثامِهم، إلّا عند الاعتراف: أمّا أنا فعاري أكبرُ، واعترفُ بخطيئتي، وبدل الموت ألاقي الألم. «وجيراني يرون فيها إفراطًا»: هذا ما يبدو مُفرِطًا للذين يقتربون منّي ليعرفوك، ويعتنقوا إيماني. «والذين يعرفونني يذهلون»: رؤية آلامي صعقت الذين يعرفونني وأرعبتهم. «والذين رأَوْني في الخارج هربوا عنّي»: الذين لم يتفهّموا رجائي الداخليّ اللامنظور، ارتَمَوا في الأفراح المنظورة السطحيّة.

١٣ - «نُسيتُ كميِّتٍ امّحى من القلب» (٣٠: ١٣): نسُوني كما لو متُّ في قلوبِهم. «وصرتُ لهُم كإناءٍ مُحطّم»: حسبت أن لا نفع لله بي، وأنا حيٌّ في هذه الدنيا، من دون أن أربح له أحدًا، لأنّ الكلّ كانوا خائفين من أن يتعلّقوا بي.

١٤ - «سمعتُ المذمّة من الجماعة التي تُحيط بي» (٣٠: ١٤). في رحلتي في هذه الدنيا، أصابتني إهانات الجمع المحيط بي، الذي كان يسلك بحسب هذا الدّهر، ويأبى أن يرجع معي إلى الوطن الأبديّ. «اجتمعوا عليّ وتآمروا ليجدوا السبُل لأخذ نفسي»: لكي يوقعوا نفسي في حبائلِهم - وكانت لتنجوَ منهم بالموت - حاكوا الدسائس ليُبعدوني عن الموت.

١٥ - «أمّا أنا، يا ربّ، فعليك توكّلت. قلتُ إنّك أنت إلهي» (٣٠: ١٥) فأنت لم تتبدّل، ولا تؤدّب إلّا لكي تُخلّص.

١٦ - «مصيري في يديك» (٣٠: ١٦)، أي مصيري رهن قدرتِك. فإنّي لا أرى بي أيّ استحقاقٍ حدّد خيارك، لكي تفصلَني عن سائر الناس الخطأة. وإذا كان لديك مخطّطٌ عادلٌ مستتر، حملَك على أن

تختارني، فإنّي جاهلٌ به، والقُرعة هي التي منحَتني نصيبًا في رداء الربّ (يوحنّا ١٩: ٢٤). «أنقذني من أيدي أعدائي ومُضايقِيَّ».

١٧ - «ألقِ، على عبدِك نور وجهِكَ» (٣٠: ١٧). عرّف جميع الذين لا يؤمنون بأنّي أخصّك، أنّ وجهك يرعاني في كلّ حين، وأنّي عبدك. «خلّصني برحمتِك».

١٨ - يا ربّ، لا أخزَ، فإنّي إيّاك أدعو». (٣٠: ١٨). لا تُخذلني يا ربّ أمام الذين يشتمونني، لأنّي إليك لجأت. «بل ليخزَ المنافقون وليهبطوا إلى الجحيم». اجعلهم في الخزيِ والظلمة أولئك الذين يعبدون الحجر.

١٩ - «لتخرسِ الشفاه الكاذبة» (٣٠: ١٩). عرّفتَ الشعوب بأسرارك المقدّسة التي أسّستَها لي، فافرض الصمتَ على الشفاه المفترِيَة «التي تنطق بالإهانة في وجه البارّ، بصلفٍ وازدراء». التي تنبح بالشتيمة على المسيح، في كبريائِها، ولا ترى فيه سوى مصلوبٍ مُزدَرى.

٢٠ - «ما أعظم جودتَك يا ألله!» (٣٠: ٢٠). هو النبيّ يهتف مذهولًا لرؤية تلك المعجزات الرائعة: «كم هي عظيمة يا ألله تلك الجودة التي ادّخرتَها لخائفيك!». فإنّك تحبّ حتّى الذين تُؤدّبُهم؛ لكن لئلّا تدفعَهم طمأنينةٌ بالغة إلى التراخي، تسلبُهم لذّة حبّك، عندما يكون لهم في اتّقائِك نفعٌ. «لكنّك تُشعِرُ بها المتوكّلين عليك»: تُذيق حلاوتَها للذين وضعوا فيك رجاءَهم. فإنّك لا تحرمُهم ممّا رجَوه، حتّى النهاية، بالكثير من الدأب والثبات. «أمام بني البشر»: لأنّ بني البشر الذين ما عادوا يسلكون بحسب آدم العتيق، بل بحسب ابن الإنسان، «الذين تستُرُهم بستر وجهك» (٣٠: ٢١)، ما عادوا يجهلون أيّ مسكن

أبديّ تحفظُ، في ستر صمتِك، للذين يتوكّلون عليك. «بعيدًا عن المشوّشين»: لئلّا يأتيَ أحدٌ ويُبلبِلَهم.

٢١ - «وتضعهم في بيتِك، في مأمنٍ من مخاصمة الألسِنة» (٣٠: ٢١): وما داموا، في هذه الدنيا، عرضةً للألسنة الماكرة التي تقول لهم: «من يعرف لغتَكم، ومن أتى من وراء القبر»، فإنّك تجعلُهم آمنين، في مظلّة الإيمان، من تلك والأعمال والآلام الزمنيّة التي قاساها المسيح في هذه الحياة.

٢٢ - «تبارك الربّ الذي أفاض رحمتَه في المدينة التي تحضنُني» (٣٠: ٢٢): تبارك الربّ، لأنّه بعد عقوبة الإضطهاد القاسية، أفاض رحمتَه في العالم كلّه، وعلى شعوب الأرض كلّها.

٢٣ - «أمّا أنا فقلت في جزعي». يعود الشعب فيتكلّم ويهتف: «أمّا أنا ففي جزعي، وتحت سيف الوثنيّين القاطع، أُقصيتُ عن عينَيك». فلو كانت عينك إليّ، لما تركتني في أوجاعي. «لكنّك سمعت صوت تضرّعي عند استغاثتي بك» (٣٠: ٢٣). فأنت يا ربّ كففتَ عنّي العقاب، ولكي تُظهر لي اهتمامَك بي، استجبت إلى صوت تضرّعي الصاعد إليك صارخًا مستغيثًا تحت ثقلِ آلامي.

٢٤ - «أحبّوا الربّ، أنتم، يا جميع قدّيسيه». لا يني النبيّ، في ذهولِه ممّا يرى، يدعو البشر إلى تسبيح الله. «أحبّوا الربّ، يا جميع قدّيسيه، لأنّ الربّ يطلب الحقّ» (٣٠: ٢٤). فإذا كان الصدّيق يكاد لا يَخلُص، فأين يختبئ الخاطئ والمنافق؟ «فإنّه يُجازي المتكبّرين أضعافَ حقاراتِهم» (٣٠: ٢٤): سيعاقب بشدّة الذين لا ينصاعون إلى الحقيقة، لكثرة ما فيهم من صلَفٍ وكبرياء.

٢٥ - «تشدّدوا ولتتشجّع قلوبُكم» (٣٠: ٢٥). لا تكفّوا عن فعل

الخير، لكي تحصدوا في أوان الحصاد. «أنتم يا من ترجون الربّ». أي أُرجوا الربّ أنتم الذين تتّقونَه وتعبدونَه بكلّ استحقاق.

عظة ثانية في المزمور الثلاثين

القسم الأوّل: مِحَن المسيح ورجاؤه

في هذا القسم الأوّل من العظة، الذي يشملُ تقريبًا ثُلث المزمور، والذي ربّما أُلقِي بعد عيد الرسل القدّيسين ببضعة أيّام، يُبيّن لنا القدّيس أوغسطينُس ما هي وحدة المسيح والكنيسة، التي هي نفسُها الوحدة بين رأس الجسد وأعضائِه. فيُبارك الله، ويتبسّط بعض الشيء في مغريات هذه الحياة وضروراتِها.

١ - فلندخل، قدر المستطاع، في أسرار المزمور الذي رنّمناه لتوّنا، لكي نستخلص منه عظةً تقع في آذانِكم لتنطبع في قلوبِكم. إليكم العنوان: «للغاية، مزمور لداود، في جزعِه» (٣٠: ١). نعلم معنى «للغاية»، إذا كنّا نعرف المسيح. لأنّ الرسول قال: «المسيح هو غاية الشريعة ليُبرِّر الذين آمنوا» (رومة ١٠: ٤). والغاية ليست بمعنى النهاية التي تُفني بل النهاية التي تُكمِّل. فالكلمة تُستعمَل بالمعنيَين: فإمّا أنّها تُعبّر عن إفناء ما كان موجودًا، أو أنّها تُحدّد إنجاز ما بدأ. إذًا، «للغاية» أي للمسيح.

٢ - «مزمور لداود في جزعِه». الكلمة اليونانيّة ἐκστάσεως (أكستازيُس) تعني انخطاف الروح الذي، في حالة من الجزع الشديد، يرتفع بكائن فوق أحاسيس الحياة. وهذا الانخطاف، أو الجزع الشديد، يُمكن أن يعني أمرَين: إمّا الخوف المفرط، أو الوجد أو

الإنشداد إلى أمور السماء الذي يُنسينا جميع الأمور الأرضيّة. ذاك كان انخطاف القدّيسين الذين كشف لهم الله أسرارًا أسمى بكثيرٍ من العالَم الأرضيّ. ذاك كان انخطاف الروح الذي يُكلّمنا عنه القدّيس بولس فيقول: «لأنّا إذا تجاوزنا التعقّل، فللّه، أو كنّا متعقّلين فلأجلِكم، لأنّ محبّة المسيح تحثُّنا» (٢ قورنتس ٥: ١٣)، أي لو كنّا نريد أن ننصاع لأعمالِنا، ونحصر تأمّلَنا في الأمور التي انكشفت لنا في انخطافنا، لما كنّا بعدُ معكُم، بل في أمور السماء، ولَداخلَنا لأجلكم شيءٌ من الإزدراء. كيف سيكون بوسعِكم، بخطى وئيدة، أن تلحقوا بنا إلى تلك الديار السماويّة والباطنيّة، لو لم تكن، من جهةٍ، تحثّكم محبّة المسيح الذي «لم يعتدّ مساواتَه لله اختلاسًا، بل أخلى ذاته آخذًا صورة عبد» (فيليبّي ٢: ٦، ٧)؛ ومن جهةٍ أخرى، لو لم نكن نعتبر أنفُسَنا خدّامًا لكم؟ وحتّى لا نكون بلا وفاءٍ لذاك الذي رفعنا إلى أسمى المراتب، فنزدري من هم دوننا، علينا، لأجل خلاص الضعفاء، أن ننزل إلى مرتبة الذين لا يستطيعون أن يتأملّوا معنا ما هو سامٍ. «فإذا انخطفنا بالروح، يقول الرسول، فإلى الربّ» لأنّه، وحدَه ذاكٌ الذي يكشف لنا أسرارَه، يُعاين ما نُعاينُه نحن في الانخطاف. والذي يُكلّمنا على هذا النحو، يقول لنا أيضًا أنّه خُطِف إلى السماء الثالثة، وسمع كلماتٍ سرّيّة لم يُعطَ لإنسانٍ أن ينطق بها. ذاك كان انخطاف الروح الذي دفعه إلى أن يقول: «أفي الجسد كان أم في خارج الجسد، لست أعلم. وحدَه الله يعلَم» (راجع ٢ قورنتس ١٢: ٢-٤). فإذا كان هذا هو الإنخطاف، وإذا كان هذا هو الجزع الذي يُشير إليه عنوان المزمور، فعلينا أن نتوقّع إيحاءات كبرى ممّن أَنشَدَه، أي من النبيّ، ومن الروح القدس بلسان النبيّ.

٣ – وإذا كان ينبغي أن نفهم هنا بالانخطاف، الجزع، فلا

يتعارض المزمور مع هذا المعنى الآخر. لأنّه يبدو أنّ النبيّ سيتكلّم عن الألم الذي يُرافق الخوف. لكن، خوفُ مَن هو؟ أهو خوف المسيح؟ فالمزمور يقول: «للغاية». وبالغاية، نفهم المسيح. أيكون ذلك الخوف خوفَنا نحن؟ وهل نستطيع أن نعزوَه إلى المسيح عند دنوّ آلامِه، وهو الذي أتى لكي يتألّم؟ وهل كان ليجزَع لدى رؤيتِه دنوّ الموت الذي جاء يطلبُه؟ لو لم يكن سوى مجرّد إنسانٍ ولم يكن قطُّ إلهًا، أما كانت قيامتُه تُسبّب له فرحًا فوق ما يُسبّبه له موتُه من جزَع؟ لكن، بما أنّه تصاغر واتّخذ صورة العبد، وبهذه الوسيلة ألبسَنا ذاتَه، فها إنّ الذي لم يزدرِ أن يَلبسَنا لكي نتجلّى في صورتِه، يُريد أيضًا أن ينطق بلسانِنا، لكي يكون لنا نحن أن ننسب أقوالَه لأنفسِنا. ذاك هو التبادُل الرائع الفائق الوصف، والثورة الإلهيّة التي أشعَلها، في هذا العالم، المُتكلّمُ السماويّ. جاء يتلقّى الإهانات ويغدِق علينا الكرامات. جاء يرتوي بالآلام، ويمنحُنا الخلاص. جاء ليموت ويهبَنا الحياة. وعند دنوّ أجلِه في الطبيعة التي لبسَها منّا، أخذَه الجزَع، لا في ما هو في ذاتِه، بل في ما هو منّا، إذ إنّه قال: «نفسي حزينةٌ حتّى الموت» (متّى ٢٦: ٣٨)، وعند ذاك كنّا نحن كلُّنا فيه. فمن دونِه لسنا بشيء. وفيه يوجد المسيحُ، وكلّنا معه. لماذا؟ لأنّ المسيح بكلّيّتِه يضمّ الرأس والجسد. الرأس هو المخلّص الذي افتدى الجسد (أفسُس ٥: ٢٣)، وهو الآن في السماء. والجسد هو الكنيسة المتألّمة على الأرض. لكن، لو لم يكن الجسد مرتبطًا بالرأس، برُبُط المحبّة، ولو لم يكن الرأس والجسد يكوّنان سوى إنسانٍ واحد، لما كان بوسعِه أن يصرخ موبّخًا ذاك المُضطهِد الشهير: «شاول، شاول، لمَ تضطهدُني؟» (أعمال ٩: ٤). لأنّه كان، عند ذاك، جالسًا في السماء، حيثُ لا يرقى إليه بشرٌ. وكيف لاضطهاد شاول للمسيحيّين أن يُسيء إليه؟ لا يقول له: لمَ تضطهد أصفيائي

وخدّامي، بل قال: «لِمَ تضطهِدُني؟»، أي لِمَ تضطهِدني، أنا، في من هم أعضاءٌ لي. كان الرأس يصرخُ عن الأعضاء. كان الرأس يتجلّى بذاتِه في الأعضاء. والحال فإنّ اللسان يتكلّم عن القَدَم. يدوس الجمع على قَدَمِنا فيصرخُ لسانُنا للحال من الألم. يشكو اللسان، وهو لا يُمَس. ذاك أنّ اللسان غير منفصلٍ عن القدم التي تتوجّع. بهذا المعنى، يُمكننا أن ندعو ذاك الإنخطاف جزَعًا. ماذا أقول بعدُ يا إخوتي؟ إذا كان أيّ جزَعٍ لا يُداخل الذين سوف يتألّمون، فهل كان الربّ ليقول لبطرس، وهو ينبئُه بالآلام التي تنتظره، تلك الكلمات التي سمعناها لتوّنا في عيد الرسل: «إذ كنتَ شابًّا، كنتَ تشدّ حزامَك بنفسِك، وتمضي حيثُ تشاء، لكنّك متى شِختَ سيشدُّ لك آخرُ حزامَك ويمضي بك حيثُ لا تشاء» (يوحنّا ٢١: ١٨). «وإنّما قال ذلك، يقول الإنجيليّ، ليدلّ على أيّ ميتةٍ كان سيموت» (يوحنّا ٢١: ١٩). فإذا كان بطرس الرسول القدّيس، ذاك الإنسان الراقي في الكمال، قد مضى ضدّ إرادتِه، حيث لم يشأ، ومات على غير ما يشاء، لكنّه نال بكامل رضاه إكليل الشهادة، فأين العجب إذا كان موت الأبرار وحتّى القدّيسين لا يخلو من الجزَع؟ الخوف يأتينا من السقم البشريّ، لكنّ الرجاء يأتي من الوعد الإلهيّ. إنّ خوفَك، أيّها الإنسان، يأتي منك، لكنّ الرجاء عطيّةٌ تأتيك من الله. خير لك أن يُعرّفَك خوفُك بنفسِك، حتّى إذا خلُصتَ تُمجّد خالقَك. فليرتعدِ الإنسان، ما دام ضعيفًا؛ لكنّ تلك الرعدة ليست تخلّيًا من قِبَلِ الرحمة الإلهيّة. تحت تأثير الجزَع يبدأ النبيّ مزمورَه هاتفًا: «إيّاك رجوتُ يا ربّ فلا أخزَ» (٣٠: ٢). أنظروا، إنّه يجزَع ويرجو؛ وترَون أنّ خوفَه ليس بلا رجاء. والإضطراب الذي يُحسّه قلبُنا، أحيانًا، لا يُقصيه قَطّ عن تعزيةٍ إلهيّة.

٤ – هو المسيح، إذًا، يتكلّم هنا بلسان نبيّه: أجل، أتجرّأ فأقول

إنّه المسيح. سيقول على مدى المزمور أمورًا قلّما تبدو منطبقة على المسيح، رأسِنا الأسمى، وخاصّةً على **الكلمة** الذي في البدء كان الله، وفي الله؛ وغالبًا ما سيَرِدُ كلامٌ قلّما يبدو متوافقًا مع ذاك الذي اتّخذ صورة العبد في حشا عذراء؛ غير أنّ المسيح هو المتكلّم، لأنّ المسيح في أعضاء المسيح. ولكي تعرفوا أنّ الرأس والجسد لا يُشكّلان سوى مسيحٍ واحد، فإنّه يقول لنا بنفسِه في كلامه عن الزواج: «فيصيران اثنين في جسدٍ واحد؛ ولا يكونان بعد اثنَين، بل جسدٌ واحد» (متّى١٩ : ٥،٦). لكن، هل يتكلّم عن كلّ زواج؟ إسمعوا بولس الرسول: «فيصيران اثنين في جسدٍ واحد. إنّ هذا السرّ لعظيم. إنّي أقول هذا في المسيح وفي الكنيسة» (أفسُس ٥ : ٣١، ٣٢). فعلى حال الرجل والمرأة، يكون الرأس والجسد اثنين، لكنّهما لا يؤلّفان، بأيّ شكلٍ، سوى شخصٍ واحد. ووحدة الشخصَين هذه، وهي مثال الوحدة الرائعة، هي التي أشار إليها أشعيا النبيّ حين تنبّأ المسيح بفمه وقال: «ميّزَني بتاجٍ كالعريس، وثوبَ العروس ألبسني» (أشعيا ٦١ : ١٠). إنّه هو الذي يُقدّم ذاتَه، في آنٍ معًا كعريسٍ وكعروس؛ وإلّا فلِمَ يدعو نفسَه عريسًا وعروسًا، لو لم يصيرا اثنين في جسدٍ واحد؟ وإذا لم يكن لاثنَين سوى جسدٍ واحد، فلماذا لا يكون لاثنين الصوتُ الواحدُ نفسُه؟ فليتكلّم، إذًا، يسوع المسيح، ما دامت الكنيسة تتكلّم بيسوع المسيح، ويسوع المسيح بالكنيسة، وما دام الجسدُ مرتبطًا بالرأس، والرأس بالجسد. إستمعوا إلى الرسول يشرح لنا هذا السرّ بمزيدٍ من الوضوح: «فكما أنّ جسدَنا واحدٌ، إلّا أنّ له أعضاءً كثيرة، وأنّ أعضاء الجسد كلّها على كثرتِها ليست إلّا جسدًا واحدًا، فكذلك المسيح» (١ قورنتُس ١٢ : ١٢). في معرض كلامه عن أعضاء المسيح، أو المؤمنين، لا يقول: «فكذلك أعضاء المسيح»؛ بل يُطلق اسم المسيح على كلّ عضو

من الأعضاء. فبما «أنّ الجسدَ واحد، إلّا أنّ له أعضاءً كثيرة، وهذه الأعضاء، على كثرتِها، لا تؤلّف إلّا جسدًا واحدًا»، كذلك هو المسيح كثيرٌ في أعضائِه، واحدٌ في جسدِه. إذًا، نحن جميعُنا معًا في يسوع المسيح رأسِنا، ومن دون هذا الرأس لا قيمة لنا. لماذا؟ - إن كنّا متّحدين برأسنا، فنحن الكرمة، فإذا فُصِلنا عن الرأس، لا سمَح الله، فلسنا بعدُ سوى الأغصان المقطوعة، التي لا نفع منها للكرّامين، ولا تصلح إلّا للنار. وهو نفسُه يقول في الإنجيل: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان، وأبي الكرّام» (يوحنّا ١٥: ٥). ويُضيف: «وبدوني لا تستطيعون أن تعملوا شيئًا». فيا ربّ، إذا كنّا لا نستطيع بدونِك أن نعمل شيئًا،، فمعك نستطيع أن نعمل كلّ شيء. فكلّ ما يعملُه بواسطتِنا، يبدو كأنّنا نحن الذين نعمله. هو يستطيع أن يعمل الكثير بدونِنا، ونحن بدونِه لا نستطيع أن نعمل شيئًا.

٥ - إذًا، يا إخوتي، سواءٌ فهمنا الأمر جزعًا أو انخطافًا للروح، فكل كلمات المزمور تتوافق مع المسيح. فلنُرنّمْه، إذًا، في جسد المسيح؛ فلنُرنّمه كلّنا كواحد، لأنّنا معه نُكوّن الوحدة، ولنقُل: «إياك يا ربّ رجوتُ فلا أخزَ إلى الأبد». خوفي الأعظم هو ذلك الخزي الذي يدوم إلى الأبد؛ والحال، فإنّ ثمّة خزيًا عابرًا ذا فائدة، حين تضطرب النفس لرؤية خطاياها، وترعبُها تلك الرؤية، والرعبُ يُخزيها، والخزي يحملُها على إصلاح ذاتِها. لهذا قال القدّيس بولُس: «أي مجدٍ تنالون من تلك الآثام التي تخجلون منها اليوم؟» (رومة ٦: ٢١). وهذا يعني أنّ المؤمنين يخجلون، لا من العطايا الآنيّة، بل من الخطايا السابقة. لا جعلَنا الله نجزع من ذلك الخزي! خوفُنا، إن لم نخزَ في هذه الدنيا، أن نخزى في الأبديّة. وهذا الخزي الأبديّ يحصل حين تتحقّق هذه النبوءة: «آثامُهم تقوم في وجهِهم وتتّهمُهم» (حكمة ٤: ٢٠)، وعندما

تدينهم آثامُهم، يُطرح المنبوذون إلى اليسار، كما يُفصَلُ الجداء عن الخراف، ويسمعون ذاك الصوت: «إذهبوا إلى النار الأبديّة المعدّة لأبليس وملائكتِه» (متّى ٢٥: ٤١). في هذه الدنيا، كانوا يأنفون أن يعطوا كسرة خبزٍ للمسيح الجائع، وأن يُعطوه ليشرب في عطِشه، وأن يكسوه في عُريِه. كانوا يأنفون من استقبال الغريب ومن زيارة المريض. كانوا يُبدون صَلَفًا وازدراءً؛ وعندما يسمعون هذا التوبيخ، سوف يخزَون، ويكون خزيُهم إلى الأبد. هذا ما يخشاه ذاك الذي يتكلّم هنا جزِعًا منخطِفَ الروح، فيصرخ: «إيّاك رجَوْتُ يا ربّ فلا أخزَ إلى الأبد».

٦ - «نجِّني، وببِرِّك خلّصني» (٣٠: ٢). إن لم تنظر إلّا إلى برّي، فسوف تدينُني. لكن «ببِرِّك خلّصني». بِرّ الله يصير بِرًّا لنا بعطيّةٍ من الله. لكنّه يُدعى بِرَّ الله، لئلّا يظنّ الإنسان أنّه برُّه. فإليكم ما قال القدّيس بولُس: «الإيمان يُعزى إلى البِرّ، للإنسان الذي يؤمن بالذي يُبرِّر الخاطئ» (رومة ٤: ٥). ما معنى تبرير الخاطئ؟ - تحويلُه من خاطئ إلى بارّ. والحال، فإنّ اليهود ظنّوا أنّ بوسعِهم أن يُتمّوا البِرّ بقدراتِهم الذاتيّة، فاصطدموا بحجر العثار وصخرة الشك (رومة ٩: ٣٢)، ولم يعرفوا نعمة المسيح. أُعطوا الشريعة فجعلتهم مذنبين، ولم تُنجّهِم من خطاياهم. فماذا يقول الرسول، أيضًا في هذه المسألة؟ - «فإنّي أشهدُ لهم أنّ فيهم غيرةً لله، إلّا أنّها ليست عن معرفة» (رومة ١٠: ٢). إسمع! لماذا ليست عن معرفة؟ «لأنّهم إذ لم يعرفوا برّ الله، سعَوا إلى أن يُقيموا بِرّ أنفسِهم، فلم يخضَعوا لبرّ الله» (رومة ١٠: ٣). فإذا كانت غيرتُهم عن غير معرفة لأنّهم يجهلون برّ الله، ويسعَون إلى إقامة بِرِّهم، كما لو كانوا يستطيعون أن يصيروا أبرارًا بقدرتِهم، فذاك لأنّهم لم يعرفوا نعمة الله، ولم يرغبوا في خلاصٍ مجّانيّ. فمن تراه يخلُص

مجّانًا؟ - إنّه ذاك الذي لا يجد المخلّصُ فيه ما يُكافأ، بل ما يُدان؛ لا يجد شيئًا يستحقّ العفو، بل كلّ ما يستحقّ العقاب. ولو شاء أن يُقيم الشريعة التي وضعَها، فعليه أن يدين الخاطئ. ولكن، من تُراه يُخلِّصُ وفقًا لتلك الشريعة والناس جميعُهم خطأة؟ وحده بلا خطيئة، ذاك الذي يرانا جميعنا خطأة. إليكم ما يقول الرسول: «الجميع يُعوِزُهم مجدُ الله، لأنّ الجميع خطئوا» (رومة ٣: ٢٣). ماذا تعني عبارة: الجميع يُعوِزُهُم مجدُ الله؟ - أي يُعوِزُهم خلاصُ الله لا خلاصك أنت. أنت العاجز عن أن تُخلّص نفسك، بحاجةٍ إلى مُخلِّص. فبمَ تفتخِرُ بعدُ؟ لِمَ تجني البُطل من الشريعة ومن البِرّ؟ ألا ترى أنت، في ذاتِك، مَن الذي يستخدِمُك ليُحارِبَك؟ ألن تسمَع ذلك البَطَل النبيل يُقِرّ بضَعفِه، ويطلب النجدة في القتال؟ ألن تسمع بَطَل الربّ الذي يتوسّل في صراعِه مساعدة الذي يُدير القتال؟ فليس أمرُ الربّ الذي يراك تُقاتِل، مثل أمر الذي يستعرض مشهد القتال، عندما تُصارع على الحلبة. فهذا يمنحك الجائزة إذا انتصرت، لكنّه لا يقوى على إغاثتِك عند الخطر. وما هكذا ينظر الله إليك. فاسمع بتروٍّ ذاك الذي يقول: «بحسب الإنسان الباطن أرتضي شريعة الله، لكنّي أرى شريعةً أخرى في أعضائي تُحارب شريعة الروح، وتأسِرُني تحت شريعة الخطيئة التي في أعضائي. الويل لي أنا الإنسان الشقيّ! من يُنقِذُني من جسد الموت هذا؟ - نعمةُ الله بيسوع المسيح ربِّنا» (رومة ٧: ٢٢-٢٥). لماذا هي نعمة؟ - لأنّها تُعطى مجّانًا. وكيف تُعطى مجّانًا؟ - لأنّها لم تُستَحَقّ، فجاد بها الله عليك. وإليه يعود مجد خلاصِنا. «جميعُهم خطئوا ويُعوِزُهم مجد الله». «إيّاك يا ربّ رجَوت» ولم أتوكّل على نفسي، «فلا أخزَ إلى الأبد»؛ لأني رجوت ذاك الذي لا يُخيِّب رجائي. «أغثني ببِرّك وخلّصني». ما دمتَ لا تجدُ فيّ أيَّ بِرّ، أنقذني ببِرِّك؛ أي فليكن خلاصي بمن يُبرّرُني،

والذي يردّني من الخطيئة إلى التقوى، ويجعلُ من الشرّير بارًّا، ويفتح عينَي الأعمى على النور، ويُنهضُني من زلّتي، ويحوّل دموعي أفراحًا. هذا ما يُخلّصني، ولست أخلّص نفسي. «أغثني، وبِبِرِّك خلّصني!».

٧ - «أمِل إليّ مسمَعَك» (٣٠: ٣). هذا ما صنعه الربّ عندما أرسل لنا مسيحَه. أرسل لنا ذاك الذي أحنى رأسَه ليخطّ بإصبعه على الأرض، عندما أتَوا إليه بامرأة زانية ليدينَها (راجع يوحنّا ٨: ٦). أمّا هو فانحنى نحو التراب، أو بالأحرى، انحنى نحو الإنسان الذي قيل له: «أنت ترابٌ، وترابًا تعود» (تكوين ٣: ١٩)، لأنّ الله لا يميل أذنَه نحونا بصورة جسديّة، ولا هو منحصِر في أعضاء جسد. الله حقّ، وهو أبعد من أن يكون في أفكارِنا خيالًا بشريًّا. والحقّ ليس ذا شكلٍ مُقرَّنٍ أو كرويّ أو مستطيل. إنّه موجودٌ في كلّ مكانٍ تنفتح فيه عينا القلب لتنظرا إليه. والحال، فإنّ الله يميلُ إلينا أذنَه، عندما يسكُبُ علينا رحمتَه. وهل من فِعلِ رحمة أوسع من أن يُعطيَنا ابنه الوحيد، لا ليعيش معنا، بل ليموت لأجلِنا؟ «أمل إليَّ مسمعَك».

٨ - «أسرِع إلى نجدتي» (٣٠: ٣). سبق أن استجابه الله، لأنّه يقول: «أسرِع». علينا أن نفهم من هذه الكلمة أنّ الزمن المُعطى لتوالي الأجيال المتعاقبة، والذي يبدو لنا طويلًا، ليس سوى لحظة. ما الزمن بطويل، إذا كان له نهاية. من آدم إلى اليوم، انقضى زمن طويل؛ ولعلّه أطول من الزمن الباقي. لو كان آدم ما زال حيًّا ليموت الآن، فما الفائدة في أن يكون موجودًا إلى الآن، وأن يكون عاش طوال هذا الزمن؟ لِمَ، إذًا، هذه العجَلَة: «أسرِع»؟ - ذاك أنّ الزمن يطير، وما يبدو لكم طويلًا، إنّما هو قصيرٌ في نظر الله. لقد أدرك النبيّ تلك السرعة في جزعِه، فهتف: «إسرع إلى نجدتي. كن لي حصنًا، يا إلهي،

كن لي ملجأً وخلّصني». كن لي حصنًا حصينًا، كن إلهي الراعي، وكن لي مكانًا ألجأ إليه. غالبًا ما أجد نفسي في خطر، فأطلب الفرار؛ لكن أين أهرب؟ في أيّ ملجأٍ أجد الأمان؟ في أيّ جبل؟ في أيّ غار؟ في أيّ حصن؟ داخل أيّ أسوار؟ أيّ حصنٍ يُؤويني؟ أيّ دروبٍ تكتنفُني؟ حيثما أذهب، أراني أمام ذاتي. أيّها الإنسان! بوسع الهرب أن يُواريك عن كلّ ما تُريد أن تفرّ منه، إلّا عن ضميرِك. أدخل بيتَك لتأوي إلى مخدعِك، عُد إلى قلبِك، فلا تجد فيه أيّ ملجأٍ يقيك من ملاحقة ضميرك، ومن الندامة على خطيئتِك. لكنّ النبيّ يصرخ: «أسرع إلى نجدتي، وببِرِّك خلّصني» لكي تغفر خطيئتي وتُقيم فيَّ بِرّك، فتكون لي ملجأً، لأنّي بك أريد أن أحتمي. فأين أمضي لأهرب منك؟ الله يلاحقُك بسُخطِه، فأين تجدُ ملجأً؟ إسمع ما يقوله، في مكانٍ آخر، النبيّ الذي يهاب غضب الله: «أين أذهب من روحِك، وأين أفرّ من وجهِك؟ إن صعدتُ إلى السماء فأنت هناك، وإن هبطْتُ إلى الجحيم فأنت حاضر» (مزمور ١٣٨ : ٧، ٨). حيثُما أذهب ألتقيك. فإن كنتَ ساخطًا عليّ، التقيك لتعاقِبني، أو كنتَ راضيًا فلِتعضُدَني. فما لي سواك لأهرب إليك، لا لأغرب عنك. من أجل أن تنجو من سيّدٍ أنت عبدُه، تبحث عن ملجأٍ في الأمكنة التي لا يسود عليها. أمّا لكي تهرب من الربّ فابحث عن ملجأٍ لك في الله، لأنّك لا تستطيع أن تفرّ من أمام وجه الله. كلّ شيءٍ ماثلٌ أمام عينَي القدير، وكلّ شيءٍ مكشوف. كن إنت، إذًا، يا الله، ملجأي، يقول النبيّ. لكن، كيف أفرُّ إن لم أشفَ؟ فاشفني لكي أهرع إليك، لأنّك إن لم تشفِني، لن أقوى على السير فكيف بي على الفرار؟ أين يستطيع أن يذهب، وأين يستطيع أن يهرب ذاك الإنسان المتروك بين حيٍّ وميت على الدرب الرحبة، وقد أوسعَه اللصوص جراحًا، ولا يقوى على السير؟ مرّ به الكاهن وأشاح عنه،

ومرّ به اللاوي وأشاح عنه، ومرّ به السامريّ - أو بالأحرى الربّ الذي يرأف بالجنس البشريّ - فترأّف به (لوقا ١٠ : ٣٠). السامريّ يعني الحارس. لكن، من ذا يحرُسُنا إذا تخلّى عنّا الربّ؟ إذًا، مُحقٌّ يسوع المسيح في ردّه على إهانة اليهود له حين قالوا: «ألسنا بحقٍّ نقول لك إنّك سامريّ، وإنّ بك شيطانًا؟» (يوحنّا ٨: ٤٨). رضي بإهانةٍ، وردّ إهانة، فقال: «ليس بي شيطانٌ». ولم يقل إنّه ليس بسامريّ، رغبة منه في أن يُفهِمَنا بأنّه حارسُنا. ترأّف بذلك البائس، ودنا منه، وضمّدَ جراحَه، واقتاده إلى الفندق متمِّمًا تجاهَه فروض الرحمة؛ فصار بوسع ذلك الإنسان أن يسير وحتّى أن يعدو. لكن، إلى أين يعدو إلا نحو الربّ الذي اختاره ملجأً له؟

٩ - «أنت قوّتي وملجأي، ولأجل اسمك تهديني وتُقيتُني» (٣٠: ٤) لا لأجل استحقاقاتي، بل لأجل اسمك؛ لكي يسطع مجدُك، لا لأنّي مستحقّ. «تهديني» لئلّا أتوه بعيدًا منك. «وتُقيتُني»، فأصيرِ قويّا وأقتات بطعام الملائكة. لأنّ الذي وعدَنا بالقوت السماويّ يُقدّم لنا اللبن، في هذه الدنيا، بحنوّه الوالديّ. وعلى مثال الأم التي تُطعم، من قوتِ جسدِها، طفلها الرضيع الذي لا يقوى على المضغ، فتُمرّرُه له بحليبِها (لأنّ الطفل إنّما يقتات من حليب أمّه بجميع أنواع الأطعمة التي لا يستطيع أن يقتات بها على المائدة)، كذلك الربّ، لكي يُمرّر فينا حكمتَه كلبنٍ إلهيّ، يُقدَّم إلينا، لابسًا جسدًا بشريًّا. إنّه، إذًا، جسد المسيح، ذاك الذي يقول هنا: «وتُقيتُني».

١٠ - «تُنجّيني من الشرك الذي نصبوه لي في الخفاء» (٣٠: ٥) تلك هي الآلام التي بدأت تظهَر. «تُنجّيني من الشرك الذي نصبوه لي في الخفاء». لا تلك الآلام التي كان على الربّ أن يُقاسيها فحسب،

بل أشراك الشيطان المنصوبة حتّى انقضاء العالَم؛ وويلٌ لمن يَدَعُ نفسَه يؤخَذ في تلك الشباك. ويلٌ لذلك الإنسان الذي يقع فيها ولا يتوكّل على الله، ولا يقول: «إيّاك رجوتُ يا إلهي، فلا أخزَ إلى الأبد، نجّني ببِرِّك وخلّصني» (٣٠: ٢). شباك العدوّ منصوبةٌ وجاهزة. وفي تلك الشباك الضلال والخوف: الضلال ليُكبّلَنا، والخوف ليُحطّمَنا ويخطَفَنا. أمّا أنت فأغلق على الضلال أبواب الشهوة، وعلى الخوف أبواب الضعف، تنجُ من الشِباك. فالذي هو رأسُك علّمك بنفسِه طريقة القتال تلك، هو الذي أراد، لكي يُعلّمك، أن يُقاوم التجربة. جُرِّب أوّلًا بالشهوة، لأنّ الشيطان حاول أن يفتح باب الشهوات عندما قال له: «مُر فتصيرَ هذه الحجارة خبزًا... أسجُد لي فأعطيَك كلّ هذه الممالِك... ألقِ بنفسك إلى أسفل، فإنّه كُتِب: أمَرَ ملائكتَه أن تحملَك بين أيديها لئلّا تصدم بحجرٍ رِجلَك» (متّى ٤: ٣، ٦، ٩). جميع هذه الإغراءات هي بداية الشهوة. لكنّه عندما رأى أبواب الشهوة تنغلِق في من احتمل التجربة لأجلِنا، حاول أن يُشرّع أبواب الخوف، فهيّأ له الآلام. وهذا ما يقولُه لنا الإنجيليّ: «فلمّا استنفد إبليس جميع التجارب، انصرفَ عنه إلى حين» (لوقا ٤: ١٣). ما معنى «إلى حين»؟ - أي أنّ عليه أن يرجع فيوجّه جهودَه ناحية الخوف، لكونِه أخفق في موضوع الشهوات. وعليه، فإنّ جسد المسيح سوف يبقى خاضعًا للتجربة حتّى النهاية. وهكذا، يا إخوتي، عندما كانت تُطلق الدعوات لاضطهاد المسيحيّين، فإنّ جسد المسيح كلَّه هو الذي كان يُصدَم. من هنا قول صاحب المزامير: «مثل كومة رملٍ دُفِعتُ لكي أسقُط لكنّ الربّ نصرني» (١١٧: ١٣). لكن، عندما انتهت الشرور التي كانت تطالُ جسد الكنيسة جمعاء، تجزّأت التجربة لكي تقوى على دفعه إلى السقوط. أُخضِع جسد المسيح للمحنة؛ فإن لم

يتألّم في كنيسة، تألّم في أخرى. ليس عليها بعد أن تخشى سخط ملك، لكنّها تُعاني مضايقات شعبٍ شرّير. كم من إساءةٍ أنزلَها بها الرعاع! أيّ شرٍّ لم تُقاسِه من أولئك المسيحيّين المكبّلين بشباك إبليس، والذين يزدادون حتّى يكادون يُغرقون سفن الصيد التي يستخدمها المخلّص قبل آلامه (راجع لوقا ٥: ٧)! ومن يومها لم تبرح المحن تتوالى عليه. لا يقولَنَّ أحدٌ لنفسِه: لم يعد الزمن زمن اضطهادات. من اعتمد هذه اللغة يعِدُ نفسَه بالسلام، ومن يعد نفسَه بالسلام يُباغَتُ في سكينتِه. فليصرخ، إذًا، جسدُ يسوع المسيح كلُّه: «نجّني من الشباك التي تُنصَب لي في الخفاء». لأنّ رأسَنا خُلّص من الشرك الذي نصبه له في الخفاء أولئك الذين أخبرنا عنهم الإنجيل أنّهم سوف يقولون ذات يوم: «هذا هو الوارث، تعالَوا نقتلُهُ ونستولي على الميراث» (متّى ٢١: ٣٨)؛ والذين قَضَوْا على أنفسِهم عندما سُئلوا: «أيّ عقابٍ سيُنزلُه ربّ العمل بأولئك الفَعَلة الأشرار؟ فقالوا: إنّه يُميت أولئك الأشرار أبشع ميتة، ويُسلّم الكرم إلى كرّامين آخرين. فأجابهم المخلّص: أما قرأتم أيضًا إنّ الحجر الذي رذله البنّاؤون صار رأسًا للزاوية؟ (متّى ٤٠-٤٢). وهكذا يُفسّر لنا أنّ الحجر الذي رذله البنّاؤون إنّما هو الوارث الذي أخرجه الفعلة من الكرم وقتلوه. فهو، إذًا، خُلِّص. ورأسُنا في العلاء، وهو حرّ. فلنعتصِم به بالمحبّة، لكي نتّحد به، بلا انفصالٍ، بالخلود، ولنقل جميعُنا: «نجّني من الشباك التي تُنصَب لي في الخفاء، لأنّك حصني» (٣٠: ٥).

١١ - لكن، لنسمع الكلمات التي تفوّه بها الربّ على الصليب: «في يديك أستودِع روحي» (٣٠: ٦). عندما نرى أنّ يسوع المسيح يُردّد في الإنجيل كلمات المزمور هذه، فلا نشُكَّنَّ بعدُ في أنّه هو الذي يتكلّم هنا. تقرأ في الإنجيل أنّ المسيح قال: «في يديك أستودع

روحي، ثمّ أحنى رأسَه وأسلم الروح» (لوقا ٢٣: ٤٦؛ يوحنّا ١٩: ٣٠). باستعادتِه هذه الكلمات، كان هدفُه أن يُخبِرَك بأنّه هو الذي يتكلّم في هذا المزمور. وهو، إذًا، من ينبغي أن نبحث فيه عنه. تذكّرْ أنّه أراد أن يُبحثَ عنه في ذلك المزمور الآخر لنجدة الصباح: «ثقبوا يديَّ ورجليَّ؛ أحصَوا عظامي، ونظروا إليّ وتفرّسوا فيَّ، واقتسموا ثيابي وعلى ردائي اقترعوا» (مزمور ٢١: ١٧، ١٨). ولكي يُعلّمني أنّ كلّ تلك الأمور تحقّقت فيه، تلا بداية المزمور: «إلهي إلهي، لماذا تركتَني؟» (مزمور ٢١: ٢). وفي كلّ الأحوال، قال هذا باسم أعضائِه، لأنّ الآب لم يتخلَّ عن ابنه الوحيد. «لقد افتدَيتني إيّها الربّ إله الحقّ». أنت إله الحقّ، لأنك تصنع ما وعدت به، وليست وعودُك من دون أفعال.

١٢ - «تُبغِض المتمسّكين بالأباطيل». من يتمسّك بالباطل؟ - ذاك الذي يموت خوفًا من الموت. خوفُه من الموت يدفعُه إلى الكذب، فيموت حتّى قبل أن يموت، وهو ما كذب إلّا ليعيش. أنت تكذب لئلّا تموت، فيكون الكذب والموت نصيبَك. تُريد أن تهرب من موت يُمكنُك تأجيلُه لزمن يسير، ولا تستطيع أن تتفاداه، فتستحقّ ميتتَين: ميتة الروح وميتة الجسد. من أين يأتي ذلك الويل إن لم تكن متمسّكًا بالباطل؟ ذاك أنّ اليوم الذي يهرب يستهويك، وتلتذّ بالزمن الهارب الذي لا تقوى على الاحتفاظ منه بشيء، بل يحملُك معه. «تُبغض المتمسّكين بالأباطيل». أمّا أنا الذي لا أحبّ الباطل، فإنّي أرجو الله. ترجو مالَك، فأنت مأخوذٌ بالباطل؛ وترجو صديقًا قديرًا، فأنت مأخوذٌ بالباطل. عندما تجعل رجاءَك في كلّ ذلك، فإمّا أن تُخلّفَه وتموت، أو إن عشت، فكلّ ذلك إلى فناء، وقد خاب رجاؤك. عن هذا الباطل يقول أشعيا النبيّ: «كلّ بشر عشبٌ، وكلّ مجده كزهرة عشب. ييبس

العشب ويسقط الزهر، أمّا كلمة الربّ فتبقى إلى الأبد» (٤٠ : ٦، ٨). أمّا أنا فلا أقتدي بالذين يجعلون رجاءَهم في الباطل، ويتمسّكون بالباطل، بل أرجو الله: وليس الله بُطْلًا.

١٣ - «أفرح وأبتهج برحمتِك»، لا ببِرّي. «لأنّك نظرت إلى حقارتي وانتشلت نفسي من الضيقات ولم تُكبّلني في أيدي أعدائي» (٣٠ : ٨، ٩). ما هي تلك الضيقات التي نريد أن تنجو نفسُنا منها؟ من ذا يُحصيها؟ ومن يعلم حجمَها؟ ومن يقول لنا، بخاصّةٍ، كم علينا أن نهرب منها ونتجنّبَها؟ همٌّ أوّل، وهو همٌّ شديد على البشر، هو ألّا نعرف قلب القريب، وأن نشكّ على الدوام في نوايا صديقٍ أمين، وأن نثق بصديقٍ ماكر. إنّه لهَمٌّ مُضنٍ! ماذا تفعل لكي ترى في القلوب؟ بأيّ نظرة تراها، أيها الإنسان الضعيف البائس؟ ماذا تفعل لترى اليوم قلب أخيك؟ - لا حاجة لك لأن تفعل شيئًا. والهمّ الأشدّ كَربًا هو ألّا تعرف ماذا يكون من أمر قلبِكَ غدًا. ماذا أقول بعدُ عن مآسي طبيعتِنا؟ علينا أن نموت، ولا أحد يُريد أن يموت. لا أحد يرضى بما سيحدُث له طوعًا أو عنوةً. يا له من حظٍّ بائس أن نُلقي عنّا ما ليس بوسعِنا أن نتجنّبَه. إذ لو كان باستطاعتِنا، لما ارتضينا أن نموت، ولتمنّينا أن نصير كالملائكة، لكن بتحوُّلٍ ما، لا عبر الموت، على ما قال الرسول: «فلنا بناءٌ من الله، بيتٌ لم تصنعه الأيدي، أبديٌّ في السموات. فلذلك نئنّ متشوّقين لأن نلبس مجد ذلك البيت السماويّ، لباسًا ثانيًا، إن وُجِدنا لابسين لا عراة. ففيما نحن في هذا الجسد كمن في مظلّة، فإنّنا نئنُّ تحت ثقلِه لأنّنا نرغب، لا في أن نخلعَه، بل أن نلبس فوقَه، حتّى تبتلع الحياةُ كلّ ما هو مائت» (٢ قورنتس ٥ : ١-٤). نريد أن نبلغ ملكوت الله، لكن لا عن طريق الموت. على أنّ الضرورة الحتميّة تقول لنا: ستنتهي إلى الموت. لا تريده أيّها الإنسان الضعيف الواهن، والله أتى

إليك سالكًا هذا الطريق. يا له من همٍّ مُضنٍ أن نقهر رغباتِنا الهرِمة وعاداتِنا المتأصّلة! يا له من قتالٍ ضارٍ أن تقهر عادةً! أنت تعلم ذلك. ترى جيّدًا أنّ أعمالك شرّيرة ومقيتة وبائسة، ومع ذلك تُكابِر: ما فعلتَه أمسِ، ستفعلُه غدًا. إن لم يُرضِك كلامي إلى هذا الحدّ، فكم ستُثقِل عليك أفكارُك! ومع ذلك تعود فتسقط. من أين يأتي هذا الإغراء؟ من له أن يُخضعَك إلى هذا الحدّ؟ وهل في أعضائك شريعةٌ تخالف شريعة روحِك؟ فاصرخ، إذًا: «يا لي من إنسانٍ شقيّ! من يُخلّصُني من جسد الموت هذا؟ - نعمة الله بيسوع المسيح ربِّنا» (رومة ٧: ٢٤، ٢٥). عندها يتحقّق فيك ما قلتُه لتوّي: «أمّا أنا، فعلى الربّ توكّلتُ؛ أفرح وأبتهج برحمتِك لأنّك نظرت إلى بؤسي، وانتشلت روحي من ضيقات الحياة». كيف لروحِك أن تُنتَشَل من ضيقات الحياة إن لم ينظر الله إلى بؤسِك؟ فلو لم تُذَلّ، لما استجابَك فأخرج روحك من ضيقات الحياة. أُذِلّ ذاك الذي قال: «يا لي من إنسانٍ شقيّ! من يُخلّصُني من جسد الموت هذا؟». لكنّهم لم يُذِلوا أنفسَهم أولئك الذين «جهلوا بِرّ الله، وطلبوا أن يُقيموا بِرّ أنفُسِهم فلم يخضعوا لبِرّ الله» (رومة ١٠ : ٣).

١٤ - «لم تأسرني في يَدَي عدُوّي» (٣٠: ٩)، لا في يد قريبٍ أو شريك، ولا في يد رفيق السلاح الذي جرحتَه، ولا في يد ابن مدينتِك الذي ربّما أهنتَه بشتائمِك. لأنّنا أخذنا على أنفُسِنا أن نُصلّي من أجل كلّ هؤلاء. إلّا أنّ لنا عدوًّا آخر هو إبليس، الحيّة القديمة. جميعُنا بالموت ننجو من قدرتِه، إن نحن مُتنا في القداسة. فمن مات في الخطيئة، يطرحه الموت المُفجِع في يدَي إبليس ليُدان معه بعذابٍ لا ينتهي. إذًا، هو الربّ إلهُنا من ينتشِلُنا من مُضايقات العدوّ. وهذا العدوّ يريد أن يُمسك بنا عن طريق شهواتِنا. فشهواتنا، عندما تتعاظم إلى حدّ

إخضاعِنا، تغدو ضرورات. إذًا، ما إن يُخلّص الربّ نفسَنا من تلك الضرورات، أيُّ سلطانٍ ستبقى بيد الشيطان لكي يُخضِعنا لمشيئتِه؟

١٥ - «ثبّتَّ في الدرب الرحبة قدميّ» (٣٠: ٩). الدرب ضيّقة، بالتأكيد: ضيّقة للنفس المستعبَدة، لكنّها رحبةٌ للمحبّة. المحبّة تُوسّعُ ما كان ضيّقًا. يقول «ثبّتَّ في الدرب الرحبة قدميَّ»، لئلا تتعثّر قدماي في الدرب الضيّقة، فأزلّ. ما معنى «ثبّتَّ في الدرب الرحبة قدميّ»؟ - يسّرت لي أعمال البِرّ، التي كانت عسيرةً في ما مضى. ذاك هو معنى عبارة: «ثبّتَّ في الدرب الرحبة قدميّ».

١٦ - «ارحمني يا ربّ فإنّي في ضيق. غضبُك أغشى عينَيَّ وأقلق نفسي وأحشائي؛ فَنِيَت حياتي بالحسرة، وأعوامي بالتأوّه» (٣٠: ١٠، ١١). فلتكتفِ محبّتُكم بهذا القدر، يا إخوتي. وسنفي، في مرحلةٍ ثانية، بمعونة الله، ما تبقّى علينا من دَينٍ، لكي ننهي شرح المزمور قبل رحيلنا.

عظة ثانية في المزمور الثلاثين

القسم الثاني: ردًّا على الدوناتيّين

تُعنى هذه العظة بالثلث الثاني من المزمور، وغرضُها البحث في آلام الكنيسة التي يُسبّبها لها المسيحيّون الأشرار والدوناتيّون.

١ - لنركّز انتباهنا، إخوتي، على تتمّة المزمور، ولنعتبِر أنفُسَنا مكان النبيّ. لأنّنا إذا فهمنا أنّنا في زمن ضيق، فسنفرَح في يوم الثواب. لفتّكم، يا إخوتي، عندما عرضت لكم الآيات الأولى من مزمورِنا، إلى أنّ يسوع المسيح هو الذي يتكلّم. ولم أُخفِ عنكم أنّ المسيح يُقصَد به الرأس والأعضاء؛ ويبدو لي أنّ شهادات الكتب المقدّسة التي أوردتُها، كانت تؤكّد بكلّ وضوح، وبما لا يقبل الشك، أنّ المقصود بالمسيح، الرأس والأعضاء، العريس والعروس، إبن الله والكنيسة، إبن الله الذي صار إنسانًا لأجلِنا، لكي يرفع بني البشر إلى مصافّ أبناء الله؛ لكي يصير المسيح والكنيسة، بسرّ مُقدّسٍ فائق الوصف، اثنين في جسدٍ واحد، كما هما اثنان في صوت واحدٍ عند الأنبياء. وعليه فإنّ المرنّم شكر الله بهذه الكلمات: «نظرت باهتمام إلى حقارتي، وانتشلت نفسي من ضيقاتِها، ولم تأسرني في يدَي عدوِّي، وأقمت في الرحب قدميّ» (٣٠: ٨، ٩). تلك هي أفعال الشكر التي يتلوها الإنسان الناجي من الضيق، وجميع أعضاء المسيح الناجين من الألم والمكائد. «إرحمني يا ربّ»، يصرخ مُجدّدًا، «فإنّي في ضيق».

إذا كان في ضيق، فهذا يعني أنّه في مكانٍ ضيِّق؛ فكيف به يقول: «جعلتَ في الرُّحبِ قدميَّ»؟. كيف تكون قدماه في الرحب وهو أسيرُ الضيق؟ ألعلّ ثمّة صوتًا واحدًا يصرخ، كما ليس سوى جسدٍ واحدٍ يتكلّم؟ أم أنّ ثمّة كثيرين في الرُحب يستسهلون أعمال البِرّ، وآخرين في الضيق ينوحون ويتأوّهون؟ لأنّه لو لم يكن الأعضاء في أوضاعٍ مختلِفة، لما قال الرسول: «فإذا تألّم عضوٌ تألّم معه سائر الأعضاء، وإذا أكرِم عضوٌ ابتهج معه سائر الأعضاء» (١ قورنتس ١٢: ٢٦). بعض الكنائس، مثلًا، في سلام، وبعضُها في ضيق. فالتي في سلام، أقدامُها في الرُّحب، فيما أقدام الكنائس الأخرى في الضيق. غير أنّ آلام هذه تُبرّح تلك التي في السلام، وسلام تلك، تُعزيّ الكنائس المتألّمة. إنّ في الجسد وحدةً قادرة على إقصاء كلّ فُرقة، والفرقة ثمرة النزاع. المحبّة هي الرابط، والرابط يشدّ أواصرَ الوحدة، والوحدة تحفظ المحبّة والمحبّة تصِل إلى البهاء الأبديّ. فليصرخِ الجسدُ، إذًا، باسم بعض الأعضاء: «إرحمني يا ربّ، فإنّي في ضيق، غضبُك غشّى عينيّ وألقى الكَرب في نفسي وفي أحشائي» (٢٠: ١٠).

٢ - فلنبحث، من أين يأتي ذلك الضيق، من حيث أنّ المتكلّم بدا، لساعتِه، مبتهجًا بخلاصِه، وبالبِرّ الذي أغنت روحَه به جودة الله، وبالمدى الرّحب التي أفسحته المحبّة لقدَميه. لعلّ هذا الكَرب يأتي من هذه الكلمات التي قالَها الربّ: «ولكثرة الإثم تبرد المحبّة من الكثيرين» (متّى ٢٤: ١٢). فبعد أن أوصى الربّ العدد القليل من القدّيسين بأن يُلقوا شباكَهم في البحر، وبدأت الكنيسة تتنامى وتُمسِك سمكًا لا عدّ له، بحسب هذه النبوءة: «أخبرتُ بمعجزاتك، وكرزت بها، فتنامى المستمعون، فلا يُحصَوْن» (مزمور ٣٩: ٦). فكادت السفن أن تغرق، والشباك أن تتمزّق، على ما قيل عن صيد الربّ قبل الآلام (لوقا ٥:

٦). تلك هي الجموع التي تتهافت إلى كنائسنا، زمن الفصح، فتكاد جدرانُها الضيّقة لا تتّسع لها. كيف لهذا الحشد ألّا يُحزِن ذاك الذي يرى، في العروض والمسارح، الناسَ أنفُسَهم الذين كانوا في ما مضى يملأون كنائسَنا؟ أو يرى في مواخير الخلاعة والمجون، من كانوا للوقت يُرنّمون التسابيح لله؟ أو عندما يسمع السباب ينطلق من أفواه الذين كانوا لتوّهم يهتفون: آمين!؟ وفي كلّ مرّة نجدُه يصمد ويثبت ولا يضعُف، وسط هذا الجمع الحاشد من الأشرار، لأنّ الحَبَّ الجيّد لا يفقدُ شيئًا وسط القشّ، إلى حين يُذرّى ويوضع في الأهراء، وهناك يكون مع القدّيسين بمنأى عن كلّ تراب يُمكن أن يُلوّثه. فليصمُد، لأنّ الربّ نفسَه، بعد أن قال: «إنّ كثرة الإثم تُبرّد المحبّة من الكثيرين»، يُريد أن يمنع كثرة الإثم تلك من أن تُقلقِل أقدامَنا فنزِلّ. ولكي يُثبّتَ المؤمنين ويُشجّعَهم ويُعزّيهم، يُضيف: «من يثبُت إلى المنتهى يخلُص» (متّى ٢٤: ١٣).

٣ - لنعتبر أنّ هذا هو الضيق الذي يُعانيه المتكلّم. ولا بدّ لهذا الضيق من أن ينتزع منه الشكوى، لأنّ كلّ ضيقٍ يبعث على الحزن، والألم يُثير فيه الغضب فيصرخ: «إرحمني يا ربّ لأنّ الغضب أغشى عينَيّ». لمَ الغضبُ إن كنتَ في ضيق؟ إنّه غاضبٌ من خطايا الآخرين. من ذا لا يثور غاضبًا لدى رؤيتِه أناسًا يشهدون لله بأفواهِهم ويُنكرونه في قلوبِهِم؟ من ذا لا يغضب وهو يرى الناس يتنكّرون للعالَم بالكلام لا في الحقيقة؟ من ينظر ببرودة إلى الإخوة ينصبون الشباك لإخوتِهم، ويغدون خَوَنَة في تلك القبلة التي يتبادلونَها وهم يقتبلون الأسرار؟ من يواجه، بمثل أسباب الغضب تلك، جسد المسيح الذي يعيش في الداخل من روحِ المسيح، ويتأوّه كالحبّة الجيّدة المغلّفة بالقش؟ تكاد لا تراهُم أولئك الذين ينتحبون على هذا النحو وينتابُهم الغضب. تمامًا كما تكاد

لا ترى الحَبّ عندما يُدرَسُ على البيدر. أي إنسانٍ لا يعرف عدد السنابل الملقاة على البيدر، يمكن أن يظنّ أنّه لا يوجد سوى القشّ. لكنّ المذرّي سيكتشف الكثير من الحَبّ الجيّد في تلك الكومة التي نحسبُها مجرّد كومة قشّ. إذًا، في فم أولئك المؤمنين الذين يتأوّهون في الخفاء، يثور غاضبًا ذاك الذي قال في مكانٍ آخر: «غيرة بيتِك أكلتني» (مزمور ٦٨ : ١٠). وفي مكانٍ آخر، ولدى رؤيتِه الجمع الكثير من الأشرار، يصرخ: «أخذتني الحميّة بسبب المنافقين الذين تركوا شريعتَك» (مزمور ١١٨ : ٥٣)، وفي المزمور عينِه: «رأيت المخادعين فانقبضت نفسي» (١١٨ : ١٥٨).

٤ - على أنّه يُخشى أن يتحوّل الغضب إلى حقد؛ فالغضب ليس بعدُ حقدًا. نغضب من ابنٍ فلا نحقد عليه. وتحفظ الميراث للذي يرتعد أمام غضبِك. وليس لغضبِك من هدفٍ سوى أن تُجنّبه هلاكًا يدفعُه إليه سوء سلوكِه. الغضب ليس الحقد، وغالبًا ما لا نحقد على من نواجهه بالغضب. لكن، لا يدومنَّ غضبُنا في نفسِنا إلّا لوقتٍ يسير، فإن لم يُقصَ للحال، نما وتحوّل إلى حقد. ومن أجل أن نكبح غضبَنا قبل أن يتحوّل إلى حقد، يُحذّرنا الكتاب من أن ندع الشمس تغرب على غضبنا (أفسس ٤ : ٢٨). نُصادف أحيانًا مسيحيًّا حاقدًا على آخر غاضبٍ عليه: يواجِه غضبًا بحقدٍ، فيُغذّي الحقد؛ في عينِه خشبة، ويُعيّر أخاه على قشّةٍ في عينِه (متّى ٧: ٣). على أنّ هذه القشّة الضحلة ستغدو خشبةً، إن لم تُنتزَع لتوِّها. وعليه، فإنّ المرنّم لا يقول: الغضب أعمى عيني، بل قال: أغشى عيني. العمى نتيجة الحقد، لا الغضب. الحقد يُطفئ عينه كلّيًّا. يقول القدّيس يوحنّا: «من أبغض أخاه فهو في الظلمة» (١ يوحنّا ٢ : ١١). إذًا، يبدأ الغضب فيُغشي العين قبل أن تبلغ الظلمة. فلنحرِص ألّا يتحوّل غضبُنا إلى حقد،

فتنطفئ عينُنا. «الغضب أغشى عينيَّ»، يقول المرنّم، «وألقى الكَرب في نفسي وفي أحشائي»، أي أنّه بلبل كلّ ما في داخلي، من حيث أنّ الأحشاء تعني الداخل. مسموحٌ أحيانًا أن نغضب على الأشرار والفاسدين ومغتصبي الشريعة وأهل الفجور؛ لكن، ليس مسموحًا أن نحقد. والحال، فإنّ هذا الغضب الذي ينبغي ألّا ينفجر حقدًا، إنّما هو اضطرابٌ داخليّ. أحيانًا يكون الشرّ عظيمًا إلى درجة نكاد لا نقوى على صدّه.

٥ - «ضنِيَت حياتي في الألم، وأعوامي في الحسرات» (٣٠: ١١) «حياتي وهنٌ أليم، يقول النبيّ. والقدّيس بولس قال أيضًا: «إنّا الآن نحيا إن كنتم ثابتين في الربّ» (١ تسّالونيقي ٢: ٨). جميع الذين وجدوا الكمال في الإنجيل وفي النعمة، لا يحيَون، بعدُ، إلّا للآخرين. إذ لا حاجة لهم لأن يحيَوا هم أنفُسُهم في هذه الدنيا. لكن لمّا كان الآخرون بحاجةٍ إلى خدماتِهم، تتمّ فيهم كلمة الرسول: «لي رغبةٌ في أن أنحلّ من قيود الجسد، وأكون مع المسيح يسوع، وذاك هو الأفضل بلا قياس؛ لكن، خيرٌ لكم أن أبقى في هذه الحياة» (فيليبّي ١: ٢٣، ٢٤). إذًا، إنّ الإنسان الذي يرى أنّ أعمالَه وخدماتِه وكرازتَه لم تؤتِ ثمارَها عند الآخرين، تضنى حياتُه في الفاقة والعَوَز. فاقةٌ مُحزنة، وجوعٌ مُضنٍ! لأنّ الذين نربحُهم لله، إنّما هم قوتٌ للكنيسة. أأقول قوتًا؟ - أجل، فالكنيسة تُدخلُهم إلى جسدِها، كما يدخُل القوت في جسدِنا. ذاك هو عمل الكنيسة عبر قدّيسيها. بها جوعٌ لمن تريد أن تربحَهم، وعندما ترى أنّها استطاعت أن تربحَهم، تجعل منهم قوتًا لها. هي الكنيسة صوّرَها القدّيس بطرس عندما رأى سماطًا عظيمًا هابطًا من السماء وفيه من جميع أنواع الحيوان من ذوات الأربع ودبّابات الأرض وطيور السماء، التي تُمثّل، بدورِها، كلّ أمم الأرض

(أعمال ١٠ : ١١، ١٢). كان الربّ يكشف لنا أنّ على الكنيسة أن تضمّ جميع شعوب الأرض، وتحوّلهم إلى جسدِها؛ ولهذا قال لبطرس: «اذبَح وكُل!» (أعمال ١٠ : ١٣). اذبحي وكلي أيّتها الكنيسة! اذبح وكُل، يا بطرُس! فأنت صخرٌ وعلى هذا الصخر أبني كنيستي (متّى ١٦ : ١٨). إذبح أوّلًا، ثمّ كُل؛ إذبح ما هم عليه، واجعل منهم ما أنت عليه. عندما يُبشَّر بالإنجيل، ويرى المبشّر أنّ الناس لا يجنون أيّ فائدة، فلماذا لا يصرُخ: «ضنِيَت حياتي في الألم، وأعوامي في الحسرات. في الفاقةِ وهنت عزيمتي، والكَدَر في عظامي»؟ (٣٠: ١١). الأعوام التي نُمضيها في هذه الدنيا نقضيها في التأوّه. لماذا؟ - «لأنّ الإثم يكثُر والمحبّة تبردُ في الكثيرين» (متّى ٢٤: ١٢). إنّها تأوّهاتٌ، لا صراخات عالية. عندما ترى الكنيسة الجموع تعدو نحو حتفِها، تمتصّ شكواها وتقول لله: «تنهُّدي ليس خفيًّا عليك» (مزمور ٣٧: ١٠). هذا الكلام لمزمور آخر، وهو يتوافق جيّدًا مع هذا المزمور، ويعني أنّ تأوّهاتي يُمكن أن تخفى على الناس، أمّا أنت فيستحيل أن تغيب عنك. «في الفاقةِ وهنت عزيمتي، والكَدَر في عظامي». سبق أن أخبرتكم عن تلك الفاقة. أمّا العظام، فنقصد بها أبناء الكنيبسة الأشدّاء، أولئك الذين لا يرهبون الإضطهادات، وينتفضون أحيانًا لآثام إخوتِهم.

٦ - «صرت عارًا أكثر من جميع أعدائي، وأيَّ عارٍ لدى جيراني، وفزعًا للذين يعرفونني» (٣٠؛ ١٢). من هم أعداء الكنيسة؟ هل هم الوثنيّون واليهود؟ إنّ سلوك مسيحيّ شرّير لشرٌّ من سلوكِهم. أتريدون أن تعرفوا كيف أنّ حياتَه أكثر فسادًا من حياتِهم؟ يُشبّه النبيّ حزقيال أولئك الأعداء بأغصانٍ لا نفع لها (حزقيال ١٥ : ٢). لنفترِض أنّ الوثنيّين شجرُ غابةٍ خارج الكنيسة، فما زال بوسعِنا أن نجنيَ منها

فائدة، كأن يجدَ فيها عاملٌ قطعة خشبٍ تصلح للنجارة. فإن عثر على عُقَدٍ أو قشرٍ أو التِواءات، عمد إلى القطع والنشر والسحج ليصنع منها ما يوافق حاجة الناس. لكنّ الغصن اليابس لا يُعطي ثمرًا، وهو إذا قُطِع من الدالية، لم يكن فيه نفعٌ للنجّار، فيُلقى في النار. إسمعوا جيّدًا، يا إخوتي: الغصن الثابت في الكرمة ويعطي ثمرًا يُفضّل، حيثما كان، على خشب الغابة. لكن، عندما يقطعه مقصّ الكرّام فخشب الغابة أفضل منه، لأنّ النجّار يجني من الخشب فائدة، فيما الغصن اليابس لا يطلبُه سوى واقدُ النار. إذًا، لدى رؤية هذا الجمع الحاشد سالكًا في الكنيسة في الفساد، يصرخ النبيّ: «عاري أعظم من عار أعدائي». سلوكُهم بمشاركتهم لي في أسراري، أسوأ من سلوك الذين لا يُشاركونني فيها ابدًا. لماذا لا نقولُها صراحةً بِلُغتِنا عندما نشرح هذا المزمور؟ وإذا كنّا أشدّ تحفّظًا في أوقاتٍ أخرى، أقلّه فلتُعطنا ضرورةُ عرض ما نحن في صددِه، الحرّيّة لكي نردع الفساد. «صرتُ عارًا أكثر من جميع أعدائي». عن هؤلاء قال القدّيس بطرس: «صارت لهم الأواخرُ شرًّا من الأوائل؛ كان خيرًا لهم لو لم يعرفوا طريق البِرّ، من أن يعدلوا عنها بعدما عرفوها، ويتخلّوا عن الشريعة المقدّسة التي أُعطيت لهم» (٢ بطرس ٢: ٢٠-٢١). وانظروا بعد ذلك أي مقارنةٍ مرعبة يُقيمُها بشأنِهم: «تمّ فيهم ما يُقال في المثل الصادق: عاد الكلب إلى قيئِه» (٢ بطرس ٢: ٢٢). ومن حيث أنّ مسيحيّين كثيرين مثل هؤلاء يُرهقون كنائسَنا، أفليس من حقّ العدد القليل من الصلّاح الذين فيها، أو بالأحرى، أليس من حقّ الكنيسة بصوت هؤلاء القلائل، أن تصرخ: «صرتُ عارًا أكثر من جميع أعدائي؛ وأي عارٍ لدى جيراني؛ وفزعًا للذين يعرفونني»؟ أنا في أحقر عارٍ في أعين جيراني، أي الذين يقاربونني ليعتنقوا الإيمان؛ أو أنّ الذين كانوا الأقرب إليّ، اختاروا

الابتعاد لدى رؤيتِهم السلوك الفاسد للمسيحيّين الأشرار والمزيّفين. كم ترَون، يا إخوتي، ممّن يرغبون في أن يكونوا مسيحيّين، ثم يتراجعون أمام السلوك الفاسد للمسيحيّين الأشرار! أولئك هم جيراننا الذين يقتربون منّا ويتراجعون أمام فرط مساوئِنا.

٧ - «صرتُ فزَعًا للذين يعرفونني». لِمَ كلّ هذا الفزع؟ «الذين يعرفونني»، يقول المرنّم، «فزعوا». ما الذي يُرعب الإنسان أكثر من ارتعابه من رؤية الفساد في هذا الجمع الحاشد، ومن رؤية الانحلال في من كان يضع فيهم الآمال العراض؟ يخشى ألّا يتشبّه بهم جميع الذين يظنّ أنّهم صلّاحٌ، إذ ذاك تغدو كلّ نفسٍ كريمةٍ عرضةً للشكّ. ربّ قائلٍ: يا له من إنسان! كيف ينحدر إلى هذا الدرك؟ كيف يُضبَط في هذه الموبقاتِ، وفي هذه الأعمال البغيضة والأفعال المقيتة؟ أتعتقدون أنّ جميع المسيحيّين لا يُشبهونَه؟ ذاك هو معنى عبارة: «الذين يعرفونني فزعوا». أي، حتّى الذين يعرفوننا تمام المعرفة فقدوا الثقة بنا. وإذا لم تُعِنْكَ معرفتُك، هذا إذا كان لك معرفة، ستظنّ أنّ ما من أحدٍ يُشبِهُك. على أن المرء يستند إلى إدراكِه الذي في ذاتِه، وفي حياتِه الطبيعيّة يقول لنفسِه: أنت الذي ترتعب من أن يكون الآخرون أشرارًا، أفلست أنت نفسُك شرّيرًا؟ - كلّا، يُجيب الضمير. فإن لم تكن، فهل أنت وحدك بارٌّ؟ إحترز ألّا تتجاوز كبرياؤك فسادَهُم. معاذَ الله أن تكون وحيدًا. هو أيضًا، وقد أضنته رؤية الجمع الحاشد من الأثمة، يصرخ: «قتلوا أنبياءك وقوّضوا مذابحَك، وبقيت أنا وحدي، وقد طلبوا نفسي ليأخذوها» (٣ ملوك ١٩ : ١٠؛ رومة ١١ : ٣). فبماذا أجابه الربّ؟ - «إنّي أبقيت لنفسي سبعة آلاف رجلٍ لم تجثُ رُكَبُهم للبعل» (رومة ١١ : ٤). إذًا، يا إخوتي، فالدواء الشافي لشكوكِكم هو ألّا تظنّوا شرًّا بإخوتِكم. اتّضعوا وكونوا كما تريدونَهم أن يكونوا، ولن تظنّوا، بعدُ،

أنّ بوسعِهم أن يكونوا ما لستم أنتم عليه. ولكن، على الذين يعرفونَنا، والذين اختبرونا، أن يبقوا خائفين.

٨ - «الذين رأَوني هربوا عنّي» (٣٠: ١٢). الذين لم يعرفوني يستحقّون المغفرة، حتّى ولو ابتعدوا منّي. أمّا الذين رأوني، فقد ابتعدوا منّي. فإذا كان الذين رأوني هربوا إلى الخارج، بعيدًا منّي (ولو انّهم، بالمعنى الحصريّ للكلمة، لم يهربوا إلى الخارج، من حيث أنّهم لم يدخلوا البتّة، لأنّهم لو دخلوا لعرفوني، أي لعرفوا جسد المسيح وأعضاء المسيح ووحدة المسيح)؛ أقول، إذا كانوا يهربون عنيّ، فلا شيء أدعى إلى الأسف وقلّة الصبر من أن يهرب عني ذلك الجمع الذي رآني؛ أي بعد أن عرفوا ما هي الكنيسة، يذهبون خارجًا، ويؤلّفون ضدّ الكنيسة بِدَعًا وانشقاقات. اليوم، مثلًا، ترى إنسانًا وُلد عند الدوناتيّين، لا يعرف أين هي الكنيسة؛ يمكث في الديانة التي وُلِد فيها، ولستَ بقادرٍ على أن تنتزع منه ذاك الإيمان الذي رضِعه مع لبن مُرضعتِه. ولكن، هاتِ لي إنسانًا واحدًا يتصفّح الكتاب ويقرأه ويكرز به. أيُمكن ألّا يجد فيه هذه الكلمات: «سلني، فأعطيَك الأمم ميراثًا وأقاصي الأرض ملكًا لك»؟ (مزمور ٢: ٨). ألا يرى فيه هذه الآية: «ترتعدُ جميع أقطار الأرض وترجع إلى الربّ، وأمام وجهِه تسجد جميع شعوب المسكونة»؟ (مزمور ٢١: ٢٨). فإن رأيتَ هنا وحدة الكون بأسره، فلماذا تبحث في الخارج، فتَضلّ وتُضلّ الآخرين؟ «الذين رأوني»: أي الذين عرفوا ما هي الكنيسة وتأمّلوها في الكتب المقدّسة، «هربوا خارجًا وابتعدوا منّي». أتظنّون، يا إخوتي، أنّ جميع أرباب البِدَع في شتّى أنحاء العالَم، لم يرَوا في الكتب الإلهيّة أنّ الكنيسة لم يُبشّر بها إلّا على أساس أنّها الجماعة التي ينبغي أن تضمّ العالم بأسره؟ الحقّ أقول لكم، يا إخوتي: كلّنا، بالتأكيد، مسيحيّون،

أو أقلّه، كلّنا نحملُ اسم المسيح، وجميعُنا مختومون بختم المسيح؛ في كلام الأنبياء عن المسيح، من الغموض، فوق ما فيه عن الكنيسة. وإن لم أُخطئ، فذاك أنّ روح الله كان يكشف لهم أنّ البشر، سيُؤلّفون، في المستقبَل، فرقًا تقوم على الكنيسة، وتُثير في وجهِها صراعاتٍ عنيفة، وتستسهل قبول المسيح. لأجل ذلك، فإنّ النقطة التي كان لا بدّ أن تكون الأكثر مثارًا للخلاف، أُعلِنت، وحُدّدت بمزيد من الوضوح، لكي يُصبح هذا الوضوح شهادةً ضدّ الذين قرأوا تلك النبوءات، ومع ذلك، خرجوا عن الكنيسة.

٩ - لا أريد أن أورد إلّا مثلًا واحدًا. إبراهيم الذي هو أبونا، لا لأنّنا منه وُلِدنا، بل لأنّنا على إيمانِه، كان بارًّا ومُرضيًا لله؛ وأناله إيمانُه، في شيخوختِه، ابنًا سمّاه إسحق، كان الله وعدَه به من سارة امرأتِه (تكوين ٢١: ٢). أمره الله بأن يُضحّي بابنه هذا؛ ومن دون أن يتردّد، ومن دون أن يُفكّر، ومن دون أن يُعارض أمر الربّ، ومن دون أن يرى ضيرًا في الأمر الذي أصدره ذاك الإله الذي هو الجودة بذاتِها، اقتاد إبراهيم ابنه ليُقدّمه ذبيحة، وحمّله الحطب على كتفَيه. ولدى وصوله إلى الموقع المعيّن، رفع يده ليضرب عنق الصبيّ. وكان صوت الربّ إليه، فأخفض اليد التي امتثلت لأمرِه (راجع تكوين ٢٢). أطاع فهمّ ليضرب، وأطاع فانكفأ. أطاع على الدوام، ولم يكن في الحالَين هيّابًا. لكن، لكي تُتمّم الذبيحة، ولا يتمّ التراجع من دون أن تُبذَل الدماء، كان في الموقع كبشٌ تشابك قرناه في علّيقة، فنحرَه إبراهيم لكي يُتمّ الذبيحة. تأمّلوا في هذه الرواية: إنّها صورة رمزيّة ليسوع المسيح. فلندع النور ينبجسُ من خلال الحوار، ولنرفع الحُجُبَ لكي نرى ما تُخفيه. إسحق، ذاك الإبن الوحيد الحبيب، يُمثّل ابن الله. حمل الحطب كما حمل المسيح صليبَه (يوحنّا ١٩: ١٧)؛ والكبش

يرمز أيضًا إلى المسيح. فما يُمكن أن يعني الكبش العالق القرنَين، سوى المسيح المعلّق على خشبة الصليب؟ كان الكبشُ صورةً ليسوع المسيح. لكن، بعد الإعلان عن الرأس، كان ينبغي الإعلان عن الجسد، فيُبشَّرَ إبراهيمُ بالكنيسة؛ وهذا ما اراد الروح القدس، روح الله، أن يفعلَه مُقصِيًا الرّموز. بالرمز بشّره بالمسيح، وبالحقيقة بشّرَه بالكنيسة. فهاكم ما قالَه لإبراهيم: «لأنّك سمعت صوتي وأطعتَني، ولم تضنّ بابنك الوحيد لأجلي، لأُباركنَّك وأُكثِرَنَّ نسلَك كنجوم السماء وكرمل البحار... ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض» (تكوين ٢٢: ١٦-١٨). يتنبّأ الأنبياء عن المسيح، في كلّ مكانٍ تقريبًا، بالرموز، أمّا عن الكنيسة فيتنبّأون صراحةً، من أجل أن يراها الذين سوف يقومون في وجهِها، لكي يتحقّق فيهم الإثم الذي تنبّأ به المرنّم: «الذين رأوني هربوا عنّي». خرجوا من وسطِنا، يقول القدّيس يوحنّا بشأن الجاحدين، لكنّهم لم يكونوا منّا.

١٠ - «نُسيتُ كميّتٍ امّحى من القلب» (٣٠: ١٣). نُسيتُ. صرتُ نسيًا منسيًّا. الذين رأوني نسُوني كما لو كنت ميتًا في قلوبِهم. نُسيت كالميّت الذي امّحى من القلب، «وأصبحتُ كإناءٍ مُتلَف». لماذا أصبح كإناءٍ مُتلَف؟ - تلِف وبات لا يصلح لأحد. اعتبر نفسهُ إناءً. ولأنّه ما عاد يصلح لأحد، سمّى نفسَه إناءً متلَفًا.

١١ - سمعت المذمّة من المحيطين بي» (٣٠: ١٤). كثيرون هم الذين يُحيطون بي ويرشقونني بمذمّتِهم. أيّ لعناتٍ لا ينزلونَها بالمسيحيّين الأشرار! إنّها لعنات تقع على المسيحيّين كلّهم. هل يقصد من يذمّنا ويعيّرنا أن يقول: أنظروا ماذا يفعل المسيحيّون الأشرار؟ لا. بل يقصد أن يقول من دون تمييز: أنظروا ماذا يفعل المسيحيّون. لكن،

تلك هي لغة الذين يُحيطون بي، أي الذين يدورون حولي ولا يدخلون. لماذا يدورون ولا يدخلون؟ ذاك أنّهم يُحبّون دورة الزمن. لا يلجون الحقيقة لأنّهم لا يُحبّون الأبديّة. يتعلّقون بالزمنيّات، تعلّقهم بعَجَلَة. عنهم يقول النبيّ: «أللهمّ اجعلهم كالعَجَلة، كالعُصافة تلقاءَ الريح» (مزمور ٨٢: ١٤)؛ ويقول أيضًا: «والمنافقون يطوفون كمن يدور في حلقة» (مزمور ١١: ٩). «في مؤامراتِهم عليّ يتشاورن ليخطَفوا نفسي». ما معنى: «يتشاورون ليخطفوا نفسي»؟ - أي يحيكون الحبائل ليوقعوا بي في فسادِهم. والذين يلعنون الكنيسة لا يدخلون في كنفِها. قليلٌ أن نقول إنّهم لا يدخلون في كنفِها، بل إنّهم يسعون إلى إخراجنا منها بمكرِهم وأحابيلِهم. لكنّهم إذا أخرجوك من الكنيسة، فإنّهم يخطَفون نفسَك، ويُكبّلون إرادتَك. إذ ذاك تطوف حول الكنيسة ولا تدخلُ في كنفِها.

١٢ - أمّا أنا، الواقعَ في حمأة العار والشكوك والشرور والحبائل، ولا أرى في الخارج سوى الجَور، وفي الداخل سوى الفساد، أفتّش في كلّ مكانٍ عمّن أقتدي بهم فلا أجد، فماذا تُراني فعلتُ؟ وأيّ جانبٍ أخذتُ؟ «عليك توكّلت يا إلهي» (٣٠: ١٥). لا شيء أجلّ فائدة، ولا ملاذ آمَن! كنت تريد أن تقتدِي بمِثالٍ، فلم تعثر على مثالٍ صالح، فكُفَّ عن التفكير في الإقتداء به. بحثتَ عن ثانٍ، ولست أدري ما الذي لم يُرضِك فيه؛ بحثت عن ثالث فلم يُرضِك أكثر؛ هل ينبغي أن تَهلِك لأنّ لا هذا أرضاك ولا ذاك؟ كفَّ عن التوكّل على إنسان لأنّه: «ملعونٌ الرجل الذي يتوكّل على بشر» (إرميا ١٧: ٥). فما التوكّل على إنسان، والإقتداء به واتّباعه إلّا الاكتفاء باللبن قوتًا، والتشبّه بأطفالٍ لا يبتغون سوى الثدي حتّى ولو لم يعُد يُقيتُهم. إنّ ابتغاء الحليب، وطلب القوت عبر قناة الجسد، يعني ابتغاء العيش من إنسان.

كن، إذًا، في وضعٍ يُمكّنُك من الجلوس إلى المائدة، وكُلِ الطعام الذي يأكلُه، أو الذي لمٍ يأكلْه قطّ. لعلّه من المفيد لك ألّا تجد سوى امرئٍ شرّير في من كنت تحسبُه رجلَ صلاح، والّا ترضع من ذلك الثدي الذي كنت تطلبه مثل ثدي أمّك، إلّا مرارةً تصدّك عنه، لكي تدفعك تلك الخيبة إلى البحث عن غذاءٍ أكثر صلابةً. وهذا ما تفعلُه المرضعات كلّ يوم مع الأطفال الذين يصعب عليهِنّ إرضاعُهم. يضعن على أثدائِهِنّ مُرًّا، من أجل أن يرتدَّ الأطفالُ عن الثدي ويجلسوا إلى المائدة. فلنقُل، إذًا: «عليك توكّلت يا إلهي. قلتُ أنت إلهي». أنت وحدَك إلهي، وإليك عنّي يا دوناتُس! إليك عنّي يا سيقيلّيانُس. لا هذا إلهي ولا ذاك. لستُ باسم إنسانٍ أحيا، بل باسم يسوع المسيح أعتصِم. إسمع ما يقول القدّيس بولُس: «ألعلّ بولُس صُلِب لأجلِكم، أو باسم بولس اعتمدتُم؟» (١ قورنتس ١: ١٣). لهلكتُ لو كنتُ من حزب بولُس، فكيف بي لو كنت من حزب دوناتُس! «عليك توكّلت يا ربّ، قلتُ: أنت إلهي». أنت إلهي، وما إنسانٌ، أيّ إنسانٍ، بإلهي. إنسانٌ يتقدّم، وإنسانٌ يموت. ولا يعرف الله لا موتًا ولا تقدّمًا. كيف يتقدّم وهو الكمال؟ وكيف يموت وهو الأزليّ؟ «قلت للربّ: أنت إلهي».

١٣ - «في يدَيكَ نصيبي» (٣٠: ١٦). لا في أيدي البشر، بل في يدَيك. ما هو نصيبي؟ ولِمَ أدعوه نصيبًا؟ وكلمة نصيب يجب ألّا تقودَكم إلى التفكير بتأثير السحر. لا يحمل الحظّ شيئًا من السوء، غير أنّه، عند الشكّ، يوضحُ للبشر إرادة الله. الرسل أنفُسُهم اختاروا بالقرعة خليفةً ليوضاس الذي هلِك بعد أن خان المخلِّص، كما كُتِب عنه: «مضى إلى مكانِه». قدّم البشر اثنين، وأحدُهُما اختارته حكمة الله. لأنّهم صلّوا إلى الربّ ليُظهِرَ أيّهما اختار، فلمّا ألقوا القرعةَ،

وقعت القرعةُ على متّيّا (راجع أعمال ١: ٢٣-٢٦). فما معنى عبارة «في يدَيك نصيبي»؟ بمقدار ما لي من الرأي، أقول بأنّ الحظّ أو النصيب إنّما هو النعمة التي بها نخلُص. فلماذا تُعطى نعمة الله اسم «الحظّ»؟ لأنّه ليس في الحظّ اختيارٌ، بل إرادة الله. والحال فإنّ في القول بأنّ الله صنع العهد، اعتبارًا للإستحقاقات. وعندما توزَن الإستحقاقات، نصنع خيارًا، لا قُرعة. وعندما لا يجد الله فينا أيّ استحقاق، فإنّه يُخلّصُنا بقرعة إرادتِه، أي لأنّه يُريد خلاصَنا، لا لأنّنا كنّا نستحقّ الخلاص. ذاك هو الحظّ أو النصيب. لهذا اقترع الجنود على رداء الربّ المنسوج من فوق إلى تحت (يوحنّا ١٩: ٢٣)، رمز المحبّة الأزليّة الذي ما كان بوسع الجلّادين أن يقتسموه. والذين حصلوا عليه بالقرعة، هم أولئك الذين اقتسموا نصيب القدّيسين. «هي النعمة تُخلّصُكم بواسطة الإيمان، وذلك ليس منكم (وهذا هو الحظّ)، إنّما هو عطيّة من الله، وليس مربحًا من أعمالِكم» -كما لو انّكم صنعتم أعمالًا تجعلكم ذوي استحقاق- «ليس مربحًا من أعمالِكم، لئلّا يفتخِرَ أحدٌ. لأنّنا نحن، صنع يدَيه، خُلِقنا في المسيح يسوع للأعمال الصالحة» (أفسُس ٢: ٨-١٠). إنّ الحظّ، بهذا المعنى، هو إرادة الله خفيّة. إنّه حظٌّ تجاه البشر، حظٌّ ينبع من إرادة الله الخفيّة التي لا يسكنُها ظلمٌ (رومة ٩: ١٤). لأنّه لا يُحابي الناس، بل إنّ عدالتَه الخفيّة حظٌّ لكم.

١٤ - ضاعفوا انتباهكم، يا إخوتي، وانظروا كيف يُؤكّد القديس بطرس هذا التعليم. تعمّد سمعان الساحر على يد فيلِبُّس، وتعلّق به لإيمانه بالمعجزات التي كانت تتمّ أمامَه (أعمال ٨: ١٣)، واتّفق أن أتى الرسل إلى السامرة، حيث كان الساحر آمن واعتمد. ووضعوا أيدِيَهم على المؤمنين الذي اعتمدوا حديثًا، فنالوا الروح القدس،

وراحوا ينطقون بلغاتٍ عديدة. أخذتْ سمعانَ الدهشة لرؤية تلك المعجزة التي حلّ فيها الروح القدس على بشرٍ وضَع بشرٌ أيديهم عليهِم، فتمنّى أن تكون له تلك القدرة لا تلك النعمة: لا ما يُخلّصُه، بل ما يُرضي غرورَه. أضرمته تلك الرغبة، وامتلأ قلبه بالكبرياء وبالكفر الشيطانيّ، وبحبّ العظَمة الذي يستوجب القتل، فقال للرسل: «كم من الفضّة أعطيكم لكي أُنزِل الروح القدس على من أضع يدَيَّ عليهِم؟».
إنّ هذا الرجل الذي لم يكن يسعى إلّا إلى الزمنيّات، مكتفيًا بالطواف حول الكنيسة، كان يظنّ أنّ بوسعِه أن يشتري بالفضّة عطيّة الله. ظنّ أنّه بالفضّة يسود على الروح القدس، وأنّ الرسل سيكونون طمّاعين، كما كان هو كافرًا متكبّرًا. لكنّ بطرس قال له: «لتهلِك فضّتك معك لأنّك ظننت أنّ عطيّة الله تُقتنى بالفضّة. لا حصّة لك ولا نصيب في هذا الإيمان» (أعمال ٨: ٢٠، ٢١)، أي لا حظّ لك في النعمة التي نحن نلناها مجّانًا، لأنّك ظننت أنّك تستطيع أن تشتري بالفضّة عطيّة مجّانيّة. ولأنّ العطيّة مجانيّة، فهي نصيب. «لا حصّة لك ولا نصيب في هذا الإيمان». لقد تبسّطْتُ بعض الشيء، لئلّا توحيَ إليكم أيّ رعبٍ عبارةُ «في يدَيك نصيبي». ما هو ذلك النصيب؟ - ميراث الكنيسة. ما هي حدودُه؟ - أقاصي الكون. «سلني فأعطيك الأمم ميراثًا، وأقاصي الأرض ملكًا لك» (مزمور ٢: ٨). لا يأتِني، إذًا، أيّ إنسانٍ فيعِدني بأي نصيب. «في يدَيك نصيبي، يا إلهي». حسبُنا اليوم هذا، يا إخوتي، وغدًا، باسم الله ومعونتِه سنشرح لكم بقيّة المزمور.

عظة ثانية في المزمور الثلاثين

القسم الثالث: رجاء الصدّيق

أعداؤنا الذين علينا أن نُقاتِلَهم هم إبليس والمسيحيّون الفاسدون - التصدّي لإبليس، والإبتعاد عن الآخرين - التضرّع إلى الله - خزي الخطأة - ضرورة الإعتراف العلنيّ بيسوع المسيح - السعادة التي يُذيقُها الله للمتوكّلين عليه.

١ - بقي لنا أكثر بقليل من ثلث المزمور الذي شرحنا ثلثَيه الأوّلين، أرى لزامًا عليّ أن أُنهي شرحه اليوم. لذلك أرجو أن تعذروني إن لم أتوقّف طويلًا على الأمور الواضحة، لأهتمّ بما هو بحاجةٍ إلى شرح. في كثير من المقاطع يحضر المعنى في الذهن بصورة طبيعيّة، فيما تحتاج مقاطع أخرى إلى شيء من الإيضاح، كما أنّ هناك بعض المقاطع، ولو قليلة، تتطلّب الكثير من الإنتباه لكي تُفهَم. ولكي تقيسوا الزمن بالنسبة إلى قواكم وقوايَ، أنظروا معي، وتعرّفوا إلى النصوص الواضحة، وسبّحوا الربّ. صلّوا عندما يكون المزمور صلاةً، ونوحوا عندما ينوح، وابتهجوا عندما يفرح، وارجوا إذا رجا، وارتعدوا إذا كان يُعبّر عن رعدة. كلّ ما كُتِب فيه يجب أن يكون مرآةً لنا.

٢ - «أنقِذني من أيدي أعدائي، ومن مُضطهِدِيَّ» (٣٠: ١٦). فلنُصلِّ نحن أنفُسُنا هذه الصلاة، وليُصلّها كلّ واحدٍ ضدّ أعدائه. خيرٌ

لنا، بل من واجبِنا، أن نسأل الله أن يُنقِذَنا من أيدي مُبغضينا. لكن، لنذكر أيضًا أعداءَنا. علينا أن نصلّي من أجل مبغضينا، وأن نُصلّي ضدّ أعدائنا. يجب ألّا نحمل أيّ بغضٍ تجاه مُبغضينا، أيًّا كانوا. فإن أنت أبغضت من يُسيء إليك، كان ثمّةَ شرّيران بدلًا من شرّيرٍ واحد. فلنُحبّ، إذًا، حتّى الذي يضطهِدنا، لكي يبقى وحيدًا في شرّه. أمّا الأعداء الذين علينا أن نُصلّي ضدّهم، فهُم إبليس وملائكتُه الذين يحسدونَنا على ملكوت السموات، ولا يستطيعون أن يتحمّلوا ارتقاءَنا المراكز التي طُرِدوا منها؛ فلنسأَلْ أن تُنقَذَ نفسُنا من أيديهم. لأنّ البشر غالِبًا ما يُصبحون أدواتِهم حتّى في حقدِهم عليهِم. وعليه، يُنبّهنا القدّيس بولُس إلى الإحتياطات الواجب اتّخاذُها ضدّ هؤلاء الأعداء، نحن المسيحيّين المضطهَدين، الذين كان علينا أن نُقاسي الثورات حينًا، والأحابيل حينًا، وحينًا حقد البشر: «ليس عليكم أن تُقاتلوا ضدّ اللحم والدم، (أي ضدّ البشر)، بل ضدّ الرئاسات والسلاطين، وضدّ ولاة هذا العالَم» (أفسُس ٦ : ١٢). أيّ عالَم؟ أعالم السماء والأرض؟ - معاذ الله! لا رئيس لعالَم السماء والأرض إلّا الذي خلقَه. عن أيّ عالَم، إذًا، يريد أن يتكلّم الرسول؟ - عن الذين يُحبّون العالَم. لهذا أضاف هذا الشرح: «عالم الظلمة». وما الظلمة سوى الخطأة والكافرين! فعندما تركوا الكفر والخطيئة ليصيروا مؤمنين أتقياء، كلّمهم الرسول، قال: «لم تكونوا في الماضي سوى ظلمة، أمّا الآن فأنتم نورٌ في الربّ» (أفسس ٥ : ٨)، وعليكم أن تُقاتلوا ضدّ أرواح الشرّ المنتشرة في الهواء، ضدّ إبليس وملائكتِه. لا ترون أعداءَكم، وتقهرونهم، «أنقِذني يا ربّ من أيدي أعدائي ومُضطهِديَّ».

٣ - «أنر بوجهِك على عبدِك، وخلّصني برحمتِك» (٣٠ : ١٧).

قلنا بالأمس، هذا إذا كان الذين سمعوا عظة الأمس يذكرون، إنّ أبرز

مُضطهِدي الكنيسة هم المسيحيّون الذين يرفضون أن يسلكوا بحسب الإيمان. إنّهم عار الكنيسة، ويصبّون عليها جام حقدِهِم. صُدّهم، وامنعهُم من العيش في الفساد، وحذِّرهم أقلّ تحذير، فتراهم للحال يحوكون حبائل الإنتقام في قلوبِهم، ويتربّصون السانحة ليُفجّروها. وسط هؤلاء المسيحيّين ينتحب النبي، أو بالأحرى ننتحب نحن أنفسُنا، لأنّهم كُثُر، حتّى نكاد لا نميّز، وسط ذلك الجمع الغفير، سوى مؤمنين قلائل، كما لا نرى على البيدر سوى القليل من الحَبّ الجيّد الذي يفصلُه المُذرّي عن القشّ ليملأ به أهراء الربّ (متّى ٣: ١٢). وسطهم، إذًا، يقول النبيّ نائحًا: «أنر بوجهِك على عبدِكَ». ننظر فنرى عارًا أن يحمل جميع المسيحيّين، الذين يعيشون في القداسة، والذين يعيشون في الفساد، الاسم نفسَه، وأن يكونوا مختومين بالختم نفسِه، وأن يتقدّموا جميعُهم من المذبح نفسِه، وأن يكونوا جميعُهم مُطهّرين بالمعموديّة نفسِها، وأن يُردّدوا جميعهم الصلاة الربّيّة نفسَها، وأن يُشاركوا جميعُهم في الأسرار نفسِها. فمتى نعرفُ الذين ينتحبون، من الذين لأجلِهم يتصاعد النحيب، إن لم يُنر الربّ بوجهِه على عبدِه؟ لكن، ما معنى: «أنر بوجهِك على عبدِك»؟ - أرِهم أنّني أخصّك؛ واجعلْ ألّا يقوى المسيحيّ المنافق على القول بأنّه يخصّك، وإلّا باطلًا كان ما يقول المرنّم: «أحكم لي يا ربّ وافصل دعواي عن دعوى شعبٍ آثم» (مزمور ٤٢: ١). إنّ لعبارة «افصل دعواي» المعنى نفسه الذي لعبارة «أنر بوجهِك على عبدِك». إلّا أنّه، ومن أجل محو كلّ كبرياء، أو كلّ رغبة في إقامة بِرّ نفسِه، يُتابع فيقول: «خلّصني برحمتِك»، أي لا لبِرّي، ولا لاستحقاقاتي، بل برحمتِك. لا لأنّي مستحقّ، بل لأنّك رحيم. لا تُعاملني بقسوة ديّان، بل بعفوك وبجودك الذي لا ينضب. «خلّصني برحمتك».

٤ - «يا ربّ لا أخزَ، فإنّي دعَوتُك» (٣٠: ١٨). يُعطينا النبيّ الحجّة الأقوى لعدم خزيِه: «لأنّه دعاك يا ربّ». أفتُخيِّب رجاء من يدعوك؟ أتريد أن يُقال: «أين هو ذاك الإله، محطّ رجائِه»؟ لكن من ذا، مهما كان آثمًا، لا يدعو الربّ؟ فلو كان النبي لا يستطيع أن يقول، بطريقةٍ مميّزة عمّن عداه: «إنّي دعوتُك»، لما كان يجرؤ قطعًا أن يسأل في دعائِه مثل ذلك الثواب. فلعلّه كان يسمع، في فكره، الجواب الذي ردّ به الربّ عليه: لمَ تسألُني ألّا تخزى؟ لأيّ سبب؟ ألأنّك دعوتَني؟ أفلا يدعونني الناس كلّ يوم لكي يُتمّوا حتّى أفعالَ الزنى التي يُضمرونَها؟ ألا يتجرّأون فيدعون بالموت على الذين يُنازعونَهم الميراث؟ ألا يدعونني أيضًا، كلّ يوم، لكي ينجح الخداع الذي يُضمرونَه؟ لِمَ تؤسّس، إذًا، للثواب الجزيل الذي تطلبه، على هذا القول: «يا ربّ لا أخزَ فإنّي دعوتُك»؟ إنّهم يدعون الحقّ، يُجيب النبي، ولا يدعوننا نحن. تتضرّع إلى الربّ عندما تدعوه في ذاتِك؛ لأنّ التضرّع يكون في دعوتِه إلى الحلول فيك، وفي منزل قلبِك. لكنّك لن تجرؤ أن تدعو أب العائلة ذاك، إن لم تعرِف أن تُعِدَّ له منزلًا لائقًا. فليُجبكَ الربّ، إذًا، بقولِه: «ها أنذا، فأين أدخل؟ أإلى ضميرِك المحشوّ فسادًا؟ لو انّك دعوت أحقر عبيدي للدخول إلى بيتِك، أما كنت تهتمّ بتنظيفِه أوّلًا؟ وها أنت تدعوني إلى قلبِك وقلبك مملوءٌ غصبًا واختلاسًا. المكان الذي إليه تدعو إلهًا، مملوءٌ تجديفًا وزنىً واغتصابًا وخداعًا وشهواتٍ مُخزيَة، وإليه تُدخلُني!» كيف تكلّم النبيّ عن هؤلاء الناس في مزمورٍ آخر؟ - قال: «لم يدعوا الربّ» (مزمور ٥٢: ٦). لا شكّ في أنّهم طلبوا منه، إلّا أنّهم لم يدعوه. أجيب ببضع كلماتٍ على السؤال المطروح: لماذا يطلب الإنسان هذا الثواب الجزيل، عندما لا يستطيع أن يدّعي استحقاقًا سوى أنّه «دعا الله»، وعندما نرى أشرارًا

كثيرين يدعونه؟ ذاك هو السؤال الذي يجدر بنا أن نجد له جوابًا. لطمّاع أقول كلمة واحدة: أتدعو الله؟ ولِمَ تدعوه؟ - لكي يزيدَني ثراءً. إذًا، أنت تدعو الربح لا الربّ. إنّ الثراء الذي طالَما اشتهيتَه، لا يسعُك الحصول عليه، لا من عبدِك ولا عن طريق مُزارعِك، ولا من زبونك، ولا من صديقِك، ولا من خَدَمِك، لذلك تلجأ إلى الربّ، وتجعل من الربّ وسيطًا لأرباحِك. إنّك تُبالغ في استعباد الله. أتريد أن تدعوَ الربّ؟ - أدعُه مجّانًا. أقليلٌ أن يدخل الربّ فيك، على طمعِك؟ وإذا دخل بلا ذهب وبلا فضّة، ترفضُه؟ إذًا، بحقٍّ قال النبيّ: «يا ربّ، لا أخزَ، فإنّي دعوتُك». أُدعوا الربّ، يا إخوتي، إن كنتم لا تُريدون أن تخزَوْا. إن من ينطق بهذه اللغة يخشى خزيًا سبق أن تكلّم عنه في الآية الأولى: «إيّاك رجوت يا ربّ فلا أخزَ إلى الأبد». ولكي يحدد لنا بدقّة الخزيَ الذي يخشاه، فماذا أضاف بعد أن قال: «ياربّ، لا أخزَ فإنّي دعوتُك»؟ - قال: «ليخزَ المنافقون، وليهبطوا إلى الجحيم»، أي ليسقطوا في الخزي الذي سيكون أبديًّا.

٥ - «لتخرس الشفاه الكاذبة التي تنطق بالشتيمة على الصدّيق، بكبرياءٍ وازدراء» (٣٠: ١٩). الصدّيق هو المسيح. كم فاضت الشفاه عليه بالشتيمة وبازدراء صَلِف؟ من أين يأتي الصلف والازدراء؟ - جاء متواضِعًا فبدا للمتكبّرين مزدرى. كيف تريدون ألّا يزدري الناس المولعون بالكرامات، ذاك الذي أُذلّ بكثرة الإهانات؟ كيف لا يزدري عُشّاق الحياة، ذاك الذي أراد أن يموت؟ كيف لا يزدرون مصلوبًا، اولئك الذين يرون العارَ في موت الصليب؟ كيف لا يزدري أغنياءُ خالقَ الكون الذي يعيشُ الفقر في هذه الدنيا؟ كلّ ما يسعى إليه البشر بشوقٍ وشغف، امتنع عنه المسيح يسوع، لا لعجزِه عن امتلاكِه، بل لكي يوحي لنا امتناعُه عنه الازدراء: ولهذا تعرّض لاحتقار المولعين

بامتلاكه. كلّ مؤمن يُريد أن يسلك في دروب المسيح، وأن يقتدي بما يتعلّمه عن اتّضاع معلّمه الإلهيّ، سيُزدرى في المسيح، لأنّه عضوٌ في المسيح. الازدراء يسري، إذًا، على الرأس والأعضاء، وبالتالي على يسوع المسيح بكلّيّتِه، لأنّ البِرَّ في الرأس، كما هو في الأعضاء. وما دام يسوع المسيح مزدرى من المنافقين والمتكبّرين، فلتتِمَّ أقوالُنا فيهم، و«لتخرس الشفاه الكاذبة التي تنطق بالشتيمة على الصدّيق، بكبرياءٍ وازدراء». متى تخرس؟ أفي هذه الدنيا؟ - أبدًا. إنّها لا تني، كلّ يوم، تنفثُ بالسوء على المسيحيّين، وبخاصّةٍ على المتواضعين. لا تكفّ تلك الألسنة المنافقة عن النباح، كلّ يومٍ، شتمًا وتجديفًا، فتُذكي بذلك لظى العطش الذي سيُلهبُها في جهنّم، حيث تشتهي نقطة الماء فلا تحظى بها (لوقا ١٦: ٢٤). إذًا، ليس على شفاه المنافقين أن تخرس الآن. متى، إذًا؟ - عندما يقوم نفاقُهم في وجهِهم ليخزيَهم، كما كُتِب في سفر الحكمة: «حينئذٍ يقوم الصدّيقون بجرأة عظيمة في وجوه الذين ضايقوهم... فيقول هؤلاء بدورِهم: هؤلاء هم الذين كنّا نرشقُهم بالشتائم والإهانات... ها هم صاروا في عداد بني الله، وحظّهم مع القدّيسين! كنّا جهّالًا، ونحسب حياتَهم جنونًا» (حكمة ٥: ١-٥). عندَها، تخرس شفاه الذين، بالصلف والازدراء، ينفثون الشتيمة على الصدّيق. اليوم يقولون لكم: أين إلهكم؟ ماذا تعبدون؟ ماذا ترَون؟ تؤمنون وتتألّمون؛ ألمُكم حقيقيّ، أما رجاؤكم فلا. لكنّها ستخرس تلك الشفاه الكاذبة عندما نكون قد حصلنا على الخير الحقيقيّ الذي نرجوه.

٦ - وإليك ما يُضيف النبيّ بعد أن فرض الصمت على الشفاه الكاذبة التي تنطق بالشتيمة على الصدّيق، بصلفٍ وازدراء. إنّ الذي ينتحب على هذا النحو، نظر إلى نفسِه وإلى روحه، فرأى بعين القلب

خيور الله، رأى تلك الخيور التي لا تُرى إلّا في الخفاء، وليس بوسع المنافق أن يراها. رأى المنافقين ينفثون الشتيمة على الصدّيق بصلفٍ وازدراء، لأنهم لا يملكون عيونًا إلّا لرؤية خيور العالَم، لا لرؤية خيور الآخرة، التي لا يعرفون حتّى أن يتصوّروها في أفكارِهم. لكن، لكي يجعل الناس يُقدّرون خيور الآخرة، في وقتٍ يوصينا بالقبول بخيور الدنيا لا بالتعلّق بها، نسمعه يهتف: «ما أعظم عذوبتَك يا إلهي!» (٣٠: ٢٠). فليسألني المنافق هنا: وأين هو كنز العذوبة ذاك؟ وسأجيبُه: كيف لي أن أكشف كنز العذوبة، وحمأةُ الإثم قد أفقدتك الذوق؟ إن كنتَ لا تعرف العسل، فكيف لك أن تُشيد بحلاوتِه قبل أن تذوقه؟ لم يَعُدْ لقلبك حلقٌ يتذوّق هذا النوع من الخيور؛ فما العمل؟ كيف ندلّك عليها؟ لا أرى واحدًا أستطيع أن أقول له: «ذُق وانظر ما أطيب الربّ» (مزمور ٣٣: ٩). «ما أعظم كنز عذوبتِك، يا إلهي، الذي ادّخرتَه للذين يتّقونَك» (٣٠: ٢٠)، الذي حفظتَه لهم ولم تمنعه عنهم، فيبلغون وحدَهم إليه، لأنّه خيرٌ لا يسع الأبرار والأشرار أن يتشاركوا فيه. والأبرار يبلغون إليه بمخافة الله. وما دام فيهم خوفٌ، فإنّهم ما زالوا مُقصّرين ولم يصِلوا بعدُ، لكنّهم يأملون بأن يصِلوا، فيبدأون بالمخافة. لا شيء أطيب من حكمة لا تفنى؛ و«رأس الحكمة مخافة الله» (أمثال ١: ٧) وتلك الحكمة «تدّخِرُها للذين يتّقونَك».

٧ - «أذقتَها للذين يعتصمون بك أمام بني البشر» (٣٠: ٢٠). لم تُذِقهم إيّاها أمام بني البشر، بل أذقتَها للذين يتوكّلون عليك أمام بني البشر. أي أذقت حلاوتَك للذين يتوكّلون عليك أمام بني البشر. بهذا المعنى قال الربّ: «من يُنكرني قدّام الناس، أنكرُه أنا قدّام أبي» (متّى ١١: ٣٣). فإن كنت ترجو الربّ فارجُهُ قدّام الناس. لا تُخفِ رجاءَك في أعماق قلبك. لا تخشَ أن تعترف بأنّك مسيحيّ، حتّى قدّام الذين

يحسبونَها عليك إثمًا. لكن من ذا يُجرِّم اليوم لأنّه مسيحيّ؟ - قلائل، إلى حدّ أنّ لومنا لهم لأنّهم ليسوا مسيحيّين أيسر من لومِهم لنا لأنّنا مسيحيّون. غير أنّني أتجاسر فأقول لكم يا إخوتي: إبدأ أنت يا من تسمعني، إبدأ فعِشْ كمسيحيّ، وانظر إذا كنت لا تُعيَّر من أولئك المسيحيّين الذين هم مسيحيّون بالاسم فقط، لا بالعيش والسلوك. لا يسع أحدٌ أن يفهم كلامي ما لم يختبره. إسمع، إذًا، كلامي جيّدًا، وتأمّل فيه. أتريد أن تعيش كمسيحيّ؟ أتريد أن تسير على خطى مخلّصِك؟ فإذا عُيِّرتَ وخجلتَ، ودفعك خجلك الزائف إلى التخلّي عن كلّ شيء، تراك ضللت الطريق السويّ. يُخيَّل إليك أنّك «إذ تؤمن بالقلب تُبرَّر»، وفاتكَ «أن تعترف بالفم لكي تنال الخلاص» (رومة ١٠ : ١٠). فإذا كنت تريد أن تسلك في طريق الربّ، ينبغي أن تُظهِر رجاءَك حتّى قدّام الناس، وألّا تخجل من ذلك الرجاء. فكما أنّ الربّ يعيش في قلبِك، فليكن أيضًا على فمك، لأنّ المسيح لم يشأ عبثًا أن توسَم علامتُه على جبيننا مركز طهارتِنا؛ وذلك لئلّا يخجل المسيحيّ من عار المسيح. فإذا سلكت على هذا النحو أمام الناس، وإذا لم تخجل أمامَهم من المسيح، وإذا لم تنكر المسيح قدّام بني البشر لا بأعمالِك، ولا بأقوالك، فارجُ أن يُذيقَك الله حلاوتَه.

٨ - ما هي الآية التالية؟ «إنّك تسترُهم بستر وجهِك» (٣٠ : ٢١). ما هو ذلك المكان؟ لا يقول النبيّ: تسترهم في ستر سمائك؛ ولا في جنّتِك؛ ولا في حضن إبراهيم. ذاك أنّ الكتب المقدّسة تُطلق أسماءً عدّة على تلك الأمكنة التي سيسكنها القدّيسون في الآخرة. لا نرجوَنَّ أيّ ثوابٍ من غير الله. فليكن هو نفسُه مقرَّ سكنانا، ذاك الإله الذي يسهر علينا ونحن مقيمون في هذه الحياة: تلك هي اللغة التي سبق أن تكلّم بها المرنّم أعلاه: «كن لي إلهًا حافظًا، وبيت ملجأ» (٣٠ : ٢).

إذًا، سنُستَر بستر وجه الله. فهل لكم أن تنتظروا لأشرح لكم كيف يكون الستر في وجه الله؟ نقّوا قلوبَكم، لكي يستطيع أن يدخل إليها ويُنوّرَها ذاك الذي تدعونَه. كن أنت مقرًّا لسكناه في هذه الدنيا، يكن هو مقرَّ سكناك الأبديّ. ليسكن فيك، فتسكن فيه. إن أنت أخبأتَه، في هذه الحياة، في قلبك، يُخبئك هو في ستر وجهِه في الآخرة. «إنّك تستُرُهم»، يقول النبي. لكن أين؟ - «في ستر وجهك، من قلاقل الناس». لا قلق، بعدُ، للذين يسترهم ذاك الملجأ السرّيّ؛ لا قلق في ستر وجهِك. لكن، برأيكم، هل يجد الإنسان الذي يرى نفسَه، في هذه الدنيا، في مواجهة شتائم الآخرين، لأنّه يخدم يسوع المسيح، والذي يلجأ قلبُه إلى الله، متوكّلًا على جودتِه، نصيبَه الكافي من السعادة حتّى يجدَ في وجه الربّ ملجأً يُحصّنُه من مخاصمات الناس الذين يشتمونَه، وملجأً يشعر فيه بالسعادة؟ إنّه يدخل في وجه الله، إذا كان أهلًا للدخول فيه، أي إذا كان ضميره غير مثقَل، ولم يكن حِملًا لا يتناسَب مع ضيق البابْ. «أنت تسترهم في ستر وجهِك من منازعات الناس، وتصونهم في خيمتِك من مخاصمة الألسنة» (٣٠: ٢١). ذات يوم، تسترهم في ستر وجهِك، فلا يطالُهم بعدُ أيّ قلقٍ بشريّ. لكن، حتّى ذلك الحين، وفيما يتعرّض عبيدُك في رحلتِهم في هذه الحياة لمخاصماتٍ كثيرة، فماذا تصنع لأجلِهم؟ «تصونُهم في خيمتِك». ما هي تلك الخيمة؟ - إنّها كنيسة هذا العالَم التي تُدعى خيمة، لأنّها في ترحالٍ دائم على هذه الأرض. فالخيمة هي بيت الجنود في الحرب. تلك هي الخيمةُ، تحديدًا، غير أنّ البيت ليس خيمة. وعليك أنت أن تقاتل، ما دمت لست سوى جنديّ في حملة، حتّى إذا خرجت من ملجأ الخيمة، تلقى في البيت الترحيب المجيد. لأنّ السماء ستكون بيتك الأبديّ، إذا عشت القداسة في الخيمة. إنّها، إذًا خيمتك، يا ألله،

تُقدّمها ملجأً من مخاصمات الألسنة. لا نرى سوى ألسنةٍ مُخاصِمة، وهرطقات، وانشقاقات تنشر التعاليم، وحشدٍ من الألسنة التي تُخاصم العقيدة الصحيحة. أمّا أنت، فامضِ واطلب لك ملجأً في خيمة الربّ: إنخرِط في الكنيسة الكاثوليكيّة، ولا تبتعد عن قواعد الحقّ، تجد في تلك المظلّة ملجأً من مخاصمات الألسنة.

٩ - «تبارك الربّ لأنّه أظهر رحمتَه في المدينة التي تحضنني» (٣٠: ٢٢). ما هي تلك المدينة التي تحضنني؟ لم يكن شعب الله يسكن إلّا في اليهوديّة، التي بدت كأنّها في وسط العالَم. وفيها كان يُشاد باسم الربّ، وتُقام الإحتفالات لتسبيحه، وتُقدّم له الذبائح، وحيث كانت النبوءات تُخبرُ، بلا انقطاعٍ، بالمعجزات التي تتحقّق أمامَنا. كان ذاك الشعب، إذًا، يبدو كأنّه وسط العالَم. وهذا ما يسترعي انتباه النبيّ، فيرى أنّ كنيسة الله ستكون وسط الأمم، وأنّ كلّ الشعوب تحتضن الشعب اليهوديّ الحالّ في وسطهم. ويدعو تلك الشعوب المختلفة المدينةَ التي تحتضنه. حقًّا، إنّك أفضت، يا ربّ، رحمتك في أورشليم. فيها تألّم المسيح، وفيها قام، ومنها صعد إلى السماء، وفيها صنع معجزاتٍ كثيرة. لكنّك أبهى وأعجب، يا ربّ، لأنّك أفضت رحمتك في المدينة التي تحتضنُه، أي أنّك أنزلت عليه رحمتك ندىً على جميع الأمم، ولم تحبس عطرَك الذكيّ في أورشليم، كما في قُمقُم، بل حطّمت القمقم لكي يفوح العطر وينتشر في العالم، فيتم ما قيل في الكتاب: «اسمك طِيبٌ مُهراق» (نشيد الأناشيد ١: ٢). هكذا أفضت مراحمك في المدينة التي تحضنُني. والحال، فإنّ المسيح صعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وبعد عشرة أيّام أرسل الروح القدس (أعمال ١: ٩؛ ٢: ١-٤). وامتلأ التلاميذ من الروح القدس، وراحوا يكرزون بمُعجزات المسيح، فرُجِموا وعُذِّبوا وطُردوا (أعمال

٨: ١-٤). وكما لو انّهم أُقصوا، بشكلٍ من الأشكال، من تلك المدينة الفريدة، صاروا بالنار الإلهيّة كمشاعل مُضاءة ملتهبة، وحملوا إلى غابة العالَم حرارة الروح القدس ونور الحقيقة؛ وكان أن أفاض الله رحمتَه في المدينة الحاضنة.

١٠ - «أمّا أنا فقلت في انخطافي». تذكّروا عنوان المزمور. ذاك هو الإنخطاف الذي يتحدّث عنه النبيّ. تمعّنوا جيّدًا في الكلمات. فإليكم ما يقول: «أمّا أنا فقلت في انخطافي: ها أنذا قد طُرِحتُ بعيدًا عن عينيك» (٣٠: ٢٣). عبارة: «قلت في انخطافي» يقصد فيها: «قلت في جَزَعي». وجد نفسَه مذهولًا مرتاعًا، لا أدري أمام أيّ ضيق، لكثرة أسباب الضيق. رأى قلبَه مملوءًا جزعًا واضطرابًا، فصرخ: «ها أنذا قد انقطعت عن عينَيك». فلو كنت مستترًا بوجهك لما كنت أجزع. ولو كانت عينك إليّ لما ارتعت. لكن، كما كُتب في مزمورٍ آخر: «إذ قلتُ زلَّت قدمي، عضدتني رحمتُك يا ربّ» (٩٣: ١٨)، أضاف النبيّ: «إذ سمعتَ صوت تضرّعي». لأنّي اعترفت لك، باتّضاع، فقلت: «إنّي قد انقطعت من أمام عينَيك»؛ ولأنّي شكوت قلبي، من غير صلَفٍ، حين شعرتُ بأنّي أكاد أسقط في المحنة، وصرختُ إليك، فسمعتَ صوت تضرّعي. وهكذا يتحقّق ما أوردتُه من المزمور الآخر. لأنّ عبارة «قلت في جزَعي: إنّي انقطعت من أمام عينَيك»، توازي عبارة: «إذ قلتُ زلّت قدمي، عضدتني رحمتك يا ربّ». هذا كلّه تحقّق في القدّيس بطرس: رأى الربّ يمشي على المياه، فظنّه شبحًا. فصاح به الربّ: «لا تخف، إنّي أنا هو». فتشجّع بطرس وأجاب: «إن كنت أنت يا ربّ فمُرني لآتي إليك على المياه. بهذا أعرف إن كنت حقًّا أنت، إن استطعتُ على كلمتِك أن أفعل ما تفعل. فقال له الربّ: تعال»؛ فأصبحت كلمة الآمِر قوّةً للطائع. تعالَ، قال يسوع، فنزل بطرس من السفينة، وبدأ يمشي بلا

خوف لأنّه متوكّل على يسوع؛ لكنّ ريحًا عاصفة هبّت فألقت الرعب في قلبِه. «قلت في جزَعي: إنّي انقطعت من أمام عينَيك». ولمّا بدأ يغرق صرخ: يا ربّ، إنّي أكاد أغرق. فمدّ يسوع يدَه وانتشلَه وقال له: يا قليل الإيمان، لِمَ شكَكت؟ (متّى ١٤: ٢٦-٣٢). «قلت في جزَعي: إنّي انقطعت من أمام عينَيك». وعندما رأى أنّه سيهلك في البحر، أقرّ فقال: «سمعت صوت تضرّعي عند استغاثتي بك». هذه الاستغاثة بالله ليست استغاثة الصوت بل استغاثة القلب. كثيرون كانوا يتكلّمون بقلوبِهم فتخرس شفاهُهم، وكثيرون أيضا كانوا يتكلّمون بشفاهِهم فلا ينالون شيئًا، لأنّ قلوبَهم كانت بعيدةً جدًّا. فإذا كنت تُريد أن تصرخ إلى الله، فاصرخ من أعماق قلبِك، لأنّه من قلبِك يسمع الصوت. يقول النبيّ: «سمعت صوت تضرّعي عند استغاثتي بك».

١١ - بعد أن خاض ذاك الإختبار اللذيذ، إلامَ يدعونا النبيّ؟ - «أحبّوا الربّ أنتم يا قدّيسيه» (٣٠: ٢٤). كما لو انّه يقول لنا: آمنوا بتجربَتي؛ في الضيق دعوت الربّ، فلم يُخيّب رجائي. توكّلت على الربّ فلم أخزَ. أنار أفكاري وطمأنني عند اضطرابي. «أحبّوا الربّ أنتم يا قدّيسيه»؛ أي أحبّوا الربّ أنتم يا من لا تُحبّون العالَم، يا أصفياءَه. أأدعو من يحبّ المسرح أن يُحبّ الله؟ أأدعو إلى محبّة الله من يُحبّ التمثيل والإيماء، والميّال إلى السُكر، والمفتون ببهارج الدهر وبكل أباطيل العالَم وجهالات الضلال؟ أَحَبُّ إليّ أن أقول لهم: تعلّموا ألّا تُحبّوا، لكي تتعلّموا المحبّة؛ أعرِضوا لكي ترجِعوا؛ أفرغوا لكي تمتلئوا. «أحبّوا الربّ أنتم يا قدّيسيه».

١٢ - «فإنّ الربّ يطلب الحقّ» (٣٠: ٢٤). تعرفون، يا إخوتي، أنّنا نرى اليوم كثيرين ينغمسون في الشرّ، وكثيرين غيرَهم يتباهونَ في

كبريائهم، غير أنّ الربّ يطلب الحقّ، «ويُجازي مائة ضعفٍ الذين يُبالغون في العمل بالكبرياء». تحمّلوهم، إذًا، إلى أن تحملوهم إلى القبر. تحمّلوهم إلى أن تتخلّصوا منهم، لأنّ الله يطلب الحقّ ويُعاقب الذين لا يعملون إلّا بكبرياء. ولعلّك تقول: ومتى يُجازيهِم؟ - عندما يشاء. لكن، ثِق بأنّه سيفعل. لا تشُكَّ أبدًا في عدلِه. أمّا متى يُقيمُ عدلَه، فليس من شأنك أن تسدي المشورة إلى الله. بالتأكيد، سيطلب الحقّ، وسيجازي الذين يُبالغون في العمل بالكبرياء. سيجازي البعضَ في هذه الحياة، ونحن شهودٌ على ذلك، ونعترف بعدلِه. والحال، فإنّ الربّ عندما يُذلّ الذين يتّقونَه، فإنّ ذلّهم لا يُحطّمُهم، لأنّهم لم يُقصوا الله من قلوبِهم، والله نفسُه هو يرفعهم من ذلّهم. بدا أيّوب ذليلًا بعد أن مني بخسارة كلّ مقتناه وكلّ بنيه، أي بعد أن خسر الميراث والورَثة (راجع أيّوب ١). غدا من دون ميراث؛ والأدهى أنّه غدا بلا وارِث. لم يبقَ له سوى امرأته. وامرأتُه لم تكن له مصدر تعزية، بل بالأحرى أداة لإبليس (أيّوب ٢ : ٩). بدا ذليلًا. لكن انظروا: هل كان بائسًا؟ ألم يكن مستتِرًا بستر وجه الله؟ صرخ قائلًا: «عريانًا خرجتُ من جوف أمّي وعريانًا أعود إلى الأرض. الربّ أعطى، والربّ أخذ، فليكن اسم الربّ مبارَكًا (أيّوب ١ : ٢١). إنّها لؤلؤة التسبيح المصعّد إلى الرب. فما هو مصدرُها؟ الخارج فقرٌ، والباطن زاخرٌ بالكنوز. أمن شفتَيه تخرج دُرر التسابيح لو لم يكن الكنز مخفيًّا في القلب؟ يا أيهّا الذين تطمعون بالثروات، في القلب تكمن الكنوز التي عليكم أن تشتهوها، والتي لا تضيع منكم غرَقًا. عندما يُذلّ اولئك الناس، إحترزوا ألّا تحسبوهم بائسين، وإلّا كنتم في ضلال، لأنّكم لا تعلمون ثرواتِهم الباطنيّة. تحسبونَهم لاهثين وراء غنى العالَم؛ وحين يخسرون الغنى، لا تعودون ترون فيهم سوى البؤس. إحترزوا ألّا تحسبوهم بائسين، فإنّ

في داخلِهم يَنبوعَ فرح. معلّمُهم يسكن فيهم، وهو يرعاهم ويُعزّيهم في داخِلهم. وليست الزلّة وخيمةً، حقًّا، إلّا للذين يضعون رجاءَهم في هذه الحياة. إنزعوا عنهم ما يلمع في الخارج، فلا يبقى سوى دخان ضميرٍ شرّير. لم يعد لهم ما يُمكن أن يُعزّيَهم، ولا ما يمكن أن يفيض منهم إلى الخارج، ولا ما يُمكّنُهم من العودة إلى أنفُسِهم، فباتوا مفتقرين إلى كلّ مجدٍ دنيويّ، وإلى كلّ عطيّة روحيّة، وفي عوَزٍ مُدقِع. هكذا يُعامل الله كثيرين في هذا العالم، لكنّه ما هكذا يُعامل الجميع. فلو انّه لا يُعامل أحدًا هكذا، فستبدو العناية الإلهيّة في سبات؛ ولو انه يُعاقب الجميع، لبدا أنّ الصبر الإلهيّ قد عيل. أمّا أنت أيّها المسيحيّ، فقد خبرت الألم ولم تتعلّم الإنتقام. أفتريد، أنت أيها المسيحيّ، أن تنتقم، فيما المسيح لم يُنتقَم له بعدُ؟ إيّ إهانة لحقت بك ولم تُصِبه؟ أليس هو أول من تألّم لأجلِك، هو الذي لم يكن يستحقّ الألم؟ الشدّة تصهرك كما البوتقة تصهر الذهب. فإذا كنت ذهبًا لا قشًّا، فإنّ النار ستُشدِّدُك ولن تحوّلَك إلى رماد.

١٣ - «أحبّوا الربّ أنتم يا قدّيسيه، فإنّ الربّ يطلب الحقّ، ويُجازي الذين يُبالغون في العمل بالكبرياء» (٣٠: ٢٤). لكن، متى يُجازيهِم؟ - حبّذا لو يفعل اليوم! حبّذا لو أراهم أذلّاء معفّري الجباه! إسمع ما يلي: «تصرّفوا كرجال»، لا تدعوا أيديكم تهلك في الشدّة، ولا ركابكم تهون. «تصرّفوا كرجال، ولا تتزعزعْ قلوبُكم» تشجّعوا، إذًا وتقوَّوا لكي تتحمّلوا كلّ آلام هذه الحياة. ولكن، إلى من يوجّه النبيّ هذه الكلمات: «تشدّدوا ولتتشجّع قلوبُكم»؟ ألِلى المفتونين بالعالَم؟ أبدًا! فاسمع من هم الذين يُشجّعُهم: «أنتم يا جميع الذين ترجون الربّ».

عظة أولى في المزمور الواحد والثلاثين

الصدّيق الحقيقيّ

بالإثم حُبِل بنا كلُّنا. وبرّنا لا ندين به إلّا للنعمة التي تهبُنا العقل النيّر وقوّة الإرادة، وتجعلُنا نؤمن بكلمة الله ونجاهر بإيماننا. على أنّ إيمانَنا يقوم أساسًا على اليقين والإعتراف بأنّنا خطأة، وبأنّ الله هو الذي يُخلّصُنا.

١ - تعليم، لداود. (٣١: ١) مزمور لداود، مزمور للتعليم؛ لذلك التعليم الذي به نُدرك أنّ الإنسان لا يُخلَّص من الخطايا التي يعترِف بها بسبب استحقاقات أعمالِه، بل بنعمة الله.

٢ - «طوبى لمن غُفِرت معصيتُه وسُتِرت خطيئتُه» (٣١: ١)، أي لمن باتت خطاياه طيّ النسيان. «طوبى للرجل الذي لا يحسب الله عليه إثمًا، ولا ينفث فمه غشًّا» (٣٠: ٢)؛ أي لمن لا ينطق فمه بالبِرّ الباطل، فيما ضميرُه مُثقَلٌ بالآثام.

٣ - «هرِمت عظامي لأنّي لزمت الصمت» (٣١: ٣). لأنّ فمي لم ينطق باعتراف يكون فيه خلاصي (رومة ١٠: ١٠)، حوّل الزمن بأسي إلى هوان. «لكنّي صرخت النهار كلّه». كفرتُ فصرخت على الله بالشتائم، كأنّي أدافع عن خطاياي وأُبرّرَها.

٤ - «لثقل يدك عليّ نهارًا وليلًا» (٣١: ٤)؛ لأنّ ضرباتك انهالت

عليّ بلا انقطاع «حوّلتني آلامي كلّما وخزتني شوكة[١]». وخزتني شوكة ضميرٍ آثِم، فعرفت بؤسي، وشعرت بمصيبتي.

٥ - «سلاه». «عرفت خطيئتي فلم أكتم إثمي». أي لم أسعَ إلى إخفاء إثمي. «قلت: أعترف للربّ بمعاصيّ»، وأعزوها لنفسي لا لله، كما كنت أفعل عندما كنت أكتم إثمي. «وأنت غفرت معصية قلبي» (٣١: ٥)، إذ رأيت اعتراف قلبي قبل اعتراف شفتيّ.

٦ - «لذلك يُصلّي إليك كلّ صفيٍّ في أوان النوال» (٣١: ٦). كفرُ القلب يُصعّد إليك صلاة الأصفياء؛ لأنّه ما من أحدٍ يتقدّس لأجل استحقاقاتِه، بل في أوان النوال، أي عند مجيء ذاك الذي افتدانا من معاصينا. «وفي غمر المياه الغزيرة لا يبلغ البشر إلى الله». لا يتصوّرَنَّ أحدٌ، عندما يُباغتُنا اليوم الأخير، كما حصل في أيّام نوح، أنّه سيبقى للناس متّسعٌ من الوقت ليعترفوا بمعاصيهم ويتقرّبوا إلى الله.

٧ - «أنت ملاذٌ لي تقيني من الضيق الذي يكتنفُني» (٣١: ٧). أنت ملاذي الذي يُحصّنُني من جور معاصيّ التي تُضيّق على قلبي. «أنت فرحي، فنجّني ممّن يُغيرون عليّ[٢]». أنت فرحي، فنجّني من الأسى الذي تسبّبه لي معاصيَّ.

---

(١) في العبريّة: נֶהְפַּךְ לְשַׁדִּי - בְּחַרְבֹנֵי קַיִץ أي تحوّلت غضاضتي إلى قحلِ القيظ. (بمعنى جفّت فيّ الحياة كمن أيبسته شدّة الحرارة). وفي السبعينيّة: ἐστράφην εἰς ταλαιπωρίαν τῷ أي كلّما انغرزت فيّ شوكة، أعود إلى بؤسي. وفي الفولغاتا: conversus sum in aerumna mea; dum configitur mihi spina أي تحوّلت في شدّتي عندما كانت شوكةٌ تخِزُني. (أو: تحوّلت إليك في ضيقي عندما وخزتني شوكة).

(٢) بهذا المعنى في السبعينيّة τὸ ἀγαλλίαμά μου, λύτρωσαί με ἀπὸ τῶν κυκλωσάντων με وكذلك في الفولغاتا: exultatio mea erue me a circumdantibus me وفي العبريّة: רָנֵּי פַלֵּט ; תְּסוֹבְבֵנִי أي بترانيم الخلاص تُحيطني.

٨ - «سلاه» جواب الله. «إنّي أعلّمك وأُرشدُك في الطريق الذي تسلكه» (٣١: ٨). لقاء اعترافِك، سأعلّمك لئلّا تبتعد عن الطريق الذي سلكتَه، ولئلّا تسعى لتكون سيّد نفسِك. «وعيناي ترعيانِك». وأثبّتُك في محبّتي.

٩ - «لا تكونوا كالفرس والبغل بلا فهم» (٣١: ٩). لهذا يبتغون أن يقودوا أنفسَهم. ويتابع النبيّ فيقول: «شُدَّ أحناكهم بالرسن واللجام» إجعل لهم يا ربّ ما يُجعَلُ للفرس والبغل، وبالتأديب أخضِعهُم ليحملوا نيرَك، «أولئك الذين يرفضون أن ينقادوا لك».

١٠ - «ما أكثر أوجاع المنافق!» (٣١: ١٠). لا بدّ من أن يُجلَد ذاك الذي يرفض أن يعترف لله بمعاصيه، ويريد أن ينقادَ لنفسِه. «أمّا المتوكّل على الربّ، فالرحمة تكتنفه». أمّا الذي يتوكّل على الله وينقاد إليه، فإنّ رحمة الله تغمره.

١١ - «إفرحوا وابتهجوا بالربّ أيّها الصدّيقون» (٣١: ١١). لا بأنفسِكم بل بالربّ افرحوا وابتهجوا. «وافتخروا به يا مستقيمي القلوب». افتخروا به جميعُكم، أنتم أيّها الذين تعرفون أنّه من البِرّ أن ننقاد إليه، لكي نُفضّل على الآخرين.

عظة ثانية في المزمور الحادي والثلاثين

عظة في الشعب - الإيمان والأعمال

بالإيمان والأعمال الصالحة ننال الخلاص - تعليم بولُس ينسجم مع تعليم يعقوب - إيمان إبراهيم - لا قيمة لكلّ عمل يسبق الإيمان - القدّيس بولس منسجمٌ مع نفسِه - طوبى للرجل الذي غُفِرَت له خطاياه - نتنائيل تحت التينة - فلنعترف بمعاصينا، كالعشّار - مياه الحكمة - استقامة القلب.

١ - على الرغم من ضعفي، عزمت على أن أعرض لمحبّتكم، يا إخوتي، المزمور الذي يُعطينا فيه القدّيس بولس الرسول، بنوع خاصّ - كما استطاعت أن تُثبتَه لكم القراءة التي تليت عليكم للوقت - دليلًا على أنّ نعمة الله وتبريرنا لا يتحقّقان بفضل استحقاقاتِنا، بل بفضل رحمة الربّ إلهنا الذي يرفدنا بها. أبدأ فأوصيكم بأن تساندوا ضعفي بصلواتكم كما قال الرسول، «حتّى يفتح الله فمي ويهبَني أن أكلّمَكم» (أفسُس ٦: ١٩) كلامًا لا يقع عليَّ منه أي خطر، ويكون لكم خلاصيًّا. والحال، فإنّ النفس البشريّة القلقة والحائرة بين الإعتراف بسقمها والإدّعاء بقوّتِها، ترتطم، في معظم الأحيان، يمينًا ويسارًا، حتّى إذا انجذبت إلى هذه الجهة أو تلك، تعرّضت لخطر السقوط في هاوية. والحال، فإنّها إذا ادّعت الضعف، ومالت إلى القول بأنّ رحمة الله لا بدّ من أن تشمل جميع الخطأة مهما بلغوا من فسادٍ، شرط أن

يؤمنوا بأنّ الله يغفر لهم ويُنجّيهم، فلا يهلكَ خاطئ من بين المؤمنين الذين يقولون في أنفُسِهِم: مهما فعلتُ، وبأي موبقة تلوّثتُ، ومهما كثرت معاصيَّ، سيُخلّصني الربّ برحمتِه لأنّي أؤمن به؛ أقول، إذا مالت إلى القول بأنّ أيًّا من أولئك الأثمة لن يهلك، تكون قد مالت إلى التفكير الآثم بأنّ الخطيئة لا تُجازى. والله العادل الذي يُشيد المزمور برحمتِه وبعدلِه، لا برحمتِه فحسبُ، بل بعدلِه أيضًا (راجع مزمور ١٠٠ : ١)، يجد ذلك الإنسان مملوءًا ادّعاءً آثمًا، ويُفرّط في الرحمة الإلهية لهلاكِه، فلا يسعه إلّا أن يدينه. إنّ مثل هذا التفكير يقود الإنسان إلى هوّة خطرة. أمّا إذا اتّفق أن ارتعب أحدهم من ذلك الخطر، واكتفى بالتوكّل على نفسِه، وتجرّأ فتباهى ببِرّه وقوّتِه، وعزم على أن يُتمّ بنفسِه كلّ برّ، وعلى أن يحفظ حفظًا دقيقًا ما توصي به شريعة الله، فلا يُخالفها بشيء؛ وإذا رأى نفسَه أنّه حقًّا سيّد حياتِه فلا يسعُه أن يزلّ أو يهون أو يعثُر أو يضلّ، ويعزو كلّ ذلك إلى قوّة إرادته؛ فحتّى ولو أتمّ ما يبدو بِرًّا في نظر الناس، ولم يظهر في حياتِه ما يستوجب اللوم، فسيجازيه الله على هذا الإدعاء وذلك التباهي المتعجرف الباطل. فماذا يحدث إذا زعم الإنسان أنّه بارٌّ وتباهى ببِرِّه؟ - يزلّ. وإذا تيقّن من ضعفه، واتّكل على رحمة الله، فأهمل تنقية حياتِه من معاصيه، وغرق في لجّة الرذيلة، فإنّه يزّل أيضًا. خطرٌ عن اليمين إذا ادّعى البرّ، وخطرٌ عن اليسار إذا رجا العفو. فلنسمع صوت الربّ يقول لنا: «لا تمِل يمنةً ولا يُسرة» (أمثال ٤ : ٢٧)، لا تتّكل على برّك لتأملَ في السماء، ولا على رحمة الله لتخطأ. ينبغي أن تنأى بك الوصيّة الإلهيّة عن تلك المهلكة المزدوِجة: عن علوّ الكبرياء، وعن هوّة المعصية. إرتفاعُك في الكبرياء يستدعي سقوطك، وانغماسُك في المعصية يؤدّي إلى غرقِك. «لا تمل، إذًا، يقول الحكيم، لا يمنةً ولا يُسرة». أعود فأقول

لكم كلمة، أحفروها في قلوبِكم: لا تتّكلوا على برّكم لكي ترجوا السماء، ولا على رحمة الله لكي تخطأوا. فما العمل؟ المزمور يُعلّمنا، وأرجو، بمعونة الله، بعد أن قرأنا المزمور وشرحناه، أن نعرف الطريق الذي ينبغي أن نسلكَه، أو الذي سبق أن سلكنا فيه. فليُصغِ كلّ واحدٍ منّا بحسب قدراتِه، وليتُب، إنطلاقًا من شهادة ضميرِه، إذا كان يحتاج إلى إصلاح، أو فليبتهج إذا لقي رضاءً. إذا تبيّن له أنّه ضلّ الطريق، فليعد إلى الطريق القويم. وإذا رأى أنّه في الطريق القويم، فليمضِ فيه لكي يبلغ الغاية. لا يُكابر من كان خارج الطريق، ولا يتوانَ من سلكَها.

٢ - تؤكّد لنا كلمات القديس بولس التي تلوناها عليكم كأمثولة أنّ هذا المزمور يتكلّم عن النعمة التي تجعلنا مسيحيّين. إليكم ما قاله الرسول بوجه الذين يتباهَون بأنّ البرّ يكون بالأعمال ليؤكّد على أنّ البرّ يكون بالإيمان: «لعلّنا نقول، ماذا نال إبراهيم أبونا بحسب الجسد؟ فلو كان إبراهيم قد بُرِّرَ بالأعمال، لكان له فخرٌ، لكن لا عند الله» (رومة ٤ : ١-٢). ألا جنّبنا الله مثل هذا الإفتخار، ولنقبل بالأحرى هذا الكلام: «من افتخرَ فليفتخِر بالربّ» (١ قورنتس ١ : ٣١). والحال، فإنّ كثيرين يستطيعون أن يفتخروا بأعمالِهم؛ وتجدون عددًا لا يُستهان به من الوثنيّين يرفضون أن يصيروا مسيحيّين، لأنّهم يعتقدون بأنّه يكيفهم صلاح حياتِهم. يقول الوثني: حسبي أن أعيش في الصلاح؛ ماذا يستطيع المسيح أن يُعلّمني؟ الحياة الصالحة؟ - حياتي صالحة، فما حاجتي إلى المسيح؟ لا أقتل، ولا أسرق، ولا أنهب، ولا أشتهي مقتنى غيري، ولا أتدنّس بزنى. فليجدوا في حياتي ما أُعاب عليه، ومن حُقّ له أن يعيّرَني ، بوسعه أن يفرض عليّ أن أصير مسيحيًّا. بوسع هذا الإنسان أن يفتخِر، لكن لا أمام الله. لم تكن هذه

حال أبينا إبراهيم. تلك هي النقطة التي يلفت الكتاب اهتمامنا إليها. لأنّنا نجاهر ونؤمن بأن ذلك البطريرك القدّيس عرف أن يكون مرضيًّا لله، ونحن على يقين من أنّه افتخر أمام الله. يُحلّل الرسول فيقول: نعلم علم اليقين أنّ إبراهيم افتخر أمام الله؛ لكن، لو انّ إبراهيم بُرّر بأعمالِه، لكان له ما يفتخر به، لكن لا أمام الله. والحال، فإنّه افتخر أمام الله؛ إذًا، لم يُبَرَّر بأعمالِه. وإذا كان لم يُبرَّر بأعمالِه، فمن أين نال البرّ؟ يُتابع الرسول فيجيب: «ماذا يقول الكتاب؟» أي إلى من يعزو الكتاب تبرير إبراهيم؟ «آمن إبراهيم بالله، فحُسب له ذلك بِرًّا» (رومة ٤ : ٣؛ تكوين ١٥ : ٦). إذًا، بالإيمان بُرّرَ إبراهيم.

٣ - وعلى من يؤمن بأنّ التبرير يكون بالإيمان لا بالأعمال، أن يتفادى هوّة أخرى سبق أن حذّرتُ منها. يقول: ها إنّ إبراهيم بُرّر بالإيمان لا بالأعمال، فلأعِش، إذًا، كيفما يطيب لي، حتى ولو لم آتِ أيّ عمل صالح، شرط أن أؤمن بالله، فيُحسبُ لي إيماني برًّا. فإذا قال هذا وأراد أن يفعلَه، فقد سقط في الهوّة. حتّى ولو ساورته تلك الفكِرة وبقي في الريبة، فإنّه مقيمٌ في خطر السقوط. لكنّ كلام الله، إذا فُهم فهمًا حقيقيًّا، ليس بوسعه فقط أن يلتقط من كان على شفا الهوّة، بل أن ينتشل أيضًا من سقط فيها. أجيبُ، إذًا، إن صحّ القول، على نقيض القدّيس بولس، وأنقل عن إبراهيم ما نقرأه في رسالة رسولٍ أيضًا، كان يريد أن يُصحّح المعنى للذين أساؤوا فهم بولس. ففي تلك الرسالة، أراد القدّيس يعقوب، أن يضحد القائلين بالإيمان دون الأعمال، فأشاد بأعمال إبراهيم الذي أعلى بولس إيمانَه (يعقوب ٢ : ٢١-٢٣). وليس القديسان على طرفَي نقيض. فالقديس يعقوب يُخبر بالعمل الذي يعرفه الجميع، وهو أنّ إبراهيم ارتضى تقديم ابنه ذبيحةً لله؛ وذاك عملٌ جليل، حقًّا، لكنّ أساسه الإيمان. أمتدح ما بدا لي من العمل، لكنّني

أعترف بأنّ أساسه الإيمان. أمتدح ثمرة العمل الصالح، لكنّني أراها تنبت على جذور الإيمان. فلو انّ إبراهيم أتى عَملَه بعيدًا عن الإيمان الحقيقيّ، لأتى عمله بلا نفع مهما بلغت جدارتُه. وعلى العكس، لو انّ إيمان إبراهيم، حين أمره الربّ بذبح ابنه، زُيِّن له أن يُجيب في نفسِه: لن أطيع، لكنّي أؤمن بأنّ الله سيعتبرني بارًّا على الرغم من ازدرائي أوامره، لكان إيمانه من دون الأعمال إيمانًا ميتًا، وشجرة عقيمة يابسة.

٤ - ماذا إذًا؟ أيستحيل أن يكون ثمّة عملٌ صالح قبل الإيمان، أي أيستحيل على إنسانٍ أن يأتي عملًا صالحًا قبل أن يؤمن؟ - لا؛ لأنّ جميع الأعمال التي سبقت الإيمان، مهما بدت مجيدةً في أعين البشر، تبقى أعمالًا باطلة. برأيي، إن هذا إلّا هدرٌ كبيرٌ للقوى، وسباقٌ سريعٌ جدًّا خارج الطريق الصحيح. فلا ينسبَنَّ أحدٌ لنفسِه أعمالًا صالحة قبل الإيمان؛ لم تكن توجد أعمالٌ صالحة حيث لم يكن إيمان. إنّما قيمة العمل في النيّة، والنيّة يقوِّمُها الإيمان. فلا تقفوا عند العمل الذي يأتيه إنسان، بل عند الغاية التي يضعُها نصب عينَيه، ويرغب في الوصول إليها عن طريق توجيه جميع جهوده بمهارة. لنفترض أنّ ربّانًا يقود سفينته بمهارة، لكنّه لا يعرف إلى أين يُبحِر، فأي فائدة يجني من الإمساك بالدفّة، وإدارتِها بمهارة، وشقّ الأمواج بالمجاذيف، وتجنيب سفينته الصدمات؟ ولنفترض أنّه قادرٌ، بما يملك من مهارة، على أن يُدير الدفّة والسفينة على هواه، ويُسأل: إلى أين تمضي بنا؟ ويجيب: لا أعرف، أو حتّى إن لم يقل: لا أعرف، أجاب: أقصد ذاك الميناء، فإذا به يجري ليرتطم بالصخور؛ أليس من المؤكّد أنّ ذاك الإنسان بقدر ما يظنّ نفسَه ماهرًا وقادرًا على قيادة السفينة، بقدر ما تحمل مناوراتُه الخطر وتُعجّل الغرق؟ كذاك هو الإنسان الذي يمضي في عَدْوِه خارج

الطريق السويّ. أمَا كان أولى بذلك الربّان أن يتحلّى بحماسة أقّل، وبمهارة أقلّ على إدارة الدفّة، وأن يتّبع الطريق الآمن والصحيح؟ أما كان أولى بذاك الربّان أن يقود سفينتَه بتروٍّ أكبر وبجهدٍ أكبر، ولكن، في الطريق الصحيح، بدلًا من أن يمضي مُسرِعًا خارج الطريق؟ الإنسان الكامل هو ذاك الذي ينطلق في الطريق الصحيح ويسلك فيه بإقدام. وفي المرتبة الثانية، وبرجاء صالح، يأتي الإنسان الذي يتعثّر قليلًا، ولكنّه لا يضلّ؛ لا يتوقّف في الطريق، لكنّه يتقدّم بخطًى وئيدة. والحال، فإنّ بوسعِنا أن نأمل بأنّه سوف يبلغ غاية مسيرتِه، ولو متأخِّرًا.

٥ - إذًا، يا إخوتي، بالإيمان بُرِّر إبراهيم؛ لكن، إذا كانت أعماله لم تسبق إيمانه، فقد تبعته، على الأقلّ. أفيجب أن يبقى إيمانُكم عقيمًا؟ - لن يكون عقيمًا إلّا إذا كنت أنت عقيمًا، وقمت بأفعالٍ سيّئة، وأحرقت بنار مكرِك جذور إيمانك. فاثبت راسخًا في إيمانِك، لكي تعمل. لعلّك تقول: ما هكذا قال القديس بولس. أنت مُخطئ. يقول لك القدّيس بولس: «هو الإيمان يعمل بالمحبّة» (غلاطية ٥ : ٦)، وفي مكانٍ آخر: «المحبّة هي كمال الشريعة» (رومة ١٣ : ١٠). وفي مكان آخر أيضًا: «الشريعة تُختَصَر بوصيّة واحدة: أحبب قريبك كنفسك» (غلاطية ٥ : ١٤). فانظر إذا كان الرسول لا يريدك أن تنكبّ على فعل الأعمال الصالحة، هو الذي يقول لك: «لا تزنِ، لا تقتُل، لا تشتهِ شرًّا» وسواها من الوصايا التي تُختصر بوصيّة واحدة: أحبب قريبك كنفسك. المحبّة لا تصنع شرًّا بالقريب، والمحبّة هي كمال الشريعة (رومة ١٣ : ١٠). أتسمح لك المحبّة بأن تؤذي من تُحبّ؟ لكن، لعلّك تكتفي بألّا تصنع له لا شرًّا، ولا خيرًا. أسألك: أيمكن أن تسمح لك المحبّة بألّا تصنع ما تقدر عليه لمن تحبّ؟ أليست تلك المحبّة هي التي تُصلّي من أجل الأعداء؟ فهل يتخلّى عن صديق ذاك الذي يُصلّي لعدوّ؟

لذلك يكون الإيمان بلا أعمال، إذا خلا من المحبّة. لكن، لئلّا يزيد انشغالك بشأن أعمال الإيمان، ضمَّ إلى الإيمان الرجاءَ والمحبّة، ولا تقلق بشأن أعمالك. فالمحبّة لا يسعُها أن تبقى بلا عمل. والحال، فما هو الدافع إلى كلّ عملٍ بشريّ، حتّى السيّء، سوى المحبّة؟ جِد لي حبًّا عقيمًا؛ جِد حبًّا بلا عمل. الجرائم وأفعال الزنى والجور والقتل وكلّ أشكال الفجور، أليست كلّها من عمل الحبّ؟ طهّر حبَّك، إذًا، وجُرَّ إلى حديقتِك تلك المياه التي تصبّ في المجارير. وليمِل اندفاع حبّك إلى خالق العالَم بدلًا من أن يميل إلى العالَم. هل قال لكم أحدٌ: لا تحبّوا شيئًا؟ - قطعًا لا. إن أنتم خلوتم من الحب، خلوتُم من الحياة، وصرتم جمادًا مقيتًا وبائسًا. أحبّوا، لكن تبصّروا في ما تحبّون. ندعو حبًّا محبّة الله ومحبّة القريب، أمّا حبّ العالم وحبّ الدهر فندعوه شهوة. إكبحوا الشهوة ونمّوا المحبّة. لأنّ المحبّة تُعطي صانع الخير الأمل في ضمير نقيّ. فالضمير النقيّ يحمل الرجاء. وكما أنّ الضمير السيّء قابعٌ في اليأس، فإنّ الضمير الصالح يقتات بالرجاء. هكذا تكون الفضائل الثلاث التي يتكلّم عنها الرسول: الإيمان والرجاء والمحبّة (١ قورنتُس ١٣: ١٣). وفي مكانٍ آخر أيضًا، يذكر هذه الفضائل الثلاث، لكنّه يستبدل الرجاء بالضمير الصالح، فيقول: «تلك غاية الوصايا». لكن ما هي غاية الوصايا؟ هي ما يُضفي عليها كمالها، لا ما يُبطِلُها. فقولك: بلغت غاية خبزي، يختلف عن قولِك بلغت غاية الثوب الذي أنسجُه. «بلغتُ غاية خبزي» تعني أنّه لم يعد لديّ خبزٌ؛ و«بلغتُ غاية ثوبي»، أنّني أنجزت نسجَه. وفي الحالَين هناك غاية أو نهاية. فعندما يتكلّم الرسول عن غاية الشريعة لا يقصد ما ينقضُها، بل ما يُكمّلُها بالتمام؛ لا التدمير الذي يُنهيها، بل الكمال الذي يُنجِزُها. الغاية التي يشير إليها هي نتيجة ثلاثة أمور. يقول: «غاية الشريعة هي

المحبّة التي تنبع من قلبٍ طاهر وضميرٍ صالح وإيمانٍ لا رياء فيه» (١ طيموتاوس ١ : ٥). والضمير الصالح، هنا، يعني الرجاء، لأنّ الرجاءَ يكون في من ضميرُه صالح. لكنّ الإنسان الذي ينهشُه الضمير الآثم يفقد الرجاء، ولا يرجو إلّا دينونته. فعلى من يرجو السماء، أن يكون ذا ضمير صالح، ولكي يكون ذا ضمير صالح، فليؤمنْ ويعملْ أعمالًا صالحة. يقينه من الإيمان، وأعمالُه من المحبّة. لهذا يضع الرسول الإيمان أوّلًا، فيقول: «الإيمان والرجاء والمحبّة» (١ قورنتُس ١٣ : ١٣)؛ وفي مكانٍ آخر يبدأ بالمحبّة فيقول: «غاية الشريعة المحبّة التي تنبع من قلبٍ طاهر وضميرٍ صالح وإيمان لا رياء فيه» (١ طيموتاوس ١ : ٥). أمّا نحن فنبدأ أحيانًا من الوسط، من الضمير الصالح أو الرجاء. أكرّر فأقول: من أراد أن يكون له رجاءٌ مقدّس فليكن طاهر الضمير، ولكي يكون طاهر الضمير، فليؤمن ويعمل. اليقين من الإيمان والأعمال من المحبّة.

٦ - بأيّ معنًى، إذًا، يقول الرسول إنّ الإنسان يُبرَّر بالإيمانْ من دون الأعمال الذي تسبقه (رومة ٣ : ٢٨)، فيما يقول في مكان آخر: «الإيمان يعمل بالمحبّة» (غلاطية ٥ : ٦). لا نواجهنَّ بولس بيعقوب، بل بولس بنفسِه، ولنقُل له: من جهة تسمح لنا بأن نخطأ من دون أن نعاقَب عندما تقول: «نحن نؤمن بأنّ الإنسان يُبرَّر بالإيمان من دون الأعمال» (رومة ٣ : ٢٨)؛ ومن جهة أخرى تقول: «هو الإيمان يعمل بالمحبّة» (غلاطية ٥ : ٦). فكيف يكون لي أن أكون كأنّي في أمان، من دون أن آتي أيّ عملٍ صالح؛ وكيف يبدو أنّي لا أستطيع أن أمتلك لا الرجاء ولا الإيمان الكافي، إن لم أعمل بالمحبّة؟ تلك هي كلماتك أيها الرسول العظيم. أنت تريد هنا، بالتأكيد، أن توصيني بالإيمان من دون الأعمال. لكنّ الإيمان يلدُ المحبّة؛ ولا يسع المحبّة أن تستريح

إلّا بقدر ما تكون قد نبذت كلّ شرّ، ومارست كلّ خير ممكن. فما هو عمل المحبّة؟ - «أنبذ الشرّ وافعل الخير[١]» (مزمور ٣٦: ٣٧). إذًا، أنت توصي بالإيمان، من دون الأعمال، وتقول في مكانٍ آخر: «لو كان لي الإيمان كلّه لأنقل الجبال، ولم تكن فيّ المحبّة، فلست بشيء» (١ قورنتس ١٣: ٢). فإذا لم يكن الإيمان بشيءٍ من دون المحبّة، وإذا كانت المحبّة، أنّى وُجِدَت، لا بدّ من أن تعمل، فإنّ الإيمان هو الذي يعمل بالمحبّة. فكيف للإنسان، والحال هذه، أن يُبَرَّر بالإيمان من دون الأعمال؟ يُجيبك الرسول نفسُه: أيّها الإنسان، إن كنت قد كلّمتُك على هذا النحو، فلئلّا تُفاخر بأعمالِك، وتعزوَ إلى استحقاقاتِها نعمة الإيمان التي نلتَها. حذارِ أن تعتدَّ بأعمالك التي سبقت الإيمان؛ واعلم أنّ الإيمان وجدَكَ خاطئًا؛ وإذا كان الإيمان الذي أُعطِيَ لك قد برَّرَك، فلأنّه بدأ فوجد فيك خاطئًا ينبغي تبريرُه. «إنّ الإنسان الذي يؤمن بمن يُبرِّر المنافق، يُحسب له إيمانُه برًّا» (رومة ٤: ٥). وإذا بُرِّر الآثم فإنّه كان آثمًا قبل أن يُبرَّر؛ وإذا غدا بارًّا بعد أن كان آثمًا، فما هي أعمال الأثمَة؟ ليُفاخر الآثم، إذا شاء، بأعمالِه وليقُل: أجود على الفقراء، لا أسلب أحدًا شيئًا، لا أشتهي امرأة آخر، لا أقتل، لا أغشّ أحدًا، أُوفي ما ائتُمنت عليه ولو من غير شهود؛ ليقُل ما يقول؛ أمّا أنا فأتساءل إن كان آثمًا أم لا. فيجيب: كيف أكون آثمًا وآتي بمثل تلك الأعمال؟ - إنّك آثمٌ مثل أولئك الذين قيل عنهم: «اتّقَوْا المخلوق وعبدوه دون الخالق الذي هو مبارك إلى مدى الدهور» (رومة ١: ٢٥). كيف تكون آثمًا؟ وماذا تكون إذا كنت في تلك الأعمال ترجو ما ترجوه، لا ممن

(١) في السبعينيّة: φύλασσε ἀκακίαν ἰδὲ εὐθύτητα وفي الفولغاتا: custodi innocentiam et vide aequitatem أي: إحفظ السلامة وارعَ الاستقامة. وفي العبريّة: שְׁמָר-תָּם , וּרְאֵה יָשָׁר أي تأمّل الإنسان المستقيم وانظر البارّ.

ينبغي أن ترجوه؛ أو إذا كنت ترجو ما يجب ألّا ترجوه، حتّى من ذاك الذي ينبغي أن نرجو منه الحياة الأبديّة؟ رجوتَ السعادة الزمنيّة مكافأةً لأعمالِك الحسنة: فأنت آثم. ليس ذاك ثواب الإيمان. الإيمان باهظ الثمن، وأنت جعلته بخسًا. إذًا أنت آثم، وليست أعمالُك بشيء. تبذل قواك كأنّك تأتي أعمالًا صالحة، وتبدو قائدًا ماهرًا لسفينتِك، إلّا أنّك تبحِر للإرتطام بصحور. وماذا يكون إذا كنت ترجو ما ينبغي أن ترجوه بالفعل، أي الحياة الأبديّة، لكنّك لا ترجوه من الربّ إلهنا بيسوع المسيح، الذي منه وحده بوسعِك أن تنالَه؛ وإذا كنت تحسب أنّك تنال تلك الحياة الأبديّة بواسطة قوّات السماء، بالشمس والقمر وقوّات الهواء والبحر والبرّ والكواكب؟ تكون آثمًا. آمن، إذًا، بمن يُبرّر الآثم، لكي تكون أعمالك الصالحة حقًّا أعمالًا صالحة. لأنّه لا يسعني أن أدعوها أعمالًا صالحة، ما دامت لا تنبع من أساسٍ صالح. فماذا، إذًا؟ - إمّا أن ترجو من الله الأزلي حياة زمنيّة، أو من الشياطين الحياة الأبديّة؛ وفي الحالَين أنت آثم. صحّح إيمانَك، قوّم إيمانَك، قوّم طريقَك، واسلك بأمان بقدمَين رشيقتَين، واعدُ، فأنت في الطريق السويّ. وكلّما أسرعت في عدوِكَ، سعدت بوصولِك. وإذا عثرت قليلًا، فاحترز ألّا تبتعد عن الطريق. ستصل متأخّرًا، لكنّك ستصل. حذارِ أن تتوقّف أو أن تتراجعَ أو أن تضلّ.

٧ - ماذا إذًا! من هم السعداء؟ - ليسوا أولئك الذين لم يجد الله فيهم خطيئة؛ لقد وجدهم جميعًا خطأة: «لأنّ الجميع خطئوا، فالجميع يُعوِزُهم مجد الله» (رومة ٣: ٢٣). فإذا كانت الخطايا موجودة في جميع الناس، فإنّ السعداء هم الذين غُفِرت لهم خطاياهم. وهذا ما يؤكّد عليه الرسول بقولِه: «آمن إبراهيم بالله، فحُسِب له إيمانُه بِرًّا» (رومة ٤: ٣). لكنّ الأجر الذي يُعطى لمن يعمل، ويتّكل على

أعماله، ويعزو لاستحقاقاتِها النعمة التي وُهِبَت له، فلا يُحسب له الأجر كهبة، بل كدَين. ما معنى هذا سوى أنّ أجرنا هبة؟ - إذا كان هبة، فهو مجّانيّ. وماذا يعني أنّه مجّانيّ؟ - إنّنا لا نعطي شيئًا بالمقابل. لم تعمل صالحًا، وغُفِرَت لك خطاياك. نُظِر في أعمالك فوُجِدَت كلّها سيّئة. فإذا كان الله يُحاسبك على ما تستحقّه تلك الأعمال، لأدانَك، بالتأكيد. «لأنّ الموت أجرة الخطيئة» (رومة ٦ : ٢٣)؟ ما هو أجرُنا عن الأعمال السيّئة سوى الدينونة؟ وعن الأعمال الصالحة؟ - ملكوت السموات. أمّا أنت، فوُجِدْتَ مذنبًا بفعل أعمالك السيّئة؛ فإذا حوسِبت على أعمالِك، عوقِبت. فماذا يحدُث؟ لا يُنزل بك الربّ العقاب الذي تستحقّه، بل يهبُك العفو الذي لا تستحقّه. كان أحرى به أن يُعاقبَك، فإذا به يمنحك المغفرة. وبالمغفرة تخطو الخطوة الأولى في الإيمان؛ وهذا الإيمان يتّحد بالرجاء والمحبّة، فيبدأ يعمل الأعمال الصالحة. لكن، حذارِ أن تفتخر بنفسِك وأن تتعالى. واذكر من وضعك على الطريق الصحيح؛ واذكر أنّك، حتّى بقدمَين قويّتَين ورشيقَتين، كنت تهيم على غير هدى؛ واذكر أنّك عندما جُرِحتَ وأُلقيت على قارعة الطريق بين حيٍّ وميت، حُمِلت إلى الفندق على دابّة (راجع لوقا ١٠ : ٣٠). يقول القدّيس بولس: «فالذي يعمل، لا تُحسب له الأجرة نعمةً، بل دينٌ» (رومة ٤ : ٤) فإذا كنت لا ترغب في أيّ نصيبٍ في النعمة، تباهَ بأنّك مستحقّ. لكنّ الله يرى ما فيك، ويعرف ما يستحقّ كلّ واحد. ويُتابع الرسول فيقول: «وأمّا الذي لا يعمل، لكنّه يؤمن بمن يُبرّرُ الآثم، فإنّ إيمانَه يُحسَب له بِرًّا» (رومة ٤ : ٥). خذ آثمًا لا يأتي أيّ عملٍ صالح، وحتّى ولو بدا أنّه يصنع بعض الأعمال الصالحة، فلا تُحسَب له لأنّها لا تنبع من الإيمان. لكنّ الذي يؤمن بمن يُبرّر الآثم، فإنّ إيمانَه يُحسَب له بِرًّا. هكذا يُطوّب داود الإنسان

الذي يحسب له الله البِرّ بدون أعمال (راجع رومة ٤: ٦). لكن أيّ بِرّ؟ إنّه برُّ الإيمان الذي لم تسبقه الأعمال الصالحة، بل تتبعه.

٨ - أصغوا بانتباه، يا إخوتي، لأنّكم، إن أسأتم فهمي، فإنّكم تُلقون بأنفسِكم في هوّة الإفلات من قِصاص الخطيئة الذي تُمنّون به النفس؛ ولن أكون مسؤولًا، كما لم يكن الرسول مسؤولًا عمّن أساؤوا فهم كلامه. فالذين أساءوا الفهم، إنّما فعلوا عن قصد، من أجل ألّا يُمارسوا الأعمال الصالحة. لا تكونوا في عداد هؤلاء الناس، يا إخوتي. قال مزمور آخر عن هذا الإنسان، أي عن صنفٍ من الناس بكاملِه، ولو انّ النبيّ تكلّم عن شخصٍ واحد: «لم يشأ أن يفهم لئلّا يصنع الخير» (مزمور ٣٥: ٤). لاحظوا أنّه لا يقول: «لم يستطع أن يفهَم». إذًا، ينبغي أن تكون لديكم إرادة الفهم، أوّلًا، من أجل أن تصنعوا الخير. ولن يفوتَكم المعنى الواضح لمجمل تلك الفكرة. فما هو ذاك المعنى؟ - إنّه ينبغي ألّا يُفاخر أحدٌ بالأعمال الصالحة التي سبقت الإيمان، وألّا يُهملَ الأعمال الصالحة كلُّ من آمن. فالله، إذًا، يرحم جميع الخطأة ويُبرِّرُهم بالإيمان.

٩ - «طوبى لمن غُفِرت معصيتُه وسُتِرَت خطيئتُه. طوبى للرجل الذي لا يحسب الربّ عليه إثمًا وفمه لا ينفثُ الغشّ» (٣١: ١، ٢). يبدأ المزمور بهذه الكلمات، ومعها يبدأ ما يجب أن تفهَموه. والذي يجب أن تفهموه هو أن تعرفوا أنّ عليكم ألّا تُفاخروا باستحقاقاتِكم، ولا أن ترجوا عدم معاقبة المعاصي. يقولُ عنوان المزمور: «لداود، تعليم». إنّه، إذًا، مزمور تعليم؛ والشيء الأول الذي يجب أن تعرفه هو أن تعترف أنّك خاطئ. والشيء الثاني هو ألّا تعزو لقواك، بل لنعمة الله، الأعمال الصالحة التي ستكون الثمار الأولى لإيمانِك في المحبّة

(غلاطية ٥: ٦). وهكذا لا يكون في فمك، أي في فم قلبك، أي رياء؛ ولا يكون لك على شفتيك كلامٌ، وفي قلبك كلام آخر؛ ولا تكون من أولئك الفرّيسيّين الذين قيل عنهم: «أنتم مثل قبورٍ مُكلَّسة، تُظهِرون البِرّ للناس، وفي داخِلكم ممتلئون رياءً ومكرًا» (متّى ٢٣: ٢٧، ٢٨). والحال، أليس منافقًا الخاطئ الذي يريد أن يُنظَر إليه كصدّيق؟ لم يكن كذلك نتنائيل الذي قال عنه المخلّص: «هذا، في الحقيقة إسرائيليٌّ لا غشّ فيه» (يوحنّا ١: ٤٧). ولماذا لم يكن في نتنائيل غشّ؟ يُبيّن الربّ فيقول: «إذ كنتَ تحت التينة رأيتُك» (يوحنّا ١: ٤٨). كان تحت التينة، أي في طبيعة الجسد. وإذ كان في طبيعة الجسد، وتحت سلطان الخطيئة التي ورثناها من الأصل، كان تحت تلك التينة التي تنتزع من المرنّم، في مزمورٍ آخر، هذا التأوّه: «ها أنذا بالآثام حُبِل بي» (٥٠: ٧). لكنّ الذي جاء إلى الأرض مع النعمة رآه. ما معنى: رآه؟ أي ترأّف به. إذًا، يُمجّد الربّ الإنسان الخالي من المكر، لكي يُمجّد نعمته به. «إذ كنتَ تحت التينة، رأيتُك». رأيتُك. أي أهميّة لهذا القول، إن لم نكتشف فيه معنًى جوهريًّا؟ أيّ أهمّيّة في أن يُرى رجُلٌ تحت تينة؟ لو لم يرَ المسيح الجنس البشريّ تحت تلك التينة، لكنّا، إمّا يبسنا كلّيًّا، أو حملنا أوراقًا دون الثمار، على مثال الفرّيسيّين المرائين الذين كانت أقوالُهم صحيحة وأعمالُهم فاسدة. والحال، فإنّ المسيح لعن التينة التي وجدَها على هذه الحال، فيبست. قال: إنّي لا أرى سوى الورق، أو بالأحرى سوى كلامٍ بلا ثمر: «لا تكن فيك ثمرة إلى الأبد، فيبست التينة من ساعتِها» (متّى ٢١: ١٩). فما فائدة الكلام؟ ذاك أنّ الشجرة اليابسة لا تستطيع حتّى أن تحملَ ورقًا. كذاك كان اليهود. وتلك الشجرة كانت الفرّيسيّين الذين يتكلّمون ولا يعملون. حكم الربّ قضى عليهم باليباس. فليَرَنا الربّ، إذًا،

تحت التينة؛ وليرَ في طبيعتنا البشريّة نفسِها ثمار الأعمال الصالحة، لئلّا تجعلنا لعنتُه كالشجرة اليابسة. ولمّا كان ينبغي أن يُعزى كلّ شيءٍ إلى نعمته لا إلى استحقاقاتِنا، فـ«طوبى لمن غُفِرت معصيتُه وسُتِرَت خطيئتُه». طوبى لا لأولئك الذين لم يجد لديهم خطايا، بل للذين سُتِرَت خطاياهم، وأخفِيَت معاصيهم وامّحت وباتت كأنّها لم تكن. إذا كان الله قد ستر الخطايا، فذاك أنّه لم يُرِد أن يراها؛ وإذا كان لم يُرِد أن يراها، فإنّه لم يُرد أن يحكم عليها، وإذا كان لم يُرد أن يحكم عليها فإنّه لم يُرد أن يُعاقبَها؛ وإذا كان لم يُرد أن يُعاقبَها، فإنّه لم يُرد أن يعرفَها، وآثر أن يغفرَها. «طوبى لمن غُفِرت معصيتُه وسُتِرَت خطيئتُه». لكن عندما يتكلّم النبيّ عن خطايا سُتِرت، فحذارِ أن تظنّوا أنّ تلك الخطايا ما تزال موجودة وتعيش في الخطأة. لماذا قال إنّ الخطايا سُتِرَت؟ - ذاك لئلّا تعود فتوجَد. لأنّ رؤية الله للخطيئة تعني معاقبتَها. ولكي تعرفوا أنّ رؤية الله للخطيئة تعني معاقبة الخطيئة، يوجّه النبيّ صلاته إليه ويقول: «إصرِف وجهَك عن خطيئتي» (مزمور ٥٠: ١١). فليحجب الربّ عينَيه عن خطيئتِك، وليرَك أنت. فكيف يراك؟ - كما رأى نتنائيل: «إذ كنتَ تحت التينة رأيتُك» (يوحنّا ١: ٤٨). فظلّ التينة لم يكن عقبةً أمام عيني الرحمة الإلهيّة.

١٠ - «ولا ينطوي فمه على أيّ رياء» (٣١: ٢). أمّا الذين ينكفئون أمام الاعتراف بخطاياهم، فعبثًا يجهدون لسترِها. وكلّما اجتهدوا في ستر خطاياهم، بالافتخار باستحقاقاتِهم، والتعامي عن معاصيهِم، كلّما أعوزتهم القوّة والشجاعة. فالقويّ الحقيقيّ هو من جعل قوّته في الله لا في نفسِه. قال القدّيس بولس: «ثلاث مرّاتٍ سألتُ الربّ أن يُبعدَ عنيّ ملاك الشيطان، فأجابني: حسبُك نعمتي». قال: حسبك نعمتي، لا قوّتك. «حسبك نعمتي، فبالضعف تكمل القوّة».

من هنا أنّ الرسول يقول: «متى ضعفتُ، حينئذٍ أصير قويًّا» (٢ قورنتس ١٢ : ٨-١٠). إذًا، إنّ من أراد أن يكون قويًّا، واعتدّ بنفسِه، وتباهى باستحقاقاتِه، مهما عظمت، غدا أشبه بالفرّيسّي الذي كان يُبالغ في التباهي بالعطايا التي يُقرّ بأنّه نالها من الله، ويقول: «أللهمَّ إنّي أشكرُك» (لوقا ١٨ : ١١). لاحظوا، يا إخوتي، عن أيّ كبرياء يُكلّمكم الله هنا؛ كبرياء بوسعها أن تنفذ حقًّا إلى نفس البارّ، وأن تتسلل إلى قلب الإنسان ذي الرجاء المستقيم. قال: «أللهمَّ إني أشكرُك». وبقوله «أللهمَّ إني أشكرُك» كان يعترف بأنّ الذي فيه يأتيه من الله. «أي شيءٍ لك لم تنلْهُ؟» (١ قورنتس ٤ : ٧). قال: «أللهمّ إنّي أشكرك، لأنّي لست كسائر الناس السارقين الظالمين الفاسقين، ولا مثل هذا العشّار» (لوقا ١٨ : ١١). أي نرى كبرياء هذا الرجل؟ - في أنّه يشكر الله على الخير الذي ناله منه، بل في أنّه يستعمل هذا الخير ليتعالى على إنسانٍ آخر.

١١ - إنتبهوا، يا إخوتي، فالإنجيليّ بدأ فحدّد المناسبة الذي أورد الربّ فيها هذا المثل. طرح المسيح هذا السؤال: «إذا جاء ابن البشر فهل يجد الإيمان على الأرض؟» (لوقا ١٨ : ٨). ومخافة أن يلتقي هراطقة يتمسّكون بهذا الكلام ليقولوا بسقوط العالم بأسرِه، (لأنّ الهراطقة لا يُشكّلون إلّا جماعاتٍ قليلة منعزلة)، ويزعموا أنّهم وحدهم حفظوا الحقيقة التي أضاعها العالَم كلّه؛ وبعد أن أورد الإنجيليّ سؤال المخلّص: «إذا جاء ابن البشر فهل يجد الإيمان على الأرض؟»، تابع لتوّه: «خاطب يسوع بهذا المثل قومًا كانوا يظنّون أنفُسَهم أبرارًا، ويحتقرون الآخرين: صعد فرّيسيّ وعشّارٌ إلى الهيكل ليُصلّيا» (لوقا ١٨ : ٨-١٠). وتعرفون البقيّة. إذًا، قال الفرّيسيّ: «أللهمَّ إنّي أشكرك»، فأين كبرياؤه؟ - في احتقارِه الآخرين. وأيّ برهانٍ لدَيك؟ - كلامُه. كيف؟ - يقول يسوع: ازدرى الفرّيسيُّ العشّارَ الذي وقف

بعيدًا، لكنّ الربّ اقترب منه لاعترافِه بخطاياه. يقول الإنجيل: «كان العشّار يقف بعيدًا»، لكنّ الله لم يكن بعيدًا منه. ولماذا لم يكن الله بعيدًا منه؟ - لأنّه قيل في مزمورٍ آخر إنّ الربّ قريبٌ من منكسري القلوب (مزمور ٣٣: ١٩). أنظروا إن لم يكن ذلك العشّار منكسِر القلب، فتعرفون أنّ الله يقترب من القلب المنسحق. «أمّا العشّار فوقف بعيدًا ولم يُرِد أن يرفع عينَيه إلى السماء، بل كان يقرع صدرَه» (لوقا ١٨ : ١٣). أليس قرع الصدر دليلًا على انسحاق القلب؟ ماذا كان يقول وهو يقرع صدرَه؟ «أللهمَّ ارحمني أنا الخاطئ». وماذا كان حكم المخلِّص؟ «الحقّ أقول لكم إنّ العشّار عاد من الهيكل إلى بيتِه مبرَّرًا دون الفريسيّ». لماذا؟ ذاك هو قضاء الله. قال الفرّيسيّ: «لست مثل هذا العشّار ولا كسائر الناس السارقين الظالمين الفاسقين؛ أصوم في الأسبوع مرّتَين وأؤدّي العُشر عن كلّ ما أملك». أمّا العشّار فلم يجرؤ أن يرفع عينَيه إلى السماء، ولم يهتمّ إلّا لضميرِه، ووقف بعيدًا، ومضى إلى بيتِه مبرَّرًا دون الفرّيسيّ. فلماذا؟ فسّر لنا يا ربّ. أتوسّل إليك أن تُفسّر لنا أسرار برِّك وعدالة قضائِك. وهذا ما يصنعه الربّ وهو يعرض لنا مبدأ قضائه. تسألون لماذا قضى الله بهذا؟ - «كلّ من رفع نفسَه ذُلّ، وكلّ من وضع نفسَه ارتفع» (لوقا ١٨ : ١٤).

١٢ - فلتُصغِ إليّ محبّتكم. قلنا إنّ العشّار لم يجرؤ أن يرفع عينَيه إلى السماء. لماذا لم يكن ينظر إلى السماء؟ - لأنّه كان ينظر إلى نفسِه. وكان ينظر إلى نفسِه لكي يستاء منها فيُرضي الله. أمّا أنت فتتفاخر وترفع رأسك عاليًا. يقول الربّ للمتكبّر: لا تريد أن تفحص نفسَك، لهذا أفحصك أنا. أتريد ألّا أفحصك؟ فافحص نفسَك بنفسِك. لم يكن العشّار يجرؤ أن يرفع عينَيه إلى السماء، لأنّه كان يفحص ضميرَه ويُعاقب نفسَه. كان ديّان نفسِه، لكي يشفع له الديّان الأعظم. كان

يُعاقب نفسَه لكي يُخلّصَه الله. كان يتّهم نفسَه لكي يُدافع عنه الله. والحال، فإنّ الربّ دافع عنه، لأنّ المذنب دان هو نفسَه بدلًا من الديّان: «نزل العشّار من الهيكل مبرَّرًا دون الفرّيسيّ، لأنّ كل من رفع نفسَه اتّضَع ومن وضع نفسَه ارتفَع» (لوقا ١٨: ١٤). فحص نفسَه، يقول الربّ، فلم أشأ أن أفحصَه. سمعتُه يقول لي: «إصرف وجهَك عن خطاياي». لكن، من كان ليقول هذا الكلام غير ذاك الذي قال: «أنا عارف بمعاصيّ»؟ (مزمور ٥٠: ٥). لكنّ الفرّيسيّ أيضًا، يا إخوتي، كان خاطئًا. على الرغم من أنّه قال: «لست كسائر الناس السارقين الظالمين الفاسقين»؛ وعلى الرغم من أنّه صام مرّتَين في الأسبوع وأدّى العشور، فإنّ هذا لم يشفع له. وحتّى ولو خلا من كلّ خطيئة، إلّا أنّ كبرياءَه كانت خطيئته الكبرى؛ ومع ذلك لم يخشَ من التفوّه بكلام مفاخِر. فأيّ إنسانٍ بلا خطيئة؟ من يستطيع أن يُفاخر ويقول: إنّي زكّيت قلبي وتطهّرت من خطيئتي؟ (أمثال ٢٠: ٩). لم يكن الفرّيسيّ، إذًا، بلا خطيئة؛ لكنّه كان تائهًا ولم يعرف إلى أين أتى. كان في منزل الطبيب، كمن يطلب الشفاء وهو يُشير إلى أعضائه السليمة، ويستر جراحه. الله يستر خطيئتَك، لا أنت؛ لأنّ الطبيب لن يشفيَها إذا كان الخجل يدفعك إلى سترِها. فليكشفها الطبيب ويشفِها، لأنّه يسترُها بضمادٍ خلاصيّ. يُضمّد الطبيب الجرح فيشفيه؛ ويُضمّده المريض فيخفيه. فلماذا تُخفيه عمّن يعرف كلّ شيء؟

١٣ - لنعد، يا إخوتي، إلى ما يقول النبيّ: «هَرِمت عظامي، لأنّي لزمت الصمت، ومع ذلك كنت أصرخ النهار كلَّه» (٣١: ٣) ما معنى هذه الكلمات؟ يبدو أنّها تحمل تناقضًا: «لأنّي سكتُّ، هرمت عظامي بسبب صراخي». إذا كان يصرخ، فكيف يقول إنّه صمت؟ صمت عن أشياء، ولم يصمت عن أشياء أخرى. كتم ما كان ليقوله لصالحِه، ولم

يكتم ما قالَه على نفسِه. صمت عن الإعتراف بمعاصيه، وصرخَ عاليًا متباهيًا بنفسِه. يقول: صمتُّ؛ أي لم أعترف بمعاصيّ. كان أحرى به، هنا، أن يتكلّم بصوت عالٍ معترفًا بمعاصيه، وأن يصمت عن فضائلِه؛ فإذا به يصمت عن معاصيه ويصرخ بفضائلِه. فماذا حصل له؟ - هرمت عظامُه. لاحظوا أنّه لو صرخ بمعاصيه، وصمت عن فضائلِه، لتجدّدت عظامُه، أي قوّته، ولغدا قويًّا بالربّ لأنّه عرف ضعفَه. أمّا الآن وقد جعل قوّتَه في ذاتِه، فقد ضعُف وهرمَت عظامُه. شاخ وضعف لأنّه لم يُرِد أن يُجدّد شبابَه بالإعتراف بمعاصيه. وأنتم تعرفون يا إخوتي كيف يتجدّد الإنسان: - «طوبى لمن غُفِرت معصيتُه وسُتِرَت خطيئتُه». أمّا هذا فلم يرضَ بأن تُغفر معاصيه، فضاعف عددَها ودافع عنها وتباهى بفضائلِه. إذًا، لأنّه صمت فلم يعترف بخطاياه، هرمت عظامُه، فيما كان يصرخ النهار كلّه. ماذا يعني أنّه كان يصرخ النهار كلّه؟ - كان لا ينِي يدافع عن خطاياه. لكن، انظروا إليه كما هو، لأنّه يعرف نفسَه. عاجلًا تأتيه المعرفة، فلا يعود يرى إلّا نفسَه، ويستاء منها، لأنّه سيعرف نفسَه. وستسمعونه للحال، لكي تُشفوا أنفُسَكم.

١٤ - «طوبى للرجل الذي لا يحسب الربّ عليه إثمًا ولا ينطق فمه بالغشّ. لأنّي حين سكتُّ هرمت عظامي، فيما كنت أصرخ النهار كلّه. ففي النهار والليل ثقُلت عليّ يدُك» (٣١: ٢-٤) ما معنى: «ثقُلَت عليّ يدُك»؟ - لهذا القول، يا إخوتي، معنى عميق، ينبغي أن تفهموه. تذكّروا الحكم العادل الذي لفظه الله بوجه ذينك الرجلَين: الفرّيسيّ والعشّار. ماذا قال للفرّيسيّ؟ - إنّه وُضِع. وللعشّار؟ - إنّه ارتفع. لماذا وُضِعَ الواحد؟ - لأنّه ارتفع؛ ولماذا رُفِع الآخر؟ - لأنّه اتّضع. لكنّ الله، لكي يَضَع الإنسان الذي يرتفع، يُثقِل عليه يدَه. يرفض أن يتّضع باعترافه بمعاصيه، فيوضع تحت ثقلِ اليد الإلهيّة. كم كانت ثقيلة

اليد التي وضعت الفرّيسيّ! وكم كانت رفيقة اليد التي رفعت العشّار! بقدر ما هي قاسية تلك اليد لتضعنا، بقدر ما هي رفيقةٌ لترفعَنا. قويّةٌ على الواحد وقويّةٌ على الآخر؛ قويّة لتحطّ الواحد، وقويّة لترفع الآخر.

١٥ - «في النهار والليل، ثقلت يدُك عليّ، حوّلتني آلامي كلّما كانت شوكتُها تغرز فيّ» (٣١: ٤). بفعل ثِقل يدِك، والذلّ الذي شعرت به، غيّرني الألم. بتُّ بائسًا، غرزت فيّ الشوكة واخترقت ضميري. ماذا حدث والشوكة تغرز فيه؟ - شعر بألمِه وعرف ضعفَه. وذاك الذي صمت ولم يعترِف بمعاصيه، بل صرخ، النهار كلّه، دفاعًا عنها، إلى درجةٍ رأى معها قواه تهون، أي شعر بعظامِه تهرم، ماذا فعل والشوكة تغرز فيه؟ - «عرفتُ خطيئتي». إذًا، عرفها الآن. فإذا عرفها هو، غفرها الله. اسمعوا التتمّة، وانظروا إن كان لا يقولها هو بنفسِه: «عرفت خطيئتي، ولم أكتم إثمي» (٣١: ٥). كنت أقول، لساعتي: لا تستر خطاياك، فالله نفسُه يسترُها. «طوبى لمن غُفِرت معاصيه وسُتِرَت خطيئتُه». الخطايا التي تُستَر تُكشَف. والمرنّم كشف خطاياه لكي يسترها الله. «لم أكتم إثمي» ما معنى «لم أكتُم»؟ - صمتٌ طويلًا. والآن ماذا يفعل؟ - «قلتُ». والقول نقيض الصمت. «قلتُ». فماذا قلتَ؟ - «قلتُ: سأعترف للربّ بمعاصيّ، وانت غفرت إثم قلبي» (٣١: ٥). «قلتُ». ماذا قلتَ؟ - لم يعترف بعدُ، لكنّه يعدُ بالإعتراف بمعاصيه، فيسبقه الربّ إلى المغفرة. إنتبهوا، يا إخوتي، لهذه النقطة البالغة الأهميّة. قال: «سأعترف»؛ ولم يقُل: اعترفتُ وأنت غفرتَ لي. بل قال: «سأعترف... وأنت غفرت». قولُه: «سأعترف» يُبيّن أنّه لم يعترف بعدُ بفمِه، لكنّه اعترف بقلبه. قوله: «سأعترف» هو اعتراف بحدّ ذاتِه. لذلك «أنت غفرت اثم قلبي». لم تنطق بعدُ شفتاي

بالإعتراف، قلت فقط «سأعترف»، لكنّ الربّ سمع صوت قلبي. لم يكن بعدُ كلامي على شفتيَّ، لكنّ أُذُنَ الربّ سبقته إلى قلبي. «غفرتَ اثم قلبي، لأنّي قلتُ: سأعترف».

١٦ - لكنّ تلك الكلمة لم تكن كافية. لم يقل النبيّ: «سأعترف بإثمي إلى الربّ». بحقّ يقول: سأشهد على نفسي؛ وهذه النقطة مهمّة. والحال، فإنّ كثيرين يعترفون بآثامِهم، لكنّهم يُلقونَها على الله؛ وعندما يُضبَطون في الجرم، يُجيبون: هكذا أراد الله. إذا قال إنسانٌ: لم أفعل هذا، أو، ما تلومُني عليه ليس إثمًا، فإنّه لا يتّهم لا نفسَه ولا الله. أمّا إذا قال: فعلت هذا، وهذا إثم، لكن هذا ما أراده الله، فما ذنبي؟ فإنّه يتّهم الله. ولعلّكم تقولون: لا أحد يتكلّم هكذا؛ فمن ذا يجرؤ أن يقول إنّ ألله أراد ذلك؟ أكرّر وأقول إنّ كثيرين يقولون هذا الكلام؛ لكن، ماذا يفعل الذين لا يقولونه صراحةً، فيُبرّرون أنفُسَهم بالقول: إنّها مشيئة القدر، هكذا شاء نجمي؟ يلفّون ويدورون ليصِلوا إلى الله. يلفّون ويدورون ليتّهموا الله، بدلًا من سلوك أقصر الطرق لتسكين غضبِه. يقولون: هذا قدري؛ لكن، ما هو القدر؟ هكذا شاء نجمي. لكن، ما هي تلك النجوم؟ ظاهريًّا، هي تلك التي نراها في السماء. ومن خلقَها؟ - الله. ومن ضبط مسارها؟ - الله. وهكذا ترى أنّك أردت أن تقول إنّ الله دفعك إلى ارتكاب المعصية. وعليه، يكون الله الآثم، وأنت البارّ؛ لأنّه لو لم يدفعك إلى الخطيئة، لما خطئتَ. ألا انزع عنك هذه الذرائع الباطلة للخطيئة، وتذكّر كلمات المزمور: «لا تمِل قلبي إلى كلام السوء، الذي يتذرّع به المنافقون لتبرير معاصيهم مع الناس مرتكبي الإثم» (مزمور ١٤٠ : ٤). لكنّنا نرى أناسًا ذوي اعتبار يُدافعون عن خطاياهم على هذا النحو؛ أناسٌ ذوو اعتبار هم الذين يرقبون النجوم، ويحسبون مسار الكواكب، ويستطلعون الأزمنة، ويُخبرون في

أي وقتٍ تبتسم الحياة لهذا أو تعبس لذاك؛ وفي أيّ وقتٍ يجعل المرّيخ من فلانٍ قاتلًا، أو تجعل الزُهَرة من مرأةٍ زانية؛ إنّهم أناسٌ ذوو اعتبار، وأناسٌ علماء، وأناسٌ مميَّزون في نظر العالَم. لكن، ماذا يقول لنا المزمور؟ - «لا تدع قلبي يميل إلى الكلام الكاذب مع الأثَمة. حاشى أن يكون لي نصيبٌ مع أشدِّهم دهاءً» (١٤٠ : ٤). فليُدعَ رجالَ نُخبة، وعلماءَ فلكٍ، وحكماء، أولئك الذين، إن جاز التعبير، يُنظّمون بأصابعِهم مصائر الناس، ويُفسّرون، بحسب النجوم، طبائع الناس. أمّا أنا، فأعرف أنّ الله خلقني ووهبني حرّية الخيار، فإذا خطئتُ أكون أنا الخاطئ، وعليّ أن أعترف بخطيئتي إلى الربّ، وأن أتّهم نفسي، لا الله. «وأنا قلت: أللّهُمَّ ارحمني!»: المريض يصرخ طالبًا الطبيب. «وأنا قلتُ». أين الضرورة في عبارة «أنا قلت» في حين كانت تكفي كلمة «قلتُ»؟ الـ«أنا» وُضعت كصيغة مبالغة. أنا، أنا المذنب، لا القدر، ولا الحظ، ولا الشيطان. الشيطان لم يُرغمني، بل أنا الذي انصعتُ إلى وسوساتِه «أنا قلتُ: يا ربّ ارحمني. إشفِ نفسي فقد خطئتُ إليك» (مزمور ٤٠ : ٥). وهذا هو القرار الذي يتّخذه النبيّ في المزمور: «قلتُ: سأعترف للربّ على نفسي بمعاصيّ، وأنت غفرت إثم قلبي».

١٧ - «لهذا يُصلّي إليك كلّ صفيّ في أوان النوال» (٣١ : ٦). ما هو أوان النوال؟ وما معنى: «لهذا»؟ بسبب معصيتِهم. وأيّ معصية؟ تلك التي نالت المغفرة. «بسبب تلك المعصية يُصلّي إليك كلّ صفيّ في أوان النوال». كلّ صفيٍّ يدعوك لأنّك غفرت له معاصيه. لو لم تبدأ فتغفر المعاصي، لما كان هناك صفيّ يدعوك. «لهذا يُصلّي إليك كلّ صفيّ في أوان النوال»، أي عندما تُعلن عهدك الجديد بتجلّي نعمة المسيح؛ ذاك هو أوان النوال. يقول القدّيس بولس: «في ملء الزمن،

أرسل الله ابنَه مولودًا من امرأة» (أي من عذراء، بحسب ما كان الأقدمون يدعون المرأة muliere)، «خاضعًا للشريعة، لكي يفتدي الذين كانوا تحت الشريعة» (غلاطية ٤ : ٤). من أيّ سلطانٍ يفتديهم؟ من سلطان إبليس، من الهلاك، من الخطيئة، من يد الذي باعوه أنفُسَهم. «لكي يفتدي الذين كانوا تحت الشريعة» (غلاطية ٤ : ٥)، كانوا تحت الشريعة، لأنّهم كانوا في قبضة الشريعة. كانت الشريعة تقيّدهم لأنّها كانت أداة لإكراههم على الخطيئة لا لخلاصِهم. كانت تُحظّر الشرّ؛ لكن، لأنّه لم تكن لديهم القدرة على تبرير أنفُسِهم، كانوا مرغمين على الصراخ إلى المخلّص، مثلما فعل ذاك الذي كان يشعر بأنّه أسيرٌ تحت شريعة الخطيئة فصرخ: «ويلٌ لي أنا الإنسان الشقيّ! من يُنقذُني من جسد الموت هذا؟» (رومة ٧: ٢٣، ٢٤). جميع الناس، إذًا، كانوا تحت الشريعة، لا في الشريعة، لأنّها كانت تُضيّق عليهم وتُكرهُهم على الخطيئة. لأنّ الشريعة هي التي أبرزت الخطيئة؛ غرزت الشوكة، وعصرت القلب، ونبّهت الخاطئ إلى معرفة نفسِه، فصرخ إلى الله سائلًا المغفرة. «لهذا، على كلّ صفيٍّ أن يصرخ إليك في أوان النوال». قلت، إذًا، عن أوان النوال، ما قاله الرسول: «في ملء الزمن، أرسل الله ابنَه»، الذي قال أيضًا: «استجبت لك في وقتٍ مقبول، وأعنتُك في يوم خلاص» (٢ قورنتس ٦ : ٢). ولمّا كانت هذه الكلمات التي استعارها القدّيس بولس من النبيّ تنطبق، بحسب النبيّ، على جميع المسيحيّين، يُضيف الرسول للحال: «فهوذا الآن وقتٌ مقبولٌ، وهوذا الآن يوم خلاص» (٢ قورنتس ٦ : ٢). لهذا على كلّ صفيٍّ أن يدعوكَ في أوان النوال.

١٨ - «وفي غمر المياه الغزيرة لا يبلغون إليه» (٣١: ٦). لا يبلغون إلى مَن؟ - إلى الله. عندما يتكلّم النبيّ عن الله، غالبًا ما ينتقل

من المخاطَب إلى الغائب؛ كقولِه: «الخلاص من الربّ يأتي، وبركتُك تفيض على شعبِك» (مزمور ٣: ٩)، ولم يقل: الخلاص من الربّ يأتي، وبركتُه تفيض على شعبِه؛ ولم يقل: منك يا ربّ يأتي الخلاص وبركتُك تفيض على شعبِك. لكنّه، بعد أن بدأ فقال: «الخلاص من الربّ يأتي»، يلتفت إلى الربّ ويُتابع: «وبركتك تفيض على شعبِك».
كذاك هو الأمر هنا: نسمعه يقول: «إليك، يا ربّ، يُصلّي كلّ صفيّ» ولا يعود فيقول: لا يبلغون إليكَ، بل «لا يبلغون إليه». فلا نحسبَنَّ أنّه يتكلّم عن إله غير الله: «لهذا يُصلّي إليك كلّ صفيّ في أوان النوال، وفي غمر المياه الغزيرة لا يبلغون إليه». ما معنى: «في غمر المياه الغزيرة»؟ - أي أنّ الذين يخوضون المياه الغزيرة من دون أن يحطاطوا بسدّ يقيهم طوفانها، لا يبلغون إلى الربّ. ماذا يقصد النبيّ بتلك المياه الغزيرة؟ - كثرة التعاليم المختلفة. إحتاطوا، يا إخوتي، المياه الغزيرة هي التعاليم المختلفة. أمّا تعليم الله فواحدٌ، وأمواهُه ليست كثيرة، بل واحدة، هي مياه سرّ العماد، أي مياه التعليم الخلاصيّ. وعن التعليم الذي يُفيضه علينا الروح القدس ويُروي به نفوسَنا، كُتِب: «إشرَب من آنيتِك ومن ينابيع آبارِك» (أمثال ٥: ١٥). لا منفذ للخطأة ألى تلك الينابيع؛ لكنّ الذين يؤمنون بالذي يُبرّر الخاطئ (رومة ٤: ٥)، يدنون منها وقد باتوا مبرَّرين. أمّا الأمواه الأخرى، أي التعاليم الكثيرة المتباينة، فتُفسِد النفوس، كما قلتُ لساعتي. تعليم يقول بالقدر، وآخر يقول بالصدفة، أو الحظّ. إذا كانت الصدفة تقود البشر، فلا عنايةَ إلهيّة ترعى العالَم. إليكم واحدًا من تلك التعاليم. يقول أحد المانويّين: هناك نسلٌ من أرواح الظلمة معادية لله، تمرّدت عليه، وهي التي تدفع البشر إلى الخطيئة. وفي غمر المياه الغزيرة هذه، لن تبلغَ إلى الله. فما هي تلك المياه الحقيقيّة التي تجري من الينابيع الداخليّة للحقيقة

الصافية؟ ما هي تلك المياه، يا إخوتي، سوى المياه التي تُعلّمنا أن نعترف بالربّ؟ ما هي تلك المياه سوى المياه التي تُعلّمنا أن نقول: «صالحٌ الإعتراف للربّ»؟ (مزمور ٩١ : ٢). ما هي تلك المياه سوى المياه التي تجعلنا نقول مع المرنّم: «قلتُ: سأعترف للربّ على نفسي بمعاصيّ»؟ وأيضًا: «أنا قلتُ يا ربّ ارحمني واشفِ نفسي فإنّي خطئتُ إليك»؟ (مزمور ٤٠ : ٥). تلك المياه هي مياه الإعتراف بالخطايا، مياه اتّضاع القلب، مياه الخلاص والحياة التي يجدها الإنسان المتواضع الذي لا يعتدّ بنفسِه ولا يتباهى فيعزو أيّ شيء إلى قدرتِه. هذه المياه لا تجدها لا في كتب إنسانٍ غريبٍ عن الإيمان، ولا في كتب الأبيقوريّين، ولا الرواقيّين، ولا المانويّين، ولا الأفلاطونيّين، وحتّى في الكتب التي نجد فيها أرفع مبادئ الأخلاق والسلوك، لا نجد تعليم التواضع هذا. طريق التواضع ينطلق من مكانٍ آخر، من المسيح، من العليّ الذي شاء أن يتّضِع. أيّ أمثولة كان يُعطينا سوى الإتّضاع، عندما أطاع حتّى الموت، موت الصليب؟ (فيليبّي ٢ : ٨). أيّ تعليمٍ غير هذا كان يُعلّمنا عندما وفى ما لم يكن مدينًا به، لكي يعفيَنا من دَينِنا؟ أيّ تعليم غير هذا كان يُعطينا عندما اقتبل المعموديّة، هو الذي كان بلا خطيئةٍ؟ (متّى ٣: ١٣)، وعندما سُمّر على الصليب بلا ذنب؟ ماذا كان يُعلّمنا غير التواضع؟ كان محقًّا حين قال: «أنا الطريق والحقّ والحياة» (يوحنّا ١٤ : ٦). ذاك هو التواضع الذي يُقرّبنا من الله، لأنّ الربّ قريبٌ من منكسري القلوب» (مزمور ٣٣: ١٩). في غمر المياه الغزيرة التي ترتفع بوجه الله، ولا تعلّم سوى الإثم والكبرياء، لن يبلغ الناس إلى الله.

١٩ - لكن، أنت الذي سبق أن بُرّرت، ماذا يحلّ بك في خضمّ تلك المياه الغزيرة؟ حتّى عندما نعترف بخطايانا، يا إخوتي، لا يبرح

صخب المياه الغزيرة يُطوّقنا من كلّ جانب. لسنا داخل طوفان، غير أنّ الطوفان يُطوّقنا؛ المياه تُضيّق علينا، لكنّها لا تخنقنا؛ المياه تُحاصرنا، لكنّها لا تُغرقنا. فماذا تفعل انت العالق وسط الطوفان، وتسير في هذا العالم؟ ألا يسمع كلّ واحدٍ منكم مثل أولئك الملافنة؟ ألا يسمع مثل أولئك المستكبرين، وتخضّ أقوالُهم قلبَه كلّ يوم؟ ماذا يقول الذي سبق أن تبرّر، ولم يتوكّل إلّا على الله، في خضمّ هذا الطوفان الذي يُحاصرُه؟ - «يا ربّ أنت حصنٌ لي تقيني من الضيق الذي يكتنفني» (٣١ : ٧). فليطلب الآخرون ملاذًا عند آلهتِهم، أو عند أبالستِهم، أو في قواهم، أو في الذرائع التي يُدافعون بها عن معاصيهِم؛ أمّا أنا، يا ربّ، فما لي سواك، في خضم هذا الطوفان، يقيني، داخل حصنٍ، من الضيق الذي يكتنفُني.

٢٠ - «إفتدِني أنت يا فرحي!» لماذا تُريد أن تُفتَدى إذا كنت فرِحًا؟ «إفتَدِني، أنت يا فرحي!» إنّي أسمع هتاف ابتهاج: «أنت فرحي!»، وأسمع صوت تأوّه: «إفتدِني!». تبتهج وتتأوّه. أجل، يُجيب النبيّ، إنّي أبتهج وأتأوّه: أبتهج في رجاني، وأتأوّه في واقعي الذي ما زلت أرزح فيه. «إفتدِني أنت يا فرحي!». «كونوا في الرجاء فرحين»، يقول الرسول (رومة ١٢ : ١٢)؛ وصحيحٌ هذا القول: «أنت يا فرحي»، لكن لماذا يقول «افتدني»؟ يُتابع الرسول: «كونوا في الضيق صابرين». «إفتدِني أنت يا فرحي!» سبق أن تبرَّر بولس نفسُه، فماذا يقول؟ - «لا الخليقة فقط، بل نحن الذين نملك باكورة الروح، نحن أيضًا نئنّ في داخلِنا» (رومة ٨: ٢٣). لماذا، إذًا، أطلب أن أُفتَدى؟ لأنّنا نحن أنفسنا نئنّ بانتظار التبنّي الذي سيكون افتداءً لأجسادِنا (رومة ٨: ٢٣). ترَون، إذًا أنّ عبارة «افتدِني» تعني أنّنا نئنّ في داخلِنا بانتظار أن تُفتدى أجسادُنا. ولماذا عبارة «أنت فرحي»؟ - يضيف الرسول نفسه فيقول:

«لأنَّا بالرجاء نُخلَّص، لكنّ الرجاء الذي يُرى ليس برجاء. فكيف ترجو ما تراه؟ فإن كنّا نرجو ما لا نراه، فبالصبر ننتظرُه» (رومة ٨: ٢٤-٢٥). إن كنت ترجو، فإنّك تفرح؛ أو كنت تنتظر بالصبر، فإنّك لا تزال تئنّ؛ لأنّ الصبر ليس ضروريًّا لمن لا يتألّم. فما نُسمّيه احتمالًا وصبرًا وطول أناة، لا وجود له إلّا وسط الآلام. حيث الظلم، فهناك القلق. فإذا كنّا بالصبر ننتظر، نقول أيضًا: «نجّني من الضيق الذي يكتنفُني». لكن، بما أنّنا بالرجاء خُلِّصنا، نقول في آنٍ معًا: «افتدِني» و«أنت يا فرحي!».

٢١ - يجيب الله: «سأعلّمك». التعليم هو ثمرة المزمور. «سأعلّمك وأثبّتك في الطريق الذي تسلكه» (٣١: ٨). ماذا تعني عبارة «سأثبّتك في الطريق الذي تسلكه»؟ - لا في طريقٍ تتعلّق به تعلّقك بمنزلك، بل في طريقٍ يجب ألّا تحيد عنه. سأعلّمك لكي تعرف نفسَك على الدوام، وتبتهج في كلّ حين، إذ تتوكّل على الله؛ إلى أن تبلغ ذلك الوطن حيث يبطل الرجاء وتمتلك السعادة. «وعينِي ترعاك».. لن أحجب عنك عينَيَّ لأنّك لن تميل عينيك عنّي. بعد أن تبرّرت وغُفِرَت خطاياك، إرفع عينيك إلى الربّ. حين كان قلبُك ملتصقًا بالأرض كان عفنًا. وبحقّ يُقال لك: ارفع قلبك إلى العلاء؛ ذاك لئلّا يبلى وهو ملتصقٌ بالأرض. أبقِ إذًا عينَيك مرفوعتَين إلى الله، لكي يُبقي الله عينه عليك، على الدوام. لكن، هل تخشى، إذ ترفع عينيك إلى الله، أن تصطدم بشيء، وأن تزلّ قدمُك في شَرْك، إن أنت لم تنظر أمامَك؟ لا تخف! عين الله تراك وترعاك. «لا تهتمّوا»، يقول لنا الربّ (متّى ٦: ٣١). والقدّيس بطرس يقول: «ألقوا على الله همّكم كلّه، فإنّه يعتني بكم» (١ بطرس ٥: ٧). و«عيني ترعاك على الدوام». أمّا أنت، فأبقِ عينَيك مرفوعتَين إليه، ولا خوف عليك، كما قلت، من أن تقع في

شَرك. إسمع هذا الكلام للمرنّم: «عيناي إلى الربّ في كلّ حين» (مزمور ٢٤ : ١٥). وكما لو كان يُسأل: وأين تضع قدمَيك إن لم تنظر أمامَك؟ يُجيب: «فإنّه يُخرِج من الشِباك رجليَّ» (مزمور ٢٤ : ١٥). إذًا، «سأجعل عينَيّ عليك، على الدوام».

٢٢ - بعد أن وعد الله النبيّ بالفهم والرعاية، يرتدّ إلى المتكبّرين الذين يُدافعون عن معاصيهم، ويُبيّن لنا ما هو الفهم، بقوله لهم: «إحترزوا ألّا تكونوا بلا فهم كالفرس والبغل» (٣١ : ٩) الفرس والبغل يسيران رافِعَي الرأس، وليس كذاك الثور الذي عرف قانيه، ولا الحمار الذي عرف معلف صاحبِه (أشعيا ١ : ٣). «إحترزوا ألّا تكونوا بلا فهم كالفرس والبغل». فأيّ عقابٍ يلقى من يُشبههما؟ - «بالرسن واللجام تُطّوع أحناك الذين لا ينقادون إليك» (٣١ : ٩). أترضى بأن تكون فرسًا أو بغلًا، وتريد ألّا يمتطيك أحد؟ - إذًا، سيُطوّع فمك وحنكك بالرسن واللجام. سيُطوِّع الله ذاك الفم الذي يُعلي استحقاقاتِك ويكتم معاصيك. «طوّع أحناك الذين لا ينقادون إليك» بتواضع.

٢٣ - «كثيرة ضربات السياط للمنافقين[٢]» (٣١ : ١٠). لا عجب في أن يستخدم الله السوط بعد اللجام. كان الحيوان يأبى الإنقياد، فرُوِّض بالسوط واللجام، وعسى أن يكون قد روِّض! لأنّه يُخشى عليه، لعناده، أن يبقى برّيًا شاردًا لا ينقاد، فيمضي حيث يدفعه هياجه، فيُقال عنه ما يُقال عمّن تبقى معاصيهم بلا عقاب في هذه الدنيا من أنّ «آثامَهم تخرج من وفرة شحمِهم» (مزمور ٧٢ : ٧). فليُستخدم السوط لمعاقبة

(٢) في العبريّة: רַבִּים מַכְאוֹבִים , לָרָשָׁע أي كثيرةٌ عذابات الشرّير. وفي السبعينيّة: πολλαί αἱ μάστιγες τοῦ ἁμαρτωλοῦ أي كثيرةٌ سياط الشرّير. وبالمعنى نفسِه في الفولغاتا: multa flagella peccatoris.

الذين بقيت خطاياهم بلا عقاب. وعليه، فليصطلح الخاطئ الذي يُجلَد بالسوط، ولينقَدْ، لأنّ النبيّ طُوّع على هذا النحو. يعترف النبيّ بأنّه كان في البدء كالبغل والحصان بسبب صمتِه، فكيف طُوِّع؟ - بالسوط. يقول: «حوّلتني آلامي كلّما كانت شوكتُها تغرز فيَّ» (٣٠: ٤). إذًا، سواءٌ روّض الله، بالسوط أو بالمهماز، الحصان الذي يمتطيه، فلخيرِ الحصان أن يعلوه ذاك الفارس. وإذا اعتلى الربّ حصانًا، فليس لأنّه تعب من السير على قدمَيه. وإلّا لما كان ثمّة سرٌّ خفيّ في أن يستقدم الربّ جحشًا ليعتليه (متّى ٢١: ٧). ذاك الجحش يُمثّل الشعب الوديع المنقاد الذي يحمل الربّ برفقٍ وسلام، ويسير به إلى أورشليم. لأنّ الله، على ما يقول المزمور، «يهدي الودعاء إلى العدل، ويُعلّم صانعي السلام طرقَه» (٢٤: ٩). من هم الودعاء؟ - هم الذين لا يرفعون رؤوسهم بصَلَفٍ في وجه مروّضهم، بل يحتملون بصبرٍ السوط واللجام، فيلينون ويسيرون بلا سوط؛ وبلا رسن ولا لجامٍ يسلكون في الطريق السويّ. إن لم يكن الربّ فارسك، فأنت الذي تسقط دونَه. «كثيرةٌ ضربات السياط للمنافق، أمّا المتوكّل على الربّ فالرحمة تكتنفُه» (٣١: ١٠). إلى أيّ حدٍّ نجد الله ملاذًا لنا في البؤس؟ من حاصرته الشدّة، ستكتنفه الرحمة. لأنّ الذي أعطى الشريعة سيهب الرحمة: بالشريعة أعطى ضربات السوط، وبالرحمة منح التعزية. «أمّا المتوكّل على الربّ فالرحمة تكتنفُه».

٢٤ - ما هي الخلاصة التي يقدّمها النبيّ؟ - «إفرحوا بالربّ وابتهجوا أيّها الصدّيقون!» (٣١: ١١). وأنتم أيها الأثَمة الذين كنتم تبتهجون بأنفسِكم، وأنتم أيها المتكبّرون الذين لم تفرحوا إلّا بأنفسِكم، آمنوا بالذي يُبرِّر الخاطئ، فيُحسَب لكم إيمانُكم برًّا (رومة ٤: ٥). «إفرحوا بالربّ وابتهجوا أيّها الصدّيقون!»، أي ابتهجوا

بالرّب. لماذا؟ - لأنّكُم بُرّرتُم. وكيف بُرّرتُم؟ - بنعمة الله، لا لاستحقاقاتِكم. وكيف صرتم صدّيقين؟ لأنكم بُرِّرتُم.

٢٥ - «افتخروا جميعًا، يا مستقيمي القلوب» (٣١: ١١). متى يكون قلبكم مستقيمًا؟ - عندما لا تقاومون الله. أرجو محبّتكم أن تصغوا إليّ، وافهموا ما هو القلب المستقيم. أقولُها لكم بكلماتٍ قليلة، لكنّ الأمر بالغ الأهمّيّة. وأشكر الله على أنّها تأتي في الختام لكي تبقى محفورةً في أذهانِكم. إليكم الفرق بين القلب المستقيم والقلب الفاسد. المستقيم القلب هو الرجل الواقع، رغمًا عنه، في الشدائد والأحزان والعناء والهوان، ولا يرى، في كلّ ذلك، سوى إرادة الله العادلة، ولا يتّهمُه بالجهل، كما لو كان أعمى يجلدُ هذا ويعفو عن ذاك. وعلى عكسه هم ذوو القلوب المنحرفة الفاسدة المعوجّة الذين يزعمون أنّهم يُعانون العذابات ظلمًا، ويتّهمون بالظلم من سمح بها، أو إذا كانوا لا يجرؤون على اتّهامه بالظلم، يرفضون أن يُصدّقوا أنّه يحكم العالَم. لا يسع الله أن يأتي الظلمَ، يقول قائل، ولمّا كان من الظلم أن أعاني دون غيري - لأنّي أريد فعلًا أن أُقِرّ بأنّني خاطئ، لكن هناك من هم شرٌّ منّي، ويسعدون، وأنا مقيمٌ في الشدّة - إذًا، لمّا كان من الظلم أن يسعدَ من هم شرٌّ مني، فيما أئنّ من الألم، أنا البارّ، او الأقلّ ذنبًا؛ ولمّا كنت على يقينٍ من أنّ في الأمر ظلمًا، وعلى يقين من أنّ الله لا يسعه أن يصنع شرًّا، فإنّي أخلُص إلى القول بأنّ الله لا يحكم أمور العالَم ولا يهتمّ لنا البتّة. إذًا، فإنّ هؤلاء الناس ذوي القلوب الفاسدة المعوجّة، يقولون بثلاث نقاط مختلفة. أولاها، أنّ الله غير موجود: «قال الجاهل في قلبِه: لا إله» (مزمور ١٣: ١). وتلك واحدةٌ من أمواه الطوفان الغزيرة التي تكلّمنا عنها. وليسوا بقلائل الفلاسفة الذين يدعمون هذه المقولة، ويقولون بأنّه ما من إله

خلق هذه الأمور ويحكمها، بل هناك عدّة آلهة يهتمّون بأنفسِهم خارجًا عن العالَم، ولا همّ لهم بالعالَم. إذًا، يقول المنافق: لا إله، ويرفض كلّ ما يُصيبُه من أمور مؤسفة خارجًا عن إرادتِه، ولا يُصيب الآخر وهو شرٌّ منه. والثانية، أنّ الله ظالمٌ لأنّه يرضى بمثل هذه الأمور؛ والثالثة أنّ الله لا يرعى أمور البشر، ولا يهتمّ لكلّ تلك الأمور. في كلّ كلمة من هذه الكلمات إثمٌ فظيع، إن لجهة إنكار الله، أو اتّهامه بالظلم، أو نفي سلطانه على كلّ شيء. من أين يأتي هذا الإثم؟ - من انحراف قلب قائلِه. الله هو الاستقامة بذاتِها، والقلب غير المستقيم لا ينسجم مع الله. وهذا ما قالَه النبيّ في مزمورٍ آخر: «كم هو صالحٌ إله إسرائيل للمستقيمي القلوب!» (مزمور ٧٢: ١). ولأنّه، هو أيضًا، كان يتساءل ويقول في نفسِه: «كيف لله أن يعلم كلّ شيء، وهل لدى العليّ العلم كلّه؟» (مزمور ٧٢: ١١)، يقول في المزمور نفسِه: «أمّا أنا فأوشكَت قدماي أن تزيغا» (٧٢: ٢). ضعْ خشبةً مُعوجّة على صفحةٍ مسطّحة، يستحيل عليك أن تُسوّيَها أو تثبّتَها أو تلصقَها، بل تبقى متزعزعةً لا ثبات لها؛ لا لأنّ الصفحة غير مستوية، بل لأنّ الخشبة التي تريد أن تلصقَها بها مُعوجّة؛ كذاك هو قلبك، فإذا كان منحرفًا ومعوجًّا، لا يسعه أن يلتصق بالله الذي هو الاستقامة بعينِها، ولا أن يجد له مكانًا فيه، ليلتصق به، ويتحقّق فيه هذا القول: «أمّا الذي يلتصق بالربّ فيكون معه روحًا واحدًا» (١ قورنتس ٦؛ ١٧). لهذا يصرخ النبيّ: «افتخروا بالربّ يا مستقيمي القلوب» (٣١: ١١). كيف يفتخر ذوو القلب المستقيم؟ إسمعوا كيف يفتخرون. يقول الرسول: «لسنا نفتخر برجاء المجد فقط، بل نفتخر أيضًا بالشدائد» (رومة ٥: ٣). ليس من العجب الافتخار في الفرح وفي الابتهاج؛ لكنّ الرجلَ المستقيم القلب يفتخر حتّى في الشدائد؛ وبما أنّه ما من أحدٍ يفرح عبثًا ويبتهج بلا

طائل، إسمعوا لغة صاحب القلب المستقيم: «نعلم أنّ الشدّة تُنشئ الصبر، والصبر يُنشئ الطهارة، والطهارة تُنشئ الرجاء، والرجاء لا يُخزي لأنّ محبّة الله قد أُفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي أُعطِيَ لنا» (رومة ٥: ٣-٥).

٢٦ - ذاك هو، يا إخوتي، القلب المستقيم. فليهتِف الإنسان الذي يُمنى بخسارة: «الربّ أعطى، والربّ أخذ». يقول القلب المستقيم: هكذا حسن لدى الله، «فليكن اسم الربّ مباركًا!» (أيوب ١: ٢١). من الذي أخذ، وماذا أخذ، وممّن أخذ، ومتى أخذ؟ - تبارك اسم الربّ! لم يقل أيّوب: «الربّ أعطى، والشيطان أخذ». إحترزوا، يا إخوتي، ألّا تقولوا: «الشيطان فعل بي هذا». يد الله هي التي تضربك بالسوط، لأنّه لا سلطان للشيطان عليك، إلّا بإذنٍ ممّن له السلطان، ليُؤدِّب أو ليُعاقب: ليُؤدِّب أبناءه وليُعاقب الخاطئ. «الذي يُحبّه الربّ يؤدّبه ويجلدُ كلّ ابن يتّخِذُه» (عبرانيين ١٢: ٦). لا تدَّعِ أبدًا أنك تنجو من السوط، إلّا أذا أردت أن ترفض الميراث، فالربّ يؤدّب كلّ ابن يتّخذه. كلّ ابنٍ؟ - أجل، كلّ ابنٍ؛ لن يستثني أحدًا، ولن ينجوَ أحدٌ من التأديب. حتّى آخر ابنٍ؟ أتريد أن تعرف إلى أي درجة سيبلغ في تأديب آخر ابن؟ كان ابنه الوحيد بلا خطيئة، ولم يرتضِه من دون تأديب. لذلك حمل ابنه الوحيد نفسُه أسقامَك، وبدأ فظهر في طبيعتِك، فكان الرأس الذي يُمثّل جسده كلّه؛ ولحظة اقترابه من آلامِه حزنت نفسُه حتّى الموت (متّى ٢٦: ٣٨)، في الطبيعة البشريّة التي لبسها، لكي يؤمّن لك الفرَح؛ اغتمّ هو لكي يُعزّيك؛ في وقتٍ كان بوسع الربّ أن يُقصيَ عنه كلّ غمّ مع اقتراب آلامِه. إسمع بولُس، جنديّ المسيح، يبتهج لدى دنوّ آلامه ويقول: «ها أنا مستعدٌّ لأن أُذبَح، وأجَلُ انحلالي دنا. جاهدت الجهاد الحسن، وأتممت شوطي،

وحفظت الإيمان، ولم يبقَ لي سوى أن أنتظر إكليل البِرّ المحفوظ لي والذي يُكافئني به الربّ الديّان العادل، في ذلك اليوم العظيم، لا أنا فقط، بل كلّ الذين يتشوّقون إلى مجيئه» (٢ طيموتاوس ٤ : ٦-٨). أنظروا كم هو عظيمٌ فرحُه وهو ماضٍ ليتألّم. يبتهج من سينال الإكليل، ويغتم من يمنح الأكاليل. فماذا كان على المسيح أن يحمل؟ - هوانَ بعضِنا الذين يغتمّون لدى دنو الألم أو الموت؟ لكن انظروا أيضًا كيف يقودُهم إلى استقامة القلب. كنت تريد أن تعيش وتكون في مأمنٍ من كلّ شرّ؛ لكنّ الله دبّر خلاف ذلك. هناك، إذًا، مشيئتان متناقضتان. فلتُطابق مشيئتُك مشيئة الله، ولا تنقَدْ مشيئة الله إلى مشيئتِك؛ مشيئتُك منحرفة، ومشيئة الله هي الاستقامة. يجب أن يحافَظ على الاستقامة لكي يُقوّم عليها كل مُعوَجّ. أنظروا الآن كيف يُعطينا ربّنا يسوع المسيح هذه الأمثولة. يقول: «نفسي حزينةٌ حتّى الموت»؛ ويستطرد قائلًا: «يا أبتِ، إن كان يُستطاعُ، فلتعبُر عنّي هذه الكأس». في مشاعره هذه تتجلّى المشيئة البشريّة. فانظروا الآن فيه استقامة القلب: «لكن، لا كما أريد، بل كما تريد أنت يا أبتِ» (متّى ٢٦ : ٣٨-٣٩). فاقتدوا بهذا المثال: إفرحوا في شدائدكم، وابتهجوا عندما يحين اليوم الأخير. وإذا شعر أحدكم بوهنٍ في المشيئة البشريّة، فليتوجّه لتوّه ناحية الله لكي تكونوا جميعكم في عداد الذين قال عنهم النبيّ: «إفتخروا بالربّ يا مستقيمي القلوب».

عظة أولى في المزمور الثاني والثلاثين

توكّل البارّ

على البارّ أن يفرح، وأن يتوكّل على الربّ في عدله ورحمتِه ووعودِه التي قطعها لنا، وفي العناية التي يخصّ بها كلّ واحدٍ منّا. وحده يستطيع أن يُخلِّصنا، شرط أن تنتظره نفسُنا بصبر، والّا يجعل قلبُنا سعادتَه إلّا فيه.

١ - «إبتهجوا بالربّ أيها الصدّيقون». إبتهجوا أيّها الصدّيقون، لا بأنفسِكم، فذاك باطل، بل ابتهجوا بالربّ. «فإنّ التسبيح يجمُلُ بالقلوب المستقيمة» (٣٢: ١) الذين يخضعون للربّ هم الذين يُسبّحونه؛ وإلّا كانوا معوجّين فاسدين.

٢ - «رنّموا للربّ على الكنّارة» (٣٢: ٢). أشيدوا لله وقرّبوا له أجسادَكم ذبيحةً حيّة (رومة ١٢ : ١). «وبعودٍ عُشاريّ الأوتار أشيدوا له»؛ لترنّم أعضاؤكم كلّها لمحبّة الله والقريب، وللعمل بالوصايا الثلاث لله، وبالوصايا السبع للقريب.

٣ - «رنّموا للربّ نشيدًا جديدًا» (٣٢: ٣). رنّموا له نشيد الشكر والإيمان. «أحسِنوا العزف مع الهتاف». رنّموا وأشيدوا له من كلّ قلوبكم، والفرح يغمر نفوسكم.

٤ - «فإنّ كلمة الربّ مستقيمة» (٣٢: ٤). لأنّ كلمة الربّ تستطيع

باستقامتِها أن تجعلَكم ما لا تقوَون على أن تصيروه بأنفسِكم. «وجميع أعمالِه بالإيمان»: لا يظنَّنَّ أحدٌ أنّ بوسعه أن يبلغ الإيمان بفضل أعمالِه، من حيث أنّ الأعمال التي تحسُن لدى الله، تنبع من الإيمان.

٥ - «يُحبّ البِرّ والعدل». يُحبّ الرحمة التي يُفيضُها الآن على البشر، والعدلَ الذي يدفعه إلى طلب ثمار ما سبق أن أفاضه على البشر برحمتِه. «من رحمة الربّ امتلأت الأرض» (٣٢: ٥). في العالَم كلّه، بالرحمة الإلهيّة، ينال البشر مغفرة خطاياهم.

٦ - «كلمة الربّ رسّخت السموات». بكلمة الربّ ثبت الأبرار لا بأنفُسِهم ثبُتوا. «ومن نسمة فمه قوّتُها» (٣٢: ٦). وإيمانُهم كلّه من الروح القدس.

٧ - «يجمع مياه البحر كما في قِربَةٍ واحدة» (٣٢: ٧). يجمع كلّ شعوب الدنيا ليعترفوا بأنّ المخلِّص دمّر الخطيئة؛ مخافة ألّا تُبعدهم عنه أهواؤهم بفعل الكبرياء. «ويجعل الغمار مكنونةً في كنوزِه». يحفظ فيهم، لكي يُغنِيَهم، كنوز أسرارِه.

٨ - «فلتخشَ الربَّ جميعُ الأرض» (٣٢: ٨) فليخشَه الخاطئ، لكي يمتنع عن المعصية. «وليرتعِدْ أمامه كلّ سكّان المعمورة»، لا خوفًا من الناس، أو من أيّ خليقة أخرى، لكن، ليرتعد من الله جميع ساكني المعمورة.

٩ - «لأنّه قال، فكان كلّ شيء»، لا أحد سواه صنع تلك الخلائق التي يمكن أن يرهبَها البشر؛ بل هو وحده الذي تكلّم، فكانت كلّها. «أمرَ، فكُوّن كلّ شيء» (٣٢: ٩). أمر بكلمتِه، فكوِّنت كلّها.

١٠ - «أبطل الربّ مشورة الأمم» (٣٢: ١٠)، مشورة الذين كانوا يطلبون ملكَهم، لا ملكَه. «ويدحض أفكار الشعوب»؛ أفكار الذين

يبتغون سعادة هذا العالَم. «وينسخ مشورة الرؤساء»، الذين يسعَون إلى السيطرة على تلك الشعوب.

١١ - «أمّا مشورة الربّ فتدوم إلى الأبد» (٣٢: ١١). مشورة الربّ التي لا تمنح السعادة إلّا لمن يُطيعونَه، تدوم إلى الأبد. «وآراء قلبِه من جيلٍ إلى جيل». آراء حكمتِه لا تحُول، بل تبقى ثابتَةً إلى دهر الدهور.

١٢ - «طوبى للشعب الذي إلهُه الربّ» (٣٢: ١٢). طوبى لذلك الشعب الواحد، السالك في طريق المدينة السماويّة، الذي اختار الربّ إلهًا له. «طوبى للشعب الذي اختاره الله له ميراثًا». هذا الشعب لم يختَر نفسَه، بل الربّ اختاره في رحمتِه، حتّى إذا صار له ورعاه، يجعله بمنأى عن كلّ بؤس.

١٣ - «نظر الربّ من أعلى السماء فرأى جميع بني البشر» (٣٢: ١٣): من النفس البارّة التي يسكنها، ألقى الربّ نظرة رحمة على جميع الذين يريدون أن يولَدوا لحياةٍ جديدة.

١٤ - «من مسكنه الذي أعدّه». من المسكن الذي أعدّه لنفسِه بتجسُّده. «نظر إلى جميع سكّان الأرض» (٣٢: ١٤). ألقى نظرة رحمة على جميع البشر لكي يسود عليهم ويرعاهم.

١٥ - «هو جابل قلوبِهم جميعًا» (٣٢: ١٥). جعل في قلوبهم مواهب روحيّة ميّزهم بها، فلا يكون الجسد كلّه عينًا أو أُذُنًا (١ قورنتُس ١٢: ١٧)، بل يكون كلّ عضوٍ متّحدًا بيسوع المسيح، هذا بطريقة، وذاك بطريقة. «هو عالمٌ بأعمالهم كلّها»: يرى بوضوح جميع أعمالهم.

١٦ - «ما بكثرة الجنود يخلُص الملك» (٣٢: ١٦): من كان مَلِك جسدِه لا يخلُص إذا بالغ في الإتّكال على قوّتِه. «ولا يجد الجبّار

خلاصَه بكثرة القوّة»: كلّ الذين يُصارعون عادات الفجور القديمة، أي إبليس وملائكته، لن يخلُصوا إذا بالغوا في الإعتداد بقوتّهم الذاتيّة.

١٧ - «الفرس يُخيّب من يرجو منه الخلاص!»: يخطأ الإنسان إذا اعتقد أنّ بوسعِه، بمعونة البشر، أن يفوز بالخلاص المودَع في وسطِهم، أو إذا اعتقد أنّ اندفاعه يكفي لتجنيبِه الهلاك. «وبشدّة بأسِه لا ينجو» (٣٢: ١٧).

١٨ - «ها إنّ عين الربّ على خائفيه» (٣٢: ١٨). لأنّك إذا كنت تطلب الخلاص، فإنّ الله يحنو بمحبّته على الذين يتّقونَه. «الذين يرجون رحمتَه»: الذين يتوكلون، لا على قوّتهم، بل على رحمة الله.

١٩ - «ليُنقِذ من الموت نفوسَهم ويُقيتهم في الجوع» (٣٢: ١٩): لكي يُقيتَهم بكلمتِه وبالحقيقة الأزليّة التي فقدوها عندما تباهَوا بقواهم، فحُرِموا من البِرّ وفقدوا قواهم.

٢٠ - «نفوسُنا تنتظِر الربّ بصبر» (٣٢: ٢٠)، لكي تشبع نفسنا بطعامٍ لا يفسد، ستنتظر الربّ بصبرٍ، في مسكنها الأرضيّ. «فهو نُصرتُنا ومِجنُّنا». يعزّز قوانا، ويحمينا عندما نذهب إليه، وهو مجنّنا في مقاومة العدوّ.

٢١ - «به تفرح قلوبُنا» (٣٢: ٢١)، لا بأنفسِنا، نحن الغارقين في البؤس في غياب الله عنّا، بل بالله يفرح قلبُنا. «وعلى اسمه القدّوس توكّلنا». وإذا كنا نرجو أن نبلغ إلى الله يومًا، فلأنّه عرّفنا اسمه بالإيمان، عندما كنّا بعيدين عنه.

٢٢ - «لتكن يا ربّ رحمتك علينا بحسب رجائِنا لك» (٣٢: ٢٢). أجل يا ربّ، لتفض رحمتك علينا، لأنّنا رجوناك، ورجاؤُنا لا يخيب.

عظة ثانية في المزمور الثاني والثلاثين

القسم الأوّل: التوكّل على الله

تشتمل هذه العظة على القسم الأوّل من المزمور الثاني والثلاثين. وتعلّمنا أنّ علينا أن نبارك الربّ في العُسر كما في اليُسر؛ وأنّ في محبّة البِرّ تمام الشريعة؛ وأنّ الرحمة لا تفيض إلا مع البرّ.

١ - يعلّمنا هذا المزمور أنّ علينا أن نجعل فرحَنا في الربّ. عنوانه: مزمور لداود. فاسمعوا صوتَه أنتم الذين تنتمون إلى سلالة داود المقدّسة. أنشدوا كلماتِه وابتهجوا في الربّ. إليكم كيف يبدأ: «إبتهجوا في الربّ أيّها الصدّيقون». فليجد المنافق فرحَه في الدهر، فالدهر إلى زوال، ومعه فرحُ المنافق. أمّا الصدّيقون، فليبتهجوا في الربّ، فالربّ أزليّ، وفرحهم يدوم إلى الأبد. لكنّ فرحنا في الربّ ينبغي أن يتجلّى بتسبيحِه وتمجيدِه بصفتِه الوحيد الذي ليس فيه ما يُنفّرنا، وفيه، أكثر من أيّ شخص، ما ينفر منه الكافر. وقُصارى القول: «يُرضي اللهَ من يرضيه الله». ولا تظنّوا، يا إخوتي، أنّ هذا بالأمر التافه. أنظروا كم هم الذين يُخاصمون الله، وكم هم الذين لا ترضيهم أعمالُه. والحال، فإنّه عندما يُريد أن يعمل عكس إرادة البشر، فإنّه يعرف ماذا يعمل، لأنّه هو الربّ، ولا يتوقّف عند رغباتِنا بقدر ما يعمل لخيرِنا؛ والذين يُؤثرون أن يُعلوا إرادتَهم على إرادة الله، يريدون أن يُثنوا إرادة الله لكي تُطابِق إرادتَهم، لا أن يُغيّروا إرادتَهم على حسب

إرادة الله. هؤلاء الكفرة المنافقون الفاسدون - وأخجل من قولي هذا، ولكنّي أقوله، لأنّكم تعرفون أنّه صحيح - يفرحون بمهرّجٍ، فوق فرحِهم بالله نفسِه.

٢ - فبعد أن قال: «إبتهجوا في الربّ أيّها الصدّيقون»، وبما أنّنا لا نستطيع أن نبتهج فيه إلا بإنشاد التسابيح، وأنّنا نسبّحه بمقدار ما نحسُن لديه ونسعد به، يقول النبيّ: «فإنّ التسبيح يجمُل بالمستقيمي القلوب». من هم المستقيمو القلوب؟ - هم أولئك الذين يُطوّعونَ قلوبهم وفقًا لمشيئة الله، ويُعزّيهم البرّ الإلهيّ، في القلق الذي يُسبّبه لهم الضعف البشريّ. لأنّهم، وإن اتّفق أن تمنَّوا، في داخلِهم، وفي قلوبهم المائتة، أمرًا يعتقدون أنّه يتلاءم مع مصالحهم، ومع أعمالِهم، ومع حاجاتِهم الآنيّة، إلّا أنّهم عندما يعرفون أنّ الله يُريد لهم شيئًا آخر، يُفضّلون، على إرادتِهم، أرادة الأوفر حكمةً، وعلى إرادة العاجز، إرادة الكلّي القدرة، وعلى إرادة الإنسان، إرادة الله. فبمقدار ما يعلو الله على الإنسان، بمقدار ما تعلو الإرادة الإلهيّة على الإرادة البشريّه. لذلك، يعطينا المسيح المتأنّس حياتَه مثالًا، وإذ يُريد، في آنٍ، أن يعلّمنا أن نعيش ونستحقّ نعمتَه، يكشف لنا في ذاتِه مشيئةً بشريّة خاصّة، تمثّل، في آنٍ، مشيئتَه ومشيئتَنا، لأنّه رأسُنا، وتعلمون أنّنا نحن أعضاؤُه. يقول: «يا أبتِ، إن كان يُستطاع، فلتعبر عنّي هذه الكأس» (متّى ٢٦ : ٣٩). تلك كانت إرادته البشريّة التي تتوقّف عند رغبةٍ خاصّة وشخصيّة. لكن، بما أنّه كان يُريد أن يكون للإنسان قلبٌ مستقيم، لكي يحملَه على أن يُقوّم ما كان فيه مُعوجًّا، على من هو مثال الاستقامة الدائمة، أضاف: «لكن، لا كما أشاء، بل كما تشاء أنت، يا أبتِ» (متّى ٢٦ : ٣٩). لكن، هل كان بوسع المسيح أن يُريد شيئًا سيّئًا؟ وماذا كان ليُريد هو، ولا يُريده الآب؟ لكليهما طبيعة إلهيّة واحدة، ولا

يسعُهما إلّا أن تكون لهما مشيئة واحدة. لكنّه كان يُريد أن يُجسّد في تلك البشريّة جميع خاصّتِه، كما جسّدهم في ذاتِه عندما قال: «جعتُ فأطعمتموني» (متّى ٢٥ : ٣٥)؛ وكما جسّدهم، هو الذي لم يكن يمسّه أحدٌ، عندما صرخ من أعلى السماء لبولس مضطهد القدّيسين المملوء حقدًا: «شاول، شاول، لماذا تضطهدُني؟» (أعمال ٩ : ٤). كان يُريد، إذًا، أن يُظهِر لك، في ذاتِه مشيئةً خاصّةً بالإنسان. وضعَك أمام نفسِك وأدّبك. وقال لك: إعرف نفسَك فيّ. بوسعك أن تمتلِك إرادة شخصيّة تناقض إرادة الله، وهذا يُمكن أن يُغفَر لضعفِك، ويُغفَر للسقم البشريّ؛ ومن الصعب ألّا يكون لك أيّ إرادة شخصيّة؛ لكن، تذكّر لتوّك أنّ هناك من هو أرفع منك، وأنّه فوقك وأنت تحته، وأنّه الخالق وأنت المخلوق، وأنّه السيّد وأنت العبد، وأنّه الكليّ القدرة وأنت الضعيف؛ فأصلِح نفسَك، وأخضِع إرادتَك لإرادتِه، وقلْ: «لكن، لا كما أشاء، يا أبت، بل كما تشاء أنت». فكيف يمكن أن تنفصل عن الله، وأنت تريد ما يُريدُه؟ إذ ذاك تغدو مستقيم القلب، ويجمُل بك أن تسبّح الله «لأنّ التسبيح يجمُل بمستقيمي القلوب».

٣ - أمّا إذا كان قلبُك معوجًا، فإنّك تسبّح الربّ في اليُسر، وتُجدّف عليه في العُسر. لا يسوؤُك أن تعاني، إذا كان من العدل أن تعاني؛ فما تُعانيه عادلٌ، لأنّه يأتي من الذي لا يسعه أن يصنع جورًا. ستكون، عندها، في بيت أبيك، كالإبن العاقّ: تُحبّ أباك حين يُلاطفُك، وتُبغضُه حين يؤدّبُك، كما لو انّه، إذ يلاطفك أو يؤدّبك، لا يُعِدّك للميراث. لكن، انظر كيف أنّ التسبيح يَجمُل بالقلوب المستقيمة، واسمع صوت البارّ يسبّح الله في مزمورٍ آخر: «أبارك الربّ في كلِّ حين، وعلى الدوام تسبحتُه في فمي» (٣٣ : ٢). في كلّ حينٍ، أي على الدوام؛ وعبارة «أبارك الربّ»، بمعنى عبارة: «تسبحته

على فمي». في كلّ حينٍ، وعلى الدوام: في العُسر كما في اليُسر. لأنّك إن لم تُسبّح الله إلّا في اليسر لا في العسر، فكيف تكون تُسبّحه في كلّ حينٍ، وعلى الدوام؟ أفلسنا نسمع، كلّ يومٍ، كثيرين يصنعون ذلك؟ يُصيبون يُسرًا فيفرحون، ويبتهجون، ويسبّحون الله ويُمجّدونه، ويُرنّمون له الأناشيد. هؤلاء، بالطبع، لا يُلامون، فكثيرون مثلهم، يُصيبون يُسرًا ولا يُسبّحون. أمّا الذين بدأوا يسبّحون الله في زمن اليُسر، فعليهم أن يتعلّموا أن يرَوا فيه أبًا، حتّى حين يؤدّبُهم، وألّا يتذمّروا من اليد التي تعمل على إصلاحهم، لئلّا يمكثوا في الفساد، ويستحقّوا أن يُحرَموا من الميراث الأبديّ. حتّى إذا استقاموا - ويستقيمون عندما لا يسوءُهم أيّ عملٍ من أعمال الله - كان بوسعهم أن يُسبّحوا الله، حتّى في العُسر، ويقولوا: «الربّ أعطى، والربّ أخذ»، هكذا حسُن لدى الربّ، «فليكن اسم الربّ مباركًا» (أيّوب ١ : ٢١). تلك القلوب المستقيمة يجمُل بها أن تسبّح الله؛ تلك القلوب التي لا تُسبّحه لتعود فتُجدّف عليه.

٤ - إذًا، أنتم أيّها الصدّيقون، ذوو القلوب المستقيمة، سبّحوا الربّ بالابتهاج، لأنّ بكم يجمُلُ التسبيح. لا يقولَنَّ أحدٌ: من أنا فأكون صدّيقًا؟ أو، متى أكون صدّيقًا؟ لا تزدرِ نفسَك. لا تيأس قطّ من نفسِك. أنت إنسان، وعلى صورة الله خُلِقت (تكوين ١ : ٢٧). إنّ الذي صنعكم بشرًا، صار أنسانًا لأجلِ خلاصكم؛ ولكي تصيروا أبناءً لله بالتبنّي، ويدعوكم بأعدادٍ غفيرة للميراث الأبديّ، أراقَ دم ابنه الوحيد من أجلكم. إذا كان الضعف البشريّ يجعلكم محتَقرين في أعين أنفُسِكم، فتعلّموا أن تُقدّروا أنفُسكم بالثمن الذي افتديتُم به. فكّروا برويّة في ما تأكلون وفي ما تشربون وفي ما تجاهرون به عندما تقولون: آمين. هل غاية بشارتنا أن نحملكم على الكبرياء؟ وهل تجرؤون على

ادعاء بعض الكمال بسبب بشارتِنا؟ لا؛ لكن عليكم ألّا تحسبوا أنفُسَكم غرباء عن كلّ بِرّ. لا أريد أن أسألَكم في أمر برّكم، لأنّه قد لا يجرؤ أحدٌ منكم على الإدّعاء بأنّه بارّ؛ غير أنّي أسألكم في أمر إيمانِكم. وكما أنّ أحدًا لا يجرؤ على القول بأنّه بارّ، كذلك لن يجرؤ أحدٌ فيقول إنّه ليس في عداد المؤمنين. أنا لا أسعى لكي أعرف كيف تحيا؛ أسألُك بماذا تؤمن. تُجيبُني بأنّك تؤمن بيسوع المسيح. ألم تسمع ما يقوله الرسول: «البارُّ بالإيمان يحيا»؟ (رومة ١: ١٧). إيمانك هو بِرُّك. لأنّك إذا آمنت، سهرت على نفسِك؛ وإذا سهرت على نفسِك، فإنّك تبذل جهدًا؛ وهذا الجهد يعرفه الله، ويرى ما تريد، ويُقدّر صراعك ضدّ الجسد، ويحضّك على القتال، ويُساعدك على تحقيق النصر، ويُراقبُك أثناء المعركة، ويعضدك عندما تضعُف، ويُكلّلك حين تنتصر. إذًا، «أيّها الصدّيقون، ابتهجوا في الربّ» تعني: ابتهجوا في الربّ أنتم يا من نلتم الإيمان، لأنّ البارّ بالإيمان يحيا. «فإنّ التسبيح يجمُل بالقلوب المستقيمة» (٣٢: ١). تعلّموا أن تشكروا الله في السرّاء والضرّاء. تعلّموا أن تضمّنوا قلوبكم ما يضعه كلّ إنسانٍ على شفتَيه، كلّ ما يريده الله. صوت الشعب، في معظم الأحيان، تعليمٌ خلاصيّ. من ذا لا يقول كلّ يوم: لتكن مشيئة الله؟ فليقلها من قلبِه، يكنْ في عداد المستقيمي القلوب الذين يبتهجون في الربّ ويجمُل بهم التسبيح. إليهم يتوجّه المزمور في الآية التالية ويقول: «سبّحوا الربّ بالكنّارة[1]، رنّموا الأناشيد على مزهَر عُشاريّ الأوتار» (٣٢: ٢). هذا ما رنّمناه، لساعتِنا، بصوتٍ واحد، وغايتنا تعليم قلوبِكم.

---

(١) الكنّارة هي القيثارة κιθάπα؛ وبالفرنسيّة luth والكلمة تعني أيضًا السلحفاة البحريّة.
والمزهر العشاريّ الأوتار: ψαλτηπίω δεκαχόπδω وبالفرنسيّة: psaltérion à dix cordes (ψαλλω = لامَس الوتر برقّة أو نقره برقّة).

٥ - ألم تكن الغاية من إنشاء الاحتفال بالأمسيات المقدّسة باسم المسيح، إستبعاد الآلات الموسيقيّة من الكنيسة؟ وها إنّ النبيّ يأمر بأن تصدح. رنّموا، يقول النبيّ، «سبّحوا الربّ على الكنّارة، رنّموا الأناشيد على عودٍ عُشاريّ الأوتار». فلا تذهبْ بكم أفكاركم إلى موسيقى المسرح. الترانيم التي تُطلب منكم هي في داخِلِكم، على ما قيل في مكانٍ آخر: «أللهمَّ لك عليّ في قلبي نذورٌ سأوفيها» (مزمور ٥٥: ١٣). يذكرُ الذين كانوا حاضرين، يومَها، حين شرحت الفرق بين الكنّارة وبين المِزهر العشاريّ الأوتار، واجتهدتُ في وصفهما لكي يكون بمتناوَل فهم الجميع (راجع العظة في المزمور ٤٢، فقرة ٥؛ والعظة الثانية في المزمور ٧٠، فقرة ١١). يبقى أن يحكم المستمعون إن كنّا قد نجحنا. والإعادة ليست من غير إفادة، لأنّ إظهار الفرق بين هاتَين الآلتَين الموسيقيّتَين، يفيدنا في إظهار الفرق في الأعمال البشريّة التي نقوم بها في حياتِنا، والتي تمثّلُها الآلتان. الكنّارة آلة أسفلها نوع من طبلٍ خشبيٍّ مقعَّر، على شكل بيت سلحفاة، تُشدّ عليه أوتارٌ ترنّ عندما تُلامَس. لا أتكلّم عن القوس الذي يُستعمل لتحريك الأوتار، بل عن ذلك الخشب المقعّر، الذي تُشدُّ عليه الأوتار؛ فإذا اهتزّت تلك الأوتار لدى ملامستِها، رجّع الخشب المقعّر صوتَها، فسُمع لها رنين أوضح. في الكنّارة، الخشب المقعّر في الأسفل، وفي المزهَر في الأعلى. ذاك هو الفرق بين الآلتَين. والحال، فإنّ النبيّ يأمرنا بأن نرنّم لله تارةً على الكنّارة، ونُنشد له التسابيح على المزهر العشاريّ الأوتار، تارةً أخرى. لم يتكلّم عن كنّارة عُشاريّة الأوتار، لا في هذا المزمور ولا في مزمور آخر، على ما أظنّ. وأذكر، بقدر ما تسمح لي الذاكرة، أنّني غالبًا ما شاهدت مزهرًا بعشرة أوتار، لكنّني لم أقع في أيّ مكانٍ على كنّارة بعشرة أوتار. على أنّ أبناءنا القرّاء الأعزّاء يستطيعون أن

يقرأوا في أوقاتِ فراغِهم المتاحة لهم أكثر منّا، ويتأكّدوا من هذا الأمر. إحفظوا، إذًا، أنّ صوت الكنارة يصدر عن الجزء الأسفل، وصوت المزهر عن الجزء الأعلى. والحال، فإنّنا في حياتِنا الأرضيّة نُلاقي العسر واليُسر، وفي كلا الحالَين، علينا أن نسبّح الله، وأن تكون تسبحتُه في فمنا في على الدوام، ونبارك الربّ في كلّ حين (مزمور ٣٣: ٢). وكما أنّ في الأرض يُسرًا كذلك فيها عُسرٌ؛ وفي الحالَين، علينا أن نُسبِّح الله إذا كنّا نُريد أن نرنّم له على الكنّارة. ما هو اليُسر الأرضيّ؟ إنّه صحّة الجسد، ووفرة كلّ ما نحتاجه في هذه الحياة؛ إنّه الاطمئنان من كلّ خطر، والخير الوافر؛ إنّه «الشمس التي يُطلِعُها الربّ على الأخيار والأشرار، والمطر الذي يُنزلُه على الأبرار والمنافقين» (متّى ٥: ٤٥). كلّ هذه الأشياء مهمّة للحياة الأرضيّة. وعاقٌّ كلّ من لا يحمد الله عليها. ألا تكون من لدن الله إذا كانت أرضيّة؟ أم ينبغي أن نتصوّر أنّها تأتينا من آخر، لأنّها تُعطى أيضًا للأشرار؟ إنّ الرحمة الإلهيّة تتجلّى بأشكالٍ كثيرة: فالله صبورٌ طويل الأناة. ما العطايا التي يُسبِغُها على الأشرار إلّا لتدلّنا، بشكلٍ أفضل، على العطايا التي يحفظُها للصالحين. أمّا البلايا فلا تأتينا إلّا من الجزء الأدنى من طبيعتنا، من هشاشة الجنس البشريّ التي تلد الآلام والأسقام والمظالم والشدائد والتجارب. من أراد أن يسبِّح الله على الكنّارة، فليسبّحه في كلّ مكانٍ وفي كلّ حين. ما همّه أن تكون تلك الخيور والشرور من درجةٍ دنيا. بل فليجعل همّه بالحكمة التي «تبلغ من غاية إلى غاية بالقوّة، وتُدير كلّ شيءٍ بالرفق» (حكمة ٨: ١) والتي وحدها تستطيع أن تحكمها وترعاها. والحال، فإنّ الحكمة الإلهيّة لا تكتفي بأن ترعى أمور السماء، وتُهمل أمور الأرض. وإلّا لما قال النبيّ: «أين أذهب من روحِك، وأين أفرّ من وجهِك؟ إن صعدتُ إلى السماء فأنت هناك،

وإن هبطتُ إلى الجحيم فأنت حاضر» (مزمور ١٣٨ : ٧، ٨). فأين لا نجد ذاك الحاضر في كلّ مكان؟ إذًا، رنّموا للربّ على الكنّارة. في وفرة الخيور الأرضيّة، أشكروا من أعطاكموها؛ وفي العَوَز أو في الخسارة، مجّدوه على الكنّارة ولا تخافوا. فإنّ الذي منحكم تلك الخيور لم يُنزَع منكم، حتّى ولو انتُزِعت منكم عطاياه. أقول لكم، حتّى في هذه الحال، سبّحوا الربّ ولا تخافوا. توكّلوا على إلهكم. إلمسوا أوتار قلوبكم، وقولوا كمن يُرنّم على كنّارة تخرج من أسفلِها أصواتٌ متناغمة: «الربّ أعطى، والربّ أخذ، هكذا حسُن لدى الله، فليكن اسم الربّ مبارَكًا» (أيّوب ١ : ٢١).

٦ - أمّا إذا جعلت همّك في العطايا العلويّة التي صنعها لك الربّ، وفي الوصايا التي أعطاكَها، وفي الحكمة السماويّة التي ملأك بها، وفي الأحكام الإلهيّة التي أنهلك إيّاها من ينابيع الحقيقة، فاترك الكنّارة، وأمسِك بالمزهر، ورنّم للربّ الأناشيد على المزهر العشاريّ الأوتار. والحال، فإنّ وصايا الشريعة عشر، وتلك الوصايا العشر تمثّل لك مزهرًا بعشرة أوتار. إنّها مثل آلةٍ كاملة التناغم. ثلاث وصايا تأمر بمحبّة الله، والسبع الأخرى بمحبّة القريب. وتعلمون، كما يعلّمنا الربّ، أنّ «هاتين الوصيّتين تتضمّنان الشريعة كلّها والأنبياء» (متّى ٢٢ : ٤٠). من عليائه قال لك الربّ: «الربّ إلهك، إلهٌ واحد» ذاك هو الوتر الأوّل في مزهرِك. «لا تحلف باسم الله بالباطل»: ذاك هو الوتر الثاني. «إحفظ يوم السبت»، لا في الجسد ولا في الملذّات، كما يفعل اليهود فيستغلّون الراحة ليرتكبوا الإثم. كان أحرى بهم أن يمضوا النهار كلّه في حراثة الأرض، من أن يرقصوا النهار كلّه؛ أمّا أنت الذي تتذكّر يوم راحة إلهك، وتصبو إلى الراحة الأبديّة التي عليك أن تعمل لأجلها، على الدوام، فامتنع عن كلّ دناءة. «لأنّ من عمل الخطيئة كان عبدًا

للخطيئة» (يوحنّا ٨: ٣٤). حبّذا لو كان عبدًا لإنسان، لا للخطيئة! هذه الوصايا الثلاث تشتمل على محبّة الله الذي عليك أن تتأمّل حقيقتَه ووحدتَه وتشتهيه شهوة مقدّسة. ذاك أنّ في الله طيّبات، وفيها نجد السبت الحقيقيّ، أي الراحة الحقيقيّة. لهذا قال النبيّ: «تلذّذ في الربّ فيُعطيكَ سؤلَ قلبِك» (مزمور ٣٦: ٤). ومَن سوى خالق الطيّبات، بوسعِه أن يُوفّر لنا مثل تلك الطيّبات؟ إذًا، هذه الوصايا الثلاث تأمر بمحبّة الله؛ والسبع الباقية بمحبّةِ القريب التي تأمرك بألّا تصنع لآخر ما لا تريد أن يصنعه لك. «أكرم أباك وأمّك» لأنّك تريد أن يُكرمك بنوك. «لا تزنِ»، لأنّك لا تريد، إن أنت زنيت، أن تزني امرأتك. «لا تقتل»، لأنّك لا تُريد أن تُقتَل. «لا تسرق» لأنّك لا تُريد أن تُسرَق. «لا تشهَد بالزور» لأنّك تحقد على من شهد عليك بالزور. «لا تشتَهِ امرأة قريبِك» لأنّك لا تريد أن يشتهي آخرُ امرأتَك. «لا تشتهِ مقتنى غيرِك» لأنّه يسوءُك أن يُشتهى مقتناك (راجع خروج ٢٠: ١-١٧؛ تثنية ٥: ٦-٢١). فاحفظ لسانك، لأنّ الذي يؤذيك يُكدّرُك. كلّ تلك الوصايا تأتينا من الله؛ إنّها عطيّةٌ من الحكمة السُميا، من العلياء. فالمس، إذًا، أوتار مزهرِك، وأتمّ الشريعة التي أتى الربّ إلهك، لا لينقضَها، بل ليُكمّلَها (متّى ٥: ١٧). بالمحبّة تُتِم ما لم تقوَ على أن تُتِمّه بالخوف. لأنّ من يبعده الخوف وحده عن الشرّ، كان يتمنّى أن يصنعه لو استطاع. لا يستطيع أن يصنع الشرّ، لكنّه يحتفظ بالإرادة على فعلِه. يقول: لا أصنع الشرّ. لماذا؟ لأنّي أخاف. أنت ما زلت لا تُحبُّ البرّ؛ ما زلت عبدًا، فصرْ ابنًا. لأنّ العبد الصالح يصنع الإبن الصالح. جانبِ اليومَ الشرّ خوفًا، تتعلّمْ غدًا أن تُجانبَه بالمحبّة. والحال، فإنّ للبرّ بهاءَه. فليصدّك التأديب عن الشرّ. لأنّ للبِرّ بهاءَه، وهو يفتن الأنظار ويُضرِم الذين يُحبّونَه. من أجل البرّ داس الشهداء بأقدامِهم

العالَم، وأراقوا دماءَهم. ماذا أحبّوا عندما ازدرَوا كلّ خيور العالَم؟ أما أحبّوا شيئًا؟ أنُكلّمكم هكذا لكي نحرفكم عن المحبّة؟ باردٌ، بل جامدٌ هو القلب الذي لا يُحبّ. أحبّوا، إذًا؛ لكن أحبّوا ذاك البهاء الذي يأسر أعين القلب. أحِبّوا، إذًا؛ لكن أحبّوا ذاك البهاء الذي يُلهب القلوب عندما نسمع امتداح البِرّ. يُلهب البهاء الناس فتفيض أفواههم بالكلام، ويهتفون ويقولون من كلّ صوب: يا للبهاء، يا للروعة! فماذا عاينوا؟ عاينوا البِرّ الذي يفيض بهاءَه على الشيخ الذي أحنته السنون. ننظر إلى ذاك العجوز الرافل بالبِرّ، فلا نرى في جسدِه ما يُحَبّ، ومع ذلك فإنّ الجميع يُحبّونَه. نُحبّ فيه ما لا يُرى، بل نُحبّ فيه ما يراه القلب. فليأسركم البِرّ، واسألوا الربّ أن يأسركم ببهائِه على الدوام. «فإنّ الربّ يُفيض علينا الخير، والأرض تُعطي ثمرَها» (مزمور ٨٤: ١٣). من أجل أن تُتِمّوا بالمحبّة ما يصعب عليكم أن تُتمّوه بالخوف. أأقول ما يصعب عليكم؟ حتّى أنّ النفس لا تستطيعُه أيضًا، وتُفضّل ألّا تكون هناك وصيّة، إذا كان الخوف هو الذي يفرضُها، لا المحبّة هي التي تحرّضُ على إتمامِها. يُقال له: لا تسرق، أو فاخشَ جهنّم: يتمنّى لو لا تكون جهنّم حيث يمكن أن يُدان. لكن، متى يبدأ فيحبّ البِرّ إلّا حين يمتنع عن السرقة، حتى ولم يكن الجحيم موجودًا ويُلقى فيه السارقون؟ تلك هي محبّة البِرّ.

٧ - لكن، ما هو ذاك البِرّ؟ من يستطيع أن يصِفَه؟ أي بهاءٍ بهاءُ حكمة الله؟ هو الذي منه كلّ ما يفتن أعيُنَنا. ولكي نراه ونعانقَه، علينا أن نُطهّر قلوبَنا. وهو الذي نُجاهرُ بحبّه، وهو الذي يجعلنا في حال لا يسوءُه. وعندما يُعيب علينا الناس ما نفعلُه إرضاءً لتلك الحكمة التي نُحبّها، فكم يقلّ اعتبارُنا لأولئك الرقباء، وكم نحتقرُهم، وننظر إليهم كلا شيء! من الرجال من ينجرفون وراء نساءٍ في حبٍّ آثم ومُدان، فإذا

وافقت تلك العشيقات أذواقَهم، وراقوا هم لهنّ، فإنّهم لا يُبالون بأن يسيئوا إلى الآخرين، متى اطمأنّوا أنّهم يُرضون عشيقاتِهم. يحسبون أنّه يكفيهم أن يحسُنوا في عيون اللواتي يعدون وراءَهنّ. وفي الغالب، يمقتُهم العقلاء، أو بالأحرى، يدينهم الحكماء ذوو الذوق السليم. شعرُك أشعث، يقول رجل جليلٌ لشابٍّ منحرِف، ومعيبٌ أن تظهر بشعرٍ أشعث. غير أنّ ذاك العاشق يعرف جيّدًا أنّ شعره هذا يُعجبُ أحدَهم، فيُبغِضُك لأجل توبيخِك المحقّ، ويحتفظ بشكل شعره الذي لا يروق إلّا للذوق السفيه. وينظر إليك كعدوّ له لأنّك تدعوه إلى الحشمة. يتوارى عن عينَيك، ولا يهتمّ بصحّة ملاحظاتِك. فإذا كان هؤلاء الشبّان يزدرون الملامة الصادقة، ليظهروا بمظهر المخادعين اللطفاء، فهل علينا، في الأمور التي تجعلنا مرضيّين أمام الحكمة الإلهيّة، أن نهتمّ لبعض السخفاء الأثمة، الذين لا يملكون عيونًا ليرَوْا ماذا نُحبّ؟ فيا أيّها المستقيمو القلوب، تذكّروا هذه الأفكار، «وسبّحوا الربّ على الكنّارة، ورنّموا له على المزهرِ العشاريّ الأوتار».

٨ - «رنّموا له ترنيمًا جديدًا» (٣٢: ٣). إخلعوا عنكم الإنسان العتيق، فتعرفون النشيد الجديد. إنسان جديد، وعهد جديد، ونشيد جديد. ليس النشيد الجديد ميراثَ الإنسان العتيق. لا يتعلّمه إلا المتجدّدون الذين جدّدتهم النعمة، بانتشالِهم من طبيعتِهم العتيقة، والذين ينتمون إلى العهد الجديد، أي إلى ملكوت السموات. إلى الله تتوق محبّتُنا كلّها، وله تُرنّم محبّتنا النشيد الجديد. فلنُرنّم له هذا النشيد بأعمال حياتنا، لا بلساننا. «رنّموا له ترنيمًا جديدًا، رنّموه بحكمة». يتساءل كلٌّ منّا: كيف نرنّم لله هذا النشيد؟ رنّموا، ولا يكن في ترنيمِكم نشاز؛ لا يريد الله أن تُخدَشَ أذُناه. رنّم بحكمة، يا أخي. عندما يُطلب منك أن ترنّم لكي تُسِرَّ موسيقيًّا بارعًا يسمعك، تخشى أن ترنِّم، إن

كنت لا تملك بعض المعرفة في فنّ الموسيقى، لئلّا تخدش أُذن فنّان يعرف كيف يُعيب عليك أخطاءً في ترنيمك تخفى على الجاهل. من ذا يجرؤ فيتقدّم ليرنّم بحكمة أمام الله، ذاك الرهيف السمع، والدقيق الحكم في كلّ الأمور؟ متى تستطيع أن تضع في ترنيمك ما يكفي من الفنّ والإتقان، فلا يخدش آذانًا بمثل تلك الرهافة؟ ها هو يُشير إليك بنفسِه كيف ينبغي أن ترنّم. لا تبحث بعدُ عن كلمات، كما لو كان لك أن تجد منها ما يُسِرّ الله: «رنّموا بالهتاف». فالترنيم بالهتاف هو الترنيم الذي يليق بالله. فما هو الترنيم بالهتاف؟ - هو أن تفهم أنّ الكلمات أعجز من أن تُعبّر عن ترنيم القلب. والحال، فإنّ الذين يُنشِدون في أوان الحصاد أو القطاف أو أيّ عملٍ آخر يبعث فيهم الحياة، بعد أن يبدأوا بإطلاق فرَحهم بكلمات أناشيدهم، لا تلبث أن تأخذهم نشوةٌ بالغة، فلا يعودون يجدون الكلمات المعبّرة، ويُعرِضون عن كل كلام موزون، مطلقين صيحات هتافٍ مُختلِطة. وصيحات الهتاف هذه تعني أنّ مشاعر القلب لم يعد بوسع الكلمات أن تعبّر عنها. ومن يليق به الهتاف سوى الله الذي لا يحدُّه وصف؟ فالله هو الفائق الوصف الذي تعجز الكلمات عن وصفِه. لكن، إذا كان عليك أن تتكلّم عنه، وكنت عاجزًا عن التعبير، فماذا يبقى لك سوى نشوة الهتاف؟ ماذا يبقى لك سوى أن يصمت قلبك في غمرة فرحِه، وينطلق فرحك العارم متجاوزًا حدود الكلام؟ «أنشدوا لمجده بحكمة، رنّموا بالهتاف».

٩ - «فإنّ كلمة الربّ مستقيمة، وكلّ أعمالِه بالإيمان» (٣٢: ٤). الربّ مستقيم حتّى في الأمور التي لا ترضي الناس ذوي القلوب المعوجّة. «وكلّ أعمالِه بالإيمان»؛ فلتكن أعمالك أنت أيضًا بالإيمان، «لأنّ البارّ بالإيمان يحيا» «والإيمان هو الذي يعمل بالمحبّة» (غلاطية ٥: ٦). لتكن أعمالك بالإيمان لأنّك إذ تؤمن بالله تصيرُ أمينًا. لكن،

كيف تكون أعمال الله بالإيمان، كما لو كان الله أيضًا بالإيمان يحيا؟ والحال، فإنّنا نرى أنّ الله أمين، ولسنا نحن من يقول هذا القول بل الرسول بولس: «إنّ الله أمينٌ، ولا يدعكم تُجرّبون فوق طاقتِكم، بل يجعل مع التجربة مخرجًا، لتستطيعوا أن تحتملوا» (١ قورنتس ١٠: ١٣). سمعتم أنّ الله أمينٌ؛ فاسمعوا أيضًا ما يقول في مكانٍ آخر: «فإن احتملنا معه، فسنملك معه أيضًا؛ وإن أنكرناه، فسيُنكرنا هو أيضًا. وإن كنّا له أوفياء فسيبقى هو أمينًا، لأنّه لا يُمكن أن يُنكِر ذاتَه» (٢ طيموتاوس ٢: ١٢، ١٣). إذًا، إنّ لنا إلهًا أمينًا. لكن علينا أن نميّز بين أمانة الله وأمانة البشر. الإنسان يكون أمينًا إن هو آمن بوعود الله؛ والله يكون أمينًا حين يفي بوعودِه للإنسان. فلنكن على يقين من أمانته الكلّيّة على الوفاء بوعوده، لأنّنا على يقين من رحمتِه الكلّيّة في وعودِه. والحال، فإنّنا لم نُعطِه شيئًا ليكون مدينًا لنا به؛ ما دمنا منه ننال ما نستطيع أن نقدّمه له. وإن كان فينا من صلاح، فمنه نستمِدُّه. ومنه تأتينا كلّ الخيور التي تُفرِحُنا. «من عرف فكر الربّ؟ ومن كان له مُشيرًا؟ ومن سبق فأعطى ليُكافأ؟ فكلّ شيءٍ منه وبه وإليه» (رومة ١١: ٣٤-٣٥). إذًا، لم نُعطِه شيئًا، ومع ذلك فهو مدينٌ لنا. فلِمَاذا هو مدينٌ لنا؟ - لأنّه وَعَد. لا نقول لله: أعِد إلينا، يا ربّ، ما نلتَه منّا؛ بل: «أعطِنا ما وعدتَنا به». «لأنّ كلمة الربّ مستقيمة». فما معنى «إنّ كلمة الربّ مستقيمة»؟ - يعني أنّها لا تغشّ أبدًا، فاحترز ألّا تغُشّها أنت، أو بالأحرى، إحترز ألّا تغشّ نفسَك. فمن ذا يسعه أن يغشّ الذي يعلم كلّ شيء؟ لكنّ «الإثم على نفسه ينفُث»، لأنّ «كلمة الربّ مستقيمة وكلّ اعمالِه بالإيمان» (٣٢: ٤).

١٠ - «الربّ يُحبّ الرحمة والعدل» (٣٢: ٥). فأحِبّوهما لأنّ الله يُحبّهما. إجتهدوا، يا إخوتي لتعرفوا تلك الرحمة وذلك العدل. الآن

زمن الرحمة، وبعده يأتي زمن القضاء. لماذا الآن زمن الرحمة؟ لأنّ الله الآن يدعو الذين يرتدّون عنه، ويغفر للذين إليه يرجعون؛ لأنّه ينتظر بصبرٍ توبة الخطأة؛ ولحظة توبتِهم، ينسى الخطايا الماضية، ويعِد بالخيور المقبلة. يحثّ المتوانين، ويُعزّي الحزانى، ويعلّم المجتهدين، وينصرُ المقاتلين؛ لا يتخلّى في الضيق عمّن يصرخون إليه؛ يُعطي ما يمكن أن يُبذَل لأجلِه، ويمنح ما يمكن أن يطمئنَه. لا، لا ندع، يا إخوتي، زمن الرحمة الثمين هذا يُفلت من يدِنا، لئلّا يدهمَنا يوم الدين فنندم وتكون ندامتنا بلا ثمر. «ويقولون في أنفُسهم نادمين وهم ينوحون من ضيق صدورِهم... ماذا نفعتنا الكبرياء، وماذا أفادنا افتخارُنا بالأموال؟ مضى ذلك كلّه كالظلّ» (٥: ٣، ٨، ٩). لنقُل الآن: «كلّ شيءٍ يمضي كالظلّ». لنا فائدةٌ في أن نقول الآن: «كلّ شيءٍ يمضي»، مخافة ألّا يكون لنا فائدة في أن نقول في يوم الدين: «مضى كلّ شيء». الآن زمن الرحمة، لكنّ زمن القضاء آتٍ بدورِه.

١١ - وفي أيّ حالٍ، يا إخوتي، إحترزوا ألّا تظنّوا أنّ الرحمة والعدل يمكن، بأي شكلٍ من الأشكال، أن ينفصلا عن الله. والحال فإنّهما يبدوان أحيانًا متناقضَين، فنرى الرحيم كأنّه يرفض العدل، والملِحّ في طلب العدل كأنّه يُغفِل الرحمة. إنّ الربّ كلّي القدرة وبرحمتِه يُقيم العدل، وفي أحكامِه لا ينسى الرحمة. يُظهر لنا رحمتَه، لأنّه يرى فينا صورتَه، كما يرى هشاشتنا، وأخطاءَنا وضلالَنا، فيدعونا إليه، ويغفر خطايا التائبين، ويحفظ خطايا الذين لا يتوبون. فهل يرحم الأثَمة؟ هل فقد حقّه في القضاء؟ أليس عليه أن يفصل في الحكم بين الآثم والتائب؟ أيبدو لكم من العدل أن يُعامَل، على السواء، التائب ورافض التوبة؟ وأن يُقبَل بالطريقة نفسِها الذي يعترف بخطاياه، والذي يكتمُها، فيخلص المتواضع والمتكبّر معًا؟ الله يقيم العدلَ حتّى عندما

يرحم، وبالمقابل، فإنّه يُقيم الرحمة عندما يقضي بالعدل. فمن يشمل برحمتِه؟ - الذين يقول لهم: «جعتُ فأطعمتموني» (متّى ٢٥ : ٢٥). قيل في إحدى الرسائل: «يكون القضاء بلا رحمة على من لم يصنع رحمة» (يعقوب ٢ : ١٣). كما قيل: «طوبى للرحماء، فإنّهم يُرحَمون» (متّى ٥ : ٧). إذًا، يجعل الله في قضائه هذا رحمةً، لكن ليس من غير أن يُقيم القضاء. لأنّه لا يشمل بالرحمة جميع الناس، بلا تمييز، بل الرحماء فقط، فإنّ تلك الرحمة تكون عدلًا، لأنّها لا تُمنح بلا تمييز. مغفرته الخطايا رحمة، بلا شك، ورحمةٌ أيضًا منحه الحياة الأبديّة. لكن انظروا، في هذه الأعمال ما هو دور العدل: «إغفروا يُغفرْ لكم، أَعطوا تُعطَوْا» (لوقا ٦ : ٣٧، ٣٨). الرحمة، بالتأكيد، عطاءٌ وغفران؛ لكن، لو كانت الرحمة منفصلة عن العدل، لما قال المخلّص: «بالكيل الذي به تكيلون، يُكالُ لكم» (متّى ٧ : ٢).

١٢ - سمعتم لتوّكم، كيف يُمارس الربّ رحمتَه وعدلَه. فكونوا أنتم أيضًا عادلين ورحماء. وهل الرحمة والعدل ميزتان يتفرّد بهما الله دون الناس؟ لو لم يكونا للناس أيضًا، لما قال الله للفريسيّين: «تتركون أهمّ ما في الشريعة: العدل والرحمة» (متّى ٢٣ : ٢٣). أنت أيضًا تملك الرحمة والعدل، فاحترز ألّا تظنّ أنّك تملك الرحمة دون العدل. قد يحدُث أن تكون حَكَمًا في خلافٍ بين رجلَين، أحدُهما غنيٌّ والآخر فقير، وتكون قضيّة الفقير خاسرة وقضيّة الغنيّ رابحة؛ فإن كنت جاهلًا في قوانين مملكة الله، ستظنّ أنك تصنع خيرًا إذ ترحم الفقير، فتخفّف إساءتَه أو تكتمها، وتسعى إلى تبريرِه ليبدو أنّ الحقّ إلى جانبِه؛ فإذا عوتِبتَ في ظُلم حكمِك، تحجّجت برحمةٍ زائفة بقولك: أعلم كلّ ذلك، فهمت القضيّة، غير أنّ المشكو كان فقيرًا ورحمته واجبة. كيف حافظت على شعور الرحمة، وفقدت شعور العدالة؟ تقول: وكيف لا

أفقد الرحمة، إذا حافظت على العدالة؟ أألفظُ حكمي بوجهِ فقيرٍ لا يملك ما يدفعه، وإذا دفع لم يبق لديه ما يعيش به؟ لكنّ الله يقول لك: «لا تُحابِ المسكين في دعواه» (خروج ٢٣ : ٣). أمّا الغنيّ فسهلٌ عليه أن يفهم أنّه ليس عليك أن تحابيه في دعواه. كلّ إنسان يرى ذلك، وليت كلّ إنسانٍ يُمارسه. الخطأ الأهون هو أن تسعى إلى إرضاء الله بمحاباة الفقير، كما لو كنت تريد أن تقول لله: عفوتُ عن الفقير. كان عليك، بالأحرى، أن تكون، في آنٍ، عادلًا ورحيمًا. فأيّ رحمةٍ تلك التي تقوم على تعزيز الظلم؟ وفّرت مالَه، لكنّك طعنت قلبَه. بقي الفقير آثمًا، وبدا إثمه أعظم وهو يراك تستحسن اثمَه تحت ستار العدالة المزعومة. انصرفَ مستترًا بحمايتِك الجائرة، ليقع تحت قضاء الربّ العادل. أيّ رحمة صنعت له إذ جعلتَه ظالِمًا؟ إنّ في حكمك من القساوة عليه فوق ما فيه من الرحمة. لعلّك تقول: ماذا كان عليّ أن أصنع؟ - كان ينبغي أن تنطق بالعدل، وتؤدّب الفقير، وتثنيَ الغنيّ. ثمّة وقتٌ للحكم ووقتٌ للشفاعة. عندما يراك الغنيّ تُطبّق قواعد العدالة، ولا تُحابي الفقير في دعواه الباطلة، وتعاقبه، بعدلٍ، على إثمِه، كما يستحِقّ، أفلا يكون أشدَّ ميلًا، إذ يفرح لحكمك، إلى العفو عنه، بناءً على رغبتِك؟ بقي عليّ، يا إخوتي، قسمٌ كبيرًا من المزمور، ما يحتّم عليّ استطلاع القدرات النفسيّة والجسديّة لمستمعيَّ على تنوّعِهم. لأنّنا حين نتقاسم الخبز نفسَه، نقدّم لكلّ واحدٍ ما يلائم ذوقه، فلا يمجّه أحد. فلنكتفِ اليوم بهذا.

عظة ثالثة في المزمور الثاني والثلاثين

القسم الثاني: مخافة الله ومحبّته

تشتمل هذه العظة على القسم الثاني من المزمور. بعد أن لمّح القدّيس إلى الأريوسيّين والدوناتيّين، يقول بأنّه ليس علينا أن نتّقي إلّا الربّ الذي أرسل نعاجًا وسط ذئاب، فغدت الذئاب نعاجًا؛ والذي وحده يمنح المخلوقات القدرة على إيذائِنا. وأنّه ليس علينا أن نحبّ إلّا الربّ لكي نمتلكَه ونكون ميراثَه، لأنّه القادر وحدَه على أن يجعلَنا أفضل. تلك هي السعادة الكاملة. صلّوا من أجل الهراطقة.

١ - التبشير بكلمة الحقّ عناء لي، وسماعُها عناء لكم. لكنّه، يا إخوتي، عناء نتحمّله طوعًا عندما نُفكّر بحُكم الربّ وبحالِنا. فمنذ بداية الجنس البشريّ سمع الإنسان تلك الكلمة، لا من فم إنسانٍ يغُشّ، ولا من شيطان يخدع، بل من الحقيقة نفسِها الخارجة من فم الله. «بعرق جبينك تأكل خبزَك» (تكوين ٣: ١٩). فإذا كان خبزُنا كلمةَ إلهِنا، علينا أن نعرَق لنسمعها، لئلّا نموت جوعًا. في احتفالات بيرموناتِنا[١] الأخيرة، شرحنا القسم الأوّل من المزمور. فلنستمع إلى ما تبقّى.

٢ - إليكم كيف يبدأ القسم المتبقّي، والذي رنّمناه لتوّنا: «من رحمة الربّ امتلأت الأرض. وكلمة الربّ تُرسّخ السموات» (٣٢: ٥،

(١) بيرمون العيد (يونانيّة): ليلة العيد. وتُقام فيها الاحتفالات بالأعياد الكبيرة.

٦). أو، بتعبيرٍ آخر، إنّ قوّة السموات من تلك الكلمة. سبق للنبي أن قال: «رنّموا بحكمةٍ، وبالهتاف والتهليل»، أي رنّموا بلا كلام: «لأنّ كلمة الربّ مستقيمة وأعمالَه بالإيمان». الله لا يعِد إلّا ويفي؛ صار مدينًا وفيًّا. فكنْ أنت بخيلًا دائنًا. وبعد أن قال: «كلّ أعمالِ الربّ بالإيمان»، أضاف النبيّ: «لأنّه يُحبّ الرحمة والعدل». لكنّ الذي يُحبّ الرحمة رؤوف، وهل للرؤوف أن يعِد ولا يفي، هو الذي بوسعه أن يُعطي من غير أن يعِد؟ إذًا، فالذي يُحبّ الرحمة مُلزَمُ بأن يُعطي ما وعد به؛ وبما أنّه يُحبّ العدل، فإنّ عليه أن يطلب ما أعطاه. لذلك نسمع الربّ يقولُ لعبدٍ: «لماذا لم تضع فضّتي على مائدة الصرف، حتّى إذا عُدتُ أستوفيها مع فائدة؟» (لوقا ١٩: ٢٣). نذكّركم بهذه الكلمات، لكي نشرح لكم ما سمعناه لتوّنا. يقول الربّ في مكانٍ آخر من الإنجيل: «أمّا أنا فلا أدين أحدًا... لكنّ الكلمة التي بشّرتكم بها، هي تدينكم في اليوم الأخير» (يوحنّا ٨: ١٥؛ ١٢: ٤٨). ولا يحتجَّنّ الذي لا يُريد أن يسمع، لخوفِه، بأنّه لن يُطلَب منه شيءٌ. لأنّه سيُطلب منه ما لم يُرِد قبوله عندما أُعطي له. عدم القدرة على القبول شيء، وعدم الرغبة في القبولِ شيء آخر؛ عدم القدرة حجّة الضعف، وعدم الرغبة خطيئة الإرادة. إذًا، «كلّ أعمال الله بالإيمان؛ وهو يُحبّ الرحمة والعدل». إقبلوا الرحمة وخافوا العدلَ. لئلّا يردّنا صفر الأيدي عندما يأتي ويطلب منّا ما أعطاناه. لأنّه يطلب منّا الحساب؛ وبعد كشف الحساب، يُعطينا الأبديّة. فاقتبلوا الرحمة، يا إخوتي، ولنقتبلها كلّنا. لا يأمنّ أحدٌ منّا إذ ينالُها، مخافة ألّا يستيقظ مرتعبًا ساعة تأدية الحساب. إقتبلوا الرحمة؛ هذا ما لا ينفكّ ينادي به الربّ، كما لو كان يُقال لنا في زمن مجاعة: خذوا قمحًا. فإذا قيل لك هذا الكلام في زمن مجاعة، لا شكّ في أنّ شوكة الحاجة ستحثّك على الإسراع، فتندفع في

كلّ صوب سعيًا للحصول على ما وُعِدت به. هل كنت لتتردّد لحظةً قبل أن تنالَه؟ هل كنت لتتأخّر في المجيء لتنال نصيبك؟ كذلك أقول لك الآن: اقتبِل الرحمة، «فإنّ الله يُحبّ الرحمة والعدل». وبعد أن تفوز بها، استفِد منها، لكي تؤدّي عنها حسابًا صحيحًا عندما يأتي ليدين ذاك الذي يسألك الآن اقتبال الرحمة في زمن المجاعة.

٣ - إحترِز، إذًا، ألّا تقولَ لي: ممّن أقتبِلها؟ وأين أذهب لأطلبَها؟ تذكّر الكلمات التي رنّمتَها لساعتِك: «من رحمة الربّ امتلأت الأرض». فأين لم يُبشَّر، اليوم، بالإنجيل؟ أين لم تُسمَع كلمة الله؟ أين لا يُمنح الخلاص؟ لست بحاجة إلّا لأن تُريد، فالأهراء ملأى. لكنّ هذا الفيض الوافر لم ينتظر لكي تأتي فتطلبه، بل هو ذهب إليك في سباتِك. لم يُقَل: لتنهضِ الأمم وتجتمع في مكانٍ واحد؛ بل بُشِّر بالإنجيل في الأمم، في بلادِها، لكي تتم النبوءة القائلة: «وله يسجد الناس كلٌّ في موطنِه» (صفَنيا ٢: ١١).

٤ - «من رحمة الربّ امتلأت الأرض». فما القول عن السموات؟ إسمع ما حالُ السموات. الرحمة فيها بلا نفع لأنّها خالية من البؤس. أمّا في الأرض حيث يفيض البؤس، فتفيض رحمة الله. الأرض يملأُها بؤس البشر، والأرض تملأها مراحم الرب. فهل يعني هذا أنّه إذا كان لا حاجة للسموات إلى رحمة الله، لأنّها خالية من البؤس، أن لا حاجة لها إلى الربّ؟ البائس والسعيد، كلاهُما بحاجةٍ إلى الله. من دونه لا عزاء للبائس، ومن دونِه لا هداية للسعيد. إذًا، حتّى لا تُضطرَّ إلى التساؤل عن حال السموات، إسمع هذه الكلمات: «الأرض امتلأت من رحمة الربّ»، واعلم أنّ السموات بحاجةٍ أيضًا إلى الربّ: «كلمة الربّ تُرسّخ السموات». السموات لا تترسّخ من ذاتِها، وقوّتُها لا تنبع

من ذاتِها. «كلمة الربّ تُرسّخ السموات، وقوّتُها من نسمة فمِه» (٣٢: ٦). لم يكن لها شيءٌ من ذاتِها، وكلّ ما لها من الربّ نالته بمثابة هبة إضافيّة. لأنّ كلّ قوّتِها، لا جزءٌ منها، نالتها من نسمة من فم الربّ.

٥ - لا تشكّوا، يا إخوتي، في أنّ تلك الأعمال هي أيضًا أعمال الإبن والروح القدس. والحال، فإنّه يقتضي ألّا أُهمل أن ألفتَكم، هنا، إلى هذ الأمر، بسبب الذين ميّزوا بينها بصورة خاطئة، والذين خلطوا بينها بصورة عشوائيّة. هناك خطأ في الجانبَين. يخلطون فيُسيئون التمييز بين الخالق والمخلوق، ويحسبون روح الله الخالق مخلوقًا. هؤلاء يميّزون فيخلطون: حبّذا لو يخجلون فيتوبون. ألا اعرفوا أنّ أعمال الإبن والروح القدس واحدة! **الكلمة** هي، بالتأكيد، ابن الله، كما نسمةُ فمِه هي الروح القدُس. رُسّخت السموات بكلمة الله، أي بابن الله. وماذا يعني لهم أنّها راسخة سوى أنّها قويّة لا تتزعزع؟ «قوّتُها من نسمة فمِه». بوسعنا أن نقول أيضًا: إنّ روح الربّ هي التي ترسّخ السموات، و**كلمة** الربّ تصنع قوّتَها. والحال، فإنّ للقوّة والرسوخ المعنى نفسه. فعمل الإبن، إذًا، هو عمل الروح القدس. لكن هل يتمّ بمعزلٍ عن الآب؟ فمن ذا الذي يعمل بكلمتِه وبروحِه القدس إلّا الذي **الكلمة** كلمته، و**الروح** روحه؟ ذاك هو الثالوث، الذي ليس سوى إلهٍ واحد. إنّه الله الذي يعبده من يعرف أن يعبد. إنّه الله الذي يلتقيه، في كلّ مكان، من يتوب إليه. فالذين يميلون عنه لا يلتمسونَه؛ لكنّه يدعو الذين يميلون عنه، لكي يملأهم من رحمتِه عندما يتوبون إليه.

٦ - بالطبع، يا إخوتي، سنَدَعُ جانبًا تلك السموات التي تُظلّلنا، ونحن الذين نعنى على هذه الأرض بها جاهلون، ونسعى إلى أن يكون لنا بها بعض معرفة من خلال تخميناتِنا البشريّة. لندَع السموات جانبًا،

ولا نسعَ إلى معرفة تراتبيَّتِها وعدَدِها وتمايُزها، ومن هم ساكنوها، وكيف يُساسون، وكيف نشأ ذلك النشيد، وتلك المعزوفة التي لا تنتهي، وبها يشيد الجميع بمعجزات الله. صعبٌ أن يأتي يومٌ نعرف فيه هذه الأمور؛ إلّا أنّ علينا أن نبذل جهودَنا لكي نعرفَها. لأنّها وطنُنا الذي أنستنا إياه غربتُنا الطويلة في منفى هذه الأرض. وتصرخ نفسُنا في مزمورٍ آخر: «ويلٌ لي، فقد طالت غربتي» (مزمور ١١٩ : ٥). صعبٌ، إذًا، إن لم يكن مستحيلًا عليَّ، أن أكلّمكم عن السموات، ولكم أن تفهموا ما أقول عنها. فإذا كان لأحدِكم أن يبزَّني في فهم تلك الأمور الإلهيّة، فليبتهج بتفوّقِه، وليُصلِّ لأجلي لكي استطيع أن أسير على خطاه. وبالإنتظار، ومن دون أن أتكلّم عن السموات المجهولة، يبقى لي مادّةٌ ضخمة للكلام عن تلك السموات الأخرى الأقرب إلينا، أي رسل الله القدّيسين، المبشّرين بكلمة الحقّ، والذين أمطروا علينا ندى ناعمًا، لكي يُثمر حقلُ الكنيسة حصادًا كثيرًا؛ ومع أنّ القمح والزؤان يرتويان اليوم من المطر نفسِه، إلّا أنّهما لن يوضَعا في الأهراء نفسِها.

٧ – بعد أن سمعتم أنّ «الأرض امتلأت من رحمة الرّب»، يبدو أنّكم تسألون: لكن كيف امتلأت الأرض من رحمة الرّب؟ في البدء تلقّت السموات مهمّة إفاضة رحمة الربّ على الأرض، وعلى الأرض كلّها. لأنّ عن هذه السموات قيل: «السموات تنطق بمجد الربّ والجَلَد يُخبِر بعمل يدَيه» (١٨ : ٢). السموات والجَلَدُ سيّان. «النهار يُكلّم النهار، والليل يُعلّم اللّيل» (١٨ : ٣). لا انقطاع، إذًا، ولا صمت. لكن أين أذاعوا معجزات الله، وإلى أين وصلوا بها؟ «ليس خطابٌ ولا قولٌ لا يُسمَع فيه صوتُهم» (١٨ : ٤). هذا المقطع يتكلّم على كرازة الرسل في مكانٍ واحد، وبجميع اللغات. والحال، فإنّهم عندما طفقوا يتكلّمون بجميع اللغات (أعمال ٢ : ٤)، أتمّوا قول

النبوءة: «ليس خطابٌ ولا قولٌ لا يُسمَع فيه صوتُهم». لكنّني أسأل: إلى أين وصل ذلك الصوت الذي يتكلّم بجميع اللغات، وأيّ بلادٍ ملأ؟ إسمعوا ما يلي: «في كلّ الأرض انطلق صوتُهم، وإلى أقاصي المسكونة ذاع كلامُهم» (١٨: ٥). صوت من هذا، سوى صوت السموات التي تُخبِر بمجد الربّ؟ فإذا كان صوتُهم قد سرى في كلّ الأرض، وإذا كان كلامُهم قد ذاع إلى أقاصي المسكونة، فليقُل لنا الذي أرسلَهم، بماذا بشّروا. إنّه يقولُها بصراحة، ويقولُها بأمانة؛ ذاك أنّ الذي أعماله كلّها بالإيمان، سبق أن أنبأنا بكلّ هذا، حتّى قبل أن تتحقّق هذه الأمور. والحال، فإنّه بعد أن قام من بين الأموات، وعندما تجلّى لتلاميذه وكشف لهم جراحه ليلمسوها، فتعرّفوا إليه، قال لهم: «كان ينبغي للمسيح أن يتألّم وأن يقوم من بين الأموات، وأن يُكرَز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا». لكن، من أين وإلى أين؟ يُجيب: «في جميع الأمم، ابتداءً من أورشليم» (لوقا ٢٤: ٤٦، ٤٧). فأيّ رحمة بوسعنا أن نرجو من الربّ، يا إخوتي، أوسع من مغفرة خطايانا؟ فإذا كانت مغفرة الخطايا أوسع رحمةٍ تأتينا من الربّ؛ وإذا كان الربّ قد أنبأ بأنّ مغفرة الخطايا سيُكرَزُ بها في جميع الأمم؛ فإنّ الأرض تكون قد امتلأت من رحمة الربّ. بِمَ امتلأت الأرض؟ - برحمة الربّ. لماذا؟ - لأنّ الربّ يغفر الخطايا أينما كان، وأرسل السموات لكي تروي الأرض بمطرها.

٨ - وكيف تجرّأت تلك السموات فانطلقت بثقة وأمان؛ وكيف استطاع رجالٌ ضعفاء أن يغدوا سموات، إلّا لأنّ **كلمة** الله رسّخت السموات؟ من أين كان للنعاج ما يكفي من القوّة وسط الذئاب، لو لم تكن قوّتهم كلّها نابعة من نسمة فمه؟ «ها أنذا، يقول المخلِّص، أرسلكم كالنعاج وسط الذئاب» (متّى ١٠: ١٦). أيّها الربّ الكثير

المراحم، تلك هي أعمالك التي بها تفيض رحمتك فتملأ كلّ الأرض. فإذا كانت رحمتك فيّاضة بحيث تملأ الأرض، إلتفت إلى الذين ترسلُهم، واعرف إلى أين ترسلُهم. أقول: من ترسِل، وإلى أين؟ إنّك تُرسل نعاجًا وسط ذئاب. لكن، لو أُطلق ذئبٌ واحدٌ، وسط قطيع لا عدَّ له من النعاج، فمن يُقاومُه؟ أي مجزرة لا يصنع ما لم يشبع على الفور؟ - يفترس القطيع كلّه. أفترسِل نعاجًا ضعيفة وسط ذئاب مفترسة؟ - أجل، أُرسلُهم لأنّهم سمواتٌ، لكي يُرووا الأرض بمطرهم. وكيف صار رجالٌ ضعفاء سمواتٍ؟ - ذاك أنّ «كلّ قوّتِهم من نسمة فمه». سينقضّ عليكم الذئاب، ويُسلمونكم إلى القضاء، ويقودونَكم إلى الولاة والحكّام، من أجل اسمي. فتمنطقوا بأسلحتكم. أتتمنطقون بقوّتكم؟ - لا. «لا تهتمّوا بماذا تُجيبون، لأنّكم لستم أنتم من ستتكلّمون، بل روح أبيكم هو الذي سيتكلّم فيكم» (متّى ١٠: ١٩، ٢٠). «لأنّ في نسمة فمه كلّ قوّتهم».

٩ - كلّ هذا حصل. إنطلق الرسل في العالَم وعانوا الإضطهاد. فهل علينا أن نُعاني، لسماع تلك الكلمات، ما عانوه هم لنشرِها؟ لا. هل يعني هذا، يا إخوتي، أنّ عناءَنا سيكون بلا ثمر؟ لا. أراكم حشدًا متراصًّا حولي لسماعي؛ لكنّكم أنتم أيضًا ترون العرق يتصبّب منّي. إذا تألّمنا مع المسيح، فإنّا نملك معه (راجع ٢ طيموتاوس ٢: ١٢). كلّ هذا حصل. من تلك النعاج التي أرسِلت وسط الذئاب، بقي لنا الإحتفال بذكرى الشهداء. هذا المكان الذي نتكلّم فيه، كانت تجتاحه الذئاب، عندما قُطِّع بالفؤوس جسد القدّيس الشهيد (قبريانُس): نعجةٌ واحدة أسيرة هزمت كثرة الذئاب. وتلك النعجة التي ذُبِحت ملأت ذاك المكان نعاجًا. إذ ذاك أرغى البحر وأزبد وثارت أنواء الإضطهادات، وعمّت أرضًا عطشى إلى المطر الذي يهطل من سماء الله. أمّا اليوم،

فقد تمجّد اسم يسوع المسيح بآلام الذين عانوا الإضطهاد، وتفرّضت على أجسادهم سيوف الجلّادين. لقد داس المسيح بقدميه رؤوس تلك اللُجج المزبدة والمتأجِّجة وأخضع قوآت الجحيم. وبعدُ، أفتظنّون أنّ الذين يَشهدونَ تحقُّق معجزات الله، ولم يؤمنوا بعدُ، ينظرون بعين الرضى إلى اجتماعاتنا وأعيادنا واحتفالاتِنا بالأسرار، وأناشيدنا وتسابيحنا التي نمجّد بها إلهنا علنًا؟ أتظنّون أنّهم لا يستشيطون غيظًا؟ إذ ذاك تتحقّق فيهم هذه النبوءة: «والمنافق يُبصر فيغضب». لكن، ماذا يحدث إذا غضب؟ أيّتُها النعاج، لا تخافي من الذئب. لا تخشَي بعدُ، لا شراستَه، ولا تهديداتِه. يغضب المنافق! وماذا بعد؟ «يحرق أسنانه ويذوب من الغيظ» (مزمور ١١١: ١٠).

١٠ - أمّا الآن، والبقيّة الباقية من مياه البحر المالحة تلك، لم تعد تتجرّأ على اضطهاد المسيحيّين، وراحت تنهش دسائسَها المكتومة في داخلِها؛ أمّا الآن وتلك المياه المالحة تثور على جسدٍ مائت، وهي السجينة، فاسمعوا ما يلي: «يجمع، كما في قربةٍ، مياه البحر» (٣٢: ٧). إذًا، لمّا كانت مياه البحر، في ما مضى، تثور علينا بأمواجها العاتية، ولا من يصدّها، وباتت ملوحتها الآن سجينة صدور مائتة، أليس من الواضح أنّ هذا عمل الذي انتصرَ بالرسل، وأرسى السدود في البحر لكي يتحطّم عليها غضب أمواجه وترتدّ إلى العمق (راجع أمثال ٨: ٢٩). «يجمع، كما في قربةٍ، مياه البحر»، وكلّ فكرٍ شرّير في جسدٍ مائت. ولأنّهم يخافون على حياتِهم، يُضمرون ما لا يتجرّأون على إظهارِه. ملوحتُهم بقيت على حالِها: استمرّوا على حقدِهم، واستمرّوا على كرهِهم. لكنّ حقدهم الذي كان مكشوفًا، بات الآن مكتومًا ليسهل عليهم الفتك. ماذا أقول أكثر ممّا قاله النبيّ: إنّه «يحرق أسنانه ويذوب من الغيظ»؟ فلتسِر الكنيسة، ولتنطلق إلى الأمام! الطريق

مرسوم، ورأسُنا شقّ لنا طريقًا صلبة. لننطلِق باندفاعٍ في طريق الأعمال الصالحة؛ فذاك هو سبيلُنا للسير إلى الأمام. وإذا حصل ما لم نتوقّعه، وبقينا نتعرّض لضيقات، على الرغم من أنّ مياه البحر قد جُمِعَت كما في قربة، فلنعلم أنّ الله لا يفعل ذلك إلّا لخيرِنا الروحيّ، لكي يُبعِدَ عنّا كلّ رجاءٍ باطلٍ مبنيٍّ على الأمور الزمنيّة، ويضبط رغباتِنا ويقودَنا إلى ملكوتِه. ورغباتُنا تلك ناجمةٌ عن الشدائد التي تضربنا ذات اليمين وذات اليسار، لكي نُصدِر نغمًا عذبًا يرنّ في مسامع الربّ رنين أبواق نحاسيّةٍ رقيقة. ذاك أنّ المرنّم يدعونا إلى تسبيح الله «بالهتاف بالأبواق وصوت الصُّور» (مزمور ٩٧: ٦). يرِقّ نحاس الأبواق تحت المطرقة؛ كذلك يرقّ قلب المسيحيّ في الله تحت مطرقة الإضطهاد.

١١ - أمّا الآن وقد جُمِعت مياه البحر كما في قربة، فلنتذكّر، يا إخوتي، أنّ الله لا يُعدَم وسيلَة ليؤدّبَنا عند الضرورة. وعلى هذا أضاف النبيّ: «في كنوزه غمار». يُسمّي كنوزًا أسرارَ الله. لأنّ الله يعرف قلوب البشر، ويعرف ماذا ينبغي أن يستخرج من كنوزه في الوقت المناسب، ومن أيّ كنوزٍ ينبغي أن يستخرجَه. ويعرف أيّ سلطان يصلح أن يُعطى للأشرار على الأبرار، ويكون من شأنِه إدانة الأشرار وإصلاح الأبرار. الذي جمع الغمار في كنوزِه يعرف كيف يُنفّذ مخطّطاته. إذًا، «فلتخشَ الربَّ الأرضُ كلُّها» (٣٢: ٨). فلنحترز ألّا نتباهى بفرح تخالطه الكبرياء، وألّا نقول في غمرة زهوِنا: ها قد جُمعَت مياه البحر كما في قِربة، فمن ذا يستطيع أن يصنع بي شرًّا؟ من يجرؤ أن يؤذيني؟ أيّها الجاهل! ألا تعلم أنّ اباك جمع الغمار في كنوزِه؟ ألا تعلم أنّه يُخرج منها الشدائد التي تؤدّبك؟ إنّ لديه، لكي يؤدّبك، كنوزَ الغمار، بها يُعلّمك ويقودكَ نحو كنوز السموات. عُدْ، إذًا، فاتّقِ الربّ بحكمة، أنت يا من بدأت تسير في أمان. فلتبتهج الأرض، لكن، فلترتعِدْ أيضًا.

ولِمَ تبتهج؟ - لأنّ الأرض امتلأت من رحمة الربّ. ولِمَ ترتعِدْ؟ - لأنّه جمع، كما في قربةٍ، مياه البحر، لكي يجعلَ غمارًا في كنوزِه. يعبّر النبيّ، بإيجازٍ، عن قاعدة السلوك المزدوجة في الأرض، بقولِه: «أعبدوا الربّ بخشيةٍ، وابتهجوا برعدة» (٢: ١١).

١٢ - «فلتخشَ الربَّ الأرضُ كلّها، وليرتعِد منه كلّ أهل المسكونة» (٣٢: ٨). لا يخشَوْا أحدًا سواه، وليرتعِدْ منه كلّ أهل المسكونة. إن هدّدك وحشٌ ضارٍ، فاخشَ الربّ. أو انسلّت إليك حيّة، فاخشَ الربّ. أو حقدَ عليك امرؤٌ، فاخشَ الربّ. أو نصب لك الشيطانُ فخًّا، فاخشَ الربّ أيضًا. لأنّ الذي ينبغي أن تخشاه هو سيّد كلّ الخلائق. «فإنّه قال فكان الخلق، وأمَرَ فوُجِد» (٣٢: ٩). هذا ما يقولُه لنا المرنّم. فبعد أن قال: «فليرتعِد منه كلّ أهل المسكونة»، ولكي يُجنِّب الإنسانَ الخوفَ من أيّ سلطانٍ غير الله، ويحملَه على ألّا يحيد عن خوف الله، فيخاف مخلوقًا عوَضًا عنه؛ ولئلّا يزدري الخالق، ليعبد المخلوق؛ أراد النبيّ أن يُثبّتنا في خوف الله، فخاطبَنا مباشرةً بقولِه: ما الذي تخشَونه في السماء أو في الأرض أو في البحر؟ فإنّ الربّ «قالَ فكان كلّ شيء، وأمَرَ فوُجِد». والحال، فإنّ الذي بكلمة صنع كلّ شيء، وبأمرٍ خلق كلّ شيء، يأمر فيتحرّك كلّ شيء؛ ويأمر فيسكن كلّ شيء. بوسع الإنسان، في مَكرِه، أن تكون لديه رغبة شخصيّة في الأذيّة؛ لكنّه لا يملك القدرة على الأذية إلّا إذا أعطِيَت له من الله. لأنه لا سلطان إلّا من الله (رومة ١٣: ١). تلك حكمة جازمة للرسول. لم يقُل: لا رغبةَ إلّا من الله، لأنّ الرغبات الشرّيرة لا تأتي من الله؛ غير أنّ الرغبة الفاسدة لا تقوى على الأذيّة من دون إذن الربّ، لأنّ لا سلطان إلّا من الله. لذلك قال الإنسان-الإله الماثل أمام محكمة إنسان: «لم يكن لك عليّ من سلطان لو لم يُعطَ لكَ من فوق» (يوحنّا ١٩: ١١).

الإنسان كان يقضي، والإنسان-الإله كان يُعلّم.كان يُعلّمنا وهو يُقاضى، لكي يُقاضِيَ لاحقًا أولئك الذين علّمهم. «لم يكن لك عليّ من سلطان لو لم يُعطَ لكَ من فوق». ما معنى هذا؟ أليس للإنسان من سلطان له إلّا بمقدار ما يُعطى له من فوق؟ لكن، هل كان الشيطان نفسُه تجرّأ فسلب الرجل الصدّيق أيّوب نعجةً واحدة قبل أن يقول لله: «أبسُط يدَك» (أيوب ١: ١١)، أي أعطني السلطان؟ كان الشيطان يُريد، لكنّ الله لم يأذَن. ولمّا أذِن، نال الشيطان السلطان. لم يكن هو صاحب السلطان، بل الذي أذِن له. وأيّوب الذي كان يعلَم جيّدًا، لم يقُل، كما سبق أن أشرت إليكم مرارًا: «الربّ أعطى والشيطان أخذ»، بل قال: «الربّ أعطى، والربّ أخذ، وكما حسن لدى الله كان» (أيّوب ١: ٢١). لا كما حسن لدى الشيطان. وأنتم، يا إخوتي، الذين لا تستطيعون إلّا بكثير من العناء أن تأكلوا خبز الكلمة الخلاصيّ، أحترزوا ألّا تخشَوْا غير الربّ. الكتاب يُنبّهنا ألّا نخشى إلّاه وحده. إذًا، فلتخشَ الأرضُ كلُّها الربّ الذي يجعلُ الغِمار في كنوزِه. وليرتعد منه كلّ الذين يسكنون في الأرض، لأنّه هو الذي قال فكان كلّ شيء، وأمَرَ فوُجِد كلّ شيء.

١٣ - أمّا اليوم، فالرؤساء الذين كانوا أشرارًا، صاروا صالحين. اعتنقوا الإيمان وطبعوا على جباههم علامة المسيح، وهي علامةٌ أثمن من كلّ جوهرةٍ في تيجانِهم، واضمحلّ مضطهِدو القدّيسين. لكن، من صنع هذا؟ ألعلّك أنت، فتتعالى؟ «الربّ يُبيد مخطّطات الأمم، ويُبطِل أفكار الشعوب ويهدم مشورات الرؤساء» (٣٢: ١٠). قالوا: فلنقضِ عليهم، فإذا نجحنا قضينا على اسم المسيحيّ؛ فلنُمِتهم، ولنعذّبهم، ولنُذِقهم شرّ المحن. هكذا كانوا يقولون، وكانت الكنيسة تنمو وسط كلّ تلك العذابات. «الربّ يُبطِل أفكار الشعوب ويهدم مشورات الرؤساء».

١٤ - «أمّا مشورة الربّ فتدوم إلى الأبد، وأفكار قلبِه إلى جيلٍ فجيل» (٣٢: ١١). الفكرة تُكرَّر مرّتين. فالمشورة تأتي بمعنى أفكار القلب، وعبارة «تدوم إلى الأبد» تعني «إلى جيلٍ فجيل». وفي التكرار تأكيد. وعندما يتكلّم النبيّ عن أفكار القلب، إحترزوا ألّا تظنّوا أنّ الله يجلِس ليتداول بما يُريد أن يصنع، أو يستشير لكي يُبادر أو لا يُبادر. هذا البطء من طبيعتِك أيّها الإنسان، أمّا **كلمة** الله فتعدو بسرعةٍ لا تُجارى (مزمور ١٤٧ : ١٥). كيف يمكن أن يكون من تردُّدٍ لدى **الكلمة** الوحيد الذي يحتوي الكلّ؟ لكن إذا قلنا: «أفكار الله»، فلكي نكون على مستوى فهمِك؛ وأيضًا لكي تجرؤ أن ترفع قلبك، لتفهم كلامًا على قياس ضعفِك، لأنّ الحقيقة تفوق فهمك بأشواط. «وأفكار قلبِه إلى جيلٍ فجيل». فما هي أفكار قلبِه، وما هي مشورة الله التي تدوم إلى الأبد؟ لماذا ارتجّت الأمم وهذّت الشعوب بالباطل؟ (مزمور ٢ : ١) - لأنّ الربّ يُبطل أفكار الشعوب، ويُدمّر مشورات الرؤساء. أين يُمكن أن تدوم مشورة الربّ إلى الأبد، إن لم يكن فينا نحن الذين رآنا منذ أمدٍ بعيد فاختارَنا؟ (أفسُس ١ : ٤). من يجرؤ أن يُبطل ما اختاره الله؟ من قبل إنشاء العالَم، رآنا، وخلقَنا، وأصلحنا، وأرسل لنا ابنه، وافتدانا: هذا هو مخطّطه الذي يدوم إلى الأبد، وتلك هي أفكار قلبه التي تبقى إلى جيلٍ فجيل. حدث في لحظة أن ارتجّت الأمم، وأطلقت ثورة أمواجها الغاضبة. أمّا الآن وقد حُبِسَت كما في قربة، فلتحترق في غيظِها. بالغَت في الجسارة، فلتحتفِظ الآن بأفكارها المرّة المتوحّشة. كيف لها أن تهدم مخطّط الله الذي يدوم إلى الأبد؟

١٥ - لكن ما معنى: «طوبى للشعب»؟ (٣٢: ١٢). من ذا لا يوقظه هذا الكلام؟ فالكلّ يُحبّ الطوبى. وفساد البشر في أنّهم يريدون أن يكونوا أشرارًا، من دون أن يطالَهم بؤس؛ وبما أنّ الشرّ والبؤس

رفيقان لا ينفصلان، فإنّ أولئك الناس الفاسدين، لا يبتغون الشرّ دون البؤس فحسب، وهذا مستحيل، بل لا يسعَون إلى الشرّ إلّا لكي يتجنّبوا البؤس. ماذا تعني عبارة: إنّهم لا يبتغون الشرّ إلّا تجنّبًا للبؤس؟ أنظروا قليلًا إلى هذه الأمور في الأشرار، ترَوْا أنّهم يُريدون دائمًا أن يكونوا سعداء. إذا سرق إنسان فمن جوعٍ أو فاقة. يرتكب الشرّ ليتجنّب البؤس؛ إلّا أنّه بمقدار ما ينغمس في الشرّ، يغرق في البؤس. يعمل الناس ما يعملون من شرّ أو خير، تفاديًا للبؤس والتماسًا للسعادة. سواءٌ أعاشوا في الشرّ أو في الصلاح، فالسعادة غايتهم. لكن، ما الكلّ ينالون ما يبتغون؛ وحدهم يبلغون السعادة أولئك الذين رغبوا في أن يكونوا أبرارًا. ويأتيك امرؤٌ يطلب السعادة في الشرّ الذي يصنعه. ومن أين له تلك السعادة؟ - من الغنى، ومن الذهب والفضّة، والحقول، والأراضي، والقصور، ومباهج الدنيا، والمجدِ العابر الفاني. يبتغون الغنى ليسعدوا. أمّا أنت فانظر إلى ما سوف تملك لكي تسعد. والحال، فإنّك في الرخاء أفضل منك في البلاء. لكن، يستحيل عليك أن تصير أفضل، بامتلاكك ما هو أبخسُ منك. أنت إنسان، وكلّ ما تبتغيه لتسعد، أبخس منك بكثير. الذهب والفضّة وكلّ ما هو جسديّ وتشتهي بلهفة أن تكتسبه وتمتلكه وتتمتّع به، كلّها دونك قيمة. أنت أسمى منها كلّها، وقيمتك أغلى. وتريد، بالطبع، إذ تبتغي السعادة أن تصير أفضل ممّا أنت عليه في بؤسِك. والحال، فإنّ السعادة خيرٌ من البؤس. تريد أن تكون في حال أفضل من حالِك، وتسعى بشراسة وراء أمورٍ دونك قيمة؛ كلّ ما تسعى إليه على الأرض، دونك قيمة. كلّ إنسانٍ يعبّر لصديقه، وبحرارة، عمّا يتمنّاه له بقولِه: ليتك تكون في أحسن حال؛ ويسرّنا أن نراك على أحسن ما يُرام. والحال، فإنّ ما يتمنّاه لصديقه يريد لنفسِه. فإليك نصيحة موثوقة: أعرِفُ أنّك تريد أن

تكون أفضل ممّا أنت عليه، وكلّنا نعرفه، وكلُّنا نتمنّاه؛ فاطلب، إذًا، ما هو خيرٌ منك، لكي تصبح خيرًا ممّا أنت عليه.

١٦ - تطلّع الآن إلى السماء والأرض. لا تدَعْ هذه المخلوقات تفتنك بسحرها وبهائها، فتجعل فيها سعادتك. في نفسك تجد ما تبتغيه. تريد السعادة، فاطلب ما هو خيرٌ من نفسِك. والحال، فإنّا خُلِقنا من جوهرَين: روحٍ وجسد. الروح أسمى والجسد دونها قيمة؛ والروح السميا تُعلي قيمةَ الجسد، لأنّ الجسد خاضعٌ للروح. إذًا، بروحِك يسمو جسَدُك؛ حتّى إذا تبرّرت روحك غدا جسدُك غير مائت. فبتنوّر الروح بالنور السماويّ يستحقّ الجسد عدم الفساد، من حيث أنّ الجوهر الأسمى يرفع الجوهر الأدنى. فإذا كانت روحك هي الخير لجسدِك، بسبب سموّها عليه، فإنّ عليك، حين تسعى إلى خيرِك، أن تطلبَه في ما هو خيرٌ من روحِك. فما هي روحك؟ فكّر، وإيّاك أن تزدريَ تلك الروح، وتعتبِرَها زريّة خسيسة، فتسعى وراء أمور دنيئة لإسعادِها. في روحك صورة الله، ونفس الإنسان جديرة بتلك الصورة؛ أخذ صورة الله، وبانحرافه نحو الخطيئة شوّهَ بهاءَها. وها هو الذي سبق أن خلقَها، يأتي إليها لكي يُرمّمها. لأنّه **بالكلمة** كلّ شيءٍ كان، **وبالكلمة** انطبعت فينا تلك الصورة. إذًا، جاء **الكلمة**، لكي يقول لنا بفم الرسول: «تحوّلوا بتجديد نفوسِكم» (رومة ١٢ : ٢). يبقى عليك، إذًا، أن تسعى إلى ما هو أسمى من روحِك. وأسألك، من يكون الأسمى غير الله؟ لن تجد سواه أسمى من روحك، لأنّ طبيعتك متى بلغت الكمال، تصير مساوية لطبيعة الملائكة. وليس اسمى من الملائكة سوى الخالق. فاسمُ إليه، واحترز ألّا يدفعك اليأس إلى القول: هذا أمرٌ صعبٌ جدًّا عليَّ. ربّما كان أصعب عليك امتلاك الذهب الذي تبتغيه. وهذا الذهب الذي تشتهيه قد لا تحصل عليه؛

لكنّك تنال الله ساعة تطلبُه، لأنّه أتى إليك قبل أن تطلبَه، وعندما كانت إرادتك تميل عنه، دعاك؛ وعندما عدت إليه، غرس فيك مخافتَه، وعندما اعترفت بخطاياك، تحت وطأة الخوف، عزّاك. الله الذي وهبك كلّ شيء، والذي وهبك الحياة، والذي وهبك كما وهب الأشرار الذين يعيشون معك، الشمس، والمطر، والثمر، والينابيع، والحياة، والصحّة، وفيض التعزية، يحفظ لك ما لا يُعطيه لأحدٍ سواك. وماذا يحفظ لك غير ذاتِه؟ أطلب سواه إن كان بوسعك أن تجد ما هو أفضل: الله يحفظ لك ذاته. أيها الطمّاع! لِمَ تفغرُ فاك نحو السماء ونحو الأرض؟ إنّ خالق السماء والأرض أسمى من كلّ ما خلق. وأنت مدعوٌّ للتمتّع برؤيَتِه، وأنت مدعوٌّ لتمتلكَه. فلِمَ تتمنّى أن تمتلك هذا الحقل؟ ولمَ تقول وأنت تعبرُ فيه، هنيئًا لسيّد هذا المُلك؟ هذا ما يقولُه كلّ الذين يجوزون فيه. لكن، هل بوسعِهم، إذا قالوا وجازوا وهزّوا رؤوسهم وتأوّهوا، أن يمتلكوه؟ صوت الطمع عالٍ، صوت الإثم مرتفِع، لكنّ الله قال: لا تشتَهِ مقتنى غيرِك (تثنية ٥: ٢١). قل: هنيئًا لسيّد هذا المُلك، لسيّد هذا القصر، لسيّد هذا الحقل! أبغض إثمك، وأصغِ إلى صوت الحقّ: «طوبى للشعب الذي إلهه الربّ». فابتغوا امتلاكَ الربّ لتصيروا في النهاية سعداء. لا سعادة لكم إلّا بامتلاكه؛ بامتلاككم ما هو خيرٌ منكم تغدون أبرارًا. أقول إنّ الله الذي خلقَكم هو الخير الأسمى. «طوبى للشعب الذي إلهه الربّ». هذا ما ينبغي أن تحبّ وما ينبغي أن تمتلك؛ تنالُه ساعة تشاء، وتنالُه مجّانًا.

١٧ - «طوبى للشعب الذي إلهُه الربّ». هل إلهُنا هو المقصود؟ وأيّ شعبٍ ليس هو إلهَه؟ بالتأكيد، ليس إلهَ جميع الناس بالشكل ذاتِه. إنّه إلهُنا خصوصًا، إلهنا نحن الذين منه نعيش كما من خبزنا اليوميّ. هو

ميراثُنا وهو مُلكُنا. ألعلّنا نتكلّم بجسارة حين نجعل الله مُلكًا لنا، وهو الربّ، وهو الخالق؟ لا، ما تلك بجسارة، بل نشوة حبّ ووثبة رجاء نديّ. فلتقل نفسُنا، ولتقُل بثقة: «أنت هو إلهي»، أنت الإله الذي يقول لنفسِنا: «إنّي أنا خلاصُكِ» (مزمور ٣٤: ٣). فلتقُلها، ولتقُلها بثقة؛ إنّها لا تُهينه بهذا القول، بل في عدم قولِه إهانة له. أكنت تبتغي امتلاك شجرةٍ لكي تسعد؟ إسمع الكتاب يقول عن الحكمة: «هي شجرة الحياة للذين يمتلكونَها» (أمثال ٣: ١٨). يؤكّد لنا الكتاب، إذًا، أنّ الحكمة ملكُنا؛ لكن لئلا تظنّوا أنّ تلك الحكمة أدنى منكم، لأنّكم تمتلكونَها، يُتابع الكتاب فيُضيف: «إنّها تُعطي الأمان للذين يعتصمون بها اعتصامَهم بالربّ». ها إنّ ربّكم صار لكم مثل عصًا يستند الإنسان إليها بأمان. لأنّ تلك العصا لا تلوي. قولوا، إذًا، بثقة أنّها ميراثنا، لأنّ الكتاب إذ يُعلّمكم أنّ بوسعكم أن تمتلكوا الحكمة، أفرغ قلوبكم من الشكّ وملأها باليقين. تكلّموا بثقة، أحِبّوا بثقة، وارجوا بثقة. واجعلوا كلمات المزمور هذه كلماتكم: «الربّ نصيب ميراثي» (١٥: ٥).

١٨ - وهكذا نسعد في امتلاكنا الربّ. ماذا، إذًا؟ أنمتلكه نحن من دون أن يمتلكَنا هو؟ وإلّا لماذا قال أشعيا: «أيّها الربّ امتلِكنا»؟ (أشعيا ٢٦: ١٣، السبعينيّة[٢]). إذًا، الله يمتلكنا، ونحن نمتلكُه؛ وذلك كلّه لخيرِنا. والحال، فإنّه لا يمتلكُنا ليسعد بنا، أمّا نحن فلا نمتلكه إلّا لنسعد به. يمتلكنا ونمتلكه، لكن فقط لكي نكون نحن سعداء. نمتلكه ويمتلكنا لأنّنا نعبده، وهو يحرثُنا. نعبده لأنّه ربّنا وإلهنا، ويحرثُنا لأنّنا حقلُه. لا أحد يشكّ في أنّنا نعبدُه، لكن من يؤكّد

---

(٢) في العبريّة: יְהוָה אֱלֹהֵינוּ , בְּעָלוּנוּ אֲדֹנִים זוּלָתֶךָ أي: أيّها الإله الأزليّ، لقد تولّانا أرباب غيرك. وفي الفولغاتا: Domine Deus noster possederunt nos domini absque te أي: أيّها الربّ إلهنا، أرباب دونك ملكوا علينا.

لنا أنّه يحرثُنا؟ - هو نفسه عندما يقول: «أنا الكرمة وأنتم أغصان الكرمة وأبي هو الحارث» (يوحنّا ١٥ : ١، ٥). وإلى ذلك، يكشف لنا هذا المزمور تلك الحقيقة المزدوجة. سبق أن قال النبيّ أنّنا نمتلك الربّ بقولِه: «طوبى للشعب الذي إلهه الربّ». نسأل: مُلكُ من هذا؟ - مُلك فلان. ومُلك من ذاك؟ - مُلكُ آخر. إلهُ مَن هذا؟ أجل، لنتكلّم هكذا عن الله، ولنسأل: إله من هو؟ عندما نستفسر عن حقل أو عن ملكٍ فسيحٍ زاهٍ، عادةً ما يُجيبوننا: إنّه يخصّ هذا السيِّد، أو ذاك الآخر، فنقول: طوبى لذاك الإنسان! كذلك إذا سألنا: إله من هذا الإله؟ يُجيب النبيّ: ثمّة شعبٌ إلهُه الربّ؛ فطوبى لهذا الشعب لأنّ الربّ هو إلهُه. لكن، ليس شأن الله مع ذلك الشعب، كشأن السيِّد الذي يملك حقلَه، وحقلُه لا يملكه. علينا أن نبذل الكثير من الجهود لكي نكون ملكًا لله؛ أمّا الله فيملك شعبه وشعبه يملكه. رأيتم أنّ ذلك الشعب يمتلك إلهَه: «طوبى للشعب الذي إلهُه الربّ». فاسمعوا الآن، وستعرفون أن الله يمتلك شعبَه أيضًا: «طوبى للشعب الذي اختاره الربّ ميراثًا له» (٣٢: ١٢). هنيئًا لذلك للشعب بالميراث يمتلكه! وهنيئًا لذلك الميراث بالسيّد الذي يمتلكُه! «طوبى للشعب الذي اختاره الربّ ميراثًا له».

١٩ - «نظر الربّ من السماء فرأى جميع بني البشر» (٣٢: ١٣). «جميع بني البشر» أي جميع الذين نالوا الميراث نفسَه الذي ناله ذلك الشعب، أو الذين يكوّنون هم أنفسهم هذا الميراث. والحال، فإنّ جميع الذين أتكلّم عنهم هم شعب الربّ، وإليهم جميعًا نظر من أعلى السموات. ورآهم ذاك الذي قال: «إذ كنتَ تحت التينة رأيتك» (يوحنّا ١ : ٤٨). رأى نتنائيل لأنّه ترأّف به. والحال، فإنّنا عندما نستجدي رحمة إنسانٍ نقول له: أنظر إليّ. وماذا تقول في الرجل الذي يزدريك؟

- إنّه لا يراني. نظرة الرحمة تختلف عن نظرة الإنتقام. والنظر إلى الخطيئة يعني معاقبتها. لم يُرِد النبيّ أن ينظر الله إلى خطاياه فيعاقبها، فصرخ: «إصرف وجهك عن خطاياي» (مزمور ٥٠: ١١). يُريد أن يُغَضّ النظر عن خطاياه وأن تُغفَر له. يقول: «إصرف وجهَك عن خطاياي». أفلا يعود الله يراك إن هو صرف وجهَه عن خطاياك؟ لماذا، إذًا، يقول النبيّ في مكانٍ آخر: «لا تحجب وجهك عنّي»؟ (مزمور ٢٦: ٩). فليصرِف الربّ، إذًا، وجهه عن خطاياك، لا عنك؛ ولينظر إليك ويشملك برحمتِه، وليُبادر إلى نُصرتِك. «نظر الربّ من السماء فرأى جميع بني البشر» الذين ينتمون إلى **ابن البشر**.

٢٠ - «نظر إليهم من خبائِه» (٣٢: ١٤) الذي سبق أن أعدّه. نظر إلينا برُسلِه؛ نظر إلينا بالكارزين بحقيقته؛ نظر إلينا بالملائكة الذين أرسلَهم إلينا. جميع هؤلاء هم بيتُه، جميع هؤلاء هم خباؤه، لأنّهم جميعهم السموات التي تُخبر بمجد الله (مزمور ١٨: ٢). «من أعالي الخباء الذي أعدّه، رأى جميع بني البشر؛ رأى جميع سكّان الأرضِ». أولئك هم ذووه الذين نظر إليهم، أولئك هم ذاك الشعب الطوباويّ الذي إلهُه الربّ؛ إنّهم الشعب الذي اختاره الربّ ميراثًا له. ولأنّه منتشرٌ على كلّ الأرض، لا في بقعةٍ واحدة، «ألقى نظره على جميع سكّان الأرض».

٢١ - «هو الذي جبل قلب كلّ واحدٍ منهم» (٣٢: ١٥). بيد نعمته، وبيد رحمتِه، جبل قلوبَنا: جبل كلّ قلبٍ بطريقة مميّزة، ليعطي كلًّا منّا قلبًا خاصًّا به، من دون أن يُضِرَّ بالوحدة. فكما كُوّنت أعضاؤنا، كلّ عضوٍ على حدة؛ وكما أنّ لكلّ عضوٍ وظيفتَه المنفصلة، لكنّه يعيش مع سائر الأعضاء في انسجام؛ وكما أنّ اليد تعمل ما لا تعمله العين؛ وكما أنّ الأذن تعمل ما لا تستطيعه لا اليد ولا العين، إلّا

أنّ تلك الأعضاء تعمل في وحدة الجسد الواحد، فلا يكون تضارُبٌ بين العين واليد والأذن على الرغم من وظائفِها المتنوّعة؛ كذلك في جسد يسوع المسيح، فإن جميع الناس، وكلّ عضوٍ، نالوا مواهب خاصّة، لأنّ الذي اختار الشعب ميراثًا له، ميّز قلوبَهم. «ألعلّ الجميع رسلٌ؟ ألعلّ الجميع أنبياء؟ ألعلّ الجميع معلّمون؟ ألعلّ للجميع مواهب الشفاء؟ ألعلّ الجميع ينطقون بالألسنة؟ ألعلّ للجميع موهبة الترجمة؟» (١ قورنتس ١٢: ٢٩-٣٠)... «يُعطى واحدٌ بالروح القدس كلامَ الحكمة، وآخرُ بالروح عينِه كلامَ العلم، وآخرُ بالروح عينِه موهبة الإيمان، وآخر موهبة الشفاء بالروح عينِه» (١ قورنتس ١٢: ٨-٩). لماذا؟ - لأنّه جبل لكلّ واحدٍ قلبًا خاصًّا به. فكما أنّ لأعضائنا وظائف متعدّدة وصحّةً واحدة، كذلك هي المواهب متنوّعة في أعضاء المسيح، والمحبّة واحدة. «جبل لكلّ واحدٍ قلبًا خاصًّا».

٢٢ - «وهو الذي يعلم أعمالَهم كلّها» (٣٢: ١٥). ما معنى أنّه عالم بأعمالِهم؟ - إنّه ينفذ إلى أعمق خفايا قلوبِنا. قرأتم في مزمور آخر: «تفهّم تأوّهي» (٥: ٢). والحال، فإنّه لا حاجة بنا إلى الصراخ لكي تبلغ صلاتُنا مسامع الله. الرؤية الخفيّة تُدعى علمًا. تكلّم النبيّ بأفصح ممّا لو قال: رأى الله أعمالَهم كلّها. وإلّا لحسبتَ أنّ الله يرى تلك الأعمال كما ترى أنت أعمال إنسان. الإنسان يرى ما يعمله الإنسان بالجسد؛ أمّا الله فيرى في القلب. ولأنّه يرى في القلب، قال النبيّ: «إنّه يعلم أعمالَهم كلّها». رجلان يتصدّقان على فقير، واحدٌ يرجو أجرَه في السماء، والآخر يطلب مديح البشر. أنت لا ترى في الصدقتَين سوى عملٍ واحد، أمّا الله فيرى اثنَين؛ يعلم الباطن، ويفهم الباطن، ويرى الهدف الذي يَنشدانه، ويرى نواياهما، لأنّه «عالمٌ بأعمالهم كلّها».

٢٣ - «لا يخلُص الملك بكثرة الجنود» (٣٢: ١٦). لنرفع ذواتَنا كلّنا إلى الله، ولنكن كلُّنا في الله. فليكن الله رجاءَك؛ ليكن الله قوّتَك وعضدَك؛ فليكن غاية صلاتَك، وغاية تسبِحتَك؛ فليكن الغاية التي تطلب فيها راحتَك وتعزيتَك عندما تعمل وتعنى. أصغِ إلى كلام الحقيقة: «لا يخلص الملك بكثرة الجنود، ولا يُنقَذُ الجَبّار بعظَمة جبروتِه». ذاك الجبّار إنّما هو متكبّرٌ يقوم بوجه الله، زاعمًا أنّ له قيمة في ذاتِه وبذاته. إنّه لا يخلُص بعظمة جبروتِه.

٢٤ - غير أنّه يملك حصانًا كريمًا، قويًّا، نشيطًا ورشيقًا؛ أليس بوسع هذا الحصان أن يُنقذَ فارسه بسرعةٍ من الخطر، إذا انقضّ عليه عدوّ؟ لا يدعْ نفسَه يغرق في الوهم، وليسمعْ ما يلي: «الحصان باطلٌ للخلاص» (٣٢: ١٦). هل فهمتم ما قيل؟ «الحصان باطل للخلاص». لا يعِدَنَّك ذاك الحصان بالخلاص، وإن وَعَدَك فسوف يخونك. تخلُص إذا أراد الله أن يُخلّصَك، وإن لم يُرد، كبا الحصان، وكان سقوطُك أعظم. ولا تحسبَنَّ أنّ عبارة: «الحصان باطلٌ للخلاص»، تعني أنّ البارّ خدّاعٌ ولا يستطيع أن يمنح الخلاص، كما لو كان كلام الأبرار غرّارًا في ما خصّ الخلاص. لم يُكتَب باللاتينيّة aequus، بمعنى البِرَ والعدل، بل equus، أي الحصان. وهذا ما تنقله بوضوح الكلمة اليونانيّة ἵππος ippos (حصان الجرّ). وفي تلك البهائم يوبّخ النبيّ الناس الذين يبحثون عن سانحةٍ ليكذبوا، على الرغم من تحذيرات الكتاب، ومنها: «الفم الكاذب يقتل النفس» (حكمة ١: ١١)، وأيضًا: «تُهلك الناطقين بالكذب» (مزمور ٥: ٧). فما معنى «الحصان باطلٌ للخلاص؟ أي أنّ الحصان يغشّك عندما يعدُك بالخلاص. فهل يستطيع الحصان أن يتكلّم ويعدَ بالخلاص؟ لا. أمّا إذا وقعتَ على حصان، نشيطٍ، سبّاقٍ، شديد المراس، ووعدَك بالخلاص، بما يملك من

خصال، فلا تغرَّنّك خصاله، لأنّ «الحصان باطلٌ للخلاص»، إن لم يُخلِّصْكَ الله. خذ الحصان كصورة لكلّ كرامات هذا الدهر أو أيّ كرامة ترقى إليها بكبرياء: واهمٌ أنت إذا حسبت أنّك كلّما ارتفعتَ كلّما كنت في مأمن. لأنّك بقدر ما ترتفع وتقع، ولا تعرف كيف وقعت، يكون جرحك أعمق. «الحصان باطلٌ للخلاص، وبعِظَم قوّتِه لا يُنجّي» (٣٢: ١٧). فبأيّ وسيلةٍ ينجو؟ لن ينجو، لا بقوّتِه، ولا بمزاياه، ولا بكراماتِه ولا بأمجادِه ولا بحصانِه. فبأيّ وسيلةٍ أنجو؟ وأين أذهب؟ وأين أجد وسيلةً للنجاة؟ لا يطُل بك البحثُ، ولا تذهب بعيدًا. «إنّ عين الربّ على متّقيه» (٣٢: ١٨). ترون أنّ هؤلاء هم الذين نظر إليهم من خبائِه. «إنّ عين الربّ تنظر إلى متّقيه الذين ينتظرون رحمتَه». لا يرجون، لا استحقاقاتِهم الشخصيّة، ولا فضيلَتهم ولا قوّتَهم، ولا حصانًا، بل رحمة الله يرجون.

٢٥ - «ليُنقذَ من الموت نفوسَهم» (٣٢: ١٩). إنّه يعِدُهم بالحياة الأبديّة. وماذا يفعل فيما هم في منفى هذه الأرض؟ هل يتخلّى عنهم؟ إسمعوا ما يلي: «ولكي يُطعمَهم في الجوع». الآن زمن الجوع، أمّا زمن الشبع فسيأتي بعد حين. والذي لا يتخلّى عنّا في جوع طبيعتنا المائتة، فكيف يُشبِعُنا عندما نصير خالدين؟ على قدر ما يطول زمنُ المجاعة، علينا أن نصبر، وأن نتحمّله بصلابة، ونثبت إلى النهاية. علينا أن نتجاوز كلّ ما يعترض مسيرتَنا، وننظر إلى ما ينبغي أن نحملَه. ما زلنا نرى حولنا بعض الحمقى، يرتادون المسرح ويجلسون تحت الشمس؛ أمّا نحن، وإن كنّا واقفين، فإنّنا أقلّه في الظلّ، وما نشاهدُه، هنا، أجمل وأنفع بلا قياس. فلننظر إلى ما هو جميل، ولينظر إلينا من هو الجمال الكلّيّ. لننظر بعينَي الروح إلى ما ينطوي عليه معنى الكتب الإلهيّة، ولنتمتّع بذلك المنظر الرائع. لكن، من هو الذي ينظر إلينا؟

«إنّ عين الربّ تنظر إلى الذين يتّقونَه وينتظرون رحمتَه، ليُنقِذَ من الموت نفوسَهم ويُقيتهم في الجوع».

٢٦ - لكن، لأنّ علينا أن نُعاني من الرحلة ما طال زمن الجوع؛ ولأنّنا ننتظر من يمدّنا بالطعام، في الطريق، لئلّا تخور قوانا؛ ما الذي يُطلب إلينا، وماذا علينا أن نعمل نحن؟ «نفوسنا تنتظر الربّ بصبر» (٣٢: ٢٠). ستنتظر بثقة ذاك الذي يعد برحمة، ويفي بوعودِه برحمة وبحقّ. لكن، ما العمل بانتظار أن تتحقّق تلك الوعود؟ «تنتظر نفسي الربّ بصبر». لكن، ماذا لو نفد صبرُها؟ لا تخافوا، سوف نصمد، «لأنّ الله نصرتُنا ومِجَنُّنا». ينصرنا في القتال، ويقينا من الحرّ، ولا يتخلّى عنّا قطّ. فاصبروا، إذًا، واثبتوا. «إنّ من يثبُت إلى المنتهى، يخلُص» (متّى ٢٤: ١٣).

٢٧ - ومتى احتملت كلّ شدّة، ومتى صبرت وثبُتَّ إلى المنتهى، ماذا يحدُث لك؟ على أيّ رجاء تتحمّل طويلًا الشدّة والضيق؟ - «تفرح به قلوبُنا، لأنّنا رجونا اسمه» (٣٢: ٢١). فارجُه في هذه الدنيا، يفرحْ قلبُك في السماء. إحتمِل الجوع والعطش في هذه الدنيا، تُشبَعْ في السماء.

٢٨ - لقد حضّنا النبيّ على احتمال كلّ شيء، ملأنا بأفراح الرجاء، وبيّن لنا ماذا كان ينبغي أن نحبّ، وقال لنا من نرجو وعلى من نتّكل؛ وينهي بدُعاءٍ خلاصيّ قصير: «لتكن يا ربّ رحمتك علينا» (٣٢: ٢٢). بأيّ صفةٍ استحققناها؟ - «بحسب رجائِنا لك». أشعر أنّني أتعبتُ بعضكم؛ وبالمقابل، أشعر أنّ عظتي كانت قصيرة للبعض الآخر، وسرعان ما أنهيتها. فليكن الضعيف حليمًا مع القويّ، وليُصلِّ القويّ من أجل الضعيف. ولنكن جميعنا أعضاء جسدٍ واحد، ولتأتِنا

الحياة من رأسنا، لأنّ فيه رجاءَنا، وهو قوّتنا. لا نتردّد في أن نسأل الرّبّ الإله رحمتَه التي وعدنا بها، فهو يُريدنا، قطعًا، أن نسأله الرحمة. لن تُقلِقَه ولن تُزعجَه طلباتُكم اللجوجة، كما لو كنتم تسألونَ شخصًا شيئًا لا يملكه، أو لا يملك منه إلّا القليل، ويخشى أن يُعطيَ منه لئلّا يقع في الفاقة. أتريد أن تعرف كيف يسخو عليك الله برحمتِه؟ أحبَّ أنت بسخاء، وانظر إذا كانت محبّتك تنضبُ من سخائِها. فما أغنى محبّة ذاك الإله العظيم الجلال، إذا كانت محبّتك أنت، صورتَه، بهذا الغنى!

٢٩ – إلى ممارسة هذه المحبّة ندعوكم ونحضّكم، خصوصًا، يا إخوتي، لا تجاه بعضكم فقط، بل تجاه من هم خارج الكنيسة، سواء أكانوا وثنيّين لم يؤمنوا بعدُ بالمسيح، أو إخوةً منشقّين يُشاركوننا الإعتراف برأسٍ واحد، وينفصلون عنّا بالجسد (الدوناتيّون). لنرثِ لهؤلاء، يا أحبّائي، كإخوة، لأنّهم في الحقيقة إخوة، شاؤوا أم أبَوا. لا يعودون إخوةً إذا كفّوا عن أن يقولوا: «أبانا» (متّى ٦: ٩). يقول النبيّ عن الذين يشبهونهم: «إذا قالوا لكم لستم إخوتَنا، أجيبوهم: أنتم إخوتُنا» (أشعيا ٦٦: ٥ بحسب السبعينيّة). أُنظروا حولَكم عمّن كان يمكن أن يتكلّم النبيّ على هذا النحو. أعن الوثنيّين؟ لا، لأنّه ليس بوسعنا أن ندعوهم إخوتَنا بحسب الكتاب، وبحسب لغة الكنيسة المألوفة. أعن اليهود الذين لم يؤمنوا بيسوع المسيح؟ إقرأوا رسائل القدّيس بولس، تجدوا أنّه عندما يستعمل كلمة «إخوة» من دون أيّ إضافة، فإنّه لا يقصد سوى المسيحيّين. يتكلّم عن الزواج فيقول: «ليس للأخ أو الأخت التزامٌ في مثل هذه الحال» (١ قورنتس ٧: ١٥). وبالأخ والأخت يقصد المسيحيّ والمسيحيّة. ويقول أيضًا: «أمّا أنت فلماذا تدين أخًا؟ وأنت لماذا تزدري أخًا؟» (رومة ١٤: ١٠)؛ وفي

مكانٍ آخر: «فأنتم الظالمون، وأنتم السالبون، وتفعلون هذا بإخوتِكم» (١ قورنتس ٦ : ٨). فالذين يقولون: لستم إخوتَنا، يقولون إنّنا وثنيّون. والحال، فإنّهم يريدون أن يُعمّدونا مرّةً ثانية، مدّعين بأننا لا نملك المعموديّة التي يمنحونَها. يضلّون إذ يُنكرون علينا الأُخوّة. لكن، لماذا قال أشعيا النبيّ: «أمّا أنتم فقولوا لهم: أنتم إخوتُنا»، إلّا لأنّنا نُقرّ بأنّ لديهم ما لا نطلب أن نمنحهم إيّاه مجدّدًا؟ يُنكرون أن نكون إخوتَهم، عندما لا يعترفون بمعموديّتِنا؛ أمّا نحن الذين نعترف بأنّ معموديّتَهم هي معموديّتنا، ولا نطلب أن تُمنح لنا مرّةً ثانية، فنقول لهم: أنتم إخوتُنا. فإذا قالوا لنا: لماذا تطلبونَنا، وماذا تريدون منّا؟ فلنُجب: انتم إخوتُنا. وإذا قالوا: ابتعدوا عنّا، فلا شيء يجمعنا بكم، فلنُجِب: بل هناك ما يجمعنا بكم، وهو اعترافنا بمسيحٍ واحد، وعلينا أن نكون، لرأسٍ واحدٍ، جسدًا واحدًا. ويأتيك منْ يقول: لماذا تبحثُ عنّي إن كنتُ ضائعًا؟ يا للصفاقة، ويا للغباء! لماذا تبحثُ عنّي إن كنتُ ضائعًا!؟ بل لماذا أبحثُ عنك لو لم تكن ضائعًا؟ يعود فيقول: إن كنت ضائعًا، فكيف أكون أخاك؟ - أبحث عنك لكي يُقال لي: «كان أخوك مَيتًا فعاش، وضالًا فوجِد» (لوقا ١٥ : ٣٢). نستحلفكم، إذًا، يا إخوتي، بروح المحبّة التي يغذونا حليبُها، ويُقوّينا خبزُها؛ نستحلفكم بيسوع المسيح ربّنا وبجودتِه الإلهيّة! (فقد حان الوقت لكي نُحبّ أولئك الناس حبًّا بلا حدود، ونرحمهم رحمة واسعة، ونُصلّي إلى الله من أجلِهم، لكي يجعل الحكمة في عقولِهم والندامة في قلوبِهم، وأن يُدركوا، في النهاية، أن لا طاقة لهم على مقاومة الحقّ، وأنّهم ضعفاء في حقدِهم، وأنّهم يزدادون ضعفًا كلّما توهّموا أنّهم أقوياء)، أقول: أستحلفكم أن تفيضوا أمام الله زبدةَ محبّتكم على هؤلاء الناس الضعفاء، الذين لا يملكون سوى حكمة بشريّة، والمنصرفين إلى حياة المجون، لكنّهم

إخوتنا لأنّهم يحتفلون مثلنا بالأسرار نفسِها، ولو انّهم لا يُشاركونَنا بها؛ ولأنّهم مثلنا يُجيبون الـ«آمين» نفسَها، ولو انّهم لا ينطقون بها معنا. عملنا وُسعَنا، في مجمعِنا[٣]، لأجل خلاصِهم، ما لا يسمح لنا الوقت، اليوم، بإطلاعكم عليه. ولكي تطّلعوا عليه، نحضّكم على الحضور غدًا، بحماسةٍ أكبر، وبأعدادٍ أكبر، إلى كنيسة الـ«تريكليارُم[٤] Tricliarum». وبلّغوا الإخوة الغائبين بضروة الحضور.

(٣) لعلّ القدّيس أوغسطينُس يتكلّم عن المجمع الذي عُقِد بمشاركة الدوناتيّين في قرطاجة سنة ٤١١.

(٤) هي إحدى كبريات كنائس قرطاجة التي كان يُلقي فيها أسقف هيبّون عظاتِه.

عظة أولى في المزمور الثالث والثلاثين

الإفخارستيّا

داود الذي تظاهر بالجنون وغيّر وجهه أمام أخيش (ملك جِتّ) هو صورة يسوع المسيح الذي أبطل الذبائح الرمزيّة بحسب رتبة هارون، ليُقيم قربان جسده ودمه بحسب رتبة ملكيصادق. وجنونه المصطنَع هو صورة ذلك الجنون الذي ينبغي أن يراه اللامؤمنون في الإفخارستيّا.

١ - لا يبدو أنّ هذا المزمور يحمل في نصّه أيّ غموض يتطلّب شرحًا. غير أنّ العنوان يسترعي انتباهَنا ويستدعي طرق بابٍ يبدو مغلَقًا. فكما قيل في هذا المزمور: «طوبى للرجل المتوكّل على الله»، كذلك نرجو أن يفتح الله لنا إذا طرقنا الباب. فلو لم يكن يريد أن يفتح لنا، لما كان حثّنا على أن نقرع الباب. (متّى ٧: ٧). لأنّه يحدث أحيانًا أن يضيق صدر ذاك الذي عزم على أن يبقي بابه موصدًا باستمرار، فيقوم مكرهًا ويفتح الباب، لئلا يعود فيسمع الطَرْق (لوقا ١١: ٨). أما كان أحرى بنا أن نثق بأنّه لن يتأخّر فيفتح لنا ذاك الذي قال: «إقرعوا يُفتَحْ لكم»؟ ها أنذا، إذًا، أقرع من كلّ قلبي باب الربّ، لكي يتنازل فيكشف لي هذا السرّ. فاقرعوا أنتم أيضًا، يا إخوتي، بنيّتكم الصادقة لسماعي، وبالتواضع الذي تُصلّون فيه من أجلي. فعلينا أن نعترف بأنّ عنوان المزمور يضعنا أمام سرٍّ عميقٍ بعيد الغَور.

٢ - إليكم عنوان المزمور: «مزمور لداود، عندما غيّر وجهَه أمام

أبيملك فطردَه فانصرف» (٣٣: ١). بحثنا في الكتب المقدّسة التي دُوِّنت فيها أعمال داود لمعرفة الزمن الذي وقعت فيه تلك الحادثة. وبهذه الطريقة، فعثرنا على عنوان مزمورٍ آخر: «لداود عند فراره من وجه ابنه أبشالوم» (٣: ١)، والحال، فإنّنا قرأنا في أسفار الملوك في أيّ زمنٍ فرّ داود من وجه ابنه أبشالوم (٢ صموئيل ١٥: ١٤)؛ ذاك حدثٌ حصل في التاريخ، وروته الكتب المقدّسة؛ وعلى الرغم من أنّ عنوان المزمور ينطوي على معنًى سرِّيّ، إلّا أنّه مستقى من حدث تاريخيّ. وفي اعتقادي أنّ هذا العنوان: «مزمور لداود عندما غيّر وجهَه أمام أبيملك فطردَه فانصرف[1]» ينبغي أن يكون مدوّنًا في أسفار الملوك التي جمعت كلّ ما يتعلّق بأعمال داود (١صموئيل ٢١: ١٠-١٥). لكنّنا لا نجد فيها هذه الواقعة، إنّما نقرأ واقعة أخرى لا شكّ في أنّها استندت إليها. والحال، فإنّه كُتِب أنّ داود، عندما فرّ من وجه شاول الذي كان يضطهده، التجأ إلى أخيش ملك جَتّ، أي إلى ملكٍ على أمّة مجاورة لمملكة اليهود. وأقام هناك مختبئًا، هاربًا من بطش شاول. لم يكن مضى سوى وقتٍ قصير على اكتسابه المجد والشهرة بعد أن صرع جوليات (١ صموئيل ١٧: ٥٠)، وحقّق، بمعركة واحدة، للمَلِك وللشعب، مجد المملكة وأمنها؛ وكان من شأن تلك المأثرة أن أضرمت الحسد في شاول. وعلى الرغم من أنّ شاول كان يحتمل بألم وحرقة تحدّيات جوليات، فإنّه بدأ يصير، بعد مصرع جوليات، عدوًّا لمن بيده صرعَ عدوَّه، وأكلته الغيرة من شهرة داود. وما زاد في

(١) جاء في الترجمة الفرنسيّة (La Sainte Bible, publiée par la Ligue Catholique de l'Evangile): يُلمّح العنوان إلى الرواية التي وردت في سفر الملوك الأوّل، أو صموئيل الأوّل، حول التجاء داود إلى أخيش لا إلى أبيملك. ولا يبدو محتوى المزمور مطابقًا لعنوانِه.

اضطرام حسدِه، رؤيته الشعبَ في نشوة من الإبتهاج العارم، والنسوةَ يُنشِدنَ في جوقٍ واحد مجد داود قائلاتٍ: «قتل شاول ألوفَه وداود ربواتِه» (١ صموئيل ١٨ : ٧). اغتاظ شاول من أن يكون فتًى حدْثًا قد فاقه، بمعركة واحدة، مجدًا وشهرة، ومن سماعِه مدائح تضعُ داود فوق الملِك. فدفعه سمّ الحسد والكبرياء الدنيويّة إلى الغيرة والإضطهاد. وهكذا التجأ داود إلى ملك جَتّ المدعوّ أخيش (١ صموئيل ٢١ : ١٠). بعدها جاء من يُبلغ الملك أنّ الذي في قبضتِه ليس سوى ذلك الجنديّ الذي سطع مجده لدى الشعب اليهوديّ، ويقول له: «أليس لهذا كانت نساء إسرائيل يُغنّينَ ويقُلنَ: صرع شاول ألفًا وداود عشرة آلاف؟ (١ صموئيل ٢١ : ١١). لكن، إذا كان مجدُ داود الطريّ هذا مصدرَ حسدٍ لشاول، فكم كان أَوْلى أن يُخشى على داود من أن يقضيَ عليه ذلك الملك الذي لجأ إليه، ويسبق فيقضي على جارٍ قد يُصبح عدوًّا لو تركه ينجو. فخاف داود بطش أخيش؛ وكما كُتِب: «غيّر وجهه أمام الجميع، وتصنّع الجنون وجعل يضرب على طبلٍ عند باب المدينة، فحملوه من يديه، فراح يضرب بجبينِه عتبة الباب، ويُسيلُ لعابَ فمه على لحيتِه» (١ صموئيل ٢١ : ١٣)[٢]. فلمّا رآه الملك الذي

(٢) في السبعينيّة: καὶ ἠλλοίωσεν τὸ πρόσωπον αὐτοῦ ἐνώπιον αὐτοῦ καὶ προσεποιήσατο ἐν τῇ ἡμέρᾳ ἐκείνῃ καὶ ἐτυμπάνιζεν ἐπὶ ταῖς θύραις τῆς πόλεως καὶ παρεφέρετο ἐν ταῖς χερσὶν αὐτοῦ καὶ ἔπιπτεν ἐπὶ τὰς θύπας πύλης, καὶ τὰ σὶελα αὐτοῦ κατέρρει τὸν μώὐτοῦ. أي: «فغيّر مظهرَه (أو وجهَه أو سلوكَه) أمامَه، وتظاهر بالجنون، في ذلك اليوم، وراح يخبُط على أبواب المدينة، ويصنع بيديه حركات متهوّرة، ويرتمي على مصاريع الباب، ويُسيلُ لعابَه على لحيتِه». وفي الفولغاتا: «et inmutavit os suum coram eis et conlabebatur inter manus eorum et inpingebat in ostia portae defluebantque salivae eius in barbam» أي: «وغيّر وجهَه أمام عيونِهم،=

التجأ إليه على تلك الحال، قال لرجالِه: «لمَ أتيتموني بهذا المجنون؟ أيدخل هذا إلى بيتي؟» (١ صموئيل ٢١ : ١٤، ١٥). فطرده فانصرف. واستطاع داود أن ينجو سليمًا معافى، متستّرًا بالجنون. تلك هي النقطة التاريخيّة التي يبدو أنّها تذكّرنا بعنوان المزمور: «مزمور لداود عندما غيّر وجهَه أمام أبيملك فطردَه فانصرف». لكنّ هذا الملك كان أخيش لا أبيملك[٣]. وحده الاسم لا يبدو متوافقًا مع الحدث، لأنّ رواية الحدث متشابهة في المزمور وفي سفر الملوك. وهذا التغيير في الاسم ينبغي أن يحثّنا أكثر على البحث عن السرّ الذي يخفيه، والحال فإنّ الحدث حقيقيّ، لكنّه لم يحصل عبثًا. وليس عبثًا أن يورَد العنوان مع تغييرٍ في الاسم.

٣ - تُدركون، بلا شكّ، يا إخوتي، مدى عمق كلّ تلك الأسرار. لو لم يكن ثمّة سرٌّ في مصرع جوليات على يدّ صبيّ (١ صموئيل ١٧ : ٥٠)، لما كان ثمّة سرٌّ في تغيير داود وجهَه، وتظاهره بالجنون، وقرعِه على طبل عند باب المدينة، وضربِه جبينَه بعتبة الباب، وإسالته لُعابَه على لحيتِه. فكيف يُمكن ألّا يكون في الأمر سرٌّ والرسول يقول بوضوح: «فهذه الأمور عَرَضت لهم (لآبائنا) رموزًا وكُتِبت لموعظتِنا

=وانهار بين أيديهِم، وراح يخبط نفسه بباب المدينة ويُسيل لعابَه على لحيتِه». وفي العبريّة: «וַיְשַׁנּוֹ אֶת-טַעְמוֹ בְּעֵינֵיהֶם, וַיִּתְהֹלֵל בְּיָדָם; וַיְתָו עַל-דַּלְתוֹת הַשַּׁעַר, וַיּוֹרֶד רִירוֹ אֶל-זְקָנוֹ». أي: «وغيّر سلوكَه أمامَ عيونهم، متصنّعًا الجنون بين أيديهِم؛ وجعل يخطّ (يُخربِش، يصنع إشارات) على مصاريع الباب تاركًا لعابَه يسيل على لحيتِه». وفي الترجمة المسكونيّة: «فراح يتظاهر بالجنون، كلّما وقعت عليه العيون، ويخبُط على مصاريع الباب، تاركًا لعابَه يسيل على لحيتِه».

(٣) لعلّ أخيش هو الإسم الآخر لأبيملك الذي فرّ إليه داود من وجه شاول. ولفظة «أبيملك» تعني: «أبو ملك، أو الأب ملك، أو مملكة أبي، بحسب القدّيس أوغسطينُس. واللفظة كنعانيّة.

نحن الذين انتهت إلينا أواخرَ الدهور» (١ قورنتس ١٠: ١١). لو لم يكن في المنِّ رمزٌ قال عنه الرسول إنّهم أكلوا طعامًا روحيًّا (١ قورنتس ١٠: ٣)؛ ولو لم يكن ثمّة أيّ رمزٍ في البحر الذي انشقّ ليعبُر فيه بنو إسرائيل، وينجوا من ملاحقة فرعَون، والذي قال عنه الرسول: «لا أريد أن تجهلوا أيّها الإخوة أنّ آباءنا كلّهم كانوا تحت الغمام، وكلّهم اعتمدوا على يد موسى في الغمام وفي البحر» (١ قورنتُس ١٠: ١-٢)؛ ولو لم تكن رمزيّةً تلك الصخرة التي ضربَها موسى فتفجّر منها الماء، «والصخرة كانت المسيح» (١ قورنتُس ١٠: ٤)، بحسب القدّيس بولس؛ فإذا كانت تلك الأحداث، على حقيقتِها، بلا مغزى، ولو لم يكن ثمّة رمزٌ في إبنَي إبراهيم اللذَين وُلِدا له بحسب طبيعة البشر، ولو انّ الرسول يدعو هذين الولدين بالعهدَين القديم والجديد ويقول: «هذان هما العهدان، بصورةٍ رمزيّة» (غلاطية ٤: ٢٤)؛ فإذا لم يكن ثمّة أيّ رمزٍ في كلّ تلك الأفعال التي أعطيَت لنا كرموزٍ للمستقبل، من قِبَل سلطة رسوليّة، فينبغي أن نُصدّق بأنّه ليس من مغزى في رواية سفر الملوك، التي تلوتُها للوقت عليكم بشأن داود. بل أحرى بنا أن نُقِرَّ بأنّ ثمّة مغزًى سرِّيًّا في تغيير الاسم وفي عبارة: «أمام أبيملك».

٤ - ركّزوا معي، يا إخوتي. فكلّ ما قلتُه لكم، إلى الآن، إنّما كان لكي أحضّكم على طرق الباب الذي لم يُفتَح بعدُ. طرقتُه وأنا أكلّمكم، وطرقتموه وأنتم تُصغون إليَّ. فلنطرقه بعدُ لكي يفتح لنا الربّ. إنّنا نعرف معاني الأسماء العبريّة. لم نخْلُ من رجالٍ علماء نقلوا الأسماء من العبرانيّة إلى اليونانيّة، ومن اليونانيّة إلى اللاتينيّة. فإذا دقّقنا في معاني الأسماء التي تهمّنا، نجد أنّ كلمة «أبيملك» تعني: مملكة أبي، وكلمة «أخيش» أو «أكيش» تعني: كيف يكون هذا؟ فلنحفظ هاتَين الكلمتَين، لأنّ بشرحهما يبدأ الباب الذي طرقناه فينفتِح.

فإذا سألتَ ما معنى «أخيش»، أتاك الجواب: «كيف يكون هذا؟». وعبارة «كيف يكون هذا؟» تعبّر عن دهشة قائلِها وعدم فهمِه. «أبيملك»: مملكة أبي؛ و«داود»: ذو اليد القديرة[٤]. والحال فإنّ داود صورة المسيح وجوليات صورة الشيطان؛ وداود الذي يصرع جوليات، صورةٌ للمسيح الذي يصرع إبليس. لكن من هو المسيح الذي يصرع إبليس؛ إنّه التواضع الذي يصرع الكبرياء. وحده اسم المسيح، يا إخوتي، مثالٌ مميَّزٌ لنا في التواضع. فإنّنا بالمسيح نُبشَّر، أساسًا، بالتواضع. بتواضعه شقَّ لنا الطريق: أبعدتنا الكبرياء عن الله، فلم يكن بوسعِنا أن نعود إليه إلّا بالتواضع، ولم يكن لنا من مثالٍ نقتدي به. لأنّ جيل المائتين كلّه كان منتفخًا بالكبرياء. وإذا تحلّى بعضهم بروح التواضع على مثال الآباء والأنبياء، فإنّ الجنس البشريّ كان يزدري التمثّل بتواضعِهم. لكن، لئلّا يرفض الإنسان أن يتمثّل بتواضع إنسانٍ آخر، اتّضَع الله لكي لا يزدريَ الإنسان، في كبريائِه، أن يسير على خطى الله.

٥ - تعلمون أنّه كان لدى اليهود، في العهد القديم، ذبيحة بحسب رتبة هارون، وضحاياها من البهائم، وكانت الذبيحة رمزًا. يومَها، لم تكن موجودةً ذبيحة جسد الربّ ودمه التي يعرفُها المؤمنون والذين قرأوا الإنجيل، والتي تُقرَّب اليوم في كلّ الأرض. تصوّروا، إذًا، ذبيحتَين: الأولى بحسب رتبة هارون، والثانية بحسب رتبة ملكيصادق التي قيل عنها: «أقسم الربّ ولن يندم: أنت كاهنٌ إلى الأبد على رتبة

---

(٤) الكلمة العبريّة داود דוד تعني الحبيب، ووردت بهذا المعنى في نشيد الأناشيد דוֹדִי (حبيبي). ولعلّ الذين فسّروا الكلمة بهذا المعنى استندوا إلى الآية السابعة من المزمور الثمانين التي جاء فيها בְּפָּיוּמִדּוּד תַּעֲבֹרְנָה (كفيو مِدّود تاعَبُرِنَهْ) أيْ تحرّرت يداي من ثقل السلّة (بمعنى قويت يداي).

ملكيصادق» (مزمور ١٠٩: ٤). عمّن يقول المرنّم «أنت كاهنٌ إلى الأبد على رتبة ملكيصادق»؟ - عن ربّنا يسوع المسيح. من كان ملكيصادق؟ - ملك شليم. وشليم هذه كانت في الماضي مدينة صار اسمها أورشليم، كما أكّد العلماء. إذًا، قبل أن يُصبح اليهود أسيادَ تلك البلاد، كان فيها الكاهن ملكيصادق المدعوّ في سفر التكوين كاهن العليّ (تكوين ١٤: ١٨). وملكيصادق هذا حضر أمام أبرام، عندما أنقذ أبرامُ لوطَ من أيدي أعدائه، إذ جابه آسريه وحرّر أخاه(٥). وعلى إثر ذلك، حضر ملكيصادق أمامَ أبرام، وكانت عظمة ملكيصادق أنّه هو الذي بارك أبرام. أخذ خبزًا وخمرًا ثمّ بارك أبرام. فأعطاه أبرام العُشر من كلّ شيء (راجع تكوين ١٤). أنظروا، إذًا، ما الذي قدّمَه ملكيصادق، ومن بارك. بعد ذلك بوقتٍ طويل، هتف داود: «أنت كاهنٌ إلى الأبد على رتبة ملكيصادق». بعد أبرام بزمن طويل، نطق روح الله بفم داود؛ لكنّ ملكيصادق كان يعيش في عصر أبرام. فعمّن كان بوسع داود أن يقول: «أنت كاهنٌ إلى الأبد على رتبة ملكيصادق»، إلّا عن ذاك الذي تعرفون ذبيحتَه؟

٦ - إذًا، أُبطِلَت ذبيحة هارون، وأُسِّست الذبيحة بحسب رتبة ملكيصادق. هناك مَن غيّر وجهه، ولا أعرف من هو. فمَن هو ذاك الذي لا أعرفه؟ لا أجهلَنَّه بعد اليوم! إنّه ربّنا يسوع المسيح الذي نعرفه. أراد أن يُخلّصنا بتأسيسِه ذبيحة جسده ودمه (متّى ٢٦: ٢٦). لكن، كيف استطاع أن يوصِيَنا بأن نأكل جسده ونشرب دمه؟ - بتواضعِه. فلو لم يتّضِع، لما صار لنا جسدُه مأكلًا ودمه مشرَبًا. أنظر مقدار عظمتِه: «في البدء كان **الكلمة**، و**الكلمة** كان في الله، و**الكلمة**

(٥) لوط هو ابن أخي إبراهيم، وكان اليهود يدعون كلّ نسيبٍ أخًا.

كان الله» (يوحنّا ١ : ١). ذاك هو القوت الأبديّ، طعام الملائكة، طعام القوّات العلويّة، طعام الأرواح السماويّة؛ يأكلونه فيشبعون، وما يُقيتُهم ويُسِرُّهم، يبقى كاملًا غير منقوص. فمن هو الإنسان الذي يُمكنه أن يتوق إلى هذا القوت؟ أيّ قلبٍ يمكنه أن يقتات به؟ كان ينبغي، إذًا، أن يتحوّل ذاك اللحم الروحيّ إلى لبنٍ صالحٍ للأطفال. لكن، كيف يصير الطعام لبنًا؟ كيف للطعام أن يتحوّل إلى لَبنٍ إلّا إذا مرّ في الجسد؟ وهذا ما تفعلُه الأم. ما تأكله الأم يأكله الطفل أيضًا؛ لكن بما أنّ الطفل لا يستطيع أن يأكل الخبز، فإنّ الأمّ تحوّل الخبز في جسدِها وتُقيت طفلِها به في الحليب الذي يرضعه من ثديَيها. لكن، كيف أطعمتنا الحكمة الإلهيّة خبزها؟ - ذاك أنّ «الكلمة صار جسدًا وحلّ بيننا» (يوحنّا ١ : ١٤). تلك هي معجزة التواضع التي تطعم الإنسان خبز الملائكة، كما كُتِب: «أعطاهم خبز السماء، فأكل الإنسان خبز الملائكة» (مزمور ٧٧: ٢٤، ٢٥). أي أنّ الإنسان أكل **الكلمة**، طعام الملائكة الأبديّ، والمساوي للآب؛ لأنّه، وهو من طبيعة الآب، لم يعتدَّ مساواته لله اختلاسًا (فيليبّي ٢ : ٦). ذاك هو طعام الملائكة: «لكنّه أخلى ذاتَه آخذًا صورة العبد، صائرًا على شبه البشر، ومعروفًا كإنسانٍ في كلّ ما بدا منه؛ فاتّضع وأطاع حتّى الموت، موت الصليب» (فيليبّي ٢ : ٧)، لكي يرفع لنا بالصليب ذبيحة جسد الربّ ودمِه. إذًا، «غيّر وجهه أمام أبيملك»، أي أمام مملكة أبيه. لأنّ مملكة اليهود كانت مملكة أبيه. وكيف كانت مملكةَ أبيه؟ - لأنّ مملكة داود كانت مملكة إبراهيم. أمّا مملكة الله أبيه، فهي الكنيسة، لا الشعب اليهوديّ. لكنّ مملكة الشعب اليهوديّ كانت مملكة أبيه بالجسد. لأنّه قيل: «ويُعطيه الله عرش داود أبيه» (لوقا ١ : ٣٢). نرى، إذًا، أنّ داود هو أبو الربّ بالجسد، أمّا في الألوهيّة، فالمسيح هو ربّ داود لا ابنه. والحال، فإنّ

اليهود عرفوا المسيح في الجسد، ولم يعرفوه في طبيعتِه الإلهيّة. لهذا طرح عليهم هذا السؤال: «ماذا تقولون في المسيح، ابن من هو؟ قالوا: ابن داود. فقال لهم: فكيف يدعوه داود، بالروح، ربّه إذ يقول: قال الربّ لربّي اجلِس عن يميني حتّى أجعل أعداءَك موطئًا لقدمَيك؟ فإن كان يدعوه بوحي الروح القدس ربًّا، فكيف يكون ابنَه؟ فلم يستطيعوا أن يُجيبوه» (متّى ٢٢: ٤٢-٤٦)، ذاك أنّ اليهود لم يرَوا في ربّنا يسوع المسيح إلّا ما تراه الأعيُن، لا ما تُدركه القلوب. فلو كان لهم بصائر مثلما كان لهم عيون، لكانوا عرفوا ممّا تراه عيونُهم أنّ يسوع هو ابن داود، وممّا تراه بصائرهم أنّ يسوع هو ربّ داود.

٧ - إذًا «غيّر وجهه أمام أبيملك». ما معنى «أمام أبيملك»؟ - أي أمام مملكة أبيه. وما معنى: «أمام مملكة أبيه؟ - أي أمام اليهود. «فطرده، وانصرَف». من طرد؟ - طرد الشعبَ اليهوديّ وانصرَف. إبحث الآن عن المسيح عند اليهود فلن تجدَه. كيف طردهم وانصرف؟ - غيّر وجهَه. والحال، فإنّ اليهود أصرّوا على الذبيحة بحسب رتبة هارون، ورفضوا الذبيحة بحسب رتبة ملكيصادق (عبرانيّين ٧: ١١)، فخسروا المسيح؛ وأصبح المسيح ميراث الأمم الذين لم يُرسِل إليهم أنبياءَه. لأنّه أرسل إلى اليهود رسلًا وأنبياء؛ أرسل داود وإسحق ويعقوب وأشعيا وإرميا والأنبياء الآخرين. غير أنّ القليلين منهم عرفوه من النبوءات. أقول القليلين، قياسًا إلى الكثيرين الذين هلكوا، ونقرأ أنّهم كانوا بالآلاف. لأنّه كُتِب: «والباقون سيخلصون» (رومة ٩: ٢٧). تبحثون اليوم عن مسيحيّين مختونين فلا تجدون واحدًا. فيما كنتم تجدون في العصور المسيحيّة الأولى الآلاف من المؤمنين المختونين. إبحثوا اليوم فلن تجدوا. ليس بمستَغربٍ ألّا تجدوا. ذاك أنّه «غيّر وجهه أمام أبيملك فطرده، فانصرَف». كذلك غيّر وجهه أمام

أخيش فطرده، فانصرف. هنا تغيّرت الأسماء، لكي يحضّنا هذا التغيّر في الأسماء على البحث عن معنى الرمز، لئلّا ننقاد إلى الظنّ بأنّ المزامير لا تروي ولا تذكرُ إلا ما ورد من أخبارٍ في أسفار الملوك، بحيث نهتمّ لرواية الحدث من دون أن نبحث فيه عن صورة نبويّة. والحال، فما الذي يُراد أن يُقال لكم من خلال تغيير الأسماء؟ - إنّ ثمّة سرًّا مُغلَقًا. أطرقوا الباب، ولا تتوقّفوا على الحرف، فإنّ الحرف يقتُل؛ ابتغوا فهم الروح، لأنّ الروح يُحيي (٢ قورنتُس ٣: ٦). المعرفة الروحيّة هي التي تُخلّص المؤمن.

٨ - فكّروا بإمعانٍ، يا إخوتي، كيف انصرف من عند الملك أخيش. قلنا إنّ أخيش يعني: «كيف يكون هذا»؟ واذكروا ما جاء في الإنجيل. عندما تكلّم ربّنا يسوع المسيح عن جسده قال لليهود: «إن لم يأكل أحدٌ جسدي ويشرب دمي فلا حياة له في ذاتِه، لأنّ جسدي مأكلٌ حقيقيّ ودمي مشربٌ حقيقيّ» (يوحنّا ٦: ٥٤، ٥٦). فاستولت الدهشة على التلاميذ الذين كانوا يتبعونَه، وأرتعبوا من كلامِه. وبما أنّهم لم يفهموه، تصوّروا أنّ ربّنا يسوع المسيح يُخاطبهم، لا أدري بأيّة لغة جافّة، كما لو كان عليهم أن يأكلوا جسده الذي تراه أعينُهم، وأن يشربوا دمه. لم يُطيقوا تحمّل هذه الكلمات فقالوا: كيف يكون هذا؟ فالملك أخيش، هنا، هو صورة الضلال والجهل والغباء. والحال، فإنّ من يسأل: «كيف يكون هذا»، يدلّ على أنّه لا يفهم. ومتى غاب الفهم سادت ظلمات الجهل. إذًا، كانوا تحت سلطان الجهل، أي تحت سلطان الملك أخيش؛ أي أنّ سلطان الضلال كان يستولي عليهِم. والحال، فإنّ يسوع قال: «من لا يأكل جسدي ويشرب دمي». لكنّه كان قد غيّر وجهَه، فبدا كلامُ من يُعطي الناس جسده ليأكلوه، ودمَه ليشربوه كلامَ مجنون يهذي. هكذا بدا داود لأخيش مجنونًا، لأنّه غيّر وجهه،

فصاح: «لِمَ أتيتموني بمجنون»؟ (١ صموئيل ٢١: ١٤). أفلا نرى جنونًا في قول يسوع: «كلوا جسدي واشربوا دمي»؟ وفي قولِه: «من لا يأكل جسدي ويشرب دمي فلا حياة له في ذاتِه»؟ ألا يبدو أنّ يسوع يهذي. لكنَّه بدا في حالٍ من الهذيان بنظر الملك أخيش، أي الجهلة والأغبياء. لهذا تركهم وانصرف؛ أخلى الفهم قلوبَهم، فأقاموا في جهلِهم. فماذا قالوا؟ - قالوا، بشكلٍ من الأشكال: «كيف يكون هذا؟» وذا معنى كلمة «أخيش». والحال، فإنّهم قالوا: «كيف يقدر هذا أن يُعطيَنا جسده لنأكلَه»؟ (يوحنّا ٦: ٥٣). كانوا ينظرون إلى الربّ كمجنون يهذي ولا يعرف ماذا يقول. أمّا هو الذي كان يعرف ما يقول، فكان يُبشّر مُسبَقًا بأسرارِه، مغيّرًا وجهَه، متصنّعًا الجنون والهذيان؛ وكان، في نشوةٍ، «يضرب على الطبل عند باب المدينة[٦]».

٩ - لنرَ ماذا كان يقصد عندما تظاهر بالجنون، وراح يضرب على الطبل عند باب المدينة. لم يُقَل عبثًا إنّه «راح يضرب جبينَه بعتبة الباب»، ولا إنّه كان «يُسيل لعابَه على لحيتِه». لا شيء من هذا قيلَ عبثًا. والذي نستفيده من فهمِه ينبغي ألّا يجعلَنا نملّ عظةً طويلة. تعلمون، يا إخوتي، أنّ اليهود الذين غيّر المسيح وجهَه أمامَهم، وتركهم وانصرف، يستريحون في يوم السبت هذا الذي نحن فيه. فإذا

(٦) في العبريّة: וַיְתָו: وتعني يخطّ أو «يُخربش»، أو يصنع حركات كالمهرّج. وفي الترجمات العربيّة (دار المشرق): يخطّ. وفي الترجمات الإنكليزيّة: he scrabbled؛ وكذلك: he scratched أو scribbled أي يخطّ أو «يُخربِش»؛ وفي بعضِها؛ he trumbled، أي يضرب على الطبل، وفي بعضِها: he stumbled أي يزلّ أو يتعثّر أو يمشي باضطراب؛ وفي الترجمات الفرنسيّة: il faisait des marques، أو il faisait des signes أي يخطّ أو يرسم أو «يُخربِش»، أو يصنع حركات أو إشارات؛ وفي بعضَها: il tambourinait أي يضرب على الطبل، أو يخبُط. وباللاتينيّة inpingebat أي يصدم نفسَه أو يخبُط.

كان اليهود الذين خسروا المسيح الذي تركهم وانصرف، يحفظون راحةً باطلة، فإنّنا، نحن، نستفيد من وقت راحتِنا، إذا توصّلنا إلى معرفة المسيح الذي انصرف عنهم لكي يأتيَ إلينا. إذًا، لم يفعل داود عبثًا، في هذيانِه المصطَنَع، ما رُوِي عنه. ولا يُخبِرَنّا أحدٌ أنّه، عبثًا، راح يهذي ويضرب على الطبل عند باب المدينة، ويُمسَك من يدَيه، فيضرب جبينَه بعتبة الباب ويُسيلُ اللعاب على لحيتِه. كان يهذي. ما معنى «كان يهذي»؟ - أي كانت تنتابُه مشاعر من الوَجد المضطرم. ولِم كانت تنتابه؟ - رأفةً منه بأسقامِنا؛ ولذلك شاء أن يلبَس جسدَنا ويقهرَ به الموت. رأفتُه علينا هي ما ندعوه مشاعر الوجد. لهذا أنحى الرسول باللائمة على قساة القلوب الخالين من العطف الذين «لا وُدّ لهم ولا رحمة» (رومة ١: ٣١). فحيث يكون العطف تكون الرحمة. أين هي رحمة الربّ؟ - ترأّف علينا من علياء سمائِه. ولو انّه لم يشأ أن يُخليَ ذاتَه، وبقي إلهًا مساويًا لأبيه، لبقينا إلى الأبد تحت سلطان الموت. لكنّه، لكي يُخلّصنا من ذاك الموت الأبديّ الذي ألقتنا فيه كبرياؤُنا، تواضع وأطاع حتّى الموت، موت الصليب. إذًا، كان في حالٍ من الوجد، لكي يصل إلى حدّ الموت على الصليب. ولمّا كان المصلوب يُمدّد على الخشبة، ولكي يُصنع الطبل يُشدّ الجسد، أي الجِلد، على الخشب، قيل إنّه كان يضرب على الطبل، أي أنّه كان مصلوبًا، ومشدودًا على خشبة الصليب. كان في حالٍ من الوجد والولَه. أي أنّ محبّته لنا كانت تدفعه لكي يبذل نفسَه عن خرافِه (يوحنّا ١٠: ١٥). «راح يضرب على الطبل». أين؟ - عند باب المدينة. الباب الذي يُفتَح لنا لكي نؤمن بالله. كنّا قد أوصدنا الباب بوجه المسيح، لكي نفتحَه لإبليس. أغلقنا قلوبِنا عن الحياة الأبديّة. ولأنّنا ابتُلينا، نحن البشر البائسين، بإغلاق قلوبِنا عن الحياة الأبديّة، فلم يعد بوسعنا أن نعاين

الكلمة الذي يعاينه الملائكة، فتح الربّ إلهُنا بصليبِه قلوب المائتين. بهذا المعنى راح يضرب على الطبل عند باب المدينة.

١٠ - «وكان يحمل نفسَه بيدَيه» Et ferebatur in manibus suis[(٧)]. من ذا يا إخوتي يُصدّق أنّ إنسانًا بوسعِه أن يفعل هذا؟ من ذا يحمل نفسَه بيدَيه؟ بوسع إنسانٍ أن يُحمل بيدَي آخر، لا بيدَيه هو. وبالتالي لا نرى أنّه يسعُنا أن نفهم الأمر، بالمعنى الحرفيّ، بالنسبة لداود؛ لكنّنا نراه ممكنًا بالنسبة للمسيح، لأنّه كان يحمل نفسَه بيدَيه، عندما قدّم جسدَه لتلاميذِه قائلًا: «هذا هو جسدي» (متّى ٢٦: ٢٦). إذًا، كان يحملُ جسده بيدَيه. بهذا نرى تواضع ربّنا يسوع المسيح الذي يحضّ البشر، بإلحاح، على الاقتداء به. يحضّنا، يا إخوتي، على الإقتداء بتواضعِه لكي تكون لنا الحياة؛ ولكي نصرع جوليات، ونهزم الكبرياء باقتبالِنا المسيح في قلوبِنا. «كان يرتمي على مصاريع الباب». ماذا تعني عبارة «كان يرتمي»؟ - أي كان ينحني إلى أقصى درجات التواضع. وما هي مصاريع الباب؟ - أي بداية الإيمان الذي يُخلّصنا. ليس بوسع أحد أن يخلُص من دون أن يبدأ فيؤمن، على ما جاءَ في نشيد الأناشيد: «هلمّي، واعبُري برأس الإيمان»[(٨)] (٤: ٨، بحسب

(٧) في الفولغاتا: et conlabebatur inter manus eorum أي انهار (أو زلّ وتعثّر وسقط، أو اضطرب وتهاوى) بين أيديهم. أمّا صورة داود وهو يحمل نفسَه بيدَيه، التي يرسمُها القدّيس أوغسطينُس، فلعلّها صورة الممسوس الخفيف الجسم الذي يتحرّك، لخفّتِه، كمن يحمل نفسَه. على أنّ كلّ هذه التعابير تدلّ على تصرّف رجلٍ به مسٌّ من الجنون.

(٨) في السبعينيّة: «καὶ διελεύσῃ ἀπὸ αρχῆς πίστεως» أي: تعبرين برأس الإيمان. وفي الفولغاتا؛: «veni coronaberis de capite Amana» أي: هلمّي وتجلّي على قمّة أمانة. وبالعبريّة: תָּשׁוּרִי מֵרֹאשׁ אֲמָנָה أي أنظري من رأس أمانه. وكذلك بالعربيّة. و«أمانة» اسم علم، وهي أحدى قمم جبال لبنان الشرقيّة. ولعلّ=

السبعينيّة). علينا أن نتوصّل إلى معاينة الله وجهًا لوجه، كما كُتِب: «أحبّائي، نحن أبناء الله، ولم يتبيّن بعدُ ما سنكون. غير أنّنا نعلم أنّه حين يأتي في مجدِه، سنكون مثلَه، لأنّنا سنعاينُه كما هو» (١ يوحنّا ٣: ٢). سنعاينُه، إذًا، لكن متى؟ - عندما تنقضي هذه الحياة. إسمع ما يقول الرسول بولس: «لا نرى الله الآن إلّا كمن يرى في مرآة، مثل لُغز، أمّا حينئذٍ، فوجهًا لوجه» (١ قورنتس ١٣: ١٢). إذًا، قبل أن نرى **الكلمة** وجهًا لوجه، كما يراه الملائكة، ما زلنا بحاجة إلى الإرتماء عند مصاريع الباب التي سقط عندها الربّ متّضِعًا حتّى الموت (فيلبّي ٢: ٨).

١١ - وما معنى: «وكان يُسيل لعابَه على لحيتِه»؟ كانت تلك إحدى الحِيَل التي استعملَها داود لكي يُغيّر وجهه أمام أبيملك، أو أخيش، ليتركَه وينصرِف». ترك الذين لم يفهموه. وإلى أين انصرف؟ - إلى الأمم. فلنفهمْ، إذًا، ما لم يستطع اليهود أن يفهموه. ترك داود اللعاب يسيل على لحيتِه. علامَ يدلّ ذاك اللعاب؟ على الكلام الصبيانيّ، لأنّ الأطفال هكذا يُسيلون لُعابَهم. ألم يكن قول: «كلوا جسدي واشربوا دمي» بمثابة كلامٍ صبيانيّ؟ لكنّ هذا الكلام الصبيانيّ كان يُخفي قوّة الربّ، لأنّ اللحيةَ رمز القوّة؛ وذاك اللعاب الذي كان يسيل على لحيتِه ما كان إلّا ليدلّ كلام صادرٍ عن ضعفٍ، إخفاءً لعظمةٍ لا متناهية. أظنّ أنّ قداستَكم فهمتْ عنوان المزمور، وإذا ما خُضنا الآن في شرح النصّ، يُخشى ألّا تنسى قلوبُكم ما سمعتم. حسبُنا أنّنا شرحنا العنوان باسم ربّنا يسوع المسيح؛ ولمّا كان غدًا يوم الربّ، وينبغي أن أخاطبَكم، فلننتظر إلى الغد، لكي تستمتعوا أكثر بشرح نص المزمور.

=مترجمي السبعينيّة اختلط عليهم الأمر ونقلوا الإسم إلى اليونانيّة بمعناه اللفظيّ.

عظة ثانية في المزمور الثالث والثلاثين

الاستعدادات للإفخارستيّا

أن أبارك الربّ في كلّ حين، يعني أن أحملَه بالتواضُع، وأدنوَ من الحكمة الحقيقيّة من غير حسد، لأنّ بوسعِها أن تكون محبوبةً من الجميع. المنشقون يريدون أن يستأثروا بها. فلنطهّر قلوبَنا، لكي يُنوّرَنا الله ويُسبغ بركاتِه على قلوبِنا.

١ - لا يراودني شكّ في أنّ الذين سمعوني من بينكم، في الأمس، يذكرون وعدي. وهوذا الوقت لكي نفي بالعهد بمعونة الربّ. هو من أوحى إلينا بالوعد، وهو أيضًا يُهبنا القوّة للوفاء به، ولو انّ المحبّة تجعلنا على الدوام مَدينين لكم. والحال، فإنّ المحبّة حقٌّ موفى علىٰ الدوام، ومتجدِّد على الدوام، على حسب قول الرسول: «لا يكن عليكم حقٌّ لأحد ما خلا حُبُّ بعضكم لبعض» (رومة ١٣: ٨). شرحنا، أمسِ، عنوان المزمور؛ ومخافة ألّا يستبقينا شرح المزمور بكامله وقتًا طويلًا، أرجأنا إلى اليوم شرح المضمون. فلنسمع ما يقول لنا الروح القدس بفم نبيِّه، ممّا يتّصِل، في سياق المزمور، بالعنوان الذي عرضنا له بالأمس. والذين لم يكونوا حاضرين يُطالبونني بشرح العنوان كحقٍّ لهم عليّ. لكن لئلّا أتبسّط كما في الأمس، فأخيّب أمل الذين عليّ أن أفي لهم بوعدي، فليفهم الذين حضروا اليوم وغابوا في الأمس، قدر المستطاع، ما سأوجِزه. أمّا إذا كانت لديهم أسئلة حول

بعض النقاط، فستكون أذناي مُصغيَتَين لهم باسم المسيح، لكن، في أوقاتٍ أخرى، لئلّا نأخذ وقت هذا لذاك.

٢ - قلنا أمسِ إنّه جاء في سفر الملوك أنّ داود فرّ من وجه شاول وأراد أن يلجأ إلى ملك جَتّ المدعوّ أخيش. ولمّا رأى أنّ أصداء مآثرَه كانت تردّدت في تلك البلاد، خاف أن يدفع الحسدُ ذاك الملك الذي استجار به، إلى تدبير مكيدة له، فتظاهر بالجنون وراح يهذي. و«غيّر وجهَه»؛ ثمّ، كما نقرأ، «راح، كمن مُسَّ، يضرب على الطبل عند باب المدينة، ويحمل نفسَه على يدَيه، ويرتمي على عتبة الباب. فقال الملك أخيش: لمَ أتيتموني بهذا المجنون؟ أمن قلّة المجانين عندي؟» (راجع ١ ملوك ٢١ : ١٠-١٦). وتركه يمضي، متمّمًا ما كُتِب: «غيّر وجهه، فتركه، فانصرف». والملك الذي تركه داود، كان أخيش، فيما يقول عنوان المزمور: «غيّر وجهه أمام أبيملك، فتركه، فانصرَف». قلنا إنّ في تغيير الأسماء رموزًا، ولو كرّر المزمور الاسمَ التاريخيّ نفسَه، لخُيّل إلينا أنّ النبيّ يروي حدَثًا، من دون أن يطلع علينا بنبوءة رمزيّة. هناك، إذًا، صورة في كِلا الاسمين: فـ«أخيش» يعني: «كيف هذا»؛ و«أبيملك»: «مملكة أبي». فسؤال: «كيف هذا»، ينمّ عن جهل. إنّه كلام إنسانٍ ينظر بدهشة، ولا يفهم. أمّا اسم أبيملك فيرمز إلى مملكة اليهود التي يستطيع المسيح أن يدعوها «مملكة أبي»، لأنّ داود أبوه بحسب الجسد، وداود كان ملكًا على الشعب اليهوديّ. إذًا، أمام مملكة أبيه، غيّر وجهه فتركَ تلك المملكة وانصرف؛ فهناك كانت تقام الذبيحة بحسب رتبة هارون، وهناك أسّس يسوع ذبيحة جسده ودمه. غيّر وجهَه بالكهنوت، وترك الأمّة اليهوديّة ومضى إلى الأمم. ما معنى: «وكان في وجد» أي أنّه كان في نشوة الحبّ. وأيّ حبّ يُقاس إلى رحمة ربّنا يسوع المسيح الذي نظر إلى أسقامِنا، وأراد أن يُنقذَنا من

الموت الأبديّ، فخضع هو نفسُه للموت الزمنيّ بكثيرٍ من الذلّ والمهانة؟ «وراح يضرب الطبل». لا يُصنع طبلٌ إلّا بشدّ جِلدٍ على خشبة. وداود الضارب على الطبل يُمثّل يسوع على الصليب. «وراح يضرب على الطبل عند باب المدينة». فما هي أبواب المدينة سوى قلوبنا التي أغلقناها بوجه المسيح، الذي فتح قلوب المائتين وهو مشدودٌ على طبل الصليب؟ «كان يحمل نفسَه بيدَيه». كيف كان يحمل نفسَه بيدَيه؟ عندما أوصانا بأن نأكل جسده ونشرب دمه، أخذ بيدَيه ما يعلمه المؤمنون؛ وكان يحمل نفسَه، بشكلٍ من الأشكال، حين قال: «هذا هو جسدي». «ويرتمي على عتبة الباب»، أي أنّه اتّضع. وذاك هو الإنحناء حتّى عتبة الإيمان. فعتبة الباب هي المدخل إلى الإيمان، الذي كان أساسًا للكنيسة، من أجل أن نعاين بهاء الله؛ لأنّ الإيمان بما لا يُرى، استحقاقٌ لمعاينة الله وجهًا لوجه. ذاك هو عنوان المزمور، وقد شرحته لكم بكلماتٍ قليلة؛ فلنسمع الآن أقوالَ ذاك الممسوس الذي أخذته النشوة فراح يضرب على الطبل عند باب المدينة.

٣ - «أبارك الربّ في كلّ حينٍ، وعلى الدوام تسبحتُه في فمي» (٣٣: ٢). هذا ما يقولُه المسيح، وهذا ما ينبغي أن يقولَه كلُّ مسيحيّ؛ لأنّ المسيحيّ جزءٌ من جسد المسيح، ولم يصِرِ المسيح إنسانًا إلّا لكي يصير ملاكًا الإنسانُ الذي يقول: «أبارك الربّ». فمتى تُبارك الربّ؟ - أعندما يُحسِن إليك؟ أعندما تفيض عليك الخيور الدنيويّة؟ أتبارك الربّ عندما يُغدق عليك الحنطة والخمر والزيت والذهب والفضّة والعبيد والقطعان؟ أعندما تبقى تلك النعمة الفانية مصانةً لا يطالها فساد؟ أعندما ينمو كلّ ما يولد لك وفقًا للنظام الطبيعيّ، ولا ينتزع منك شيئًا موتٌ مفاجئ؟ أعندما يطفح بيتُك بالرخاء وتتدفّق الخيور عليك؟ أفي تلك الحال فقط تُبارك الربّ؟ - لا، بل في كلّ حين. أي في حال

الرخاء تلك، وأيضًا حين تختلّ تلك النُعمى، بفعل الظروف، أو بعقابٍ من الربّ، وحين تُنزع منّا تلك الخيور، أو نُحرَم منها، أو ما إن نفوز بها حتّى تتلاشى. والحال، فإنّ هذا ما يحصل، وينجم عنه الفقر والمجاعة والعناء والألم والمحنة. أمّا أنت الذي رنّمت: «أبارك الربّ في كلّ حينٍ، وعلى الدوام تسبحتُه في فمي»، فباركه عندما يهبُك تلك الخيرات، وباركه أيضًا عندما ينتزعُها منك. ينتزِعها، لأنّه هو الذي يُعطيها؛ لكنّه لا يبتعد أبدًا عمّن يُباركُه.

٤ - لكن، من هو الإنسان الذي يبارك الربّ في كلّ حين، سوى الإنسان المتواضع القلب؟ لأنّ التواضع هو ما علّمناه الربُّ في سرِّ جسده ودمه. والحال، فإنّه عندما أوصانا بأن نأكل جسده ونشرب دمه، علّمنا تواضُعَه، في لمحةٍ من جنون داود المصطنَع رواها لنا سفر الملوك، وأشرنا إليها اليوم: «وكان اللعاب يسيل على لحيتِه». في القراءة التي تليَت عليكم من بولس الرسول سمعتم ما قيل عن ذاك اللعاب الذي كان يسيل على اللحية. لعلّ أحدكم يقول: عن أيّ لعاب سمعنا الرسول يتكلّم؟ ألم يقل الرسول الذي قرأناه لتوّنا: «اليهود يطلبون الآيات، واليونانيّون يبتغون الحكمة» (١ قورنتس ١: ٢٢)؟ إليكم ما قرأنا: «أمّا نحن فنكرز بيسوع المسيح المصلوب (الضارب على الطبل)، وهذا عارٌ عند اليهود وجنونٌ عند الأمم. أمّا للمدعوّين، يهودًا كانوا أم وثنيّين، فهو المسيح قوّة الله وحكمة الله، لأنّ ما يبدو جنونًا عند الله، أحكم من حكمة الناس، وما يبدو ضعفًا في الله، أقوى من الناس» (١ قورنتس ١: ٢٣-٢٥). والحال، فإنّ اللعاب يرمز للجنون، ويرمز للضعف. لكن إذا كان الجنون في الله أحكم من الناس، والضعف في الله أقوى من قوّة البشر، فلا يَسؤْكُم هذا اللعاب كلعاب، ولاحظوا، بالأحرى اللحية التي يسيل عليها؛ لأنّه إذا كان اللعاب دليلًا على

الضعف، فاللحية دليلٌ على القوّة. إذًا، أخفى المسيح قوّتَه في ضعف الجسد: كان ضعفه الظاهر يُغطّي قوّتَه الإلهيّة، مثلما كان اللعاب يُغطّي لحيته. بهذا كان يوصينا بالتواضُع. فتواضعْ إذا كنت تريد أن تبارك الربّ في كلّ حين، وأن تكون على الدوام تسبحتُه في فمك. فإنّ أيّوب لم يُبارك الربّ فقط عندما كان متخمًا بتلك الخيرات التي جعلته، بحسب الرواية، في فيض من الغنى والسعادة: كان لديه المواشي والعبيد والقصور والبنين وكلّ أنواع الخيور. وفي لمحة بصر، انتُزع منه كلّ شيء، وعمل بما يقولُ مزمورُنا، فهتف: «الربّ أعطى، والربّ أخذ، هكذا حسُن لدى الربّ وهكذا كان؛ فليكن اسم الربّ مباركًا» (أيّوب١ : ٢١). هوذا مثال الرجل الذي يُبارك الربّ في كلّ حين.

٥ - لكن، لماذا يُبارك الإنسان الربّ في كلّ حين؟ - لأنّه متواضع. فما هو التواضع؟ - هو في ألّا تطلب المدحَ لنفسِك. فمن طلب المدح لنفسِه كان متكبّرًا. وحيثُ لا كبرياء، هناك يكون التواضُع. أتريد ألّا تكون متكبّرًا؟ - تواضَعْ وقُل مع النبيّ: «بالربّ تفتخِر نفسي، فليسمع الودعاء ويُشاركوني فرحي» (٣٣: ٣). إذًا، ليس وديعًا من لا يريد أن يفتخر بالربّ، بل مُكابرٌ مُدَّعٍ متعجرفٌ صَلِف. الربّ يطلب مطيّةً وديعة، فكن أنت مطيّة الرب، أي كن وديعًا وطائعًا. يمتطيك ويقودُك، فلا تخشَ أن تعثر قدمك، أو تسقط في الهاوية. أنت ضعيفٌ، لكن تذكّر من يقودك. أنت جحشٌ، لكنّك تحمل المسيح. فالربّ دخل المدينة على جحشٍ، وكان ذاك الحيوان وديعًا وطائعًا. فهل كان اليهود يهتفون للجحش؟ أللجحش كانوا يُنشدون: «هوشعنا لابن داود، مباركٌ الآتي باسم الربّ»؟ (متّى ٢١ : ٩). كان الجحش يحمل المسيح، ولراكبِ الجحش كان يهتف الجمع السائر أمامَه والجمع السائر وراءَه. ألعلّ الجحش كان يقول: «بالربّ تفتخر نفسي،

فليسمع الودعاء ويبتهجوا»؟ لا يا إخوتي، لم يقل الجحش يومًا هذا الكلام؛ لكن، لتكن تلك لغة الشعب الذي يرمز إليه الجحش، إذا كان يريد أن يحمل ربّه. أيغضب ذلك الشعب لأنّي أشبّهه بالجحش الذي امتطاه الربّ؟ ويأتيك بعضُ المنتفخين بالكبرياء ويقولون: ها هو يجعلُ منّا جحاشًا. ألا فليغدُ جحشَ الربّ من يُكلّمني على هذا النحو، ولا يكن كالبغل والفرس، بلا فهم. تعرفون المزمور الذي يقول: «لا تكونوا كالبغل والفرس بلا فهم» (٣١: ٩). قد يرفع البغل والفرس رأسَهما أحيانًا، ولجموحِهما يوقِعان الفارس عن ظهرهما. باللجام والرسن والسوط يُروَّضان إلى أن ينقادا، ويحملا سيّدَهما. أمّا أنت، فاحمل إلهك، ولا تنتظِر أن يقبض اللجام على فمك، لتكون وديعًا وطائعًا. إحترز ألّا تفتخر بنفسِك، بل افتخر بالذي تحملُه واهتف: «بالربّ تفتخر نفسي، فليسمع الودعاء ويفرَحوا». فإذا لم يكن الذين يسمعون هذا القول لا ودعاء ولا طائعين، غضبوا ولم يفرحوا، وقالوا إنّنا نجعلهم جحاشًا. ألا ليت الودعاء والطائعين لا يمجّون سماعه، ولا يضيرُهم أن يكونوا جحاشًا!

٦ - يتابع النبيّ فيقول: «عظّموا الربّ معي» (٣٣: ٤). من هو الذي يحضّنا على أن نُعظّم الربّ معه؟ - كلُّ من ينتمي، يا إخوتي، إلى جسد يسوع المسيح، عليه أن يبذل جهده ليحمل الجميع على أن يُعظّموا الربّ معه. والحال، فإنّ من يصنع هذا يُحبّ الربّ. وكيف يحبّه؟ - عندما لا يحسد الذين يُحبّونَه مثلَه. إن من يحبّ بحسب الجسد، لا بدّ من أن يمتلكه حسد قاتل. فإذا كان، على سبيل المثال، يجد متعةً كبرى في أن يرى عاريةً المرأةَ التي يُحبّها حبًّا آثمًا، فهل يرضى بأن يراها سواه على هذه الحال؟ معاذ الله! سينهشُه حسد مسعورٌ إذا رآها سواه. تُصان العفّة في ألّا يرى المرأة إلّا من له الحقّ وحدَه في

أن يراها، لا سواه، أو حتّى في امتناعه هو عن رؤيتِها. لكن، ليست تلك حال الحكمة الإلهيّة: سنعاينُها وجهًا لوجه؛ وسنعاينُها كلّنا، ومن غير أن يحسد أحدٌ أحدًا. تكشف نفسَها للجميع، وتكون بكلّيّتِها للجميع، وتكون عفيفة للجميع. الجميع يتغيّرون فيها، وهي لا تتغيّر فيهم. هي الحقيقة. هي الله. فهل سمعتم، يا إخوتي، أنّ الله يتغيّر؟ الحقيقة تسمو على كلّ شيء. إنّها كلمة الله، وحكمة الله التي بها كان كلّ شيء؛ وهي تمتلك الذين يُحبّونَها. فماذا يقول ذاك الذي يُحبّها؟ - «عظّموا الربّ معي». لا أكن وحدي من يُعظّمه؛ لا أكن وحدي من يحبّه؛ لا أكن وحدي من يضمّه. وإذا كنت أريد أن أضمّه، فما عليّ أن أخشى ألّا يجد سواي مكانًا ليضمّه هو أيضًا. الحكمة من الاتّساع بحيث تسطيع جميع النفوس، معًا، أن تعانقَها وتتمتّع بها. ماذا أقول بعدُ، يا إخوتي؟ الخزي لمن يدّعون محبّة الله ويحسدون الآخرين عليها! قد يُحبّ أناسٌ خلَوا من الأخلاق لاعبًا في حلبة، ومن يُحبّ لاعبًا أو مروّض حيوانات، يرغب في أن يُشاركه الجميع حبّه له؛ يحضّ الجميع بقولِه: أحبّوا معي هذا الممثّل الإيمائي؛ أحبّوا معي هذه الشناعة أو تلك الدناءة. يصرخ أمام الشعب ويحضّهم على مشاركتِه حبّه لأشياء مخزِيَة. أفلا يصرخ المسيحيّ في الكنيسة داعيًا إلى مشاركتِه حبَّه للحقيقة الإلهيّة؟ أنعِشوا المحبّة بينكم، إذًا، يا إخوتي، وادعوا جميعُكم كلّ واحدٍ منكم قائلين: «عظّموا الربّ معي». تلك هي المحبّة التي ينبغي أن تُضرِمَكم. بأيّ هدفٍ تلوت عليكم هذه الحقائق وشرحتُها لكم؟ غايتي هي أن تجتذبوا إلى محبّة الله، إن كنتم تحبّونه، جميع الذي أنتم في اتّحادٍ معهم، وجميع الذين تشاركونَهم السكن. إذا كنتم تحبّون جسد يسوع المسيح، أي وحدة الكنيسة، فاجتذبوهم لكي يتمتّعوا بالربّ، واهتفوا بفرح: «عظّموا الربّ معي».

٧ - «ولنُسبّح معًا اسمه القدّوس» (٣٣: ٤). ما معنى: «ولنسبِّحْ معًا» - أي لنسبّح بصوت واحدٍ. والحال، فإنّنا نقرأ في كثيرٍ من الترجمات: «عظّموا الرّبَّ معي، ولنسبّحْ بأجمعِنا اسمَه القدّوس». والمعنى واحدٌ سواءٌ أقلنا «نسبّح معًا» أو «نسبّح بصوت واحد». إجتذبوا، إذًا، إلى محبّتِه، كلّ من تستطيعون اجتذابَه، عن طريق حضّهم، ودعمهم، وتعليمهم، والصلاة لأجلِهم، ودائمًا بالرأفة والوداعة. إجتذبوهم إلى المحبّة، حتّى إذا عظّموا الربّ، عظّموه معًا بصوت واحد. يزعم الدوناتيّون أنّهم يُعظّمون الربّ، فبِمَ يُزعجُهم بقيّة أهل الأرض؟ فلنقُلْ لهم، يا إخوتي: «عظّموا الربّ معنا، ولنُسبّحه معًا بصوتٍ واحد». لماذا لا تريدون أن تُعظّموا الربّ إلّا لوحدِكم؟ الله واحد، فلماذا تجعلون لله شعبَين؟ لماذا تريدون أن تشقّوا جسد المسيح وتشتّتوه؟ تعلمون أنّه ساعة كان يضرب على الطبل، كان معلّقًا على الصليب، وعلى الصليب أسلم الروح؛ وعندما أتى الذين صلبوه ورأوا أنّه مات، لم يكسروا ساقَيه، لكنّهم كسروا ساقَي كلّ من اللصّين اللذين كانا لا يزالان حيَّين على الصليب (يوحنّا ١٩: ٣٢، ٣٣)، لكي يُعجّلوا موتَهما، ويُنزلوهما عن الصليب، كما جرت العادة في الصلب. إذًا، أتى الجلّادون فوجدوا أنّ الربّ أسلم الروح بسلام، بحسب ما قال هو نفسُه: «لي سلطانٌ أن أبذل حياتي» (يوحنّا ١٠: ١٨). فعمّن بذل حياتَه؟ - عن جميع الشعب، عن جسدِه بكاملِه. أتى الجلّادون، ولم يُحطّموا ساقَي المسيح، وها هو دوناتُس يأتي ويشقّ إلى اثنَين كنيسة المسيح. على الصليب، وبين أيدي جلّاديه، بقي جسد المسيح كاملًا، وجسد الكنيسة لا يبقى كاملًا بين أيدي مسيحيّين! فلنصرخ، إذًا، يا إخوتي، ولتعلُ تنهّداتُنا، ولنقُل: «عظّموا الربّ معي، ولنُسبّح بأجمعنا اسمَه القدّوس». هذا صراخ الكنيسة إليهم. هذه هي الصلاة التي

ترفعها الكنيسة صارخة تنادي المنشقّين عنها. ما سبب انشقاقِهم؟ - الكبرياء. لكنّ المسيح يُعلّمنا التواضع، إذ يوصينا بأن نأكل جسده ونشرب دمَه. ذاك هو، كما سبق وقلنا لقداستِكم، الموضوع الذي يُعلّمه هذا المزمور الذي يوصينا، في آنٍ معًا، بتناول جسد المسيح ودمه، وبالتواضع الذي ارتضاه المسيح إلى حدّ الإنسحاق لأجلِ خلاصِنا.

٨ - «التمست الربّ فاستجابني» (٣٣: ٥). أين يستجيب الربّ؟ - في الداخل. أين يهب نعمَه؟ - في الداخل. هناك تلتمِس، وهناك تُستجاب، وهناك تنال السعادة. التمستَ، فاستُجبتَ، فنلتَ السعادة. والذي بقربِك لا يعلم. كلّ شيءٍ تمّ في الخفاء، بحسب كلام الربّ في الإنجيل: «أدخل مخدعَك، وأغلِق بابَك، وصلِّ إلى أبيك في الخفية، وأبوك الذي يرى في الخفية يُجازيك» (متّى ٦ : ٦). والدخول إلى المخدَع يعني الدخول إلى القلب. طوبى للذين يدخلون بالفرح إلى قلوبِهم، فلا يجدون فيها شرًّا. فلتُصغ قداستُكم إلى ما سأقول: إنّ من له امرأةٌ شرّيرة، لا يعود إلى بيتِه إلّا مرغمًا، فيما يمضي فرِحًا إلى أشغالِه، وعندما يحين الوقت لكي يعود إلى المنزل تستولي عليه الكآبة. والحال، فإنّه لا يعود إليه إلّا ليجد فيه الكدر والنُغصَة والكيد والمرارة. لأنّه ما من بيت ينتظم إذا لم يكن سلامٌ بين الزوج والزوجة، ويُفضّل الرجل أن يسرح في الخارج. فإذا كان حزينًا عند عودتِه إلى منزله لأنّه يخشى النُغصة والكدَر، فكم بالأحرى هم تُعساء أولئك الذين لا يجرؤون على العودة إلى ضمائرِهم مخافة أن يُلاقوا فيها كدر الخطيئة وتأنيب الضمير! طهّروا، إذًا، قلوبَكم، لكي تدخلوها بفرح. «طوبى لأنقياء القلوب، فإنّهم يُعاينون الله» (متّى ٥ : ٨). إنزعوا منها دنس الأهواء الشرّيرة؛ إنزعوا منها وصمة الطمع؛ إنزعوا منها لوثة

الممارسات الخرافيّة. إنزعوا منها الرجس وأفكار السوء؛ إنزعزا منها الحقدَ، لا لأصدقائكم فقط، بل لأعدائكم أيضًا؛ إنزعوا منها كلّ تلك القذارات، ثمّ ادخلوا إلى قلوبِكم، تجدوا فيها الفرح. وعندما تبدأون بتذوّق ذلك الفرح، ستجدون في طهارة القلب عطرًا ذكيًّا يحثّكم على الصلاة. هكذا إذا وصلتم إلى مكانٍ يسود فيه الصمت والسكون، ويفوح بالنظافة، تقولون: لنُصلّ هنا؛ لأنّ سحر السكون الذي يسود في المكان يحملُكم على الإيمان بأنّ الله سيستجيبكم. فإذا كانت تسحركم نظافة المكان الظاهرة، فكيف لا تُقرِفكم قذارات قلوبكم؟ أدخلوها، وطهّروها من كلّ وصمة، وارفعوا أعينكم إلى الله، وللحال يستجيبُكم. أُصرخ إليه وقل: «التمست الربّ فاستجابَني ومن جميع شدائدي نجّاني» (٣٣: ٥). لماذا؟ - لأنّك، حتّى متى تنوّرت، وبدأ ضميرك يتطهّر، لن تكون بمنأى عن الشدائد، وسيبقى فيك بعضٌ من ضَعفٍ، إلى أن يكون الموت قد ابتُلِع بالغلَبة، ولبِس هذا الجسدُ المائتُ عدم الموت» (١ قورنتُس ١٥: ٥٤). ضروريٌّ، إذًا، أن تؤدَّب في هذه الحياة، وضروريٌّ أن تتغلّب، على الدوام، على بعض التجارب ووسوسات السوء. لكن، يأتي يومٌ يُطهّر الله فيك كلَّ شيء، ويُنجّيك من شدائدِك. فاعرف كيف تلتمِسه.

٩ - «التمست الربّ فاستجابَني». إذًا، فالذين لا يُستجابون، لا يلتمسون الربّ. أرجو قداستكم أن تركّزوا انتباهَكم وتُصغوا إليَّ. لم يقل النبيّ: سألت الربّ ذهبًا فاستجابني، أو سألتُ الربّ عمرًا مديدًا فاستجابني، أو التمستُ هذا الشيء أو ذاك من الربّ فاستجابَني. فالتماس شيءٍ لدى الربّ هو غير التماس الربّ نفسِه. يقول: «التمستُ الربّ فاستجابَني». لكنّك إذا قلت في صلاتِك إلى الله: أَنزِل الموتَ بعدوّي هذا، فما هذا التماسٌ للربّ، بل إقامة نفسِك قاضيًا على

عدوّك، وجعل الله جلّادًا يأتمر بك. ما أدراك إذا لم يكن الإنسان الذي تطلب موتَه خيرًا منك، فقط لأنّه لم يطلب موتَك؟ فلا تلتمِس من الله شيئًا غير الله، والتمِسِ الله نفسَه، فيستجيبك، وفيما أنت تتكلّم، يقول لك: «ها أنذا» (أشعيا ٦٥: ٢٤). ماذا يعني «ها أنذا»؟ - ها أنا حاضرٌ أمامك، فماذا تريد؟ ما هو طلبُك؟ كلّ ما أعطيك دوني؛ فامتلكني، وتمتّع بي، وضُمَّني إليك. وإن لم تستطع بعدُ، فالتمسني، أقلّه بالإيمان، واعتصِم بي، يقول الربّ، وأنا أريحُك من أحمالِك، فتتّحد بي بكلّيّتِك، عندما يصير المائت فيك غير مائت (١ قورنتُس ١٥: ٥٤)، وتصير كملائكتي (متّى ٢٢: ٣٠)، وتُعاين وجهي على الدوام، فيفرح قلبك ولا ينزع أحدٌ فرحَك منك (يوحنّا ١٦: ٢٢)، لأنّك التمست الربّ فاستجابَك ومن جميع شدائدِك نجّاك.

١٠ - سبق أن قلنا مَن الذي يحضّنا: إنّه حبيب الله الذي لا يُريد أن ينفرد بضمّ محبوبه، ويقول: «أُدنوا منه، تستنيروا». يقول ما اختبَره بنفسِه. ماذا يقول الإنسان الروحيّ الذي ينتمي إلى جسد يسوع المسيح، أو ماذا يقول ربّنا يسوع المسيح نفسُه في طبيعته البشريّة، بصفتِه رأس الجسد الذي يحضُّ سائر الأعضاء؟ - «أُدنوا منه، تستنيروا» (٣٣: ٦). بل هو مسيحيٌّ روحيّ يدعونا إلى الدنوّ من ربّنا يسوع المسيح. فلندنُ منه لكي نستنير، لا كما فعل اليهود فغرقوا في الظلمات. لأنّهم دنَوا منه لكي يصلبوه. أمّا نحن، فلندنُ منه لنقبل جسدَه ودمَه. أغرقَهم المسيح المصلوب في الظلمات؛ أمّا نحن فقد استنرنا بتناولِنا جسد المسيح المصلوب ودمه. «أُدنوا منه، تستنيروا». هذا الخطاب موجّهٌ إلى الأمم. والحال، فإنّ اليهود صبّوا غضبَهم على المسيح الذي كانوا يرونَه، وصلبوه؛ لكنّ الوثنيّين لم يرَوه. وها إنّ الوثنيّين الذين كانوا في الظلمات يقتربون، والذين لم يكونوا يرَون

امتلأوا نورًا. كيف يقترب منه الوثنيّون؟ - يبحثون عنه بالإيمان، ويتوقون إليه بالقلب، ويسعَون إليه بالمحبّة. المحبّة هي قدماك اللتان تسعى بهما إليه. فحافظ على قدمَيك ولا تكن أعرجَ. ما هما تينك القدمان؟ - هما وصيّتا محبّة الله ومحبّة القريب. على هاتَين القدمَين، إسعَ إلى الله وادنُ منه، فهو الذي يحضّك على السعي؛ لم يهبْكَ فيض النور إلّا لكي يهبَك السبيل لاتّباعِ ذاك النور الإلهيّ البهيّ! «ولا تخزَ وجوهُكم». يقول النبيّ: «أدنوا منه، تستنيروا، ولا تخزَ وجوهُكم» (٣٣: ٥). وحده يخزى وجه المتكبّر. لماذا؟ - لأنّه يُريد أن يرتفع، فيخزى عندما يُهان، أو عندما يتعرّض لمذلّة، أو لما يدعوه العالَم ضيقًا أو زلّة. لا تجزعوا، بل اقتربوا من الله، ولن تخزَوا. إذا أساء إليكم عدوّ، فإنّه يبدو، في نظر الناس، أقوى منكم؛ غير أنّكم أنتم الأقوى أمام الله. أمسكتُ به، وأوثقتُه، وقضيت عليه: هذا ما يقوله الناس، ظنًّا منهم أنّهم أشدّ بأسًا من ضحاياهم. أيّ عظمةٍ لم يدّعِها اليهود لنفوسِهم عندما كانوا يلطمون الربّ ويبصقون في وجهِه ويضربون رأسه بقصبة، ويُلبسونه رداءً مزريًا! كم كانوا يحسبون أنّهم أقوى منه! فيما كان هو يبدو الأضعف، لأنّه كان يرتمي على عتبة الباب (١ ملوك ٢١: ١٣)، ولا يخزى. لأنّه «كان النور الحقيقيّ الذي يُنير كلّ إنسانٍ آتٍ إلى العالَم» (يوحنّا ١: ٨). ولمّا كان النور لا يسعه أن يخزى، كذلك لا يسمح النور بأن يخزى من يستنير به. «فادنوا منه واستنيروا، ولا تخزَ وجوهُكم».

١١ - ربّ قائلٍ: كيف أدنو من الربّ؟ آثامٌ وشرورٌ كثيرةٌ تُثقل كاهلي، ومعاصٍ كثيرةٌ تُزمجر في أعماق ضميري، فكيف أجرؤ فأدنو من الله؟ كيف؟ - باتّضاعك بالتوبة. تقول: لكنّي أخجل من أن أتوب. أدنُ، إذًا، من الله، فتستنير، ولن تخزى. إذا كان الخوف من الخِزي

يُقصيك عن التوبة، فإنّ التوبة تُدنيك من الله. أفلا ترى أنّك تحمل على وجهك عقاب خطيئتِك، وأنّ جبينَك يندى خجلًا، لأنّك لا تدنو من الله، ولا تدنو منه لأنّك تأبى أن تتوب؟ هذا ما يؤكّده النبيّ بقولِه: «البائس دعا، فاستجابه الله» (٣٣: ٧). إنّه يُعلّمك كيف تُستَجاب. لأنّك غنيٌّ، لم يستجبكَ الله. إذا حدث أن دعَوتَ ولم تُستَجَب، فاعرَف لماذا: «إنّ هذا البائس دعا فاستجابه الربّ». فكن أنت البائس وادعُ، فيستجيبك الربّ. تقول: وكيف أكون بائسًا وأدعو؟ - لا تتباهَ بقوّتِك مهما بلغتَ من غنى، واعلم أنّك في فاقة، وأنّ تلك الفاقة ستدوم ما دمت لم تمتلك ذاك الذي يُغنيك. كيف استجابَ الله البائس؟ - يقول النبيّ: «من جميع شدائدِه نجّاه». وكيف يُنجّي الله البائس من جميع شدائِده؟ - «يَحِلُّ ملاك الربّ حولَ متّقيه ويُنجّيهِم» (٣٣: ٨). هذا هو النصّ الحقيقيّ، يا إخوتي، لا كما جاء في بعض الترجمات التي تُعوِزُها الدقّة، من أنّ «الربَّ يُحِلُّ ملاكه حول الذين يتّقونَه»، بل «يَحِلُّ ملاكُ الربّ حولَ متّقيه ويُنجّيهِم». من هو ملاك الربّ هذا الذي يتكلّم عنه النبيّ ويقول إنّه سيَحِلُّ حول الذين يتّقونَه ويُنجّيهم؟ - إنّه ربّنا يسوع المسيح نفسه الذي يُدعى في النبوءات ملاكَ المشورة العظمى، ورسول المشورة العظمى(١) (أشعيا ٩: ٦ بحسب السبعينيّة). ذاك الملاك، أو رسول المشورة العظمى، هو الذي سيحِلُّ حول الذين يتّقونَه ويُنجّيهِم. فلا تخشَوا أن تبقَوا بعيدين عن عين الله، فحيثُما تتّقون الربّ سيعثر عليكم ذلك الملاك، ويحلُّ حولكم ويُنجّيكُم.

١٢ - والآن يُريد النبيّ أن يُكلّمنا بوضوح عن السرّ المقدَّس الذي كان الربّ يحمل نفسَه فيه بيدَيه. يقول: «ذوقوا وانظروا ما أطيب

(١) في سائر الترجمات: ودُعي اسمه مُشيرًا عجيبًا.

الربّ» (٣٣: ٩). ألا يبدأ المزمور فينكشِف من تلقاء ذاتِه ويبيّن لكم معنى ما أظهره داود، صورة المسيح، من هذيانٍ مصطنَع، وغباءٍ عاقل، وجنونٍ حكيم، ونشوةٍ متّزِنة، عندما سأله اليهود الذين يرمز إليهم أخيش: «وكيف يمكن أن يكون هذا» (يوحنّا ٦: ٥٣)؟ بماذا أجاب الذين كان يملك عليهم أخيش، أي الجهل والضلال، عندما قال لهم الربّ «من لا يأكل جسدي ويشرب دمي فلا حياة له في ذاتِه» (يوحنّا ٦: ٥٤)؟ - قالوا: «كيف يقدرُ هذا أن يُعطينا لحمَه لنأكلَه»؟ إن كنت تجهلُه، فذُق وانظر ما أطيب الربّ؛ فإن لم تفهم، فأنت أخيش. سيُغيّر داود وجهَه ويتركك وينصرف عنك ويمضي.

١٣ - «طوبى للرجل المتوكّل على الله!» (٣٣: ٩). هل من حاجة للإستفاضة في شرح هذه الجملة؟ بائسٌ كلّ من لا يتّكل على الربّ. ومن هو الذي لا يتّكل على الربّ؟ - إنّه الذي يتّكل على نفسِه. والأدهى، يا إخوتي، أنّ الناس، في بعض الأحيان، لا يتوكلّون على أنفُسِهم بل على سواهم من الناس. يقول قائل: ما دام غايُس سايُس[٢] Gaius Seius حيًّا فمن يقدرُ عليّ. وغالبًا ما يتكلّم الناس على هذا النحو عن رجلٍ مات. في هذه المدينة يقولون: ما دام هذا الرجل حيًّا؛ وفي المدن الأخرى يعرفون أنّه مات. تلك لغة دارجة على ألسنة الناس، وليس فيهم من يقول: إني أتوكّل على الله، لأنّه لن يسمح بأن تؤذيَني. لا يقولون: توكّلت على الله، لأنّه إذا سمح بأن تؤذيَ جسدي، فلن يسمح بأن تؤذيَ نفسي. لكنّهم عندما يتوكّلون على هذا أو ذاك من الناس، فإنّهم يطّرحون خلاصَهم، ويُلقون حملًا ثقيلًا على من يظنّون أنّ فيه خلاصَهم.

---

(٢) المقصود بهذا الاسم هو أيّ إنسان ذو سلطان واعتدنا أن نقول بالعربيّة: ما دام «فلان» حيًّا فمن يقدر عليّ.

١٤ - «إتّقوا الربّ يا قدّيسيه، فإنّ متّقيه لا عَوَزَ لهم» (٣٣: ١٠). والحال، فإنّ كثيرين لا يريدون اتّقاء الله خوفًا من معاناة المجاعة. لهؤلاء نقول: إيّاكم والغشّ. فيُجيبون: وكيف نعيش؟ لا يسعني أن أمارس مهنتي من دون غشّ؛ لا يسعني أن أتاجر من دون غشّ. - لكنّ الله يُعاقب الغشّ، فاتّقِ الربّ. - إذا اتّقيت الربّ فلن أقوى على العيش. «إتّقوا الربّ يا قدّيسيه، فإنّ متّقيه لا عَوَز لهم». الله يعد بفيض الخير كلّ من يتّقيه، وكلّ من يخشى، إذا اتّقاه، أن يُحرَم من ذلك الفيض. كان الله يُقيتُك حين كنت ترذلُه، أيتخلّى عنك إذ تتّقيه؟ تعقّل، واحترز ألّا تقول: ذاك غنيٌّ وأنا فقير؛ أنا أتّقي الربّ، وأيّ كنوزٍ لم يجمع ذاك الذي لا يتّقيه، فيما بقيت، أنا، مُتّقيه، معدَمًا! إسمع ماذا يُضيف النبيّ: «الأغنياء افتقروا وجاعوا، وملتمسو الربّ يفيض عليهم الخير» (٣٣: ١١). تبدو هذه الكلمات خادعة، إذا ما أُخذت بحرفيّتِها؛ والحال، فإنّك ترى الكثير من الأغنياء الفاسدين يموتون في غناهم، ولم يعرفوا الفقر في حياتِهم؛ تراهم يَشيخون، ويبلغون آخر أيّامِهم في فيضٍ من الرخاء والنُعمى؛ ترى ما يُبذَخ من مالٍ للإحتفال بمآتمهم الفخمة؛ وترى الحشود التي تحمل إلى القبر ذاك الغنيّ الذي قضى على سريرٍ من عاج، محاطًا بعائلته التي تبكيه؛ وأنت الذي ربّما كنت تعرف فجوره وآثامَه، تقول في قلبِك: أعرف كلّ شرٍّ فعله هذا الرجل، وها هو شاخ، ومات على فراشِه، وشيّعه ذووه إلى القبر، وأقاموا له مأتمًا حافلًا؛ أعرف ماذا فعل؛ لقد خيّبني الكتاب وخدعني، لأنّي قرأت فيه ورنّمت هذه الكلمات: «الأغنياء افتقروا وجاعوا». فمتى افتقر ذاك الرجل؟ ومتى جاع؟ «وملتمسو الربّ يفيض عليهم الخير». وأنا، كلّ صباحٍ أذهب إلى الكنيسة، وكلّ يومٍ أجثو على ركبتَيَّ، وكلّ يومٍ ألتمس الربّ، ولا أراني أملك شيئًا. وهذا الرجل

الذي لم يلتمس الربّ، مات في فيض من الغنى! وتخنق عقدة الشك من تراوده هذه الأفكار. والحال، فإنّه لا يلتمس على الأرض إلّا قوتًا فانيًا، ولا يلتمس الثواب الحقيقيّ في السماء. يُحني رأسَه ويُدخِلُه في شباك إبليس، فيضغط إبليسُ على عنقِه، ويُقيّده، ويدفعه إلى فعل الشرّ، وإلى الإقتداء بذلك الغنيّ الذي يراه يموت وسط كثرة الغنى.

١٥ - حذارِ أن تفهم الأمور مثلَه. فكيف أفهمُها إذًا؟ - بالتماسِك الخيور الروحيّة. وأين هي تلك الخيور؟ - القلب هو الذي يراها، لا العينان. ولكنّني لا أرى تلك الخيور. - من يُحبُّها يراها. - لست أرى البِرّ. - ليس البرّ ذهبًا ولا فضّة. لو كان ذهبًا لرأيته؛ لكن، لأنّ البِرّ ليس سوى الأمانة، فإنّك لا تراه. فإذا كنت لا ترى الأمانة، فكيف لك أن تُحبّ خادمًا أمينًا؟ إسأل نفسَك من هو الخادم الذي تُحبّه. ربّما كان لك خادمٌ جميل الوجه، عالي القامة، رشيق القوام، لكنّه سارقٌ وكاذبٌ وبطّال. وربّما كان لك خادمٌ آخرُ قصير القامة، قبيح الوجه، قاتم اللون، لكنّه أمينٌ ومُقتصِدٌ وقنوع؛ أرجوك، انظر مليًّا، أيّهما تُفضّل؟ إذا نظرت بعيني الجسد، فضّلت الخادم الجميل المنافق، أمّا إذا نظرت بعيني القلب، فإنّك تُفضّل القبيح الأمين. إذًا، أنت تعرف ما تطلبه من الآخر، أعني الأمانة؛ إذًا، أَظهر أنت أيضًا أمانتك لله. لماذا تُسرُّ بمن يُبدي لك الأمانة، وتمدحه على خيرٍ عينا قلبِك وحدهما تريانه؟ أتكون فقيرًا وأنت ممتلئٌ غنًى روحيًّا؟ وهل كان ذاك الرجل غنيًّا لأنّه ينام على سريرٍ من عاج؟ أفتحسب، بعدُ، أنّك بائس، وقلبُك يُشِعّ بلآلي فضائل البِرّ والحقيقة والمحبّة والصبر والإيمان والوداعة؟ أبسط أمامنا تلك الثروات إن كنت تملكها، وقارنها بثروات الأغنياء. وجد الغنيّ كثيرًا من الأشياء الثمينة، فاشتراها. فلو كان الإيمان يُشترَى، فبأيّ ثمنٍ لا تشتريه؟ ومع ذلك، شاء الله أن يهبَك الإيمان مجّانًا،

أفتجحد النعمة؟ إذًا، الأغنياء افتقروا وجاعوا، والأدهى أنّهم يفتقرون إلى الخبز. لا شكّ في أنّكم لا تصدّقون أنّهم يفتقرون إلى الذهب والفضّة، ومع ذلك فإنّهم يفتقرون إليهما. كان ذاك الرجل يملك الذهب، فهل كان مكتفيًا به؟ إذًا، مات فقيرًا، لأنّه أراد أن يكسب فوق ما يملِك. قلتُ إنّهم يفتقرون إلى الخبز. فلماذا يفتقرون إلى الخبز؟ - إذا كنت لا تعرف عن أيّ خبزٍ أتكلّم، فالربّ يُخبرك: «أنا الخبز الحيّ النازل من السماء» (يوحنّا ٦ : ٤١)؛ وأيضًا: «طوبى للجياع والعطاش إلى البِرّ، فإنّهم يُشبَعون» (متّى ٥ : ٦). «وملتمسو الربّ يفيض عليهم الخير». سبق أن قلنا أيّ خيرٍ يفيض عليهم.

١٦ - «هلمّوا يا بنيَّ واستمعوا لي فأعلّمكم مخافة الربّ» (٣٣: ١٢). تحسبون، يا إخوتي، أنّي أنا الذي أكلّمكم. لا، إنّه داود، إنّه الرسول، بل هو ربّنا يسوع المسيح يقول لكم: «هلمّوا يا بنيَّ واستمعوا لي». فلنستمع إليه معًا. استمعوا له بفمي. إنّه يُريد أن يُعلّمنا ذاك المتواضع؛ ذاك المجنونُ الضارب بالطبل، يُريد أن يُعلّمَنا. فماذا يقول؟ - «هلمّوا يا بنيَّ واستمعوا لي فأعلّمكم مخافة الربّ». فليُعلّمنا، إذًا، ولنُعِره آذانًا صاغية، ولنفتح له قلوبَنا. لا نفتحْ آذان الجسد ونُقفل قلوبَنا؛ لكن كما يقول الإنجيل: «من له أذنان سامعتان فليسمعْ» (متّى ١١ : ١٥). ومن ذا يرفض أن يستمع للمسيح يتكلّم بصوت نبيِّه؟

١٧ - «من هو الإنسان الذي يهوى الحياة، لكنّه يتوق إلى أيّام سعيدة؟» (٣٣: ١٣) هذا سؤال النبيّ يوجّهه إليكم. أفلا يُجيب كلٌّ منكم، في داخلِه فيقول: أنا؟ هل فيكم واحدٌ لا يهوى الحياة، أي لا يُريد أن يطول عمرُه، أو لا يتوق إلى أيّامٍ سعيدة؟ ألا تقولون كلّ يومٍ في شكواكم: إلامَ يدوم بؤسُنا؟ تمرّ الأيّام من سيِّءٍ إلى أسوأ. عاش

أجدادُنا أيّامًا أجملَ وأهنأ. ولو كان لكم أن تسألوا آباءكم، لسمعتُموهم هم أيضًا يشكون زمنَهم، ويتحسّرون قائلين: كان آباؤنا سعداء، وها نحن نُمضي في البؤس أيّامًا مُرّة؛ حُكم ذاك الوالي جرّ علينا الويل، وحَسِبنا أنّ الفرج سيحلّ علينا بموتِه، فإذا بنا في حالٍ أشدَّ سوءًا. أللّهمّ، أشرق علينا أيّامًا سعيدة! «من هو الإنسان الذي يهوى الحياة، لكنّه يتوق إلى أيّام سعيدة؟» فلا يطلُبَنَّ السعادة في هذه الدنيا. حسنٌ ما يطلُبُه، لكنّه لا يطلبه حيثُ يلقاه. إذا طلبت بارًّا في بلادٍ لا يسكنُها، سيقولون لك: إنّك تطلب رجل خير، ورجلًا عظيمًا، فاطلبهُ، لكن لا هنا. عبثًا تطلبه في هذه الناحية، فإنّك لن تجدَه أبدًا. تتوق إلى أيّام سعيدة، فلنتُق إليها معًا، لكن لا في هذه الدنيا. لكنَّ آباءَنا كانت أيّامُهم سعيدة. أنتم مخطئون: جميعُم عانَوا في هذه الحياة. إقرأوا الكتب. أوحى بها الله لكي تُكتَب ويكون لنا فيها تعزية. في زمن إيليّا، حدثت مجاعةٌ كبرى، عانى منها آباؤُنا الأمرَّين. كانت رؤوس الحيوانات الميتة تُباع بسعر الذهب؛ ذبح الأهل أولادَهم وأكلوهم؛ إمرأتان قرّرتا معًا أن تذبحا ابنيهِما وتأكلانِهما: إحداهما ذبحت ابنَها وأكلتاه معًا، وبعدها أبت الثانية أن تذبح ابنَها، فأصرّت عليها الأولى أن تفي بوعدِها؛ ورفعت شكواها إلى الملك، فمثلت المرأتان أمامَه وراحت كلٌّ منهما تُدافع عن حقّها. (راجع الملوك الرابع ٦: ٢٦-٣٠). ألا أبعَدَ الله عنّا ما نقرأه من تلك المآسي المروّعة التي تتناقلها أخبارُنا! أيّام العالم، على الدوام، أيّام بؤسٍ، أمّا أيّام الله فأيامُ سعدٍ على الدوام. مرّ إبراهيم بأيّام سعدٍ، لكن في داخل قلبِه. ومرّ في أيّامِ بؤس، عندما اضطرّته المجاعة أن يرحل إلى بلادٍ أخرى طلبًا للعيش (تكوين ١٢: ١٠؛ ٢٦: ١). وجميعُهم سَعَوا مثلَه. هل كانت أيّام بولُس أيّام سعد، هو الذي قاسى «الجوع والعطش والبرد والعُري»؟ (٢

قورنتس ١١ : ٢٧). ألا فليستكن خدّامُ الله؛ فالربّ نفسُه لم تكن أيّام سعدٍ أيّامه في هذا العالَم، فلاقى الشتم والذلّ والصلبَ والكثير من الآلام.

١٨ - لا يتذمّرَنَّ المسيحيّ، إذًا، ، ولينظر إلى ما حلّ بالذي يسيرُ على خُطاه. لكنّه إذا رغب في أيّامٍ سعيدة حقًّا، فليسمع ذاك الذي يعلّمنا ويقول لنا: «هلمّوا يا بنيَّ واستمعوا لي فأعلّمكم مخافة الربّ». ماذا تبتغي أيّها المسيحيّ؟ الحياة وأيّامًا سعيدة؟ فاسمع واعمل: «صُن لسانَك عن الشرّ» (٣٣: ١٤). أجل، صُن لسانَك. - لا أريد، يقول الرجل من أعماق بؤسِه، لا أريد أن أصون لساني عن الشرّ، إلّا أنّني أهوى الحياة وأيّامًا سعيدة. إذا قال لك عاملٌ: قطعتُ كرمَك، وأريد أَجري؛ أتيتَ بي لأُشذّب كرمَك، وأُقلّمه، فقطعتُ منه كلّ غصنٍ مُثمرٍ، وكلّ فرعٍ نشيط، لكي لا يبقى لك عنقود؛ فعلتُ ذلك، وعليك أن تدفع لي أجر عملي. ألا تقول إنّ هذا الرجل مجنون؟ ألا تطردُه قبل أن يُواجِهَك بمنجَلِه؟ كذاك هم الناس الذين يريدون أن يفعلوا الشرّ ويشهدوا بالزور، ويُجدّفوا على الله، ويتذمّروا، ويقترفوا الغشّ والسُكْرَ والمجون والفجور، ويلجأوا إلى التمائم والعَرافَة وتكون لهم أيّام سعد. يُقال له: لا يسعُك أن تأتي الشرّ وتطلب أن تُكافأ بالخير. أيكون الربّ ظالمًا، إذا كنتَ أنت ظالمًا؟ ماذا عليّ أن أفعل؟ - وما الذي تريدُه؟ - أريد أن أحيا أيّامًا سعيدة. - إذًا، «صن لسانك عن الشرّ، ولا تنفُثْ شفتاك بالغشّ»، أي لا تجعلَنَّ أحدًا ضحيّة غشّك وكذبك.

١٩ - وماذا يعني: «جانِبِ الشرّ» (٣٣: ١٥). قليلٌ ألّا تؤذيَ أحدًا، أو ألّا تقتل أحدًا أو ألّا تسرق أو تغشّ أو تزني أو تشهد بالزور.

«جانبِ الشرّ». لكنّك تكاد ألّا تُجانِبَه حتّى تقول: إنّي في حرز، أتممت كلّ وصيّة، سأفوز بالحياة، وسأرى أيّام سعد. لا يكفي أن تُجانب الشرّ، بل «اصنعِ الخير». قليلٌ ألّا تُعرّي أحدًا، عليك أن تكسوَ العاري. إذا لم تُعرِّ أحدًا فإنّك تجانب الشرّ، لكنّك لا تصنع الخير إلّا إذا آويتَ غريبًا في بيتِك. إذًا، «جانب الشرّ واصنع الخير. إبتَغِ السلام واتبعه». لا يقول لك: سيكون لك سلامٌ في الدنيا، بل «ابتغِ السلام واتبعهُ». فأين أبتغيه؟ - حيثُ سبقك. سلامُنا هو الربّ الذي قام من الموت، وصعد إلى السماء. إبتغِ السلام واتبَعه: ففي القيامة سيتبدّل فيك ما هو مائت، وتُعانق سلام السماء الذي لا يشوبُه كدَر. ففي السماء يسود السلام الكامل، حيث لا تُعاني بعدُ من جوع. لأنّ الخبز هو الذي يصنع السلام في هذه الدنيا؛ إنقطع عن الخبز وانظر أيّ حربٍ تستعِرُ في أحشائِك. فأيّ أنينٍ يئنّ الأبرارُ في هذه الدنيا، يا إخوتي؟ ذاك لكي تعلموا أنّنا، في هذه الحياة، نسعى وراء السلام، ولا نُعطاه إلّا في النهاية. فلنسعَ لنفوز بجزءٍ منه في هذه الحياة، لكي نستحقّ أن نفوز به كاملًا في الآخرة. ما معنى أن نفوز بجزءٍ منه؟ - لنعشْ في وئامٍ وتوافق، ولنحِبَّ قريبَنا مثل نفوسِنا. أَحِبَّ أخاك حُبَّك لنفسِك، وكن معه في سلام. لكن من الصعب أن نُزيل كلّ خصومةٍ بين الإخوة، وحتّى بين القدّيسين، كتلك التي حصلت بين برنابا وبولس (أعمال ١٥ : ٣٩)، لكنّها لم تبلغ حدّ إطفاء المحبّة، وخنق الوئام. يحدث أحيانًا أن تكون في خصامٍ مع نفسِك، لكنّك لا تحقد على نفسِك. والحال فإنّ من ندم على أمرٍ خاصم نفسَه: خطِئَ فندم، وغضب لأنّه تصرّف على هذا النحو فارتكب الخطيئة. خاصم نفسَه، لكنّ ذاك الخصام من شأنِه أن يُصالحه مع نفسِه. أنظر كيف يخاصم البارّ نفسَه؛ إسمع ما يقول النبيّ الصدّيق: «لماذا تكتئبين يا نفسي، وتُقلقينَني؟

إرتجي الله، فإنّي سأعود أعترف له» (مزمور ٤١ : ٦). إذا كان يقول لنفسِه: «لماذا تُقلقينَني»؟ فذلك لأنّها كانت، حقًّا، تُقلِقُه. لعلّه كان يُريد أن يتألّم من أجل المسيح، فتكدّرت نفسُه. ومع أنّه كان يعرف ماذا يريد، قال: «لماذا تكتئبين يا نفسي وتُقلقينَني؟» لم يكن في سلامٍ مع نفسِه، لكنّه كان متّحدًا بالروح مع المسيح، من أجل أن تتبعَه نفسُه، فلا تعود تُقلِقُه. إذًا، التمسوا السلام يا إخوتي. قال الربّ: «أكلّمكم بهذا لكي يكون لكم فيَّ سلامٌ». لا أعدُكم بالسلام على الأرض (راجع يوحنّا ١٦ : ٣٣). فليس في الأرض سلام حقيقيّ، ولا اطمئنان حقيقيّ، لكنّنا موعودون بفرح الخلود وبصحبة الملائكة. وكلّ من لم يلتمس السلام وهو يعيش على الأرض، لن يفوز به عندما يحين يوم السلام.

٢٠ - «عينا الربّ إلى الصدّيقين» (٣٣: ١٦). لا تخشَ شيئًا واعمل؛ فإنّ عينَي الربّ إليك، «وأذناه صاغيتان إلى استغاثتِك». ماذا تريد بعدُ؟ إن لم يسمع ربّ بيت عائلة كبيرة شكوى عبدٍ، فإنّ العبد سيتذمّر ويقول: كم من آلام أعاني هنا، ولا من يسمعني! لكن، هل لك الحقّ أنت بأن تقول لله: كم من آلام أعاني هنا، ولا من يسمعني!؟ لعلّك تقول: لو كان يسمعني لأبعدَ عنّي تلك الشدّة: أصرخُ إليه وأبقى في كربتي. أثبُت أنت في سُبُلِه، فيُصغي هو إليك في كربتِك. إنّه طبيبك، وما زال فيك لا أدري أيّ آفة آكلة؛ أنت تصرخ، وهو يُعمل مبضعَه ويقطع، ولن تتوقّف يدُه إلّا وقد قطع ما يراه ضروريًّا. أيُقال عن طبيبٍ إنّه قاسٍ لأنّه يسمع صراخ المريض، ويمضي يُعمِلُ مبضعَه قطعًا؟ ألا تُدلِّك أمٌّ أطفالَها عند غسلِهم؟ ألا يصرخ الأطفالُ بين يدَيها؟ لكنّها تقسو قليلًا فتستمرّ في غسلِهم ولا تُنصِت لدموعِهم. أفلا تكون تحبّهم بكلّ ما في قلبِها من حنان؟ لا يكفّ الأولاد عن الصراخ، ولا

الأمّهات عن غسلِهم. هكذا هو إلهُنا، يشملُنا بحنانِه الكلّي، وإذا بدا لنا أنّه لا يستجيبنا، فذلك لكي يشفيَنا ويحفظنا للحياة الأبديّة.

٢١ - «عينا الربّ إلى الصدّيقين، وأذناه مُصغيتان إلى استغاثتِهم». لعلّ الشرّير يقول: أصنع الشرّ وأنا مطمئنّ، ما دامت عينا الربّ ليستا إليَّ: إنّه مهتمٌّ بالنظر إلى الصدّيقين، ولا يراني؛ وأنا آمنٌ في كلّ ما أعمل. لكنّ الروح القدس الذي يرى أفكار الناس يُضيف للحال: «عينا الربّ إلى الصدّيقين، وأذناه مُصغيتان إلى استغاثتِهم، ونظرة سُخطِه على صانعي الشرّ ليمحو من الأرض ذكرَهم» (٣٣: ١٦-١٧).

٢٢ - «صرخ الصدّيقون، فسمع الربّ ومن جميع شدائدِهم نجّاهُم» (٣٣: ١٨). كان فتيان الأتون الثلاثة أبرارًا؛ من وسط الأتون صرخوا إلى الربّ، ورنّموا له، فتحوّل لهب النار ندًى ناعمًا. ولم تستطع النار أن تمسّ أولئك الشبّان الثلاثة الأبرارَ الأبرياء أو تؤذيَهم، وأنقذهم الربّ من النار (راجع دانيال ٣: ٤٩-٥١). ينبري واحدٌ فيقول: في الحقيقة، ها إنّ أبرارًا قد استُجيبوا بحسب ما قيل: «صرخ الصدّيقون، فسمع الربّ ومن جميع شدائدِهم نجّاهُم»؛ أمّا أنا، فصرختُ ولم يُنقِذني: فإمّا أنّي لست بارًّا، ولا أعمل إرادة الله، أو ربّما لأنّه لا يراني. لا تخف، وافعل ما يأمرك به الله، فإن لم يُنقِذك بالجسد، فإنّه سيُنقُذ روحَك. فهل أنقذ المكابيّين ذاك الذي أنقذ الشبّان الثلاثة من النار؟ أما كان المكابيّون يلفظون أنفاسَهم وسط النار (راجع سفر المكابيّين الثاني ٧: ٣. . .) فيما كان الآخرون يُسبّحون ويُرنّمون؟ ألم يكن إلهُ الفتية الثلاثة إلهَ المكابيّين؟ هل أنقذ أولئك ولم يُنقِذ هؤلاء؟ بل أنقَذهم جميعَهم. أنقذ الفتية الثلاثة لكي يخزيَ الجسديّين؛ ولم يُنقِذ المكابيّين بالطريقة نفسِها، لكي تكون دينونةُ مضطهِديهم أشدّ ويلًا، لأنّهم كانوا على يقينٍ من أنّهم يضطهدون شهود الله. أنقذ بطرس

عندما أرسل ملاكه إلى الرسول الموثَق بالسلاسل وقال له: قم وامضِ، فسقطت السلسلتان، وتبع الملاك الذي أنقذَه (راجع أعمال ١٢: ٧-٩). أفَلَم يكن بطرس بارًّا عندما لم يُنجّه الربّ من الصليب؟ أفلم يُنجِّه حينذاك؟ - بل نجّاه. أما كان غدا خاطئًا، لو تسنّى له أن يعيش عمرًا أطوَل؟ في تلك اللحظة، نجّاه الله أكثر من أيّ وقتٍ مضى، لأنّه أنقذه حقًّا من كلّ بؤس. فبعد أن انقذه الله مرّةً أولى، كم من آلام كان على الرسول أن يُعاني بعدَها؟ لكنّ الله أحلَّه أخيرًا مكانًا لا ألَم فيه ولا عذاب.

٢٣ - «الربّ قريبٌ من منكسري القلوب، ويُخلّص منسحقي الأرواح» (٣٣: ١٩). الله متعالٍ؛ فليتّضع المسيحيّ. إذا كان يُريد أن يقترب منه الإله العليّ، فليتواضع. إنّ هذا لسرٌّ عظيم، يا إخوتي. الله فوق الجميع؛ إرتَفِع أنت، فلن تطالَه؛ إتّضِع، ينزل هو بنفسِه إليك. «كثيرةٌ مصائب الصدّيق» (٣٣: ٢٠). هل قال: ليكُن المسيحيّون أبرارًا، وليسمعوا كلاميَ، لكي لا يُعانوا الشدّة؟ لا يعدك بهذا، لكنّه يقول: «كثيرةٌ مصائب الصدّيق». فهل يكونون أقلّ معاناةً لأنّهم ليسوا بأبرار، وتكثر مصائِبُهم إذا كانوا أبرارًا؟ لا، فبعد شقاء قليل وفيضٍ من الرخاء، ينتظرُ المنافقين الشقاءُ الأبديّ ولا منقِذ؛ أمّا الصدّيقون، فبعد كثرة الآلام، سيبلغون الراحة الأبديّة حيثُ لا ألم ولا عذاب. «كثيرةٌ مصائب الصدّيق، ومن جميعِها يُنقذه الربّ».

٢٤ - «يحفظ عظامه كلّها فلا ينكسر منها واحدٌ» (٣٣: ٢١). علينا، يا إخوتي، ألّا نفهم هذه الكلمات بمعنًى ماديّ. العظام ترمز إلى قوّة المؤمنين. فكما أنّ العظام تمنح الجسد الصلابة، كذلك يمنح الإيمان قلب المسيحيّ القوّة. والصبر الذي يولَد من الإيمان يُكوّن فينا

عظامًا داخليّة. وهي التي لا يُمكن كسرها. «يحفظ الربُّ عظامه كلّها فلا ينكسر منها واحدٌ». إذا كان النبيّ قال عن ربّنا يسوع المسيح: الربّ يحفظ عظام ابنِه كلَّها، ولا ينكسرُ منها واحد، بحسب الصورة التي أعطاها الكتاب كرمزٍ للمسيح، الحمل المُعدّ للذبح: «يُذبَح حملٌ ولا يُكسر منه عظمٌ» (خروج ١٢ : ٤٦)، فإنّ تلك النبوءة قد تحقّقت في يسوع المسيح. لأنّه أسلم الروح على الصليب قبل أن يصل إليه الجنود ويجدوا جسده بلا حياة، فلم يكسروا ساقَيه، لكي تتمّ النبوءات (راجع يوحنّا ١٩ : ٣٣). لكنّ النبيّ أعطى الوعد نفسَه لسائر المسيحيّين: «يحفظ الربُّ عظامهم كلّها فلا ينكسر منها واحدٌ». فإذا رأينا، يا إخوتي، صدّيقًا يُعاني الشدائد، كأن يقطع طبيبٌ ساقَه، أو يضربه عدوٌّ فيكسر عظامَه، فلا نقُلْ: إنّ هذا الرجل لم يكن صدّيقًا، لأنّ الرب وعد صدّيقيه فقال: «يحفظ الربُّ عظامهم كلّها فلا ينكسر منها واحدٌ». أتريدون أن ترَوْا أنّ النبيّ كان يتكلّم عن عظام الروح، التي قلنا إنّها الصلابة التي يوفّرها الإيمان، أي الصبر، والشجاعة الشدائد؟ تلك هي العظام التي لا تُكسَر. إسمعوا، فستجدون في آلام الربّ البرهان على ما أقوله. كان الربّ مصلوبًا بين لصّين. واحدٌ شتمَه فأدين، والآخر آمن به فبُرِّر؛ واحدٌ نال جزاءه في الدنيا وفي الآخرة، فيما قال الربّ للآخر: «الحقّ اقول لك، اليوم تكون معي في الفردَوس» (لوقا ٢٣ : ٤٣). إلّا أنّ اليهود الذين جاؤوا ليكسروا سيقان المعلّقين على الصليب، لم يكسروا ساقي الرب، وكسروا ساقَي كلٍّ من اللصّين (يوحنّا ١٩ : ٣٢)؛ كسروا عظام اللصّ المجدّف كما كسروا عظام اللصّ الذي آمن بيسوع المسيح. فأين مصداقيّة هذا الكلام: «يحفظ الربُّ عظامهم كلّها فلا ينكسر منها واحدٌ»؟ ألم يحفظ يسوع عظام اللصّ الذي قال له: اليوم تكون معي في الفردَوس؟ يُجيبُك الربّ: بل

حفظتُها، لأنّ ضربات العدوّ التي كسرت ساقَيه لم تقوَ على زعزعة صلابة إيمانِه.

٢٥ - «موت الخطأة مُفجِعٌ وخيم» (٣٣: ٢٢). تأمّلوا بهذا القول، يا إخوتي، وتذكّروا ما سبق أن قلناه. الله عظيمٌ حقًّا، ورحمتُه واسعة؛ عظيمٌ من أعطانا جسده لنأكلَه ودمه لنشربَه. بأيّ عينٍ ينظر إلى ذوي الأفكار الفاسدة الذين يقولون: ذاك الرجل قضى بشكلٍ مفجِع، إذ افترسته الوحوش؛ إذًا، لم يكن بارًّا، فاستحقّ هذه الميتة المفجِعة؛ وإلّا لما مات على هذا النحو؟ أيكون، إذًا بارًّا ذاك الذي يموت في بيتِه على فراشِه؟ تقول: ما أعجَبُ له هو أنّي أعرف آثامَ هذا الرجل ومعاصيه، ومع ذلك، فقد مات بسلامٍ في بيتِه، وفي غرفتِه، ولم يُعانِ طوال حياتِه، وحتّى ساعة موتِه، شقاء الغربة على الأرض. فاسمع الجواب جيّدًا: «موت الخطأة مُفجِعٌ وخيم». وذاك الموت الذي تظنّه هانئًا، إنّما هو وخيم إذا ما نظرت إلى ما يحدث في الداخل. ترى في الظاهر رجلًا ممدّدًا على فراش الموت، فهلّا رأيتَه بعينَي الإيمان ملقًى في جهنّم؟ إسمعوا، يا إخوتي، وانظروا ما هو المفجع والوخيمُ في موت الخطأة، بحسب الإنجيل. نقرأ في لوقا ما يلي: كان رجلان يعيشان في هذه الدنيا؛ واحدٌ غنيٌّ يلبس الأرجوان والكتّان الناعم، ويتنعّم كلّ يوم بالمأكل الفاخر؛ والآخر فقيرٌ ملقى على باب الغنيّ تُغطّيه القروح، وتأتي الكلاب وتلحسُ قروحَه، وكان يشتهي أن يشبع من الفتات المتساقط عن مائدة ذلك الغنيّ. وحدث أن مات الفقير، وكان بارًّا، فحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. (لوقا ١٦: ١٩-٢٢). أما كان ليقول كلّ من رأى جسدَ ذاك الفقير مُلقى عند باب الغنيّ ولا من يُكلّف نفسَه عناء دفنِه: ألا ليتها تكون ميتة عدوّي! ألا ليتني أراه في هذه الحال! يبصقون على جثّة لعازر الكريهة التي يفوح منه نتن

القروح، ولعازر يستريح في حضن إبراهيم. فلنؤمن بهذا، إن كنّا مسيحيّين. ولا يدّعيَن أحدٌ أنّه مسيحيّ إن لم يؤمن. الإيمان هو الذي يُعلّمنا. ما يقوله الربّ يكون. أتكون الحقيقة في كلام منجّم، والزور في كلام المسيح؟ لكن، كيف كان موت الغنيّ؟ هل كانت ميتتُه إلّا أن تكون ميتة عزٍّ، وهو رافلٌ بالأرجوان والكتّان الناعم؟ وهل كان ليشيّع إلّا في مأتمٍ مهيب وجنازة مكرَّمة؟ وأيّ طيبٍ لم يُرشّ على جثمانِه عند دفنِه؟ ومع ذلك، كان يتعذّب في الجحيم، ويشتهي أن تسقط نقطة ماءٍ على لسانه الجاف من إصبع ذاك الفقير المزدَرى، فلا يحظى بها. تعلّموا، إذًا، من هذا، ما تعنيه عبارة «موت الخطأة مُفجِعٌ وخيم»، واحترزوا ألّا تغترّ عيونكم بسريره ذي السُجُف الفاخرة، ولا بجثمانِه الملفوف بالأكفان المطرّزة بالحلى الثمينة، ولا بالتفجّع والبكاء، ولا بالعائلة المحزونة، ولا بالحشد الذي يسير أمام الجسد المحمول إلى المقبرة ووراءه، ولا بالنصب المرمريّ الموشّى بالذهب، المقام لذكراه. فلو استنطقتم كلّ هذه، سيأتيكم جوابٌ كاذب، يُخبركم بأنّ الموت جميلٌ، لا لصغار الخاطئين فقط، بل لكبار المجرمين، عندما يستحق الميت ذرف الدموع الغزيرة، وفيض الطيب، والزينة البهيّة، والموكب الحاشد، والمدفن الفخم. أمّا إذا سألتم الإنجيل، فسيُظهِرُ لعينَي إيمانِكم روحَ الغنيّ تحترق في نار الإنتقام، ولم ينفع شيءٌ من مظاهر التكريم التي رافقت جثمانَه في مأتمه المهيب.

٢٦ - لكن، لمّا كان ثمّة أنواعٌ كثيرة من الخطأة - ويستحيلُ ألّا يخطأ امرؤٌ في هذه الحياة - يُسارع النبيّ فيقول لنا أي خطأةٍ موتُهم مُفجعٌ وخيم: «ومبغضو الصدّيق يهلكون» (٣٣: ٢٢). من هو الصدّيق سوى ذاك الذي يبرّر الخاطئ؟ (رومة ٤ : ٥). ومن يكون الصدّيق سوى ربّنا يسوع المسيح الذي هو ذبيحة التكفير عن خطايانا؟ (١ يوحنّا ٢ :

٢). فالذين يُبغضونَه سيموتون موتًا مُفجعًا وخيمًا، لأنّهم يموتون بخطاياهم، إذ لم يتصالحوا به مع الله. لأنّ «الربّ يفتدي نفوس عبيدِه» (٣٣: ٢٣). والحال، فإنّ علينا أن ننظر إلى الموت، بالنسبة للروح، على أنّه مُفجعٌ ووخيم، أو مُشتَهًى ومرغوب؛ لا بالنسبة لما يُمكن أن تتعرّض له أجسادنا من مهاناتٍ أو مكرُماتٍ أمام أعيُن الناس. «وجميع المتّكلين عليه لا يهلكون» (٣٣: ٢٣). تلك هي، في الحقيقة، قاعدة العدالة البشريّة. فمهما اجتهدنا في أعمال التقوى، يستحيل أن تكون حياة البشر بلا خطيئة. إذًا، فلنتّكل أقلّه على الذي يغفر الخطايا لئلّا نهلك، آمين!

عظة أولى في المزمور الرابع والثلاثين

التوكّل على الله

عنوان المزمور: لداود. المعنى المزدوج المرتبط باسم داود يدلّ على صفتَين للمسيح، ويُشير، مثل النصّ، إلى أنّ هذا المزمور ينطبق على المسيح في شخصِه، وفي أعضائِه. بهذا المعنى المزدوج، نراه يتألّم ويطلب المعونة من الله. ونحن الذين نتألّم، فلنتوكّل على الله:

أوّلًا، لأنّه خلاصنا. فلكي يهبّ إلى نصرتِنا، يستخدمنا نحن أنفسَنا كسلاح، ويستخدم الفضائل التي يوحي بها إلينا: روحنا سيفه وخوذته ومِجنّه؛ وأعداؤنا الناس وإبليس. ولكي نصدّهم، علينا أن نكون أبرارًا، والله هو الذي يُبرّرُنا. ومهما قال أعداؤُنا، ومهما كان نصيبُنا في هذه الدنيا، فالله وحدَه خلاصُنا، والبرهانُ في ما صنَعه في كل زمان، وبخاصّةٍ لأيّوب. إنّه يقهر أعداءَنا، إمّا بالتوبة أو بالدينونة، فيجازي الأشرار بشرّهم؛ أمّا الأبرار فهو خيرهم الوحيد الأسمى. وبالتالي، عليهم أن يطلبوا فيه الفرح والرجاء.

ثانيًا، لأن المسيح رأسنا ونحن أعضاؤه، وكما تمجّد بعد أن تألّم، سنتمجّد نحن أيضًا إذا اقتدَينا به. أحاط به الأعداء من كل جانب ساعين لهلاكِه، فعاش البرارة والإماتة والصوم والصلاة والإتّحاد بالله، وبها تغلّب على مكرهم وشرّهم. فلنقتدِ بمثال الكمال هذا؛ وما دمنا

محكومين بالألم، فلنتألّم، على مثاله، من أجل البِرّ، فيُخلّصنا الله، ويكون نصيبنا الفرح والأمان.

١ - مقدِّمة. - لا تجهل محبّتُكم أنّ إرادة إخوتِنا الأساقفة[(١)] فرضت أن نشرح هذا المزمور بطريقة نجني منها جميعنا ثمار معرفة، لأنّا جميعنا نُصغي إلى من هو معلّم الكلّ، ومنه نتلقّى التعاليم كتلاميذ مدرسةٍ واحدة. لا يسع العنوان أن يستوقفَنا طويلًا، لقِصَرِه، ولأنّ فهمه لا يعصى على أبناء كنيسة الربّ. إليكم العنوان: «لداود». هو، إذًا، تسبيحٌ لداود. وداود هو «الرجل ذو الذراع القديرة، أو أيضًا، المحبوب». إنّه تسبيحٌ لذاك الرجل المحبوب ذي اليد القديرة الذي قهر الموتَ الذي نرزح تحتَه، ووعدنا بالحياة. يده قديرة، لأنّه قهر الموت الذي كان يسود علينا، ومحبوبٌ لأنّه وعدنا بالحياة الأبديّة. والحال، فأيّ شيء أقوى من تلك اليد التي لمست النعش فأحيت الميت؟ (لوقا ٧ : ١٤، ١٥). من أقوى من تلك اليد التي غلبت العالَم، لا بالسيف، بل وهي مسمّرة على الصليب؟ من أجدر بالحبّ من ذاك الذي أراد الشهداءُ أن يذوقوا الموت، على الرغم من أنّهم لم يعاينوه، لكي يستحقّوا أن يبلغوا إليه. هذا المزمور موجّه إليه؛ فليرنِّم له قلبُنا ولسانُنا التسابيح اللائقة التي يرتضي أن يوحي لنا بها. لأنّه ما من أحدٍ يُسبّحه تسبيحًا لائقًا، إلّا بقدر ما يتلقّى منه التسابيح التي يرنّمها له. وهذا المزمور الذي نرنّمه له يأتينا من روحِه الذي أملاه على نبيّه بكلمات نرى فيها أنفُسَنا ونراه معنا. ولسنا نهينُه بقولِنا إنّنا نراه ونرى أنفسَنا في هذه الكلمات، من حيث أنه، حين كنّا نُعاني على الأرض، وهو جالسٌ في أعلى السماء، ولم يكن يمسّه أحد، صرخ: «لماذا تضطهدني؟».

(١) ألقيت هذه العظة خلال عقد مجمع أساقفة.

إذًا، فلنسمع صوتَه، تارةً صوت الجسد، وتارةً صوت الرأس. والحال، فإنّ هذا المزمور، إبتهالٌ إلى الله لكي ينصرَنا على أعدائِنا، في خضمّ شدائد هذا الدهر؛ والذي يدعو الربّ، هو المسيح، سواءٌ أصابت الشدائد الرأس أو الجسد. إلّا أنّه بتلك الشدائد يهب جميع أعضائِه الحياة الأبديّة، وبوعدنا بالحياة الأبديّة غدا غاية أشواقِنا.

٢ - يقول: «إقضِ، يا ربّ، على الذين يصنعون بي الشرّ، وأَخضِع مُضايقيَّ» (٣٤: ١). «إذا كان الله معنا، فمن علينا؟» (رومة ٨: ٣١). وكيف ينصرنا الله؟ - يقول النبيّ: «خُذ سلاحك ومجنّك وانهض إلى نصرتي» (٣٤: ٢). يا للمشهد الرائع! إلهٌ ينتضي السلاح للدفاع عنك! ما هو مِجنّه؟ ما هي أسلحتُه؟ يقول النبيّ المتكّلم هنا، في مزمورٍ آخر: «رضاك يكتنفني مثل الترس» (٥: ١٣). أمّا نحن، فإذا عرفنا أن نسير قدُمًا في تقوى الله،، نصير نحن أنفسُنا أسلحتَه التي يُدافع عنّا بها، وبها يضرب أعداءَنا. فكما أنّه هو مجنُّنا كذلك نحن دروعه. أمّا هو فيتسلّح بالذين خلقَهم، وأمّا نحن فنتسلّح بالمواهب التي منحنا إيّاها خالقنا. في مكانٍ ما، يقول القدّيس بولس الرسول إنّ أسلحتَنا هي: «درع الإيمان، وخوذة الخلاص، وسيف الروح الذي هو كلمة الله» (أفسس ٦: ١٦-١٧). لقد زوّدنا الربّ، إذًا، بتلك الأسلحة التي ذكرتُها، بأسلحةٍ بهيّةٍ برّاقة، لا تُدمَّر ولا تُقهر، بأسلحةٍ روحيّة وغير منظورة، لأنّ علينا أن نقاتل بها أعداءً غير منظورين. إذا كنت ترى عدوَّك، احتجت أسلحةً تراها. أمّا نحن فسلاحنا هو إيمانُنا بأشياء لا نراها، وبها نصرع أعداءً لا نراهم. ولا تظنّوا، يا إخوتي الأحبّاء، أنّ ما كان من أسلحتِكم درعًا هو درع، أو ما كان خوذة هو خوذة، أو ما كان سيفًا هو سيف. تلك حال أسلحة الجسد التي يُمكن تغييرها، ولو انّها من حديد، فنحوّل السيف، مثلًا، إلى فأس؛ لكنّنا نرى هنا

الرسول نفسَه يتكلّم تارةً عن درع الإيمان (١ تسّالونيكي ٥ : ٨)، وتارة عن مجنّ الإيمان (أفسس ٦ : ١٦). إذًا، بوسع الإيمان أن يكون، الدرع والمجنّ، في آنٍ معًا: الترس لأنّه يتلقى سهام العدوّ ويصدّها، والدرع لأنّه يحول دون اختراقِها الصّدر. تلك هي أسلحتُنا؛ فما هي أسلحة الله؟ نقرأ في مزمورٍ آخر: «نجِّ من الأشرار نفسي: أنقِذ سيفَك من أعداء ذراعك»[٢] (٢١ : ٢١). فالذين بدأ فدعاهم «أشرارًا»، يعود فيدعوهم «أعداءَ ذراعِك»؛ وما بدأ فدعاه «نفسي»، يعود فيدعوه «سيفك». يقول، إذًا، إنّ نفسَه هي سيف الله. «نجِّ من الأشرار نفسي»، أي «أنقِذ سيفَك من ذراع أعدائِك». لأنّك تأخذ نفسي بيديك سلاحًا، وتسحق أعدائي. فما نفسُنا لتعتبرَها عظيمةً، برّاقةً، ثاقبةً، مُشعّةً، متلألئة بأنوار الحكمة؟ ما نفسُنا؟ وماذا تستطيع، إن لم يُمسك بها الله ويتّخذها سلاحًا في القتال؟ إنّ أمضى سيفٍ، إن لم تمتشقه يد مُحارب، يُفَلُّ ويهوي. قلنا، في معرض كلامنا عن الأسلحة، إنّه يجب ألّا ننظر إلى كلٍّ منها على أنّه لا يصلح إلّا لنوعٍ واحدٍ من القتال. كذاك هي حال أسلحة الله. فعلى سبيل المثال، يدعو الكتاب نفسَ الصّدّيق تارةً سيف الله، وتارة عرش الله، وتارة هيكل الحكمة (راجع حكمة ٧). وبالتالي فإنّ الله يصنع من نفسِنا ما يشاء، ما دامت بين يديه، ويستخدمها كما يحلو له.

٣ - فلينهض، إذًا، بحسب تعبير من يدعوه، وليأخذ أسلحتَه وليأتِ لنصرتِنا! من أين ينهض؟ يُخبرنا النبيّ بذلك في مكانٍ آخر، في هذا الدعاء: «إستيقظ، لِمَ أنت نائمٌ يا ربّ» (مزمور ٤٣ : ٢٣). حين

(٢) تقول الآية في جميع اللغات: «أنقذ من السيف نفسي». غير أنّ القدّيس أوغسطينُس يعتبر أنّ نفس الصدّيق تغدو هي السيف، إذا عرفت كيف تستفيد من نصرة الله. لهذا أحبّ أن يقرأ الآية على هذا النحو.

نقول إنّ الله نائم، فهذا يعني أنّنا نحن النيام؛ وحين نقول إنّه يستيقظ، فإنّنا نحن الذين ننهض من سُباتِنا. كان الربّ نائمًا في السفينة، ولأنّه كان نائمًا، كانت الأمواج تضرب السفينة؛ وما كانت لتضربَها لو كان يسوع ساهرًا. سفينتُك هي قلبك؛ ويسوع في سفينتِك، هو الإيمان في قلبِك. فإذا شغل الإيمان أفكارَك، اطمأنّ قلبُك وكان في مأمنٍ من العواصف؛ أمّا إذا نسيت إيمانَكَ، فالمسيح نائم، وعليك أن تخشى الغرق. فاعمل وسعك لتوقظه، وقل له: إنهض، يا ربّ، إنّنا نهلك. فينهض ويأمر العاصفة، ويطمئنّ قلبك (راجع متّى ٨: ٢٤). ستكون بمنأى عن جميع التجارب، أو على الأقل لن يُصيبك أذاها، عندما يكون المسيح، أي إيمانُكَ، مستيقظًا في قلبك. فما معنى: «إستيقِظ»؟ - إظهَر، تجلَّ، أشعِرنا بحضورِك. «إنهض إلى نُصرتي».

٤ - «استلَّ سيفَك وأغلقْ على مُضطهِديّ» (٣٤: ٣). من هم مضطهِدوك؟ لعلّه جارك، أو إنسانًا أهنتَه أو أسأتَ إليه، أو آخر يُريد أن يستولي على ملكِك، أو آخر تُخالفُه البشارة بالحقّ، أو آخر توبّخه على آثامه، أو آخر تجرحُ حياته الماجنة بسلوكك العفيف. هؤلاء هم أعداؤنا ومضطهدونا. لكن، علينا أن نتوقّع أعداءً آخرين نقاتلهم بشكلٍ غير منظور، يُحذّرنا منهم الرسول بهذه الكلمات: «إن صراعنا ليس ضدّ اللحم والدم»، أي ليس ضدّ بشر، وضدّ أعداءٍ نراهم، بل ضدّ أعداءٍ لا نراهم، «ضدّ الرؤساء والسلاطين وسادة هذا العالَم، عالم الظلمات» (أفسس ٦: ١٢). وبسادة العالم كان يقصد إبليس وملائكته. لكنّه كان يخشى أن يُسيء الناس فهم هذه الكلمات، فيستنتجوا أنّ إبليس وملائكتَه يسودون على العالَم. لكن، لمّا كنّا نعني بالعالَم كلّ ما خلق الله ممّا يقع تحت عيوننا، بمن فيهم جمهور الخطأة والذين يُحبّون العالَم، وكلّ الذين قيل عنهم: «والعالَم لم يعرِفه» (يوحنّا ١: ١٠)،

وأيضًا: «والعالم كله تحت سلطان روح الشر» (١ يوحنّا ٥: ١٩)، فقد بيّن لنا الرسول، بوضوح، سادةَ أيّ عالم يعني حين قال: «عالم الظلمات». عندما أتكلّم عن سادة العالَم، أعني عالَم الظلمات. ثُمّ يُفهمنا ماذا يقصد بعالَم الظلمات. إذًا، لا يمكن أن يبقى لدينا أيّ شكّ في معنى عبارة «عالم الظلمات». وأيّ عالَم ظلماتٍ أسيادُه إبليس وملائكته؟ - إنّه عالم الكُفّار والمنافقين الذين قيل عنهم: «النور يشع في الظلمة، والظلمة لم تُدركْه» (يوحنّا ١: ٥). إليكم برهانًا آخر: ماذا يقول الرسول للمؤمنين الكثيرين الذين تابوا وابتعدوا عن أولئك الأثمة؟ - «كنتم، في ما مضى، ظلمةً، أمّا الآن فأنتم نورٌ في الربّ» (أفسس ٥: ٨). تُريد ألّا يتسلّط عليك إبليس؟ - أُعبُر إلى النور. فكيف لك أن تعبر إلى النور، إن لم يستلَّ الربّ سيفَه من غمده ويُنقذك من أيدي أعدائِك ومضايقيك؟ وكيف يستلّ سيفَه من غمدِه؟ سيف الله، كما سبق أن رأينا، هو نفسُ الصدّيق. ليكثُرِ الصدّيقون، فيخرج السيف من غمدِه، ويُغلق على الأعداء كلّ منفَذ. وحين يُكلّمنا الرسول عن السيف الذي يستلّه الله من غمدِه، فإنّه يحضّنا على العيش في البِرّ، ثمّ يقول: «حتّى يخزى خصمُنا، ولا يقوى أن يقول في حقّنا أيّ سوء» (طيطس ٢: ٨). كلّ منفذٍ يُغلَقُ دونَ من لا يجد أيّ شيءٍ يقولُه بحقّ القدّيسين.

٥ - ومن أين للأبرار بِرُّهم؟ أو بالأحرى، ماذا يقول أعداؤنا الذين يضطهدوننا؟ ماذا يقول أعداؤنا اللامنظورون؟ ألا يقولون شيئًا؟ الأعداء اللامنظورون هم الذين ينقضّون علينا، ويدسّون أفكار السوء إلى القلب البشريّ، عندما لا ندعو الله إلى نُصرتِنا؛ أنّنا إذا توسّلنا النصرة في غيره، غدَونا عاجزين عن مقاومة أعدائِنا، وكنّا لهم لقمةً سائغة. فعلينا أن نكون حذرين، بنوعٍ خاصّ، من وسوسات السوء تلك التي تكلّم عنها النبيّ في مزمور آخر، فقال: «أعداءٌ كثيرون قاموا عليّ؛

كثيرون قالوا لنفسي: لا خلاص له بإلهِه» (٣: ٢، ٣). وكيف يردّ النبيّ على هذه الوسوسات؟ - «قل لنفسي إنّي أنا خلاصك» (٣٤: ٣). عندما تقول لنفسي: «أنا خلاصك»، سأعيش في البِرّ ولا أدعو إلى نصرتي إلّاك.

٦ - وماذا يقول بعد ذلك؟ - «ليخزَ طالبو نفسي ويخجلوا» (٣٤: ٤)، لأنّهم يطلبونها ليُهلكوها. حبّذا لو طلبوها بنيّة صادقة! في مزمورٍ آخر يلوم الناس لأنّ أحدًا منهم لا يطلب نفسَه: «لم يبقَ لي سبيل إلى الهرب، وليس من يسأل عن نفسي» (مزمور ١٤١: ٥). من هو الذي يقول: «ليس من يسأل عن نفسي»؟ ألا يكون ذاك الذي قال عنه النبيّ قبل زمن طويل: «ثقبوا يديَّ ورجليّ، وأحصَوا كلّ عظامي، واستمتعوا بالنظر إليّ والتفرُّس فيَّ، واقتسموا ثيابي وعلى لباسي اقترعوا»؟ (مزمور ٢١: ١٧-١٩). كلّ تلك النبوءات كانت تتحقّق تحت أعينِ اليهود ووسطهم، وواحدٌ منهم لم يسأل عن نفس المخلّص! أيها الإخوة، فلنَدْعُه، إذًا، ونسألْه أن يقول لنفسِنا: «أنا خلاصُكِ»، وأن يفتح أذنَيها لتسمعه يقول: «أنا خلاصُكِ». والحال، فإنّه يقولُها، لكنّ كثيرين يُصمّون آذانَهم؛ لهذا فإنّ كثيرين ممّن هم في ضيق، هم أكثر إصغاءً إلى الأعداء الذين يُطاردونهم. ومن يُحرَم ممّا يتمنّاه، وتقع نفسُه في ضيق، وفي عوَزٍ إلى الخيور الزمنيّة، غالبًا ما يطلب مشورة الشياطين، ومشورة زبانية الشياطين، ومشورة العرّافين والسحرة؛ وهكذا يدنو الأعداء اللامنظورون من تلك النفس، ويأخذونها على حين غرّة، ويدخلونها، ويقهرونها، ويأسرونَها، ويقولون: «لا خلاص لها في التوكّل على إلهِها». أصمّت أُذنها عن الصوت الذي يقول لها: «أنا خلاصُكِ». «قل لنفسي إنّي أنا خلاصُكِ، ليخزَ طالبوا نفسي ويفتضِحوا». أجل، قل لها: «أنا خلاصُكِ». سأصغي إلى الربّ يقول لي: «إنّي أنا خلاصك»؛

ولن أطلب خلاصي إلّا في الربّ إلهي. باطلًا أطلب الخلاص من الإنسان، وما الخلاص إلّا من الله؛ وإذا كنت أرفع عينيَّ إلى الجبال، من حيث تأتي نُصرتي، فليست الجبال هي التي تنصرني، بل نُصرتي من الربّ صانع السماء والأرض (راجع المزمور ١٢٠: ١، ٢). نصرك الله في ضيقاتِك الزمنيّة بواسطة إنسان، لكنّه هو خلاصك. ونصرك الله بواسطة ملاك، لكنّه هو خلاصك. كلّ شيءٍ خاضعٌ له: يؤمّن حاجات الحياة الزمنيّة، لهذا بطريقة، ولذاك بطريقة أخرى. أمّا الحياة الأبديّة فهو وحده الذي يعطيها. إذا وقعت في ضيق، فإنّك لا تجد دائمًا ما تطلبه؛ أمّا الله، فهم حاضرٌ أبدًا إذا طلبتَه. فاطلب، إذًا، ذاك الذي لا يُمكن أن يُخيّبك. يُمكن أن يُنزَع منك ما أعطاكَه، أمّا هو، مُعطيك، فمن ينزعه منك؟ وإذا أعيد إليك ما أعطاكَه، أترى كنزَك في الخيور التي استعدتَها، أو في من انتزعها ليمتحنك، وأعادَها إليك ليُعزّيك؟ والحال، فإنّه يُعزّينا بعدم حرماننا طويلًا من تلك الخيور. لكنّه يُعزّينا كما لو كنّا في ترحال. شبرط أن نعرف أنّنا في ترحال. إنّ هذه الحياة، بكلّ ما فيها، وبكل ما يوضع في خدمتِك على مداها، ينبغي أن تعتبرها اعتبار مسافِرٍ لنزلٍ، لا اعتبارَ مالكٍ لبيت؛ وتذكّر أنّك إذا كنت قد قطعت مسافة، فعليك، بعدُ، أن تقطع مسافات. وما توقّفك إلّا لكي تستعيد قواك، لا لتحيد عن الطريق.

٧ - ثمّة من يقول: إنّ الله الأزليّ السرمديّ، ذا الجودة والجلال، والعظمة والسموّ، سوف يمنحنا الحياة الأبديّة، والحياة غير الفاسدة التي وعدنا بها ليوم القيامة؛ أمّا أمور الدهر وخيور هذه الحياة الزمنيّة، فهي شأن الشياطين، وتتّصل بعالَم الظلمات. وفقًا لهذا المبدأ، فإنّ الذين يستحوِذ عليهم حبُّ خيور الدهر، يتخلّون عن الله كما لو انّ تلك الخيور لا تعنيه. لا يتورعون عن أيّ ذبيحة مقيتة، ولا عن توسّل أيّ

مشورة بشريّة دنيئة، بغية الحصول على مكاسب زمنيّة كالفضّة، والمرأة، والأولاد، وكلّ ما يُمكن أن يُعزّي المسافر العابر ويُعيق مسيرَته. لكنّ العناية الإلهية مهتمّة بتقويض هذه المقولة الباطلة. ولكي يؤكّد لنا الله أنّ كلّ هذه الأشياء مُلكٌ له، وأنّه، على السواء، سيّد الخيور الأبدية التي وعدنا بها للدهر الآتي، وسيّد الخيور الزمنيّة التي يُعطيها لمن يشاء، وفي أيّ وقتٍ يراه مناسبًا، لأنّه يعرف لمن يُعطيها، وعمّن يحجبُها، على مثال الطبيب الذي يعرف لمن يُعطي الدواء، لأنه يعرف حاجة المريض أكثر من المريض نفسِه؛ وتأكيدًا على ذلك، قسم الربّ الأزمنة إلى عهدين: قديم وجديد. في العهد القديم وعد بخيورِ الدنيا؛ وفي العهد الجديد، وعد بملكوت السموات. في كلا العهدَين، نرى أنّ عبادة الله والتقاليد ترعاها أحكامٌ متشابهة تقريبًا، غير أنّ الوعود مختلفة؛ أمرُ السيّد هو هو نفسه، والطاعة الواجبة على العبد هي هي، لكنّ الأجر مختلف. والحال، فإنّه قيل للأقدمين: تملكون أرض الميعاد، وتسودون عليها، وتنتصرون على أعدائكم، ولا تخضعون لهم في تلك البلاد، وتتمتّعون باليُسر والرخاء، ويُكثِر الله بنيكم (راجع خروج ٢٣: ٢٣-٣٣). لقد وعد الله اليهود بتلك الخيور الزمنيّة، إلّا أنّها كانت رموزًا. لكنّ تلك الوعود أُخِذت بحرفيّتِها. والحال، فإنّ كثيرين فهموها بحرفيّتِها، إذ أنّ الله أعطى أرض الميعاد لبني إسرائيل، وأعطاهم الثروات؛ ووهب العاقرات المسنّات أطفالًا التمسنَهم منه، ولم يطلبنَهم إلّا من كَرَمِه، فتوكّلنَ عليه، ولم يسألنَ معونةً إلّا من لدنه، فاستُجِبنَ. سمعَ اليهود في قلوبِهم صوت الربّ يقول: «إني أنا خلاصك». لكن إذا كان الله خلاصَنا في الأمور الأبديّة، فلِمَ لا يكون خلاصَنا في الأمور الزمنيّة؟ هذا ما أعطى الله البرهان عنه في رواية أيّوب الصدّيق. ما كان لإبليس أن يسلبه تلك الخيور، إلّا بعد أن تلقّى

الإذن من الكلّيّ القدرة. استطاع أن يُضمر السوء للصدّيق، فهل استطاع أن يُسيء إليه؟ استطاع أن يشكوه، فهل استطاع أن يدينه؟ هل استطاع أن ينتزع منه أيّ شيء، ولو شعرة أو قلامة ظفرٍ، قبل أن يقول لله: «أبسط يدك»؟ (أيّوب ١: ١١). ما معنى «أبسط يدك»؟ - أعطني السلطان. فأعطيَ له. وجرّب الشيطانُ أيّوب. وخضع أيّوب للتجرِبة. إلّا أنّ المجرَّب انتصر، والمجرِّب هُزِم. والحال، فإنّ الله الذي سمح لإبليس بأن يُجرّد عبدَه من الخيور الزمنيّة، لم يتخلَّ عن نفسِ عبدِه، وجعل من نفسِ أيّوب سيفًا يقهر به الشيطان. لكن، ما قيمة هذا السيف؟ أتكلّم عن الإنسان. هُزم في الفردَوس (آدم)، وانتصر على مزبلة (أيّوب). في الفردوس، استخدم الشيطان المرأة لينتصر عليه؛ وعلى المزبلة انتصر على الشيطان والمرأة معًا. قال: «تتكلّمين كإحدى السفيهات؛ إن كنّا قد قبلنا الخيور من يد الله، فلِمَ لا نحتمل البلايا التي يُرسلُها لنا؟» (أيّوب ٢: ١٠). كم كان مصغِيًا إلى هذه الكلمات: «إنّي أنا خلاصك»!

٨ - «ليخزَ طالبو نفسي ويخجلوا». أنظر الوصيّة التي يُعطيها للبشر: «صلّوا لأعدائِكم»، يقول الربّ (متّى ٥: ٤٤). لكنّنا، هنا، أمام نبوءة؛ وما يقال بشكل تمنٍّ، يُفسّر بروح النبوءة لمن تفوّه بها. عبارة «ليكن هذا الأمر أو ذاك»، تعني: «هذا أو ذاك سيكون». وعلى هذا النحو افهموا هذه الكلمات النبويّة: «ليخزَ طالبو نفسي ويخجلوا». ما معنى «ليخزَوا ويخجلوا»؟ - أنّهم سيخزَون وسيخجلون. وهذا ما حصل. والحال، فإنّ كثيرين خزوا لخلاصهم. كثيرون من مضطهِدي المسيح اضطرمت فيهم تقوى صادقة، ودخلوا في شركةٍ مع أعضائِه. وما كان هذا ليتمّ لو لم يخزَوا ويخجلوا. إذًا، كان كلام النبيّ بمثابة تمنٍّ لهم بالخير. لكن، ثمّة نوعان من المهزومين؛ أي أنّ الناس

يُهزمون بطريقتَين. فإمّا يُهزمزن ليتوبوا إلى المسيح، وإمّا يُهزَمون ليدينهم المسيح. وفي هذين النوعين من الهزيمة نبوءة يشوبها الغموض وتحتاج إلى إيضاح. ينبغي، إذًا، أن نطبّق على الذين يتوبون هذه الكلمات: «ليخزَ طالبو نفسي ويخجلوا؛ وليرتدّوا إلى الوراء!». لا يسيروا في الطليعة، بل في الوراء؛ لا يُسْدوا المشورات، بل فليقبلوها. أراد بطرس أن يسير أمام الرب، عندما كان الربّ يتكلّم عن آلامِه المقبِلة؛ أراد، بشكل من الأشكال، أن يُسدي إليه مشورة خلاصيّة، كما لو كان للمريض أن يشور على طبيبِه. فماذا قال للربّ الذي كان يؤكّد له حقيقة آلامِه الوشيكة؟ - «حاشى، يا رب، لا يكون لك هذا!». أراد هو أن يتقدّم، وأن يتبعَه الربّ. فبِمَ أجابه يسوع؟ - «تراجع ورائي، يا شيطان» (متّى ١٦ : ٢٢، ٢٣). أنت شيطانٌ إذ تتقدّم على الربّ؛ إتبعه تصِرْ تلميذه. فلنطبّق على الذين يتوبون إلى المسيح هذه الكلمات: «فليرتدّوا إلى الوراء ويخزَوا، أولئك الذين يضمرون لي المساءة». فإنّهم متى بدأوا يسيرون ورائي، لا يعودون يُضمرون الشرّ، ولن يبتغوا سوى الخير.

٩ - وماذا عن الآخرين؟ فإنّهم لم يُهزَموا جميعهم ليتوبوا ويؤمنوا. كثيرون يبقَون في عنادهم؛ كثيرون يحفظون في قلوبِهم إرادة متعجرفة للسير في المقدّمة؛ وإذا كانوا لا يُظهرونَها، فإنّهم لا يبرحون يُغذّونَها في نفوسِهم، ويسلكون بموجبِها عندما تسنح الفرصة. فماذا يقول عنهم النبيّ بعد ذلك؛؟ - «ليكونوا كالغفى تجاه الريح» (٣٤ : ٥). وسبق أن قال بالمعنى نفسِه: «ليس كذلك المنافقون، لكنّهم كالغفى الذي تُذرّيه الريح عن وجه الأرض» (مزمور ١ : ٤). الريح هي التجربة، والغفى الخاطئ. عندما تهبّ التجربة، يتطاير الغفى، لا يستطيع أن يبقى في مكانه ولا أن يُقاوم. «ليكونوا كالغفى تجاه الريح، وليدحرْهُم ملاك

الربّ. لتكن طريقهم ظُلمةً ومَزلَقة» (٣٤: ٦). إنها طريق مرعبة! من ذا الذي لا تُرعبه الظلمة؟ من ذا لا يتجنّب سلوك طريق زلِقة؟ أين يسير وسط الظلمة، في درب وعرة؟ أين يضع قدمَه؟ الظلمة هي الجهل، والطريق الزلِقة الفجور؛ وذانك الشرّان هما القصاص الأدهى للبشر. «لتكن طريقهم ظُلمة ومَزلَقة، وليدحرْهم ملاك الربّ». فمن كان يسير في ظلمة، وفي درب وعرة، يسقط، لا محالة، ما إن يحرّك قدمَه؛ فلينتظر، أقلّه، طلوع ضوء النهار؛ وفي النهار «يدحرُهم ملاك الربّ». لم يتمنَّ لهم النبيّ مثل هذا المصير بل أنبأهم به. حلّ فيه وحي روح الله، فوصف لهم القصاص الذي يُنزله بهم الله بحكمٍ سديدٍ، عادلٍ، رحيم، رؤوفٍ، هادئٍ مقدّس لا يشوبه سخطٌ ولا كدَر، ولا إرادة انتقامٍ، بل تنطق به عدالته التي تُجازي الإثم. إلّا أنّها نبوءة.

١٠ - لكن لماذا هذه القصاصات الكبرى؟ وكيف استُحقَّت؟ إسمع كيف استُحقَّت: «فإنّهم بلا سبب أرادوا أن يُهلكوني في الشرك الذي نصبوه لي في الخفاء». هكذا عامل اليهودُ رأسنا فنصبوا له في الخفاء شِباكَ الإثم. لمن نصبوا شركَهم في الخفاء؟ للذي كان يرى قلوب الذين ينصبون ذلك الشَرك. كان في وسطهم مثل جاهل، أو كمن خُدِع في الظاهر؛ وفيما كانوا يظنّون أنّهم يخدعونه، كانوا يخدعون أنفُسَهم. والحال، فإنّه كان يعيش في وسطهم كمن يعيش وسط ماكرين، ليُعلّمنا أنّ علينا، نحن أيضًا، أن نعيش وسط أناس لا بدّ أن يكونوا ماكرين. كان يعرف من سيخونه، وكان ذلك مبرِّرًا لكي يختاره لعملٍ ضروريّ. فبالشرّ الذي صنعه يوضاس، صنع الربّ خيرًا عميمًا؛ وتلك الأداة اختارَها من بين رسلِه الإثني عشر، لكي يُبيّن أنّ هذا العدد، على قلّتِه، لا يخلو من واحدٍ شرّير. أراد بذلك أن يُعطيَنا مثلًا عن الصبر، لأنّه كان علينا، نحن أيضًا، أن نعيش وسط الأشرار، وأن نحتملَهم، عن معرفة

أو عن غير معرفة. صار مثالًا للصبر، لكي لا يُعوِزك الصبر في مسيرة حياتِك وسط الأشرار. وإذا كانت مدرسة المسيح هذه، المؤلّفة من اثني عشر تلميذًا، لم تُعوِزها القوّة، فكم علينا نحن أن نكون أكثر ثباتًا عندما نرى أنّ ما جاء في النبوءات بشأن اختلاط الأبرار مع الأشرار، يتحقّق على مدى اتّساع الكنيسة! والحال، فإنّ تلك المدرسة، لم تكن لترى، بعدُ، تحقّق وعود الله لنسل إبراهيم؛ ولم تكن لتتبيّن، بعدُ، البيدر الذي يخرج منه الحبّ المعدُّ ليملأ أهراء ربّ البيت. ألا يُترَك القمح، بعدَ أن يُدرَس، في مكان آمنٍ مع القشّ، إلى حين يُذرّى للمرّة الأخيرة؟ وما سمعتموه يُنبئكم بالمصير المُعَدّ للأشرار.

١١ - وفي النهاية، ماذا ينبغي أن نعمل؟ «بلا سبب نصبوا لي في الخفاء شِباك الإثم». ما معنى: «بلا سبب»؟ لم أصنع بهم أيّ شرّ، ولم أسئ إليهم بشيء: «ظلمًا أمطروني بالشتائم». ما معنى: «ظلمًا»؟ أي شهدوا عليّ زورًا، ولم يأتوا بدليل. «فلتصطدْهم شَبكةٌ لا يرتابون بها». إنّه لجزاء مُستَحَقّ! لا شيء أعدل منه. نصبوا لي فخًّا، وأخفَوه، ليحولوا دون أن أراه، فليُنصَب لهم فخٌّ لا يَرَونَه. فخُّهم أعرفُه، فأيّ فخٍّ يُنصَب لهم؟ - فخٌّ لا يرَونه. لنرَ إذا كان النبيّ لا يُسمِّيه. «فلتصطدْهم شبكة لا يرتابون بها». ألعلّهم نصبوا في الخفاء فخًّا، وسيقعون في فخٍّ آخر؟ - لا. فماذا إذًا؟ كلٌّ منهم بحبائل خطيئتِه يَنشَب (أمثال ٥ : ٢٢). وقعوا حيث أرادوا الإيقاع بالآخرين؛ والشر الذي أرادوه للآخرين سينقلب عليهم. ويتابع النبيّ فيقول: «وتصطاده الشبكة التي أخفاها، وفي الهلاك نفسِه يقع» (٣٤ : ٨). كمن شرب السّمّ الذي أعدّه شرابًا لسواه؛ أو كمن حفر حفرةً ليوقِع فيها عدوّه، ليلًا، ثم نسي ما فعل، فكان أوّل الساقطين فيها، إذ كان يمرّ في المكان. هذا ما يحصل، يا إخوتي؛ صدّقوني، وثقوا بي؛ من كان ذا عقلٍ راجحٍ ومتنوّر بالحكمة،

فلينظر ويتحقّق من أنّ الشرّير يؤذي نفسَه قبل سواه. الأذيّة، يا إخوتي، أشبه بالنار. إذا أردت أن تُشعِل نارًا، كانت أداة الإشعال أول ما يشتعِل؛ فإن لم تشتعل، لا تُحرِق. بيدك مِشعل؛ تُدنيه لتُحرق شيئًا؛ أما عليك أن تبدأ فتُضرم النار في المشعل؟ الأذيّة مصدرُها أنت. أفلا تكون أنت أولَ المصابين بشرِّها؟ إذا جرحت الفَرع، أفلا تلحق الأذى بالجذر الذي يُنبِت الفرع؟ الحقّ أقول لك: قد لا يؤذي شرُّك أحدًا، لكن يستحيل ألّا يوذيك أنت. أيّ أذيّة ألحَقَ الشرُّ بأيّوب الصدّيق الذي سبق أن تكلّمنا عنه؟ قيل في مزمورٍ آخر: «عملت بالغشّ كالموسى المسنونة» (٥١ : ٤). ماذا نعمل بالموسى المسنونة؟ - نقصّ الشعر الزائد. ماذا تصنع لمن تبغي أذيّته؟ إذا كان الذي تريد أن تؤذيه شرّيرًا يوافقك على فعل الشرّ الذي تدفعه إليه، فإنّ شرّه هو الذي سيؤذيه، لا شرّك. أمّا إذا كان لا يشاركك شرَّك، وفي نقاوة قلبِه يخضع للصوت الذي يقول له: «إنّي أنا خلاصك»، فإنّ إنسانَه الداخليّ يبقى بمنأى عن شرِّك الخارجيّ. لكنّ الشرّ الذي ينبع من أعماق قلبك، يبدأ فيُدمِّر فيك كلَّ خير. قلبك فاسد، والدودة الآكلة التي خرجت من نتانتِه، لم تترك فيك شيئًا إلّا وأتلفته. «فليُؤخَذوا في الشرك الذي أخفَوه وليسقطوا هم أنفُسهم في الفخّ الذي نصبوه». لعلّك كنت تفكّر بشيء آخر لدى سماعك للوقت كلام النبيّ القائل: «فلتصطدْهم شبكة لا يرتابون بها». كما لو كان سيُصيبهم شرٌّ محتوم يطلع عليهم من تلك الشبكة المخفيّة. في أيّ فخٍّ سيقعون؟ في فخّ الإثم الذي نصبوه لي في الخفاء. أليس هذا ما حصل لليهود؟ انتصر الربّ على مكرِهم، فقهرهم مكرُهم. قام لأجلِ خلاصِنا، فقتلوا أنفسَهم بأنفسِهم.

١٢ - ذاك هو النصيب المحفوظ للأشرار الذين يُريدون أن يؤذوني. فماذا عنّي أنا؟ ماذا يكون نصيبي؟ «تبتهج نفسي بالربّ» (٢٤ :

٩)، لأنّها سمعته يقول لها: «إنّي أنا خلاصُكِ». تبتهج ولا تبحث عن أيّ غنًى خارجًا عنه، ولا تشتهي العيش في فيض من الملذّات وخيور الأرض، وتُحبّ الله كختنٍ حقيقيّ، لا ترجو منه ثوابًا، ولا تطلب منه ما يُمكن أن يُسِرّها، بل تجعله غاية وحيدةً لسعادتِها. من يستطيع أن يعطيَني ما هو أغلى من الله؟ ألله يحبّني، والله يحبّك أيضًا. إليكَ ما يعرضه عليك: «إسألوا تُعطَوا» (متّى ٧: ٧). إذا قال الإمبراطور: سلني ما تشاء؛ ألا تُسرع فتسأله وظيفة حاكم أو مرافق؟ لا شكّ في أنّك تعرض عليه أن يُنيلك منصبًا رفيعًا تتمنّاه لنفسِك وللآخرين! يقول لك الله: سلني ما تشاء، فماذا تطلب منه؟ أُعصُر فكرَك؛ أرخِ العنان لطموحك؛ أطلب أقصى مشتهاك؛ ما هو بعابر سبيل، بل هو الله القدير يقول لك: سلني ما تشاء؛ إذا كنت تحبّ الحقول، فستشتهي أن تملك الأرض كلّها، وأن يكون كلُّ من يولَدون عليها مزارعين أو خدّامًا لديك. وماذا تصنع عندما تملك الأرض؟ تطلب البحر، ولو انّك لا تستطيع أن تعيش فيه. سيكون نصيب سمك البحر خيرًا من نصيبك أيّها الطمّاع، حتّى ولو امتلكت جزر البحر أيضًا. لكن، دعك من هذا، واطلب ما في الأهواء، حتّى ولو كنت عاجزًا عن الطيران؛ إرفع طموحك حتّى السماء؛ قل إنّ الشمس والقمر والنجوم ملكك، لأنّ الذي خلقَها قال لك: سل ما تشاء. إلّا أنّك لن تجد أثمن وأفضل من الذي صنع كلّ هذه. فاطلب من صنعها، لأنّك فيه وبه تملك كلّ ما صنع. كلّ هذه الأشياء ذات قيمةٍ عالية، لأنّها كلّها جميلة؛ لكن، من أبهى منه وأجمل؟ كلّها عظيمة، لكن، من أعظم منه؟ ما من شيءٍ يُعطيه مجّانًا أكثرَ من ذاتِه. فإذا وجدتَ ما هو أفضل، فاطلبه. لكنّك إذا طلبت شيئًا آخر، فإنّك تهينه وتُسيء إلى نفسك، لأنّك تُفضّل خلائقَه عليه، فيما الخالق يُريد أن يُعطيك ذاتَه. في غمرة مشاعر الحبّ هذه،

قالت له النفس: «أنت نصيبي» (مزمور ٧٢: ٢٦). فليختر الغنى طالبوه حيث شاؤوا، وليجعلوا نصيبَهم في المخلوقات. لكنّك أنت نصيبي، وأنا اخترتُك. «الربّ نصيب ميراثي» (مزمور ١٥: ٥). فليمتلكك لكي تمتلِكه، فتُصبح حقلَه، وتُصبح بيتَه. يَمتلِكك لكي ينفعك، وتمتلكه لكي ينفعك. فهل بوسعِك أنت أن تنفعه بشيء؟ «قلتُ للرّب: أنت إلهي، ولا حاجة بك إلى صنائعي»[٣] (مزمور ١٥: ٢). «تبتهج نفسي بالربّ وتجدُ كلّ عزائِها في خلاصِه» (٣٤: ٩). والخلاص الآتي من الله هو المسيح، «لأنّ عينيَّ أبصرتا خلاصَك» (لوقا ٢: ٣٠).

١٣ - «جميع عظامي تقول: من مثلُك يا ربّ»؟ (٣٤: ١٠). من يستطيع أن يفي هذه الكلمات حقّها. أمّا أنا، فأرى أنّ علينا أن نكتفي بقولِها دون شرحِها. فلِماذا، إذًا، نطلب هذا الشيء أو ذاك؟ من مثلُك يا ربّ؟ الربّ نفسه أمامَ عينَيك. «جميع عظامي تقول: من مثلك يا ربّ؟». حدّثني الأشرار بأمورٍ مستحَبَّة، «لكن كم هي بعيدة عن شريعتك، يا ربّ» (مزمور ١١٨: ٨٥). قال الأعداء للبارّ: أُسجُدْ لزُحَل، أُسجدْ لعطارد. فأجابَهم: لا أسجُدُ لأوثان. «من مثلك يا ربّ»؟ للأوثان آذانٌ ولا يسمعون، ولهم عيونٌ ولا يُبصرون (مزمور ١١٣ ب ٥). «من مثلك يا ربّ»؟ صنعت العين لتُبصر والأذن لتسمع. لا أسجدُ للأوثان لأنّها صُنع صانِع.

(٣) وردت بالمعنى نفسِه في السبعينيّة: εἶπα τῷ κυρίῳ Κύριός μου εἶ σύ, ὅτι τῶν ἀγαθῶν μου οὐ χρείαν ἔχεις. أي: لا حاجة بك إلى صنائعي. وكذلك في الفولغاتا: dixi Domino Dominus meus es tu quoniam bonorum meorum non eges؛ وفي العبريّة: אָמַרְתְּ לַיהוָה , אֲדֹנָי אָתָּה ; טוֹבָתִי , בַּל-עָלֶיךָ وفي سائر الترجمات: «وما عداك لا خير لي» أو «وفيك وحدك سعادتي» أو «لا سعادة لي خارجًا عنك».

إذًا، لهذه الشجرة أو لذاك الجبل، فهل صنعهما صانِع؟ فيجيب البارّ: «من مثلك يا ربّ؟». يُقدّمون لي أشياء أرضيّة، وأنت خالق الأرض! ويعودون فيُقدّمون لي أشاء من مرتبةٍ أسمى ويقولون: أُسجدْ للقمر، أُسجُدْ للشمس التي تُشعّ في قُرص السماء مثل مصباحٍ عظيم فتفيض النور على الكون. فأجيب واثقًا: «من مثلك يا ربّ؟». أنت صنعت القمر والنجوم، ومنك أخذت الشمس أشعّتها لتفيض نور النهار؛ أنت صنعتَ السماء! ثمّة مخلوقاتٌ أخرى غير منظورة، تفوق هذه، ولعلّك تقول لي: كرّم الملائكة واسجُدْ لها. - ومرّةً بَعدُ أجيب: «من مثلك يا ربّ؟». فأنت الذي خلقتَ الملائكة. ما الملائكة لو لم تُعاينك؟ خيرٌ لي أن أمتلكك مع الملائكة، من أن أهوي، بعيدًا عنك، في اللجج، لأنّي سجدتُ لها.

١٤ - «جميع عظامي تقول: من مثلك يا ربّ»؟ فيا أيتّها الكنيسة، يا جسد المسيح، لتقُل جميع عِظامِك: «من مثلك يا ربّ؟». وإذا كان اللحم قد هوى تحت وطأة الإضطهاد، فلتبقَ عظامُكِ تقول: «من مثلك يا ربّ»؟ لأنّه قيل عن الأبرار: «الربّ يحفظ عظامه فلا ينكسر منها واحد» (مزمور ٣٣: ٢١). وكم من أبرار كُسرت عظامُهم إبّان الإضطهاد! إليكم دليلًا لا يُدحَض: «البارّ بالإيمان يحيا» (رومة ١: ١٧)، و«المسيح يُبرّر المنافق» (رومة ٤: ٥). ومتى يُبرِّره؟ - عندما يؤمن ويعترف بإيمانِه. «لأنّ الإنسان يؤمن بالقلب فيُبرَّر، ويعترف بالفم فيخلُص» (رومة ١٠: ١٠). لأنّه آمن بقلبه، واعترف بفمِه، تبرَّر لصّ الإنجيل، حتّى بعد أن اقتيد أمام القاضي الذي حكم عليه بالموت على الصليب. وإلّا لما قال الربّ لمجرم لم يُبرَّر: «اليوم تكون معي في الفردوس» (لوقا ٢٣: ٤٣). ومع ذلكَ، كُسِرَت عظامُه. وعندما حضر اليهود ليرفعوا الأجساد عن الصلبان، لاقتراب حلول السبت، وجدوا

أنّ الربّ مات، فلم يكسروا عظامَه (يوحنّا ١٩ : ٣٣). أمّا اللصّان فكانا لا يزالان على قيد الحياة، فكسروا عظامهما ليُعجّلوا موتَهُما، ودفنَهما. فهل أنّ اللصّ الذي يُكابر في الإثم، حتّى على الصليب، هو وحدَه الذي كُسِرَت عظامُه؟ ألم تُكسَر أيضًا عظام الآخر الذي آمن بقلبِه ليتبرَّر، واعترف بفمه ليخلُص؟ فأين نحن من ذلك الوعد: «الربّ يحفظ عظامه فلا ينكسر منها واحد»؟ لكن، أليست العظام، في جسد المسيح، هي جميع الأبرار والمسيحيّين ذوي القلوب النابضة بالقوّة والحماس والشجاعة، الذين لا يهابون التجارب والإضطهادات، والذين لا يرضَون ارتكاب الشرّ؟ وكيف السبيل إلى مقاومة جميع التجارب؟ عندما نصمد أمام مضطهِدينا الذين يقولون لنا: أهذا هو إلهكم؟ فليأتِ لنصرتِكم! هناك على رأس الجبل كاهنٌ أعظم؛ لعلّك فقير، لأنّ ذاك الإله لا يأتي لنُصرتِك؛ لعلّك مريض، لأنّك لا تدعوه: أدعُهُ تشفَ؛ لعلّك محرومٌ من البنين لأنّك لم تتوسّله: توسّله تُستَجَب. فإذا كان ذاك البارّ عظمًا في جسد الربّ، فإنّه يرفض جميع تلك الدعوات ويُجيب: «من مثلك يا ربّ؟» إذا رضيت بأن تهبني ما أطلبه في هذه الحياة، فهَبني إيّاه؛ فإن لم تُرِد، كنْ أنت حياتي، لأنّي أطلبك بلا انقطاع. فهل أجرؤ، لدى خروجي من هذا العالَم، أن أظهر أمامك، عالي الجبين، إذا كنت قد أهنتُك فسجدتُ لسواك؟ قد أموت غدًا، فبأيّ وجهٍ ألقاك؟ إنّ الله، برحمتِه الواسعة، علّمنا كيف نحيا حياةً صالحة، وكتم عنّا يومنا الأخير، يوم موتِنا، لئلا نعِدَ نفسَنا بشيءٍ للغد. أصنع اليوم شرًّا وأحيا؛ وغدًا أتوب. وإذا لم يكن لك غدٌ؟ كن، إذًا، في عداد عظام المسيح، وقل له: «من مثلك يا ربّ؟» «جميع عظامي تقول: من مثلك يا ربّ؟».

١٥ - «أنت الذي تُنقذ البائس ممّن هم أقوى منه، والمتروك

والمسكين ممّن يسلبُهُما». هذا ما قرأناه اليوم من المزمور، وهذا ما شرحناه؛ ولن نُضيف شيئًا على ما قلناه لئلّا تملّوا. فلنقف، إذًا، عند هذه الكلمات: «أنت الذي تُنقذ البائس ممّن هم أقوى منه، والمتروك والمسكين ممّن يسلبُهُما». من يكون المنقذ والمحرِّر إن لم يكن صاحب الذراع الجبّارة؟ إنّه «داودنا» الذي سوف يُنقذ البائس ممّن هم أقوى منه. كان إبليس هو الأقوى، فاستعبدَك. هزمك لأنّك انصعت لإيحاءاتِه؛ فماذا صنع ذو الذراع الجبّارة؟ «لا يستطيع أحد أن يدخل إلى بيت رجلٍ قويّ لينهب أمتعتَه، إلّا أن يُقيّد القويّ اوّلًا» (متّ ١٢ : ٢٩). بجبروتِه القدّوس العجيب، قيّد إبليس، واستلّ سيفه ليُقفل عليه كلّ منفَذ، ويُنقِذ البائس والمسكين اللذين لا نصير لهما. فمن هو نصيرُك سوى الربّ الذي تقول له: «أيّها الربّ، أنت ناصري وفاديَّ»؟ (مزمور ١٨ : ١٥). إذا اعتدَدت بقواك، سقطتَ باعتدادِك؛ وإذا اتّكلت على نُصرة آخر، فاعلم أنّه يُريد أن يتسلّط عليك، لا أن ينصرك. فادعُ فقط لنُصرتِك ذاك الذي افتدى البشر، وحرّرَهم وبذل دمه ليجعل منهم شعبًا خاصّا مُفتَدى، ويمنحنا، نحن عبيدَه، أن نكون إخوتَه.

عظة ثانية في المزمور الرابع والثلاثين[1]

القسم الثاني من المزمور

١ - لنركّز إنتباهَنا على ما تبقّى من المزمور، ولنسأل الربّ إلهَنا أن يهبَنا عقلًا نيّرًا لكي نفهمه جيّدًا، ونعمةً لكي نجني منه ثمار حياةٍ صالحة. تتذكّر محبّتكم، بلا شكّ، أين توقّف شرحُنا أمس. فلنُكمل اليوم من حيث وصلنا. إنّا نعترف أنّ المسيح هو الذي يتكلّم هنا بصفتِه الرأس والجسد. فعندما تسمعون صوت المسيح، احترزوا ألّا تفصلوا العريس عن العروس، وافهموا معنى هذا السرّ العميق: «ويكونان اثنَين في جسدٍ واحد» (أفسس ٥: ٣١). وإذا كانا اثنين في جسد واحد، فلماذا لا يكونان اثنين في صوتٍ واحد؟ والحال، فإنّ الرأس لم يُعانِ، في هذه الدنيا، آلامًا لم يُعانِها الجسدُ أيضًا؛ وإلّا لما كان للرأس أن يحتجَّ بالألم ليُعطي المثال للجسد. والحال، فإنّ الربّ تألّم طوعًا، أمّا نحن فقسرًا. هو تألّم حبًّا بنا، أمّا نحن فمن طبعِنا الألم. وبالتالي، فإنّ في آلامه الطوعيّة تعزيةً لنا ضروريّة، حتّى إذا تألّمنا بدورِنا، نظرنا إلى رأسِنا، وتقوّينا بمثالِه وقُلنا: إذا كان عانى كلّ هذه الآلام، فماذا عنّا نحن؟ كما تألّم هو، علينا أن نتألّم نحن أيضًا. سامه العدوّ أقسى العذابات، ونجح في سلبِه حياة الجسد، لكنّه لم يستطع أن يُدمّر جسد الربّ، من حيث أنّه قام في اليوم الثالث. وما حدث لجسد المسيح في

(١) ألقيت في اليوم التالي للعظة السابقة.

اليوم الثالث، محفوظٌ لنا في نهاية العالَم. تأجّل رجاؤنا بالقيامة، لكن هل نُزِع منّا؟ إذًا، فلنسمع هنا، يا أحبّائي، كلمات المسيح، ولنفرّق بينها وبين كلمات الأئمة. والحال، فإنّه يتكلّم باسم جسده الذي يُعاني الإضطهادات والضيقات والشدائد في هذا العالَم؛ لكن، لمّا كان على كثيرين، في هذه الدنيا، أن يُعانوا بسبب خطاياهم ومعاصيهِم، فعلينا أن نستقصِيَ، بدقّة فائقة، لا ما يعانيه كلّ فردٍ، بل سبب تلك المعاناة. والحال، فإنّه قد يُقضى على مجرِم بأن يلقى موت الشهداء، لكنّ سبب موته مختلِفٌ. ثلاثة كانوا على الصليب (لوقا ٢٣: ٣٣): المخلِّص، وذاك الذي خُلِّص، والآخر الذي أدين: الحكم نفسه للثلاثة، أمّا سبب الحكم فمختلف.

٢ - فليقل رأسُنا، إذًا: «يقوم عليّ شهود جَورٍ، ويسألونني عمّا لا أعلَم» (٣٤: ١١). ولنقُل نحن لرأسِنا: «ما الذي لم تكن تعلمه يا ربّ؟» وهل كنت لتجهل شيئًا؟ ألم تكن تعلم قلوب الذين يسألونك؟ ألم تتبيّن، من قبلُ، مكرَهم؟ ألم تكن عالِمًا بأمرهم حين سلّمتَهم نفسَك؟ ألم تأتِ لكي تُعاني منهم الآلام؟ فما الذي كنت تجهلُه؟ كان يجهل الخطيئة؛ كان يجهلها، لا بعدم إدانتها، بل بعدم ارتكابِها. وهذا التعبير يجري على ألسنتنا في كلّ يوم، كأن تقول عن أحدِهم: لا يعرف أن يقف، لأنّه لا يقف؛ أو: لا يعرف أن يصنع الخير، لأنه لا يصنع الخير؛ أو: لا يعرف أن يصنع الشرّ، لأنّه لا يصنع الشرّ. ما ليس في أعمالِنا، ليس في ضميرِنا؛ وما ليس في ضميرِنا يبدو كأنّه ليس في علمِنا. وهكذا نقول إنّ الله لا يعرف شيئًا ما، كما نقول إن هذا الفن لا يعرف الخطأ؛ غير أنّ الفنّ هو الذي يُعرِّف بالخطأ وبالحكم عليه. فهذا هو رأسنا يُجيبُنا، إنطلاقًا من حقيقة إنجيلِه، عندما نسأله ونقول له: يا ربّ، ماذا كنت تجهل؟ ماذا كان بوسعنا أن نسألك وتجهله؟ يُجيبُنا:

كنت أجهل الخطيئة، وكانوا يسألونني عن الخطيئة. وإذا كنت لا تصدّق أنّني أجهل الخطيئة، إقرأ الإنجيل، فترى أنّني لا أعرف حتّى الأشرار الذين سأقول لهم، في نهاية العالَم: «إذهبوا عنّي يا فاعلي الإثم، فأنا لا أعرفُكم» (متّى ٧: ٢٣). هل إنّه لم يكن يعرف الذين يدينهم؟ أو من يستطيع أن يلفظ حكمًا عادلًا، سوى الذي يعرف المذنِبين معرفةً تامّة؟ ومع معرفتِه التامّة بهم، فإنّه لا يكذب حين يقول: «لا أعرفكم»؛ أي أنّكم لم تتكيّفوا مع جسدي، ولم تسلكوا في أحكامي: أنتم الخطأ، وأنا الفنّ الذي لا يعرف الخطأ. وهو الذي يُعلّمنا ألّا نخطأ. «يقوم عليّ شهود جَورٍ، ويسألونني عمّا لا أعلَم». فما الذي كان المسيح يجهلُه أكثر من التجديف؟ ومع ذلك، شكاه أعداؤه بأنّه جدّف، عندما سألوه وأجابهم بالحقيقة (متّى ٢٦: ٦٥). ومن كان شاكوه؟ أولئك الذين يقول عنهم النبيّ: «يُجازونني عن الخير شرًّا فتُمسي نفسي مخذولة» (٣٤: ١٢). أتيتُهم بالخير، فخذلوني؛ أتيتُهم بالحياة، فقتلوني؛ أتيتُهم بالكرامة فأذلّوني؛ أتيتهم بالدواء لأمراضِهم، فجرّحوني؛ كلّ ما قابلوني به كان عقمًا. وهذا العقم لعنَه في التينة التي طلب فيها ثمرًا فلم يجده (متّى ٢١: ١٩). كانت مورِقة، لكن بلا ثمر؛ كلامٌ، ولا أعمال؛ ذاك مثلٌ عن الغزارة في الكلام، والعقم في الأعمال. يقول الرسول: تنهى عن السرقة، وتسرق؛ تنهى عن الزنى، وتزني (رومة ٢: ٢١). كذاك هم الذين كانوا يسألون المسيح عن أمورٍ يجهلها.

٣ - «وأنا، عندما كانوا يُضايقونني، كنت ألبس المسح، وأعنّي نفسي بالصوم، وتعود صلاتي إلى باطني[٢]» (٣٤: ١٣). إنّ في هذا،

---

(٢) وردت على هذا النحو في السبعينيّة وفي الفولغاتا. وفي العبريّة: וַאֲנִי , בַּחֲלוֹתָם לְבוּשִׁי שָׂק-עִנֵּיתִי בַצּוֹם נַפְשִׁי ; וּתְפִלָּתִי , עַל-חֵיקִי תָשׁוּב. أي: عند مرضِهم،=

يا إخوتي، تعليمًا لنا لأنّنا ننتمي إلى جسد المسيح، من حيث أنّنا أعضاؤُه. وهذا التعليم يقضي بألّا نُفكِّر في الضيقات بالطريقة التي نردّ فيها على أعدائنا، بل بالطريقة التي نستجدي الله بها بالصلاة؛ وبخاصّة لكي لا تهزمنا التجربة، ولكي يتوب أعداؤنا أنفسهم إلى البِرّ المقدّس. في خضمّ الشدائد، ما من شيءٍ أهمّ ولا أفضل من الإبتعاد عن صخب الخارج، والدخول إلى عمق أعماق النفس، والدعاء إلى الله، داخل ذاك المكان الخفيّ، حيث لا يستطيع أحدٌ أن يسمع تأوّهات الإنسان، أو يرى نُصرة الله؛ ولنوصد أبواب ذلك المخدع بوجه الهجمات التي تأتينا من خارج؛ ولنتّضِع ونعترف بمعاصينا؛ وأخيرًا، لنسبّح الله ونمجّده في السرّاء وفي الضرّاء. ذاك هو السلوك الذي ينبغي أن نتّبِعَه بدقّة في كلّ نقطة. هذا ما يختصّ بجسد المسيح، أي بكلّ واحدٍ منّا. لكن هل نجد شيئًا شبيهًا في ربّنا يسوع المسيح؟ مهما أمعنّا في الإنجيل بكاملِه بحثًا وتدقيقًا، فإنّنا لن نجد فيه، البتّة، أنّ الربّ ارتدى المسح في آلامه وضيقاتِه. نقرأ فيه أنّه صام بعد عمادِه؛ لكنّنا لم نقرأ ولم نسمع أنّه لبس المسح. عندما صام، جرّبه الشيطان، لكنّ اليهود ما كانوا بدأوا يضطهدونَه. لا أقول إنّه صام يوم كانوا يسألونه عن أمور يجهلُها؛ ولا يومَ كانوا يُجازونَه عن الخير شرًّا، فيضطهدونه، ويُلاحقونَه، ويُمسكون به، ويجلدونَه ويُثخنونه بالجراح، ويُجرّعونه الموت. لكن، يا إخوتي، إذا دفعَنا فضولٌ ورِع لنرفع البرقع عن وجهنا، ولنفتح أعينَ قلوبِنا، ونلج المعنى الخفيّ للكتاب، نرى، في الحقيقة، أنّ الربّ في

=كان لباسي مسحًا وصلاتي تتجدّد في قلبي. وفي معظم الترجمات: «وكانت صلاتي ترجع إلى حضني». وفي ترجمة تفسيريّة جاء: «وكانت صلاتي تُستجاب»، وفي ترجمة تفسيريّة متناقضة: «وكانت صلاتي ترتدّ إلى صدري من غير استجابة».

آلامِه، صام ولبس المسح. ولعلّه يدعو مسحًا جسده المائت؟ ولِمَ يدعوه مسحًا؟ لتشابُه جسدِه مع جسد الخطيئة. والحال، فإنّ الرسول يقول: «لأنّ الله أرسل ابنه لابسًا جسدًا يُشبه جسد الخطيئة، فحكم على الخطيئة في جسده» (رومة ٨: ٣). أي أنّه ألبس ابنه مسحًا لكي يدين الجداء بسبب ذلك المسح. لا أقول إنّ الخطيئة كانت موجودةً في **كلمة** الله؛ كذلك لم تكن خطيئةٌ، لا في نفس الإنسان القدّوسة، ولا في فكرِه، ذاك الإنسان الذي دخل في وحدةٍ مع **كلمة** الله و**حكمتِه**؛ وحتّى في جسدِه لم تكن خطيئة؛ غير أنّ جسد الربّ كان مشابهًا لجسد الخطيئة، لأنّ الموت إنّما يأتي من الخطيئة، ولأنّ جسد المسيح كان خاضعًا للموت. فلو لم يكن الجسد مائتًا، لما مات الربّ؛ ولو لم يمت لما قام؛ ولو لم يقم لما كان مثالًا لنا للحياة الأبديّة. ندعو الموت خطيئة لأنّ الموت ثمرة الخطيئة؛ مثلما تقول: اللسان الإغريقي، أو اللسان اللاتيني، وتعني بذلك، لا لسان الجسد، بل ما نطق به بهذا اللسان. لسانُنا عضوٌ من أعضائِنا، كالعينَين والأذنَين والأنف وسائر الأعضاء؛ لكنّ اللسان اليونانيّ هو مجموع الكلمات اليونانيّة؛ وهذا لا يعني أنّ الكلمات هي اللسان، بل أنّ اللسان ينطق بها. تقول عن أحدِهم: عرفت وجهَه، وأنت تقصد الشخص؛ وتتكلّم عن غائبٍ فتقول: عرفت يَده، وأنت تقصد، لا يده، بل ما كتبت يدُه. من هذا المنطلق، ندعو خطيئةً لدى الربّ، ما نتج عن الخطيئة، لأنّه اتّخذ جسده من تلك الطبيعة التي استحقّت الموت بالخطيئة. ولكي أعبّر عن فكرتي باختصار أقول: مريم التي وُلِدت من آدم ماتت بسبب خطيئة آدم؛ وآدم مات بسبب خطيئتِه هو؛ وجسد الربّ المولود من مريم، مات ليمحو الخطيئة. هذا هو المسح الذي لبسه الربّ؛ والمسح الذي كان يتستّر فيه، حال دون أن يُعرَف. يقول: «وأنا، عندما كانوا

يضطهدونني، كنت ألبس المسح»، أي كانوا يُغيرون عليّ فأتخفّى. فلو لم يتخفَّ، لما كان له أن يموت؛ لأنّه عندما أظهر، للحظةٍ، قبسًا من قدرتِه، ساعة اقترب منه أعداؤه ليُمسكوه، ولمجرّد أن سألَهم: من تطلبون؟ تراجعوا جميعهم وسقطوا أرضًا (يوحنّا ١٨ : ٤-٦). ما كان ليلاشي مثل هذه القدرة في آلامه، لو لم يكن متخفِّيًا في المسح.

٤ - «لبست المسح وكنت أعنّي نفسي بالصوم» (٣٤: ١٣). أمّا الآن وقد شرحنا ماذا يُقصد بالمسح، فكيف نشرح ماذا يُقصد بالصوم؟ هل كان المسيح يُريد أن يأكل عندما راح يبحث عن ثمرٍ في التينة؟ (متّى ٢١ : ١٩)؛ وهل كان ليأكُل لو وجد؟ هل كان يريد أن يشرب عندما قال للمرأة السامريّة: «أعطيني لأشرب» (يوحنّا ٤ : ٧)، وعندما قال على الصليب: «أنا عطشان»؟ (يوحنّا ١٩ : ٢٨). إلامَ كان المسيح جائعًا، وإلامَ كان عطشانَ سوى إلى أعمالنا الصالحة؟ لم يجد أيّ عملٍ صالحٍ لدى مضطهديه وصالبيه، فصام؛ قابلوا إحساناتِه بالنكران. أيّ جوعٍ كان ينهشُه حين كاد ألّا يجدَ على الصليب غير لصٍّ ثمرةً يسدّ بها جوعَه! لأنّ الرسل هربوا واختبأوا بين الجموع؛ وبطرس الذي وعد بأن يذهب إلى حدّ بذل نفسِه عن الربّ، أنكره ثلاث مرّات (يوحنّا ١٣ : ٣٧)؛ بكى ضعفَه، لكنّه كان يتخفّى في الجموع مخافة أن يُعرف. ولمّا رآه الرسل ميتًا، فقدوا جميعُهم الرجاء في خلاصِهم؛ وبعد قيامتِه وجدهم الربّ، عندما كلّمهم، مقيمين في يأسِهم؛ وجدهم غارقين في الكآبة والأسى والدموع. وعندما التقى تلميذَي عمّاوس، كان الحزن والأسى واليأس في قلبيهما وعلى شفاهِهما، فخاطبهما قائلًا: «عمّن تتحادثان؟»، لأنّهما كانا يتحادثان عنه؛ فأجاباه: «أأنت وحدك غريبٌ في أورشليم، فلا تعرف ما حدث فيها في هذه الأيّام، ليسوع الناصريّ، الذي كان نبيًّا قديرًا في الأقوال

والأعمال، عند الله وعند الشعب، وكيف أسلمه رؤساء كهنتِنا وزعماؤُنا ليُحكم عليه بالموت، وكيف صلبوه؟ وكنّا نأمل أنّه هو الذي يُخلّص إسرائيل»؟ (لوقا ٢٤ : ١٨-٢١). لكان الربّ استمر في صومٍ طويل، لو لم يُقوِّ الذين كان يريد أن يجعل منهم قوتَه. شجّعهم، وعزّاهم، وثبّتهم، وحوّلهم إلى جسدِه. ذاك كان الصوم الذي خضع له الربّ.

٥ - يقول النبيّ «وتعود صلاتي إلى باطني». في هذه الآية سرٌّ عميق. أعانَنا الربّ على ولوجِ كنهِه! والحال، فإنّ علينا أن نفهم بـ«الباطن» مكانًا خفيًّا. ولا شكّ، يا إخوتي، في أنّ هذه الكلمات، تنبّهنا، بمشورة صالحة، بأن نُصلّي في داخلنا. حيث يرانا الله، ويسمعنا، وحيث تعجز عين إنسان عن الدخول، وحيث لا يرى أحدٌ سوى ذاك الذي يأتي لنُصرتِنا؛ وحيث صلّت سوسنّة فسمعها الله، يوم لم يكن الناس يُريدون أن يسمعوا صوتَها (راجع دانيال ١٣ : ٣٥، ٤٤). إنّ في هذا لتعليمًا لنا نافعًا؛ لكن، بالنسبة لربّنا، علينا أن نبحث فيه عمّا هو أعمق، لأنّه هو نفسُه صلّى. لا نرى في الإنجيل بأنّه لبس المسح بالمعنى الحرفيّ؛ ولا نقرأ فيه حرفيًّا أنّه صام في آلامه؛ لهذا شرحنا هاتَين الكلمتَين، على قدر ما نستطيع، بالتشبيه وبالمعنى المجازيّ. لكنّنا سمعنا صلاتَه تنحدر من أعلى الصليب: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» (مزمور ٢١ : ٢؛ متّى ٢٧ : ٤٦). صلاته تلك كانت صلاتنا. فمتى تركَه أبوه وهو لم ينفصل عنه أبدًا؟ أمّا بشأن سرّيّة الصلاة، فقد قرأنا أنّ يسوع صلّى وحيدًا على الجبل؛ وقرأنا أنّه أمضى الليالي مُصلّيًا، في آلامه، وقبلَها. هكذا، إذًا، ترون تحقُّق هذه الكلمات: «تعود صلاتي إلى باطني». إلّا أنّ لديّ رغبة في البحث عن تفسيرٍ أفضل في ما خصّ الربّ، وإليكم ما يجول في خاطري على

الدوام؛ ولعلّ فكرةً فُضلى تطرق بالي لاحقًا، أو تطرق بال من هو أكفأ منّي. أعرف أنّ الربّ قال: «وتعود صلاتي إلى باطني»، لأنّ أباه يسكن في قلبِه. والحال، فإنّ الله صالحَ العالَم مع نفسِه في المسيح (٢ قورنتس ٥: ١٩). كان المسيح يمتلك في ذاتِه ذاك الذي ينبغي أن يُصلّيَ له. لم يكن بعيدًا عنه لأنّه قال: «أنا في الآب والآب فيَّ» (يوحنّا ١٤: ١٠). لكن، بما أنّ الصلاة عملُ إنسان، وبما أنّ المسيح، **الكلمة**، لا يُصلّي، بل يستجيب، ولا يطلب النُصرة بل ينصر مع الآب، فما معنى عبارة: «وتعود صلاتي إلى باطني»، سوى أنّ الإنسان الذي فيَّ، يُصلّي بي إلى الإله الذي فيَّ؟

٦ - «كنت أُسَرّ به سروري بأخٍ أو قريب، وأُطرِق مثل نائحٍ وبائس» (٣٤: ١٤). هنا، يلقي نظره على جسدِه، وهنا، علينا أن نرى نفسَنا. عندما نفرح في الصلاة، وعندما تستعيد نفسُنا سلامَها، لا بالسعادة التي يوفّرها العالَم، بل بنور الحقيقة، فإنّ الذي يشعر بتأثير ذلك النور، يعرف الشعور الذي أعبّر عنه، ويُدرك حقيقة هذه الكلمات: «كنت أُسَرّ به سروري بأخٍ أو قريب». هكذا تُسَرّ النفس بالله، لدى دنوِّها منه، سرورَها بأخٍ وقريبٍ وصديق؛ «لأنّنا»، كما يقول القدّيس بولس، «فيه نحيا ونتحرّك ونوجَد» (أعمال ١٧: ٢٨). فمن لم يبلغ من الكمال ما يُمكّنه من أن يُسَرَّ بالله، ويُشرق بالله، ويدنو من الله، ويعتصم بالله، أو بالأحرى، من يرى أنّه بعيدٌ عن الله، عليه أن يعمل بما يوصي به النبي بقولِه: «كنتُ أُطرِق مثل نائحٍ وبائس». يدنو من الله فيقول: «كنت أُسَرّ به سروري بأخٍ أو قريب»؛ ويبتعد عنه فيقول: «كنتُ أُطرِق مثل نائحٍ وبائس». وعلامَ نواحُه إلّا لأنّه لا يمتلك ما يبتغيه؟ يحدُث للإنسانِ نفسِه أن يدنو من الله حينًا، ويبتعد عنه حينًا آخر؛ يدنو منه بفضل نور الحقيقة، ويبتعد بفعل ظلام الجسد. والحال، فإنّ الله، يا إخوتي، لا

يحدّه مكانٌ. ولا يسعنا لا أن ندنو منه ولا أن نبتعد بالمعنى الماديّ. بدنوّنا منه نصير شبيهين به؛ وببُعدنا عنه يزول الشبَه. عندما تنظر إلى شيئَين فيهما بعض الشبه، ألا تقول إنّ أحدَهما قريبٌ من الآخر؟ فإذا ظهرا لك مختلِفَين، حتّى ولو كانا في المكان نفسِه وفي اليد نفسِها، ألا تقول: هذا الشيء بعيدٌ عن ذاك. تُمسك بكليهما، وتجمعهما معًا، وتقول إنّهما بعيدان، لا في المكان، بل في عدم التشابُه. فإن كنت تريد أن تكون قريبًا من الله، كن شبيهًا به؛ وإن كنت لا تريد أن تكون شبيهًا به، فإنّك تبتعد عنه. إذا كنت شبيهًا به، فابتهِج، وإذا لم تكن شبيهًا به، فانتحِب، لكي يوقظ فيك نحيبُك أشواقَك؛ أو فلتوقِظ أشواقك نحيبك، وليُقرّبك نحيبك من الله الذي بدأت تبتعد عنه. ألم يكن بطرس يقترب عندما قال: «أنت المسيح ابن الله الحيّ»؟ (متّى ١٦: ١٦). ثمّ ابتعد عنه عندما قال: «حاشى لك يا ربّ! لا يكون لك هذا»؟ (متّى ١٦: ٢٢). ولحظة اقترب القدّيس بطرس، ماذا قال له الربّ؟ - «طوبى لك يا سمعان بن يونا!» (متّى ١٦: ١٧). وماذا قال له الربّ عندما ابتعد عنه ولم يعُد شبيهًا به؟ - «إبتعِد يا شيطان» (متّى ١٦: ٢٣). ولمّا اقترب قال له يسوع: «لا لحم ولا دم أظهر لك ذلك، بل أبي الذي في السموات» (متّى ١٦: ١٧). نورُه فاض عليك، وأنت بنورِه تُشِعّ. لكن، عندما ابتعد بطرس وعارض المخلّص في أمر الآلامِ التي كان مزمعًا أن يُعانيها لأجل خلاصِنا، قال له يسوع: «إنّك لا تفطن لما لله، لكن لما للبشر» (متّى ١٦: ٢٣). تكلّم النبيّ في مزمورٍ آخر عن حالتَي النفس هاتَين، فقال بحقّ: «أمّا أنا فقلت في جزعي: إنّي قد انقطعت عن عينَيك» (٣٠: ٢٣). لو لم يقترب من الله، لما قال «في جزعي»، لأنّ الجزع هو النشوة وانخطاف الروح. أفاض روحَه على ذاتِه، واقترب من الله؛ ثمّ كمن انفصل عنه بغمامة، وعاد فهوى إلى

الأرض بفعل ثقل الجسد، تذكّر أين كان، ورأى أين صار، فصرخ: «إنّي قد انقطعتُ عن عينَيك». وهبنا الله أن تتحقّق فينا هذه الكلمات: «كنت أُسَرُّ به سروري بأخٍ وقريب». وإذا تعذّر هذا فليكن لي أقلّه أن «أُطرِق مثل نائحٍ وبائس».

٧ - أمّا هم ففرحوا لحالي، واجتمعوا عليّ» (٣٤: ١٥). هم فرحون، وأنا حزين. لكنّنا سمعنا كلمات الإنجيل القائلة: «طوبى للحزانى» (متّى ٥: ٥)، إذًا: «تعْسًا للفرحين»؟ «فرحوا لحالي، واجتمعوا عليّ؛ أوسعوني شتمًا، ولا أعلم». كانوا يسألونني عن أمور أجهلُها، وهم أنفسُهم لم يكونوا يعلمون من يسألون.

٨ - «إنقضّوا عليّ وشتموني وهزئوا بي»، أي أنّهم سخروا منّي وأوسعوني شتمًا. والحال، فإنّ ما أصاب الرأس أصاب الجسد أيضًا. لاحظوا، يا إخوتي، المجد الذي تنعم به الكنيسة حاليًّا؛ وتذكّروا ذلَّها الغابر؛ تذكّروا أنّ المسيحيّين كانوا يُضطهَدون، ويُكرهون على الفرار، ويُضربون، ويُقتَلون، ويُقدَّمون طعامًا للوحوش، ويُطرحون في النار، وسط ابتهاج أعدائِهم الكثيرين. ما عاناه الرأس عاناه الجسد أيضًا؛ والآلام التي قاساها الربّ على الصليب، قاساها جسده أيضًا على يد مضطهِديه، وما زالت يد الأشرار تضطهدهم إلى اليوم. فحيثما يلتقون مسيحيًّا، يشتمونَه ويُضايقونَه، ويسخرون منه وينعتونَه بالأبله والمجنون والأحمق والجبان. فليفعلوا ما طاب لهم، فإنّ المسيح في السماء! ليفعلوا ما يشاؤون، فلقد شرّف المسيح الآمَه، وطبع صليبه على جميع الجباه؛ ما زال مسموحًا للشرّير أن يشتمنا، لكن لم يعد مسموحًا له أن يُعذّبنا. إلّا أنّ أقوال فمه تفضح أفكار قلبِه. «حرقوا عليّ أسنانَهم» (٣٤: ١٦).

٩ - «يا ربّ، متى تفتح عينَيك؟ أنقِذ نفسي من غوائلِهم، ومن الأُسود وحيدتي» (٣٤: ١٧). طال انتظارنا لنُصرتِك، وباسمنا قيل: «متى تفتح عينَيك؟» أي متى نراك تنتقم من الذين يشتموننا؟ متى ينصاع القاضي للجاجة تلك الأرملة ويُنصفُها؟ (راجع لوقا ١٨: ٣). لكن، إذا كان ديّانُنا يؤجّل خلاصَنا، فبدافع المحبّة، لا الإهمال؛ وبدافع الحكمة لا بسبب العجز؛ لا لعدم القدرة على نُصرتِنا من الآن، بل لأنّه ينتظر اكتمال عددِنا إلى النهاية لكي يُخلّصَنا كلّنا في آن معًا. لكن، ماذا نسأله في غمرة اشواقِنا؟ - «متى تفتح عينَيك يا ربّ؟ أنقِذ نفسي من غوائلِهم، ومن الأُسود وحيدتي»، أي أنقِذ كنيستي من مضطهديها.

١٠ - هل تريد أن تعرف من هي تلك الوحيدة؟ فاقرأ ما يلي: «أعترف لك في مجمعٍ حافل، وفي شعبٍ عظيم أسبّحك» (٣٤: ١٨). أجل، في جمعٍ حاشدٍ أعترف لك؛ أجل، وسطَ شعبٍ عظيم أسبّحك! والحال، فإنّ اسم الربّ يُشاد به في الجماعة كلّها، لكن، ما كلّ من في الجماعة يُسبّحونَ الله. الجماعة كلّها تسمع التسابيح التي نهتف بها، لكنّ الله لا يجد تسبيحَه في الجماعة كلّها. ذاك أنّ في الجماعة كلّها، أي في الكنيسة المنتشرة في الأرض، قشًّا وحَبًّا. يتطاير القشّ ويبقى الحَبّ. لهذا يقول النبيّ: «في شعبٍ عظيم أسبّحك». يُسبَّح الله في شعب غير ضئيل لا تحملُه ريح التجربة. أمّا القشّ فسببٌ دائم للتجديف على الله. عندما ينظرون إلى قشّنا، ماذا يقولون؟ أنظروا كيف يعيش المسيحيّون! أنظروا ماذا يفعل المسيحيّون! وبذلك يتم قول الكتاب: «لأنّكم تُجدّفون على اسمي في الأمم» (راجع أشعيا ٥٢: ٢؛ رومة ٢: ٢٤). أيّها الظالم الحاسد المملوء قشًّا، أنظرْ إلى بيدر الغلّة، يصعبْ عليك أن ترى الحَبّ؛ نقِّبْ تجدْ شعبًا عظيمًا، فتحملك رؤيتُه على تسبيح الله. تشبّه بهذا الشعب. فإنّك، إن لم تتشبّه به، سيكون من

الصعب ألّا يبدو لك الجميع في مثل حالِك. «يقيسون أنفُسَهم على أنفسِهم» (٢ قورنتس ١٠: ١٢)، يقول الرسول، ولا يفهمون هذه الكلمات: «وسط شعبٍ عظيمٍ أسبّحك».

١١ - «لا يشتمَنّي الذين يُهاجمونني ظلمًا» (٣٤: ١٩)، فإنّهم يشتمونني بسبب القشّ الذي فيَّ، «أولئك الذين يُبغضونني بغير علّة»، أي الذين لم أصنع بهم شرًّا، «والذين يتغامزون عليّ بأعينِهم»، أي المراؤون والمنافقون. لأنّهم كانوا يُكلّمونني بالسلام(٣). ومن هم الذين يتغامزون عليّ بأعينِهم؟ - أولئك الذين تنطق وجوهُهم بغير ما تُكنّه قلوبُهم، والذين يكلّمونني بروح الوداعة، وفي حقد قلوبِهم يحوكون لي المكر والخداع. «وعليّ فغروا أفواهَهم» (٣٤: ٢١). بدأ أولئك الأسود يتملّقونَني بأعينِهم، فيما كانوا يسعَون إلى الإيقاع بي وافتراسي. كانوا يُزيّنون لي الرضى بكلماتٍ مسالِمة، وفي حقد قلوبِهم يمكرون عليَّ. ما هي تلك الكلمات المسالمة؟ - «يا معلّم، نعرف أنّك صادق، وتعلّم بالحقّ طريق الله، ولا تبالي بأحد، ولا تُحابي أحدًا: أيحلّ لنا أن ندفع الجزية لقيصر أم لا؟» (متّى ٢٢: ١٦-١٧). كانوا يُكلّمونني كلام أصدقاء. ماذا، إذًا؟ أما كنتَ تعرفُهم؟ وهل كانت عيونهم المتملّقة تخدعُك؟ بل كان يسوع يعرفهم جيّدًا؛ لهذا أجابَهم:

---

(٣) وردت في السبعينيّة بالمعنى نفسِه: ὅτι ἐμοὶ μὲν εἰρηνικὰ αν ἐλάλουν، وكذلك في الفولغاتا: quoniam mihi quidem pacifice loquebantur أمّا في العبريّة فوردت: כִּי לֹא שָׁלוֹם , יְדַבֵּרוּ أي: **لا** يتكلّمون بالسلام. وكذلك في الترجمات العربيّة والفرنسيّة. وقد فسّرها القدّيس أوغسطينُس وآخرون كما يلي: كانوا يُكلّمونني في الظاهر بروحٍ مسالمة؛ ووسط الشعوب الحاقدة أو الغاضبة عليّ لا يُفكّرون إلّا بالمكر والخداع. وعبارة: «يُكلّمونني في الظاهر بروحٍ مسالِمة» تعني ضمنًا: «لا يتكلّمون، في الحقيقة، بالسلام، (أو بروحٍ مسالمة)».

«يا مراؤون!لماذا تُجرّبونني؟» (متّى ٢٢: ١٨). ثمّ فغروا أفواههم عليّ وصاحوا: «إصلبه! إصلبه!» (لوقا ٢٣: ٢١). قالوا: «نعِمًا، نِعِمًا، لقد رأينا بأعيُنِنا» (٣٤: ٢١). بعدها راحوا يشتمون: «هيّا، هيّا؛ تنبّأ لنا أيّها المسيح!». وعندما استفتَوه بشأن جزية قيصر، لم يكن كلامُهم سوى رياء، ومديحهم سوى شتائم. قالوا: «نعِمًّا، نِعِمًا، لقد رأينا بأعيُنِنا»؛ أي رأينا أعمالك ومعجزاتك. إنّه المسيح. «إذا كان المسيح، فلينزل عن الصليب لنؤمن به. خلّص آخرين ونفسه لا يقدر أن يُخلّصَها» (متّى ٢٧: ٤٢). «رأينا بأعيُنِنا». أي باطلًا كان يدّعي أنّه ابن الله، فانظر ما حلّ به! أمّا الربّ فبقي صابرًا معلّقًا على الصليب. لم يفقد شيئًا من قدرتِه، لكنّه كان يُبدي قدرته على الصبر. هل كان النزول عن الصليب صعبًا على من كان سيخرج حيًّا من القبر؟ لا. لكنّه كان ليظهر بمظهر المذعِن للذين يشتمونه، فيما كان لزومًا عليه أن يظهر سرًّا، بعد قيامتِه، لتلاميذه، لا لأعدائه؛ لأنّ قيامته كانت تعني الحياة الجديدة، وهذه الحياة الجديدة وجدهم أصدقاؤه يعرفونَها، دون أعدائه.

١٢ - «قد رأيتَ يا ربّ فلا تصمُت» (٣٤: ٢٢) ما معنى: لا تصمت؟ - «قاضِهم». والحال، فإنّه قيل بشأن الدينونة: «صَمَتُّ، فهل أصمتُ إلى الأبد» (راجع أشعيا ٤٢: ١٤)، أمّا متى تكون الدينونة، فقد قال الله للمنافق: «صنعتَ هذا فصمَتُّ، فظننتَ أنّي مثلك» (مزمور ٤٩: ٢١). فكيف يصمت ذاك الذي يتكلّم بالأنبياء، والذي يتكلّم بنفسِه وبالإنجيليّين في الإنجيل، والذي يتكلّم بنا نحنُ كلّما نطقنا بالحقّ؟ فماذا يعني أنّه صَمَت؟ - أي أنّه يصمت عن الحكم، لا عمّا يمسّ تعليمه ووصاياه. والحال، فإنّ الحكم هو ما يتوسّلُه النبيّ، إن صحّ التعبير، ويتنبّأ به: «رأيت يا ربّ، فلا تصمت!» أي: تكلّم، لأنّه ينبغي أن تقضي. وبانتظار ساعة القضاء، «لا تتباعد عنّي، يا ربّ».

أنت وعدتني وقلت: «ها أنا معكم إلى منتهى الدهر» (متّى ٢٨: ٢٠).
١٣ - «قم يا ربّ وانتبه لقضائي» (٣٤: ٢٣). لِمَ ينتبه لقضائك؟ ألأنّك في ضيق؟ أم لأنّك مثقلٌ بالعناء والآلام؟ أليس أشرارٌ كثيرون يلقَون آلامًا مماثلة؟ لِمَ ينتبِه لقضائك؟ أأنت بارٌّ لأنّك وحدك تتألّم؟ لا. فإلامَ ينتبه؟ - لقضائي. «إنتبِه لقضائي، أنت يا ربّي وإلهي، وانظر إلى دعواي». لا إلى آلامي التي أقاسيها، بل إلى قيمة دعواي؛ لا إلى آلامي التي يمكن أن يشاركني لصٌّ في معاناتِها، بل إلى اضطهادٍ تُسعدني معاناتُه من أجل البِرّ. الفرق في سبب المعاناة، إذ يمكن أن يُبتلى الأبرار والأشرار بالمعاناة نفسِها. ليست المعاناة هي التي تصنع الشهيد، بل القضيّة التي من أجلِها يُعاني. فلو كان العناء هو الذي يصنع الشهداء، لعجّت المناجم بالشهداء، ولما قيّدت السلاسل إلّا الشهداء، ولَكُلِّل بالغار كلّ من سقط بالسيف. إذًا، فلنتبيّن القضيّة التي أدّت إلى العقاب. ولا يقولنَّ أحدٌ: أنا أتألّم، إذًا، أنا بارّ. لأنّ المسيح الذي تألّم أوّلًا، تألّم من أجلِ البرّ؛ لهذا أضاف هذا الشرط الأساسيّ فقال: «طوبى للمضطَهَدين من أجلِ البِرّ». ذاك أنّ كثيرين من أصحاب القضيّة المحقّة يمارِسون الإضطهاد، وكثيرين من أصحاب القضيّة الباطلة يُعانون الإضطهاد. فلو لم تكن ممارسة الإضطهاد المحِقّ ممكنة، لما قال النبيّ: «المُغتاب لقريبِه بالخفاء، أستأصلُه» (مزمور ١٠٠: ٥). إلى ذلك، يا إخوتي، ألا يُعنّف الأب الصالح العادلُ ابنًا فاجرًا؟ هو لا يُعنّف ابنه، بل العيب الذي في ابنِه؛ لا ابنه الذي ولدَه، بل الشرّ الذي من صنع ابنِه. الطبيب الذي يُستدعى لمعالجة مريض، ألا يستعملُ المبضع أحيانًا؟ إنّما هو يستعملُه ضدّ المرض لا ضدّ المريض؛ يبضع ليشفي؛ يؤلِم المبضعُ المريض فيشكو ويصرخ ويُقاوم، وإذا صدف أن أفقدته الحمّى رُشدَه، قد يصل به الأمر

إلى حدّ ضرب الطبيب؛ لكنّ الطبيب لا يتخلّى عن معالجة المريض؛ فهو يعرف ما يعمل ولا يكدّره سِباب، ولا يهتمّ لشتيمةٍ تنزل عليه. أفلا يوقَظُ، بوسائل عنيفة، أولئك الذين يقعون في سباتٍ عميق، مخافة أن يؤدّي بهم السبات إلى الموت؟ ويمكن أن يُضطرَّ لإيقاظهم بعنفٍ أولادٌ أحبّاء؛ لا أحد يستحق لقب الإبن البارّ، إن لم يستخدم العنف ليوقظ أباه من سباتِه القاتل. نوقظُ، بعنفٍ، الواقعين في السُبات، ونُقيّد الهائجين، فقط لأنّنا نُحبّهم. فلا يقولَنَّ أحدٌ: إنّي أعاني العنف. لا يكفي أن نتباهى بمعاناتنا، بل علينا أن نبرهِن أنّنا نعاني من أجل قضيّة محقّة، لئلّا نُحصى في عداد الأشرار، إن لم نستطع أن نبرهن أنّ قضيّتنا محقّة. لذلك يُسلِّم النبيّ قضيّتَه إلى الله بطريقة فيها من التوسّل بقدر ما فيها من الحكمة، ويقول: «قم يا ربّ وانتبه لقضائي»، لا لآلامي، «أيّها الربّ إلهي، إنتبِه لدعواي»!

١٤ - «إقضِ لي يا ربّ بحسب بِرّي»[٤] (٣٤: ٢٤). أي بحسب عدالة قضيّتي. أيّها الربّ إلهي، لا تنظر إلى آلامي التي أعانيها، بل إلى بِرّي؛ أي قاضني في قضيّتي.

١٥ - «لا تدع أعدائي يشمتون بي، ويقولون في قلوبِهم: نِعِمًّا، فلنبتهج» (٣٤: ٢٤-٢٥)؛ أي فعلنا ما استطعنا: نلنا منه، قتلناه. لا تدعهم يقولون أبدناه. أظهر لهم أنّهم لم يفعلوا شيئًا. «لا تدعهُم يقولون: ابتلعناه». من هنا هذه الكلمات للشهداء: «لولا أنّ الربّ كان معنا لعلّهم كانوا ابتلعونا ونحن أحياء» (مزمور ١٢٣: ١، ٣). ما معنى

(٤) في العبريّة: שָׁפְטֵנִי כְצִדְקְךָ , יְהוָה אֱלֹהָי؛ وفي السبعينيّة κρῖνόν με κατὰ τὴν δικαιοσύνην σου , κύριε ὁ θεός μου وجميعها تعني: «أنصفني بحسب عدلِك، أيّها الربّ إلهي».

«لكانوا ابتلعونا»؟ أي لكانوا أدخلونا في جسدِهم. لأنّ ما تبتلعه، تُدخِله في جسدِك. يُريد العالَم أن يبتلعك، فابتلعهُ أنت، أدخِلهُ في جسمِك؛ أقتلهُ وكُلْهُ. هذا ما قيل لبطرس: «إذبح وكُل» (أعمال ١٠ : ١٣). أقتُل فيهِم ما هم عليه، واجعلهُم ما أنت عليه. أمّا إذا استطاعوا أن يجعلوك منافقًا، فإنّهم يبتلعونك. لا يبتلعونَك إذا اضطهدوك؛ لكنّهم يبتلعونك إذا جعلوك شبيهًا بهم. «لا تدعهم يقولون: ابتلعناه». إبتلع أنت جماعة الوثنيّين. لماذا تبتلع جماعة الوثنيّين؟ إنّهم يجهدون لابتلاعك، فافعل بهم ما يُريدون أن يفعلوه بك. حطّم موسى العجل المسبوك من ذهب، وسحقَه وذرّاه على وجه الماء، وأسقى بني إسرائيل (راجع خروج ٣٢: ٢٠)، ولعلّه فعل ذلك ليجعلَهم يبتلعون أجساد الأشرار. «ليخزَ الشامتون بمساءتي، ويخجلوا» (٣٤: ٢٦)؛ فنبتلعهم وهم ممتلئون خزيًا وخجلًا! «ليلبس العار والهوان المتكبّرون عليّ» (٣٤: ٢٦).

١٦ - والآن، أيّها الرأس، ماذا تقول ويقولُه معك أعضاؤك؟ «ليُرنّم الذين يبتغون برّي ويفرحوا» (٣٤: ٢٧)، أي الذين يكونون قد اتحدوا بجسدي، «وليُعظّم الربَّ في كلّ حينٍ، الذين يبتغون سلام عبدِه»[٥] وليقولوا بلا انقطاع: تمجّدَ الربّ! «لساني يهذّ بعدلِك؛ النهار كلّه بحمدِك» (٣٤: ٢٨). من ذا يستطيع لسانُه أنّ يهذّ بحمد الله النهار كلّه؟

طالت عظتي، وتعبتم. من يستطيع أن يمدح الربّ النهار كلَّه؟ إذا ارتضيت، فسأدلّك على وسيلة. مهما فعلت وكان خيرًا، فأنت تمدحُ

(٥) وردت على هذا النحو في السبعينيّة وفي الفولغاتا. أمّا في سائر الترجمات: «وليقولوا كلّ حينٍ: تَعظَّمَ الربّ الذي يبتغي سلام عبْدِه».

الله. عندما تُرنّم نشيدًا، تمدحُ الله. لكن ماذا يستطيع لسانُك إذا بقي قلبك أبكم؟ أتُنهي نشيدك، ثمّ تتوقّف وتمضي لتتناول طعامَك؟ إذا تجنّبت كلّ إسراف، فأنت فتُسبح الله. إذا تاجرتَ، ولم تغشّ، فأنت تُسبّح الله. إذا حرثت حقلَك ولم تُثِر خصامًا مع أحد، فأنت تسبّح الله. لتكن طهارة أعمالِك وسيلةً لكي تُسبّح الله النهار كلّه.

عظة في المزمور الخامس والثلاثين

النفاق

لا يُريد المنافق أن يعرف نفاقَه ويمقته، فيُحاول أن يتوارى عن عين الله، لا ليُصلّي في الخفاء طلبًا لخيور السماء. فماذا ينتظر سوى دينونة شديدة القسوة، لكونه ينجرف في الهاوية إلى حدّ ازدراء الله. وليس لنا، لتجنّب هذا الويل، سوى رحمة الله، نسألها، لا خيور الأرض على مثال بني إسرائيل، بل خيور السماء. السُكْر المقدَّس بالسماء: تجنّبِ الكبرياء تبلغْهُ.

١ - أسألُ محبّتكم الإنتباه الكلّي لمعنى هذا المزمور وللأسرارِ التي يتضمّنها؛ سنستعرضه بسرعة، لأنّه واضحٌ في كثير من المقاطع. لكن عندما يستدعي الغموضُ التبسّط، فإنّ متعة التعلّم تُلطّف الإطالة. «صمّم المنافق في قلبِه على المعصية، فإنّ مخافة الله ليست أمام عينَيه» (٣٥: ٢). لا يُشير النبيّ هنا إلى إنسانٍ فرد، بل إلى جيل بكاملِه من أهل الإثم، أعداء أنفسِهم، لأنّهم لا يفهمون أنّ عليهم أن يحيَوا حياة صالحة، لا لأنّهم عاجزون عن الفهم، بل لأنّهم لا يُريدون أن يفهموا. ثمّة فرقٌ بين إنسان يجتهد ليفهم فيمنعه ضعف الجسد، بحسب ما قيل في الكتاب: «إنّ الجسد الفاني يُرهق النفس، وذاك المسكن الأرضيّ يهدم العقل الكثير الأفكار» (حكمة ٩: ١٥)؛ وبين إنسانٍ تراه يعمل، لهلاك نفسِه، لكي لا يفهم ما بوسعه أن يفهمه مع قليل من القصد

الصالح، لا لأنّ الفهم عسير، بل لأنّ إرادته تأبى. وهذا ما يحدث للذين يُحبّون معاصيهم، ويمقتون وصايا الله. فإذا أحببت إثمَك، كانت كلمة الله عدوّك. أمّا إذا كرهت إثمَك، فإنّك ستُحبّ كلمة الله وتلفظ إثمَك. أن تبغِضَ إثمَك، يعني أن تعمل بحسب كلمة الله؛ فتكونان اثنين عليه لسحقِه: كلمة الله وأنت. وحدك، بقدراتِك الذاتيّة، لا تقوى على شيء؛ غير أنّ الذي أرسل إليك كلمتَه ينصرك فتقهر الشرّ. فإن أبغضتَ إثمَك، غفره الله لك، وحرّرك؛ أمّا إذا أحببتَه فإنّك ترفض أن تعرف العار الذي يجلبُه. دُلّني على امرئٍ يسعى ليعرف كيف أنّ الإبن مساوٍ للآب؛ إنّه يؤمن، لكنّه يُحاول أن يفهم فلا يستطيع، بعدُ. إنّها، في الواقع، لحقيقة سرّيّة، يتطلّب فهمُها ما يفوق قدراتِه؛ لكنّ في ذلك بداية إيمان يحفظ النفس إلى أن تقوى. تبدأ فتغتذي باللبن، إلى أن تنمو وتُصبح أقدر على أن تقتات بطعامٍ أصلب، لكي تستطيع أن تفهم أنّ: «**الكلمة** كان في البدء، و**الكلمة** كان في الله، و**الكلمة** كان الله» (يوحنّا ١: ١). قبل ذلك، تغتذي بالإيمان، وتجتهد لكي تفهم الحقيقة، على قدر ما تنال نعمةً من الله. لكن هل تحتاج إلى جهدٍ كبير لكي تفهم الحكمة القائلة: «لا تفعل بغيرك ما تكره أن يفعله غيرك بك»؟ (طوبيّا ٤: ١٦)؛ إذا كنت لا تريد أن تُظلَم، فلا تَظلم؛ ولا تنصب مكيدة إذا كنت لا تريد أن تكون ضحيّة مكيدة. إن كنت ترفض أن تفهم هذه الكلمات، فذاك يُعزى إلى إرادةٍ سيّئة. لذلك «صمّم المنافق في قلبِه على الإثم». صمّم أن يعصى.

٢ - فهل صمّم المنافق على الإثم علنًا، أم أنّه صمّم عليه في قلبِه؟ لماذا يصمّم عليه في قلبِه فقط؟ لأنّ الناس لا تراه. ماذا إذًا؟ إذا كان الناس لا يرَون أنّه يأثم في أعماق قلبه، أفلا يراه الله؟ بالتأكيد، يراه. إسمعوا ما يلي: «فإنّ مخافة الله ليست أمام عينَيه». مخافة الناس

وحدَها أمام عينَيه. لا يجرؤ على كشف إثمه أمام الناس، لئلّا يعيِّروه ويدينوه. يختبئ ليتجنّب أعين الناس؛ وأين يختبئ؟ - في ذاتِه؛ يدخل إلى أعماق قلبِه حيث لا يراه إنسان؛ وهناك، حيث لا يُرى، يجتهد في صنع المكائد ونصب الشباك وتدبير الجرائم. لكنّه لن يقوى على التفكير في الإثم، ولو في قلبِه، لو فكّر بأنّ الله يراه؛ أمّا وأنّه لا يجعل مخافة الله أمام عينَيه، ويحتجب عن أعيُن الناس، ويدخُل إلى قلبِه، فمِمَّ يخشى؟ أليس الله في داخلِه؟ بلى، إلّا أنّ «مخافة الله ليست أمام عينَيه».

٣ - إذًا، إنّه يُدبّر المكائد في قلبِه؛ أفلا يعلم أنّ الله يرى في قلبِه؟ وهذا يؤكّد على ما قلته في البداية: إنّه يتجاهل، وتجاهله عدوٌّ يرتدّ عليه. والحال، فإنّ النبيّ يتابع فيقول: «سلك أمامَه سلوك خِداع» (٣٥: ٣). أمام من؟ - أمام الذي مخافته ليست أمام عينَي السالك في الخداع. «حتّى لا يجد إثمه ممقوتًا». لأنّه عمل على ألّا يجِده. والحال، فإنّ من الناس من يبدون جادّين في البحث عن إثمِهم، ويخافون أن يجدوه، لأنّهم إذا وجدوه، سيسمعون صوتًا يقول لهم: أقلِعوا عنه، صنعتم الشرّ قبل أن تعرفوا أنّه شرّ، والله يغفره لكم، لأنّكم عن جهلٍ صنعتموه؛ أمّا الآن وقد عرفتموه، فانزعوه من قلوبِكم، يسهلْ على جهلِكم نوال المغفرة؛ ولا تخجلوا من أن تقولوا لله: «أمّا خطايا صبائي وجهلي فلا تذكرْها يا ربّ» (مزمور ٢٤: ٧). يبحث الخاطئ عن معصيتِه، ويخشى أن يجدَها، لأنّه غير صادقٍ في بحثِه. متى يقول الإنسان بصدق: كنت أجهل أنّها معصية؟ - عندما يرى أنّ في ما فعله معصية، ويكفّ عن فعل تلك المعصية التي كان يقترفها عن جهل. ذاك هو الإنسان الذي أراد، صادقًا، أن يعرف خطيئتَه، لكي يجدَها ويمقتَها. غير أنّ كثيرين، في يومنا، غير صادقين في البحث عن

خطيئتِهم، أي أنّهم لا يبحثون عنها بقصد إيجادِها وكرهِها. وبما أنّهم يتوسّلون المكر في بحثِهم، فإنّهم لا يجدون خطيئتَهم إلّا ليدافعوا عنها. واضحٌ لمن يكتشف الخطيئة أنّ الخطيئة شرّ. تقول له: «لا تعُد إليها». أمّا هو الذي كان يُخادع في البحث عن خطيئته، لا يُبغضُها عندما يجدها. فماذا يقول؟ - كم من الناس يصنعون ما أصنع ولا يُدانون؟ أيُهلِكهم الله جميعهم؟ أو يقول أيضًا: لو لم يكن الله راضيًا عمّا يصنعون، أما كان يُهلك الذين يصنعونه؟ - ألا ترى أنّك لم تكن صادقًا في البحث عن إثمك؟ لو كنت صادقًا ولم تسلك سلوك مُراءٍ، لكنت اكتشفت خطيئتك وأبغضتَها منذ زمنٍ طويل. والآن، وقد اكتشفتَها فإنّك تبرّرُها؛ إذًا، لم تكن صادقًا في البحث عنها.

٤ - «كلمات فمه غشٌّ ونفاق؛ لم يُرد أن يتعلّم، لئلّا يعمل الخير» (٢٥ : ٤). يعزو النبيّ النقص في الفهم لدى الخاطئ إلى إرادته. وإذا كان في الناس من يُريدون أن يتعلّموا، ولا يستطيعون، فإنّ فيهم من لا يتعلّمون، لأنّهم لا يُريدون. «لم يُرِد أن يتعلّم لئلّا يعمل الخير».

٥ - «يُفكّر في الإثم على مضجعِه» (٣٥: ٥) ما معنى «على مضجعِه»؟ - أي أنّ الآثم يُضمر الإثم في قلبه؛ فعبارة «على مضجعِه» تعني «في قلبِه». والحال، فإنّ مضجعَنا هو قلبُنا، ففيه نشعر، على السواء، بوخز الضمير وبراحة الضمير. فعلى من أراد أن ينعم بمضجَع قلبه، أن يبدأ فيصنع الخير. مخدعنا هو المكان الذي يأمرنا ربّنا يسوع المسيح بأن نُصلّي فيه. يقول: «أدخل مخدعك واغلق بابك» (متّى ٦ : ٦). ما معنى «أغلق بابك»؟ - أي لا ترجُ من الله خيور الخارج، بل خيور الروح. «وأبوك الذي يرى في الخفية يُجازيك». ومن هو الذي لا يُغلق بابَه؟ - هو الذي يظنّ أنّه يسأل الله الكثير، إذ يركّز على طلب

الخيور الأرضيّة. بابك مشرَّع، والجميع يرَونك تُصلّي. وماذا يعني أيضًا أن تُغلق بابك؟ - أي أن تسأل الله ما وحدَه الله يعرف كيف يُعطيكَه. وماذا تسأل وبابك مغلَق؟ - «ما لم تره عينٌ ولم تسمعه أذنٌ، ولم يخطر على قلب بشر» (١ قورنتُس ٢ : ٩). ربّما لم يدخل قطّ إلى مخدعِك، أي إلى قلبِك، ذاك الخير الذي لا يُدانى، لكنّ الله يعرف ماذا يُعطيك. فمتى يُعطيكَه؟ - عندما يتجلّى الربّ، وعندما يظهر الديّان الأعظم. أي لغة أفصح من اللغة التي سيخاطب بها الذين يجعلهم عن يمينِه؟ «تعالَوا يا مباركي أبي، رثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشاء العالَم» (متّى ٢٥ : ٣٤). وإليكم ما سيسمعه الذين عن يسارِه، فيتحسّرون في توبةٍ عقيمة (راجع حكمة ٥ : ٣)، لأنّهم أبوا في حياتِهم أن يجعلوها توبة مثمرة. فلِمَ يتحسّرون؟ - لأن زمن التوبة فات. يسمعون هذا الحكم: «إذهبوا إلى النار الأبديّة المعدّة لإبليس وملائكتِه» (متّى ٢٥ : ٤١). تلك هي الكلمات الرهيبة التي يسمعونها. أمّا الأبرار فيبتهجون للكلمات الطيّبة التي يسمعونها، بحسب ما كُتِب: «الصدّيق يكون ذكره إلى الأبد، لا يخشى كلام السوء» (مزمور ١١١ : ٧). أيّ كلام سوء؟ - الكلام الذي يسمعه الأشرار: «إذهبوا إلى النار الأبديّة». إنّ الله قادرٌ على أن يُعطيَنا فوق ما نسأله وما نتصوّره (راجع أفسس ٣: ٢٠)، يطلب تأوهاتِنا الخفيّة، لكي نَحسُن في عينَيه، ولا نفتخِر ببرّنا أمام الناس. من أراد أن يُرضي الناس ببرّه، لكي يفوز هو بالمديح، لا بهدف أن يُمجّد اللهَ الناسُ الذين يرَون برّه، فذاك لا يوصِد بابَه دون الضجيج، ويبقى مُشرَّعًا على صخب العالَم، فلا يسمعه الربّ كما يريد أن يسمَعه. فلنعمل على تطهير مخدعنا، أي قلبَنا، فيفرح به معنا. تعرف محبّتكم ما يُعانيه كثيرون في الحياة العامّة: في النزاعات والمحاكمات وتشابُك المصالح. وتعرف محبّتُكم أنّ كلّ واحدٍ، بعد

أن يتعب من مشاغل الدّهر، يسارع في الرجوع إلى بيتِه ليرتاح؛ وأنّ كلّ واحدٍ يجهد لينهي سريعًا أعمالَه التي تشغلُه في الخارج، ليخلُد إلى سكون بيتِه. والحال، فإنّ لكلٍّ بيتَه، ليستريح فيه. فإذا كانت الهموم تلاحِقه إلى داخل بيتِه، فأين تُراه يرتاح؟ ماذا نقول إذًا؟ ينبغي، أقلّه، أن يجد الراحة في بيتِه. لكنّه إذا واجه في الخارج أعداءً، وفي البيت زوجةً نكِدة، فإنّه سيخرج مُجدَّدًا. يريد أن يستريح من متاعب الخارج، فيدخلُ إلى بيتِه، فإن عزّت الراحة فيه كما في الخارج، فأين تُراه يستريح؟ - تستريح في مخدع قلبِك عندما تلجأ إلى داخل ضميرِك. فإذا حصل أن وجدت فيه زوجة لا تجعل حياتَك مُرّة، أي إذا وجدت فيه حكمة الله، فعِش معها في اتّحادٍ مقدَّس، واسترح داخل مضجعِك، ولا تدع شائبة ذنبٍ تطفو على ضميرِك فتُخرجَك منه. لكنّ الشرّير كان يلجأ إلى ذلك المخدع الذي يتكلّم عنه الكتاب، بعيدًا عن أعين الناس؛ والشرّ الذي كان يُدبّره كان من شأنه أن يحرم قلبه من السكينة. «يُفكّر في الإثم على مضجعِه».

٦ - «ويقف عند باب كلّ طريق آثمة» (٣٥ : ٥). ما معنى «يقف»؟ - أي أنّه يدأب على الإثم. لهذا قيل عن الصدّيق إنّه: «في طريق الخطأة لم يقِف» (مزمور ١ : ١). فحيث وقف الآثم، لم يقفِ الصدّيق. «ولا يُعرِض عن الشرّ». إذا كان يستحيل عليه أن يُقلِع عن الشرّ، فليُبغِضه على الأقلّ: ذاك هو الهدف، وتلك هي ثمرة الفضيلة. لأنّك إذا أبغضتَ الشرّ، فسيَعنى في حرف فكرِك نحو أيّ سوء. والحال، فإنّ الخطيئة تسكن في جسدنا المائت؛ لكن، ماذا يقول الرسول؟ - «لا تملِكِ الخطيئة في جسدكم المائت فتُطيعوا شهواتِه» (رومة ٦ : ١٢). متى لا تعود الخطيئة تملك فيه؟ - عندما يتحقّق فينا قول الرسول: «عندما يلبسُ الفاسدُ فينا عدم الفساد، والمائتُ عدمَ

الموت» (١ قورنتُس ١٥ : ٥٣). طالما لم يتحقّق فينا هذا الأمر، فإنّ جسدَنا سيجد متعةً في الشرّ؛ لكنّ متعتَه أكبر في تذوّق طيّبات كلام الحكمة وأحكام الله. تغلّبْ على الخطيئة وعلى إرادة ارتكابِها؛ أَبغِضِ الخطيئة والإثم، لكي تتّحد مع الله وتشاركَه بُغضَها. ومتى اتّحدتَ بالروح مع شريعة الله، تخضع بالروح لتلك الشريعة. وإذا كان جسدُك لا يزال يُخضعُك لشريعة الخطيئة (رومة ٧: ٢٥)، بمعنى أنّك لا تزال تشعر بمتعةٍ جسديّة، فإنّ تلك المتعة تنعدم، عندما لا تعود مضطرًّا إلى القتال. ثمّة فرقٌ بين ألّا تعود مضطرًّا إلى القتال، لأنّك تنعم بسلام حقيقيٍّ دائم، وبين أن تستمر في القتال وتنتصِر؛ بين أن تُقاتِل وتُمنىً بالهزيمة، وبين أن تكفّ عن القتال وتستسلم. هناك من كفّ عن القتال كالذي يتكلّم عنه النبيّ هنا. إنّه لا يُبغِض الإثم، يقول النبيّ؛ فكيف يُقاتل ما لا يُبغضُه؟ - يستسلم لمكرِه، ولا يُقاوِم. آخرون يُقاتلون؛ لكن، بما أنّهم يعتدّون بقواهم، فإنّ الله يُريد أن يُبيّن لهم أنّه وحده القادر على الغلبة في الإنسان الذي يتّحد به ويخضَع له، وأنّهم في القتال منهزمون؛ وعندما بدأوا يُمارسون بعض البِرّ، تكبّروا وتحطّموا. هؤلاء يُقاتلون، لكنّهم يُهزَمون. فمن هو الذي يُقاتل ولا يُهزَم؟ - هو الذي يقول: «أرى في أعضائي شريعةً تُناقض شريعة الروح». ترَون أنّه يُقاتل، لكنّه لا يعتدّ بقواه، ولهذا ينتصر. لأنّه يقول بعدَها: «الويل لي أنا، الإنسان الشقيّ، من يُنقذُني من جسد الموت هذا؟ - نعمة الله بيسوع المسيح ربّنا» (رومة ٧: ٢٣-٢٥). يستمدّ قوّتَه من الذي أمره بأن يُقاتل، وبمعونة الذي يأمر بالقتال، يتغلّب على عدوّه. أمّا االذي يتكلّم عنه المزمور، فإنّه «لا يُعرِض عن الشرّ».

٧ - «يا ربّ في السماء رحمتك، وإلى الغيوم أمانتُك» (٣٥: ٦). لا أدري ما هي محبّة الله تلك التي يقول النبيّ أنّها في السماء؛

والحال، فإنّ محبّة الربّ محبّةٌ على الأرض أيضًا. قالها لك النبيّ: «من رحمة الربّ امتلأت الأرض» (مزمور ٣٢: ٥). فعن أيّ رحمة يُريد أن يتكلّم عندما يقول: «يا ربّ في السماء رحمتُك»؟ من عطايا الله ما هو أرضيّ وزمنيّ، وما هو سماويّ وأبديّ. ومن يخدم الله لينال العطايا الأرضيّة والزمنيّة، التي هي من نصيب الجميع، لم يتعدَّ بعدُ، بشكلٍ ما، مرتبَة البهائم؛ إنّ لهذا، في الحقيقة، نصيبًا في الرحمة الإلهيّة؛ لكن، لا نصيب له في تلك الرحمة الخاصّة التي لا تُعطى إلّا للأبرار والصلّاح والقدّيسين. ما هي العطايا التي تُفاض على الجميع؟ «يُشرق الله شمسَه على الأخيار والأشرار، ويُمطر على الأبرار والأثمة» (متّى ٥: ٤٥). مَن مِن الناس لم ينل تلك الإحسانات من الرحمة الإلهيّة، أوّلًا لأنّه موجود، ثمّ لأنّه تميّز عن البهائم، ولأنّه حيوانٌ عاقل، بوسعه أن يعرف الله، ويتمتّع بالنور والهواء والمطر والجنى وتنوُّع الفصول وصحّة الجسد وعشرة الأصدقاء والحفاظ على عائلتِه؟ كلّ هذه الخيور إنّما هي عطايا من الله. لا تُصدّقوا، يا إخوتي، أنّ بوسع أحدٍ غير الله وحده أن يمنحها. فمن لم ينتظرها إلّا من الله، يجعلْ مسافة شاسعة بينَه وبين الذين يطلبونها لدى الشياطين والسَحَرة والمنجّمين. إنّ هؤلاء لبائسون مَرّتين: مرّةً لأنّهم لا يطلبون إلّا خيورًا زمنيّة، ومرّةً لأنّهم لا يطلبونَها من واهب كلّ خير. أمّا الذين يشتهون تلك الخيور، ويبتغون فيها سعادَتَهم، ولا يطلبونَها إلّا من الله وحدَه، فإنّهم، بلا شكّ، خيرٌ من أولئك، لكونهم لا يطلبونها إلّا من الله، إلّا أنّهم يلبثون في خطر. ربّ قائلٍ: وما هو هذا الخطر؟ ذاك أنّهم يتطلّعون أحيانًا إلى الأمور البشريّة، ويرَون تلك الخيور الأرضيّة التي يشتهونَها تهبط بغزارة في أيدي الأشرار والأثمة، فيظنّون أنّهم محرومون من ثواب عبادتِهم لله، إمّا لأنّ ما يملكونه يملكه الأشرار

مثلَهم، على الرغم من أنّهم يكرّمون الله والأشرار لا يُكرِّمونه، وإمّا لأنّهم يفتقرون هم، عبَدَة الله، إلى تلك الخيور، فيما ينعم بها شاتموه: هنا يكمن الخطر.

٨ - غير أنّ النبيّ يعرف جيّدًا أي رحمةٍ يلتمس من الله، فيقول: «يا ربّ في السماء رحمتُك وإلى الغيوم أمانتُك»؛ أي أنّ الرحمة المميَّزة التي تُغدِقُها على قدّيسك سماويّة لا أرضيّة، وهي أبديّة وليست عابرة. لكن كيف استطعت أن تُبشّر بها البشر؟ - ذاك أنّ «أمانتك ترتفع إلى الغيوم». والحال، من ذا بوسعِه أن يعرف رحمة الله السماويّة، إن لم يكشفها الله للناس؟ كيف بشّرهم بها؟ - أوصل حقيقتَه إلى الغيوم. ما هي الغيوم؟ - المبشّرون بكلمة الله. بهذا المعنى نرى الربّ، في مكانٍ ما من الكتاب، يغضب على كرمة. أظنّ أنّ محبتَكم تفهمني، وتتذكّر إنّها الكرمة التي يقول عنا النبيّ أشعيا: «ما بالي انتظرتُ أن تُثمرَ عنبًا، فلم تُثمِر سوى الشوك والقتاد»؟ (أشعيا ٥: ٤). ولكي ينزع منّا فكرةَ كرمةٍ عاديّة، يخلص فيقول: «إنّ كرم ربّ الجنود هو آل إسرائيل، وأهل يهوذا هم الغرسُ الذي يُحبّه» (٥: ٧). يوبّخ كرمته لأنّها أثمرت له شوكًا وقتادًا بدلًا من عنب كان ينتظرُه. فماذا يقول؟ - «أوصي السحاب أن لا تَمطُرَ عليها مطَرًا» (٥: ٦). في غضبِه، إذًا، يوصي السحاب أن لا تمطر عليها مطرًا. وهذا ما حصل. والحال، فإن الرسل أُرسِلوا ليُبشّروا بكلمة الله؛ إذ نقرأ في أعمال الرسل أنّ القدّيس بولس كان يُريد أن يُبشّر اليهود أوّلًا، فبدلًا من أن يجد فيهم العنب، لم يعثر إلّا على الشوك. بدأوا فجازَوه عن الخير شرًّا، واضطهدوه. وكما لو كان يُريد أن يُتمّ تلك النبوءة، يقول الرسول لليهود: «أُرسِلنا إليكم أوّلًا، لكن، بما أنّكم ازدريتم كلمة الله، فها نحن نتوجّه إلى الأمم» (أعمال ١٣: ٤٦). وهكذا تمّت النبوءة القائلة: «أوصي السحاب أن

لا تَمطُرَ عليها مطَرًا». وصلت الحقيقة إلى الغيوم؛ وبوصولها قُيِّض لنا أن نُبَشَّر برحمة الله التي في السماء، لا على الأرض. والحال، فإنّ المبشّرين بكلمة الحقّ، يا إخوتي، هم حقًّا غيوم. عندما يُنذرُنا الله بفم مُبشّريه، فإنّه يرعد بغيومه؛ وعندما يصنع الآيات على يد مبشّريه، فإنّه يُبرِق بغيومه، ويُخيف البشر بغيومه، ويرويهم بمطرِه. إذًا، المبشّرون الذين يُعلنون كلمة الله، هم غيوم الله. فلنرجُ، إذًا، رحمتَه، لكن تلك التي في السماء.

٩ - «عدلُك مثل جبال الله، وأحكامك غمرٌ عظيمٌ» (٣٥ : ٧). من هم جبال الله؟ هم الذين سبق أن دعَوناهم غيومًا؛ المبشّرون العظام هم جبال الله. وكما الشمس، عند طلوعِها، تُلقي أشعّتَها المضيئة على قمم الجبال، ثمّ تُحدِرُها إلى أودية الأرض السحيقة، كذلك ربّنا يسوع المسيح، ، عند مجيئِه، ألقى أشعّتَه على قمم الرسُل العالية، وبدأ فأنار الجبال، ثم انحدر النور وتغلغل في بطون أودية الأرض. لهذا قال النبيّ في مزمور: «رفعتُ عينَيّ إلى الجبال، إلى حيث تأتي نُصرَتي» (١٢٠ : ١). لكن، احترز ألّا تظنّ أنّ الجبال تنصُرك من ذاتِها. تلقّت لكي تُعطي، ولا تعطي شيئًا من ذاتِها. فإذا اعتصمت بتلك الجبال، لن يكون رجاؤك راسخًا؛ بل ينبغي أن تجعل الذي يُنير الجبال نُصرةً لك ورجاءً. على أنّ النصرة تأتيك بواسطة الجبال، لأنّ الكتب المقدّسة تصلُك من أولئك الجبال، أي من فم المبشّرين العظماء بالحقيقة. لكن، أعود فأقول، لا تتوكّل عليهم. واسمع ما يقول النبيّ: «رفعت عينيَّ إلى الجبال، إلى حيث تأتي نُصرَتي». فهل الجبال هي التي تنصرني؟ - أبدًا. فاسمع التتمّة: «نُصرتي من عند الربّ صانع السماء والأرض» (١٢٠ : ٢). نُصرتي تأتي بواسطة الجبال، لا من الجبال نفسِها. فمن أين تأتي نُصرتي؟ - «من الربّ صانع السماء والأرض».

كان ثمّة جبالٌ أخرى؛ جبالٌ كلُّ من اقترب منها بسفينتِه غرِق. والحال، فإنّ زعماء الهرطقة طفَوا فجأةً فوق المياه، فصاروا جبالًا. آريوس كان جبلًا، ودوناتُس كان جبلًا، ومكسيميانُس[1] صار، منذ وقتٍ، مثلَ جبل. كثيرون كانوا يتطلّعون إلى تلك الجبال، ويبتغون البَرَّ تفاديًا للأنواء، فاصطدموا بصخور وغاروا في لجّة الأرض. كانت الجبال أبعد من أن تُغوي ذاك الذي قال: «بالربّ اعتصمتُ، فكيف تقولون لنفسي: اهرب إلى جبلِك أيّها العصفور»؟ (مزمور ١٠ : ٢). لا أريد أن أعتصم لا بآريوس ولا بدوناتُس. «نُصرتي من عند الربّ صانع السماء والأرض». تعلّموا ماذا ينبغي أن تنتظروا من الله وماذا ينبغي أن تتوقّعوا من البشر، من النبيّ القائل: «ملعونٌ الرجل الذي يتوكّل على البشر» (إرميا ١٧ : ٥)؛ ومن القديس بولُس الذي، بانسحاقٍ نادر وتواضع عظيم، وبغَيرةٍ منه على رفع كنيسة للختن الإلهيّ، لا له، يثور على أولئك الذين كانوا يقولون: «هذا، أنا لبولُس، وذاك أنا لأبُلُّس» (١ قورنتس ٣ : ٤)، ويتقدّم، ليكون أوّل من يُداس بالأقدام ويُزدَرى، لكي يتمجّد المسيح، فيسأل: «ألعلَّ بولس صُلِبَ لأجلِكم، أو باسم بولس اعتمدتُم»؟ (١ قورنتُس ١ : ١٣). يدفع المسيحيّين عن شخصِه، لكن ليُحوّلَهم إلى المسيح. يرفض أن يسلبَ صديقُ الختن، حبَّ العروس الواجبَ للختن. لأنّ الرسل كانوا أصدقاء الختن. ويوحنّا المتواضع، الذي كان يُنظر إليه على أنّه المسيح، كان هو أيضًا حريصًا على الختن. ولذلك قال: «لست أنا المسيح، بل هو الذي يأتي بعدي ويكون أعظم منّي، ولا أستحقّ أن أحلّ سير حذائِه» (يوحنّا ١ : ٢٧؛ مرقس ١ : ٧).

---

(١) كان مكسيميانُس شمّاسًا لدى دوناتُس المنشقّ، ثمّ صار أسقفًا على قرطاجة في مقابل بريميانُس Primianus، ثمّ صار رئيس فرقة المكسيميانيّين.

كان يكشفُ، باتّضاعٍ رائع، أنّه ليس الختن، بل صديق الختن؛ ولهذا قال: «من له العروسة فهو العروس، أمّا صديق العروس الواقف مُصغِيًا، فهو ممتلئٌ فرَحًا لصوت العروس» (يوحنّا ٣: ٢٩). وصديق العروس هذا، ولو انّه جبلٌ، لا نورَ له في ذاتِه؛ يُصغي، فيملأه صوت العروس فرَحًا. يقول: «أمّا نحنُ فمن ملئِه نلنا كلّ شيء» (يوحنّا ١: ١٦). من ملء من؟ - من ملء من هو «النور الحقيقيّ الذي يُنير كلّ إنسانٍ آتٍ إلى العالَم» (يوحنّا ١: ٩). لشدّة غيرتِه على الكنيسة، كان بولس، صديق الختن، يقول: «فلينظر إلينا الإنسان كخدّامٍ للمسيح، وكوكلاء لأسرار الله». (١ قورنتس ٤: ١). وهذا يعني: «رفعت عينيّ إلى الجبال، إلى حيث تأتي نُصرتي». «فلينظر إلينا الإنسان كخدّام للمسيح وكوكلاء لأسرار الله». ولئلّا تعود فتبني رجاءك على الجبال لا على الله وحده، فاسمع ما يقول الرسول: «أنا غرست، وأبُلُّس سقى، لكنّ الله هو الذي أنمى؛ فليس الغارس بشيءٍ ولا الساقي، بل المنمّي وهو الله» (١ قورنتس ٣: ٧). فإذا قلت: «رفعت عينيَّ إلى الجبال، إلى حيث تأتي نُصرتي»، كما تقول: «ليس الغارس بشيءٍ ولا الساقي»؛ قل الآن: «نُصرتي من عند الرب صانع السماء والأرض». وقل أيضًا: «عدلُك مثل جبال الله» أي أنّ الجبال مملوءةٌ من عدلِك.

١٠ - «وأحكامُك غمرٌ عظيم». الغمر، بحسب النبيّ، هو لجّة الخطيئة التي يبلغها الإنسان الذي يزدري الله. يقول الرسول: «أسلمهم الله إلى شهوات قلوبِهم فارتكبوا الفجور» (رومة ١: ٢٤). إنتبهوا جيّدً، يا أحبّائي. نحن أمام حقيقة هامّة؛ أجل، نحن أمام حقيقة هامّة. ما معنى: «أسلمهم الله في شهوات قلوبِهم فارتكبوا الفجور»؟ أليس لأنّ الله أسلمهم في شهوات قلوبِهم إلى الرجس، ارتكبوا تلك المعاصي الفظيعة؟ كما لو كنت تسأل: إذا كان الله هو الذي جعلَهم يرتكبون

أعمال النجاسة، فما هي خطيئتُهم؟ ثمّة معنى خفيّ في عبارة: «أسلمهم الله إلى شهوات قلوبِهم». كان في قلوبهم شهواتٌ لم يُريدوا أن يقمعوها، فأُسلِموا إليها بقصاصٍ من الله. لكن، لكي تفهم أنّهم كانوا يستحقّون أن يُسلَموا إلى شهوات قلوبِهم، إسمع ما سبق أن قال الرسول بشأنهم: «إنّهم لمّا عرفوا الله، لم يُمجّدوه كإله ولم يشكروه، بل سفِهوا في أفكارهم، وأظلمت قلوبهم الحمقاء» (رومة ١: ٢١). كيف؟ - بالكبرياء. «زعموا أنّهم حكماء، فصاروا أغبياء» (رومة ١: ٢٢). من هنا قضى الله بأن «أسلمهم إلى شهوات قلوبِهم». لأنّهم جحدوا وتكبّروا، استحقّوا أن يُسلَموا إلى شهوات قلوبِهم، فصاروا هوّةً سحيقة، لا لاقترافهم المعصية فحسب، بل لمكرهم وريائِهم مخافة أن يعرفوا إثمهم فيمقتوه. قمّة مكرهم أنّهم لم يُريدوا أن يعرفوا خطيئتَهم ويُبغضوها. فانظروا كيف وصل كلٌّ منهم إلى أعماق الإثم السحيقة: «أحكامُ الربّ غمرٌ عظيم». فكما أنّ جبال الله تنشأ من عدله وتعظُم بنعمتِه، فبأحكامه يسقط في الغمر العظيم أولئك الذين يتمرّغون في وحول الخطيئة السحيقة الأعماق. ألا فليجعل عدلُ الله الجبالَ جميلةً في عينَيك، ولتجنّبْكَ الغمرَ وتقُدْكَ إلى القول مع النبيّ: «نُصرتي من عند الربّ». لكن لماذا؟ - لأنّي «رفعت عينَيَّ إلى الجبال». ما معنى ذلك؟ سأقولها لكم بالفم الملآن: في كنيسة الله تجد جبالًا وتجد أغمارًا؛ تجد أخيارًا قلائل، لأنّ الجبال قليلة؛ غير أنّ الغمرَ شاسعٌ، أي أنّ مسيحيّين كثيرين يعيشون في الإثم، بفعل سخط الله، لأنّ أعمالَهم أسلمتهم إلى شهوات قلوبِهم، فراحوا يُدافعون عن معاصيهم، بدلًا من أن يعترفوا بها. يقولون: لماذا تدينني؟ ماذا فعلت؟ فهذا ارتكب إثمًا، وذاك ارتكب إثمًا آخر. حتّى أنّهم يُريدون أن يُبرِّئوا ما تدينه كلمة الله: ذاك هو الغمر. فاسمع ما يقول الكتاب: «عندما يبلغ

المنافق لُجج الإثم، يزدري» (راجع أمثال ١٨ : ٣). ذاك هو معنى عبارة: «أحكامك غمرٌ عظيم». أمّا أنت، فلا جبل أنت بعدُ ولا غمر. تجنّب الغمر، وحدّق إلى الجبال؛ لكن، لا تتّكل على الجبال، لأنّ نُصرتُك من عند الربّ صانع السماء والأرض.

١١ - «وأنت تُخلّص البشر والبهائم، يا ربّ، أللّهمَّ بحسب كثرة رحمتِك» (٣٥ : ٧، ٨). بعد أن قال: «في السماء رحمتُك»، يريد النبيّ أن يُعرِّفك أنّها في الأرض أيضًا، فيقول: «وأنت تُخلّص البشر والبهائم، يا ربّ، أللّهمَّ بحسب كثرة رحمتِك». رحمتك عظيمةٌ يا إلهي! غزيرةٌ رحمتك وتبسطها على البشر والبهائم. والحال، فمن أين الخلاص للبشر؟ - من الله. وخلاص البهائم، أليس من الله أيضًا؟ الذي خلق الإنسان خلق الحيوان أيضًا، والذي خلق هذا وذاك، يُخلّص كليهما، لكنّ خلاص الحيوان زمنيّ. ومع ذلك، فمِن الناس من يسأل الله، كنعمةٍ عُظمى، ما أعطيَ للبهائم. «ما أكثر رحمتَك اللامتناهية يا إلهي!»؛ هي لا تشمل البشر فحسب، بل تحلّ أيضًا على البهائم لتمنحَهم ذلك الخلاص الأرضيّ العابر، الذي تمنحُه للبشر.

١٢ - ماذا إذًا؟ ألا يحفظ الله للبشر نعمةً خاصّة، لا يستحقّها الحيوان، ولا يستطيع أن يبلغَها؟ للبشرِ، بالتأكيد، حظوةٌ خاصّة. فأين هي تلك الحظوة؟ «إنّ بني البشر بظلّ جناحَيك يعتصمون». فلترُزْ محبّتُكم جيّدًا هذه الحكمة الملأى بالعذوبة: «أنت تُخلّص البشر والبهائم، يا ربّ». سبق للنبيّ أن تكلّم عن الإنسان والحيوان، وها هو الآن يتكلّم عن بني البشر، كما لو كان البشر غير بني البشر. أحيانًا، يتكلّم الكتاب عن بني البشر، قاصدًا بهم البشر عامّةً؛ وأحيانًا يقصد بعبارة «بني البشر» فئة مميَّزة لا يُفهم منها أنّه يعني جميع الناس؛ خاصّة

عندما يُقيم مقارنة بين العبارتَين. فبعد أن تكلّم النبيّ عن بشرٍ وبهائم سيُخلّصهم الله، يقول: «أمّا بنو البشر»؛ كما لو أنّ الله نحّى الآخرين، ليميّز عنهم بني البشر. لكن، عمّن ميّزهم؟ لا عن البهائم فحسب، بل أيضًا عن أولئك الناس الذين لا يسألونَ الله، كخيرٍ أعظم، إلّا الخلاص الذي يهبُه للبهائم. فمن هم، إذًا، بنو البشر؟ هم أولئك الذين يعتصمون بظلّ جناحَي الربّ. والحال، فإنّ البشر والبهائم يتمتّعون معًا بالخيور التي يمتلكونها، أمّا بنو البشر فيتمتّعون بما يرجونه. البشر يريدون أن يُقاسموا البهائم خيور الدهر، وبنو البشر يرجون مشاركة الملائكة الخيور الأبديّة. فلِمَ التمييز، ولِمَ يُدعى أولئك بشرًا وهؤلاء بني بشر؟ لأنّ الكتاب يقول: «ما الإنسان حتّى تذكره وابن البشر حتّى تفتقِدَه؟» (مزمور ٨: ٥). ما الإنسان لتذكرَه؟ تذكرُه ذكرَ غائب، لكنّك تفتقد ابن البشر افتقاد حاضر. ما معنى أنّك تذكر الإنسان؟ أي أنّك تُخلّص الإنسان والبهائم، يا ربّ، لأنّك توفّر الخلاص حتّى للأشرار، وحتّى للذين لا يبتغون ملكوت السموات. والحال فإنّ الله يرعاهم على قدر ما يبتغون، مثل قطيعِه، فلا يتخلّى عنهم، لكنّه يذكُرُهم ذكرَه لغائبين. أمّا الذي يفتقِدُه فهو ابن الإنسان الذي قيل عنه: «إنّ بني البشر بظلّ جناحَيك يعتصمون». وإذا كنتم تُريدون أن تُميِّزوا بين البشر وبني البشر، فانظروا إلى آدم والمسيح. إسمعوا ما يقول الرسول: «فكما أنّ الجميع يموتون في آدم، كذلك يحيا الجميع في المسيح» (١ قورنتس ١٥ : ٢٢). من آدم، نولد للموت؛ وفي المسيح، نقوم للحياة الأبديّة. وما دمنا نحمل فينا صورة الإنسان الأرضيّ، فنحن بشر؛ ونكون بني بشر عندما نحمل فينا صورة الإنسان السماويّ، لأنّ المسيح يُدعى ابنَ البشر. والحال، فإنّ آدم كان بشرًا، لكنّه لم يكن ابن بشر. فالذين يبتغون خيور الأرض والخلاص الزمنيّ هم بنو آدم. ونحن نحثّهم لكي

يصيروا بني البشر، باعتصامهم بظلّ جناحَي الله، وبابتغائهم تلك الرحمة التي في السماء والتي بشّرتنا بها الغيوم. وإذا كانوا لا يبرحون عاجزين، فلا يرجوا، أقلّه، الخيور الزمنيّة إلّا من الله، وليعبدوه على حسب الشريعة القديمة، من أجل أن يبلغوا إلى الشريعة الجديدة.

١٣ - والحال، فإنّ الشعب اليهوديّ كان يبتغي الخيور الأرضيّة، والسيادة لأورشليم، والعبوديّة لأعدائه، وفيض الجنى، وخلاصه الشخصيّ، وخلاص بنيه. ذاك ما كانوا يبتغونه، وما نالوه، وكان الله يرعاهم في ظلّ الشريعة. كانوا يبتغون أن ينالوا من الله الخيور التي يُعطيها للبهائم، لأنّ ابن الإنسان لم يكن بعدُ قد حلّ فيهم ليجعلَهم بني بشر؛ لكن، كان بينهم غيومٌ تُبشّر بابن الإنسان. جاء الأنبياء يبشّرونهم بالمسيح؛ بعضهم فهموا، وجعلوا رجاءَهم في الخيور الأبديّة، لينالوا رحمة السماء. وآخرون حصروا رغباتِهم في أمور الجسد، وسعادة الأرض الزمنيّة. أحنَوا رُكَبَهم، وفي ضعفهم صنعوا الأصنام وعبدوها. وعندما كان الربّ يُحذّرهم ويؤدّبُهم، كان يُعرّيهم من كلّ ما يُحبّون، فيُعانون المجاعة والحروب والطاعون والأسقام، وكان لهم في ذلك مبرِّرات جديدة للّجوء إلى الأصنام. والخيور التي كان عليهم أن يطلبوها من الله، كانوا يطلبونَها من الأصنام ويُعلّقون عليها أهمّيّة بالغة، ويتخلَّون عن الله. كانوا يرَون تلك الخيور التي يشتهونَها فيّاضة في أيدي الرعاع والأثمة، فيعتقدون أنّهم باطلًا يعبدون إلهًا لا يمنحهم ذاك الأجر الأرضيّ. يا أيّها الإنسان! أنت عامل لدى الله، وغدًا يأتي زمن الأجر؛ فلِمَ تطلب أجرًا قبل أن تعمل؟ هل كنت لتستخدِم عاملًا وتدفع له أجره قبل أن يُنجزَ عملَه؟ ستنظر إليه كمُبتزّ إذا طالبك بأجرِه قبل أن يعمل. ستغضب من كلامِه. ولِمَ تغضب؟ أليسَ لأنّ العامل لم يثِق بإنسانٍ يمكن أن يكذب؟ فكيف لا يغضب الله عندما لا تثق بالحقيقة

بذاتِها؟ ما وعدك به سيُعطيكَه؛ إنّه لا يغشّ؛ لأنّه هو نفسُه الحقيقة التي وعدت. ألعلّك تخشى ألّا يكون لديه ما يُعطيك؟ هو الكلّيّ القدرة، فلا تخشَ ألّا يكون قادرًا على العطاء. وهو الأزليّ غير المائت، فلا تخشَ أن يكون له ورثة. كن مُطمئنًّا. إذا طلبت من عاملِك أن يثِق بك ليوم بكامله، فثِق أنت بالله طوال حياتِك، فما حياتُك كلّها إلّا لحظة أمامَ الله. وإن وثِقتَ فماذا تغدو؟ - واحدًا من بني البشر الذين يعتصمون بظلّ جناحَيه.

١٤ - «يرتوون من فيض بيتِك» (٣٥: ٩). لست أدري أيّ أمر عظيم يعِدنا به النبيّ. يُريد أن يقولَه لنا، ولا يقولُه؛ أهو لا يستطيع، أم نحن لا نفهمه؟ أتجرّأ فأقول، يا إخوتي، إنّ ألسِنة القدّيسين الذين بشّرونا بالحقيقة وقلوبهم كانت أعجز من أن تفهم ما تبشّر به، ومن أن تعبِّر عنه. والحال، فإنّه أمرٌ عظيمٌ جدًّا وفوق كلّ كلام؛ هم أنفسُهم لم يكونوا يرَونه إلّا في جزءٍ منه، وكلغز، كما قال الرسول: «لا نرى الله إلّا بصورة ناقصة، وكلُغزٍ، أمّا حينَها فسنُعاينه وجهًا لوجه» (راجع ١ قورنتس ١٣: ١٢). هذا ما كان يفيض من أفواه الذين كانوا لا يَرونَ سوى اللغز. فماذا عنّا نحن حين نُعاين، وجهًا لوجه، ما كانوا يتصوّرونَه في أذهانِهم، وكانت ألسنتهم عاجزةً عن التعبير عنه للناس بطريقة مفهومة؟ ما الذي حمل النبيّ على القول: «يرتوون من فيض بيتِك»؟ - كان يبحث عن كلمة يعبّر بها عمّا يريد أن يقولَه من خلال استعارة تشبيه بشريّ؛ ولمّا كان يرى أنّ الناس يرتوون بالخمرة حتّى السُّكر، ويتجرّعونَها، بلا رويّة، حتّى يفقدوا عقولَهم، ظنّ أن بوسعه أن يعبّر عن فكرتِه بهذه الصورة. لأنّ العقل البشريّ، عندما يقع تحت تأثير ذاك الفرح الذي لا يوصَف، يتلاشى، بشكلٍ من الأشكال، فيصير إلهيًّا، ويرتوي من فيض بيت الله. لهذا قيل في مزمورٍ آخر: «ما ألذّ

كأسي المُروِيَة» (راجع ٢٢ : ٥). سبق للشهداء أن ارتوَوا من تلك الكأس. رأيناهم يتقدّمون إلى الشهادة، فلا يعرفون وجه قريب. وهل من دليلٍ على الإرتواء أبلغ من ألّا تعرِف زوجة مفجوعة، أو أولادًا أو أهلًا؟ ما كانوا يعرفونهم، وما كانوا يُصدّقون أنّهم أمام أعينِهم. لا تعجَبوا. كانوا سكارى. ومن أين لهم السُكْر؟ - شربوا الكأس التي أروتهم. وهذا ما يحملُ النبيّ على شكر الله فيهتف: «ماذا أردّ إلى الربّ عن جميع ما كافأني به؟ - آخذ كأس الخلاص وأدعو اسم الربّ» (مزمور ١١٥ : ١٢، ١٣). إذًا، فلنكن، يا إخوتي، بني بشر، ولنعتصم بظلّ جناحَي الربّ، ولنرتوِ من فيض بيتِه. كلّمتكم كما استطعت أن أكلّمكم؛ أرى كما أستطيعُ أن أرى، ولا أستطيع أن أقول إلّا كما أرى. «يرتوون من فيض بيتِك، ومن شلّال لذاتِك تسقيهم». الشلّال هو المياه المتدفّقة بغزارة؛ كذاك رحمة الله تتدفّق لكي تسقِيَ وتُروي الذين يعتصمون بظلّ جناحَيه. ما هي تلك اللذّة؟ - إنّها شلّالٌ يُروي العِطاش. فليعتصِم العطشان بالله؛ وليرجُ العطشان، تُروِه الحقيقة؛ وقبل أن تُروِيَه تلك الحقيقة، فليصبر على عطشِه، وليَرْجُ. «طوبى للجياع والعطاش إلى البِرّ فإنّهم يُشبَعون» (متّى ٥ : ٦).

١٥ - فإلى أيّ ينبوع تذهب لترتوي؟ ومن أين ينهمر شلّال اللذائذ الإلهيّة الدافق ذاك؟ يقول النبيّ: «لأنّ عندك ينبوع الحياة» (٣٥ : ١٠). ومن لنا ينبوع حياةٍ سوى المسيح؟ جاء إليكم لابسًا جسدكم، لكي يُرطّب فمكم الظمآن؛ وكما روى عطشكم، سيُحقّق رجاءَكم. «لأنّ عندك، يا ربّ ينبوع الحياة، وبنورك نُعاينُ النور». في هذه الدنيا، ينبوع الماء شيءٌ، والنور شيءٌ آخر؛ أمّا في الله فليس الأمر كذلك. ينبوع الماء هو النور؛ سمّه ما تشاء، فهو ليس ما تسمّيه؛ لا تستطيع أن تجد له اسمًا يُلائمُه، لأنّ اسمًا واحدًا لا يكفيه. فإذا قلت إنّ الله نور،

أتاك الجواب: عبثًا أجوع وأعطش، فكيف لي أن أشبع من النور؟ بوضوحٍ قيل لي: «طوبى لأنقياء القلوب، فإنّهم يُعاينون الله» (متّى ٥: ٨)؛ فإذا كان الله نورًا، عليّ أن أهيّئ عينيَّ. هيّئْ فمك أيضًا؛ لأنّ مَن هو نورٌ، هو أيضًا ينبوع؛ أجل، إنّه ينبوعٌ لأنّه يُروي العِطاش، ونورٌ لأنّه يُضيء للعميان. في دنيانا، النور أحيانًا في مكان، والينبوع في مكانٍ آخر. مرّةً تسيل الينابيع من المغاور المظلمة؛ ومرّةً تُلظّيك شمس الصحراء فلا تجد ينبوعًا. في هذه الدنيا، بين النور والينبوع مسافة. أمّا في السماء، فلن تعطش، لأنّ الله ينبوع، ولن تكون في ظلمة لأنّ الله نور.

١٦ - «أبسُط رحمتَك على الذين يعرفونك، وعدلك على المستقيمي القلوب» (٣٥: ١١). قلنا مرارًا إنّ المستقيمي القلوب هم الذين يُتمّون، في الأرض، مشيئة الله. ويشاء الله أن تكون، أحيانًا، بصحّة جيّدة، وأحيانًا مريضًا؛ فإن أرضتك مشيئة الله في الصحّة، وأحزنتك في المرض، فلست ذا قلبٍ مستقيم. لماذا؟ - لأنّك لا تُريد أن تنصاع لمشيئة الله، بل أن تلويها لتُطابق مشيئتك. مشيئة الله مستقيمة، وأنت ملتوٍ. عليك أن تقوِّم مشيئتك على مشيئة الله، لا أن تلوي مشيئة الله على مشيئتِك. عندها تكون ذا قلبٍ مستقيم. أسعيدٌ أنت في هذا العالَم؟ فبارِكِ الربّ الذي يُعزّيك. أم أنت في شدّة؟ فبارِكِ الربّ الذي يؤدّبك ويمتحنك. وستكون ذا قلبٍ مستقيم لأنّك تقول: «أبارك الربّ في كلّ حين؛ على الدوام تسبحتُه في فمي» (مزمور ٣٣: ٢).

١٧ - «لا تعلق بي قدم الكبرياء» (٣٥: ١٢). سبق للنبيّ أن قال: «إنّ بني البشر بظلّ جناحَيك يعتصمون؛ يرتوون من فيض بيتِك».

فليحذر الكبرياءَ من بدأ يتلقّى مياه ذاك الينبوع الفيّاض. لم يُحرم آدم، الإنسان الأوّل من ذلك الينبوع، لكنّه اصطدم بقدم الكبرياء، وزعزعته يدُ الخاطئ، أي يدُ إبليس المتكبّرة. قال له الوسواس: «أرفعُ عرشي، وأجلس في أقاصي الشمال» (أشعيا ١٤ : ١٣)؛ وأغواه بقولِه: «كُل من هذه الثمرة، تصِر كإله» (راجع تكوين ٣: ٥). إذًا، الكبرياء سبّبت سقوطَنا وأخضعتنا للموت. ولأنّ الكبرياء جرّحتنا، فإنّ التواضع يشفينا. جاء الله متّضعًا ليشفي الإنسان من جرح الكبرياء الرهيب. جاء لأنّ «**الكلمة** صار جسدًا وحلّ بيننا» (يوحنّا ١ : ١٤). أمسكه اليهود وشتموه. سمعتم في الإنجيل الذي تُلِيَ عليكم لمن قالوا: «إنّ بك شيطانًا» (يوحنّا ٣: ٤٨)؛ لم يقل لهم: بل أنتم من بكم شيطان، لأنّكم مقيمون في خطاياكم، والشيطان يملك في قلوبكم. لم يقلها، ولو قالها لكان نطق بالحقّ؛ إلّا أنّ قولَها لم يكن مناسبًا، وإلّا بدا اهتمامه في قول الحقيقة أقلَّ من رغبتِه في دفع الشتيمة بالشتيمة. تغاضى عمّا سمعه، كمن لم يسمعه. كان الطبيبَ الذي جاء ليشفيَ ممسوسًا. فكما أنّ الطبيب لا يهتمّ لكلام ممسوس، بل لصحّته ولشفائِه؛ وإن لطمَه أو جرّحَه فلا يأبه، بل يسعى إلى شفائه من حمّى مُزمنة؛ هكذا جاء ربّنا ليشفي مريضًا، جاء ليشفي ممسوسًا، وفي قرارِه ألّا يُبالي بما يسمع من شتائم وتجريح، لكي يُعلّمه التواضع، وبالتواضع يشفيه من كبريائِه. من تلك الكبرياء يسأل النبيُّ الله أن يُنقِذَه بقولِه: «لا تَعلقْ بي قدم الكبرياء، ولا تُزعزعني يدُ المنافق» (٣٥: ١٢). لأنّه إذا علقت بنا قدم الكبرياء، زعزعتنا يد المنافق. ما هي يد المنافق؟ إنها العمل الذي يدفعنا إلى الإثم. أمتكبّرٌ أنت؟ - اليد التي تدفعُك إلى الإثم سرعان ما تُفسِدُك. إعتصِم بالله بالتواضع، وما همّك ممّا يُقال لك. وهذا ما تعنيه هذه الكلمات: «طهّرني من معاصيّ الخفيّة، واعصم عبدك من خطايا

الآخرين» (مزمور ١٨: ١٢، ١٣). ماذا يقصد بعبارة «طهّرني من معاصيّ الخفيّة»؟ - أي «لا تعلَقْ بي قدم الكبرياء». وما معنى: «إعصم عبدك من خطايا الآخرين»، أي: «لا تُزعزعْني يد المنافق». صُنِ الداخل، تأمنِ الخارج.

١٨ - لكن، علامَ خوفُك من الكبرياء؟ كما لو كنّا نقول: «هناك سقط فاعلو الإثم» (٣٥: ١٣)، ليهووا إلى اللجّة التي قيل عنها: «أحكامك غمرٌ عظيم»؛ ويسقطوا في الأعماق السحيقة التي سقط فيها المنافقون الذين يزدرون كلّ شيء. «هناك سقط فاعلو الإثم». أين سقطوا أوّلًا؟ تحت قدم الكبرياء. إسمعوا ما هي قدم الكبرياء: «عرفوا الله ولم يُمجّدوه كإله» (رومة ١: ٢١). إذًا، علقَت بهم قدم الكبرياء، فسقطوا في أعماق الهاوية. «أسلمهم الله في شهوات قلوبهم إلى الرجاسة» (رومة ١: ٢٤). كان النبيّ يخشى أصل الخطيئة ورأس الخطيئة، ولهذا قال: «لا تعلَقْ بي قدم الكبرياء». لماذا يدعوها قَدَمًا؟ لأن الكبرياء تبتعد عن الله وتتركه. قدم الكبرياء هي التعلّق بالكبرياء. «لا تعلَقْ بي قدم الكبرياء ولا تُزعزعْني يد المنافق»، أي لا تفصلْني عنك أعمال المنافق، ولا تحمِلني على الإقتداء به. لكن، لماذا يقول: «هناك سقط فاعلو الإثم»؟ - لأنّ منافقي اليوم، سقطوا أوّلًا في الكبرياء. لذلك أوصى الله الكنيسة بالحذر حين قال للحيّة: «هي تسحق رأسَك، وأنت ترصدين عقبَها» (راجع تكوين ٣: ١٥). تتحيّن الحيّة اللحظة التي تعلق فيها بقدم الكبرياء لكي توقِعَك؛ أمّا أنت، فارصد رأسَها لأنّ الكبرياء رأس كلّ خطيئة (يشوع بن سيراخ ١٠: ١٥). «هناك سقط فاعلو الإثم؛ نُكِسوا ولم يستطيعوا القيام». وأوّل الساقطين الشيطان الذي لم يثبت في الحقيقة، ثمّ الذين تسبّب بطردهم من الفردَوس (راجع تكوين ٣: ٢٣). أمّا الذي دفعه التواضع ليقول إنّه غير

مستحقّ أن يحلّ سير حذاءٍ (راجع يوحنّا ١ : ٢٧)، فلم يتزعزع، بل بقي ثابتًا لكي يُصغي إلى الختن ويفرح لصوت الختن (يوحنّا ٣: ٢٩)، لا لصوتِه هو، لئلّا يعلق بقدم الكبرياء، فيتزعزع وينتكس ولا يستطيع القيام.

١٩ - إذا كان الجهد الذي بذلناه لكي نشرح لكم هذا المزمور قد تسبّب لكثيرين منكم بشيءٍ من الملل؛ فإنّ الإنتهاء من المزمور يُنهي الملل، ولم يبقَ سوى أن نهنّئ أنفُسنا بأنّنا أنهينا شرحه بالكامل. عندما بلغت نِصفَه، راودتني فكرة التوقّف لئلّا أرهقَكم، غير أنّي فكّرتُ بأنّ انتباهكم إلى شرح النصف الثاني سيكون أقّل ممّا لو شرحتُ المزمور بكامله. فآثرت إنهاء الشرح على حساب تعبِكم. فضلًا عن أنّ علي أن أكلّمكم غدًا؛ فصلّوا لأجلي لكي أتمكّن من مواصلة عملي، وعودوا بعطشٍ ملتهب وقلوبٍ مضطرمة.

عظة أولى في المزمور السادس والثلاثين(١)

ألقيت هذه العظة والعظتان اللتان تليانِها في قرطاجة

الدينونة

يبدأ عرض المزمور على أثر قراءة إنجيل الدينونة الأخيرة. نحن نجهل يوم الدينونة، لأنّ في جهله فائدة لنا، لكي نكون مستعدّين على الدوام. في تنوع ظروف الحياة، واحدٌ يُختارُ للسماء، وآخرُ للنار. واليوم، يختلط الأخيار مع الأشرار فلا يُميَّزون. الأخيارُ يرجون الله، وثباتُهم في الرجاء يؤهّلهم للمجد الإلهيّ. فلنكن، إذًا، خاضعين لله. أمّا الأشرار فينعمون بالرخاء، لكن في سُبُلِهم هم فقط؛ فيما البارّ يتألّم، لكن في سبل الله الذي لم يعِدْ، في هذه الحياة، ألّا بمصيرٍ يُشبه مصير يسوع المسيح. سعادة الشرّير لا تدوم إلّا في هذه الحياة، وهي قصيرة جدًّا، ولا موضع له إلّا حيث القشّ، في التنّور. لكنّ البارّ يملك أرض الأحياء.

١ - إنّ الذين لا يسعون إلى عيش حياةٍ مقدّسة آمنة، ويريدون أن تطول أيّام فسادِهم، تداخلهم رهبة عظيمة لدى سماعهم كلامًا عن يوم

---

(١) لا يسعنا إلّا نذكر هنا مدى تأثّر القدّيس فولجانْس القرطاجيّ St Fulgence (٤٦٢-٥٣٣) بشرح القديس أوغسطينُس للمزمور السادس والثلاثين واغتذائه منه، ما حمله على ترك ثوب العالم والالتحاق بالدير. في العام ٥٠٨ سيم مطرانًا على روسب Ruspe (اليوم: هنشير سبيا في تونس).

الدين الأخير. ولنا فائدة في أن يكتم الله عنّا زمن مجيئِه، لكي يبقى قلبنا مستعدًّا على الدوام بانتظار حلولِ ذاك اليوم الآتي، لا محالة، حتّى ولو كنّا نجهل متى سيأتي. لكن، إذا كان ربّنا يسوع المسيح الذي أُرسِل ليُخبِرَنا، قال إنّ ابن الإنسان نفسه لا يعرف متى يكون ذلك اليوم (راجع مرقس ١٣ : ٣٢)، فذاك لأنّه لم يكن من ضمن رسالتِه كربٍّ ومعلّم أن يُخبِرَنا به. والحال فإنّ الآب لا يعلم شيئًا إلّا ويعلمه الإبن أيضًا، لأنّ عِلمَ الآب هو حكمة الآب، وحكمة الآب هي ابنُ الآب وكلمتُه. وبما أنّه لم يكن من فائدة لنا في معرفة ما يعرفه من جاء ليُعلّمنا، لكن لا ليُعلّمنا ما لا نفع لنا في معرفتِه، فإنّه لم يعلّمنا فقط بعض المعارف كمعلِّم، بل كمعلّم أيضًا، حجب عنّا معارف أخرى. وهو، كمعلّم، كان يعرف أن يُعلّمناً ما ينبغي أن نعرفَه، وأن يحجب عنّا ما يضرّنا. وما القول بأنّ الابن يجهل ما لا يُعلّمُه سوى طريقة للتعبير تعني أنّه يُريد لنا أن نجهَلَه؛ وتلك لغةٌ مألوفة نستعملها كلّ يوم. والحال، فإنّنا ندعو يومًا فرِحًا، اليوم الذي يوفّر لنا الفرح؛ ويومًا حزينًا اليوم الذي يحمل إلينا الغمّ. وفي معنى معاكس قال الربّ: «الآن علمتُ». قال لإبراهيم: «الآن علمتُ أنّك تخاف الربّ» (تكوين ٢٢ : ١٢). على أنّ الله كان يعلم ذلك قبل أن يأتيه البرهان. ذاك أنّ البرهان أُعطِيَ لكي يجعلَنا نعرف ما كان الله يعرفه؛ وكُتِبَ لكي نعلم ما كان يعلمه الله، قبل أن يحصل ما حصل. وربّما لم يكن إبراهيم، هو أيضًا، عارفًا بقوّة إيمانِه، لأنّ ما من أحدٍ يعرف نفسَه قبل أن يُختبَر. وهكذا، كان بطرس يجهل قوّة إيمانِه عندما قال للربّ: «أنا معك حتّى الموت» (لوقا ٢٢ : ٣٣). غير أنّ الربّ الذي كان يعلم، أنبأه كيف سيسقط، كاشفًا له ضعفَه، كمن مسّ بإصبعِه وريد قلبِه. وهكذا تعلّم بطرسُ المعتدّ بنفسِه، قبل التجربة، أن يعرف، بالتجربة، قدر نفسِه. بهذا

المعنى، لنا الحق في أن نعتقد بأنّ إبراهيم عرف قوّة إيمانِه، عندما أطاع أمر الربّ بذبحِ ابنه الوحيد، فقرّبه، بلا تردُّد ولا وجل، لمن وهبَه إيّاه؛ وكما أنّه لم يكن يعرف، قبل ولادة الصبيّ، كيف يستطيع الله أن يهبَه صبيًّا، كذلك آمن أنّ بوسع الله أن يُحييَه بعد تقديمه ذبيحةً له. إذًا، قال الربّ: «الآن عرفتُ»، أي اليوم عرّفتُك، عملًا بطرق التعبير التي سبق أن كلّمتكم عنها، كاليوم الفارِح لكونِه يُفرحنا، والحزين لأنّه يُحزِننا، والبارد لأنّنا نشعر فيه بالبرد؛ كذلك فإنّ المعرفة تعني أنّ هناك من يُعرِّف. كذاك هي حال هذه العبارة: «الربّ إلهكم يمتحنكم ليعلم إن كنتم تُحبّونه» (تثنية ١٣ : ٣). أفننسب الجهل إلى الربّ إلهنا، الإله المتعالي، والإله الحقّ؟ إنّه لتجديفٌ أن نفهم أنّ الله يمتحننا لكي يعلم، كما لو انّ الإمتحان هو الذي يُعلّمُه ما كان يجهل. فما هو، إذًا، معنى: «يمتحنكم ليعلَم»؟ – معناه: «يمتحنكم لكي تعلموا». في مثل هذه الحال، تقضي القاعدة بأن نفهم الكلام على عكس حرفيّتِه. فعندما تسمعون الله يقول: «فهمتُ» إعرفوا أنّه يعني: «جعلتكم تفهمون». كذلك عندما يقول الإنجيل إنّ ابن الإنسان، أي المسيح، لا يعلم ذلك اليوم، إفهموا أنّه يريد أن يُبقيه مجهولًا. لكن كيف يُبقيه مجهولًا؟ – يكتمه عنّا لئلّا نعرف ما لا نفع لنا في معرفتِه. وهكذا، كما سبق أن قلت، يعرف المعلّم اللبيب ماذا يُعلّم وماذا يكتم. كما أنّنا قرأنا في الإنجيل أنّه أرجأ تعليم بعض الأمور. وهذا يُعلّمنا أنّه من غير المفيد أن نقول الحقائق كلّها للذين لا يقوَون على فهمِها. يقول لنا المسيح: «لدي بعدُ أشياء كثيرة لأقولَها لكم، لكنّكم لا تُطيقون فهمَها الآن» (يوحنّا ١٦ : ١٢). ويقول القدّيس بولس: «لم أستطع أن أكلّمكم كروحيّين، بل كجسديّين، كأطفالٍ في المسيح. غذوتكم باللبن لا باللحم القاسي، لأنّكم لم تكونوا تستطيعون ذلك، ولا الآن أيضًا

تستطيعون» (١ قورنتس ٣: ١، ٢). ما الغاية من هذا الكلام كلّه؟ أن يُفهمَنا أنّنا إذا كنّا نعرف أنّ يوم الدين آتٍ، وأنّ لنا في معرفته وفي جهل موعدِه فائدةً، فلكي نحيا حياةً طاهرة، ونُبقي قلبَنا مستعدًّا، بحيث لا نخشى قدومَه، بل نذهَب إلى حدّ ابتغائِه. لأنّه إذا كان اليوم الأخير يزيد معاناة الكفَرة، فإنّه يضع حدًّا لمعاناة المؤمنين. وقبل أن يأتي ذلك اليوم، بوسعكم أن تختاروا أن تكونوا كفرة أو مؤمنين؛ لأنّه عندما يأتي، يكون قد فات الأوان. فاختاروا قبل فوات الأوان: وليُرجئ الله بالرحمة ما يكتمه عنكم بالرحمة.

٢ - لكن، بما أنّه، في كلّ نمط عيشٍ نحياه، ليس الكلّ بمختارين، ولا الكلّ بمرذولين، فبوسعنا أن نُدرِك، بسهولة، أن يكون ربّنا قد خلُص إلى القول عن جميع أصناف البشر الذين سمعنا الإنجيل يُشير إليهم، للوقت، بالأمثال: «يؤخَذُ الواحد ويُترك الآخر» (متّى ٢٤: ٤٠). يؤخذ البارّ ويُترك المنافق. ترَون رجلين في حقل، كلاهما يعملان العمل نفسَه، أمّا القلب فمختلِف. الناس يرَون الأعمال، أمّا الله فيرى القلب. خذوا الحقل بالمعنى الذي تريدونه: «يؤخذ الواحد ويُترَك الآخر». هذا لا يعني أنّ الله يأخذ نصف الناس ويترك النصف الآخر، بل أنّ هناك صنفَين من الناس. سواءٌ أكانوا قلّة في صنف، أو كثرة في الصنف الآخر، فإنّ «الواحد يؤخذ والآخر يُترَك»، أي أنّ صنفًا من الناس يؤخَذ، وصنفًا يُترَك. والأمر نفسُه يجري على مثل المرأتَين اللتين تطحنان، وعلى مثل النائم الذي يُطبِق عليه السارق، وعلى سواهما (متّى ٢٤: ٤٠-٤٤). لعلّكم تنتظرون أن أشرح لكم معنى هذه الكلمات، لأنّها تبدو خافيةً عليكم ويكتنفها الغموض. بوسعي أن أرى فيها شيئًا، وبوسع آخر أن يرى فيها شيئًا آخر؛ لكنّني لا أمنع أحدًا من البحث عن معنًى أفضل من الذي أراه، كما لن يمنعني أحدٌ من الأخذ

برأيه، إذا كان الرأيان يتوافقان مع الإيمان. يبدو لي أنّ الذين يعملون في الحقل يمثّلون رؤساء الكنائس، بحسب قول الرسول: «أنتُم حَرثُ الله وبِناء الله» (١ قورنتس ٣: ٩). لأنّ الرسول يدعو نفسَه بنَّاءً حين يقول: «أنا كبنّاءٍ حكيم وضعتُ الأساس» (١ قورنتس ٣: ١٠)، ثم يدعو نفسهُ حارثًا فيقول: «أنا غرست وأبُلّس سقى، لكنّ الله هو الذي أنمى» (١ قورنتس ٣: ٦). ومن جهة أخرى، تكلّم الربّ عن امرأتَين في طاحون، لا عن رجُلَين (متّى ٢٤: ٤١). أظنّ أنّ هذه الصورة تمثّل الشعوب الخاضعة للقادة الذين يحكمونها. والطاحونة، برأيي، ترمز إلى هذا العالم الذي يدور، إن صحّ القول، على عجلة الزمن، ويطحن الذين يتعلّقون به. إذًا، من البشر من يعيشون وسط مغريات العالَم؛ بعضهم يأتون أعمالًا صالحة، وبعضهم يأتون أعمالًا سيّئة؛ منهم من يصنعون لهم، بمال الظلم، أصدقاء يقبلونهم في المظالّ الأبديّة (راجع لوقا ١٦: ٩)، وعنهم قيل: «جعتُ فأطعمتموني» (متّى ٢٥: ٣٥)؛ وآخرون يُهملون تلك الأعمال المقدّسة، فيُقال لهم: «جُعتُ فلم تُطعموني» (متّى ٢٥: ٤٢). لذلك، ولمّا كان بعض الذين يهتمّون بأعمال البشر وشؤونِهم، يُحبّون أن يُحسنوا إلى البائسين، فيما لا يُبالي بهم آخرون، فإنّ حالَهم ستكون كحال امرأتَي الطاحون، فتؤخَذ الواحدة وتُترَك الأخرى. أمّا النوم فأظنّ أنّه يرمز إلى الراحة. ذاك أنّ في الناس من لا يرغبون، لا في الإنخراط في العالم، كالمتزوّجين، وأصحاب القصور والخدم، ومن لهم أولاد؛ ولا في أداء وظيفةٍ في الكنيسة كالرؤساء الذين يعملون بشكلٍ من الأشكال في حراثة حقل الربّ. يحسبون أنّهم أوهن من أن يحملوا مثل هذه الأحمال، فيطلبون الراحة ولا يفكّرون إلّا في ضعفِهم، ولا يتصدّون لأعمال جليلة، مكتفين بالصلاة إلى الله مثل عاجزٍ طريح الفراش. حتّى في هذه

الحالة، بعضُهم صادقون وبعضهم مراؤون. ومن هؤلاء أيضًا، «يُؤخَذ الواحد ويُترَك الآخر». أيًا تكن الحالة التي تواجهها، هيِّئ نفسَك لتجد فيها مرائين. لأنّك إن لم تكن مستعدًّا لها، فإنّك ستجد فيها ما لم تكن تتوقّعه فتسقط وتضطرِب. إذًا، الذي يُكلّمك يُعِدّك لكلّ شيء، ما دام الكلام متاحًا له قبل أن يدين، وما دام السماع متاحًا لك قبل أن تغرق في ندامة باطلة. الآن، لن تكون ندامتك باطلة، أمّا يومَها، فباطلًا تتوب. يومها سيشعر الخطأة بالندامة لأنّهم عاشوا في الفساد؛ غير أنّ عدالة الله لن تردّ لهم، بأيّ شكل، ما يكونون قد بذّروه في آثامِهم. والحال، فإنّه يطيب لعدالة الله أن تُقيم اليوم رحمتَها، وفي اليوم الأخير دينونتَها. لذلك لا يصمت الله الآن. أفتدّعون أنّه يصمت؟ فليشْكُهُ كلّ واحدٍ علنًا أو فليهمسْ عليه سرًّا، إذا كان الكتاب المقدّس لا يُبشَّر به ولا يُنشَد في العالم كلّه، وحتّى إذا كان لا يُعرض للشارين في كلّ آن.

٣ - ولا شكّ في أنّ الذي يُقلِقك، أيّها المسيحيّ، هو أنّك ترى الذين يعيشون في الفساد، ينعمون في وفرةٍ من الخيور الأرضيّة، ويتمتّعون بالصحة، ويتبوّأون المراكز العالية، ويفرحون بامتلاك البيوت والأولاد، وباحترام الناس، وبسلطة القرار، من دون أن يُنغِّص حياتهم أيّ كدَر. ترى أخلاقَهم المقيتة، وترى غناهم الفاحش، فتقول في نفسِك إنّه لا وجود لعدالةٍ إلهيّة، وإنّ كلّ شيءٍ يسير كيفما اتّفق، ويميل كما تميل رياح الصِدفة. تقول: إذا كان الله يهتمّ لأمور العالَم، فهل كان ذاك الشرّير ليتألّق ويُشرِق، فيما أنا البارَّ أرزح في البؤس؟ كلُّ أمراض الروح تجد علاجَها في الكتب المقدّسة. إذًا، فليتجرّع المريض الذي يدفعه مرضه إلى هذا الخطاب، الجرعة الخلاصيّة من مضمون هذا المزمور. ما هي تلك الجرعة؟ هل علينا أن ندقّق مجدّدًا في شكواك؟ تُجيبُني: ما الذي قلتُه ولم تَره أنت نفسُك؟ الأشرار في نعيم

والأخيار يشقَون، فبأيّ عينٍ يرى الله هذه الأمور؟ خُذِ الجرعة واشرب. فالنبيّ أعدّ هذا الشراب دواءً لشكواك. لا ترفض تلك الكأس، فإنّ فيها الشفاء؛ إفتح بأُذنِك فم قلبِك، واشرب ما تسمعه. «لا تَغَر من نعمة الأشرار ولا تغبط فاعلي الإثم، فإنّهم ييبسون سريعًا كالقشّ، ويذبلون كعشب البراري» (٣٦: ١، ٢). قصيرٌ في عينَي الله ما تراه أنت طويلًا. إخضَع لله، يقصرْ لك الزمن. ما القشُّ سوى عشب الحقول. إنّه لنبت حقير ذاك الذي يُغطّي وجه الأرض وليس له جذور عميقة. يخضرُّ ما دام الجوّ باردًا، ولا يلبث أن يذبل ما إن تلوح حرارة الشمس. نحن اليوم في الشتاء، ومجدُك لم يظهَر بعد. لكن، إذا كانت جذورٌ المحبّة عميقة في قلبِك، كما هي حالُ معظم الأشجار في الشتاء، فمتى انقضى البرد وأتى الصيف، أي يوم الدينونة، ييبس العشب الأخضر، ويرتدي الشجر ثوب المجد. «لقد مُتّم»، يقول الرسول (قولوسّي ٣: ٣)، مثل تلك الأشجار التي تبدو في الشتاء يابسة كأنّها ميتةً. فأيّ رجاءٍ لنا إن كنّا قد مُتنا؟ - إنّ لنا أصلًا في الداخل، وحيث أصلنا هناك حياتنا لأنّ هناك محبّتنا؛ يقول الرسول: «حياتكم مستترة مع المسيح في الله» (قولوسّي ٣: ٣). فكيف ييبس من له تلك الأصول؟ لكن، متى يأتي ربيعُنا؟ ومتى يأتي صيفنا؟ متى نلبس جمال أوراقِنا، ونزدان بوفرة ثمارنا؟ متى يكون ذلك الزمان؟ - «متى ظهر المسيح الذي هو مجدُكم، أنتم أيضًا تظهرون معه في المجد» (قولوسّي ٣: ٤). فماذا نصنع الآن؟ - «لا تغاروا من مجد الأشرار، ولا تغبطوا صانعي الإثم، فإنّهم ييبسون سريعًا كالقشّ ويذبلون كعشب البراري».

٤ - وأنت، ماذا ينبغي أن تفعل؟ «أرجُ الربَّ» (٣٦: ٣). أولئكَ يرجون، لكنّهم لا يرجون الله. رجاؤهم عابر، رجاؤهم هشٌّ فانٍ، يتبخّر وينقضي ويزول. «أرجُ الربّ». ها أنذا أرجو، فماذا أصنع الآن؟

- «إصنع الخير»، وانبذ الشرّ الذي تراه مزدهرًا في المنافقين؛ «إصنع الخير واسكن الأرض». لا تصنع الخير خارجًا عن الأرض التي تسكنها، لأنّ ارض الربّ هي كنيسته، وهي التي يسقيها ويحرثها الآب كرّامُها (راجع يوحنّا ١٥: ١). كثيرون يصنعون، في الظاهر، أعمالًا صالحة؛ لكن، لأنّهم لا يسكنون الأرض الحقيقيّة، فإنّهم لا ينتمون إلى الكرّام السماوي. فاصنع الخير واسكن الأرض، لا خارج الأرض. وماذا أجني منها؟ - تُشبَع من ثرواتها. ما هي ثروات تلك الأرض؟ - الربّ ثروتها؛ وغناها في إلهِها؛ وله يقول النبيّ: «يا ربّ أنت نصيبي» (راجع مزمور ١١٨: ٥٧)؛ وعنه قيل: «الربّ قسمة ميراثي وكأسي» (مزمور ١٥: ٥). في شرح مزمورٍ سابق[٢]، بيّنّا لمحبّتكم أنّ الربّ هو ميراثُنا، وأنّنا ميراث الله. فاسمعوا النبيّ يقول إنّ الله نفسه هو ثروة الأرض، فيُضيف: «تلذّذ بالربّ». وكما لو كنت تسأله وتقول له: «أرِني ثروات الأرض التي يُريدني أن أسكنَها»، فيُجيبُك: «تلذّذْ بالربّ فيُعطيك سؤلَ قلبِك» (٣٦: ٤).

٥ - إفهم جيّدًا معنى هذه الكلمات: «يُعطيك سؤل قلبِك»: ميِّزْ سؤل قلبِك عن سؤل الجسد. إجتهد لكي تميّزَه. فالنبيّ لم يقُل، من دون وجه حقّ، في مزمورٍ آخر: «أنت إله قلبي، أنت يا ألله نصيبي إلى الأبد» (٧٢: ٢٦). أفهم، مثلًا، أن يسألَ اللهَ أعمى أن يعود فيُبصِر. فليسأله تلك النعمة، لأنّ الله هو الذي يمنح نعمة البصر. لكنّ الأشرار أيضًا يسألون الله مثلها. إنّما هذا سؤلُ جسد. مريضٌ يسأل الله الشفاء، فينالُه: كان مدنِفًا فنال الشفاء. وهذا أيضًا سؤلُ جسد؛ ومثلُه كثيرٌ من الطلبات المشابهة. لكن، ما هو سؤلُ القلب؟ - كما أنّ طلب استعادة

(٢) العظة في المزمور الثاني والثلاثين التي ألقيت في كنيسة القدّيس قبريانُس في قرطاجة.

البصر سؤلٌ للجسد لكي تتمتّع أعين جسدنا بالنور، كذلك يطمح سؤل القلب إلى نورٍ آخر: «طوبى لأنقياء القلوب، فإنّهم يُعاينون الله» (متّى ٥ : ٨). «تلذّذ بالربّ فيُعطيك سؤلَ قلبِك».

٦ - ها أنا أشتهي، وها أنا أسأل، وها أنا أريدُ، فهل أستطيع أنا أن ألبّي رغبتي؟ قطعًا لا. فمن إذًا؟ «أَظهِرْ للربّ طُرُقَك وتوكّل عليه، وهو يفعل» (٣٦: ٥) أكشف له ما يُكدّرك، واكشف له ما تشتهيه. فما الذي يكدِّرك؟ «الجسد يشتهي ما يُناقض الروح، والروح يشتهي ما يناقض الجسد» (غلاطية ٥: ١٧). ماذا تريدُ إذًا؟ - «ويلٌ لي أنا الإنسان! من يُنقذني من جسد الموت هذا؟». ولكي تعرف أنّ الله نفسَه هو الذي يفعل عندما تكشف له طرُقَك، فاسمع الجواب: - «نعمة الله بيسوع المسيح ربّنا» (رومة ٧: ٢٤). يقولُ النبيّ: «أَظهِرْ للربّ طُرُقَك وهو يفعل»؟ ماذا يفعل؟ - «يُطلقُ كالنور بِرَّك» (٣٦: ٦). اليوم، بِرّك مُستتِر؛ أنت بارٌّ لأنّك تؤمن، لا لأنّك ترى. تؤمن، وإيمانُك يدفعك إلى العمل، لكنّك لست ترى، بعدُ، ما تؤمن به. وعندما تبدأ فترى ما تؤمن به، يُشرِق كالنور بِرُّك، لأنّ برّك كان إيمانِك (حبقوق ٢: ٤)، لأنّ «البارّ بالإيمان يحيا» (رومة ١: ١٧).

٧ - «يُطلق كالنور برَّك، وكشمس الظهيرة قضاءَك» (٣٦: ٦). أي كالنور في ذروتِه. كما لو رأى قليلًا أن يقول: «كالنور». والحال، فإنّنا ندعو نورًا ضوءَ الفجر؛ كما ندعو نورًا ضوء الشمس عند طلوعِها؛ لكن لا يكون النور في ذروة إشراقِه إلّا عند الظهيرة. لا يُشرِق الربُّ بِرّك مثل النور فحسب، بل كشمس الظهيرة يسطع قضاؤك». أنت الآن ترى بأنّ عليك أن تتبع المسيح: أنت صمّمت، وأنت اخترت، فكان هذا قضاءَك. ولم يُطلِعك أحدٌ على ما وعدَك به. لديك الآن وعد وتنتظر أن يتحقّق. أنت اخترتَ ما قضى به إيمانُك، فقرّرت أن تتّبع ما لا ترى. ما

زال قضاؤك بلا عقابٍ واضح؛ وما زال الكافرون يُعيّرونك عليه ويهزأون بك. يقولون لك: بماذا آمنت؟ بِمَ وعدَك المسيح؟ بأن يهبَك الخلود، والحياة الأبديّة؟ أين هي تلك الحياة؟ متى يُعطيكَها؟ متى يُصبح ذلك ممكنًا؟ أمّا أنت، فتقضي بأنّه خيرٌ لك أن تتبع المسيح الذي يعدك بما لا تراه، من أن تتبع المنافق الذي يُعيّرك لأنّك تؤمن بما لا تراه. ذاك هو قضاؤك؛ لكنّ قيمة قضائِك العالية لم تظهر بعدُ. العالَم مظلمٌ كالليل. فمتى يُشرِقُ الربّ كشمس الظهيرة قضاءَك؟ - «متى ظهر المسيح الذي هو حياتُكم، أنتم أيضًا تظهرون معه في المجد» (قولوسّي ٣: ٤). فماذا سيحدث في يوم الدين، عندما يأتي المسيح، ويجمع كلّ الأمم أمام منبرِ قضائِه؟ أين يستر المنافق مكرَه، عندما أعاين من به أؤمن؟ لكن ما هو نصيبي اليوم؟ - الهموم والشدائد والمحَن. فطوبى لمن يثبت: «لأنّ من يثبت إلى المنتهى يخلُص» (متّى ٢٤: ١٣). لا يستسلمَنَّ البارّ لمعيّريه، ولا يسعَ إلى مجد هذه الدنيا، ولا يتحوَّلْ من شجرة خَضِرَة إلى عشبٍ يابس.

٨ - فماذا عليّ أن أفعل؟ - «أطِعِ الربّ وادعُ جودتَه» (٣٦: ٧). لتكنْ حياتُك فعل خضوعٍ لوصاياه. بهذا تُطيعُه وتدعوه، بإلحاح، ليُعطيك ما وعد به. لتكُن أعمالُك الصالحة متواصلة، وثابر على الصلاة، «لأنّه ينبغي أن تُصلّوا في كلّ حينٍ، وألّا تكفّوا عن الصلاة» (لوقا ١٨: ١). كيف تُظهر خضوعَك لله؟ إعمَل ما أوصى به. لكنّك لا تنال أجر عملِك، لأنّك ربّما لا تزال غير قادر على القيام به. بوسع الله أن يُعطيك الأجر، لكن لا يسعك أن تنالَه. تمرّس على الأعمال الصالحة، واعمل في كرم الربّ؛ وطالب بأجرك في آخر النهار، لأنّ الذي أرسلك إلى كرمِه أمين في وعودِه (راجع متّى ٢٠: ٨). «أطِعِ الربّ وادعُه بلا كلل».

٩ - ها إنّي أطيع الربّ وأدعوه، فماذا أنال؟ لي جارٌ مراوغ يعيش في الإثم، وينعم بفيض الخيور؛ أعرف أنّه لصٌّ وفاسقٌ ومختلِس؛ أعرف كبرياءه وتعاليه، وفي نشوة نفاقِه، لا يتنازل وينظر إليّ: فكيف أطيق كلّ هذا؟ - إن كنت تفكّر على هذا النحو، فأنت مريض؛ خذ الجرعة التي تشفيك: «لا تغَر من الناجح في طرُقِه». إنّه ناجح، لكن في طرُقِه؛ وأنت مُعنّى، لكن في طريق الله. سعادتُه في طريقه، وشقاؤه عند الوصول؛ أمّا أنت فشقاؤك في طريقك وسعادتك عند الوصول، لأنّ طريق المنافقين إلى هلاك. «فإنّ الربّ عالمٌ بطريق الصدّيق، أمّا طريق المنافق فتهلك» (مزمور ١: ٦). أنت تسير على الطرق التي يعرفُها الربّ: تَعنى فيها، لكنّك لا تضلّ. أمّا طريق المنافق فسعادة عابرة. في نهايتها نهاية السعادة. لماذا؟ - لأنّ تلك الطريق هي الطريق الرحبة التي تؤدّي إلى أعماق الجحيم. أمّا طريقك فهي الطريق الضيّقة، وقليلون هم السالكون فيها (راجع متّى ٧: ١٣، ١٤). أنظر إلى طريق المنافقين، وإلى أي غمرٍ سحيقٍ تودي بهم. «لا تغَر من الناجح في طرُقِه، واكتم غضبك ولا تسخَط على رجُل النفاق» (٣٦: ٧، ٨). ولِمَ تغضب؟ ولِمَ يودي بك الغضب والسخط إلى التجديف، أو الشتيمة؟ أكتم غضبك على رجلِ الظُلم، ودَع السُّخط. أتجهل إلى أين يودي بك الغضب؟ سيدفعك إلى القول بأنّ الله ظالم. أنظر إلامَ يدفعك الغضب. أنظر إلامَ يؤدّي إليه تساؤلُك عن سبب سعادة هذا الرجل وشقاء ذاك؟ فاخنق هذه الفكرة السيّئة في مهدِها. «أكتم غضبك ودَعْ سُخطَك»، لكي يقودك الندم إلى القول: «ذبُلت من الكرب عيني» (مزمور ٦: ٨). وأيّ عينٍ سوى عين الإيمان؟ وإنّي أسأل عين إيمانِك: أتؤمنين بيسوع المسيح، ولماذا تؤمنين؟ بِمَ وعدَكِ؟ إذا كان يسوع المسيح قد وعدكِ بالسعادة في هذا العالَم، فانفُثي على المسيح؛

أجل، أنفُشي متى رأيتِ المنافق سعيدًا. بأيّ سعادةٍ وعدَكِ؟ أليست قيامة الأموات هي السعادة التي وعدَكِ بها؟ لكن، بمَ وعدَكِ في هذه الحياة؟ - بالمصير الذي لاقاه هو؛ أجل، بالمصير الذي لاقاه هو نفسُه. أفتزدري أنت أيّها العبد، وأنت أيّها التلميذ، مصيرًا لاقاه ربّك ومعلّمك؟ ألم تسمعه يقول لك: «ليس عبدٌ أعظمَ من سيّدِه ولا تلميذ أعظمَ من معلّمه»؟ (يوحنّا ١٣: ١٦). لأجلك عانى الآلام والجَلْدَ والشتم والصلب والموت. فأيًّا من تلك العذابات استحقّ ذاك الصدّيق؟ وأيًّا منها لم تكن تستحقّ أنت الخاطئ؟ ثبّت عينك على الصراط القويم، ولا تدعِ الغضب يُكدّرُها. «أكتم غضبك، ودعْ سخطك. أقصِ الغيرة التي تدفعك إلى الإثم»، ولا تقتدِ بالمنافق الذي يرتع في فيضٍ من الخيور. «أقصِ الغيرة التي تدفعك إلى الإثم، فإنّ الأشرار يُستأصلون» (٣٦: ٨، ٩). لكنّي شاهدٌ على سعادتِهم. بل آمن بالذي قال إنّهم سيُستأصلون، لأنّه يرى أفضل منك، والغضب لا يُكدّر عينَه. «الأشرارُ يُستأصَلون، أمّا الذين يرجون الربّ...» آمن بالحقيقة بذاتِها، لا بالإنسان الخدّاع، آمن الله القدير، لا بالإنسان الضعيف؛ «أمّا الذين يرجون الربّ، فإنّهم يرثون الأرض» (٣٦: ٩). وأيّة أرض سوى تلك الـ«أورشليم» التي ستكون مسكن سلامٍ للذين تُلهِب أشواقهم تلك المدينة الخالدة؟

١٠ - لكن، حتّامَ يفلح المنافق؟ حتّامَ أنتظِر؟ - لن يطول انتظارُك؛ قصيرٌ هو الوقت الذي يبدو لك طويلًا. ضعفك هو الذي يجعلك ترى القريب بعيد المنال. كيف نعمل لتلبية طلبات مريض؟ في عطشِه، ليس أطول عنده من وقت تحضير شرابِه. ينهمك ذووه في تحضيرِه لئلّا يفقد المريضُ صبرَه. متى تصنعون شرابي؟ متى يجهَز؟ متى تُقدّمونه لي؟ - ما أسرَع ما يخدمونَك! لكنّ مرضَك هو الذي

يجعلُك ترى بطيئًا ما حُضِّر بسرعة فائقة. فانظروا إلى طبيبَنا كيف يُداوي قلّة صبر مريضٍ يصرخ: إلى متى أصبِر؟ حتّامَ يطول انتظاري؟ - «عمّا قليل لا يكون المنافق» (٣٦: ١٠). صحيحٌ أنّك تنتحب وسط المنافقين، لأنّك بسبب المنافقين تنتحب: «عمّا قليل لا يكون المنافق». فإذا كان النبيّ قال لك: «أمّا الذين يرجون الربّ فإنّهم يرثون الأرض»، فاحترز ألّا تظنّ أنّ ذاك الإنتظار سيطول؛ إنتظر بعدُ قليلًا، ترثْ إلى الأبد ما انتظرتَه طويلًا. إصبر لوقتٍ، فالوقت لن يطول. عُدَّ السنين من آدم إلى اليوم؛ تصفّح الكتُب: لكأنّه أمسِ طُرد من الفردَوس (تكوين ٣: ٢٣)، ومع ذلك كم من أجيالٍ مرّت وانقضت! فأين هي السنون التي انقضت؟ هكذا سينقضي الزمن القصير الباقي لنا. حتّى ولو عشت منذ أن طُرِد آدم من الفردوس وإلى اليوم، ستكون قصيرة في عينيك حياةٌ تتبخّر بهذه السرعة. لكن، ما مدّة حياة الإنسان؟ زِد عليها ما طاب لك من السنين، وأطِل سنيّ الشيخوخة قدر ما تشاء، فإلامَ تطول؟ - أليست تمرّ كنسيم الصباح؟ فإذا اعتبرنا أنّه ربّما لا يزال بعيدًا يوم الدينونة الذي يُجازى فيه الأخيار والأشرار على أعمالِهم، فإنّ يومَك، بالتأكيد، لا يسعه أن يكون بعيدًا. فاستعدّ لهذا اليوم. لأنّك كما تخرج من هذه الحياة، تدخل الحياة الأخرى. بعد تلك الحياة القصيرة، لن تكون بعدُ قد بلغت حال القدّيسين عندما يقول لهم الربّ: «تعالَوا يا مبارَكي أبي، رِثوا الملك المُعدَّ لكم منذ إنشاء العالَم» (متّى ٢٥: ٣٤). من لا يعرف أنّك لم تبلُغَها بعدُ؟ لكن يمكن أن تكون في ذلك المكان الذي نظر منه ذاك الغني المتكبّر الشرّير، فرأى من بعيد، من وسط عذاباتِه، الفقير الذي كانت تملأه القروح، يتمتّع الآن بالراحة في حضن إبراهيم (راجع لوقا ١٦: ٢٣). عندما تبلغ مكان الراحة هذا، سوف تنتظر، بأمان، يومَ الدينونة، حين يُعادُ إليك جسدُك،

وتتبدّل لتُصبح مساويًا للملائكة. فما هي تلك المدّة التي تبدو لنا طويلةً جدًّا وتجعلنا نقول: متى يكون هذا؟ هل يطول بعدُ؟ وهذا ما سيقولُه أبناؤنا وأحفادُنا؛ وإذ لا يبرحون يتناسلون ويقولون هذا القول، فإنّ ما بقي، سوف ينقضي بالسرعة نفسِها التي انقضت فيها الأجيال الماضية. فيا أيّها الإنسان الضعيف! «عمّا قليل، لا يكون المنافق».

١١ - «تبحث عن مكانه فلا تجدُه» (٣٦: ١٠). يُبيّن النبيّ هنا ما سبق أن أعلنَه: «لا يكون المنافق». وهذا لا يعني أنّ المنافق سيزول من الوجود، بالمعنى الحرفيّ، لكن لن يكون له أيّ سلطان. والحال، فلو انّه زالَ كلّيًّا من الوجود، لزال عنه الألم؛ ولأصبح المنافق في أمانٍ تامّ، وتسنّى له أن يقول: «أفعل ما يحلو لي، ما حييت؛ وبعدَها لا أكون». ألن يبقى لكي يتألّم؟ ألن يبقى لكي يتعذّب؟ وإلّا فما معنى كلام الربّ: «إذهبوا عنّي إلى النار الأبديّة المعدّة لإبليس وملائكتِه»؟ (متّى ٢٥ : ٤١). ألعلّ الذين أُلقوا في تلك النار تأكلهم النار ولا يعود لهم وجود؟ وإلّا لَما قال لهم الربّ: «إذهبوا إلى النار الأبديّة»، إذ لا أبديّة لمن لم يعد له وجود. على أنّ الربّ لم يكتم عنّا ما ينتظرهم من آلام وعذابات فقال: «هناك يكون البكاء وصريف الأسنان» (متّى ٨: ١٢). فكيف يبكي ويصرف أسنانَه من لا وجود له؟ كيف ينبغي، إذًا، أن نفهم هذا القول: «عمّا قليل لا يكون المنافق»؟ - نفهمه بالمعنى الذي يُعطيه النبيّ نفسَه في الآية التي تلي: «تبحث عن مكانه فلا تجدُه». ما معنى «مكانه»؟ - أي «نفعه». وهل للمنافق نفعٌ في الدنيا؟ - نعم. يستخدمه الله ليمتحن به الصدّيق، كما استخدم إبليس ليمتحن أيّوب، وكما استخدم يوضاس ليخون يسوع. إذًا، للمنافق فائدة في هذه الحياة، وله في الدنيا مكانُه، كما للقشّ في فرن السبّاك. يحترق القشّ، ليُنقّى الذهب؛ كذلك المنافق يلتهب حقدًا ليُمتَحَن الصدّيق.

لكن، متى انقضى زمن امتحانِنا، ولم يعد ثمّةَ من بارٍّ ليُمتَحَن، لن يكون بعدُ منافقٌ ليمتحنه. فهل يعني هذا أنّه لن يعود للمنافق وجود؟ قطعًا لا. لكن، متى انتفت الحاجة إلى منافقين يُمتَحَن بهم الأخيار، «تبحث عن مكان المنافقين فلا تجدُهم». إبحث الآن عن مكان المنافق، وستجده. جعله الله سوطًا بيده، وأعطاه كرامةً وسلطانًا. هذا ما يصنعه الله أحيانًا. يهب المنافق سلطانًا ليؤدّب البشر بهذا السوط، ويُصلح الأتقياء. أمّا المنافق فينال ما يستحقّه؛ لكنّه يكون قد استُخدِم لنجاة البارّ وهلاك الآثم. «تبحث عن مكانه فلا تجدُه».

١٢ - «أمّا الودعاء فيرثون الأرض» (٣٦: ١١). تلك الأرض التي طال ما تحدّثنا عنها، هي أورشليم المقدّسة، التي ستُخلَّص من منفاها في هذه الدنيا، وتحيا إلى الأبد من الله وفي الله. إذًا، «إنّهم يرثون الأرض». وبمَ يتلذّذون؟ - «يتلذّذون بكثرة السلام». فليجعل المنافق سعادتَه في هذه الدنيا، في كثرة الذهب والفضّة، وفي كثرة ممتلكاتِه، وفي غنى منتجعاتِه[٣] وحدائق وروده، وفي السكر والشراهة وموائد البذخ والفسق والفجور. أتلك هي العظمة التي تشتهيها؟ أتلك هي الزهرة التي تستلذّها؟ ألا يبقى المنافق يشكو، حتّى في دوام نعمتِه؟ أمّا أنت، فبِمَ تتلذّذ؟ - «يتلذّذون بكثرة السلام». يكون السلام ذهبَك، والسلام فضّتَك، والسلام حقولَك، والسلام حياتَك، ويكون إلهُك سلامَك. وكلّ ما تبتغيه يصير سلامك. ما هو ذهبٌ في هذه الدنيا، لا يمكن أن يكون لك مالًا، ولا ما هو خمرٌ أن يكون لك خبزًا، ولا ما هو نورٌ أن يكون لك شرابًا؛ أمّا إذا كان الله لك، فكلّ شيء لك. يكون

(٣) في اللاتينيّة: baiarum؛ والكلمة مأخوذة من Baia مدينة في كامبانيا (بإيطاليا) شهيرة بمنتزهاتها البديعة ومسابح مياهها المعدنيّة التي كانت تمارس فيها كلّ أشكال المجون؛ وصارت تُطلَق على كلّ مكانٍ يُشبِهها.

خبزَك فلا تجوع، وماءَك فلا تعطش، ونورَك فلا تعمى، وعضدَك فلا تَهوي؛ يمتلكك الله بكلّيّتِك لأنّه هو الكلّ في الكلّ. هناك لن تُحشَرَ في مكانٍ ضيّق، مع من سيمتلكه مثلك بكلّيّتِه. ستمتلكه بكلّيّتِه، وآخر سيمتلكه مثلك بكلّيّتِه، لأنّك أنت والآخر ستكونان واحدًا فردًا يمتلكه مالك الكلّ بكلّيّتِه. «هذا ما يحفظه الله لرجُل السلام». لقد أنشدنا هذه الآية، وهي بلا شكّ، بعيدة في متن المزمور عن الآيات التي شرحناها[٤]. لكن، ما دمنا قد رنّمناها، فلنختُم بشرحِها. أمّا أنت، فكن في سلامٍ «وارعَ البراءة»، لأنّها كنزٌ ثمين. بك رغبةٌ في السرقة، فذاك، برأيي، لكي تغنى؛ لكن انظر أين تمدّ يدك وأين تسرق. فإذا كسبت بهذه الوسيلة، فأنت خاسر: تكسب المال، فتخسر براءتَك. ألا فليخرج قلبُك من ضلالِه. أنت يا من تكسب المال بثمن البراءة، خيرٌ لك أن تخسرَ المال. «إحفظ البراءة، وارعَ الاستقامة»؛ لأنّ الله هو الذي يُرشدك، لكي تريد ما يُريده هو، فتلك هي الاستقامة. لأنّك إن لم تُرِد ما يُريد، فأنت مُعوجٌّ، واعوجاجُك لا يسمح بأن تضبط سلوكَك على من هو الاستقامة بذاتِها. «إحفظ البراءة، وارعَ الاستقامة»؛ واحترز ألّا تظنّ أنّ نهاية هذه الحياة هي نهاية الإنسان الذي يموت؛ «فإنّ الله يُبقي لصاحب السلام عاقبة».

(٤) هي الآية ٢٧ من هذا المزمور: «إحفظ السلامة، وارعَ الاستقامة، فإنّ لصاحب السلام عاقبةً تبقى».

عظة ثانية في المزمور السادس والثلاثين

قوّة الصدّيق(١)

لا يستطيع الشرّير أن يؤذي أحدًا، وباضطهادِه الصدّيق، إنّما يؤذي نفسَه. يستخدمه الله لكي يمتحنَنا، ثمّ يُحطِّمُه إن لم يتُب. عندما يتألّم الصدّيق، يستمدّ قوّته من إيمانِه بالله، ومن رجائه بالميراث الأبديّ. وليس للشرّير سوى اليأس في شقائِه، وسعاده تتلاشى كالدخان. يُرشد الربّ خُطى الصدّيق الذي يتعزّى بتشبّهِه بيسوع المسيح. شهود الزور على يسوع المسيح هم جدود الدوناتيّين.

١ - أوصيت بأن أكلّم محبّتكم في هذا المزمور، وها أنذا أطيع. فلقد شاء الربّ، بفعل الأمطار الغزيرة أن يؤخِّر رحيلي، فأُوصيتُ بأن أخاطبَكم، وألّا يُخيِّبَكم لساني، فيما قلبي يهتمّ بكم، على الدوام، اهتمام قلوبِكم بي. سبق أن دعوناكم، في شرحنا لبداية المزمور، إلى فهم إرادة الله: ماذا يُعلّمنا، وأيّ مشورات يُعطينا، وممّا يُحذِّرنا، وماذا يُريدنا أن نحتمِل، وما الذي ينبغي أن نرجوه. ذاك أنّ صنفين من الناس، صدّيقين وخطأة، يعيشون في اختلاطٍ على الأرض. ولكلٍّ من هذين الصنفَين، في قلبِه، أهواؤه الخاصّة. الصدّيقون يسعَون إلى الرفعة بالتواضُع، إلى ما هو أسمى، والأشرار يجرفهم ثقل الكبرياء إلى

(١) يحثّ المؤمنين على مساعدة الأشرار، ويقدّم الحجج ضدّ الدوناتيّين، وضدّ بريميانُس بالتحديد.

الدنايا. أولئك يتواضعون ليرتفعوا، وهؤلاء يرتفعون ليسقطوا. لذلك يُعاني الصدّيقون، والأشرار يُسبّبون العناء؛ غاية الصديقين أن يربحوا الأشرار أنفسَهم للحياة الأبديّة؛ وغاية الأشرار أن يُجازوا الخير بالشرّ، وان يحرموا من الحياة الزمنيّة، إن استطاعوا، أولئك الذين يُريدون أن يوفِّروا لهم الحياة الأبديّة. ذاك أنّ الصديق عبءٌ على المنافق، كما أنّ المنافق عبءٌ على الصدّيق. كلٌّ منهما عبءٌ على الآخر. لا أحد يشكّ في أنّ كليهَما عبءٌ على الآخر، لكن بمعانٍ مختلفة. فإذا كان الصدّيق عبئًا على المنافق، فلأنّ المنافق يرغب في ألّا يبقى منافقًا، ليصير بارًّا، ويبذل الصدّيق بالقول والعمل، كلّ ما في وسعِه لاستمالة المنافق إلى البِرّ؛ أمّا المنافق فيجتهد ليجعل البارَّ آثمًا، إن استطاع؛ وإن لم يستطع، عمل على إزاحتِه والتخلّص من الإزعاج الذي يُسبّبه له. وإذا استطاع أن يستميله إلى الشرّ صار عبئًا عليه أكبر. لأنّ البارّ ليس وحدَه عبئًا على المنافق، بل إنّ منافقًا يشقّ عليه أن يُطيق منافقًا آخر؛ وإذا بدا أنّهما متحابّان، فذلك من قبيل المحاباة لا الصداقة. لا يتوافقان إلّا في التآمر على هلاك الصدّيق؛ لا لأنّهما متحابّان، بل لأنّ كليهما يكرهان من كان أحرى بهما أن يُحبّاه. والربّ إلهنا يوصينا بتحمّل هؤلاء الناس؛ وبمعاملتِهم بالمحبّة التي يُعلّمناها الإنجيل في وصيّة الربّ القائلة: «أحبّوا أعداءَكم، أحسنوا إلى مبغضيكم» (متّى ٥ : ٤٤). وهذا ما يوصي به الرسول أيضًا: «لا تدع الشرّ يغلبك، بل اغلب الشرّ بالخير» (رومة ١٢ : ٢١). قاتل الشرّير، لكن قاتله بالخير، لأنّ الصراع الحقيقيّ، أو بالأحرى الصراع الخلاصيّ، صراعُ صالحٍ ضدّ شرّير، لا صراعٌ بين شرّيرَين.

٢ - إذًا، ركّزوا انتباهكم على المزمور. سبق أن شرحنا القسم الأول، فإليكم التتمّة: «يرصد المنافق الصدّيق ويَحرُق عليه أسنانَه،

والسيّدُ يضحك منه» (٣٦: ١٢، ١٣). ممّن؟ - بالطبع، من المنافق الذي يَحرُق أسنانَه على الصدّيق. فلماذا يضحك السيّد منه؟ - لأنّه يرى «أنّ يومه آتٍ». يحتدّ المنافق حين يُهدّد البارّ، ولا يعلم ما يخبّئه له الغد. غير أنّ الربّ يرى، ويعلم أنّ يومَه آتٍ. أيّ يوم؟ - اليوم الذي يُجازي فيه كلّ واحدٍ على حسب أعمالِه (متّى ١٦: ٢٧). لأنّ المنافق يدّخِر كنوز غضبِه ليوم الغضب، ليوم دينونة الله العادلة (رومة ٢: ٥). الله يراه، وأنت لا تراه؛ والذي يراه أظهرَه لك. كنت تجهل اليوم الذي يُدان فيه المنافق؛ لكنّ الذي يعلمه لم يكتمْه عنك. إنّ اتّحادك بصاحب العلم يُغنيك بجزءٍ كبيرٍ من العلم. إنّ لله عينَ العلم، فلتكن لك أنت عينُ الإيمان. آمن بما يراه الله. فإنّ يومَ المنافق آتٍ، والله يراه. أي يوم؟ - يوم الإنتقام الكبير؛ يوم ينتقم الله من المنافق والظالم، سواءٌ اهتدى أم لم يهتدِ. فإن اهتدى، يكون الله قد انتقم منه بقتل الشرِّ فيه. ألم يسخر الله من يهوذا الذي خانَه، ومن شاول الذي اضطهَدَه؟ كان يرى ليوضاس يومَ العقاب، ولشاول يوم التبرير. إنتقم الله من كليهما، فألقى يوضاس في نار جهنّم، وصرع شاول بصوتٍ من السماء. وأنت أيضًا، يوم يجور عليك المنافق، أُنظر مع الله، بعين الإيمان، يومَه الآتي؛ وعند رؤيتِك حدّة غضبِه عليك، قلْ في نفسِك: إمّا أن يُصلح نفسَه ويكون معي، أو يستمرّ في شرّه وينفصل عنّي.

٣ - ماذا إذًا؟ أيؤذيك جورُ المنافق ولا يؤذيه؟ ذاك الجورُ الذي أنت ضحيّته، والناتج عن الحقد والغضب، ألم ينهشه من الداخل قبل أن يطالَك من خارج؟ جَورُه يقمع جسدَك، لكنّ آفة الإثم الآكلة تنهش روحَه. كلّ ما ينفثُه عليك، يرجع عليه. جورُه يُطهّركَ ويجعلُه مجرمًا. فإلى من يسيء أكثر؟ حقدُه عرّاك، فمن منكما أصابه الضرر الأعظم، خاسر ماله أم خاسر نفسِه؟ وحدهم الذين يُبصرون بعَينَي القلب،

يعرفون كيف يتحسّرون لخسارة النفس. والحال، فإنّ كثيرين يهتمّون لبريق الذهب، ولا يعنيهم بريق الإيمان. ذاك أنّ لهم عيونًا يرون فيها الذهب، وليس لهم عيونٌ يرون فيها الإيمان. فلو كان لهم عيونٌ يرَون فيها الإيمان لأحبّوه واعتنقوه؛ وعندما نتّهمهم بنقص الإيمان ينتفضون ويقولون: الإيمان! أين نجد الإيمان؟ تحبّ الإيمان لتنال ما هو حقٌّ لك، أحِبّه أيضًا لتؤدّي ما هو حقٌّ عليك. إذًا، كلّ الذين يضطهدون الصدّيقين يُعانون ضررًا أكبر، وتلحق بهم خسارة أعظم، لأنّهم يُهلكون نفوسَهم. وهذا ما تُبيّنه لنا كلمات المزمور التي تلي: «استلّ المنافقون سيوفَهم، وشدّوا قسيّهم ليصرعوا البائس والمسكين، ويذبحوا مستقيمي القلوب، فلتَجُزْ سيوفهم في قلوبِهِم» (٣٦: ١٤، ١٥). يسهل على الشرّير أن يطال جسدَك بسيفِه، مثلما طال سيف الجلّاد أعناق الشهداء؛ ضُرِب الجسد، لكنّ القلب لم يمسَّه أذًى؛ أمّا قلب السيّاف الذي ضرب جسد الصدّيق، فلم يسلَم. هذا ما يؤكّده المرنّم. لا يقول إنّ سيوفهم تجوز في أجسادِهم، بل قال: «فلتَجُزْ سيوفُهم في قلوبِهم». أرادوا أن يقتلوا جسد الصدّيق، فلتهلِك نفوسُهم. لهذا يُطمئن الربّ الذين كانوا يتعرّضون لقتل الجسد بقولِه: «لا تخافوا الذين يقتلون الجسد ولا يستطيعون أن يقتلوا النفس» (متّى ١٠: ٢٨). فما معنى أن تضرب بالسيف فلا تقوى إلّا على قتل جسد عدوّك، ومعه تقتل نفسَك؟ إنّهم لقومٌ مجانين: ينقضّون على أنفسِهم، وفي حمأة جنونِهم، لا يرَون أنفسَهم. يتصرّفون مثل إنسانٍ يُجيزُ سيفًا في جسده لكي يُمزِّق رداءَ آخر. أيها الغبيّ! إنّك تنظر إلى ما أردت أن تمزّقَه، لا إلى ما اخترقه سيفك. تمزّق رداءَ آخر فتُجيز السيف في جسدِك. واضحٌ، إذًا، أنّ الأشرار يؤذون أنفُسَهم فوق ما يظنّون أنّهم يؤذون أعداءَهم. إذًا، «فلتَجُزْ سيوفُهم في قلوبِهم». بذا قضى الربّ ولا مردَّ

لقضائه. «ولتنكسِر قسيُّهم». ما معنى: «ولتنكسِر قسيُّهم»؟ - أي فلينصبوا باطلًا شِباكَهم. سبق للنبيّ أن قال: «استلّ المنافقون سيوفَهم، وشدّوا قسيّهم». يبدو أنّه أراد أن يرمز بالسيف المسلول إلى الهجوم المفتوح؛ وبالقوس المشدود إلى الشِباك الخفيّة. فها إنّ المنافق يهلك بسيفِه، وباطلًا يَعنى في نصب شِباكه. ما معنى أنّه باطلًا يَعنى؟ - أي لا يقوى على أذيّة الصدّيق. وكيف لم يقوَ على أذيّة الصدّيق ما دام قد عرّاه وجرّدَه، وسلبه خيراتِه وجعلَه في بؤسٍ مدقِع؟ ذاك أنّ بوسع الصدّيق أن يجد تعزيةً في إنشاد كلمات المزمور القائلة: «إنّ يسيرًا للصدّيق، خيرٌ من ثروات المنافقين الطائلة» (٣٦: ١٦).

٤ - لكنّ الأشرار ذوو قدرة وسلطان، فهم يُقدِمون في كلّ مجال ويُحالفهم النجاح. يأمرون فيُطاعون. فهل تكون تلك حالُهم على الدوام؟ - لا، لأنّ «سواعد المنافقين ستنكسِر» (٣٦: ١٧). سواعدهم هي قدرتُهم. فما هو مصير المنافق في جهنّم؟ ألا يكون مصيره كمصير ذاك الغنيّ صاحب الموائد الفاخرة الذي يتعذّب في الجحيم»؟ (راجع لوقا ١٦: ١٩-٢٤). «سواعد المنافقين ستنكسِر، أمّا الصدّيقون فالربّ يعضدُهم». كيف يعضدهم؟ وماذا يقول لهم؟ - ما قيل في مزمورٍ آخر: «أرجُ الربّ، تشدَّد، وليتشجَّع قلبُك، وارجُ الربّ» (٢٦: ١٤). ماذا تعني عبارة «أرجُ الربّ»؟ - إصبِر إلى حين، فلا تُعاني في الأبديّة؛ ستكون معاناتك قصيرة، أمّا نعيمُك فيكون أبديًّا؛ تنتحب ليوم، أمّا فرحُك فلا ينتهي. أفتنهارُ وسط آلامِك؟ أمام عينَيك صورة آلام المسيح. أنظر ما عاناه من أجلِك ذاك الذي لم يكن يستحقّ أن يتألّم. مهما بلغت آلامُك، فلن تصل إلى حدّ الهُزء، والجلد، وثوب الخزي، وإكليل الشوك، والموت على الصليب الذي أُبطِل في البشر. ففي الماضي كان يُصلَب كبار المجرمين، واليوم لا يُصلب أحد. غدا

الصليب مكرّمًا، فبطُل استعمالُه؛ لم يعُد وسيلة تعذيبٍ، بل غدا علامة مجد. اقتُلِع من مكان الصلب ليُطبَعَ على جباه الأباطرة. فماذا يحفظ لعبيدِه ذاك الذي رفع إلى الذروة مجد أداة آلامِه؟ بمثل هذه الأفعال، وبمثل هذه الأقوال، وبمثل هذه الإرشادات، وبهذا المثل «يعضد الربّ الصدّيقين» ويُثبّتُهم. فليخرج حقد المنافقين من عقالِه، وليغضبوا ما شاؤوا، وعلى قدرِ ما يُتاح لهم، فإنّ الربّ يعضد الصدّيقين. مهما أصاب الصدّيق، فليعزُهُ إلى مشيئة الله، لا إلى قدرة أعدائِه. بوسع عدوّك أن يحتدّ، لكنّه لا يستطيع أن يضرب ما لم يشأ الله. وإذا سمح الله أن يُضرَب عبدُه، فإنّه يعرف كيف يقبلُه في عداد بنيه. «إنّ الذي يُحبّه الربُّ يؤدِّبُه، ويجلد كلّ ابنٍ يتّخِذُه» (عبرانيين ١٢ : ٦). فعلامَ يبتهج المنافق بأن يكون سوطًا في يد الآب؟ يستخدمه الآب كأداة؛ ويؤدّبني ليُعِدَّني للميراث. فلا ننظرَنَّ إلى ما يُبيحُه للمنافقين، بل إلى ما يحفظُه للصدّيقين.

٥ - لكن علينا أن نتمنّى أيضًا أن يهدي التأديب أولئك الذين تستخدِمهم يد الربّ سوطًا لتأديبِنا. هكذا علّم الله مؤمنيه، باستعْمالِه شاول عصا لتأديبِهم؛ ثمّ عاد فهدى شاول. وعندما تلقّى الرجلّ الصدّيق حنانيا من الربّ الأمر باستقبال شاول، ذاك الإناء المختار، وبمنحِه المعموديّة، ارتجف رعبًا لمجرّد ذكر اسم شاول المُضطهِد، وأجاب: «يا ربّ، سمعتُ من كثيرين عن هذا الرجل، كم من الشرّ صنع بقدّيسيك في أورشليم؛ والآن تلقّى رسائل من رئيس الكهنة ليمضي إلى حيثُ يجدُ الذين يدعون اسمك، ويأتي بهم إلى أورشليم مُقيّدين بالسلاسل»؛ لكنّ الربّ أجابَه: «إنطلِق، فإنّي سأريه كم ينبغي أن يتألّم من أجل اسمي» (أعمال ٩ : ١٣-١٦). قال الربّ: أريد أن أؤدّبَه، وأن أنتقم منه، فيتألّم من أجل اسمي، لأنّه اضطهد اسمي.

استخدمتُه وأستخدِمه لأؤدّب الآخرين، وسأستخدم الآخرين لتأديبِه. هذا ما حدث؛ ونعرف الآلام التي عاناها شاول، وهي آلامٌ تفوق ما صنع. كان دائنًا بخيلًا استوفى، مع الرِّبا، دينًا سابقًا.

٦ - لكن انظروا إذا كان الربّ يُحقّق فيه قول المزمور: «الربّ يُثبّت الصدّيقين». يقول القدّيس بولس نفسُه وسط آلامه الكثيرة: «ليس هذا فقط، بل إنّا نفتخر أيضًا في شدائدِنا، لعلمنا أن الشدّة تُنشئ الصبر، والصبر يُنشئ الإمتحان، والإمتحان يُنشئ الرجاء، والرجاء لا يُخيّب لأنّ محبّة الله قد أُفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي أُعطِيَ لنا» (رومة ٥: ٣-٥). ها نحن، بكلّ تأكيد، أمام رجلٍ بارٍّ، صلب الإيمان. وكما أنّ أعداءَه لم يستطيعوا النيل منه بعد أن صار صلب الإيمان، كذلك لم يكن بوسعِه هو أيضًا أن ينال ممّن كان يضطهدُهم. والحال، فإنّ النبيّ قال: «الربّ يعضد الصدّيقين». إسمع كلامًا آخر للصدّيق الذي عضده الربّ: «من يفصلنا عن محبّة يسوع المسيح؟ أشدّةٌ أم ضيقٌ أم جوعٌ أم عريٌ أم اضطهاد؟» (رومة ٨: ٣٥). كم كان معتصِمًا بمحبّة الله ذاك الذي لا تستطيع مثل تلك الشدائد أن تفصلَه عنه! لكنّ «الربّ يعضد الصدّيقين». بعض الأنبياء الآتين من أورشليم والممتلئين من الروح القدس تنبّأوا لبولس نفسِه بأنّه سيتألّم في أورشليم؛ وأحدُهم، المدعوّ أغابُس، حلّ حزام بولس، وأوثق به يدَيه، كما جرت العادة، لكي يُعطي بذلك صورةً لما ينتظر بولس وقال: «سوف يوثَقُ هذا الرجل في أورشليم كما تَروني أنا موثقًا» (أعمال ٢١: ١٠-١١). وعلى هذا التنبيه الذي وُجّه لشاول الذي صار بولس، شرع جميع الإخوة ينهونه عن التعرّض لمثل تلك المخاطر الجُلّى، واستحلفوه أن يُقلِع عن الذهاب إلى أورشليم. لكنّه كان قد دخل في عداد الذين قيل عنهم: «الربّ يعضد الصدّيقين»، فأجابهم:

«لماذا تكسرون قلبي؟» (أعمال ٢١: ١٣). «لا أحسب حياتي كريمةً لدَيّ» (أعمال ٢٠: ٢٤). وكان سبق أن قال للذين كان يلِدُهم للإنجيل: «أبذل نفسي لأجل خلاص نفوسِكم» (٢قورنتس ١٢: ١٥)، وتابع يقول: «إنّي مستعدٌّ، لا للوثاق فقط، بل للموت أيضًا في أورشليم لأجل اسم الربّ يسوع المسيح» (أعمال ٢١: ١٣).

٧ - «الربّ يعضد الصدّيقين». كيف يعضدهم؟ - «يعرف الربّ طرُقَ الأنقياء» (٣٦: ١٨). عندما يواجهون الألم، يُخيَّلُ للجماعة الجاهلة، أي الجماعة التي لا تعرف أن تُميِّز طُرُق الأنقياء، أنّهم يسلكون في سُبُل الشرّ. أمّا الله الذي يعرفُها، فيعلم في أيّ طريقٍ مستقيمٍ يُرشِد الذين يُطيعونه. لهذا قال النبيّ في مزمورٍ آخر: «يهدي الودعاءَ إلى العدل، ويُعلّم أنقياء القلوب طُرُقَه» (٢٤: ٩). ما أكثر الذين كانوا يعبرون أمام باب الغنيّ فترعبُهم رؤية ذاك الفقير المغطّى بالقروح! (راجع لوقا ١٦: ٢٠) وما أكثر الذين كانوا يسدّون أنوفَهم، وربّما يبصقون عليه! غير أنّ الله كان يعلم أنّه يحفظ له الفردَوس. ما أكثر الذين كانوا يتمنّون لو يعيشون حياة ذاك الذي يرفل بالكتّان والأرجوان ويأكل كلّ يوم أفخر المآكل! غير أنّ الربّ الذي كان يرى أيّامَه، كان يرى أيضًا عذاباتِه المقبِلة، وعذاباتِه التي لا نهاية لها. إذًا: «يعرف الربّ طرُقَ الأنقياء».

٨ - «وميراثهم يبقى إلى الأبد» (٣٦: ١٨). بالإيمان نعرف ذلك. فهل بالإيمان يعرفه الله؟ - إنّه يعرفه بوضوحٍ يصعب التعبير عنه، حتّى عندما نصير على شِبه الملائكة. والحال، فإنّ ما نراه بوضوح، لن يكون بالوضوح نفسِه الذي يراه فيه ذاك الذي يستحيل أن يتغيَّر. ومع ذلك، ماذا قال عنّا؟ - «أيها الأحبّاء، نحن الآن أبناء الله، ولم يتبيَّن بعدُ ما سنكون ذات يوم؛ غير أنّنا نعلم أنّه متى يجيء في مجده، سنكون

مثلَه، لأنّنا سنعاينُه كما هو» (١ يوحنّا ٣: ٢). إنّه لمشهدٌ رائعٌ يستحيل وصفه، ذاك الذي سيُدَّخَر لنا؛ وإذا استطاع العقل أن يرسم له صورةً خياليّة كمن يفكّ لغزًا، أو كمن يرى في مرآة، فلا نستطيع أن نعبّر، ولا بأيّ شكلٍ من الأشكال، عن تلك الروعة التي يدّخرُها الله للذين يتّقونه، والتي يهبها كاملةً للمتوكّلين عليه (راجع مزمور ٣٠: ٢٠). لهذا الفرح، تستعدّ قلوبُنا، وهي تعاني شدائد هذه الحياة ومِحَنِها. فلا تعجَبوا إن أُخضِعتم في هذه الحياة للآلام، لأنّكم تُعَدّون لأمرٍ جلل لا مثيل له. من هنا قول صدّيق تقوّى بالله: «إنّ آلام هذا الدهر لا تُقاس بالمجد الآتي الذي سيتجلّى فينا» (رومة ٨: ١٨). وأيّ مجدٍ ذاك الذي سيتجلّى فينا سوى أن نكون مساوين للملائكة ونعاين الله؟ أيّ مكرمةٍ لا يصنع مع الأعمى ذاك الذي يفتح عينَيه على النور؟ وبعد أن يشفى، لا يجد ما هو خليقٌ بشكر طبيبِه. هل للعرفان، مهما سما، أن يُساوي الإحسان؟ ليُعطِه ما شاء! ليُعطِه الذهب! ليُعطِه الذهب الكثير؛ فهل يَفي من أعطاه النور؟ ولكي يفهم أنّ ما يردّه لطبيبه ليس بشيء، فليُحاول أن يرى في الظلمة قيمة ما يُعطيه. ونحن، ماذا نُعطي ذاك الطبيب السماوي الذي يشفي عيون قلوبِنا ويجعلها قادرة على معاينة نور الله الأزليّ؟ ماذا نُعطيه؟ فلنبحث ولنجِد، إن كنّا نستطيع. وإذا عنّانا البحث، فلنصرخْ مع النبيّ: «ماذا أردّ إلى الربّ عن جميع ما كافأني به؟ - آخذُ كأس الخلاص، وأدعو اسم الربّ» (مزمور ١١٥: ١٢، ١٣). قال الربّ (لابنَي زبدى): «أتستطيعان أن تتجرّعا كأسًا أتجرّعُها أنا؟» (متّى ٢٠: ٢٢)؛ ولهذا أيضًا قال لبطرس: «أتُحبّني؟ إرعَ نعاجي» (يوحنّا ٢١: ١٧)، تلك النعاج التي من أجلِها كان على بطرس أن يتجرّع كأس الربّ. لكنّ «الربّ يعضد الصدّيقين؛ الربّ يعلَم طرق الأنقياء، وميراثُهم يبقى إلى الأبد».

٩ - «لا يخزَون في أيّام السوء» (٣٦: ١٩). ما معنى «لا يخزَون في أيّام السوء»؟ أي في زمن الضيق، وفي زمن المحنة، لا يُصيبُهم خزي الرجل الخائب في رجائه. فمن هو الرجل الخائب؟ - هو الذي يقول: لم أجدْ ما كنت أرجوه. وهذا صحيح، لأنّك على نفسِك بنيت رجاءَك، أو على صديق. قيل: «ملعونٌ الرجل الذي يتوكّل على البشر» (إرميا ١٧ : ٥). خزيت لأن رجاءك خاب؛ وخاب رجاؤك لأنّك بنيتَه على الكذب، «لأنّ كلّ إنسانٍ كاذب» (مزمور ١١٥ : ١١). أمّا إذا بنيت رجاءَك على الله، فلن تخزى، لأنّ الذي رجوتَه لا يغشّ. لذلك، لم يخزَ الصدّيق الذي كلّمتكم عنه، والذي عضده الله، في زمن الضيق والشدّة، فهتف: «إنّا نفتخر في شدائدِنا، لعلمنا بأنّ الشدّة تُنشئ الصبر، والصبر يُنشئ الإمتحان، والإمتحان يُنشئ الرجاء، والرجاء لا يخيِّب». لماذا لا يخيِّب؟ لأنّه مبنيٌّ على الله. ويتابع الرسول فيقول: «لأنّ محبّة الله قد أفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي أُعطِي لنا» (رومة ٥ : ٣-٥). سبق أن أُعطينا الروح القدس، فكيف يغشُّنا ذاك الذي أعطانا مثل هذه الضمانة؟ «لا يخزَون في أيّام السوء، وفي أيّام الجوع يُشبَعون». والحال، فإنّهم من الآن مُشبَعون. لأنّ أيام المجاعة هي أيّام الحياة الحاضرة التي يُشبَع فيها الصدّيقون، ويبقى الآخرون فريسة الجوع. وإلّا فبِمَ كان القدّيس بولُس ليفتخِر وهو يقول: «إنّا نفتخر في الشدائد»، لو انّه عانى جوعَ القلب؟ في الخارج كان يبدو في ضيق، أمّا في الداخل فكان منشرِحًا.

١٠ - وبالمقابل، ماذا يصنع الشرّير عندما يقع في الشدّة؟ لم يعُد له شيءٌ في الخارج، بات مفتقِرًا إلى كلّ شيء، ولا يجد له عزاءً في ضميره. لا مكان يخرج إليه من ذاتِه، فكلّ ما في الخارج بؤسٌ وشقاء، ولا يجد مكانًا ليدخل إلى ذاتِه، فكلّ ما في الداخل إثم. بعدلٍ، إذًا،

يصيبه ما يقول النبيّ: «أمّا المنافقون فيهلكون» (٣٦: ٢٠). كيف لا يُستأصَل مَن لا مكان له؟ لا شيء في الداخل يُعزّيه، ولا في الخارج. والحال فإنّنا نفتقر كلّيًّا إلى ما يعزّينا من كلّ ما في الخارج. ومن جهة أخرى، فإنّ جميع الذين لا يحملون الله في قلوبِهم، هم عبيد المال، والمجد، والصداقة، وخيور الأرض؛ وجميع تلك الخيور الزمنيَّة، مهما كانت، لا تستطيع أن توفّر لنا تعزيةً داخليّة تُشبِه تعزية ذاك الرجل الغنيّ النفس الذي كشف غنى نفسِه بقولِه: «الربّ أعطى، والربّ أخذ؛ كما حسُن للربّ، صار؛ فليكن اسم الربّ مباركًا» (أيّوب ١: ٢١). إذًا، لم يبقَ للأشرار مكانٌ خارج ذواتِهم، لأنهم يُلاقون فيه الشدّة؛ ولا يستطيع ضميرُهم أن يُعزّيَهم فيبقَون على خلافٍ مع أنفُسِهم، لأنّه يستحيل أن تكون في سلامٍ مع خاطئ. وكلّ من ساء، أساء إلى نفسِه، وسيكون، لا محالة، أداةً تعذيبٍ لنفسِه. الذي يعذّبه ضميره هو جلّاد نفسِه. يفرّ من أمام عدّوّ، فكيف يفرّ من نفسِه؟

١١ - هكذا أتانا واحدٌ من جماعة دوناتُس، اتّهمته جماعتُه وحرمته؛ فجاء يطلب لدينا ما فقدَه عندَهم. لكن، لم يكن بوسعِنا أن نقبلَه هنا إلّا في المقام الذي يتناسب مع وضعِه. لأنّه لم يترك جماعتَه كرجل لا لوم عليه تجاههم، بطريقة يظهر معها كأنّه تركهم مختارًا لا مكرَهًا. فبما أنّه لم يستطع، لا أن يجد لدى جماعة دوناتس ما يطلبه، أي المنصب الرفيع والكرامة الزائفة؛ وبما أنّه لم يجد عندنا ما لم يجده عندهم؛ شعر أنّه قُضِيَ عليه، فتحرّق، وراح قلبُه الجريح ينتحب ولا يتعزّى؛ كانت إبرٌ خفيّةٌ تُمزّق ضميرَه. حاولنا أن نُعزّيه بكلمة الله، لكنّه لم يكن من تلك النمال الحكيمة التي تجمع في الصيف قوت الشتاء. عندما يكون كلّ شيءٍ ساكنًا، على الإنسان أن يجِدَّ في التقاط كلام الله، فيُخبئه في قلبِه كما تُخبّئ النملة في أوكارها المؤونة التي تجمعها

في الصيف (راجع أمثال ٦ : ٦ ، ٨). فالصيف هو الوقت المناسب لجمع المؤونة؛ لأنّه إذا أتى الشتاء، أو زمن الشدّة، ولم نجدْ في قلبِنا ما يُقيتُنا، نموت جوعًا. إذًا، لم يكن ذاك الرجل قد التقط كلام الله في قلبِه؛ ولمّا أتى الشتاء، لم يجد عندنا ما كان يطلبه، ويُمكن أن يُعزّيَه، لأنّه ما كان ليتعزّى بكلمة الله. لم يكن في قلبِه ما يُساعده، ولا في الخارج ما يطلبُه. كان يشتعل بنار الألم والسخط، وكانت نفسُه فريسةً لاضطراب شديد أخفاه طويلًا، إلى أن انفجرت شكواه، وتردّد صداها بين الإخوة، من دون أن يدري أنّهم يسمعونَه. يعلم الله أنّنا كنّا ننظر، بألم وحرقة، إلى الآلام الرهيبة والعذابات المريعة التي كانت تعانيها تلكَ النفس المفجوعة. ماذا تُراني أقول بعد؟ لم يحتمل البقاء في موقعٍ متواضع، كان يُمكن أن يكون له خلاصيًّا، لو انّه أصغى إلى صوت الحكمة، فبدا لنا أنّه يستحقُّ الطرد. وهذا المثل، يا إخوتي، يجب ألّا يجعلَنا نيأس من دوناتيّين آخرين إن هم رجعوا ليسلكوا في الحقّ، طوعًا، لا كُرهًا. لا نيأسَنَّ من الآخرين، ولا حتّى من هذا البائس، ما دام حيًّا. والحال فإنّه ينبغي ألّا نيأس من أيِّ إنسانٍ حيّ. كانَ من المفيد، يا إخوتي، أن أستفيد من الظرف لأُطلعَ محبّتكم على هذه الوقائع، لئّلا يأتي من يخبركم بها على غير حقيقتِها. ذاك أنّ شدياقًا من عندِهم، وبلا خلافٍ معهم، اختار السلام والوحدة الجامعة، وانصرف عنهم ليأتي إلينا. والحال، فإنّه أتى بمحض إرادتِه ليختار ما هو صالح، لا كمن أقصاه أشرار. فقبلناه وفرحنا باهتدائه، ونسألكم أن تصلّوا لأجله. إنّ الله قادرٌ على أن يزيده صلاحًا على صلاح. على أنّه ليس لنا أن ننطق خيرًا أو سوءًا في شأن أحد. لأنّنا ما دمنا نعيش في هذه الدنيا، فإنّ غدنا دائمًا مجهول. «لا يخزَون في أيّام السوء، وفي أيّام الجوع يُشبَعون. أمّا المنافقون فيهلكون».

١٢ - «أمّا أعداء الله، فما إن يفتخروا ويشمخوا بكبرياء، حتّى يضمحلّوا كالدخان» (٣٦: ٢٠). المقارنة التي يستخدمها توضح لكم فكرتَه. يخرج الدخان من النار ويتصاعد في الأهواء، وكلّما تصاعد اتّسع، وكلّما اتّسع خوى. وذاك الإتّساع الذي لا سند له ولا صلابة، والمعلّق في الأهواء، كلّما ارتفع تبعثر، ثمّ يضمحلّ؛ في ارتفاعه علّةُ تلاشيه. والحال، فإنّه كلّما ارتفع اتّسع، وكلّما اتسع، عظُم تفاوت قياساتِه، وصغُرت قوّتُه، فتبعثر وتلاشى. كذاك أعداءُ الله: يفتخرون ويرتفعون، وسرعان ما يضمحلّون كالدخان. عن هؤلاء الناس قيل: «كما أنّ ينّاس ويمبَراس[٢] قاوما موسى، كذلك الذين يُقاومون الحقّ أناسٌ نفوسهم فاسدة، وإيمانُهم مرذول» (٢ طيموتاوس ٣: ٨). ولماذا يقاومون الحقيقة إلّا لأنّهم منتفخون بالكبرياء التي تجعلُهم لعبةً للرياح، فيشمخون كما لو كانوا أئمّةً أبرارًا؟ ماذا يقول عنهم الرسول؟ - ما قاله في الدخان: «لكنّهم لا ينجحون كثيرًا لأنّ حُمقَهم يتّضح للجميع، كما اتّضح حمق ينّاس ويمبَراس» (٢ طيموتاوس ٣: ٩). «أمّا أعداء الله، فما إن يفتخروا ويشمخوا بكبرياء، حتّى يضمحلّوا كالدخان».

١٣ - «يستقرض المنافق ولا يفي» (٣٦: ٢١). يستوفي ولا يردّ. ما الذي لا يردّه؟ - فعل الشكر. فما الذي يريده الله أو ما الذي يطلبه منكم إلّا ما ينفعكم؟ أيّ إحسانٍ أُعطي المنافق، وردّ منه شيئًا؟ وُجودُه عطيّة؛ كونُه إنسانًا أسمى من الحيوان، عطيّة؛ جمال جسدِه عطيّة؛ حواسُّ جسدِه التي يتميّز بها عطيّة: عيناه ليرى، أذناه ليسمع، أنفه ليشُمّ، حلقُه ليذوق، يداه ليلمس، رجلاه ليمشي؛ صحّتُه عطيّة. لكنّ تلك العطايا كلّها يُشاركنا بها الحيوان؛ إلى ذلك أُعطي الإنسان العقل

(٢) إسمان أطلقهما التقليد اليهوديّ على الساحرَين المصريّين الوارد ذكرهما في سفر الخروج (٧: ١١، ٢٢).

ليفهم، ويُدرك الحقيقة، ويُميّز البارَّ من الآثم، ويبحث عن خالقِه ويُحبَّه ويُسبّحَه ويعتصِمَ به. المنافق أيضًا نال العطايا نفسَها؛ لكنَّه يعيش في الفساد، ولا يردّ دينَه. «يستقرض المنافق ولا يفي». لا يردّ شيئًا للذي أعطاه، حتّى ولا فعل الشكر؛ بل يُجازيه عن الخير شرًّا، وعن الإحسان السخطَ والنفثَ والشتيمة. «يستقرض المنافق ولا يفي؛ أمّا الصدّيق فيرأف ويُقرِض» (٣٦: ٢١). هذا يملك، وذاك لا شيء لديه. تأمّلوا أين الغنى وأين الفقر. المنافق نال ولم يرُدّ، والصدّيق يملك الرحمة ويُعطي؛ إنّ لديه فيضًا من الخير. وإذا كان فقيرًا؟ إنّه في فقرِه غنيّ. حسبُك أن تُلقيَ نظرةَ برٍّ على غناه، وسترى خزنةً فارغة، لكنّك لا ترى ضميرًا ملأه الله نفسُه. لا شيء لديه من غنى الخارج، إلّا أنّ في داخلِه المحبّة. ما الذي لا يستطيع أن يُعطيه بالمحبّة ولا ينضب؟ إذا كان يملك خيورًا أرضيّة، فالمحبّة تُعطي مثلَها، وهذه العطايا الخارجيّة إن هي إلّا عطايا المحبّة. وإذا لم يجد في الخارج ما يُعطيه، يُعطي رعايتَه؛ يُعطي المشورة ويُقدّم المعونة إن استطاع؛ فإن لم يستطع ذلك، فإنّه يُساعد أقلّه بتمنّياتِه، فيُصلّي لمن كان في شدّة، ولعلّ صلاتَه أطيب، عند الله، من خبزٍ يُعطيه آخر. من كان قلبُه مفعمًا بالمحبة، فإنّ عنده دائمًا ما يُعطيه. لأنَّ المحبّة هي التي ندعوها الإرادة الخيّرة. والله لا يطلب منك أكثر ممّا أعطى قلبَك. فالإرادة الخيّرة لا يسعُها أن تبقى بلا عمل؛ بالإرادة الخيّرة لا تحرم الفقير من آخر فلسٍ بحوزتِك. الفقراء أنفُسهم يجدون في الإرادة الخيّرة ما يتساعدون به، وليس فيهم من هو بلا نفعٍ للآخر. ترى بصيرًا بائسًا يقود أعمى: ما كان لديه مال ليُعطيه، فأقرضَ عينيه لمن ليس له عينان. ولو لم يكن لديه في نفسِه إرادة خيّرة لما وضع عينَيه في خدمة من ليس له عينان. الإرادة الخيّرة كنزُ الفقراء. وهذا الكنز هو راحته الأهنأ، وأمانه الحقيقيّ؛ ليس عليه

أن يخشى سارقًا يسرقه أو بحرًا يُغرقُه. يحفظ لنفسِه ما يملكه في داخلِه؛ يمضي عاريَ الجسم، وقلبه مملوءًا كنوزًا. «الصدّيق يرأف ويُقرِض».

١٤ - «أمّا الذين يُبارِكونَه فيرثون الأرض»[٣] (٣٦: ٢٢): أي الذين يُبارِكون البارّ الحقيقيّ الأوحد، واهب البِرّ، الذي عاش فقيرًا في هذه الدنيا، وأغدق كنوزَه الطائلة على الأرض، ليُغنيَ الذين وجدَهم فقراء. فهو الذي أغنى بالروح القدس قلوب الفقراء، وملأ بذهب البِرّ النفوس المتواضعة حتّى الإنسحاق ندامةً على خطاياها؛ وهو الذي استطاع أن يُغني الصيّاد البسيط الذي ازدرى ما يملك فتخلى عن شباكِه، ونال ما لم يكن يملكه (راجع متّى ٤: ١٩). «لأنّ الله اختار ضعفاء العالَم ليَخزي الأقوياء» (١ قورنتس ١: ٢٧). لم يستخدم الخطيب ليربح الصيّاد، بل الصيّاد ليربح الخطيب، والصيّاد ليربح الحاكم، والصيّاد أيضًا ليربح الإمبراطور. «مبارِكوه يرثون الأرض»؛ يُشاركونه ميراث هذه الأرض، أرض الأحياء التي قال عنها النبيّ في مزمورٍ آخر: «أنت رجائي، وميراثي في أرض الأحياء» (١٤١: ٦). «أنت ميراثي»، يقول لله، ولم يشكّ في أن الله سيكون ميراثه. «مبارِكو الربّ يرثون الأرض، ولاعنوه يهلكون». والذين يُباركونه، فبنعمةٍ منه يُباركونه. لأنّه أتى إلى الذين كانوا يلعنونَه وباركَهم؛ كانت نعمته

(٣) في العبريّة: כִּי מְבֹרָכָיו , יִירְשׁוּ אָרֶץ ; וּמְקֻלָּלָיו , יִכָּרֵתוּ. أي: «مبارَكو الربّ يرثون الأرض، والملعونون يُستأصلون»، وهكذا نُقِلت إلى العربيّة والفرنسيّة. أمّا في الفولغاتا فوردت كما أوردها القدّيس أوغسطينُس: quia benedicentes ei hereditabunt terram maledicentes autem ei disperibunt أي: «مبارِكو الربّ يرثون الأرض، ولاعنوه يهلكون». وكذلك في السبعينيّة: ὅτι οἱ εὐλογοῦντες αὐτὸν κληρονομήσουσι γῆν, οἱ δὲ καταρώμεοι αὐτὸν ἐξολεθρευθήσονται.

تحضّهم على مباركتِه، لكنّهم لعنوه فهلكوا. كانوا بمكرِهم يلعنونه، وسيُباركونَه بنعمته التي وضعها فيهم.

١٥ - إليكم التتمّة: «الربّ يقود خطى البشر، فيبتغون طُرُقَه» (٣٦: ٢٣). لكي يسعى الإنسان في طرق الربّ، على الربّ أن يقود خطاه. فلو لم يقُدِ الربّ خُطى البشر، لفسدوا، ولابتغَوا طرقًا ملتوية، ولما استطاعوا لفسادِهم أن يرجعوا إلى الطريق القويم. لكنّ الربّ جاء لكي يدعونا ويفتدينا ببذل دمه: ذاك هو الثمن الذي دفعه، والخير الذي صنعه وقاسى الآلام في سبيلِه. هو إلهٌ إذا تأمّلت في ما صنعه، وإنسانٌ إذا تأمّلت في ما عاناه. فمن هو هذا الإله-الإنسان؟ أيّها الإنسان، لو لم تتخلَّ عن الله، لما صار إلهٌ إنسانًا ليُخلِّصك! كان قليلًا على جودتِه وعلى رحمتِه أن يصنعك إنسانًا، لو لم يصِر هو إنسانًا لأجلِك. لأنّه هو الذي يقود خطانا، لكي نبتغيَ نحن طرُقَه. «الربُّ يُقوّم خطى الإنسان، والإنسان يبتغي طرُقَه».

١٦ - لكن، إذا كنت تتبع طريق المسيح، فلا تعِدَنّ نفسك بنعيم الدهر. سلك درب الألام عسيرةً، لكنّه وعدَك بخيورٍ جُلّى. فاتّبعه. لكن لا تنظر أيّ درب تسلك، بل إلى أين ستصل. ستُعاني آلامًا تزول، لكنّك ستبلغ أفراحًا أبديّة. إذا كنت تريد أن تصبر على العناء، تطلّعْ إلى الأجر. كان عامل الكرم ليترك العمل، لو لم يتطلّع إلى الأجر الذي سيتقاضاه. وعندما تنظر إلى أجرك، فإنّ كلّ ما تُعانيه سيبدو لك تافهًا ولا يستحقّ أن يُقارن بفرَح الأجر. سوف تُذهَل لضخامة الأجر، مقابل عملٍ تافِه. والحال، يا إخوتي، فإنّ العدل يقضي بأن نعنى عناءً أبديًّا لكي نستحقّ راحةً أبديّة؛ وسعادةٌ لا تنتهي ينبغي أن تُشرى بآلامٍ لا تنتهي. لكن، إذا كان عليك أن تعاني آلامًا أبديّةً، فمتى تصلُ إلى السعادة الأبديّة؟ لذلك كان ينبغي أن تكون آلامك إلى حين، لكي تبلغ

في نهايتِها إلى سعادة لا تنتهي. ومع ذلك، فإنّ هذه السعادة، يا إخوتي، كان يمكن أن تكون ثمنًا لعناء طويل جدًّا. وهكذا، ولكي نستحقّ سعادة لا تنتهي، ربّما كان علينا أن نشقى ونَعنى طويلًا. وحتى ولو دام عناؤنا ألف سنة، فماذا تساوي ألف سنة قياسًا إلى الأبديّة؟ أو لماذا نقارن اللانهاية بعدد محدود، مهما بلغ حجمه؟ عشرة آلاف سنة، وملايين السنين وملياراتها، كلّها تنتهي، ولا تُقاس إلى الأبديّة. إنّها لَجودةٌ من الله أن يكون أراد أن يكون عناؤنا مؤقّتًا، وقصيرًا. إذا لم يكن عناؤنا ممزوجًا بأفراحٍ تفوق العناء، فإنّ ما يُعوّضنا، على الأقل، هو أنَّ حياتنا قصيرة الأيّام. لذلك يُقصّر الله مدّة آلامَنا ويُقلّلها لكي نستطيع أن نتحمّلَها. لكن، عندما يشقى الإنسان ويَعنى طوال حياتِه؛ وعندما لا ينفك يُبلى بالآلام والعذابات والذلّ والسجن والجوع والعطش، يومًا تلو يوم، وساعةً تلو ساعة، على مدى حياتِه، وحتّى سنيّ شيخوختِه، فإنّه لن يستقلّ أيّام حياتِه. لكن، عندما ينقضي زمن العناء، يأتي الملكوت الأبديّ، وتأتي سعادة لا تنتهي، وتأتي المساواة بالملائكة، ويأتي ميراث المسيح، ويأتي المسيحُ شريكُنا في الميراث. فيا له من أجرٍ عظيم قياسًا إلى عناء تافه! مُحاربون قدماء، عانَوا المآسي في الحروب، على مدى سنوات طويلة، وتآخَوا مع الجراح، حملوا السلاح شبابًا، ولم يتقاعدوا إلّا وقد بلغوا سنّ الشيخوخة؛ كم كان على أولئك الرجال أن يقاسوا من صعوبات، ومسيراتٍ، وبردٍ قارسٍ وشمسٍ حارقة ومشقّاتٍ وجراح وأخطار، لكي ينعموا بأيّام قليلة من الراحة في سنيّ الشيخوخة تلك التي تُرهقهم فوق ما أرهقتهم الحرب! وفي خضمّ كلّ تلك المعاناة، لم يكونوا يتطلّعون إلّا إلى بضعة أيّام من الراحة في شيخوختِهم، ولو لم يكونوا متيقّنين من بلوغِها. «الربّ يقود خطى البشر فيبتغون طُرُقَه». لهذا بدأت فقلت: إذا كنت

تريد أن تسير في طريق المسيح، وإذا كنت حقًّا مسيحيًّا - والمسيحيّ الحقيقيّ هو الذي لا يزدري طريق المسيح، بل يبتغي السير على خطاه حتّى في الآلام - فاحترِز ألّا تسلك طريقًا آخر غير الذي سلكه هو. قد يبدو عسيرًا، غير أنّه الطريق الأمين؛ قد يكون للطريق الآخر سحرُه، لكنّه يعجُّ باللصوص. «يبتغي الإنسان طريق الربّ».

١٧ - «إذا عثرَ، فلا يضطرِبْ، لأنّ الربّ آخذٌ بيدِه» (٣٦: ٢٤). ذاك هو ابتغاء طريق المسيح. إذا حدث أن مرّ الإنسان في ضيق، أو إذا أُذِلّ، وأهين، وتعرّض لألم أو خسارة، أو لسواها من المصائب التي غالبًا ما تنزل بالجنس البشريّ في هذه الحياة، يتذكّر الآلام والمحن القاسية التي عاناها معلّمُه؛ وحتّى ولو عثر، فإنّه لا يضطرب، لأنّ الربّ الذي كان أولّ من عانى تلك الآلام، آخذٌ بيدِه. فممَّ تخاف أيّها الإنسان، ما دام الربّ يقود خُطاك، لكي يجعلَك تبتغي طرقَه؟ ماذا تخشى؟ الآلام؟ - فالمسيح جُلِد (متّى ٢٧: ٢٦). الإهانات؟ - فالمسيح سمعهم يقولون له: «إنّ بك شيطانًا»، هو الذي كان يطرد الشياطين (راجع يوحنّا ٨: ٤٨). ألعلّك تخشى حبائل الأشرار ومكرَهم؟ - فعلى المسيح تآمروا (راجع يوحنّا ٩: ٢٢). لعلّك لا تستطيع أن تُقيم دليلًا على براءتك بوجه كلّ اتّهام، وتتألّم لسماع شهود زورٍ ينفثون عليك؟ - لقد شهدوا زورًا على يسوع المسيح، لا قبل موتِه فقط، بل بعد قيامتِه أيضًا. أقاموا عليه شهود زورٍ ليدينوه (راجع متّى ٢٦: ٦٠)، وأقاموا شهود زورٍ على قبرِه. غير أنّه قام بمعجزة باهرة، والأرض المتزلزلة أعلنت قيامة المخلّص. كان ثمّة أيضًا أرضٌ تحرس الأرض، وكانت أصلب من الأرض، فلم تتزعزع. شهدت للحقّ، غير أنّها افتُتِنت بأرض كاذبة. والحال، فإنّ حرّاس القبر أخبروا اليهودَ بما رأَوه، وبما حدث؛ لكنّهم قبضوا فضّةً وقيل لهم: «قولوا إنّ تلاميذه

أتَوا ليلًا وسرقوه» (راجع متّى ٢٨: ١٢، ١٣). هؤلاء كانوا شهود زورٍ ضدّ قيامتِه. لكن، يا لَعمى شهود الزور هؤلاء، يا إخوتي! يا لَه من عمى! ذاك ما يحدث عادةً لشهود الزور: يقعون في العمى إلى حدّ أنّهم يشهدون على أنفسِهم دون أن يدروا، فيكشفون زور شهادتِهم. ماذا قالوا ضدّ أنفُسِهم؟ - «كنّا نائمين، فأتى تلاميذُه وسرقوه». أيّ قولٍ هذا؟ من أدلى بهذه الشهادة؟ - حرّاسٌ نيام. كيف لنا أن نصدّق أناسًا يقولون هذا الكلام، حتّى ولو أرادوا ألّا يرووا لنا سوى أحلامِهم. يا للغباء! ويا للحماقة! إذا كنت ساهرًا، فلِم تركتهم يسرقونَه؟ أو كنت نائمًا، فكيف عرفت؟

١٨ - هذا أيضًا ما يفعلُه أولادهم، على ما تذكرون، وما دامت المناسبة متاحة لقولِه، فلا أريد أن أمرَّ عليه. فبقدر ما نرغب في خلاصِهم، بقدر ما ينبغي أن نفضح كبرياءَهم. ترون أنّ جسد المسيح هدفٌ لشهود الزور؛ والجسد يعاني ما عاناه الرأس قبلَه. لا عجب في الأمر، وليسوا اليوم بقلائل أولئك الذين يقولون لجسد المسيح المنتشر في الأرض: يا نسلَ الخونَة. تلك شهادة زور، وحسبي بضع كلمات من كلماتِك لأثبِت أنّك شاهد زور. تقول لي: «أنت خائن». وأنا أجيبُك: «أنت تكذب». فأنت لم تستطِع، في أيّ زمانٍ أو مكان، أن تُثبت خيانتي؛ وأنا، بكلماتِك، وللحال، أفضح كذبَك. ثابتٌ أنّك قلتَ يومَها إنّنا سننّا سيوفنا؛ ذاك ما فعلَه حوّاموك circoncellions(٤). قلتَ، وهذا ثابت، إنّك تتخلّى عمّا انتُزِعَ منك(٥)؛ فيما أقرأ في

(٤) الحوّامون: circoncellions لصوص كانوا يحومون حول أهراءات الغلال ويسطون عليها بقوّة السلاح. اختلطوا مع الدوناتيّين واندمجوا في جماعتِهم وناهضوا روما والكنيسة الكاثوليكيّة.

(٥) يُصمّم القدّيس أوغسطينُس في عظاتِه، وخاصّةً في كتابِه ضدّ كرسقونيوس (نحَوي=

اعترافاتِك نفسِها، أنّك فوّضت من يُطالب باسترجاعِها[٦]. وثابتٌ أنّك قلتَ يومَها: لا سلاح لدينا سوى الأناجيل؛ وأنا أواجهك بأحكام القضاة الذين بواسطتِهم نكّلت بالذين انفصلوا عنك. وأقرأ نص رسائلِك إلى الإمبراطور الجاحد (يوليانُس)، التي تستعطفه فيها وتقول إنّه الوحيد الذي يُحقّ الحق. هل كان جحود يوليانُس يُمثّلُ لديك جزءًا من الإنجيل؟ ها إنّي أضبطك بجرم الكذب المشهود. ما الذي يستحقّ أن يُصدّق من كلّ ما قلتَه عنّي؟ وحتى لو لم أستطع أن أفضح زور اتّهاماتِك، حسبي أن أُثبِت أنّك كاذب. بمَ تجيب؟ مثلك مثل الآخرين. كنت مُحقًّا في إرسالك هذه الأقوال إلى جميع أتباعِك. أردتَ أن يكثر الكاذبون في جماعتِك، لئلّا تخجل وحدك من كذبِك.

١٩ - يقول: لكن، يجب أن يكون لحكم آبائنا على سيقِلّيانُس قوّة القانون. - لِماذا يكون له قوّة القانون؟ - لأنّه حكم لفظه أساقفة. - إذًا يجب أن يكون لحكم المكسيميانيّين عليك قوّة القانون. والحال، فإنّكم لا تجهلون، على ما أعتقد، أنّ أساقفة جماعة مكسيميانُس الذي كان لا يزال شمّاسَ دوناتس، قدِموا أوّلًا إلى قرطاجة، كما تثبت ذلك مذكّرة ضمّوها إلى وثائق دعواهم، يوم كانوا في نزاع على ملكيّة منزل، مع وكيل ذاك الذي يزعم بأنّه تخلّى عن جميع الأملاك التي انتزعوها منه[٧]. إذًا، بدأوا فأرسلوا عريضةً ضدّه، يشكون من أنّه رفض المجيء

=دوناتي) (فصل ٢٧)، أن يضحد تصريح بريميانُس (أسقف قرطاجة الدوناتي) بهذه الكلمات: «لأنّ بريميانُس، في اعترافاتِه أمام محكمة قرطاجة، يقول في ما يقولُه من أكاذيب رشقنا بها: يسلبون الآخرين، ونحن نتخلّى لهم عمّا يسلبوننا إيّاه».

(٦) راجع: رسالة أوغسطينُس إلى الدوناتيّين (١٠٥ : ٨)، وردّه على رسائل بيتيليانُس (٢ : ٢٢، ٢٧).

(٧) الوكيل المقصود هو وكيل بريميانُس.

إليهم. وكانت تلك شكواهم الأساسيّة. فانظروا كيف ردّ الله عليهم ما قالوه في سيقلّيانُس. يا له من تشابه عجيب! بعد سنين عديدة، أراد الله أن يرميَ بوجهِهم ما صنعوه هم أنفسُهم، لئلّا يجدوا أيّ سبيلٍ للتستّر أو للتملُّص. أيُريدون أن يقولوا إنّهم نسوا ما حصل سابقًا؟ لكنّ الله لا يسمح لهم بأن ينسوها؛ وحبّذا لو يُساعد هذا على خلاصِهم! لأنّهم إذا أرادوا أن يعتبروا بما حدث، فستكون رحمة الله هي التي سمحت بذلك. أنظروا، إذًا، يا إخوتي، كيف كانت، في الماضي، وحدة الكنيسة الجامعة التي انفصلوا عنها ضدّ سيقلّيانُس. وانظروا، اليوم، جماعة الدوناتيّين الذين انفصل عنهم المكسيميليانيّون ضدّ بريميانُس؛ ما فعلَه الدوناتيّون ضدّ سيقلّيانُس، فعلَه المكسيميانيّون ضدّ بريميانُس. لأجل ذلك يدّعي المكسيميانيّون بأنّهم أكثر امتلاكًا للحقيقة من الدوناتيّين، وهم محقّون في ما يدّعون، لأنّهم يقتدون حقًّا بآبائِهم. والحال، فإنّهم حرّضوا مكسيميانُس على بريميانُس، كما حرّض آباؤُهم مايورينُس ضدّ سيقلّيانُس، وجدّدوا في بريميانُس شكوى آبائِهم على سيقلّيانُس. لأنّ هؤلاء، إن كنتم تذكرون، ادّعَوا أنّ سيقلّيانُس لم يشأ أن يكون معهم، لأنّ ضميره منعه؛ والحال، فإنّه كان يعرف دسائسَهم؛ كذلك شكا المكسيميانيّين من أنّ بريميانُس لم يشأ أن ينضمَّ إليهم. فلماذا نوافق بريميانُس على معرفتِه بدسائس المكسيميانيّين، وننكر على سيقلّيانُس معرفتَه بدسائس الدوناتيّين؟ لم يكن مكسيميانُس قد رُسِم بعدُ؛ وراحت التُهم توجّه إلى بريميانُس؛ فاجتمع أساقفة من الدوناتيّين، وأرادوا أن يُرغِموه على المثول أمامَهم؛ فرفض الحضور كما تؤكّد عريضتُهم التي ضُمّت إلى محاضر الدعوى. لم يمثُل، وأنا لا ألومُه، بل، أوافقه. إذا اشتبهت بدسيسة، فحسنًا تفعل بعدم تعاملك مع منشقّين، وبرفع دعواك أمام محكمةٍ قضاتُها هم الأنزه في الجماعة.

لأنّ كان قد بقي لبريميانُس دوناتيّون كثُر يستطيع أن يُبرّر نفسَه أمامهم. لهذا رفض أن يذهب إلى الذين بدأوا يشكّلون فريقًا متمرّدًا. ترى أنّنا نُشيدُ بالمنحى الذي سلكته في مواجهة المكسيميانيّين. فكّر أنت أيضًا بقضيّة سيقلّيانُس. إذا كت لا تريد أن تُقاضيه كأخ، فقاضِه كغريب. ماذا كنت تقول في نفسك عندما رفضت الحضور؟- اجتمع هؤلاء الناس عليّ، وتآمروا ليهلكوني؛ إنّهم قضاةٌ فاسدون، وحانقون عليَّ؛ فإذا سلّمتهم أمري، أسيء إلى قضيّتي. لن أمضي إليهم، وأحفظ قضيّتي لأعرضَها أمام قضاةٍ أنزه وأوسع سلطانًا. رأيٌ صائب. لكن، ماذا كنت لتجيب لو فكّر سيقلّيانُس يومَها كما فكّرت أنت؟ كنت لتَعنى كثيرًا لتثبِت أنّ لوسيليا أخرى أفسدَت أيضًا قُضاتَك، وربّما لا تجد الدليل: فيما كان سيقلّيانُس يعرفه حقّ المعرفة، فضلًا عن أنّه موثّقٌ في محاضر الدعوى(٨). أمّا أنت فلم تستطع سوى أن ترتاب في دسيسة خفيّة؛ أو أنّه قيل لك إنّ في الأمر ما يجب أن تخشاه. أوافقك أن تخشى على سلامتِك وتحطاط لأمنك؛ حسنًا فعلت فلم تذهب إلى أولئك الناس، إذ كان بوسع آخرين أن ينظروا في قضيّتِك. لكن، قارِن الآن حالَك بحال سيقلّيانُس: أنت استنجدت بنوميديا، وسيقلّيانُس بالعالم كلّه. وإذا كنت تريد أن تُثبِّت حكم الدوناتيّين ضدّه، فينبغي أن تُثبِّت أيضًا حكم المكسيميانيّين ضدّك؛ أساقفةٌ أدانوه، وأساقفة أدانوك أنت أيضًا. ثمّ إنّك حيثما دافعت عن قضيّتك ربحتها بوجه المكسيميانيّين، ألم يدافع سيقلّيانُس مثلك عن قضيّتِه فربحها بوجه

(٨) يشير القدّيس هنا إلى وثائق دعوى رُفِعت أمام الحاكم زينوفيل Zénophile وفيها يورد أنّ مينوديناريُس شمّاس سلوانُس أسقف سيرتا (عاصمة نوميديا) كشف أنّ أساقفة وشخصيّات أخرى اشترُوا بمال لوسيليا، وهي امرأةٌ ذات نفوذٍ في حينِه، لكي يُقيموا مايوريِنُس أسقفًا على قرطاجة، مكان سيقلّيانُس.

الدوناتيّين؟ وهكذا، فإنّ ما جرى في حينِه، تجدّد أمام أعينِكم، بصورةٍ مدهشَة وقاطعة، والشكاوى التي رفعها المكسيميانيّون ضدّ بريميانُس، هي التي رفعها الدوناتيّون ضدّ سيقلّيانُس. لا يسعُني، يا إخوتي، أن أعبّر لكم عن مدى تأثُّري وشكري لله الذي بفعل رحمتِه وضع أمام أعيُنِهم هذا المثل الرائع لكي يُنيرَهم لو كانوا عُقلاء. ولمّا كان الله قد سمح بأن تقع قرارات مجمع المكسيميانيّين تحت يدِنا، فاسمعوا ما جاء فيها. (هنا يقطع شرح المزمور، ليتلو قرارات المجمع[٩]).

٢٠ - «إلى إخوتِنا ونظرائِنا القدّيسين في كلّ افريقيا». [وحدتُهم تقتَصِر على أفريقيا وحدها. في أفريقيا، هم في وحدة مع الكاثوليك؛ وفي سائر أنحاء العالَم، ليسوا مع الكنيسة ؛الكاثوليكيّة]. «إلى إخوتِنا ونظرائِنا القدّيسين المقيمين في كلّ افريقيا، في مقاطعات نوميديا وموريتانيا، وبيزاسينيا (في تونس)، وطرابلس؛ إلى جميع الكهنة والشمامسة والشعوب المناضلة معنا في حقيقة الإنجيل، فيكتورينُس، وفورتوناتُس، وفيكتوريانُس، وميجّينُس، وساتورنينُس، وقونسطَنسيوس، وقندوريوس، وإنّوشنتُس، وكرِسقونيوس، وفلورنتُس، وسالفيوس، وسالفيوس الآخر، ودوناتُس، وجيمينيوس، وبرِتكستاتُس [هو أسّوريتانُس الذي استقبلوه لاحقًا، وبدورِه استقبل الذي دانَه]، ومكسيميانُس، وتيودورُس، وأناستازيوس، ودوناسيانُس، ودوناتُس الآخر، وبومبونيوس، وبَنقراسيوس، ويَنواريُس، وسيكونديِنُس، وبسكاسيوس، وكرِسقونيوس، وروغاسيانُس، وميكسيميانُس الآخر، وبينيناتُس، وغايّانُس، وفيكتورينُس، وغونتازيوس، وكوينتازيوس، وفيليتشيانُس

(٩) الكلام الواقع بين خطّافَين هو تعليق للقدّيس أوغسطينُس على نصّ الحكم.

[لعّله موستيتان الذي لا يزال حيًّا، أو غيره من مقاطعة أخرى؛ ويشير موقّعو الوثيقة في أسفلِها إلى موطن كلٍّ منهم]، وسالفيوس، وميجّينُس، وبروكولُس، ولاتينُس، والآخرين المجتمعين في مجمع قَبَرسوسّي، سلامٌ أبديٌّ في ربّنا. ما من أحدٍ، أيّها الإخوة الأحبّاء يجهل أنّ كهنة الربّ لا يسلكون بحسب مشيئتِهم، بل بحسب مشيئة الله، إن حين يدينون مذنبين، أو عندما يُصغون إلى العدالة ليحلّوا الأبرياء من القصاصات التي أنزِلَت بهم. كما أنّ العفو عن مذنبٍ أو الإقتصاص من بريء يُعرِّض القاضي لأفظع المخاطر؛ لأنّه كُتِب: «البريء والصدّيق لا تقتُلْهما، والمنافق لا تُبرّرْه» (خروج ٢٣: ٧). ولمّا كانت وصيّة الشريعة هذه قد علّمتنا ما ينبغي أن نعملَه، فقد استجبنا إلى الطلب الذي توجّه به إلينا، عن طريق المراسلة، شيوخ كنيسة قرطاجة، فعرضنا وناقشنا قضيّة بريميانُس الذي أقيم أسقفًا على ذلك الشعب البارّ لكي يرعى قطيع الربّ في تلك المدينة؛ حتّى متى أوضحنا كلّ الأمور، استطعنا إمّا أن نُبرِّئَه، وهذا أقصى مبتغانا، أو نُجرِّمَه، ونبيّن للجميع أنّه بعدلٍ أُدين. كانت أقصى أمنية لدينا أن يفاخر شعب كنيسة قرطاجة البارّ بأنّ على رأسه أسقفًا قدّيسًا بلا لوم. ذاك أنّ على كاهن الربّ أن يكون على حالٍ يستحقّ معها أن ينال لشعبِه ما لا يستطيع ذلك الشعب أن ينالَه بنفسِه من الله؛ لأنّه كُتِب: «إذا خطئ الشعب، يشفع فيه الكاهن، أمّا إذا خطئ الكاهن، فمن يشفع فيه؟» (الملوك الأوّل ٢: ٢٥). [الرسل أيضًا كتبوا للشعب لكي يُصلّوا إلى الله من أجلِهم، وكان الرسل أنفسُهم يقولون في صلواتِهم: «إغفر لنا ذنوبَنا». وقال يوحنّا الرسول: «لنا شفيعٌ عند الله الآب هو يسوع المسيح البارّ، وهو كفّارة عن خطايانا» (١ يوحنّا ٢: ١، ٢). لكنّ كلام الكتاب عن الكاهن لم يفهمه البشر، وقد كُتب من أجل تنبيه

الشعب بأنّ عليه أن يعترف، بروحٍ نبويّ، بكاهنٍ ليس بحاجة إلى شفاعة أحد. فمن هو الكاهن الذي لا يحتاج إلى شفاعة أحد، سوى ذاك الذي يشفع فينا كلّنا؟ (راجع رومة ٨: ٢٤). فلمّا كان الكهنوت، في حينِه، الكهنوت اللاويّ، حيث كان الكاهن يدخل إلى قدس الأقداس، ويقرّب الذبائح عن الشعب، لم يكن الشعب يرى إلّا صورة الكاهن، لا الكاهن الحقيقيّ الذي لم يأتِ بعد؛ ذاك أنّ كهنة ذلك الزمن كانوا خطأةً مثل كلّ الناس. وإذ أراد الله أن يعلّم شعبَه، بالنبوءة، أنّ عليه أن يتوق إلى ذاك الكاهن الجدير بأن يشفع في الجميع، ولا حاجة لأن يشفع فيه أحد، أشار إليه بقولِه: «إذا خطئ الشعب، يشفع فيه الكاهن، أمّا إذا خطئ الكاهن، فمن يشفع فيه؟». فاختَر، أيّها الشعب كاهنًا لا تكون مُجبَرًا على أن تشفع فيه، بل أن تكون شفاعتُه هو أمانًا لك. هذا الكاهن هو يسوع المسيح ربّنا، الكاهن الأوحد، والوسيط الأوحد بين الله والناس، يسوع المسيح الإنسان-الإله» (١ طيموتاوس ٢: ٥)]. «والحال، فإنّ شرّ بريميانُس الفظيع والفضائح التي أثارها، حرّضت عليه حكم السماء، فكان من الضرورة بمكان أن يُقطَع المجرم الفاسد من جسم المؤمنين. [هنا يُعدّدون ارتكابات بريميانُس]. فما إن رُسِم هذا الأسقف، حتى دفع كهنة شعب قرطاجة إلى الإنضمام إليه في مؤامرة آثمة، وطلب إليهم، كمن يطلب حسنة، أن يؤازروه، [هذا ما طلبه منهم؛ أمّا هم، فلم يعِدوه، وحافظوا على الصمت، فلم يتورّع عن أن يُنفّذ وحدَه الجرم الذي كان يُضمِرُه] لكي يَدين أربعة شمامسة، وهم رجالٌ مُعتَبرون، ذوو فضلٍ يعرِفه الجميع، مكسيميانُس، وروغاسيانُس، ودوناتُس، وسَلغاميوس. [من بين هؤلاء الأربعة، صانع الإنشقاق ذاك الذي سلخ جزءًا من جزءٍ مسلوخ بدورِه، ولم يكن ليأسف لأن يرى نفسَه منشقًّا عن الوحدة الكاملة]. فهالَهم مثل

هذا الطلب الآثم، وردّوا طلبه بالصمت. أمّا هو، فلم يتورّع عن أن ينفّذ بنفسِه المخطّط الذي دبّره؛ ودفعته جرأته للحكم على الشمّاس مكسيميانُس، الرجل المشهود له بالبراءة، وذلك بلا محاكمة وبلا ادّعاء، وبلا شهود، وغيابيًّا، لأنّه كان طريح الفراش. [أنظروا ما هي تهمته!]. كان سبق أن أدان كهنةً وشمامسة، بظلم مشابه. ولمّا ضمّ زُناةً إلى الشركة المقدّسة، ضاربًا عرض الحائط بالشريعة، وبجميع المراسيم الكهنوتيّة، وباعتراض القسم الأكبر من الشعب، وبالضغوط التي واجهه بها شيوخ المدينة وأعيانُها لكي يُصلِح بنفسِه ما أفسدَه، فأبى بجسارة أن يُصلِحَ الشرّ الذي صنعه. لأجل ذلك استاء شيوخ تلك الكنيسة من سلوكه، وبعثوا إلى مجمع الأساقفة رسائل وموفَدين يتوسّلون إلينا بالدموع أن نأتي إليهم، حتّى إذا وزنّا، بورعٍ وغيرة مقدّسة، كلّ الأمور، ودقّقنا مليًّا في الإتّهامات والوقائع المُثبَتة، نعيد إلى تلك الكنيسة رونقَ كرامتِها وبهاءَها. وعندما استجبنا لدعواتِهم وأتينا إلى هنا، أبى ذاك الرجل الهائج أن يُقِرَّ بأنّ أفعاله باتت معروفة وأصرّ على عدم المثول أمامنا. [تعرفون ما يُعيبونه على بريميانُس؛ وتعرفون أيضًا أنّ قسمًا من جماعة دوناتُس كانوا سالكين في الفساد. لأنّ القاعدة لديهم أنّ الجماعة كلّها وكلّ فرد من مكوّناتِها يوصمون بما وُصم به من يتعامل معهم. فإن صحّ ما يقولونه، فإنّ حزب دوناتُس كلّه سالكٌ في الفساد. فليأتِ النوميديّون ويقولوا: ما شأننا إذا كنت قد قبلت في شركتِك فاسدين؛ ألسنا من البعد بحيث لا يطالنا أذى؟ لكن، إذا كنتم لا تسلّمون بأن ما يحصل في قرطاجة يُسيء إلى نوميديا، فكيف لما يحصل في أفريقية أن يُسيء إلى الأرض كلّها؟ إنّ في دفاعهم تبريرًا لنا وشهادة عليهم]. أصرّ على رفض لقائِنا. [تلك كانت شكواهم من سيقلّيانُس]. أصرّ على روح التمرّد، وثابر في الشرّ، وضلّل

الكثيرين [شكاوى أشدّ خطورةً، لم توجّه إلى سيقلّيانُس، وإليكم ما هو أدهى]، واستقدم جنودًا تابعين للسلطة لمحاصرة أبواب الكنائس، [بالطبع، لكي يمنعوا الأساقفة من دخولِها]، ومنعنا من الدخول إليها والإحتفال بالأسرار المقدّسة. أيليق بأسقفٍ أن يتصرّ ف على هذا النحو؟ وهل مسموحٌ لمسيحيّين أن يؤيّدوا تصرّفًا تُندّد به الأناجيل؟ هذا ما نتركه ليحكم عليه كلّ ما يُحبّ الحقيقة ويُدافع عنها. إنّ ما صنعه بنا من كان أخًا لنا في ما مضى، ما كان ليصنعَه بنا غريب. [ماذا أقول بعدُ؟ أثقلوا الرجل بالتُهَم وأدانوه؛ فلنقرأ الإدانة]. نحن، كهنة الربّ، المجتمعين بحضور الروح القدس؛ لمّا كان بريميانُس قد نصّب أساقفَةً مكان أساقفةٍ ما زالوا أحياء؛ وقَبِل زناةً فاسقين في شركة القدّيسين؛ وسعى، بالقوّة، إلى توريط كهنةٍ في مؤامرتِه؛ وألقى في مكانٍ قذِر الكاهنَ فورتوناتُس الذي كان يعود المرضى ويُعمّدهم؛ ورفض قبول الكاهن ديمتريوس في الشركة، ليُرغم ابنه على الإستقالة؛ ووبّخ ذاك الكاهن على استضافتِه أساقفة؛ ولمّا كان بريميانُس المذكور قد حرّض الجمهور على هدم بيوت يملكها مسيحيّون؛ وقام زبانيته بمحاصرة أساقفة وكهنة وشمامسة ورشقهم بالحجارة؛ وقتلَ في الكنيسة شيوخًا شقَّ عليهم أن يُقبَل كلاوديانيُّون[١٠] في الشركة؛ وتجرّأ على إدانة إكليريكيّين أبرياء؛ ورفض أن يمثُل أمامنا ليُقاضى؛ بل استعان بالشرطة وبجمهورٍ من الرعاع ليمنعنا من دخول الكنائس؛ وأذلّ موفَدينا وطردَهم؛ واستولى على مراكز كثيرة، بالقوّة أوّلًا، ثم بسلطان العدالة. [هذا هو الذي يدّعي عدم المطالبة بما انتُزِع منه. إلّا أن القدّيس بولس يقول: «أيجرؤ المرء فيكم، إذا كانت له دعوى على آخر، أن يُقاضيه

(١٠) فرقة من الدوناتيّين أُطلق عليها اسم زعيمِها كلاوديوس.

أمام الظالمين؟» (١ قورنتس ٦ : ١). تلك هي التهمة التي يوجّهونها إليه بسبب رفضه أن تقضي محكمة أساقفة بشأن تلك المراكز، فرفعها إلى قضاة عاديّين]. ومن دون أن نتكلّم عن معاصٍ أخرى ارتكبَها، ونتغاضى عن ذكرها لكي لا نلوِّث حكمنا، قضينا بأن يُفصَل بريميانُس إلى الأبد من مجمع الكهنة، لئلّا يقع إثمُه على كنيسة الله فيُدنِّسَها. وهذا ما يوصينا به القدّيس بولُس بقولِه: «نوصيكم، أيّها الإخوة، باسم ربّنا يسوع المسيح، أن تجتنبوا كلّ أخٍ يسلك في الفساد» (٢ تسّالونيقي ٢ : ٦). لهذا، رأينا، حفاظًا منّا علَى طهارة الكنيسة، أن نُنبِّه بهذه الرسالة جميع القدّيسين، إخوتَنا في الكهنوت، وجميع الإكليريكيّين، وجميع الناس الذين يُجاهرون بمسيحيّتِهم، أن يتجنّبوا شركته بفعل الإدانة التي نرشقه بها. فمن تجرّأ على مخالفة حكمنا ولم ينصَع له، كان مسؤولًا أمام الله عن هلاكِه. على أنّه بدا حسنًا لنا وللروح القدس، أن نعطي مهلةً لأتباعِه لكي يتوبوا، لكن وفقًا لهذه الشروط: أنّ كلّ كاهنٍ أو كلّ إكليريكيّ، أهمل أمرَ خلاصه، ولم ينفصل عن شركة بريميانُس المُدان، بدءًا من يوم إدانته، أي بدءًا من اليوم الثامن من تمّوز وحتّى اليوم الثامن من كانون الثاني، فإنّه سيُرشَق بالحرم الذي رُشِق هو به. أمّا المدنيّون الذين لم ينسحبوا من شركة بريميانُس من الآن وحتّى عيد الفصح المقبِل، فلا يُمكن أن يتصالحوا مع الكنيسة إلّا بعد أن يتوبوا، هذا إذا تابوا.

التواقيع: فيكتورينُس أسقف موناتيوم؛ فورتوناتُس أسقف ديونيسيانا؛ فيكتوريانُس أسقف كركابيا؛ فلورنتيوس أسقف أدروميتوم؛ ميجّينُس أسقف إلِفَنتاريا؛ إنّوشنتُس أسقف تسبَلتا؛ ميجّيني باسم زميلي سالفيوس أسقف ممبروزا؛ سالفيوس أسقف أوصافا، دوناتُس أسقف سابراتوم؛ جيميليوس أسقف تنابيا؛ [لاحظوا

أنّ في عداد الذين وقّعوا هذا الحكم: بريتكستاتُس، أسقف أسّورُس، وفيليتشيانُس أسقف موستي]؛ بريتكستاتُس أسقف أسّورس؛ مكسيميانُس أسقف ستاباتم؛ داسيانُس أسقف كاميسيتم؛ دوناتُس أسقف فيكُس؛ تيودورُس أسقف أوسالا؛ فيكتوريانُس باسم زميلي أسقف أغنا؛ دوناتُس أسقف سِبريسُس؛ ناتاليكُس أسقف تالي؛ بومبونيوس أسقف ماكري؛ بنكراسيوس أسقف باليا؛ يانواريوس أسقف أكي؛ سيكوندُس أسقف ياكونديا؛ باسكاسيوس أسقف بلدة أوغسطُس؛ كريسو أسقف كونيوستيا؛ روغاسيانُس الأسقف؛ مكسيمُس أسقف إرومّينا؛ بينيناتُس أسقف توغوسيانُم؛ ريتانُس الأسقف؛ غايّانُس أسقف تيجيس؛ فيكتورينُس أسقف لبتيس مانيا؛ غونتاسيوس أسقف بينيفا؛ كوينتازيوس أسقف كابسا؛ فيليتشيانُس أسقف موستي؛ فيكتوريانُس موفدًا من الأسقف ميجّيني؛ ميجّيوس الأسقف؛ لاتينُس أسقف موجيا؛ بروكولُس أسقف جيربا؛ دوناتُس أسقف سابراتا عن أخي وزميلي مارّاتُس؛ بروكولوس أسقف جيرنيتانا عن زميلي غالّيونُس؛ سِكونديانُس أسقف بريسكا؛ هلبيديوس أسقف توسدري؛ دوناتُس أسقف سامور؛ جيتوليكُس أسقف فيكتوريانا؛ أَونيبونيوس أسقف روباوتا؛ أنّيبونيس أيضًا بطلب من زميلي أسقف آرا؛ ترتولّيوس أسقف أبيدُّس؛ بريموليانُس الأسقف؛ سِكونديئس أسقف أروزيوم؛ مكسيمُس أسقف بيتا؛ كريشّنسيانُس أسقف مورّا؛ دوناتُس أسقف بِلما؛ برسيفيرَنسيوس أسقف تيبِستا؛ فاوستينُس أسقف بينُم؛ فيكتور أسقف ألتيبورا. المجموع ثلاثة وخمسون».

٢١ - أرجوكم أن تُصغوا جيّدًا. نقول لبريميانُس: تلك هي إدانتُك، فاختَر. أتُريد أن يكون لها قيمة، أم أن تكون بلا قيمة؟ أنا أوافقك القول بأنّهم اتّهموك زورًا؛ واعلَم أنّ ما يجعلُني أصدّق، هو

أنّك ربحت دعواك أمام قُضاةٍ آخرين دانوا الذين دانوك. وإذا كنتُ أعتقد أنّك بريء، لأنّك لم تلجأ إلى منشقّين، بل أثبتّ براءتك أمام محكمة أخرى، فكان أن دينَ الذين دانوك، فاعرَف بدورِك أن تُقرّ ببراءة سيقلّيانُس الذي رفض أن يمثل أمام أسلافِك ليحفظ قضيّته لحكم العالم بأسرِه، كما حفظت أنت قضيّتَك لحكم مجمع نوميديا. إذا كان كرسيّ باغايا قد ثبّت براءتَك، فكم بالأحرى أن يثبّت الكرسيّ الرسوليّ براءتَه. أم أنّك تُريد أن تعترف بسلطة الذين أدانوك قبلَه؟ إذا كان لهم من سلطة، فالأمر ينقلب عليك. لم يكن للدوناتيّين أي سلطة، ولن تكون لهم سلطة لإدانة سيقلّيانُس. فاحترِز، بكلامك هذا، ألّا تدين نفسَك بنفسِك.

٢٢ - إلّا أنّهم يتجاسرون هنا ويقولون: لكنّنا، نحن الذين أدنّا، بعدَها، المكسيميانيّين، كنّا أكثر عددًا. إذًا، ثبّتوا الحكم على فيليتشيانُس، عندها تُثبّتون حكم الدوناتيّين على سيقلّيانُس. في مجمع باغايا أدانوا فيليتشيانُس؛ والآن فيليتشيانُس في كنيستِهم: فإمّا أنّهم قبلوا مذنبًا، أو أنّهم أدانوا بريئًا. إذا كنت تقبل مذنبًا لتُحافظ على السلام مع دوناتُس، فأذعن لجميع الشعب لتبقى في سلام مع المسيح. أمّا إذا كنت قد أدنت فيليتشيانُس البريء عن طريق الخطأ؛ وإذا كان بوسع ثلاثمائة أسقف أن يُخطئوا بإدانتهم فيليتشيانُس، أفلم يكن بوسع سبعين أسقفًا أن يُخطئوا بإدانة سيقلّيانُس. فما رأيُك؟ تُجابَه بأنّ المكسيميانيّين بدأوا فأدانوك، فتثور وتقول: لكنّنا كنّا أكثر منهم عددًا عندما أدنّا المكسيميانيّين. وسرعان ما يردّون عليك في هاتين المسألتَين؛ لأنّ أتباعك هم الذين بدأوا فأدانوا سيقلّيانُس. فإذا كان علينا أن نُقرّ بأوّليّة الأحكام، فعلى أتباع بريميانُس أن يرضخوا لمجمع المكسيميانيّين؛ وإذا كان علينا أن نقول بالكثرة، فعلى الدوناتيّين أن

يرضخوا للعالَم كلّه؛ لست أرى أعدل من هذا. المكسيميانيّون أقلّية، لكنّ لهم الأولويّة. لا يحقّ للمتّهَم أن يتّهِم. إذا كان هذا رأيك، فكيف كان بوسعك أن تدين وأنت مُدان؟ ذاك أنّ اسم الذي أدانوه مدوّنٌ مع أسماء القضاة الذين أدانوه ولم يُبقوه كمتّهَم. لكنّ أمر سيقلّيانُس مختلف: أبقَوه كمتّهَم، على ما يؤكّد الحكم، حتّى أنّه لم يُقبَل في الكنيسة إلّا بعد أن بُرِّر. أمّا الذي أكلّمك عنه هنا، فقد أدانه قضاة، وهناك جلس بين قضاة ولفظ الحكم بنفسِه. أن تكون تلك هي العدالة بمفهوم مجمع باغاي، فهنيئًا لك العدالة كلّها. أخطأ المكسيميانيّون بإدانتك، إلّا أنّ أتباعَك كانوا البادئين بإدانة سيقلّيانُس. برّرت نفسَك في باغاي، وهو برّر نفسَه بحكمٍ من وراء البحار، بحكمٍ أقرّه العالَم كلُّه. فبِمَ تجيب؟ - تقول: نحن أكثر عددًا ممّا كان عليه المكسيميانيّون. ما هَمّ! كونوا أكثرَ عددًا، ولنتكلّم في العدد. أنظر ما هو الفرق. أدانك المكسيميانيّون غيابيًّا لأنّك رفضت المثول أمامَهم؛ وهذا مشابه تمامًا لما فعله الدوناتيّون عندما أدانوا سيقلّيانُس غيابيًّا لأنّه لم يُجارِهم في تمرّدِهم. وأنت بدورك عملت على إدانتهم غيابيًّا في مجمع باغاي؛ غير أنّ سيقلّيانُس برّر نفسَه بحضور خصومِه أنفسِهم. ثمّة أيضًا فرقٌ هام: أنت نفسك مضيت تطلب قضاةً في نوميديا، وأنت من أقمتَهم قضاة، ولم يطلبهم المكسيميانيّون؛ فيما سيقلّيانُس أدان دوناتُس بقضاة طلبهم الدوناتيّون أنفسُهم. فبحقّ يستطيع المكسيميانيّون أن يُجيبوك: جئناك نحن أوّلًا، نحن أساقفة مقاطعتِك، من أبرشيّة هي لك، وأردنا أن نسمع دعواك، فازدريتَنا، وأبيت أن تمثل أمامنا. فإذا كنت تخشى حكمَنا، كان بوسعنا أن نتشارك في اختيار القضاة، وألا تذهب من تلقاء نفسِك لتمثل أمام قضاةٍ يُرضونَك تختار من تُريد. فانظر كم هو الفرق كبير. عندها أرسل الدوناتيّون إلى الإمبراطور عرائض

ليُعيّن القضاة بنفسِه، ويشكون فيها الذين أدانوهم، على الرغم من أنّهم هم الذين طلبوهم قبل إدانتِهم. وبناءً على التماسِهم، أُعطوا قضاةً آخرين، فأدانَهم هؤلاء أيضًا؛ ولجأوا إلى الإمبراطور، فأدانهم مجدّدًا. المكسيميانيّون أدينوا مرّةً واحدة، وغيابيًّا، فصمتوا، أفلا يصمت الدوناتيّون، وقد أدينوا ثلاثًا، وحضوريًّا؟

٢٣ - تبقى بينك وبين المكسيميانيّين مسألة العدد. قلتُ إنّي أوافقك. ثلاثمائة وعشرة أكثر من مائة، وأكثر من عدد المكسيميانيّين الذين أدانوا بريميانُس؛ فماذا عن آلاف الأساقفة المنتشرين في كلّ الأرض الذين أدانوا دوناتُس، وانتصروا لسيقلّيانُس؟ ألا ترى لهم أيّ سلطان؟ تقول: وهل في أقطار الأرض كلّها ألف أسقف ليدينوا الدوناتيّين؟ حسنٌ، لم يدينوهم. لكن لماذا لم يدينوهم؟ - لأنّهم لم يحضروا المحاكمة. لم يدينوهم لأنّهم لم يكونوا يعرفون قضيّتهم. فلِماذا انفصلت عن أناسٍ لا لوم عليهم؟ يأتيك رجلٌ معمّد من أقاصي العالم، فتريد أن تُعمّدَه مُجدّدًا؛ وإذ تتهيّأ للجريمة، زاعمًا أنّك تمنح مجدّدًا السرّ الذي لا يُمنح إلّا مرّةً واحدة، ولا يُفقَد أبدًا، يأتي إليك صارخًا منتحبًا: ماذا تريد أن تفعل؟ أتُعمّدُني مجدّدًا؟ يقول لك ذاك الآتي من بلاد ما بين النهرين، أو من سورية، أو من البُنط، أو من بلاد أبعد. فتجيبُه: أريد أن أعمّدك لأنّك لم تعتمِد. - كيف؟ إقرأ رسائل الرسول التي أُعطيَت لي أنا. لعلّ هذا الرجل من غلاطية، أو من البنط، أو من فيلادلفيا، تلك الكنائس التي كتب إليها القدّيس يوحنّا (رؤيا ١: ٤)، أو ربّما يكون من قولوسّي، أو من فيليبّي، أو من تسّالونيقي، ويقول لك: ألستُ معمّدًا أنا الذي كتب إليّ الرسول الذي منه تسلّمت سرّ العماد؟ أتجرؤ أن تقرأ الرسالة الموجّهة إليّ، وتأبى عليّ قبلة السلام؟

عظة ثالثة في المزمور السادس والثلاثين

أيضًا، قوّة الصدّيق

الكنيسة التي كانت شابّةً وهرِمَت، لم ترَ البارّ مُفتقِرًا إلى الخبز، أي إلى كلمة الله، الخبز الحقيقيّ. بل على العكس، رأت البارّ يُقرِض الربّ، إذ يُقرض البائس ويُغيثُه. فلنجانِب الشرّ؛ لكن هذا لا يكفي إن لم نصنع الخير. لندَع المنافق وشأنَه، فهلاكُه وشيكٌ وكامل. لا يستطيع بمكره أن يرصد الصدّيق. ينقضّ على جسدِه، لكنّ النفس تنجو على الدوام. هذا ما يستطيعه الدوناتيّون مع أوغسطينُس.

١ - بقي علينا، يا إخوتي، أن نشرح لكم ونناقش القسم الثالث من المزمور. إنّي أرى الربّ يدعوني لكي أوفي دَيني، لا على حسب ما ارتأيت، بل على حسب ما ارتأت عنايته. فأصغوا إليّ، يا إخوتي، لكي أوفيَ، إن استطعت، بمعونة الله، دينًا أعرف أنّني مدينٌ لكم به. لمن تلك الكلمات التي رنّمناها لتوّنا؟ «كنتُ شابًّا والآن هرمتُ، ولم أرَ الصدّيق مخذولًا، ولا ذرّيّته تلتمس خبزها» (٣٦: ٢٥). إذا كان النبيّ يتكلّم كإنسان واحد، فكم تدوم حياة إنسانٍ واحد؟ وأين العجب في ألّا يكون قد رأى إنسانٌ يسكن في زاويةٍ من العالم، طوال حياتِه، مهما قصُرَت بين صباه وشيخوختِه، الصدّيقَ مخذولًا، ولا ذرّيّتَه تلتمس خبزَها؟ - ليس من العجب بشيء. محتملٌ جدًّا أن يكون صدّيقٌ سأل خبزًا قبل ولادتِه؛ ويُحتمل أن يكون ذلك قد حدث في بلاد غير التي

يسكنها. إسمعوا أيضًا مسألة شائكة تُربِكُني: ينظر أكبر المعمّرين فيكم إلى أيّامه التي انقضت، ويستعيد في ذاكرتِه كلّ الذين عرفَهم، وقد لا يرى الصدّيقَ يلتمس خبزَه ولا ابن الصدّيق؛ ومع ذلك، فإنّه إذا تصفّح الكتب المقدّسة، يرى أنّ إبراهيم، الصدّيق البارّ، عانى الجوع في البلاد التي كان يسكنُها، واضطرّ إلى الرحيل إلى بلادٍ أخرى (راجع تكوين ١٢ : ١٠)؛ ويرى أنّ ابنه إسحق اضطُرَّه الجوع إلى المضيّ في طلب القوت في بلادٍ غريبة (راجع تكوين ٢٦ : ١). فأين هي حقيقة هذا الكلام: «لم أرَ الصدّيق مخذولًا، ولا ذرّيّته تلتمس خبزها»؟ قد يصحّ هذا الكلام في مجرى حياة إنسان ما، إلّا أنّ قراءة الكتب المقدّسة، الأصدق من حياة البشر، تُبيّن له العكس.

٢ - ما العملُ إذًا؟ أرجوكم، ساعدوني بتقواكم وغيرتِكم، لكي أستطيع أن أرى ما هي إرادة الله في آيات المزمور تلك، وماذا يريد أن يُفهمَنا. والحال، فإنّه يُخشى على إنسانٍ ضعيفٍ وعاجزٍ عن فهم الكتب المقدّسة، لدى رؤيتِه خدّام الله الصالحين في محنةٍ وفي فاقةٍ لتلمّس خبزِهم، ولدى تأمّله في كلام القدّيس بولس: «إنّا نعمل في الجوع وفي العطش وفي البرد وفي العُري» (راجع ٢ قورنتس ١١ : ٢٧)، أن يتشكّك ويقول في نفسِه بنيّة سليمة: هل صحيحٌ ما أنشدتُه؟ هل صحيحٌ ما أنشدتُه وأنا أقف بورعٍ، في الكنيسة: «لم أرَ الصدّيق مخذولًا، ولا ذرّيّته تلتمس خبزها»، فيما أرى بعينيَّ صدّيقين كثيرين يُعانون الجوع؟ لكن قد يحدث أن أخطئ في التمييز بين إنسانٍ صدّيق، وإنسانٍ منافق؛ لكنّ الله يرى منافقًا ما بدا لي صدّيقًا؛ فما هو موقفي من إبراهيم الذي يُشيد الكتاب ببرِّه؟ وما موقفي من القدّيس بولس الرسول الذي يقول: «إقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح» (١ قورنتُس ٤ : ١٦)؟ فهل أنا مدعوٌّ لكي أعاني ما عاناه هو من جوعٍ وعطشٍ وبردٍ وعُري؟

٣ - هل يسعُنا أن نعتبِر مُخلّعًا من كانت له تلك الأفكار، ووهنت قواه الداخليّة عن كلّ خير، كما سبق أن قلت، فنفتح سقف مقطع الكتاب هذا ونُدلّيه إلى الربّ؟ ترَون أنّ الأمر لا يخلو من تعتيم. وإذا كان ثمّة تعتيم فإنّ ثمّةَ سقفًا يُعتّم، وأتخيّل أمامي مُخلّع الإنجيل. أرى السقف، وأعرفُ أنّ المسيح متخفٍّ تحت ذلك السقف. وسأعمل، ما استطعت، عملًا أثنى الربّ على الذين عملوه، عندما فتحوا سقف البيت الذي كان فيه المسيح، ودلَّوا المخلّع أمامَه، ليقول له: «تشجّع يا بُنَيّ، مغفورةٌ لك خطاياك» (لوقا ٥: ١٨-٢٥). بدأ فشفى الرجلَ من شَلَلهُ الداخليّ، حين غفر خطاياه ورسّخ إيمانَه. لكن، كان هناك أناسٌ لم تستطِع أعيُنهم أن ترى شفاء الشلل الداخليّ، واعتبروا كلمات الربّ الخلاصيّة تجديفًا، وقالوا: «من هو هذا الإنسان ليغفرَ الخطايا؟ إنّه يُجدّف. من يستطيع أن يغفر الخطايا غيرُ الله؟» (راجع أيضًا متّى ٩: ٣). ولأنّه الله، علِم أفكار قلوبِهم. كانوا يؤمنون بأنّ لله هذا السلطان، لكنّهم لم يكونوا يرَون الله أمامَهم. فصنع ذاك الطبيب معجزةً، وشفى جسد المخلَّع، لكي يشفي الشلل الداخلي في أولئك الخبثاء. صنع شيئًا يستطيعون أن يرَوه، وعلّمهم شيئًا يستطيعون أن يؤمنوا به. تشجّع، إذًا! أنت يا من وهن قلبُك وتوانى عن كلّ عملٍ صالح، ليسعى وراء الدنيويّات. تشجّع يا من شُلّ قلبُك! ولنتعاون معًا على فتح ذاك السقف، إن استطعنا، لكي نصل إلى الربّ.

٤ - في الكنيسة التي هي جسدُه السرّيّ، كان الربّ شابًّا في الأزمنة الأولى، والآن هرِم. هذا ما تعرفونه، وهذا ما تعترفون به، لأنّكم تدركون أنّكم هكذا بُنيتُم، ولأنّكم تؤمنون بأنّ المسيح هو رأسُنا، ونحنُ أعضاءٌ لذلك الرأس (راجع ١ قورنتُس ١٢: ٢٧؛ أفسُس ٤: ١٥). لكن هل نؤلّف نحن وحدنا جسد المسيح، دون الذين

سبقونا؟ جميع الذين كانوا أبرارًا، منذ إنشاء العالم، رأسُهم المسيح. لأنّهم آمنوا بأنّه سيأتي، إيمانَنا بأنّه أتى. ومثلنا أيضًا شُفوا بإيمانهم بالذي نؤمن بأنّ فيه شفاءَنا؛ لكي يكون رأسًا لمدينة أورشليم كلّها التي تضمّ جميع المؤمنين من بداية العالم إلى نهايته، بالإضافة إلى أجناد الملائكة؛ ولكي تكون أورشليم مدينةً واحدةً لملكٍ واحد، وأرضًا واحدة لسيّدٍ واحد، هانئة في سلام وأمانٍ لا تشوبه شائبة، تُسبّح الربَّ تسبيحًا لا ينتهي، وتنعم في سعادةٍ لا تنتهي. والحال، فإنّ الكنيسة التي هي جسد المسيح، تُشبه رجلًا كان شابًّا، وغدا في منتهى الدهور ينعم بشيخوخة هانئة، لأنّه قيل فيها: «في المشيب تُثمر وتكون سمينةً غضّة» (مزمور ٩١: ١٥). والحال، فإنّ الكنيسة أثمرت وسمنت وتنامت في الأمم، وكلامُها كلام رجلٍ يتطلّع إلى سنيّ صبائِه، ثمّ إلى سنيّ أفولِه. تتأمّل في كلّ ما وراءَها، لأنّ الكتاب يهبها معرفة جميع الأجيال التيّ عبرتها؛ وفي نشوة الفرح تهتف وتقول لنا: كنتُ شابّةً، في بدء العالم، والآن هرِمتُ، لأنّي بلغت آخر أزمنة هذا الدهر «ولم أرَ الصدّيق مخذولًا ولا ذرّيّته تلتمس خبزَها».

٥ - نعرف، الآن، ذاك الرجل الذي كانَ شابًّا، في الماضي، واليوم هرِم؛ وفتحنا السقف ووصلنا إلى المسيح. فمن هو ذاك الصدّيق الذي لم يُرَ مخذولًا، ولا ذرّيّته تلتمس خبزَها؟ إذا عرفت الخبزَ، تعرف الصدّيق. والحال، فإنّ الخبز هو كلمة الله التي لا تُفارق فم البارّ. بهذا أجاب الصدّيق نفسُه حين جُرّب. عندما قال الشيطان للربّ الذي كان يتضوَّر جوعًا بعد الصيام: «قل لهذه الحجارة أن تصير خبزًا» أجابه الربّ: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمةٍ تخرج من فم الله» (متّى ٤: ٣، ٤). إلى ذلك، يا إخوتي، انظروا إذا كانت تمرّ لحظة لا يصنع فيها الصدّيق إرادة الله. إنّه يصنعها على الدوام، ويعيش

بموجبِها، وإرادة الله هذه لا تُفارق قلبَه، لأنّ إرادة الله هي شريعة الله. فماذا قال عن البارّ؟ - «في شريعتِه يهُذُّ نهارًا وليلًا» (مزمور ١ : ٢). تأكل خبز البشر لساعة، ثمّ تكتفي، أمّا خبز الكلمة فتأكل منه نهارك وليلك. عندما تسمعها أو تقرأها، فأنت تأكلُها؛ وعندما تتأمّل فيها، فأنت تجترُّها لتكون حيوانًا طاهرًا، لا حيوانًا نجسًا (راجع لاويّين ١١ : ٣). وهذا ما تقوله لك الحكمة بلسان سليمان: «في فم الحكيم، على الدوام، كنزٌ شهيّ، أمّا السفيه فيبتلعُه» (أمثال ٢١ : ٢٠). فالذي يبتلع لكي لا يُرى ما ابتلع، هو الإنسان الذي ينسى ما سمعه. أمّا الذي لا ينساه، فإنّه يتأمّل فيه، وفي تأمّله يجترُّه، وفي اجترارِه يجد لذّةً غامرة. لهذا قيل: «ترعاك فطنةٌ مقدّسة» (أمثال ٢ : ١١). فإذا كنت تجترّ ذلك الخبز وترعاك فطنةٌ مقدّسة، فأنت «لم ترَ الصدّيق مخذولًا ولا ذرّيّته تلتمس خبزَها».

٦ - «النهار كلّه يرأف ويُقرِض» (٣٦: ٢٦). الكلمة اللاتينيّة feneratur يُمكن أن تُقال عمّن يُقرِض وعمّن يقترِض. والأصح أن يُقال هنا: «يُقرِض» fenerat. ما همّنا ما يقولُه النُحاة؟ خيرٌ لي أن أجعل نفسي بمتناولِكم فأبتعد عن لغة الفصاحة، من أن أكون بليغًا فأترُكُكم كأنّكم في صحراء. إذًا، الصدّيق «يرأف ويُقرِض كلّ يوم». فلا يبتهجنَّ المُقرِضون. والحال، فإنّنا نجد مُقرِضًا من نوعٍ خاصّ، كما وجدنا خبزًا من نوع خاصّ؛ حتّى إذا كشفنا السقف من جميع الجهات، نبلغ إلى المسيح. لا أريدكم أن تكونوا مُقرِضين؛ وإذا كنت لا أريد لكم ذلك، فلأنّ الله لا يُريده. لأنّي إن كنت لا أريده، والله يُريده، فافعلوه؛ أمّا إذا كان الله لا يُريده، فعبثًا أريدُه، ومن فعل، سعى إلى حتفِه. فما الذي يدلّ على أنّ الله لا يُريدُه؟ - هذا الكلام المأخوذ من مزمورٍ آخر: الصدّيق «لا يُعطي فضّتَه بالربا» (مزمور ١٤ : ٥).

ويبدو لي أنّ جميع المُقرِضين يُدركون كم هو الربا إثمٌ شنيعٌ وكريه ومقيت. ومع ذلك، فإنّي أنا الذي أكلّمكم، أو بالأحرى هو الله الذي نعبُد ويمنعكم من الإقراض، يأمرُكم بأن تُقرِضوا، حين يقول لكم: «أقرِضوا الله». ترجو الإيفاء من إنسان تُقرِضُه، أفلا ترجو الإيفاء إن أقرضتَ الله؟ إذا أقرضت مالك بالربا، أي إذا أودعته إنسانًا تأمل أن تسترجع منه فوق ما أعطيتَه، لا مالَك فقط، بل ما هو أكثر، حنطةً كان أو خمرًا أو زيتًا أو أيّ سلعةٍ أخرى؛ أقول، إذا كنت ترجو فوقَ ما أعطيت، تكون مرابيًا، ومُلامًا أكثر منك محمودًا. وما العمل، تقول لي، لكي أكون مرابيًا حكيمًا؟ أنظر ما يصنعه المرابي. يُريد، بالطبع، أن يُعطيَ أقلّ، ويستردّ أكثر؛ فافعل مثلَه: أعطِ القليل، وخُذ الكثير. وانظر ما تجنيه من ربح. أعطِ خيور الزمن، تفُزْ بخيور الأبد؛ أعط الأرض، تفُزْ بالسماء. ولعلّك تقول لي: لكن لمن أُعطيها؟ - ها إنّ الله حاضرٌ لكي تُقرِضه، هو الذي منعك من الإقراض بالربا. أسمع، في الكتاب، كيف تُقرضُ الربّ: «من يرحمِ الفقير يُقرضِ الربّ» (أمثال ١٩: ١٧). الله بغنىً عنك، أمّا الآخر فبحاجةٍ إليك. فما تُعطيه له، يقبلُه الله عنه. لا يملك الفقير ما يرُدّه إليك؛ يتمنّى أن يردّ فلا يجد ما يردُّه، ولا يبقى له سوى القصد الصالح ليُصلّي لأجلك. والحال، فإنّ البائس الذي يُصلّي لأجلك، يبدو كأنّه يقول لله: يا ربّ، عليّ دينٌ، فكن أنت كافلي. في هذه الحال، إذا كان الفقير غير قادرٍ على الإيفاء، فإنّ لك في الله ضمانةً أكيدة. فاسمع الله يقول لك في الكتب: أعطِ بلا وجَل، فإنّي أنا الكفيل. فماذا يقول الكُفلاء عادةً؟ ما هي لغتُهم؟ - أنا من سأردّه إليك؛ أنا الذي آخذه، ولي أنا تُعطيه. أفنؤمن نحن بأنّ الله يقول لنا أيضًا: أنا الذي آخذُه، ولي أنا تعطيه؟ أجل، بكلّ تأكيد، إذا كان المسيح الذي هو الله، وهذا ما لا يشكّ فيه أحد، هو الذي قال:

«جعتُ فأطعمتموني». وحين سألوه: «متى رأيناك جائعًا»، ولكي يُبيّن لنا أنّه كافل الفقراء، وأنّه الضامن لجميع أعضائِه، لأنّه هو الرأس وهم الأعضاء، وما ينالُه الأعضاء يناله الرأس أيضًا، أجاب: «ما صنعتموه مع أصغرِ إخوتي، فمعي صنعتموه». تشجّع، إذًا، أيّها المرابي الطمّاع: أُنظر ما أعطيتَه، وانظر ما ستنالُه بالمقابل. إذا كنت لم تُعطِ سوى حفنةٍ ضئيلةٍ من المال، وأعاد لك المُستقرِض بدل الحفنة الضئيلة حقلًا فسيحًا أثمن بكثيرٍ ممّا أعطيتَه، فبأيّ شكرٍ تُقابلُه وأيّ فرحٍ يكون فرحُك! فاسمع أيّ مُلكٍ سيعطيك من أقرضتَه: «تعالَوا يا مبارَكي أبي، رثوا...»، ماذا؟ ما أعطيتموه؟ قطعًا لا! أَعطيتم كنوزًا أرضيّة، كانت لتصدأ في الأرض لو لم تُقرضوها. ماذا كنتم لتفعلوا بها لو لم تُقرضوها؟ ما كان سيبلى في الأرض، يُحفَظُ في السماء. ذاك هو الكنز المحفوظ الذي سنرِثُه. استحقاقُكم هو المحفوظ، واستحقاقكم هو كنزكم. أُنظروا الآن ما سوف تستحقّون: «رِثوا الملكوت المعدَّ لكم منذ إنشاء العالَم». وبالمقابل، أيّ كلام سيسمع الذين لم يُريدوا أن يُقرِضوا الله؟ - «إذهبوا إلى النار الأبديّة المعدَّة لإبليس وملائكتِه». وما هو الملكوت الذي نرثُه؟ - إسمعوا التتمّة: «فيذهب هؤلاء إلى العذاب الأبديّ والصدّيقون إلى الحياة الأبديّة» (راجع متّى ٢٥: ٣٤-٤٦). فسيروا نحو هذا الملكوت، واشتروا هذا الملكوت، وأَقرِضوا لتربحوا هذا الملكوت. المسيح الجالس على عرشِه في السماء هو شفيعكم على الأرض. هكذا يُقرِض الصدّيق: «النهار كلَّه يرأف ويُقرِض».

٧ - «وتكون ذرّيّته مباركة» (٣٦: ٢٦). لا يذهبْ بنا الفكر إلى ذرّيّة بشريّة. غالبًا ما نرى أبناءَ الصدّيق يموتون جوعًا؛ فكيف تكون ذرّيّته مباركة؟ ذرّيّتُه أعماله: ما يزرعُه ليحصدَه لاحقًا. لأنّ الرسول قال: «لا نتراخَ في عمل الخير، فإنّا سنحصُد في الأوان بلا تعب. وما

دامت لنا الفرصة، فلنحسِن إلى الجميع» (غلاطية ٦ : ٩). تلك هي ذرّيتُك التي ستتبارَك. تعهد إلى الأرض بزرعِك، فتجنيه مائة ضعف، أفتخسرُه إذا عهدت به إلى المسيح؟ سنرى فكرة «الزرع» نفسَها يتكلّم عنها القدّيس بولس الرسول بصورة معبّرة. يقول: «من يزرع قليلًا يحصد قليلًا، ومن يزرع في البرَكة، يحصد في البركات» (٢ قورنتس ٩ : ٦). لكن، لعلّك تَعنى في الزرع، وينفطِر قلبك لرؤية البائسين ومؤاساتِهم. يأتي يومٌ أفضل لا نعود نلقى من نؤاسيه. فعندما يغدو الجميع غير قابلين للفساد، لا يعود ثمّة جائعٌ تُعطيه ليأكل، ولا عطشان تُعطيه ليشرب، ولا عارٍ لتكسوه، ولا غريب لتأويه؛ أمّا في هذه الدنيا، فإنّا نزرع بالدموع وبالتجارب وبالآلام وبالحسرات. لكن، إليكم ما يقول مزمورٌ آخر: «كانوا ينطلقون باكين وهم ينثرون بذارَهم». «زرعُهم سيكون مباركًا؛ ويرجعون مرنّمين فرِحين وهم حاملون حُزَمَهُم» (١٠٥ : ٦).

٨ - فانظر ما يلي وحذارِ الكسل: «جانب الشرّ واصنع الخير» (٣٦ : ٢٧). إحترز ألّا تظنّ أنّه يكفيك ألّا تسلب امرأً ثوبَه. في عدم تعريتِه مجانبةٌ للشرّ؛ لكن لا تُجفّف قلبَك فتغدو عقيمًا. إعرف، في آنٍ معًا، ألّا تُعرّي المكتَسي، وأن تكسوَ العريان. في ذا مجانبةُ الشرّ وصنع الخير. تقول: وما فائدتي من ذلك؟ - سبق للذي تُقرضُه أن أخبرك أيّ ربح تجني: سيُعطيك الحياة الأبديّة، فأقرِضهُ بلا وجل. إسمع أيضًا ما يلي: «جانب الشرّ واصنع الخير، تسكنْ إلى دهر الدهور». ولا تذهبَنَّ إلى الإعتقاد بأنّ عطاياك لا يراها أحد، أو أنّ الله يخذلك إذا داهمك سوءٌ أو خسارة مؤلمة بعد صدقةٍ إلى مُعوزٍ؛ لا تقُلْ: ماذا أجني من أعمالي الصالحة؟ يبدو أنّ الله لا يُحبّ الذين يصنعون الخير. - من أين تأتيك هذه الدسيسة التي تبثّها؟ من أين هذه البلبلة

التي تسري بينكم إلّا لأنّ الكلمات التي أذكّركم بها مألوفة لديكم؟ كلُّ منكم يعرِفها، إمّا لأنّه ردّدها، أو لأنّه سمعها من جار أو صديق. أسأل الله أن يمحو أثرها وأن يقتلع من حقلِه الشوك كلّه؛ وليزرع فيه جيّدَ الحَبّ، ومثمِرَ الشجر. - لِمَ الحسرة، إذًا، أيّها الإنسان، إذا مُنيت بخسارةٍ على أثَر صدقةٍ صنعتَها لبائس؟ ألا ترى أنّك خسرت ما لم تجُدْ به؟ لماذا لا تميل عينَيك نحو إلهِك؟ أين إيمانُك؟ لماذا ينام؟ أيقِظهُ في قلبِك. تذكّر ما قاله لك الربُّ وهو يحثّك على صنع هذا النوع من الأعمال الصالحة: «إجعلوا لكم أكياسًا لا تبلى، وكنزًا في السماء لا ينفَد، حيثُ لا يقربُه سارق» (لوقا ١٢: ٣٣). عندما تُمنى بخسارة، تذكّر هذا القول. علامَ بكاؤك، أيّها الأحمق، يا عقيم القلب وفاسدَه؟ لماذا خسرت؟ أليس لأنّك لم تُقرِض؟ من سلبك ما تبكيه؟ لعلّك تقول: إنّه السارق. ألم أنبّهك ألّا تضع كنزك حيثُ يصلُ السارق؟ فإذا تفجّع من مُنيَ بخسارة، فليتفجّع لكونه لم يضَع كنزَه حيثُ لا يخسرُه.

٩ - «فإنّ الربّ يُحبّ العدل ولا يخذل أصفياءَه» (٣٦: ٢٨). عندما يقع أصفياء الله في ضيق، فحذار أن تظنَّ أن الله يمتنع عن القضاء، أو أنّه يظلم في قضائِه. فهل يسع الذي يُنبّهك لكي تحكم بالعدل، أن يظلم في قضائه؟ «إنّه يُحبّ العدل ولا يخذل أصفياءَه»، لكن بطريقةٍ تكون معها حياة أصفيائِه مستترةً فيه، وجميع المتألّمين في الأرض مثل أشجارٍ عرّاها الشتاء من الثمر والورق؛ وحين يظهر مثل شمسٍ جديدة، فإنّ الحياة المستترة في الجذور ستَظهَر في ثمار الشجر. «إنّه يُحبّ العدل ولا يخذل أصفياءَه». يتضوّر الصفيّ جوعًا، لكنّ الله لن يخذلَه، هو الذي «يؤدّب كلّ ابنٍ يتّخِذه» (عبرانيّين ١٢: ٦). تزدري ذاك الإبن وهو يؤدّب، وستُذهَل يوم تراه يرث النعيم. فكيف يؤدَّب؟ - بالشدائد الزمنيّة. متى ينعم بالميراث؟ - عندما يسمع قول الربّ:

«تعالَوا يا مبارَكي أبي رثوا الملك المعدّ لكم من قبل إنشاء العالَم». فارتضوا التأديب بحماسة، لكي تكونوا بين الذين يستحقّون أن يُقبَلوا. الله يُحبّ العدل ولا يتخلّى عن أصفيائِه، حتّى ولو بلاهم إلى حين. وبما أنّه يؤدّب كلّ ابن يتّخِذُه، فإنّه لم يوفّر ابنه الوحيد الذي لم يجد فيه خطيئة. «الربّ يُحبّ العدل ولا يخذل أصفياءَه». لكن، إذا كان لا يخذلهم، فهل يُعطيهم ما يشتهونه في هذه الدنيا من سنين عديدة وشيخوخة مديدة؟ ألست ترى أنّ باشتهائك الشيخوخة، إنّما تشتهي ما ستشكو منه عندما يأتي. فلا تدع نفسك توسوِس لك، عن مكرٍ، أو عن ضعفٍ، أو عن جهل، وتقول: كيف يصحّ أن يُحبّ الربّ العدل ولا يخذل أصفياءَه؟ في الحقيقة، هو لم يتخلَّ عن الفتية الثلاثة الذين كانوا يُسبّحونَه في الأتون، فلم تمسَّهم النار (راجع دانيال ٣: ٥٠). لكن، ألم يكن المكابيّون أصفياءَه، عندما أكلت النار أجسادَهم ولم تمسَّ إيمانَهم؟ (راجع ٢ مكابيّون ٧: ٧). تقول: هذه مسألة أشدّ خطورة، لأنّ إيمانهم لم يتزعزع ومع ذلك خذلهم الربّ. إسمع ما يلي: «سيُحفظون إلى الأبد». كنت تتمنّى لهم بضع سنواتٍ إضافيّة تكون دليلًا لك على أنّ الله لا يخذل أصفياءَه. على نحوٍ منظور لم يخذل فِتيَة بابل، وعلى نحوٍ غير منظور لم يخذل المكابيّين؛ كان يخزي الكفَرة حين وهب فِتية الأتون حياة الدنيا؛ ويخزي قُضاة الظلم حين كلّل المكابيّين بالمجد بصورة غير منظورة. لكنّ الذي لا يخذل أصفياءَه، لم يخذل لا هؤلاء ولا أولئك. وما كان الفتية الثلاثة إلّا لينالوا ثوابًا ضئيلًا لو لم يحفَظوا للأبديّة. «وسيُحفظون إلى الأبد».

١٠ - «أمّا الأثمة فيُعاقبون، وذرّيّة المنافقين تُستأصَل» (٣٦: ٢٨). فكما أنّ ذرّيّة الصدّيق تتبارَك، هكذا «تُستأصَل ذرّية المنافق»، لأنّ ذرّيّة المنافق أعماله. والحال، فإنّنا نرى ابن المنافق ناجحًا في

العالَم، وأحيانًا يصيرُ بارًّا ويُزهِر في يسوع المسيح. فابحث جيّدًا عن معنى هذه الكلمات لكي تفتح السقف وتصل إلى المسيح (راجع لوقا ٥ : ١٩). إحترِز ألّا تفهمها بمعناها المادّيّ، فإنّك تضلُّ. إنّ ذرّيّة المنافقين، أي أعمالُهم، تفنى ولا تُثمِر. لأنّ قوّتَهم إلى حين، وبعدها يبحثون عمّا فعلوه فلا يجدون له أثرًا. سيقول الذين خسروا ثمرة أعمالهم: «ماذا نفعتنا الكبرياء، وماذا أفادَنا افتخارنا بالأموال. تلاشى ذلك كلُّه كالظِّلّ» (حكمة ٥ : ٨). إذًا: «ذرّيّة المنافق تُستأصَل».

١١ - «أمّا الصدّيقون فيرثون الأرض» (٣٦ : ٢٩). لا تدع الطمع يتسلّل إليك ثانيةً. لا يعِدنّك بالأملاك الشاسعة، ولا يُمنّيَنَّ نفسَك بما أمرك الله بازدرائِه. هذه الأرض، هي أرض الأحياء، ومملكة القدّيسين. وهذا ما دفع النبيّ إلى القول: «أنت مُعتصَمي، أنت ميراثي في أرض الأحياء» (مزمور ١٤١ : ٦). إذا كانت تلك حياتُك، فافهم أنّها الأرض التي سترثُها. إنّها أرض الأحياء، أمّا هذه، فأرض الأموات، والذين غذَتهم أحياءً ستستقبلهم في بطنِها أمواتًا. الأرض بمثابة الحياة: فإذا كانت الحياة أبديّة، فإنّها أرض أبديّة. فكيف تكون هذه الأرض أبديّة؟ «يسكنونَها إلى أبد الدهور». إذًا، تلك الأرض الأخرى ستكون الأرض التي نسكنها إلى أبد الدهور. لأنّه عن هذه الأرض قيل: «السماء والأرض تزولان» (متّى ٢٤ : ٣٥).

١٢ - «فم الصدّيق يهذّ بالحكمة» (٣٦ : ٣٠). ذاك هو الخبز الذي تكلّمنا عنه. أنظروا بأيّ لذّةٍ يأكله صدّيقُنا، وكيف يتلذّذ فمُه بالحكمة. «ولسانه ينطق بالعدل؛ وفي قلبِه شريعة إلهِه» (٣٦ : ٣٠، ٣١). ولئلّا تظنّوا أنّ كلمات فمه غير مشاعر قلبِه؛ ولئلّا تضعوه في عداد الذين قيل عنهم: «هذا الشعب يُكرّمني بالشفاه وقلبُه بعيدٌ عنّي» (أشعيا ٢٩ :

١٣)، يقول النبيّ إنّ لسانه ينطق بالعدل لأنّ شريعة الله في قلبِه. وماذا يربح؟ - «خطواته لا تزلّ». كلمة الله في القلب تقيه من كلّ شَرْك؛ كلمة الله في القلب تقيه سبُل الشرّ. كلمة الله في القلب تقيه من كلّ زلل. إن لم تبتعد كلمتُه عن قلبِك، كان معك. فأيّ سوءٍ يمكن أن يصيب من كان الله حارسَه؟ تُوكِل إلى إنسانٍ حراسة كرمِك، لتأمن شرّ اللصوص؛ على أنّ الحارس قد ينام، أو قد ينهزم أمام اللصّ: «أمّا حافظ إسرائيل فلا ينام ولا يوسَن» (مزمور ١٢٠: ٤)، «لأنّ شريعة الله في قلبِه وخطواته لا تزلّ». فليعِش، إذًا، بسلام، وليعِش بسلامٍ حتّى في وسط الأشرار، وليعش بسلامٍ حتّى في وسط المنافقين. فأيّ شرٍّ يستطيع أن يصنعه الشرّير والمنافقُ للصدّيق؟ أنظر ماذا يُضيف: «المنافق يرصد الصدّيق، ويلتمسُ قتلَه» (٣٦: ٣٢). والحال، فإنّه يقول ما دُوّن في سفر الحكمة: «أضنتنا رؤيتُه، لأنّ سيرتَه تختلف عن سيرة الآخرين» (حكمة ٢: ١٥)، فيسعى إلى قتلِه. ماذا إذًا؟ أيتخلّى عنه الربّ الذي يحفظه ويسكن معه ولا يُفارق فمه ولا قلبَه؟ فأين نحن، إذًا، ممّا قيل من أنّه «لا يخذل أصفياءَه»؟

١٣ - إذًا، «المنافق يرصد الصدّيق ويلتمس قتلَه، لكنّ الربّ لن يتركه في يدَيه» (٣٦: ٣٢، ٣٣). فلماذا، إذًا، ترك الشهداء في أيدي الأشرار يصنعون بهم ما أرادوا؟ هذا ضربوه بالسيف، وهذا سمّروه على الصليب، وذاك طرحوه للوحوش، وأولئك ألقوهُم في النار، وغيرهم في السجون ليُميتوهم ببطء. أهكذا لا يخذل الربّ أصفياءَه ولا يتركهم في أيدي المنافقين؟ فلماذا ترك ابنه في أيدي اليهود؟ هنا، إفتح السقف إن كنتَ تُريد أن تشفى من كلّ شللٍ داخليّ؛ تقدّم إلى الربّ، واسمع ما يقوله لنا الكتاب في مكانٍ آخر، متنبّئًا بالآلام التي كان سيعانيها الربّ من الأشرار. ماذا يقول الكتاب؟ - «دُفِعت الأرضُ

إلى يدَي المنافق» (أيّوب ٩: ٢٤). ما معنى «دُفِعت الأرضُ إلى يدَي المنافق»؟ أي أنّ الجسد دُفِع إلى أيدي المُضايقين. والربّ، في هذه الحال، لم يخذل الصدّيق، فأنقذ من الجسد الأسير نفسَه المنتصِرة. كان الله ليترك الصدّيق في أيدي المنافقين، لو انّه ترك الصدّيق يرضخ لأرادة المنافق؛ ولكي يتحاشى هذه البليّة، رفع النبيّ في مزمور آخر هذه الصلاة: «لا تُسلِمني يا ربّ إلى رجل الإثم على حسب أهوائي» (١٣٩: ٩). يُخشى أن تودي بك أهواؤك إلى السقوط في يدَي المنافق، ويُلقي بك حبُّك الحياةَ الفانيةَ تحت سلطانِه، فتخسر الحياة الأبديّة. وبأيّ هوى يريدك ألّا تسقط في يدَي المنافق؟ - بالهوى الذي يقول عنه نبيٌّ آخر: «علِمتَ أنّي ما تمنّيت بلهفةٍ يوم الإنسان» (إرميا ١٧: ١٦). والحال، فإنّ الذي يتمنّى بلهفةٍ يوم الإنسان، إذا واجه عدوًّا يُهدّدُه بخسارة يوم الإنسان هذا، ويريد أن يسلبَه الحياة، سرعان ما يسقط، لأنّه لا يرجو الحياة في الآخرة، فيرضخ لمشيئة عدوِّه. أمّا الذي يُصغي إلى صوت الربّ يقول له: «لا تخافوا ممّن يقتل الجسد ولا يستطيع أن يقتل النفس» (متّى ١٠: ٢٨)، فيوم تُسلم الأرض، أي الجسد الترابي إلى أيدي المنافقين، تتحرّر الروح من ذلك التراب الأسير، وفيما تنعتق الروح، يُبعثُ التراب إلى الحياة. تنطلق الروح لتسكن في الله، ويتحوّل التراب ليسكن في السماء. لأنّه لا شيء يفنى من ذاك التراب الذي تُرِك، لزمن، في أيدي المنافقين: «شعور رؤوسكم مُحصاة» (متّى ١٠: ٣٠). فاطمئنّوا إذا كان الله في داخِلكم. تطردون الشيطان من قلوبِكم، فيدخلُها الله للحال. «لا يترك الربّ الصدّيق في يدَي المنافق، ولا يُؤثِّمُه في قضائِه». ونقرأ في ترجمات أخرى: «وعندما يقاضيه الله، فإنّه يقضي له». يُقاضيه: أي يُخضِعه للمحاكمة؛ كأن تقول: قاضِني، أي استمع إلى دعوايَ. إذًا، بعد أن

يستمع الربّ إلى دعوى صفيِّه، «لأنّا جميعنا لا بدّ أن نظهر أمام منبر المسيح لننال، على حسب ما صنعنا، بالجسد، خيرًا كان أو شرًّا» (٢ قورنتس ٥ : ١٠)؛ عندما يحين زمان محاكمة الصدّيق، لن يدينَه الله، ولو بدا، لحين، أنّ البشر أدانوه. باطلًا أدان الحاكم قبريانُس، فإنّ محكمة الأرض شيء، ومحكمة السماء شيءٌ آخر: أدانته محكمة الأرض، وبالمجد كلّلته محكمة السماء. «لا يؤَثِّمُه في قضائِه».

١٤ - لكن، متى يكون هذا؟ هذا ليس شأنك. الآن أوان العمل، أوان الزرع، أوان البرْد؛ فازرع رغم الرياح والمطر، ولا تتكاسل؛ يأتي الصيف فتتعزّى وتفرح لأنّك زرعت. وماذا أعمل الآن؟ - «إنتظِرِ الربّ» (٣٦: ٣٤). - وفي انتظارِه؟ - «إحفظ طُرُقَه» - وإن حفظتُها فبمَ أكافأ؟ - «يرفعك لترث الأرض» (٣٦: ٣٤). وأيّ أرض؟ - مرّةً أخرى، لا يقودنّك الفكر إلى ميراثٍ أرضيّ. ميراثك الأرض التي قيل عنها: «تعالَوا يا مبارَكي أبي، رثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشاء العالَم» (متّى ٢٥ : ٣٤). وماذا يحلّ بالذين اضطهدونا، والذين عانينا في وسطِهم، والذين احتملنا شرَّهم، والذين لم تنفع فيهم صلواتُنا لأجلهم وهم يضايقوننا؟ ماذا يحلّ بهم؟ إليكَ التتمّة: «عند استئصال المنافقين، ترى»؛ ويا لقُرب ما سوف ترى! لأنّك ستكون إلى اليمين، وهم إلى اليسار. لكنّك سترى بعين الإيمان. والذين لا يملكون عين الإيمان، يغارون من سعادة المنافقين، ويعتقدون أنّ برّهم باطل إذ يرَون المنافق مكرّمًا في هذه الدنيا. لكن، ماذا يقول من يملك عين الإيمان؟ - «رأيت المنافق مُعتزًّا، شامخًا فوق أرز لبنان»[1] (٣٦: ٣٥). هوذا

(١) هكذا وردت الآية في الفولغاتا: «vidi impium superexaltatum et elevatum sicut cedros Libani» وفي السبعينيّة: «εἶδον ἀσεβῆν ὑπερυψούμενον καὶ ἐπαιρόμενον καὶ ἐπαυρόμενον ὡς κέδρους τοῦ Λιβάνου» وفي الترجمة=

مرتفعٌ إلى أعلى المراتب؛ هوذا محلّقٌ إلى الذروة؛ وبعدها؟ – «ثمّ عبرتُ[٢] فلم يكن، والتمستُه فلم أجد مكانَه» (٣٦: ٣٦). لماذا لم يعُد موجودًا، ولا عُثِر له على مكان؟ – لأنّك عبرتَ. لكن، إذا كانت لا تزال لديك أفكارٌ جسديّة، ولا تزال السعادة الأرضيّة تبدو لك سعادة حقيقيّة، فأنت لم تعبُر بعدُ، وما برحت مساويًا للمنافق، أو أدنى؛ فامشِ، واعبُر؛ وعندما تتجاوزُه في طريقِك، تطلّع بعين الإيمان، فترى نهايتَه، وتقول في نفسِك: لم يعدْ هنا ذاك الذي كان منتفخًا بالكبرياء؛ كما لو انّك عبرت بسحابةٍ من دخان. وهذا ما سبق أن قاله مزمورُنا: «يضمحلّون كالدخان» (٣٦: ٢٠). يرتفع الدخان في الجوّ مثل كرةٍ كثيفة، كلّما ارتفعت امتدّت. لكن، عندما تكون قد عبرتَ، تطلّعْ إلى الوراء، ترَ الدخان وراءك، والله أمامك. لكن، لا تتحسّر على ما وراءَك، كما تحسّرت امرأة لوط فصارت نُصبَ ملح (راجع تكوين ١٩: ٢٦)؛ بل تطلّع من فوق، ترَ أنّ المنافق لا وجود له في أيّ مكان، فتلتمس مكانَه ولا تجده. ما هو مكانُه؟ مكانُه في سلطانِه، في غناه، في المركز الذي يحتلّه في العالَم ويُخضِع له العدد الكبير فيأمُر ويُطاع. هذا المكان لن يكون بعدُ، بل يزول، ويصير بوسعك أن تقول: «عبرتُ، فلم يكن». ما معنى: عبرتُ؟ أي تقدّمتُ فبلغتُ الحياة الروحيّة، ودخلتُ هيكل الله لأتأمّل في آخرة الشرّير (راجع مزمور ٧٢: ١٧). «فلم يكنْ، والتمستُه فلم أعثر حتّى على مكانه».

=المسكونيّة الحديثة: «رأيت الشرّير في طغيانِه متعاليًا مثل أرز لبنان». أمّا في العبريّة: רָאִיתִי , רָשָׁע עָרִיץ ; וּמִתְעָרֶה , כְּאֶזְרָח רַעֲנָן. أي رأيت المنافق معتزًّا شامخًا مثل شجرة نضرة.

(٢) وردت أيضًا في بعض المخطوطات: ثمّ مضى (بصيغة الغائب، أو عبر وجاز)، فلم يكن.

١٥ - «صُن البراءة». صُنها كما كنت تصون فضّتك أيّام بخلِك؛ وكما كنت تصونه لئلّا ينتزعه منك سارق. هكذا صن براءتَك وارعَها لئلّا يخطَفها منك إبليس. ولتكُن في حرزٍ حريز، إرثًا لك يغتني منه حتّى الفقراء. «صن براءتك». ماذ ينفعك أن تربح الذهب، إذا خسرت البراءة؟ «صنِ البراءة وارعَ الاستقامة» (٣٦: ٣٧). لتستقِم عيناك، فترى ما هو مستقيم؛ ولا تسوءا فترى المنافق؛ ولا تنحرِفا، فيبدو لك الله منحرفًا أو ظالمًا، لأنّه يُعِزُّ المنافق ويضطهد الأمين. ألا ترى كم هو منحرفٌ نظرُك؟ صحّح عينيك وانظر باستقامة. فماذا أرى؟ - إحترز ألّا تلتفت إلى الأمور الحاضرة. فماذا أرى، إذًا؟ - «إنّ لرجل السلام عاقبةً تبقى». فما هي العاقبة التي تبقى؟ - بعد موتِك لن تكون ميتًا: تلك هي عاقبتُك الباقية. سيبقى للصدّيق شيءٌ بعد هذه الحياة؛ أي أنّ زرعه سيكون مبارَكًا. لهذا قال الربّ: «من آمن بي وإن مات فسيحيا» (يوحنّا ١١: ٢٥)؛ «لأنّ لرجل السلام عاقبةً تبقى».

١٦ - «أمّا العصاة فيُبادون عن بكرة أبيهِم»، أي جميعًا وإلى الأبد، «وعاقبة المنافقين تُستأصَل» (٣٦: ٣٨). وأمّا صاحب السلام فإنّ له عاقبةً تبقى؛ لأنّ جميع الذين ليسوا مُسالِمين إنّما هم منافقون. «طوبى لصانعي السلام فإنّهم أبناء الله يُدعَون» (متّى ٥: ٩).

١٧ - «من الربّ خلاص الصدّيقين، وهو حصنٌ لهم في أوان الضيق؛ ينصرُهم الربّ ويُنجّيهم ويُنقذُهم من أيدي المنافقين» (٣٦: ٣٩، ٤٠). فليحتمِل الآن الصدّيقون المنافقين، ولتحتمِل الحنطةُ الزؤانَ، والقمحُ القشَّ؛ فسيحين أوان الفصل، وننقّي الحبَّ الجيّد من القشّ الذي ستأكلُه النار. يُحفَظُ الحبّ الجيّد في الأهراء، ويُطرح القشّ في النار الأبديّة؛ لم يتركِ الله الصدّيقَ والمنافقَ يعيشان معًا، إلّا لكي ينصب المنافق الشِباكَ فيُدان، ويُمتحَن الصدّيق فيُكلّل بالمجد.

١٨ - الشكر لله، يا إخوتي، على أنّنا وفينا دينَنا باسم المسيح؛ غير أنّنا ما زلنا مدينين لكم بالمحبّة؛ لأنّ المحبّة تبقى هي هي، والدَين الذي توجِبه يبقى مستحَقًّا، ولو دُفِع كلَّ يوم. لقد اضطرّنا الدوناتيّون إلى الإكثار من الكلام بشأنِهم، وأوردنا الكثير من الأقوال والوثائق التي تتناقض مع الكتب المقدّسة. فإذا كانوا يلومونني لكوني تلوت عليكم تلك الوثائق، فإنّي أقبل لومَهم، ما دام هدفي أن تكونوا عارفين بحالِهم. وبوسعنا أن نردّ عليهم ونقول: «ارتكبت حماقةً وأنتم ألجأتموني» (٢ قورنتُس ١٢: ١١). إلى ذلك، يا إخوتي، حافظوا، قبل أيّ شيء، على إرثنا الذي نحن على يقينٍ من أنّنا دُعينا إليه بوصيّةٍ من الآب؛ لا بوصيّةٍ باطلةٍ من إنسان، بل بوصيّةٍ من أبينا. وإنّنا لعلى يقينٍ من صدقِها، لأنّ الذي أمضى الوصيّة حيّ. والذي أمضى الوصيّة للوارث، هو الذي سيقضي بنفسِه في أمر وصيّته. في قضايا الناس، الموصي غيرُ القاضي؛ ومع ذلك، فإنّ الذي يملك الوصيّة يربح دعواه أمام محكمة القاضي، لا أمام محكمة الذي أوصى ومات. فكم علينا أن نكون على يقينٍ من النصر، عندما يكون الموصي هو قاضينا! لأنّه إذا كان المسيح قد مات في الزمن، فإنّه حيٌّ إلى الأبد.

١٩ - فليقولوا عنّا ما شاؤوا، فسنُحبّهم رغمًا عنهم. لأنّنا، يا إخوتي، نعرف كلامهم؛ فاحترزوا ألّا يُثير كلامهم غضبَكم. تحمّلوهم معنا بصبرٍ. يعرفون أنّه لم يعد لديهِم ما يردّون علينا به، فينقلبون علينا، ويكيلون لنا اللوم تلو اللوم، ناطقين بما يعرفون وبما لا يعرفون. ما يعرفونه هو ماضينا، لأنّنا، على ما يقول الرسول: «كنّا في الماضي أغبياء كفرة بعيدين عن كلّ عملٍ صالح» (طيطس ٣: ٣). لا ننكر أنّنا، خلافًا لكلّ تعقّل، كنّا أغبياء ووقعنا في ضلالٍ مُنكَر. وبقدر ما نُقِرّ

بماضينا، فإنّنا نبارك الله الذي غفرَ لنا[٣]. فيا أيها المهرطق، لماذا تُهمِل دعواك لتنقضّ على إنسان؟ من أكون أنا؟ من أنا؟ هل أنا الكنيسة الكاثوليكيّة؟ هل أنا ميراث المسيح المنتشر في كلّ الأرض؟ حسبي أن أكون جزءًا منه. تُعيّرني بذنوبي الماضية، فأيّ أمرٍ خارقٍ تأتي؟ أنا أقسى على نفسي منك أنت عليّ؛ وما تُعيّرني به، أدنتُه أنا. حبّذا لو تقتدي بي ذات يوم، لكي تُصبح خطيئتُك من الماضي! خطاياي الماضية يعرفها الجميع، خاصّةً في هذه المدينة. ففيها عشت في الفساد؛ أعترف بذلك. وبقدر ما تُفرحُني نعمة الله، بقدر ما يؤلمني ماضيّ. أأقول إنّه يؤلمني؟ أجل لكان مؤلمًا لو استمرّ. ماذا أقول؟ أأقول إنّه يُفرحني؟ - لا أستطيع أن أقول هذا. ألا ليتني لم أكن يومًا على مثل تلك الحال! لكنّي، بفضل المسيح، لم أعد كما كنت. أمّا ما يُعيّرونني به حاضرًا، فإنّهم لا يعرفونَه. لا شكّ أنّ فيّ ما أُعاب عليه، لكنّ معرفتَهم به ادّعاءٌ باطل. تراودني هواجس جمّة، ولا أنفكّ أصارع الأفكار الشرّيرة التي تُحاصرُني، وعليّ أن أتحمّل صراعًا طويلًا، وشبه متواصل مع العدوّ الذي يسعى إلى هلاكي. في بؤسي أنتحب أمام الله؛ وهو يعرف ما أحمل في داخلي، ويعرف الثمار التي أُنتجُها. يقول الرسول: «قلّما يهمّني أن أقاضى أمامَكم أو أمام محكمة إنسان، بل أنا أيضًا لا أقاضي نفسي» (١ قورنتس ٤ : ٣). فأنا أعرف نفسي أكثر ممّا يعرفونني، لكنّ الله يعرفني أكثر ممّا أعرف نفسي. أسأل المسيح ألّا يكون لديهم ما يُعيّرونكم به لأجلي. فإنّهم يقولون: من يكون هذا؟ من أين يأتي؟ عرفناه سالكًا في الفساد في هذه المدينة، فأين تعمّد؟ لو

(٣) يتكلّم القدّيس عن ماضيه المعروف من الجميع، من طفولتِه إلى اهتدائِه، وبخاصّة عن مرحلة اتّباعه المانويّة لتسع سنين. راجع كتاب «إعترافات القديس أوغسطينُس» الذي نقله إلى العربيّة الخوري يوحنّا الحلو (منشورات دار المشرِق).

كانوا يعرفونني جيّدًا، لعرفوا أنّني عبرت البحر في زمنٍ مضى، وسافرت إلى بلادٍ غريبة، وأنّني رجعت منها على غير ما ذهبتُ إليها. لم أعتمد هنا، بل إنّ الكنيسة التي اعتمدتُ فيها معروفة في العالَم كلّه (راجع كتاب الإعترافات ٩: ٦). كثيرون من إخوتِنا يعرفون أنّني اقتبلتُ العماد وأنّهم اقتبلوه معي. من السهل معرفة هذا الأمر إذا كان فيه ما يُطمئِن إخوتنا. لكن هل من شيءٍ يُجبرني على إرضاء الخصوم فأقدّم إليهم شهادة كنيسة لا تربطهم بها شركة؟ طبيعيٌّ ألّا يعرفوا أنّي اعتمدت باسم المسيح، وراء البحار، لأنّهم لا يعترفون بوجود مسيحٍ وراء البحار. وحدَه يعرف أنّ المسيحَ وراء البحار، من كان في شركةٍ مع الكنيسة الجامعة وراء البحار. كيف لدوناتيّ أن يعرف أين اعتمدت، إذا كانت شركتُه تكاد ألّا تتعدّى الشواطئ؟ ومع ذلك، ماذا أقول لهم، يا إخوتي؟ شكّوا بحالي ما طاب لكم. فإذا كنت صالحًا، فأنا حنطةٌ في كنيسة المسيح؛ أو منافقًا فلست سوى قشّ في كنيسة المسيح، إلّا أنّني لم أخرج من البيدر. أمّا أنت الذي حملتك ريح التجربة إلى الخارج، فمن تكون؟ لا تحمل الريحُ الحَبَّ إلى خارج البيدر؛ من مكانك اعرَف من تكون.

٢٠ - لكنّك تقول لي: من أنت لتُكثر الكلام علينا؟ - أيًّا أكن، أصغِ إلى الكلام ولا تلتفت إلى المتكلّم. تُصرّ وتقول: لكنّ الربّ قال للمنافق «ما لك تفتح فاكَ لتنطق بعهدي؟» (مزمور ٤٩: ١٦). أفهم أن يقول الله للمنافق هذا الكلام، فثمّة صنفٌ من المنافقين يستحقّون أن يُقال لهم. لكن، أيًّا يكن من يوجّه إليه الربّ هذا الكلام، فإنّه يقولُه لكي يُبيّن أنّه لا فائدة للمنافق من التبشير بشريعة الله. لكن، ألا يمكن أن يكون في تبشيره فائدة لسامعيه؟ لدينا في الكنيسة، بحسب قول الربّ نفسِه، نوعان من المبشّرين: فيها صلّاحٌ وفيها منافقون. ماذا يقول

الصلّاح في عظاتِهم؟ - «إقتدوا بي كما أنا أقتدي بالمسيح» (١ قورنتس ٤ : ١٦). ماذا يُقال للصلّاح؟ - «كونوا قدوة للمؤمنين» (١ طيموتاوُس ٤ : ١٢). ونحن نجتهد لنكون قدوة؛ أمّا ما هي حالُنا، فوحده الذي يسمع تأوّهاتنا يعلم. وبشأن المنافقين قيل: «الكتبة والفرّيسيّون جالسون على كرسيّ موسى فاعملوا بما يقولون، ولا تعملوا ما يعملون» (متّى ٢٣ : ٢، ٣). نرى الصالح والمنافق كليهما جالسَين على كرسيّ موسى التي خَلَفَتها كرسيّ المسيح؛ لكنّهما إذا تكلّما في الصلاح لا يؤذيان السامعين. فلِمَ، إذًا، أخليت الكرسيّ بسبب منافق يجلس عليها؟ عُد إلى السلام، عد إلى وئام لا يؤذيك. إذا كان كلامي صالحًا وأعمالي صالحة، إقتدِ بي. أمّا إذا كنت لا أعملُ ما أنادي به، فاتّبع مشورة الربّ، واعمل بما أقول، واجتنب ما أعمل؛ لكن، لا تنفصل عن الكرسيّ الكاثوليكي. أمّا نحن، فإنّنا سائرون باسم المسيح، ونترك للدوناتيّين أن يقولوا ما يشاؤون. كيف نوقف هذا السجال؟ لا تهتمّوا لأمزِنا، ولا تطلبوا منهم إلّا الإجابة على سؤالٍ واحد: لِمَ أخليت كرسيًّا بسبب منافق يجلس عليها؟ أوغسطينُس أسقف في الكنيسة الكاثوليكيّة، وهو يحمل الوزنة التي سيُقدّم الحساب عنها إلى الله. إنّي أراه في عداد الصالحين: إذا كان منافقًا فالله يعرف، أو صالحًا، فأنّي لا أتوكّل عليه. تعلّمتُ في الكنيسة الكاثوليكيّة، قبل كلّ شيء، ألّا أتوكّل على إنسان. أمّا أنتم الذين تتوكّلون على إنسان فيعود إليكم أن تناقشوا في قيمة الناس. لا تُبالوا إذا شكَى الدوناتيّون من سلوكِنا، فإنّا نعلم أيّ مكانٍ لنا في قلوبِكم، لأنّا نعلم مكانتكم في قلبنا. لكن احترزوا ألّا تناصرونا عليهم. مهما قالوا لكم عنّا، تجاوزوه سريعًا، لئلّا يُتعبُكم الدفاع عنّا فتُهملون قضيّتكم. يحتالون لكي يصرفوكم عنها؛ يخشَون أن نكلّمكم في صلب القضيّة، وينصبون لنا

الشباك جاهدين في تحويلنا عنها، حتّى إذا انشغلنا في تبرير أنفسِنا، التزمنا الصمت على أخطائِهم التي ينبغي أن نصرفَهم عنها. أمّا إذا اعتبرتموني منافقًا، فأنا أعيّر نفسي بما هو أكثر. دعوني خارج هذا الجدال، واهتمّوا بصلب المسألة، ولا تلتفتوا إلّا لقضيّة الكنيسة، وانظروا أين أنتم. أيًّا يكن الفم الذي يُكلّمك بالحقيقة، فاقبل، بشغف، الطعام الذي يُقدَّم إليك، لئلّا تفتقر للأبد إلى الخبز المقدَّس، إن لم تهتمّ، في كلّ حين، إلّا بالإصغاء إلى الدسائس، وبازدراء الإناء الذي يُقدّم لك فيه.

المراجع

المراجع العربيّة

١ - **التفسير التطبيقيّ للكتاب المقدّس** - *Arabic Life Application Bible* (LAB)، لنخبة من اللاهوتيّين الإنجيليّين، نقله إلى العربيّة: وليم وهبة، جوزيف صابر، صبري بطرس، عاطف سامي، عادل كمال (القاهرة - مصر، ١٩٩٧).

٢ - **قاموس الكتاب المقدّس** (مكتبة المشعل - بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨١).

٣ - **الكتاب المقدّس** (دار المشرق: ١٩٨٦).

٤ - **الكتاب المقدّس** (دار المشرق: ١٩٨٩)

٥ - **الكتاب المقدّس** (جمعيّة الكتاب المقدّس، **العهد القديم**: الطبعة الرابعة؛ **العهد الجديد**: الطبعة الثلاثون).

المراجع الأجنبيّة

1 – *Chaine d'or sur les psaumes* par M. L'Abbé Péronne, Tome 1, Paris, 1878.

2 – *Dictionnaire des noms bibliques.*

3 – *Dictionnaire Grec-Français*, Paris, 1850.

4 – *Dictionnaire Hébreu-Français*, Paris, 1859.

5 – *Dictionnaire Latin-Français,* F. Gaffiot, 1937.

6 – *La Bible de Jérusalem* (Ed. du CERF, 1978).

7 – *La Sainte Bible*, traduction de *l'Ancien Testament* d'après la Septante par P.GIGUET, Paris 1872, Librarie Poussielgue.
8 – *La Sainte Bible* (Ligue Catholique de l'Evangile, Société Civile d'Etudes et de Publications non commerciales, 1ère edition, Paris, 1951).
9 – *La Septante* (version originale grecque, avec traduction française et anglaise).
10 – *La Vulgate* (version latine).
11 – *Les Psaumes commentés d'après la Vulgate et l'hébreu*, par L. - Cl Fillion, Paris, 1803.
12 – *Les Psaumes expliqués d'après l'hébreu, le chaldéen, le syriaque, l'arabe...* par M. L'abbé de la Molette, Paris 1781.
13 – *Les Psaumes expliqués d'après l'hébreu, le chaldéen, le syriaque, l'arabe...* par M. L'abbé de la Molette, Paris 1781.
14 – *Les Psaumes traduits sur la Vulgate* par LE MAISTRE DE SACI, L. Hachette 1838.
15 – *Œuvres complètes de St Augustin* traduites en français et annotées, avec le texte latin, M. l'Abbé Péronne t:12 (1870) t: 13 (1871) Paris.
16 – *Oeuvres complètes de St Augustin* traduites sous la direction de M. Poujoulat et de M. l'abbé Raulx, Bar-le-Duc, 1864-1872.

١٧ - الكتاب المقدّس بالعبريّة مع ترجمتِه إلى الفرنسيّة ספרים سِفريم أي الأسفار (المقدّسة)، نقلَها إلى الفرنسيّة جاك كوهِن.

فهرس المحتويات

مقدّمة ٥

عظة في المزمور الأوّل ٨

عظة في المزمور الثاني: **الكنيسة ومضطهدوها** ١٣

عظة في المزمور الثالث: **داود بمواجهة أبشالوم، أو يسوع بمواجهة يوضاس** ١٨

عظة في المزمور الرابع: **السعادة الحقيقيّة** ٢٨

عظة في المزمور الخامس: **الكنيسة في منفاها أو النفس المؤمنة** ٣٦

عظة في المزمور السادس: **دينونة الله** ٤٨

عظة في المزمور السابع: **صمت يسوع المسيح** ٦١

مزمور لداود رنّم به للرّبّ بسبب كلمات «كوش» البِنيَمينيّ (٧: ١) ٦١

عظة في المزمور الثامن: **معصرة الكنيسة** ٨٢

للغاية، مزمور لداود، حول المعاصر ٨٢

عظة في المزمور التاسع (أ): **أعمال يسوع المسيح السرّيّة** ٩٥

عظة في المزمور التاسع (ب) العاشر بحسب تقسيم العبرانيّين ١١١

عظة في المزمور العاشر: **الهرطقة في مواجهة الكنيسة الجامعة** ١٢١

للغاية، مزمور لإمام الغناء داود (١٠: ١) ١٢١

عظة في المزمور الحادي عشر: **المختارون في الأرض** ١٣٤

لإمام الغناء داود، لليوم الثامن (١١: ١) ١٣٤

عظة في المزمور الثاني عشر: **تأوّهات الصدّيق** ١٣٨

للغاية، مزمور لداود (١٢: ١) ١٣٨

عظة في المزمور الثالث عشر: **الشتائم** ١٤١
للغاية، مزمور لداود (١٣ : ١) ١٤١
عظة في المزمور الرابع عشر: **الصدّيق الحقيقيّ** ١٤٥
مزمور لداود (١٤ : ١) ١٤٥
عظة في المزمور الخامس عشر: **نشيد القيامة** ١٤٨
كتابة لداود (١٥ : ١) ١٤٨
عظة في المزمور السادس عشر: **كنيسة الأرض** ١٥٢
صلاة لداود ١٥٢
عظة في المزمور السابع عشر: **نشيد الخلاص** ١٥٧
عظة أولى في المزمور الثامن عشر: **كلمة الله** ١٦٨
للغاية، مزمور لداود (١٨ : ١) ١٦٨
عظة ثانية في المزمور الثامن عشر ١٧٣
عظة في المزمور التاسع عشر: **المسيح في آلامِه** ١٨٦
للغاية، مزمور لإمام الغناء داود (١٩ : ١) ١٨٦
عظة في المزمور العشرين: **إنتقام الآلام** ١٨٩
للغاية، لإمام الغناء، مزمور لداود. (٢٠ : ١) ١٨٩
عظة أولى في المزمور الواحد والعشرين: **تفاصيل الآلام** ١٩٣
للغاية، لنجدة الصبح، لإمام الغناء داود (٢١ : ١) ١٩٣
عظة ثانية في المزمور الواحد والعشرين: **ألقيت في احتفالات الآلام** ٢٠٠
عظة في المزمور الثاني والعشرين: **مراعي الربّ** ٢٢١
مزمور لداود ٢٢١
عظة في المزمور الثالث والعشرين: **صعود المسيح** ٢٢٣
مزمور لداود، لغداة السبت (٢٣ : ١) ٢٢٣
عظة في المزمور الرابع والعشرين: **التوكُّل على الله** ٢٢٦
للغاية، مزمور لداود (٢٤ : ١) ٢٢٦

عظة أولى في المزمور الخامس والعشرين: **طهارة الكنيسة** ٢٣١
لداود (٢٥: ١) ٢٣١
عظة ثانية في المزمور الخامس والعشرين: **الطهارة** ٢٣٤
عظة أولى في المزمور السادس والعشرين: **التوكّل على الله** ٢٤٩
لداود، قبل أن يُمسَح (٢٦: ١) ٢٤٩
عظة ثانية في المزمور السادس والعشرين: **التوكُّل على الله** ٢٥٣
عظة في المزمور السابع والعشرين: **المسيح في قيامتِه** ٢٧٤
مزمور لداود ٢٧٤
عظة في المزمور الثامن والعشرين: **كنيسة الله وكرازة الإنجيل** ٢٧٧
مزمور لداود، لدى إنجاز الخباء (٢٨: ١) ٢٧٧
عظة أولى في المزمور التاسع والعشرين: **الكنيسة أو الهيكل المكرّس لله** ٢٨١
للغاية، مزمور نشيد تدشين مكانٍ مقدّس، لداود (٢٩: ١) ٢٨١
عظة ثانية في المزمور التاسع والعشرين: **مجد المسيحيّ بعد هذه الحياة** ٢٨٤
عظة أولى في المزمور الثلاثين: **الصدّيق المُضطَهَد** ٣٠٣
للغاية، مزمور لداود في جزعِه (٣٠: ١) ٣٠٣
عظة ثانية في المزمور الثلاثين: **القسم الأوّل: مِحَن المسيح ورجاؤُه** ٣١٠
عظة ثانية في المزمور الثلاثين: **القسم الثاني: ردًّا على الدوناتيّين** .. ٣٢٧
عظة ثانية في المزمور الثلاثين: **القسم الثالث: رجاء الصدّيق** ٣٤٢
عظة أولى في المزمور الواحد والثلاثين: **الصدّيق الحقيقيّ** ٣٥٦
عظة ثانية في المزمور الحادي والثلاثين: **عظة في الشعب - الإيمان والأعمال** ٣٥٩
عظة أولى في المزمور الثاني والثلاثين: **توكّل البارّ** ٣٩١
عظة ثانية في المزمور الثاني والثلاثين: **القسم الأوّل: التوكّل على الله** ٣٩٥

عظة ثالثة في المزمور الثاني والثلاثين: **القسم الثاني: مخافة الله ومحبّته** ٤١١
عظة أولى في المزمور الثالث والثلاثين: **الإفخارستيّا** ٤٣٦
عظة ثانية في المزمور الثالث والثلاثين: **الاستعدادات للإفخارستيّا** . ٤٥٠
عظة أولى في المزمور الرابع والثلاثين: **التوكّل على الله** ٤٧٧
عظة ثانية في المزمور الرابع والثلاثين: **القسم الثاني من المزمور** ... ٤٩٦
عظة في المزمور الخامس والثلاثين: **النفاق** ٥١٣
عظة أولى في المزمور السادس والثلاثين - ألقيت هذه العظة والعظتان اللتان تليانِها في قرطاجة: **الدينونة** ٥٣٥
عظة ثانية في المزمور السادس والثلاثين: **قوّة الصدّيق** ٥٥١
عظة ثالثة في المزمور السادس والثلاثين: **أيضًا، قوّة الصدّيق** ٥٨٣

المراجع ٦٠٥
المراجع العربيّة ٦٠٥
المراجع الأجنبيّة ٦٠٥

صدر في سلسلة «التراث الروحيّ»

١. **أ ناشيد من الشرق**، اختارها ونقلها إلى العربيّة جورج يونس.
٢. **أوغسطينُس أسقف هيبُّون - الاعترافات**، نقلها إلى العربيَّة الخورأسقف يوحنّا الحلو (✝)، قدّم لها وحقّقها ووضع فهارسها الأب جوزيف كميل جبارة.
٣. **شرح رسالة القدّيس يوحنّا الأولى للقدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
٤. **خواطر فيلسوف في الحياة الروحيّة للقدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
٥. **مجموعة الرسائل الروحيّة ليوحنّا الدلياتيّ**، الشيخ الروحانيّ، نقلها عن السريانيّة وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.
٦. **كتاب الصلوات**، **لغريغوريوس الناريكيّ**، نقله عن الفرنسيَّة الأب جورج عقل اليسوعيّ.
٧. **أفراهاط الحكيم الفارسيّ: المقالات**، نقلها إلى العربيّة وقدّم لها الخوري بولس الفغالي.
٨. **أقوال الشيوخ**، **حِكَم آباء البرِّيَّة**، اختارها ونقلها إلى العربيّة الأب كميل حشيمه اليسوعيّ.
٩. **ثيودورُس أسقف المصِّيصة: العظات التعليميّة**، نقلها إلى العربيّة وقدّم لها الخوري بولس الفغالي.
١٠. **الرياضة الروحيَّة أو الحاشية في تدبير رياضة المتروّضين للمطران جرمانوس فرحات**، حقّقها وقدَّم لها الأَب سليم دكّاش اليسوعيّ.
١١. **مجموعة الميامر الروحيَّة ليوحنّا الدلياتيّ**، **الشيخ الروحانيّ**، نقلها عن السريانيَّة وقدَّم لها الأب سليم دكَّاش اليسوعيّ.
١٢. **مدينة الله للقدّيس أوْغُسطينُس، المجلَّد الأوَّل (الكتب ١-١٠)**، نقله عن الفرنسيَّة الخورأسقف يوحنَّا الحلو.

١٣ . **مدينة الله للقدّيس أَوْغُسطينُس، المجلَّد الثاني (الكتب ١١-١٧)**، نقله عن الفرنسيَّة الخورأسقف يوحنَّا الحلو.

١٤ . **مدينة الله للقدّيس أَوْغُسطينُس، المجلَّد الثالث (الكتب ١٨-٢٢)**، نقله عن الفرنسيَّة الخورأسقف يوحنَّا الحلو.

١٥ . **ميتوديوس الأولمبيّ: الوليمة**، نقله عن الفرنسيَّة الأب صبحي حموي اليسوعيّ.

١٦ . **القدّيس أَوْغُسطينُس: محاورة الذات**، نقله عن اللاتينيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٧ . **أَرِسْتيدُس الفيلسوف الأَثينائيّ: الدفاع (بحسب رواية بَرْلَعام ويوآصاف)**، نقله إلى العربيّة وقدَّم له وعلَّق عليه ووضَعَ فهارسه الأب جوزيف كميل جبارة.

١٨ . **القدّيس أَوْغسطينُس: تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحيّ - في الحياة السعيدة - في الكذب**، نقله إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

١٩ . **رسائل إقليمس الرّومانيّ - إغناطيوس الأَنطاكيّ - بوليكاربُس السَّميرنيّ**، نقلها إلى العربيَّة سعد الله سميح جحا.

٢٠ . **رسائل هيرونيمُس، الجزء الأوّل (١-٦٧)**، أعدّها وقدّم لها ووضع حواشيها سعد الله سميح جحا.

٢١ . **رسائل هيرونيمُس، الجزء الثاني (٦٨-١٥٠)**، أعدّها وقدّم لها ووضع حواشيها سعد الله سميح جحا.

٢٢ . **هيرونيمُس، مشاهير الرجال**، نقله إلى العربيّة وقدَّم له وعلّق عليه ووضع فهرسه الأب جوزيف كميل جبارة.

٢٣ . **الرَّسائل المتبادلة بين القدِّيسَيْن هيرونيمُس وأَوْغسطينُس**، نقلها إلى العربيّة سعد الله سميح جحا.

٢٤ . **المطران جرمانُس فرحات، تعريبُه مزمور «إرحَمْني يا الله . . .» لإيرونيمُس سافونارولا الدّومينيكيّ**، حقَّقه وقدّم له الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.

٢٥ . **عظات في المزامير للقدّيس أوْغسطينُس، الجزء الأوّل، المزامير (١-٣٦)**، نقلَها إلى العربيّة وضبط حواشيها سعد الله سميح جحا.